

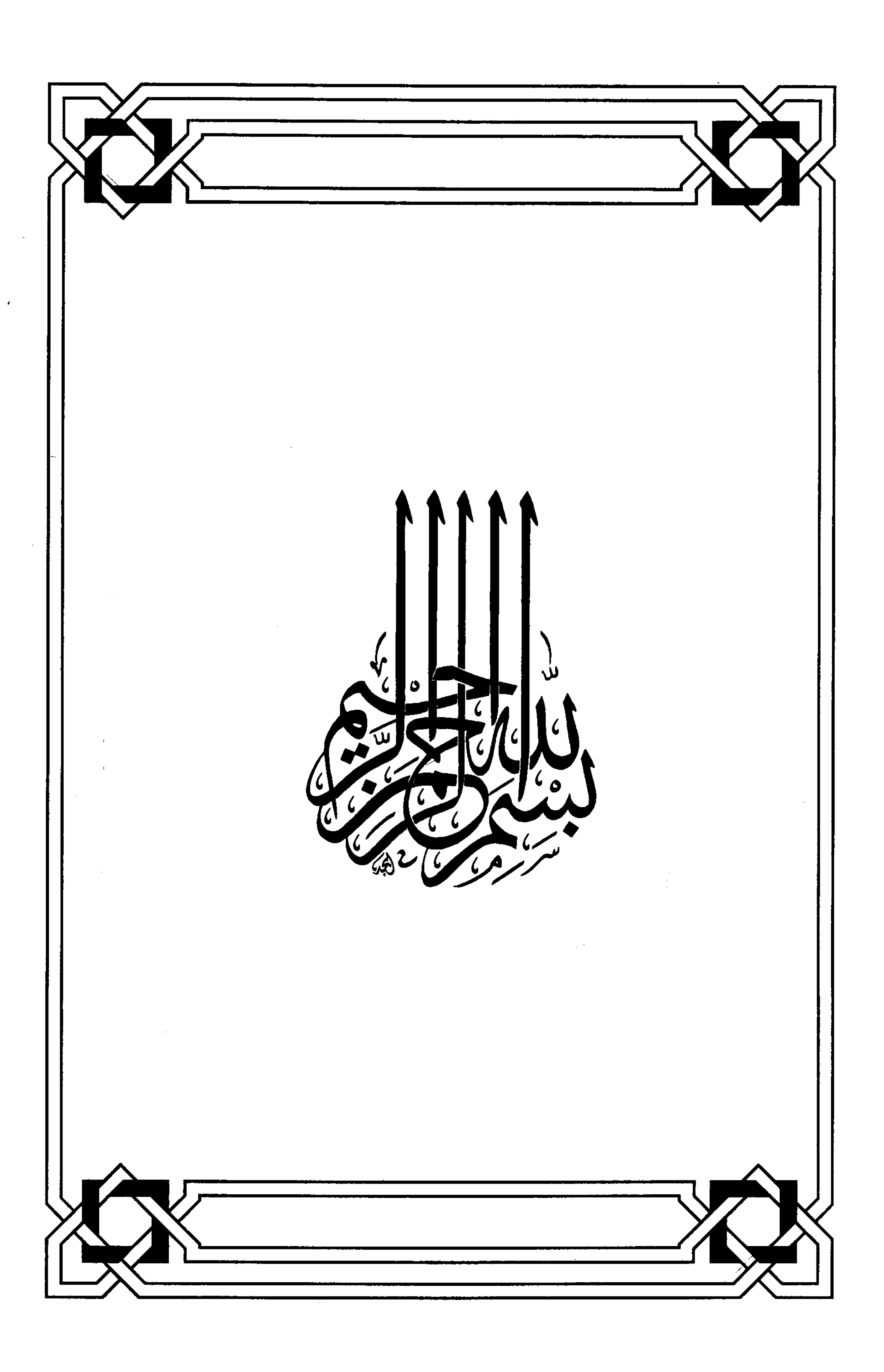
على منهج التنزيل والصحيح المسنون

تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصلين العظيمين
- الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة -
على فهم الصحابة والتابعين

تفسير منهجي فقهي شامل معاصر

الجزء الثامن

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون حموش


بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المأمون

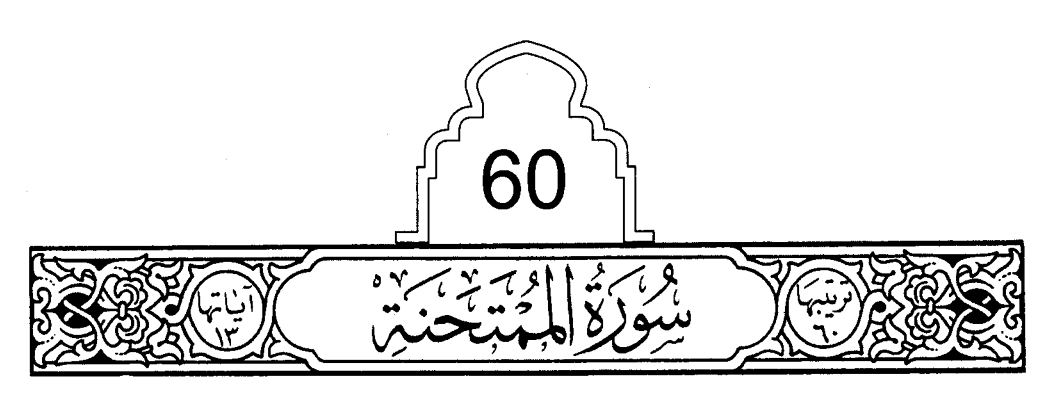
على منهج التنزيل والصحيح المسنون

الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

موافقة وزارة الإعلام
رقم: 91092
ورقم: 91451
تاريخ: 16/ 7/ 2006 م
دمشق - سورية

يطلب من المؤلف
دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي
الدكتور أحمد راتب حموش



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (13).

قال القرطبي : (الممتحِنة ـ بكسر الحاء ـ أي المختبرة ، أضيف الفعل إليها مجازاً ، كما سُمِّيت سورة «براءة» المبعثرة والفاضحة ، لما كشفت عن عيوب المنافقين. ومن قال في هذه السورة: الممتحَنة ـ بفتح الحاء ـ فإنه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها ، وهي أمُّ كُلْثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط ، قال الله تعالى: ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ الآية. وهي امرأة عبد الرحمن بن عَوْف ، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن).

موضوع السورة

منهج الولاء والبراء ، والتفريق بين المسالمين والأعداء

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قصة حاطب بن أبي بلتعة ورسالته إلى المشركين ينذرهم الفتح القادم.

2 ـ قواعد منهج الولاء والبراء الذي هو جزء من منهاج الإيمان عند المسلمين.

3 ـ ذِكْرُ الله تعالى ـ إبراهيم عليه السلام ـ المثل الأعلى للمؤمنين في الولاء للمسلمين والبراء من الكافرين.

4 ـ التفريق بين المحاربين من الأعداء والمسالمين ، والنهي عن موالاة المقاتلين منهم والأمر بالإقساط إلى المقسطين.

5 ـ الأمْرُ باختبار المؤمنات المهاجرات ، والترغيب بنكاحهن والتأكيد على دفع مهورهن.

6 ـ الأمر بتعويض الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ، والحث على لزوم التقوى.

7 ـ مبايعة النبي ﷺ النساء على الإسلام ، وذكر بنود البيعة التي بقيت عبر الزمان.

8 ـ تجديدُ النهي عن موالاة الكافرين ، وتأكيد قواعد الولاء والبراء عند المؤمنين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 3. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)﴾.

في هذه الآيات: ذكر قصة حاطب بن أبي بلتعة وهو رجل من المهاجرين شهد بدراً، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان، فلما غدرت قريش ونقضت العهد وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتجهز عامداً فتح مكة، حدث أن أرسل حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش ينذرها المسلمين وجيش الفتح القادم، ـ يريد بذلك أن يتخذ عندهم يداً ـ وحمّلَهُ امرأة عجوزاً لتوصله إلى مكة، إلا أن الوحي الكريم تدخل في اللحظة المناسبة وأفسد الإنذار، وبيّنَ قواعد منهج الولاء والبراء الذي يجب أن يكون عليه الأخيار.

أخرج البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: [بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ فإنَّ بها ظعينةً معها كتاب فخذوه منها. قال: فانطلقنا تَعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة. قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لَتُخْرِجِنَّ الكتابَ أو لَنُلْقِيَنَّ الثياب. قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: يا حاطِبُ ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ، إني كنتُ امرأً مُلْصَقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً ولم أكُنْ من أنْفُسِها وكان من معك من المهاجرين

من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالَهم ، فأحبَبْتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق (وفي رواية: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين دعني أضرب عنقه). فقال: إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطّلع على من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فأنزل الله السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾][1].

فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾. أي: من المشركين والكفار الذين يحاربون الله ورسوله ويصدون عن الدين الحق ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أخلاء وأصدقاء وأنصاراً. والآية فيها تهديد ووعيد لمن يضعف أمام إقامة منهج الولاء والبراء.

وقوله: ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾. قال القرطبي: (يعني بالظاهر ، لأن قلب حاطب كان سليماً ، بدليل أن النبي ﷺ قال لهم: «أما صاحبكم فقد صدق» وهذا نصٌّ في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده). وعن الزجاج: (﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم).

وقوله: ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾. أي: كيف توادوهم أو تتولوهم وهذا حالهم لا يخفى عليكم من محاربة ما جاءكم من الحق.

وقوله: ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾. استئناف يبيّن بعض النعوت والصفات التي كفر بها طغاة مكة ، وهو إخراجهم الرسول والمؤمنين من ديارهم. قال ابن عباس: (﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: وكان حاطب ممن أخرج مع النبي ﷺ). وقيل: بل هو حال من ﴿ كَفَرُواْ﴾. وكلا التأويلين منسجم مع السياق.

وقوله: ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾. تعليل لـ ﴿يُخْرِجُونَ﴾. والتقدير: إنما يخرجونكم مع رسولكم من مكة بسبب إيمانكم بالله وحده ، وإفراده تعالى بالتكبير والتعظيم.

وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾. قال ابن كثير: (أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء ، إن كنتُم خرجتُم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3983) ـ كتاب المغازي ، باب فضل من شهد بدراً. وكذلك (4274) ـ في باب غزوة الفتح ، و(3007) ـ كتاب الجهاد. ورواه مسلم بنحوه (2494) ، وأبو داود (2650) ، والترمذي (3305) ، وأحمد (1/ 79).

فلا تُوالوا أعدائي وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من ديارِكم وأموالِكم حَنَقاً عليكم ، وسُخْطاً لدينكم).

وقوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ . قال النسفي: (المعنى: أي طائل لكم في إسراركم ، وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي وأنا مطلع رسولي على ما تسرون).

وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ . أي: ومن يفعل ذلك الإسرار إلى الكفار أو المكاتبة لإطلاعهم علىٰ أسرار المسلمين فقد أخطأ طريق الحق والصواب ، وجار عن قصد الطريق.

وفي التنزيل نحو ذلك من آيات الولاء والبراء:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 57].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 144].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك:

قال عبد الله بن الإمام أحمد: [حدثنا أبي حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن سماك بن حرب عن عياض الأشعري عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتباً نصرانياً. قال: مالك؟ قاتلك الله. أما سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآية. ألا اتخذت حنيفياً؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه. قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزّهم إذ أذلّهم الله ، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله].

ورواه البيهقي ولفظه: [لا تؤمنوهم وقد خونهم الله ، ولا تقربوهم وقد أبعدهم الله ، ولا تُعِزُّوهم وقد أذلهم الله][1].

وقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ . أي: يلقوكم ويظفروا بكم ويتمكنوا منكم. وفي لغة

---

(1) حديث حسن. أخرجه البيهقي (10/ 127) ، وحسنه الألباني في «الإرواء» (8/ 256).

العرب: ثقِف فلان فلاناً: أي صادفه ، فهو من المثاقفة.

وقوله: ﴿ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾ . أي يكونوا لكم حرباً. ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ . أي بالضرب والقتل وأنواع الأذى. ﴿ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ أي بالشتم والسبّ وفاحش القول.

وقوله: ﴿ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ . أي: وتمنوا لو ترتدون عن دينكم ، فهم يريدون أن يلحق بكم مضار الدنيا والدين من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفاراً بمحمد وهذا القرآن. وهذا تهييج لكم على عداوتهم. قال النسفي: (وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم وأولها ، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم لأنكم بذّالون لها دونه ، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أهم شيء عند صاحبه).

وقوله: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ . قال القرطبي: (لما اعتذر حاطب بأن له أولاداً وأرحاماً فيما بينهم ، بيَّن الربّ عز وجل أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئاً يوم القيامة إنْ عُصِي من أجل ذلك).

وقوله: ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ . أي يحكم بينكم ويقضي لكل بما يستحقه يوم القيامة ، فيدخل المؤمنين الجنة ويدخل الكافرين النار ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

4 ـ 6. قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله تعالى المثل الأعلى للمؤمنين في الولاء للمسلمين والبراء من الكافرين ، إنه إبراهيم عليه السلام ومن كان معه على الحق المبين.

أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن ابن عباس رضي الله عنهما: [في قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ نزل في مكاتبة حاطب بن أبي بلتعة ومن معه إلى كفار قريش

يحذرونهم. وقوله: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه فيستغفروا للمشركين. وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولون: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم][1].

فقوله: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾. تنبيه الله تعالى المؤمنين إلى التأسي بسيرة إبراهيم في البراء من الكفار. أي: فاقتدوا به معشر المؤمنين وائتموا بمنهاجه. قال ابن زيد: (﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ هم الأنبياء). وقيل: أصحاب إبراهيم من المؤمنين، وهو الأنسب للسياق.

فقوله: ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾. أي: الكفار. ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. أي: من الأصنام والطواغيت.

وقوله: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾. أي بدينكم وطريقكم. ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾. قال ابن كثير: (يعني: وقد شُرِعت العداوةُ والبغضاء من الآنِ بيننا وبينكم، ما دمتُم على كُفركم، فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغِضُكُم).

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾. أي: حتى تفردوا الله تعالى بالعبادة والتعظيم، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد والطواغيت.

وقوله: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾. قال ابن عباس: (نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه فيستغفروا للمشركين). والمعنى: لكم في إبراهيم والمؤمنين معه أسوة صالحة للتأسي بها، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

وفي التنزيل نحو ذلك، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 113 ـ 114].

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: [لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ، جاءه رسولُ الله ﷺ، فوجد عنده أبا جَهْلٍ وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسولُ الله ﷺ: يا عَمّ قُلْ لا إله إلا الله، كلمة أشهدُ لك بها عند الله. فقال

---

(1) حديث صحيح. رواه الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الممتحنة.

أبو جهل وعبدُ الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغبُ عن مِلّةِ عبد المطلب؟ فلو يزل رسول الله ﷺ يَعْرِضها عليه ويُعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: هو على مِلّةِ عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك. فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾][1].

وقوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾. هو من قيل إبراهيم والمؤمنين معه. أي: توكلنا عليك ربنا وسلمنا أمورنا لك، ورجعنا طائعين مخبتين تائبين راجين عفوك ومغفرتك، فإن مصيرنا إليك، ومرجعنا يوم نبعث من قبورنا إلى موقف العَرْض بين يديك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. قال ابن عباس: (لا تسلطهم علينا فيفتنونا). وقال مجاهد: (لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا). وقال قتادة: (يقول: لا تُظْهِرهم علينا فَيَفْتَتِنُوا بذلك، يرون أنهم ظهروا علينا لحقّ هم عليه).

وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾. أي: واستر علينا ربنا ذنوبنا بعفوك وكرمك.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. أي: إنك أنت ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامك من أعدائك، والذي لا يُضام من لاذَ بجنابك. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيرك شؤون خلقك، وفي أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾. تأكيد لما تقدم، وتهييج إلى التأسي الصادق بملة إبراهيم، ملة التوحيد والتعظيم، والولاء والبراء، عليه وعلى نبينا وسائر المرسلين أفضل الصلاة والتسليم، لمن كان يرجو لقاء الله وثوابه والنجاة من عذابه يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾. قال ابن عباس: (﴿ٱلْغَنِيُّ﴾: الذي قد كَمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا لَهُ، ليس له كُفء، وليس كمثله شيءٌ، سبحان الله الواحد القهار). وقال ابن كثير: (﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: المُستحمِدُ إلى خَلْقه، أي هو المحمود في جميع أفعاله وأقواله، لا إله غيرُه، ولا ربَّ سواه). والمعنى: إنه من يعرض عن أمر الله ويدبر مستكبراً، ويوالي أعداء الله ويلقي إليهم بالمودة، فإن الله غني

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 40) ـ كتاب الإيمان. باب: أول الإيمان قول لا إله إلا الله.

عن إيمانه وطاعته كما هوغني عن جميع خلقه ، وهو ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي المحمود عند أهل المعرفة بأياديه وآلائه عندهم.

7 ـ 9. **قوله تعالى:** ﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

في هذه الآيات: التفريقُ بين المحاربين من الأعداء والمسالمين ، والنهي عن موالاة المقاتلين منهم والأمر بالإقساط إلى المقسطين.

فقوله: ﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾. قال ابن زيد: (هؤلاء المشركون ، قد فعل ، قد أدخلهم في السلم وجعل بينهم مودّة حين كان الإسلام حين الفتح). والمعنى: إنه تعالى قد يغيّر الأحوال ويقلب القلوب فيؤمن هؤلاء المشركون من قريش الذين أُمِرْتُم بمعاداتهم ومفاصلتهم على الدين الحق ، ومن ثَمَّ يجعل الله بينكم وبينهم مَحَبَّةً بعد البِغضَة ، ومودَّة بعد النَّفرة ، وأُلْفَةً بعد الفرقة ، ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ قال قتادة: (على ذلك). ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي يغفر الذنوب الكثيرة ، ويعفو عما سلف أيام الجاهلية ، إنه تعالى رحيم بعباده التائبين وبجميع خلقه.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: 103].

2 ـ وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 62 ـ 63].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح من حديث أبي سعيد

ـ في قسمة أموال هوازن وقد وجد الأنصار في أنفسهم ـ فقال لهم رسول الله ﷺ: [يا معشر الأنصار! ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [أَحْبِبْ حبيبَكَ هَوْناً ما فعسى أن يكون بغيضكَ يوماً ما. وأَبغِض بغيضك هوناً ما فعَسى أن يكون حبيبكَ يوماً ما][2].

وقوله: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾. أي: لا ينهاكم الله ـ معشر المؤمنين ـ عن أن تبروا الذين لم يقاتلوكم من الكفرة كالنساء والضعفة فتحسنوا لهم ، وتعدلوا وتقضوا إليهم بالقسطِ ولا تظلموهم. قال النسفي: (وإذا نهى عن الظلم في حق المشرك فكيف في حق المسلم).

أخرج البخاري ومسلم عن أسماء بنتِ أبي بكر رضي الله عنهما قلْتُ: [قَدِمت عليَّ أمي وهي مشركةٌ في عهد رسول الله ﷺ فاستفْتَيْتُ رسولَ الله ﷺ ، قلتُ: إنَّ أمي قَدِمَتْ وهِيَ راغِبَةٌ ، أفأصِلُ أُمّي؟ قال: نَعَمْ. صِلي أُمّكِ][3].

ورواه البخاري في «الأدب المفرد» عنها بلفظ: [أتتني أمي راغبة ، في عهد النبي ﷺ ، فسألتُ النبي ﷺ: أفأصلها؟ قال: نعم. قال ابن عيينة: فأنزل الله عز وجل فيها: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾][4].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم ، فيبرون من برهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم).

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾. قال مجاهد: (كفار أهل مكة). والمقصود: إنما ينهاكم الله ـ معشر

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 76 ، 77) ، (3/ 89) ، وانظر كتابي: السيرة النبوية ـ على منهج الوحيين ـ (1412) لمزيد من التفصيل.

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1997) ، وابن حبان والبيهقي. وانظر صحيح الجامع (176).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2620) ـ (3183) ، ومسلم (1003) ، وأحمد (6/ 347) و(6/ 355) ، وأخرجه أبو داود (1668) ، وابن حبان (452).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (25). وانظر: «صحيح الأدب المفرد» ـ حديث رقم ـ (19) ـ باب برّ الوالد المشرك.

المؤمنين ـ عن موالاة الذين جاهدوكم على الدين وناصبوكم العداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم أن تولوهم ، فتكونوا لهم أولياء ونصراء.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. أي: ومن يتخذهم أولياء وأنصاراً وأحباباً ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

10 ـ 11. **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)﴾.

في هذه الآيات: الأَمْرُ باختبار المؤمنات المهاجرات وعدم إرجاعهن إلى الكفار إن صحّ إيمانهن ، والترغيب في نكاحهن بعد دفع مهورهن والإحسان إليهن ، والأمر بتعويض الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا وبتقوىٰ الله العليم الحكيم.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾. استثناء لِما كان قد وقع في عقد صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وكفار قريش من قولهم: [على أن لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددته إلينا][1].

فنزل الوحي في شأن المسلمات المهاجرات يأمر بعدم ردّهم ـ أصلاً ـ إلى المشركين. فتمسك المسلمون بظاهر نصّ العقد: (على أن لا يأتيك منا رجلٌ) ، والذي يُفْهم منه أن النساء غير مشمولين في هذا العقد.

يروي البخاري في صحيحه عن المسور قال: [. . . ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله

---

(1) وفي رواية: [على أنه لا يأتيك منا أحدٌ ـ وإن كان على دينك إلا رددته إلينا]. والحديث رواه البخاري (2731) ، (2732) ـ كتاب الشروط ، ورواه مسلم (1784) في السير ، ورواه أحمد في المسند (4/ 325) من حديث المسور بن مخرمة.

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ حتى بلغ ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فطلق عمرُ يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاويةُ بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية][1].

ويبدو أن سبب نزول هذه الآيات قدوم أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة فيمن هاجر، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم، فأبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لِما نزلَ من القرآن فيهن، فكان يختبرهن فإن كان الإسلام أخرجهن استبقاهن ودفع مهورهن لأزواجهن، في حين كان لا يدفع ذلك قبل الصلح ونزول هذه الآيات.

فقد أخرج البخاري وأحمد عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: [لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ أنه لا يأتيك منا أحدٌ وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخَليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فردَّ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا ردّه في تلك المدّة وإن كان مسلماً. وجاء المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما نزل فيهن: ﴿ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾][2].

فإلى فهم الآيات كما جاء في التفاسير:

يروي ابن جرير بإسناده إلى أبي نصر الأسديّ، قال: (سُئِل ابن عباس: كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء؟ قال: كان يمتحنهنّ بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله). وفي رواية: قال ابن عباس: (كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله).

وعن مجاهد: (قوله: ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ قال: سلوهن ما جاء بهن؟ فإن كان جاء بهن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2731)، (2732) ـ كتاب الشروط.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4180)، (4181) ـ كتاب المغازي. وكذلك (2711)، (2712) ـ كتاب الشروط.

غضب على أزواجهن ، أو سخطة ، أو غيره ، ولم يُؤمِنَّ ، فارجعوهنّ إلى أزواجهنّ).

وقال قتادة: (كانت محنتهنّ أن يستحلفن بالله ما أخرجكنّ النشوز ، وما أخرجكن إلا حبّ الإسلام وأهله ، وحِرْصٌ عليه ، فإذا قُلْنَ ذلك قُبِلَ ذلك منهن).

وقال عكرمة: (يقال لها: ما جاء بك إلا حبّ الله ، ولا جاء بك عشق رجل منا ، ولا فراراً من زوجك ، فذلك قوله: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾).

وقال ابن زيد: (كانت المرأة من المشركين إذا غضبت على زوجها ، وكان بينه وبينها كلام ، قالت: والله لأهاجرنّ إلى محمد ﷺ وأصحابه ، فقال الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ إن كان الغضب أتى بها فردّوها ، وإن كان الإسلام أتى بها فلا تردّوها).

قال ابن اسحاق: (فحدثني الزُّهري ، عن عُروة بن الزبير ، قال: دخلتُ عليه وهو يكتب كتاباً إلى ابن أبي هنيدة ، صاحب الوليد بن عبد الملك ، وكتب إليه يسأله عن قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال: فكتب إليه عروة بن الزُّبير: إن رسول الله ﷺ كان صالح قُريشاً يوم الحُديبية على أن يردّ عليهم من جاء بغير إذن وليّه ، فلما هاجر النساء إلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام ، أبى الله أن يُرْدَدْنَ إلى المشركين إذا هنّ امتُحنَ بمحنة الإسلام ، فعرفوا أنهنّ إنما جِئْنَ رغبة في الإسلام ، وأمَرَ بردّ صَدُقاتهن إليهم إن احْتَبَسْنَ عنهم ، إن هم ردّوا على المسلمين صداقَ من حُبِسوا عنهم من نسائهم ، ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم. فأمسك رسول الله ﷺ النساء وردَّ الرجال ، وسأل الذي أمره الله به أن يسأل من صدُقات نساء من حُبِسوا منهنّ ، وأن يردوا عليهم مثل الذي يردّون عليهم ، إن هم فعلوا ، ولولا الذي حكم الله به من هذا الحكم لردّ رسول الله ﷺ النساء كما ردّ الرجال ، ولولا الهُدْنة والعَهْد الذي كان بينه وبين قُريش يوم الحديبية لأمسك النساء ، ولم يَرْدُدْ لهنّ صداقاً ، وكذلك كان يصْنَع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد)[1].

وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾. أي: ادفعوا إلى أزواج المهاجرات منَ المشركين ما غرموه عليهن من الأصدِقة. قاله ابن عباس وقتادة. قلت: وهذا من الوفاء بالعهد ، لا يُجمع على الرجل خسران الزوجة والمال.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. أي: إذا آتيتموهن

---

(1) انظر: سيرة ابن هشام (3/ 326) من مرسل عروة. وانظر كتابي: السيرة النبوية (2/ 1039).

أصدِقتهن فانكحوهنّ. والمقصود: إقامة النكاح بشروطه الشرعية، من انقضاء العِدّة والولي والشاهِدَيْن ودفع المهور كما هو معلوم في شأن النكاح.

وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾. تحريم استمرار المؤمنين على نكاح المشركات. قال ابن هشام: (واحِدة العصم: عِصْمة، وهي الحبل والسبب). وأما الكوافر فجمع كافرة. قال مجاهد: (أصحاب محمد أُمروا بطلاق نسائهم كوافر بمكة، قعدن مع الكفار). وقال قتادة: (مشركات العرب اللاتي يأبين الإسلام أمِرَ أن يُخَلّى سبيلُهن). وقال ابن زيد: (إذا كفرت المرأة فلا تمسكوها، خلوها، وقعت الفرقة بينها وبين زوجها حين كفرت).

وفي صحيح البخاري من حديث المسور: [﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمرُ يومئذ امرأتين كانتا له على الشرك][1].

وقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾. قال ابن كثير: (أي: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يَذْهَبْنَ إلى الكفّار، إن ذَهَبْنَ، وليطالِبُوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجَرْن إلى المسلمين).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾. أي: هذا الذي ذُكر في هذه الآية من أمر الصلح واستثناء النساء بالشروط السابقة إنما هو حكم الله يحكم به بين خلقه. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وقدره وجميع أقواله وأفعاله.

وقوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾. قال الزهري: (يقول: إن فات أحداً منكم أهلهُ إلى الكفار، ولم تأتكم امرأة تأخذون بها مثل الذي يأخذون منكم، فعوضوهم من فيءٍ إن أصبتموه). ذكره ابن إسحاق.

وعند ابن جرير بإسناده إلى ابن عباس قال: (يعني: إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمر له رسول الله ﷺ أن يُعطى من الغنيمة مثل ما أنفق). قال مجاهد: (مهر مثلها يُدفع إلى زوجها).

والمقصود: لو ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين فامتنعوا من دفع ما أنفق ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ ـ يعني فاقتصصتم ـ فالقصاص يكون بإعطاء المؤمن الذي

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2731)، (2732) ـ كتاب الشروط، وقد مضى بتمامه.

ذهبت زوجته من العقب الذي بأيديكم ، وهو ما كان من صَداق نساء الكفار اللواتي آمنّ والذي أَمَرَ الله برده إلى أزواجهم المشركين. فإن لم يتيسر ذلك فمن الغنائم التي تؤخذ من أيدي الكفار.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾. أي: واحذروا ـ أيها المؤمنون بالله ـ أن تتعدوا ما أمرتم به ، فهذا مِن امتحان الصدق في الإيمان.

12 . **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

في هذه الآية: مبايعة النبي ﷺ على الإسلام ، وذِكْرُ بنود هذه البيعة التي خَلَّدها الله عبر الزمان.

أخرج البخاري في صحيحه عن عروة: [أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال عروة: قالت عائشة: فمن أقرَّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: (قد بايعتك) كلاماً ، (وفي رواية: يكلمها به) ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط ، ما يبايعهن إلا بقوله: (قد بايعتك على ذلك)][1].

وفي لفظ الترمذي ، قالت عائشة: [ما كان رسول الله ﷺ يمتحن إلا بالآية التي قال الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ الآية. قال معمر: فأخبرني ابن طاووس عن أبيه قال: ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها].

وفي جامع الترمذي وموطأ مالك ومسند أحمد بسند صحيح عن أميمة بنت رُقَيقة قالت: [أتيتُ رسولَ الله ﷺ في نِساءٍ لِنُبايِعَه ، فأخذ علينا ما في القرآن: ألا نُشْرِكَ بالله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2713) ـ كتاب الشروط. وكذلك (4891) نحوه. وانظر صحيح سنن الترمذي (2634).

شيئاً . . .الآية ، وقال: فيما استطَعْتُنَّ وأَطَقْتُنَّ ، قلنا: الله ورسوله أرحمُ بنا مِن أنفُسِنا ، قلنا: يا رسول الله! ألا تُصافِحنا؟ قال: إني لا أصافِحُ النساءَ ، إنما قولي لامرأة واحدةٍ كقولي لمئة امرأة][1] .

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ـ يشمل التحذير من الشرك ومداخله.

فقد أخرج البخاري عن أم عطية قالت: [بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ، ونهانا عن النياحة][2] .

وفي رواية: قالت أم عطية: [أخذ علينا رسولُ الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح ، فما وَفَت منا امرأة غيرُ خَمْسِ نِسوة: أمُّ سُلَيم ، وأم العلاء ، وابنة أبي سَبْرَة امرأة مُعاذ ، وامرأتان ـ أو: ابنة أبي سبرة ، وامرأة معاذ ، وامرأة أخرى ـ وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهَدُ النساء بهذه البيعة يوم العيد].

وكذلك أخرج الإمام أحمد بسند قوي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: [جاءت أميمةُ بنتُ رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايِعُه على الإسلام ، فقال: أبايِعُك على أن لا تشركي بالله شيئاً ، ولا تَسرقي ولا تَزْني ولا تَقْتُلي ولَدَكِ ، ولا تأتي بِبُهتان تفترينَه بين يديك ورجليك ، ولا تنوحي ، ولا تبرَّجي تبرُّجَ الجاهلية الأولى][3] .

وقوله: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾. قال ابن كثير: (أي: أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصِّراً في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جَرَت به عادةُ أمثالها ، وإن كان بِغير عِلْمِهِ ، عَمَلاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل شحيحٌ لا يُعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني ، فهل عليَّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من مالِه بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك» أخرجاه في الصحيحين).

وقوله: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾. تحريم لما انتشر من الفجور في الجاهلية. كقوله تعالى:

---

(1) إسناده صحيح. أخرجه الترمذي (1597) ، والنسائي (4101) ، و(358) ، وفي «التفسير» (609) ، ورواه أحمد (6/ 257) ، ومالك (2/ ص 982) وإسناده على شرطهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4892) ، ومسلم (936) ح(33) ، والنسائي في «التفسير» (607) ، وانظر للرواية الأخرى (1306) ـ من صحيح الإمام البخاري.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 196) ، وإسناده قوي ، وله شواهد.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 32]. ثم إن الزنى ينافي عقد الإيمان ، بل لا يستقر الإيمان ساعة وقوع الفاحشة في القلب وإنما يخرج منه.

أخرج أبو داود والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظُّلة ، فإذا أقلع رجعَ إليه][1].

وفي لفظ: [فإذا انقلع منها رجع إليه الإيمان].

وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عائشة قالت: [جاءت فاطمةُ بنتُ عُتبة تُبايع النبي ﷺ فأخذ عليها: ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ . . . ﴾ . الآية ، قال: فوضعت يدَها على رأسِها حياءً ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة: أَقِرِّي أيتها المرأة ، فو الله ما بايعنا إلا على هذا. قالت: فنعم إذن ، فبايعها بالآية][2].

وقوله: ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ . أي لا يئدن المَوْؤودات ولا يُسقطن الأجنة. ذكره القرطبي. قال ابن كثير: (﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾: وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويعم قَتْلَه وهو جَنينٌ ، كما قد يفعلُه بعض الجهلة من النساء ، تطرحُ نفسها لئلا تحبل إمَّا لِغَرض فاسدٍ أو ما أشبهه).

وقوله: ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم). قال النسفي: (كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدي منك ، كنّى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً ، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين).

وقوله: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ . قال البخاري: قال ابن عباس: (إنما هو شَرْطٌ شَرَطَهُ الله للنساء). أي: ولا يخالفن أمرك إليهن مما أمرتهنّ به من معروف ، ونهيتهن عنه من منكر. قال ميمون بن مهران: (لم يجعل الله لنبيه طاعة إلا لمعروف ، والمعروف طاعة). قلت: وقد جاء النهي للنساء في السنة الصحيحة عن معاص كثيرة تخصّهن: فقد أخرج أبو داود والبيهقي بسند صحيح عن امرأة من المبايعات قالت: [كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه: وأن

---

(1) حديث صحيح. أخرجهُ أبو داود (4690) ، والحاكم (1/ 22) ، وانظر السلسلة الصحيحة (509).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/ 151) ، وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

لا نخمش وجهاً ، ولا ندعو ويلاً ، ولا نشق جيباً ، وأن لا ننشر شعراً][1] .

وفي الصحيحين من حديث أبي بردة بن أبي موسى قال: [وَجع أبو موسى وجعاً فغشي عليه ، ورأسه في حجر امرأة من أهله ، فصاحت امرأة من أهله ، فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً ، فلما أفاق قال: أنا بريءٌ ممن برئ منه رسول الله ﷺ ، فإن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة ، والحالقة ، والشاقة][2] .

والصالقة: هي التي ترفع صوتها عند الفجيعة بالموت. والحالقة: هي التي تحلق شعرها عند المصيبة ، والشاقة هي التي تشق جيبها عند ذلك.

وقد أخرج الشيخان من حديث ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي ﷺ: [ليس منا من لطمَ الخدود ، وشقّ الجيوبَ ، ودعا بدعوى الجاهلية][3] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [لَعَنَ الله الواصِلَةَ والمستوصِلَةَ ، والواشِمة والمستوشِمة][4] .

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أم سلمةَ الأنصارية قالت: [قالت امرأة من النسوة ، ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ قال: «لا تَنُحْنَ». قلت: يا رسول الله إن بني فلان ، قد أسعدوني على عمي[5] ، ولابد لي من قضائهم ، فأبى عليَّ فعاتبته مراراً ، فأذن لي في قضائهن ، فلم أنح بعد قضائهن ولا على غيره حتى الساعة ، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري][6] .

قال عبد بن حميد: أم سلمة الأنصارية هي: أسماء بنت يزيد بن السكن.

قلت: وهذه البيعة تشتمل على منهاج النجاة للعبد في الدارين ، ولذلك ورد تكرارها كثيراً من النبي ﷺ للرجال والنساء في مواضع مختلفة من السيرة العطرة. وفي ذلك أحاديث ، منها:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 59) ، ومن طريقه البيهقي (4/ 64) بسند صحيح.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 129) ، ومسلم (1/ 70) ، والنسائي (1/ 263) ، وأخرجه البيهقي (4/ 64) ، من حديث أبي بردة بن أبي موسى.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 127 ـ 128) ، ومسلم (1/ 70) ، والبيهقي (4/ 63 ـ 64).
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (5933) ـ كتاب اللباس ، باب وصل الشعر.
(5) أي ناحوا معي عند موت عمي مواساة منهم.
(6) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2635) ، وصحيح سنن ابن ماجة (1579).

الحديث الأول: ـ في شأن الرجال ـ. أخرج البخاري ومسلم وأحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت قال: [كُنَّا عند رسول الله ﷺ في مَجْلِسٍ فقال: تُبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تَسْرِقوا ، ولا تَزْنوا ، ولا تقتُلوا أولادكم ـ قرأ الآية التي أُخِذت على النساء: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ ـ فَمَنْ وفى منكم فأجرُه على الله ، ومَنْ أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله ، إن شاء غَفَر له ، وإن شاء عَذَّبه][1].

الحديث الثاني: ـ في شأن النساء ـ. أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: [شهِدْتُ الصلاةَ يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعُمر وعثمان ، فَكُلُّهم يُصَلِّيها قبل الخطبة ثم يخطبُ بعدُ ، فنزل نبيُّ الله ﷺ فكأني أنظرُ إليه حين يُجَلِّسُ الرجالَ بيده ، ثم أقبل يَشُقُّهم حتى أتى النساءَ مع بلال فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ، حتى فرغ من الآية كلها. ثم قال حين فرغ: أنتُنَّ على ذلك؟ فقالت امرأة واحدةٌ ـ لم يُجبه غيرُها ـ: نعم يا رسول الله! قال: فَتَصَدَّقنَ. قال: وبَسطَ بلالٌ ثوبَهُ فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ الفَتَخَ[2] والخواتيمَ في ثوبِ بلال][3].

وقوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال القاسمي: (أي فبايعهن على الوفاء بذلك ، وسل الله لهن مغفرة ذنوبهن ، والعفو عنها ، فإنه غفور رحيم لمن تاب منها).

13. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

في هذه الآية: تجديدُ النهي عن موالاة الكافرين ، كما ابتدأ ذلك في أول هذه السورة التي هي منهاج كامل للمؤمنين ، في قواعد الولاء للمسلمين والبراء من المشركين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (18) ، ومسلم (1709) ، والترمذي (1439) ، ورواه أحمد في المسند (5/ 314) ، وغيرهم.

(2) الفتخ: جمع فتخة ، وهي الخاتم لا فصّ له. وقيل: الفتخ: الخواتيم العظام ، أو حلق من فضة لا فصّ فيها.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4895) ، وأخرجه مسلم (884) ـ من حديث ابن عباس.

فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾. يشمل سائر الكفار من المشركين والمنافقين واليهود والنصارى ممن غضب الله عليهم.

وقوله: ﴿ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾. قال مجاهد: (المعنى يئسوا من ثواب الآخرة). قال النسفي: (لأنهم ينكرون البعث). والمقصود: كيف توالون قوماً وتتخذونهم أولياء وأخلاء وهم آيسون من ثواب الآخرة ونعيمها قد كفروا بالبعث والحساب. قال ابن زيد: (يعني اليهود). وقال الحسن: (هم اليهود والنصارى). وقيل: هم المنافقون. وقال ابن مسعود: (معناه أنهم تركوا العمل للآخرة وآثروا الدنيا).

وقوله: ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴾. فيه قولان متكاملان:

القول الأول: قد يئس الكفار من الآخرة كما يئسوا من لقاء قراباتهم الذين ماتوا لأنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور. قال ابن عباس: (يعني: من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء منهم أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم الله). وقال الحسن: (﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴾ قال: الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات). يعني من الاجتماع بهم مرة أخرى. وقال قتادة: (كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا).

القول الثاني: قد يئس الكفار الأحياء من ثواب الآخرة وكرامتها كما يئس الكفار الأموات في قبورهم من كل خير حين عاينوا مقاعدهم من النار وذاقوا عذاب البرزخ.

قال مجاهد: (﴿ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴾ قال: من ثواب الآخرة حين تبين لهم عملهم، وعاينوا النار).

واختار ابن جرير القول الثاني، وإن كان القول الأول سالك المعنى، ومن ثمَّ فالإعجاز القرآني يحتمل التأويلين معاً، والله تعالى أعلم.

تم تفسير سورة الممتحنة

بعون الله وفضله، وواسع منّه وكرمه

ظهر الأحد 20 رمضان 1426 هـ

الموافق 23/ تشرين الأول/ 2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ لا يجوز للمؤمن أن يوادّ أعداء الله خوفاً على أهله وماله.

2 ـ لعل الله قال لأهل بدر: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

3 ـ لا توالوا من إذا غلبوكم لا يرحمونكم، ونفعهم منقطع عنكم.

4 ـ على المؤمنين أن يتبرؤوا من الكفار ولو كانوا آباءهم.

5 ـ لا بأس بالإحسان إلى الكفار المسالمين، وخاصة الأرحام والأقربين.

6 ـ من يتولى الكفار فإنه منهم، والله جامع المنافقين والكافرين في جهنم.

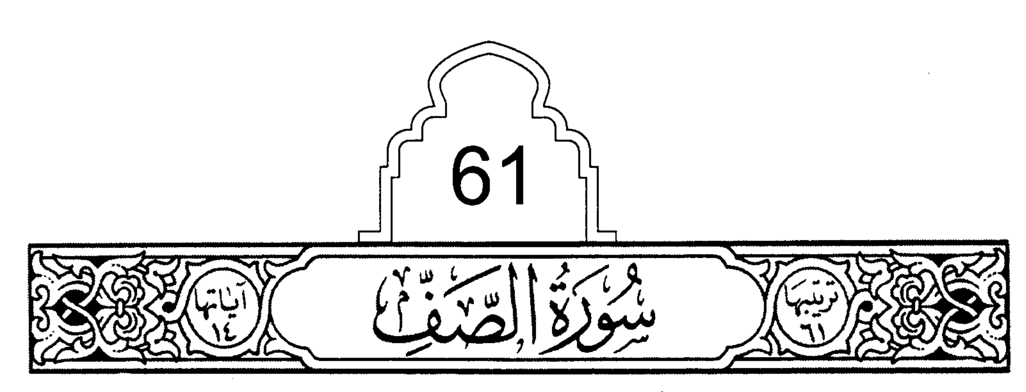
7 ـ استثناء استرجاع المهاجرات المؤمنات من شروط صلح الحديبية.

8 ـ فسخ الأنكحة بين المسلمين والمشركين، وللمسلم والمشرك استرداد المهر.

9 ـ بايع الرسول النساء على التوحيد وعدم السرقة والزنى وقتل الأولاد وألا يدخلن على أزواجهن غير أولادهم وألا يعصين في معروف، وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، إنما كان يبايعهن بالكلام.

10 ـ ليس منا من لطَمَ الخدود وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (14).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد في ذكر هذه السورة الكريمة أحاديث من السنة الصحيحة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج الدارمي والترمذي بسند صحيح عن محمد بن كثير ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن سلام قال: [قَعدنا نَفَرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أيَّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناها ، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا﴾ حتى ختمها. قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة. قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعي. قال عبد الله: فقرأها علينا ابن كثير][1]. وفي رواية: (قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة وقرأها علينا يحيى وقرأها علينا الأوزاعي وقرأها علينا محمد).

الحديث الثاني: أخرج أحمد والحاكم والبيهقي بسند على شرط الشيخين عن عبد الله بن سلام: [أَنَّ أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لو أرسلنا إلى رسول الله

(1) حديث صحيح. أخرجه الدارمي (2/ 200) ، والترمذي (3309) ، والحاكم (2/ 69). وقال الحافظ في «الفتح» (8/ 641): وقع لي سماع هذه السورة مسلسلاً ، وإسناده صحيح ، قَلَّ أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوّه.

نَسألُه عن أحبّ الأعمال إلى الله عزَّ وجل؟ فلم يذهب إليه أحدٌ منا ، وهِبْنَا أن نسألَه عن ذلك ، قال: فدعا رسول الله ﷺ أولئكَ النفَرَ رجلاً رجلاً حتى جمعهم ، ونزلت فيهم هذه السورة: ﴿سَبَّحَ﴾ ، الصفّ. قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ كُلَّها][1] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: [تذاكرنا: أيُّكم يأتي رسول الله ﷺ فيسألَهُ: أيّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ فلم يقم أحدٌ منا ، فأرسلَ رسول الله ﷺ إلينا رجلاً ، فجمعنا ، فقرأ علينا هذه السورة ، يعني سورة الصف كلها][2] .

موضوع السورة

وحدة الصف في القتال والقيام
وذم التفرق والنفاق والانهزام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ اشتراك جميع الكائنات في تسبيح الله العزيز الحكيم.

2 ـ تحذير المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون ، والتنبيه على فضل الجماعة في قتال المشركين.

3 ـ ثناء الله تعالى على منهاج موسى وعيسى عليهما السلام ، وتبشير عيسى بالمصطفى سيد الخلق وخير الأنام.

4 ـ ذمّ أهل الفرية والكذب والله لا يوفق القوم الظالمين ، الذين يحاولون إطفاء نور الله العظيم.

5 ـ أفضل أنواع التجارة: الإيمان بالله والجهاد في سبيله لإعلاء كلمته ونصر دينه.

6 ـ تشجيع المؤمنين لنصر دين الله العظيم ، وثناؤه تعالى على الحواريين الصادقين.

7 ـ تأييد الله تعالى بنصره المؤمنين ، وكتابته الغلبة للمخلصين المخبتين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 352) ، والحاكم (2/ 69 ـ 70) ، والبيهقي (9/ 160).
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 452) وإسناده صحيح ، رجاله رجال البخاري ومسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 4. **قوله تعالى**: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ۝٤﴾.

في هذه الآيات: تسبيحُ جميع الكائنات لله العزيز الحكيم، وتحذير المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون، والتنبيه على فضل الجماعة في قتال المشركين.

فقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. إخبار من الله تعالى أن جميع ما في السماوات والأرض من شيء ينزِّهُه ويمجّده ويعظمه ويقدّسه، ويُسَبِّح ويصلي له ويُوَحِّده. كقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾. أي: منيعُ الجناب قد عزّ كل شيء وغلبه. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وتدبيره وقدره وشرعه.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. إنكار بليغ على حصول الطلاق بين القول والعمل في حياة المؤمنين.

روى مسلم في صحيحه عن أبي حَرْب بنِ أبي الأسود، عن أبيه قال: [بُعِثَ أبو موسى الأشعري إلى قُرّاء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثُ مئة رَجُلٍ قد قرؤوا القُرآن، فقال: أنتم خِيارُ أهلِ البصرة وقُرَّاؤُهم، فَاتْلوهُ، ولا يَطولَنَّ عليكم الأمدُ فَتَقْسُوَ قلوبُكم كما قَسَتْ قلوبُ مَنْ كان قبلكم، وإنا كُنَّا نَقْرأُ سُورةً، كُنَّا نُشَبِّهُها في الطول والشِّدة بسورة براءةَ، فأُنْسِيتُها، غَيْرَ أني قد حَفِظْتُ مِنها: لو كان لابن آدمَ واديانِ مِنْ مالٍ لابْتَغى وادياً ثالثاً، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ، وكُنَّا نَقْرأُ سُورةً

كُنَّا نُشَبِّهُها بإحدى المُسَبِّحاتِ فَأُنْسِيتُها ، غيرَ أني قد حَفِظتُ منها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ ، فَتُكْتَبُ شهادةً في أعناقِكم ، فَتُسْألون عنها يوم القيامة][1].

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (كان ناسٌ من المؤمنين قبلَ أن يُفْرَضَ الجهادُ يقولون : لَوَدِدْنا أن الله ـ عزّ وجل ـ دَلَّنا على أحبِّ الأعمال إليه ، فنعملَ به. فأخبر الله نبيَّهُ أن أحبَّ الأعمالِ إيمانٌ به لا شكَّ فيه ، وجهادُ أهلِ معصيتِهِ الذين خالفوا الإيمان ولم يُقِرُّوا به. فلما نزل الجهادُ كَرِهَ ذلك أناسٌ من المؤمنين ، وشقَّ عليهم أمرُه ، فقال الله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾). رواه ابن جرير واختاره لمعنى الآية.

قلت : بل الآية عامة في كل عزيمة أو عِدَة أو نذر أو قول لا يفي به المؤمن بعد أن أخذه على نفسه أو عاهد الله عليه. قال تعالى : ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة : 44].

وفي الصحيحين والمسند ومعظم السنن عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : [أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافِقاً خالصاً ، ومَنْ كانَتْ فيه خَلَّةٌ مِنْهنَّ كانت فيه خَلَّةٌ مِنْ نِفاقٍ ، حتى يَدَعَها : إذا حَدَّثَ كذَبَ ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإذا خاصَمَ فَجرَ][2].

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عمر وابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أن يُعْطِيَ عَطِيَّةً ، أو يَهَبَ هِبَةً ، فَيَرْجِعَ فيها ، إلا الوالِدَ فيما يُعطي ولَدَه ، ومَثَلُ الذي يُعطي العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكُلُ ، فإذا شَبعَ قاءَ ثم عادَ في قيئِه][3].

وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾. تأكيد الإنكار ، لتناقض الأقوال مع الأعمال. قال النسفي : (واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض). وقال القرطبي : (و«مَقْتاً» نصب بالتمييز ، المعنى : كبر قولهم ما لا يفعلون مقتاً.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1050) ـ كتاب الزكاة. باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (34) ، ومسلم (58) ، وأبو داود (4688) ، والترمذي (2632) ، وأخرجه النسائي (8/ 116) ، وأحمد (2/ 189 ـ 198) ، وابن حبان (254).
(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3539) ، وابن ماجة (2377). انظر صحيح أبي داود (3023).

وقيل: هو حال. والمقت والمَقَاتة مصدران، يقال: رجل مَقيت وممقوت إذا لم يحبه الناس).

قال الزمخشري: (هذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه. قصد في «كَبُرَ» التعجب من غير لفظه. ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين. وأسند إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، ونصب «مقْتاً» على تفسيره، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص، لا شوب فيه، لفرط تمكّن المقت منه. واختير لفظ «المقت» لأنه أشد البغض وأبلغه، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً، حتى جعل أشده وأفحشه. و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أبلغ من ذلك، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله، فقد تم كبره وشدته).

قال الناصر: (وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس، وهو تكراره لقوله: ﴿مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ وهو لفظ واحد، في كلام واحد. ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام) حكاه القاسمي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾. قال ابن كثير: (فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفُّوا مواجهين لأعداء الله في حَوْمَةِ الوغى، يقاتلون في سبيل الله من كفَرَ بالله، لتكون كلمةُ الله هي العليا، ودينُه هو الظاهرُ العالي على سائر الأديان). قال ابن عباس: (﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾: مُثَبّتٌ، لا يزول، ملصق بعضه ببعض). وقال قتادة: (﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾: ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه، فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره، وأن الله صفّ المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به).

يروي الدارمي وصاحب المصابيح بسند حسن عن كعب يحكي عن التوراة قال: [نجد مكتوباً: محمد رسول الله عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه الشام، وأمته الحمّادون، يحمدون الله في السراء والضراء، يحمدون الله في كل منزلة ويكبرونه على كل شرف، رعاةٌ للشمس، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها، يتأزّرون على أنصافهم، ويتوضؤون على أطرافهم، مناديهم ينادي في جوّ السماء، صَفُّهم في القتال وصفّهم في الصلاة سواء، لهم بالليل دوي كدوي النحل][1].

(1) هذا لفظ المصابيح، ورواه الدارمي مع تغيير يسير. وبعضه في صحيح البخاري (4838).

وأخرج الإمام أحمد في المسند ، والنسائي في السنن ، والطبراني بإسناد على شرط مسلم عن يزيد بن عبد الله بن الشِّخِّير قال: [قال مُطَرِّفٌ: كان يبلغني عن أبي ذَرّ حديثٌ كنت أشتهي لقاءَه ، فلقيتُه فقلتُ: يا أبا ذرٍّ ، كان يبلغني عندك حديثٌ فكنت أشتهي لقاءَك. فقال: لله أبوك! فقد لقيتَ ، فهاتِ. فقلتُ: كان يبلغني عنك أنك تزعمُ أنَّ رسولَ الله ﷺ حَدَّثكم: أن الله يحبُّ ثلاثةً ويُبْغِض ثلاثةً؟ قال: أجَل ، فلا إخالُني أكذِبُ على خليلي ﷺ. قلت: فَمَن هؤلاء الثلاثة الذين يحبُّهم الله؟ قال: رجُلٌ غَزَا في سبيل الله ، خرَج مُحْتَسِباً مُجاهداً فلقي العدوَّ فقُتِلَ ، وأنتم تجدونَهُ في كتاب الله المنزَّل ، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾] الحديث[1].

5 ـ 6. قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ ﴾.

في هذه الآيات: بيانٌ من الله تعالى أنَّ موسى وعيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله ، وقد حَلَّ العقاب بمن خالفهما ، وقد بشَّر عيسى بالمصطفى عليهما الصلاة والسلام.

فقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ ﴾. تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من أذى قومه ، فها هو موسى قد أوذي من قبله فصبر. وفيه نهي للمؤمنين عن إيذاء نبيهم مثل قوم موسى. كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: 69].

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: [قَسَمَ رسول الله ﷺ قِسمةً ، فقال رجلٌ من الأنصار: والله ما أرادَ محمدٌ بهذا وَجْهَ الله ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتهُ فتَمعَّرَ وَجْهُهُ ، وقال: رحِمَ الله موسى ، لقد أوذِيَ بأكثرَ مِنْ هذا فصَبَرَ][2].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 153) ، والنسائي (5/ 84) ، والترمذي (2568) ، وابن حبان (3349) ، والحاكم (2/ 113) ، والطبراني (1637) بإسناد على شرط مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6059) ـ كتاب الأدب ، وانظر كذلك (3150).

ومن إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام: رَمْيُه بالأدْرة ، وقولهم: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: 138] ، وقولهم: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ [المائدة: 24] ، وغير ذلك من محاولات الاتهام والعِناد.

قال القرطبي: (﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ والرسول يحترم ويعظَّم. ودخلت «قَدْ» على ﴿ تَّعْلَمُونَ ﴾ للتأكيد ، كأنه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهة لكم فيه).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾. أي: فلما عدلوا ومالوا عن الحق والهدى ، عدَلَ الله بقلوبهم فأمالها عن الرشد والهداية إلى الزيغ والضلال. وهذه هي المرتبة الثانية من مراتب الضلال كما جاء في الكتاب والسنة.

فمراتب الضلال: أولاً ـ مرتبة الضياع والانحراف: وهي نتيجة رفض الحق وطريق الرسل. ثانياً ـ مرتبة الترك والإهمال والتناسي والخذلان: وهي نتيجة للغور في البعد عن الله ، وتعمد ما يسخطه. ثالثاً ـ مرتبة الهداية إلى النار يوم القيامة.

فقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾. يدل على المرتبة الثانية مرتية الترك والخذلان ، فيختم الله على قلوب أصحابها فلا طريق للحق إليها.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: 67].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: 35].

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أُشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء ، وأيّ قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُرْبداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه][1].

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾. قال النسفي: (أي لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 89 ـ 90). والكوز مجخياً: أي منكوساً.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ .

أي: واذكر لقومك يا محمد هذه القصة أيضاً ـ قصة عيسى بن مريم عليه السلام ـ إذ بعثه الله إلى بني إسرائيل بالإنجيل مصدقاً ما تقدمه من كتاب ، وهو التوراة التي بشّرت به. ولم يقل عيسى لهم ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ كما قال موسى ، لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه.

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾. أي: وكما بشرت التوراة بعيسى ، فإن عيسى بشَّر بمحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ، باب: ﴿مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]: حَدَّثنا أبو اليَمان: أخبرنا شُعيب عن الزُّهري قال: أخبرني محمد بن جبير ابنِ مطعم ، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ لي أسماءً: أنا محمدٌ ، وأنا أحمدُ ، وأنا الماحي الذي يَمْحو الله بي الكُفرَ ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناس على قدمي ، وأنا العاقِب][1]. والعاقب الذي ليس بعده نبي.

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: [كان رسول الله ﷺ يُسَمِّي لنا نَفْسَهُ أسماءً ، فقال: أنا محمدٌ ، وأحمدُ ، والمُقَفِّي ، والحاشِرُ ، ونبيُّ التوبة ، ونبيُّ الرحمة][2].

وفي التنزيل: إثبات لتلك البشائر في التوراة والإنجيل وميثاق الأنبياء:

1 ـ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81]. قال ابن عباس: (ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد: لئن بُعِثَ محمدٌ وهو حيٌّ لَيتبعنَّه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بُعِثَ محمد وهم أحياء لَيَتَّبِعُنَّه ويَنْصُرنَّهُ).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4896) ـ كتاب التفسير ، وكذلك (3532) في المناقب.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2355) ـ كتاب الفضائل. وأخرجه أحمد (4/ 395) ، (4/ 404).

ومن كنوز السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم والبيهقي بسند جيد عن خالد بن مَعْدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك. قال: **[دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور بُصرى من أرض الشام]**(1).

الحديث الثاني: أخرج أحمد والطيالسي بسند صحيح عن أبي أمامة قال: **[قلتُ يا نبي الله! ما كان بَدْءُ أَمرِكَ؟ قال: دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرجُ منها نورٌ أضاءت له قصور الشام]**(2).

الحديث الثالث: أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن العِرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: **[إني عند الله لخاتَمُ النبيّين وإنَّ آدم لَمُنْجَدِل في طينته، وسأنبئكم بأوَّل ذلك، دعوةُ إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت]**(3).

وجاء في التوراة: (أن نبياً سيظهر في مكة، ـ وهو أحد أبناء إسماعيل عليه السلام ـ وأن اسْمَه يرتفع فيها، وأنه يركب الجمل، وأنه يحارب بالسيف، وأنه ينتصر هو وأصحابُه، وأنه يُبارك عليه في كل يوم ـ وهذا ما يفعله المسلمون عند التشهد ـ، وأن ملوك اليمن تأتيه بالقرابين، وأن علامة سلطانه على كتِفه بقدْرِ بيضة الحمام)(4).

وجاء في إنجيل بَرْنابا (باب: 220): أن عيسى عليه السلام قال لأتباعه: (وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمدٌ رسول الله الذي متى جاء كشفَ هذا الخِداع للذين يؤمنون بشريعة الله).

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. أي: بيِّن. قال ابن جُريج: (﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال: أحمد). وقيل: عيسى. واختار ابن جرير وابن كثير والقاسمي وغيرهم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 600)، والطبري (2075)، والبيهقي في «الدلائل» (1/ 83) وإسناده جيد، وجهالة الصحابي لا تضر، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 262)، وكذلك الطيالسي (1140)، ورواه ابن سعد (1/ 102)، وإسناده لا بأس به، وله شواهد.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 127)، وأخرجه الطبري (34054)، ورواه الحاكم (2/ 418)، وله شواهد.

(4) انظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 142)، وسِفْر التَّكوين (21: 22).

أنه أحمد ـ عليه الصلاة والسلام. قال ابن كثير: (أي: المُبَشَّر به في الأعصار المتُقَادمة المُنَوَّه بِذِكْرِهِ في القرون السالفة، لما ظهر أمرُه وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾). قال القاسمي: (والإشارة إلى ما جاء به أو إليه، عليه الصلاة والسلام، وتسميته سحراً مبالغة. يريد عليه السلام: أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً، ممن تقدّم وتأخّر).

فائدة: الفرق بين أحمد ومحمد ـ ﷺ ـ.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: (الفرق بين محمد وأحمد من وجهين:

أحدهما: أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد، فهو دالّ على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. و﴿أَحْمَدُ﴾ أفعَل تفضيل من الحمد، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقّه غيره. فمحمد زيادة حمد في الكمية، وأحمد زيادة في الكيفية، فيحمد أكثر حمد، وأفضل حمد حمده البشر.

والوجه الثاني: أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم، وأحمد هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره. فدلّ أحد الاسمين ـ وهو محمد ـ كونه محموداً. ودل الاسم الثاني ـ وهو أحمد ـ على كونه أحمد الحامدين لربه).

7 ـ 9. **قوله تعالى**: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ من اختار سبيل الفرية والكذب على الله طريقاً له والله لا يوفق القوم الظالمين، الذين يحاولون إطفاء نور الله والله ناصر دينه ومظهر رسوله ولو كره المشركون.

فقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾. أي: لا أحد أظلمُ ممن يختار سبيل الفِرية والكذب على الله وقد ظهر أمر الدين الحق بالبينات والمعجزات، فهو يُدعى إلى التوحيد والإخلاص ويأبى إلا البقاء على الشرك والرياء. قال القرطبي: (هذا تعجُّب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التي ظهرت لهما).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. أي: جزاء وفاقاً. فإنّ مقابلة الفرية والكذب إنما

هو بالختم والطبع ، والترك والنسيان ، والإهمال والخذلان .

وقوله : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ . قال ابن زيد : (نور القرآن) . قلت : والأشمل أن يقال نور الإسلام الممثل بالوحيين : القرآن والسنة المطهّرة ، فإنه يؤذي أعين الطغاة ويحرق بإشعاعه قلوبهم ، فناصبوه العداء لمنع انتشار نوره ، ولكنهم بذلك كمن يحاول إطفاء نور الشمس بفيه . قال ابن جرير : (يقول : يريدون ليبطلوا الحق الذي بعث الله به محمداً ﷺ بأفواههم يعني بقولهم إنه ساحر ، وما جاء به سحر ، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ يقول : الله معلن الحق ، ومظهر دينه ، وناصر محمداً عليه الصلاة والسلام على من عاداه ، فذلك إتمام نوره) .

وقوله : ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ . أي : والله متم الحق ومبلغه غايته ، ومظهر نبيه وصحابته ، والطائفة التي على منهاج النبوة ، ولو كره الكافرون وأغاظهم ذلك .

وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ . قال النسفي : (أي الملة الحنيفية) . وقوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ . أي : ليعليه على جميع الأديان المخالفة له . قال مجاهد : (إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام) .

وقوله : ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ . أي : ولو أغاظ ذلك أهل الشرك والكفر والطغيان .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : [لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . قال : فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيقول أميرهم : تعالَ صَلِّ لنا ، فيقول : لا ، إنَّ بعضَكم على بعض أمراءُ ، تكْرِمَةَ الله هذه الأمة][1] .

وكذلك أخرج الإمام مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرّهم من خَذَلَهُمْ حتى يأتيَ أمر الله وهم كذلك][2] .

وله شاهد عنده من حديث المغيرة بلفظ : [لنْ يزالَ قوم من أمتي ظاهرين على الناس ، حتى يأتيهم أمر الله ، وهم ظاهرون] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (156) ـ كتاب الإيمان ، من حديث أبي الزبير عن جابر .
(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1920) ـ كتاب الإمارة . وانظر للشاهد حديث رقم (1921) .

10 ـ 13. **قوله تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: بيانُ أفضل أنواع التجارة، إنه الإيمان والجهاد لنيل رضوان الله والمغفرة، ونصره ـ تعالى ـ في الدنيا والفوز في الآخرة.

فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾. أي: تخلصكم من عذاب موجع في نار جهنم. قال قتادة: (فلولا أن الله بيَّنها، ودلَّ عليها المؤمنين، لتلهف عليها رجال أن يكونوا يعلمونها، حتى يضنوا بها، وقد دلكم الله عليها، وأعلمكم إياها فقال: ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾. قال: الحمد لله الذي بيَّنها).

وقد تقدم حَديث الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: [تذاكرنا: أيّكم يأتي رسول الله ﷺ فَيَسْأَلَهُ: أيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ فلم يقم أحدٌ منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً، فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة، يعني سورة الصف كلها][1].

ومن ضمن هذه السورة هذه الدعوة إلى هذه الصفقة العظيمة من التجارة الرابحة: الإيمان والجهاد. فقال: ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي إيماناً يقينياً لا يشوبه أدنى شك. فناداهم بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم دعاهم إلى الصدق في هذا الإيمان حتى تحصل النجاة ويكون الظفر بالصفقة الكبيرة. وهو كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ [النساء: 136].

ثم عطف على الإيمان الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس. قال القرطبي: (ذكر الأموال أولاً لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾. قال القاسمي: (أي من أهل العلم. أو أنه خير). والمقصود: هذه التجارة التي ذكرت لكم في صدق الإيمان وفي الجهاد ببذل

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 452) وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم.

الأموال والأنفس ، خير لكم من تجارة الدنيا ، والكدِّ لها والتصدي لها وحدَها. فهو من باب إلهاب الحمية للطاعة ، والاستثارة بلفظ «التجارة» للباعة ، فإن الله اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودَلَلْتُكُم عليه غَفَرتُ لكم الزّلات ، وأدخلتكم الجنّات ، والمساكن الطيبات ، والدرجات العاليات).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ذلك النجاء العظيم من نكال الآخرة وأهوالها).

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾. قال الفرّاء: («أخْرى» معطوفة على ﴿تِجَٰرَةٍ﴾ فهي في محل خفض). والمقصود: وتجارة أخرى تحبون الظفر بأرباحها وجوائزها.

وقيل: بل محلها الرفع على الابتداء ، والمعنى: أي: ولكم خصلة أخرى سوى ذلك في الدنيا تحبونها: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. قلت: وكلا التأويلين يحتمله الإعجاز القرآني والبيان الإلـهي.

وقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. قال القرطبي: (أي هو نصر من الله ، فـ ﴿نَصْرٌ﴾ على هذا تفسير ﴿وَأُخْرَىٰ﴾. وقيل: رفع على البدل من «أخْرى» أي ولكم نصر من الله. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي غنيمة في عاجل الدنيا ، وقيل فتح مكة. وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم).

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي بهذا النصر على عدوهم ، والفتح العاجل لهم ، وما يرافق ذلك من الرضا عنهم ، ويعقبه نعيم الجنة عرّفها لهم.

14 . **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآية: تشجيعُ الله المؤمنين على نصر دين الله العظيم ، كما نصر الحواريون عيسى بن مريم ومنهاج النبوة الكريم ، وقد كتب الله النصر والغلبة للصادقين المخبتين.

فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ﴾. ابتداء خطاب من الله، أي: كونوا - معشر المؤمنين أنصاراً لله في جميع أقوالكم وأفعالكم. وقيل: بل التقدير: قل لهم يا محمد كونوا أنصار الله. والأول أنسب للسياق.

وقوله ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾. الحواريّون: خواص الرسل. قال القرطبي: (أكّدَ أمر الجهاد، أي كونوا حوارِيّ نبيِّكم ليظهركم الله على من خالفكم كما أظهر حواريّ عيسى على من خالفهم). قال ابن كثير: (﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ أي: مَنْ معيني في الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ؟ ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ - وهم أتباع عيسى عليه السلام -: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾، أي: نحن أنصارُكَ على ما أُرسلت به ومؤازِرُوك على ذلك. ولهذا بعثهم دعاةً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليُونانيين).

وعن قتادة: (قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه. قال: جاءه سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة، فنصروه وآوَوْه حتى أظهر الله دينه).

وقوله: ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ ﴾. أي: اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به عيسى عليه السلام، وجحدت طائفة أخرى نبوّته، ورموه وأمّه بالبهتان والكذب - وهم اليهود - عليهم لعائن الله. وغلت فيه طائفة ممن اتبعه وكانوا شيعاً: منهم من قال: إنه الله. ومنهم من قال: هو ابن لله. ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس. ذكره الحافظ ابن كثير.

وقوله: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾. أي: فقوّينا الذين آمنوا منهم على عدوهم الذين كفروا بعيسى فأصبحوا غالبين. قال ابن عباس: (أيّد الله الذين آمنوا في زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار). وقال مجاهد: (أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى). قلت: وكلا المعنيين حق، فإن المؤمنين في زمان عيسى - عليه السلام - كانوا هم الغالبين، ثم أيّد الله بقيّتهم فنصرهم على من عاداهم من فِرق النصارى ببعثة محمد ﷺ.

تم تفسير سورة الصف

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

عصر الأربعاء 23 رمضان 1426 هـ

الموافق 26/ تشرين الأول/ 2005 م

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ أمقت شيء عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.

2 ـ صفوفُ هذه الأمة في الصلاة وفي القتال سواء ، فهي كالبنيان المرصوص تحمل الرعب والرهبة للأعداء.

3 ـ بشارة النبيين وبشارة عيسى بالنبي الأمي العربي محمد ﷺ.

4 ـ محمدٌ ﷺ هو الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، والحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدمه ، وهو العاقب الذي ليس بعده نبي.

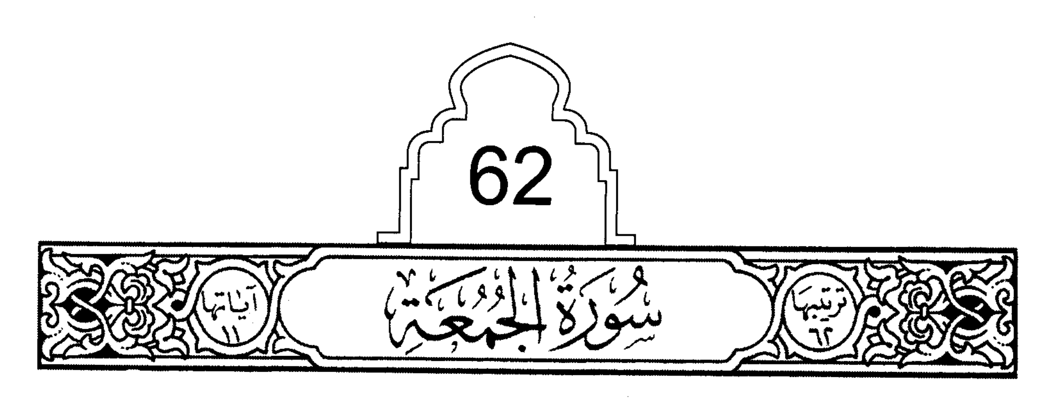
5 ـ ما أنزل الله الإسلام إلا ليظهره على الأديان عامة ويختمها به.

6 ـ لا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ ظاهرين على الحق لا يضرّهم من خذلهم إلى يوم القيامة.

7 ـ كان المسلمون الأوائل أنصار محمد ﷺ كما كان الحواريون أنصار عيسى ﷺ.

8 ـ ألقي شبه عيسى على أحد الحواريين ، وجزاؤه الجنة بإذن الله.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (11).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد جاء ذكر هذه السورة وفضلها وفضل يوم الجمعة في أحاديث من السنة العطرة:

الحديث الأول: روىٰ مسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عباس وأبي هريرة: [أنّ رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين][1].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم ـ في كتاب الجمعة ـ من صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [خير يوم طلعت عليه الشمسُ يوم الجمعة ، فيه خُلِقَ آدمُ ، وفيه أُدْخِل الجنة ، وفيه أخرج منها][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود وابن حبان بسند صحيح عن أوس بن أوسٍ الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ من أفضل أيامكم يومَ الجمعة ، فيه خُلِقَ آدم ، وفيه قُبِضَ ، وفيه النفخةُ ، وفيه الصعقة ، فأكثِروا عليَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليّ. قالوا: وكيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أَرِمْتَ؟ ـ أي بليت ـ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (877) ، وأحمد في المسند (2/ 429 ـ 430) ، وأخرجه أبو داود (1124) ، والترمذي (519) ، وابن ماجة (1118).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (854) والذي بعده. وفيه زيادة: (ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة) ، كتاب الجمعة ، باب في الساعة التي في يوم الجمعة.

فقال: إن الله جل وعلا حرَّم على الأرض أن تأكلَ أجسامنا][1].

الحديث الرابع: أخرج أحمد وابن ماجة بلفظ واحد عن أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ يومَ الجمعة سيدُ الأيام، وأعظمها عند الله، وهو أعظمُ عند الله من يوم الأضحىٰ ويوم الفطر، وفيه خمسُ خلالٍ: خلق الله فيه آدم، وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض، وفيه توفّىٰ الله آدم، وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئاً إلا أعطاه إياه ما لم يسأل حراماً، وفيه تقوم الساعة. ما مِنْ ملكٍ مقرَّبٍ، ولا سماء، ولا أرضٍ، ولا رياحٍ، ولا جبالٍ، ولا بحرٍ، إلاّ وَهُنَّ يُشفِقْنَ مِنْ يوم الجمعة][2].

الحديث الخامس: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [نحن الآخِرون الأوَّلون يوم القيامةِ، ونحنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّة، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتابَ من قَبْلِنا وأوتيناهُ مِن بَعْدهم، فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومُهم الذي اختلفوا فيه، هدانا الله له ـ قال[3]: يومُ الجمعة ـ فاليوم لنا، وغداً لليهود، وبَعْد غَدٍ للنصارىٰ][4].

الحديث السادس: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ هذا يومُ عيد، جعله الله للمسلمين، فمن جاء إلىٰ الجمعة فَلْيَغْتسل، وإن كان طيبٌ فليمَسَّ مِنه، وعليكم بالسواك][5].

موضوع السورة

الجمعة تشريعها وآدابها
واختصاص الله هذه الأمة بها

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1034)، وابن ماجة (1085)، والنسائي (3/ 91). ورواه ابن حبان وغيرهم. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (889).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد، وابن ماجة (1084) كتاب الصلاة. باب في فضل الجمعة.

(3) أي: قال الرواي مفسراً لقوله ﷺ: «فهذا يومهم» أي يوم الجمعة، ويؤيّده ما في رواية النسائي: «يعني يوم الجمعة» (1365).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (876)، ومسلم (855)، كتاب الجمعة.

(5) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (1098)، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ اشتراك جميع الكائنات بتسبيح الله الملك القدوس العزيز الحكيم.

2 ـ امتنان الله تعالى على عباده ببعث رسوله الكريم، يعلمهم الكتاب والسنة ومنهاج هذا الدين القويم.

3 ـ متابعة الأخيار في هذه الأمة نبيهم وأصحابه على منهاج الحق منهاج الرسول الكريم.

4 ـ تشبيهُ الذين نقضوا عهد التوراة بالحمار يحمل كتباً لا ينتفع بها، ودعوة اليهود لتصديق ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه بتمني الموت في سبيل الله.

5 ـ الأمْرُ بالسعي إلى صلاة الجمعة وتأجيل الصفق في الأسواق وتعظيم هذه الشعيرة العظيمة.

6 ـ إباحة العودة بعد الصلاة لابتغاء الرزق والفضل من الله، والأمر بالتماس ذكره تعالىٰ دوماً فعليه الفلاح في الدنيا والآخرة.

7 ـ عتاب لطيف من الله تعالى لأصحاب نبيه الكرام، في انشغالهم بالعير عن متابعة خطبة نبيهم عليه الصلاة والسلام.

8 ـ ما عند الله خير وأبقى والله خير الرازقين.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 4. **قوله تعالى**: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾.

في هذه الآيات: تسبيحُ جميع الكائنات لله الملك القدوس العزيز الحكيم، الذي امتن على عباده بإرسال هذا النبي الكريم، يعلمهم الكتاب والسنة ويتابعهم الأخيار من بعدهم على هذا المنهاج القويم.

فقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. إخبارٌ من الله تعالى أنه يسبح له كل من في السماوات والأرض من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44].

وقوله: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾. الملك: هو المالك لكل شيء المتصرف فيه. والقدّوس: هو الطاهر من العيوب المتنزِّه عنها. قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: 114]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: 23].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض][1].

وفي سنن أبي داود عن عائشة: [أن النبي ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكة والروح][2].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4812)، (6519)، (7382)، ورواه مسلم (8/ 126).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (1/ 165) من حديث عائشة، ورواه مسلم بنحوه.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾. العزيز: الغالب القاهر، والعِزَّة: الغَلَبة. والحكيم: العالم وصاحب الحكمة والمتقن للأمور. وفي التنزيل: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118].

وفي الصحيحين عن ابن عباس: أن نبي الله ﷺ كان يدعو عند الكرب: [لا إله إلا الله الحليم الحكيم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم. لا إله إلا الله ربُّ السماوات والأرض ورب العرش الكريم][(1)].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾. قال ابن عباس: (الأميّون العرب كلهم، من كتب منهم ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب). وقيل: الأميّون الذين لا يكتبون. وكذلك كانت قريش. وقوله: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ. وما من حَيّ من العرب إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة وقد وَلدوُه. قال ابن إسحاق: (إلا حيّ تَغْلِب، فإن الله تعالى طَهَّر نبيّه ﷺ منهم لِنَصْرانِيَّتهم، فلم يجعل لهم عليه ولادة. وكان أمياً لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم ﷺ).

قال الماوردي (6/ 6): (فإن قيل ما وجه الامتنان بأن بعث نبياً أمياً؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: لموافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء. الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم. الثالث: لينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها).

وكونه بعث في الأميين ـ أي العرب ـ لا ينفي عموم بعثته للعالمين، وإنما يكون وجه الامتنان من الله على قومه أبلغ وأكثر، وهذه الآية مصداق إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]. فبعثه الله على حين فترة من الرسل، وطموس في السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه.

وقوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾. فيه البدء بتزكية النفس لتتحمل لوازم العلم، فإن الإيمان أولاً ثم طلب العلم يكون يعقبه، كما قال بعض السلف: (تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً). فقوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ يعني القرآن. قال ابن عباس: (﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يجعلهم أزكياء القلوب

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (6345)، (6346)، وصحيح مسلم (2730)، كتاب الذكر والدعاء، وصحيح سنن الترمذي (2732)، ورواه ابن ماجة (3883).

بالإيمان). وقيل: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهّرهم من دنس الكفر والذنوب ـ قاله ابن جريج. وعن الحسن: (﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة). وقال مالك بن أنس: («الحِكْمَةُ» الفقه في الدِّين).

وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. أي: وإن كانوا من قبل محمد ﷺ لفي كفر وجهالة، وذهاب عن الحق.

وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾. عطف على ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي بعث في الأميّين وبعث في آخرين منهم. أو هو منصوب بالعطف على الهاء والميم في ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ أي يعلمهم ويعلم آخرين من المؤمنين ـ حكاه القرطبي وقال: (لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مسنداً إلى أوّله، فكأنه هو الذي تولّى كل ما وجد منه). وقال عكرمة: (﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾: هم التابعون). وقال مجاهد: (هم الناس كلهم، يعني من بعد العرب الذين بُعِث فيهم محمد ﷺ). وقال ابن زيد: (هم من دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة).

قلت: وآفاق هذه المعاني في عموم بعثته ﷺ، وتصديق العرب والعجم بهذا الدين، والتسابق لحمل لوائه مؤيد في تفسير هذه الآية بروائع من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [كنا جُلوساً عند النبي ﷺ فأُنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قال: قُلت: مَنْ هُمْ يا رسول الله؟ فَلَمْ يُراجِعْهُ حتى سأل ثلاثاً وفينا سلمانُ الفارسي، وضَعَ رسول الله ﷺ يده على سَلْمانَ، ثم قال: لو كان الإيمان عِند الثريا لنالَهُ رجالٌ أو رجُلٌ مِنْ هؤلاء][1].

وقد صَحَّ بلفظ آخر: [لو كان الدينُ عند الثريا لذهبَ به رجلٌ من فارس، أو قال: من أبناء فارس حتىٰ يتناوله][2].

الحديث الثاني: أخرج الحاكم بإسناد على شرط البخاري عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: [رأيت غنماً كثيرة سوداء، دخَلت فيها غَنَمٌ كثيرةٌ بيض.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4897)، كتاب التفسير، سورة الجمعة (3)، وأخرجه مسلم (2546)، والترمذي (3310)، وأحمد (2/ 417)، والنسائي في «التفسير» (612)، وأخرجه الطبري في «التفسير» (34086).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (6/ 191)، وأحمد (2/ 308 ـ 309) عن أبي هريرة مرفوعاً.

قالوا: فما أَوَّلُتَهُ يا رسولَ الله؟ قال: العَجَم ، يَشْرَكونكُم في دينكم وأنسابكم. قالوا: العجم يا رسول الله؟ قال: لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله رجال من العجم ، وأسعد بهم الناس][1] .

الحديث الثالث: أخرج أبو نعيم في «أخبار أصبهان» بسند حسن من طريق عمرو بن شرحبيل عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مرفوعاً: [رأيتُ الليلة غنماً سوداً تَتْبَعُني ، ثم أَرْدَفتها غنم عُفْرٌ ، فقال أبو بكر: تلك العرب اتَّبَعَتْكَ ، ثم أردفَتْها الأعاجم. فقال ﷺ: كذلكَ عَبَّرَها الملك بِسَحَر][2] .

الحديث الرابع: أخرج ابن أبي عاصم في «السنة» بسند صحيح عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ في أصلاب أصلاب أصلاب رجال رجالاً ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾][3] .

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. قال النسفي: (في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم وتأييده عليه واختياره إياه من بين كافة البشر).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾. يعني: ما اختص الله به محمداً ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خصّ به أمّته من بعثته الكريمة. قال ابن عباس: (الفضل: الدين). وقال مقاتل: (الوحي والنبوة). وقيل: (إنه انقياد الناس إلى تصديق النبي ﷺ ودخولهم في دينه ونصرته). وقيل: إنه المال ينفق في طاعته. ودليله ما في صحيح البخاري ومسلم عن أبي صالح ، عن أبي هريرة: [أنّ فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهبَ أهل الدُّثور[4] بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك»؟ قالوا: يُصَلُّون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدّقون ولا نتصدق ويُعتقون ولا نُعتق. فقال رسول الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 395) وقال: «صحيح على شرط البخاري» ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني بقوله: (وهو كما قالا). انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1018).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (1/ 9) (1/ 10) بنحوه. وانظر كذلك (1/ 209). وسلسلة الأحاديث الصحيحة ص (15) ـ المجلد الثالث ـ عقب الحديث (1018).

(3) إسناده صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» ـ حديث رقم ـ (309) ، والطبراني (6005) وسنده حسن. ورواه ابن مردوديه كما في «الدر» (6/ 215) ، وجوّده الهيثمي (18702) ووافقه الألباني في تخريج كتاب: «السنة» (309).

(4) الدثور: جمع دثر ، وهو المال الكثير.

ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تُدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنَعَ مثل ما صنعتم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تسبّحون وتكبّرون وتحمدون دُبُرَ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة». قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾][1].

قلت: وجميع ما ذكر من اختصاص الله محمداً ﷺ بالنبوة، واختصاص أمته باستقبال بعثته، وانقياد الناس إليه ودخولهم في دينه ونصرته، وتسابق بعض العرب والعجم لحمل لواء شريعته، وإنفاق بعض الأغنياء في سبيل نشر دعوته، كل ذلك داخل في مفهوم هذه الآية.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. قال ابن عباس: (حيث ألحق العجم بقريش). وقال: (يقول: والله ذو الفضل على عباده، المحسن منهم والمسيء، والذي بعث فيهم الرسول منهم وغيرهم، العظيم الذي يقلّ فضل كل ذي فضل عنده).

5 ـ 8. **قوله تعالى**: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: تشبيه الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى وقد كُلفوا العمل بها فلم يعملوا بها، ثم كذبوا بمحمد ﷺ ولم يؤمنوا بالوحي والنبوة، بالحمار يحمل على ظهره كتباً من كتب العلم لا ينتفع بها ولا يعقل ما بداخلها، ودعوة اليهود لتصديق ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه بتمني مفارقة هذه الحياة إلى دار الخلود وجنات النعيم،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6329)، (843)، ومسلم (595)، وابن حبان (2014)، وأخرجه البيهقي (2/ 186) من حديث أبي هريرة.

ولكنهم أحرص الناس على الحياة والله عليم بالظالمين.

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾. قال ابن عباس: (﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي كُلّفوا العمل بها). وقال الجُرجاني: (هو من الحَمالة بمعنى الكفالة، أي ضمنوا أحكام التوراة).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾. أي تركوا العمل بها، وأهملوا التحاكم إليها.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾. أسفاراً: جميع سِفْر، وهو الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال مجاهد: (﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ يحمل كتباً لا يدري ما فيها، ولا يعقلها). وقال مَيمون بن مِهْران: (الحمار لا يدري أسِفْر على ظهره أم زِبيل، فهكذا اليهود). قال القرطبي: (وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه، لئلا يلحقه من الذمّ ما لحق هؤلاء).

قلت: وقد جاء في السنة الصحيحة نحو ما جاء في هذه الآية مما يعيب اليهود، ويحذر أمة محمد ﷺ أن تسلك مسلكهم.

فقد أخرج الطبراني بسند حسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إن بني إسرائيل كتبوا كتاباً فاتبعوه وتركوا التوراة][1].

وكذلك أخرج الطبراني بسند صحيح عن خَبّاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن بني إسرائيل لما هلكوا قصُّوا][2].

قال المناوي: (أي لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص، وعولوا عليها، واكتفوا بها).

قلت: وما أشبه حال المسلمين اليوم بهذا الحال الذي حُذّروا من اتباعه، فإن كثيراً من وعاظهم انصرفوا إلى الوعظ بالقصص والأخبار الواهية، والحكايات والإسرائيليات البالية، تاركين منهج الفقه والعلم النافع الذي يعرف الناس بدينهم الحق، والذي يحملهم على العمل الصالح والدأب والتحصيل النافع.

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «الكبير» بسند حسن. انظر «مجمع الزوائد» (1/ 172)، وكذلك صحيح الجامع الصغير (2040).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (رقم ـ 3705)، وأبو نعيم في «الحلية» (4/ 362). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1681).

أخرج الحاكم بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [لتركبنَّ سُنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو أنّ أحدهم دخل جُحْرَ ضب دخلتم، وحتىٰ لو أن أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم][1].

وقوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. أي: بئس مثل القوم المثل الذي ضربناه لهم. قال ابن القيم في «أعلام الموقعين»: (قاسَ من حَمَّلَهُ سبحانه كتابَهُ ليؤمِنَ به ويتدبّره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبّر ولا تفهّم ولا اتباع له، ولا تحكيم له، وعمل بموجبه ـ كحمار على ظهره زاملة أسفار، لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظّه من كتاب الله كحظّ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره. فهذا المثل، وإن كان ضُرِب لليهود، فهو متناول من حيث المعنىٰ، لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤدّ حقّه، ولم يرعه حقّ رعايته).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. أي: والله لا يوفق القوم الذين اختاروا ظلم أنفسهم، بكفرهم بآيات ربهم. وقيل: والله لا يهدي من سبق في علمه أن يكون كافراً.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. ـ هادوا ـ: من هادَ يهود إذا تهوّد. والمقصود: لما ادّعت اليهود الفضيلة بأنهم أبناء الله وأحباؤه من دون الناس دُعوا للاختبار الدقيق، فإن للأولياء عند الله الكرامة، ومن ثمَّ قيل لهم: تمنّوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه، فتستريحوا من كرب الدنيا وهمومها وغمومها، وتصيروا بعد الموت إلى روح الجنان ونعيمها، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم ودعواكم.

وفي التنزيل نحو ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 94 ـ 96].

وقوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾. أي: لا يتمنى اليهود الموت أبداً بما

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 455)، والدولابي في «الكنىٰ» (2/ 30)، وله شاهد عند الترمذي، والحاكم (1/ 129) من حديث عبد الله بن عمرو. وانظر صحيح الجامع (4943).

اجترحوا من ظلم وآثام ، وبما اكتسبوا من كفر وفجور وإجرام.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾. أي: والله ذو علم بمن أوبق نفسه بالكفر بالله ورسله وكان من الظالمين.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾. أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن الموت الذي تكرهون تمنّيه وتحذرون وقوعه نازل بكم. وهو كقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: 78].

وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾. قال ابن جرير: (ثم يردّكم ربكم من بعد مماتكم إلى عالم الغيب والشهادة، عالم غيب السماوات والأرض، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: يعني وما شهد فظهر لرأي العين، ولم يغب عن أبصار الناظرين).

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. قال قتادة: (يقول: فيخبركم حينئذ ما كنتم في الدنيا تعملون من الأعمال، سيئها وحسنها، لأنه محيط بجميعها، ثم يجازيكم على ذلك المحسن بإحسانه، والمسيء بما هو أهله).

9 ـ 10. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالى عباده المؤمنين بالسعي إلى صلاة الجمعة إذا سمعوا النداء لها، والتبكير لسماع خطبتها، وترك البيع والشراء تعظيماً لهذه الشعيرة العظيمة. وإباحةُ العودة بعد الصلاة إلى ابتغاء الرزق والفضل من الله، والأمر بالتماس ذكره تعالى وتعظيم أمره دوماً، ففي ذلك الفلاح في الدنيا والآخرة.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

أمْرٌ بالمبادرة إلى صلاة الجمعة عند سماع النداء لها، وليس المقصود الهرولة إليها. قال قتادة: (والسعي يا ابن آدم أن تسعىٰ بقلبك وعملك، وهو المضيّ إليها).

وكان عمر يقرؤها: «فامضوا إلى ذكر الله» ـ ذكره ابن جرير بإسناده.

وقد ثبت النهي عن الإسراع والهرولة إلى صلوات الجماعة عامة عند التوجه إليها.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إذا سَمِعْتُم الإقامةَ فامشُوا إلى الصلاة، وعليكم بالسكينة والوقار ولا تُسرعوا، فما أدْرَكْتُم فَصَلُّوا وما فاتكم فأتِمّوا](1).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن أبي قتادة، أن أباه أَخْبَرَهُ قال: [بَيْنَما نحنُ نُصَلّي مع رسول الله ﷺ. فَسَمِعَ جَلَبَةً، فقال: ما شأنُكُم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال: فلا تفعلوا، إذا أتيتُم الصلاة فعليكم السكينة، فما أدركْتُم فَصَلّوا، وما سبقكُم فَأَتِمّوا](2).

وَسُمِّيَت الجُمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع، فأهل الإسلام يجتمعون فيه كل أسبوع مرة في المساجد يستمعون الذكر وموعظة الحق ويتعلمون أمر دينهم، وقد أضلّ الله تبارك وتعالى عن الجمعة أهل الكتابين قبلنا فاختار اليهود لعيدهم السبت، والنصارىٰ الأحد، وخبأ الله الجمعة عيداً لأهل الإسلام.

ففي صحيح مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: [أَضَلَّ اللهُ عن الجُمعة مَنْ كان قَبْلنا، فكان لليهود يومُ السبت، وكان للنصارىٰ يومُ الأحد، فجاء الله بِنا، فَهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبتَ والأحدَ، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخرون مِن أهل الدنيا، والأوّلون يَوْمَ القيامة، المَقْضِيُّ لهم قبل الخلائق](3).

وفي رواية: [هُدينا إلى الجمعة وأَضَلَّ الله عنها مَنْ كان قَبْلَنا].

والمراد بالنداء في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ النداء الثاني الذي كان يُرْفَعُ بين يدي رسول الله ﷺ إذا جلس على المنبر، وأما النداء الأول فإنما زاده عثمان بن عفان رضي الله عنه أيام خلافته لتنبيه الناس وقد كثروا إلى ترك الأسواق والأعمال والاستعداد إلى صلاة الجمعة.

ففي صحيح البخاري عن السائب بن يزيد قال: [كانَ النداءُ يومَ الجمعة أَوَّلُه إذا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (636)، كتاب الأذان، وكذلك (908)، وأخرجه مسلم (602)، وابن ماجة (775)، وأحمد (2/ 532)، وابن حبان (2146).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (603)، كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعياً.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (856)، كتاب الجمعة، ح (22)، وانظر كذلك ح (23).

جَلَس الإمامُ على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعُمَر ، فلما كان عُثمان بعد زَمَنٍ ، وكَثُرَ الناسُ ، زاد النداءَ الثاني على الزَّوراء][1] . والزَّوراء أرفع دار بالمدينة قرب المسجد ، كان يؤذن المؤذن عليها .

وفي رواية أخرى عن السائب بن يزيد : [أنَّ الذي زاد التأذينَ الثالثَ يَوْمَ الجمعة عثمان بن عفان رضي الله عنه حين كَثُرَ أهل المدينة ، ولم يكن للنبي ﷺ مؤذِّنٌ غَيرَ واحدٍ ، وكان التأذينُ يومَ الجمعةَ حينَ يجلس الإمام ـ يعني على المنبر ـ][2] .

آداب خاصة بيوم الجمعة :

الأدب الأول : الغُسْل لصلاة الجمعة :

فمن السنة الاغتسال قبل المجيء إلى صلاة الجمعة ، وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول : روىٰ البخاري عن عبد الله بن عمر قال : سمعت النبي ﷺ يخطب على المِنبر فقال : [مَنْ جاءَ إلى الجمعة فليغتسل][3] .

الحديث الثاني : أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : [غُسلُ يومِ الجمعة واجبٌ على كل مُحْتَلِم][4] .

الحديث الثالث : خرّج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [حَقٌّ لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعةِ أيام ، يغسِلُ رأسه وجسَده][5] .

الحديث الرابع : أخرج أحمد والنسائي وابن حبان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : [على كل رجلٍ مسلمٍ في كل سبعة أيام غُسْلُ يومٍ ، وهو يومُ الجمعة][6] .

قلت : وهذه الأحاديث تدل بمجموعها على وجوب الغسل قبل المجيء لصلاة الجمعة ، وإنما هناك قرينة تصرف الأمر عن الوجوب إلى الاستحباب ، فيكون

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (912) ، كتاب الجمعة ، باب الأذان يوم الجمعة .
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (913) ، كتاب الجمعة ، الباب السابق ، وانظر الحديث (912) .
(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (919) ، كتاب الجمعة ، ورواه مسلم (844) بنحوه .
(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (879) ، ومسلم (846) ، وأبو داود (341) ، والنسائي (3/ 93) ، ورواه مالك (1/ 102) ، وغيرهم .
(5) حديث صحيح . أخرجه مسلم (849) ، والبخاري نحوه (897) ، والبيهقي في السنن (3/ 188) .
(6) حديث صحيح . أخرجه النسائي في السنن (3/ 93) ، وأحمد في المسند (3/ 304) ، ورواه ابن أبي شيبة (1/ 95) ، وأخرجه ابن حبان (1219) ، وإسناده صحيح .

الوجوب في حق من يكون حاله أو طبيعة عمله يحتاج إلى الغسل لئلا يؤذي برائحته المسلمين.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ تَوضَّأ فأحْسَنَ الوضوء، ثم أتىٰ الجُمعة فاستمعَ وأَنْصَتَ، غُفِرَ له ما بينَهُ وبَيْنَ الجمعة، وزيادَةُ ثلاثةِ أيام، ومَنْ مَسَّ الحصىٰ فقد لغا](1).

وفي سنن أبي داود بإسناد حسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من توضأ يوم الجمعة فبها وَنِعْمَتْ، ومَن اغتسل فهو أفضل](2).

الأدب الثاني: التبكير لصلاة الجمعة:

أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا كان يومُ الجمعة كان على كُلِّ باب من أبواب المسجد ملائكةٌ يكتبون الأوَّلَ فالأوَّل، فإذا جلس الإمام طَوَوا الصُّحفَ وجاؤوا يستمعون الذكر، ومثَلُ المُهَجِّر كَمَثَلِ الذي يُهدي البَدَنَةَ، ثم كالذي يُهدي بقرةً، ثم كالذي يُهْدي الكَبْشَ، ثم كالذي يُهدي الدجاجة، ثم كالذي يُهدي البَيْضَة](3).

وأخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن بسند صحيح عن أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ غَسَّلَ واغتسل يومَ الجمعة، وبَكَّرَ وابتكرَ، ومشىٰ ولم يَرْكَب، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ، كان له بكل خطوة أجرُ سنةٍ، أجرُ صيامها وقيامِها](4).

الأدب الثالث: لبس أحسن الثياب والتسوك والتماس أجمل الطيب:

ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد مرفوعاً: [غُسْل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يَمَسَّ مِنْ طِيب أهله](5).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (857) ح (27)، كتاب الجمعة. وراه أحمد وأكثر أهل السنن.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (354)، كتاب الطهارة، باب في الرخصة في ترك الغسل يوم الجمعة. وانظر صحيح سنن أبي داود (341).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (850)، كتاب الجمعة. باب فضل التهجير يوم الجمعة.

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 104)، وأبو داود (345)، والترمذي (496)، وابن ماجة (1087)، والنسائي (3/ 95 ـ 96)، والبغوي (1065)، والحاكم (1/ 282).

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (879)، ومسلم (846)، وابو داود (341)، والنسائي (3/ 93).

وفي مسند أحمد بإسناد حسن عن أبي أيوب الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من اغتسل يوم الجمعة، ومَسَّ من طيب أهله إن كان عنده، ولبس مِنْ أَحسنِ ثيابه، ثم خرج حتىٰ يأتي المسجدَ فيركع إن بدا له، ولم يؤذِ أحداً، ثم أَنْصَتَ إذا خَرَجَ إمامُه حتىٰ يُصَلِّي، كانت كفارةً لما بينها وبين الجمعة الأخرىٰ][1].

وفي سنن أبي داود وابن ماجة بسند حسن عن عائشة أن رسول الله ﷺ خَطَبَ الناس يوم الجمعة، فرأىٰ عليهم ثيابَ النِّمار، فقال: [ما علىٰ أحدِكم إنْ وَجَدَ سعةً أن يَتَّخِذَ ثوبين لِجُمْعَتِهِ سِوىٰ ثَوْبي مِهْنَتِهِ][2].

والجمعة واجبة على الرجال الأحرار دونَ النساء والعبيد والصبيان، ويُعذَر المسافر والمريض وقيِّم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار.

ففي سنن أبي داود بسند صحيح عن طارق بن شهاب عن النبي ﷺ قال: [الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض][3].

وأخرج الدارقطني بسند حسن عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [ليس على المسافر جمعة][4]. ورواه الطبراني بلفظ: [ليس على مسافر جمعة].

ما يستحب من الأذكار والأدعية يوم الجمعة:

أولاً: الإكثار من الصلاة والسلام على النبي ﷺ:

فقد أخرج أبو داود وابن ماجة والنسائي بسند صحيح عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: [إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ..] الحديث[5].

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 420)، ورجاله ثقات، وله شواهد كثيرة.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (1078) ـ (1079)، وابن ماجة (1096). وانظر صحيح سنن أبي داود (953). والنِّمار: بردة من صوف تلبسها الأعراب.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1054)، والبيهقي (172/ 3)، والحاكم (288/ 1).

(4) حديث حسن. أخرجه الدار قطني (4/ 4/ 2)، وانظر صحيح الجامع الصغير (5281).

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1034)، وابن ماجة (1085)، والنسائي، وقد مضىٰ.

ثانياً: قراءة سورة الكهف:

أخرج الحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: [مَن قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاءَ له من النور ما بين الجمعتين](1).

ثالثاً: الإكثار من الدعاء رجاء مصادفة ساعة الإجابة:

ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي ـ واللفظ له ـ عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: [يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة، لا يوجد فيها عبدٌ مسلم يسأل الله عَزَّ وجل شيئاً إلا آتاه إياه، فالتمسوها آخر ساعة بعد صلاة العصر](2).

وقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾. أي: دعوا البيع والشراء إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة. قال القرطبي: (﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾: منع الله عز وجل منه عند صلاة الجمعة، وحرّمه في وقتها على من كان مخاطباً بفرضها. والبيع لا يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما. قال: وخصّ البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق. ومن لا يجب عليه حضور الجمعة فلا يُنْهى عن البيع والشراء).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: سعيكم إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة إلى ذكر الله، وترك البيع خير لكم من البيع والشراء في ذلك الوقت، إن كنتم تعلمون مصالح أنفسكم ومضارها).

وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. هذا أمر إباحة. قال الضحاك: (هذا إذن من الله، فمن شاء خرج، ومن شاء جلس).

وقوله: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. أي من رزقه. قال ابن كثير: (لما حَجَرَ عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع أذِن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله).

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. أي عند البيع والشراء وفي شأنكم كله. قال القاسمي: (أي اذكروا أمره ودينه وشرعه دائماً، لتصير ملكة لكم، تظهر آثارها على أعمالكم وأخلاقكم، فتفلحوا بسعادة الدارين). وعن مجاهد: (لا يكون العبدُ من

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/368)، والبيهقي (3/249)، وإسناده صحيح.
(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (853)، وصحيح الترغيب (705)، ورواه الحاكم على شرط مسلم، ورواه أبو داود والنسائي ـ واللفظ له ـ وله شواهد كثيرة بألفاظ مقاربة.

الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومُضْطَجِعاً).

قلت: وذكر الله يشمل التسبيح والتهليل والدعاء والصلاة على النبي عليه السلام. ويشمل تلاوة القرآن ومطالعة السنة وهدي خير الأنام. كما يشمل ملاطفة الخلق واختيار أجمل القول مع الوالدين والزوجة والأبناء والأرحام.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 41 ـ 42].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، واللهِ لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة بسند حسن عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: [من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتبَ الله له ألفَ ألفِ حسنة، ومحا عنه ألف ألفِ سيئة، ورفعَ له ألفَ ألفِ درجة، وبنى له بيتاً في الجنة][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والنسائي وابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد، وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: [إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصَلّيا أو صلّى ركعتين جميعاً كُتِبَا في الذاكرين والذاكرات][3]. وفي رواية: [إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ أهله وصليا ركعتين كُتِبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2675)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد والترمذي، وابن ماجة (2235). انظر صحيح ابن ماجة (1817).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (1309)، أبواب قيام الليل. وانظر صحيح سنن أبي داود (1161). ورواه النسائي وابن ماجة والحاكم. انظر: صحيح الجامع (330).

11. **قوله تعالى:** ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

في هذه الآية: عتابٌ لطيف من الله تعالى لصحابة نبيه ﷺ في انشغالهم بالعير وبهجة قدومها عن متابعة خطبته عليه الصلاة والسلام يوم الجمعة ، فما عند الله خير وأبقىٰ والله خير الرازقين.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله قال: [بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذْ أقْبَلَت عِيرٌ تحْمِلُ طعاماً فالتفتوا إليها ، حتىٰ ما بقيَ مع النبيِ ﷺ إلا اثْني عشَرَ رجلاً ، فنزَلتْ هذه الآية: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾][1].

ولفظ الترمذي: [بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً ، إذ قدمت عير المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً فيهم: أبو بكر ، وعمر ، ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾].

وأخرج الطبري بسند رجاله رجال الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: [كان الجواري إذا نكحوا كانوا يمرّون بالكبر والمزامير ويتركون النبي ﷺ قائماً على المنبر ، وينفضون إليها ، فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾][2].

وقوله: ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾. فيه دليل أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: [كانت للنبي ﷺ خُطبتان يجلس بينهما ، يقرأ القرآن ويُذكِّر الناس][3].

وقوله: ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾. أي: قل لهم يا محمد: ما عند الله من الثواب وحسن المآب خيرٌ من لذة اللهو وفائدة التجارة ، فثواب انصرافكم إلى

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (936) ، كتاب الجمعة. وكذلك (2058) ، (4899) ، وأخرجه مسلم (863) ح (36) ، (37) ، (38) ، والترمذي (3311) ، وأحمد (3/ 313).

(2) أخرجه الطبري في «التفسير» ـ حديث رقم ـ (34145) ورجاله رجال الصحيح ، وكذلك أخرجه أبو عوانة في صحيحه ، وذكره الحافظ في الفتح. وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة الجمعة ، آية (11).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (862) ح (34) من حديث جابر بن سمرة.

الصلاة وسماع العلم وتعظيم معالم الشرع لا يعدله كسب من أرزاق الدنيا.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾. قال ابن كثير: (أي: لمن توكل عليه، وطلب الرزق في وقتِه). وقال القرطبي: (﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير من رزق وأعطى، فمنه فاطلبوا، واستعينوا بطاعته على نَيْلِ ما عنده من خيري الدنيا والآخرة).

تم تفسير سورة الجمعة
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
عصر السبت 26 رمضان 1426 هـ
الموافق 29/تشرين الأول/2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه قُبض ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة إجابة .

2 ـ أكثروا الصلاة على نبيكم يوم الجمعة ، فإن صلاتكم معروضة عليه .

3 ـ كان ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورتي «الجمعة والمنافقون» .

4 ـ نزول الرسالة في العرب لا ينافي كونها للناس كافة .

5 ـ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم ينفذوا أحكامها كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

6 ـ لو باهل اليهود رسول الله لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً .

7 ـ من السنة الاغتسال والتبكير للجمعة ، ووجوب ترك البيع والإنصات ، والجمعة إلى الجمعة كفارة للخطايا بينهما .

8 ـ لا ظهر بعد الجمعة ، وحرمةُ ترك الخطيب ، وصحة الجمعة بالنفر القليل .

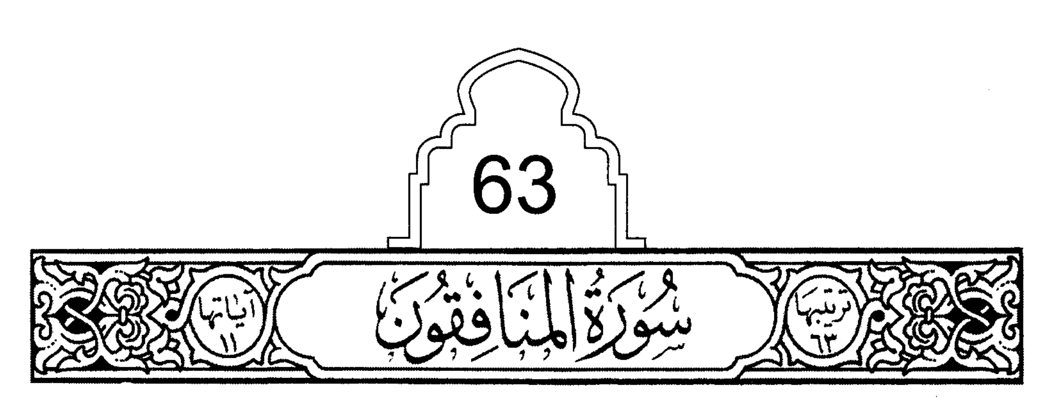
9 ـ من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين .

10 ـ يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة ، لا يوجد فيها عبدٌ مسلمٌ يسأل الله عزَّ وجل شيئاً إلا آتاه إياه ، فالتمسوها آخر ساعة بعد صلاة العصر .

11 ـ يوم الجمعة يوم عيد للمسلمين ، وفي الجنة سوق يأتونها يوم الجمعة .

12 ـ البقاء لما عند الله من الأجر خير من اللهو والتجارة .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (11).

أخرج البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم قال: [كُنْتُ في غَزَاة فسَمِعْتُ عبدَ الله بن أُبيّ يقول: لا تُنْفِقُوا على من عند رسول الله حتى يَنْفَضُّوا من حَوْلِهِ ، ولئن رجعنا مِنْ عِنده لَيُخرجَنَّ الأعزّ منها الأذلّ ، فذكرت ذلك لعمي أو لِعُمَر فَذَكَرَهُ للنبي ﷺ فدَعاني فَحَدَّثْتُهُ ، فأرسلَ رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبيّ وأصحابِه فحَلَفُوا ما قالوا ، فكَذَّبني رسولُ الله ﷺ وصَدَّقَهُ ، فأصابني هَمٌّ لَمْ يُصِبْني مِثْلُهُ قَطُّ ، فَجَلَسْتُ في البيتِ فقال لي عَمّي: ما أَرَدْتَ إلى أن كَذَّبَكَ رسول الله ﷺ ومَقَتَكَ؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إليَّ النبي ﷺ فقرأ فقال: إنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يا زَيْدُ][1].

موضوع السورة

فضح المنافقين وكشف صفاتهم

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ فضحُ المنافقين في كذبهم وكفرهم بالدين ، وضخامة أجسادهم وفصاحة أقوالهم لا تخدع أهل اليقين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4900) ، كتاب التفسير ، وانظر كذلك (4901) ، (4904) ، وأخرجه مسلم (2772) ، والترمذي (3312) ، (3313).

2 ـ المنافقون يحسبون كل صيحة عليهم ، وهم العدو الذي يجب الحذر من مكرهم .

3 ـ كَشْفُ استكبار المنافقين وزهدهم في مغفرة الله الكريم ، وتقرير الله تعالى أن العزة له ولرسوله وللمؤمنين .

4 ـ تحذير المؤمنين من سبيل النفاق والمنافقين ، والأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعتاق النفوس من الجحيم .

5 ـ لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 4. **قوله تعالى:** ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (4)﴾.

في هذه الآيات: فضحُ الله تعالى المنافقين، في شهادتهم وأيمانهم الكاذبة وهم يصدون عن سبيل الله وعن رسوله الكريم، فلقد آمنوا ثم كفروا فهم لا يفقهون، ولهم أجساد مستوية وصور مهيبة وفصاحة في القول ولكن قلوبهم خاوية من الإيمان، ويحسبون كل صيحة عليهم من شدة جبنهم وخوفهم من أهل الإسلام، إنهم العدو الذي يجب الحذر منه فقاتلهم الله من قوم لئام.

فقوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾. إخْبَارٌ من الله تعالى عن مجيء المنافقين إلى النبي ﷺ يتفوّهون بالإسلام، ويشهدون بالرسالة للنبي عليه الصلاة والسلام، وليس الأمر كذلك في قلوبهم بل هم قوم منكرون. وقيل: معنى ﴿نَشْهَدُ﴾ نحلف، والأول أظهر.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾. جملة اعتراضية ضرورية للسياق. قال القرطبي: (﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ كما قالوه بألسنتهم).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: فيما أخبروا به، وإن كان مطابقاً للخارج، لأنهم لم يكونوا يَعْتَقِدون صحة ما يقولون ولا صِدْقَهُ، ولهذا كَذَّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم).

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾. أي استتروا بالأحلاف الكاذبة، والأيمان: جمع

يمين. قال مجاهد: (يجتنّون بها ، قال: ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا). قال قتادة: (﴿جُنَّةً﴾: سترة يستترون بها كما يستتر المستجنّ بِجُنّتِهِ في حرب وقتال ، فيمنعون بها أنفسهم وذراريهم وأموالهم ، ويدفعون بها عنها).

وقوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. أي فصدوا الناس عن الإسلام والجهاد ، بالتنفير وإلقاء الشبه والاقتداء بهم في تخلّفهم. وقيل: صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسّبي وأخذ الأموال.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. قال النسفي: (من نفاقهم وصدّهم الناس عن سبيل الله ، وفي ﴿سَآءَ﴾ معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾. أي: أقروا باللسان ثم كفروا بالقلب. وفيه إثبات أن الذي استقر عليه أمر المنافقين هو الكفر. ولذلك قال بعدها ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي ختم عليها بالكفر. قال قتادة: (أقروا بلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وقلوبهم منكرة تأبى ذلك).

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. أي: الحق من الباطل ، والمعروف من المنكر ، لطبع الله على قلوبهم وإقفالها. قال القاسمي: (﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي حقيقة الإيمان ، وحمكة الرسالة والدين).

وقوله: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾. أي: وإذا نظرت ـ يا محمد ـ إلى هؤلاء المنافقين لأعجبتك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن صورتها.

وقوله: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾. أي: كانوا ذوي فصاحة وبلاغة ، فلو سمعهم السامع لأصغى إلى حديثهم لبلاغة ألسنتهم. قال ابن عباس: (كان عبد الله بن أُبيّ وسيماً جسيماً صحيحاً صبيحاً ذَلِقَ اللسان ، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته. وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة).

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾. قال النسفي: (إلى الحائط ، شُبِّهوا في استنادهم ـ وماهم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير ـ بالخشب المسندة إلى الحائط ، لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، ومادام متروكاً غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به في عدم الانتفاع ، أو لأنهم أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام).

قال سيبويه: (خَشبَة وخُشُب، مثل بدَنة وبدن). و﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ للتكثير، لكثرة استنادهم إلى الأيمان الكاذبة لحقن دمائهم.

وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾. أي يظنون كلما وقع أمر أو حدث أو خوف أنه نازل بهم. قال القرطبي: (يحسبون كلّ صيحة عليهم أنه قد فُطِن بهم وعُلِمَ بنفاقهم، لأنّ للريبة خوفاً). وقال ابن جرير: (يقول جلّ ثناؤه: يحسب هؤلاء المنافقون من خبثهم وسوء ظنهم وقلة يقينهم، كلّ صيحةٍ عليهم، لأنهم على وجل أن يُنزل الله فيهم أمراً يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم وسبي ذراريهم، وأخذ أموالهم).

وفي التنزيل نحو ذلك، قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 19].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: [مَثَلُ المنافق كَمَثَلِ الشاةِ العائِرة[1] بين الغنمين، تَعِير إلى هذه مرَّة، وإلى هذِه مرَّة][2].

وقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾. إثبات عداوتهم ووجوب الحذر منهم. وذلك من وجهين: الأول: الحذر من الميل إلى كلامهم أو تصديقهم أو الثقة بأقوالهم. الثاني: الحذر من تخذيلهم المؤمنين أو قيامهم عيوناً للكافرين يتجسّسون على أعراض المسلمين ومخططاتهم ومناهجهم وتحركاتهم.

وقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾. كلمة ذمّ وتوبيخ. قال ابن عباس: (أي لعنهم الله). وقيل: بل المعنى أخزاهم الله. قال النسفي: (﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم، أو تعليم للمؤمنين أن يدعو عليهم بذلك).

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. أي: كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال، وكيف يعدلون عن الحق إلى الجهل والمكر.

---

(1) العائرة: المترددة، الحائرة لا تدري أيهما تتبع وكيف تتوجه، ومعنى تعير أي تتردد وتذهب.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2784)، كتاب صفة المنافقين وأحكامهم. وفي رواية للحديث: «تكِرُّ في هذه مرّة، وفي هذه مرّة».

5 ـ 8. **قوله تعالى**: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: كَشْفُ استكبار المنافقين وزهدهم في نيل المغفرة وتوعُّد الله لهم الحرمان من المغفرة والخذلان. وتقرير الله تعالى أن العزة له ولرسوله وللمؤمنين وأن الذلة على القوم المنافقين اللئام.

فقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: تعالوا إلى رسول الله ﷺ يستغفر لكم ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ يقول: حرّكوها وهزّوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره).

وقوله: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾. قال القرطبي: (أي يعرضون عن الرسول متكبرين عن الإيمان).

وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

قال النسفي: (أي ماداموا على النفاق. والمعنى: سواء عليهم الاستغفار وعدمه لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتدون به لكفرهم، أو لأن الله لا يغفر لهم).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. أي إن الله لا يوفق ولا يصلح من سبق في علم الله أنه سيموت فاسقاً.

وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾. أي: حتى يتفرّقوا عنه. قال ابن عباس: (لا تطعموا محمداً وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة، فيتركوا نبيهم) ـ وهو قول عبد الله بن أبيّ المنافق لأصحابه ـ.

أخرج الترمذي وأحمد وابن جرير بسند صحيح عن الحكم قال: سمعت محمد بن كعب القرظي قال: سمعت زيد بن أرقم رضي الله قال: [لما قال عبد الله بن أبيّ: ﴿لَا

نُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ، وقال أيضاً: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ، أخبرت به النبي ﷺ فلامني الأنصار ، وحلف عبد الله بن أبي ما قال ذلك ، فرجعت إلى المنزل فنمت فدعاني رسول الله ﷺ فأتيته ، فقال: إن الله قد صدقك ، ونزل بهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ﴾ الآية][1] .

وقد جاء في رواية أخرى عند الترمذي تفصيل كامل الحدث ـ من حديث زيد بن أرقم قال: [غزونا مع رسول الله ﷺ ، وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقونا إليه ، فسبق أعرابي أصحابه ، فيسبق الأعرابي فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النطع عليه ، حتى يجيء أصحابه ، قال: فأتى رجل من الأنصار أعرابياً فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه ، فانتزع قباض الماء فرفع الأعرابي خشبة ، فضرب بها رأس الأنصاري فشجّه. فأتى عبد الله بن أبي ـ رأس المنافقين ـ فأخبره ، وكان من أصحابه. فغضب عبد الله بن أبي ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله ، حتى ينفضوا من حوله ـ يعني الأعراب ـ وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام.

فقال عبد الله: إذا انفضوا من عند محمد ، فأتوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده.

ثم قال لأصحابه: لئن رجعنا إلى المدينة فليخرج الأعزُّ منكم الأذل. قال زيد: وأنا ردف رسول الله ﷺ فسمعت عبد الله بن أبي فأخبرت عمي ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحلف وجحد ، قال: فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني ، قال: فجاء عمي إلي فقال: ما أردت إلى أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون ، قال: فوقع علي من الهمّ مالم يقع على أحد ، قال: فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر قد خفقت برأسي من الهم ، إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي ، فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا.

ثم إن أبا بكر لحقني فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قلت: ما قال لي شيئاً ، إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي. فقال: أبشِر. ثم لحقني عمر ، فقلت له مثل قولي

---

(1) حسن صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (3312) ـ كتاب التفسير ، ورواه أحمد في المسند (4/ 369 ـ 373). ورواه ابن جرير. وانظر صحيح سنن الترمذي عقب الحديث (2640) ، وكذلك صحيح البخاري (4902).

لأبي بكر ، فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين][1] .

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . ردٌّ من الله على المنافقين ، أَنّ بيده تعالى مفاتيح خزائن السماوات والأرض ، فهو ينفق كيف يشاء ، ولا يقدر أحد أن يعطي أحداً شيئاً إلا بمشيئته.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ـ أنّ الأمر كذلك ، وأنه إذا أراد شيئاً يَسَّره.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ .

أخرج البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: [كنّا في غزاة ، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ـ أي ضربه برجله ـ ، فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية. قالوا: يا رسول الله! كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: دعوها فإنها منتنة ، فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعه لا يتحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد][2] .

ورواه الترمذي وفيه زيادة: [وقال غير عمر: فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: والله لا تنقلب حتى تُقِرَّ أَنّك الذليل ، ورسول الله ﷺ العزيز ففعل][3] .

ورواه ابن إسحاق ، وفيه: (فقال عمر: مُرْ به عبّاد بن بشر فليقتله ، فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ، ولكن أَذّن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس. قال: فلما استقل رسول الله ﷺ وسار ، لقيه أُسيد بن حُضير ، فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه ، ثم قال: يا نبي الله ، والله لقد رُحْتَ في ساعة مُنْكَرة ، ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بَلَغَكَ ما قال صاحبكم؟ قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟

---

(1) صحيح الإسناد. أخرجه الترمذي في «التفسير» ـ سورة المنافقين. انظر صحيح الترمذي (2640).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4905) ـ كتاب التفسير. وأخرجه مسلم في الصحيح (2584) ـ كتاب البر والآداب والصلة.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2641) ، كتاب التفسير ، سورة المنافقين.

قال: عبد الله بن أبي. قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. قال: فأنت يا رسول الله والله تُخْرِجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فو الله لقد جاءنا الله بك، وإن قومَهُ لَيَنْظُمون له الخرَزَ ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبتَهُ مُلكاً.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومَهُم حتى أمسى، ولَيْلَتَهُم حتى أصبح، وصَدْرَ يومهم ذلكَ حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وَجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي)[1].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. أي: ولله ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾ يعني الشدة والقوة، وكذلك لرسوله وللمؤمنين بالله، ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك.

9 ـ 11. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾.

في هذه الآيات: تحذيرُ الله تعالى المؤمنين من سبيل النفاق والمنافقين، والأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعتاق النفوس من الجحيم، ولا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله بكل شيء عليم.

فعن الضحاك: (قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ قال: الصلوات الخمس). وقيل: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي عن الحج والزكاة. وقيل: عن قراءة القرآن. وقيل: عن إدامة الذكر. وقال الحسن: (جميع الفرائض، كأنه قال عن طاعة الله). وهذا القول يشمل جميع ما قبله.

---

(1) انظر سيرة ابن هشام (2/ 290 ـ 292) وهو حديث رجاله ثقات لكنه مرسل، وله شاهد مرسل جيد من طريق عروة عند ابن أبي حاتم، فيكون حسناً لغيره مع أصله الذي مضى في الصحيحين. انظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (2/ 847).

وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. قال ابن جرير: (ومن يلهه ماله وأولاده عن ذكر الله ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يقول: هم المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته تبارك وتعالى).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. قال الضحاك، عن ابن عباس قال: (ما يمنع أحدكم إذا كان له مال يجب عليه فيه الزكاة أن يزكي، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت، فيسأل ربه الكرّة فلا يعطاها، فقال رجل: أما تتقي الله، يسأل المؤمن الكرّة؟ قال: نعم، أقرأ عليكم قرآناً، فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فقال الرجل: فما الذي يوجب عليَّ الحج؟ قال: راحلة تحمله، ونفقة تبلغه).

وعن سفيان: (قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: الزكاة والحج).

قلت: والآية عامّة في الحثّ على الإنفاق في الطاعات، فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار، ويسأل الزيادة في العمر ويتمنى الرجعة ليستعتب مما فات، ويتدارك نفسه قبل أن يصير في الأموات، ولكن هيهات هيهات، فقد كان ما كان وأتى ما هو آت.

قال الحافظ أبو القاسم الطَّبراني: حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نَجْدَة الحَوْطِيُّ، حدثنا المغيرة، حدثنا حَريزُ بن عثمان، عن نُعَيم بن نَمْحَة قال: كان في خُطبة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: (أما تعلَمون أنكم تَغْدون وتَروحون لأجل معلوم. فمن استطاعَ أن يقضِيَ الأجل وهو في عَمَلِ الله ـ عزَّ وجل ـ فليفعَلْ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عزَّ وجل، إن قوماً جَعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: 19]، أينَ مَنْ تَعْرِفون مَن إخوانكم؟ قدِموا على ما قدّموا في أيام سَلَفِهم، وخَلَّوا بالشِّقوة والسعادة، أين الجبّارون الأوّلون الذي بَنَوا المدائنَ وحَفَّفُوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الصَّخرِ والآبار. هذا كتاب الله لا تفنى عجائبُه فاستضيئوا منه ليوم ظُلمَةٍ، واستنصحوا كتابه وتبيانه، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]، لا خيرَ في قول لا يُراد به وجهُ الله، ولا خير في مالٍ

لا يُنفَقُ في سبيل الله. ولا خيرَ فيمن يغلِب جهلُه حلمَه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومةَ لائم)[1].

وأما الكفار، فإنهم يرجون الرجعة إلى الدنيا عند الاحتضار، ليؤمنوا بالله ويصدقوا الرسل ويعملوا بعمل الأبرار. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: 44].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99 ـ 100].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن جرير: (لن يؤخر الله في أجل أحد فيمدّ له فيه إذا حَضَرَ أجله، ولكن يخترمه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: والله ذو خبرة وعلم بأعمال عبيده هو بجميعها محيط، لا يخفى عليه شيء، وهو مجازيهم بها، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته).

تم تفسير سورة «المنافقون»
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
عصر الثلاثاء 29 رمضان 1426 هـ
الموافق 1/ تشرين الثاني/ 2005 م

❑ ❑ ❑

---

(1) إسناد جيد. ورجاله كلهم ثقات، ولهذه الخطبة شواهد. وقد ذكرها الحافظ ابن كثير في «التفسير» ـ سورة الحشر، اية (19)، وقال: هذا إسناد جيد.

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ المنافقون يقولون نقيض ما يوقنون ، فكذبهم الله تعالى وفضحهم في قرآن مبين .

2 ـ أضلّ الله تعالى المنافقين ، وفتنهم بأشكال وفصاحة وأجسام لا تنفعهم يوم الدين .

3 ـ قام ابن سلول ينافق في المسجد فأسكته الصحابة فترك الجمعة .

4 ـ الدعوات إلى غير منهاج الإسلام دعوات باطلة منتنة جاهلية .

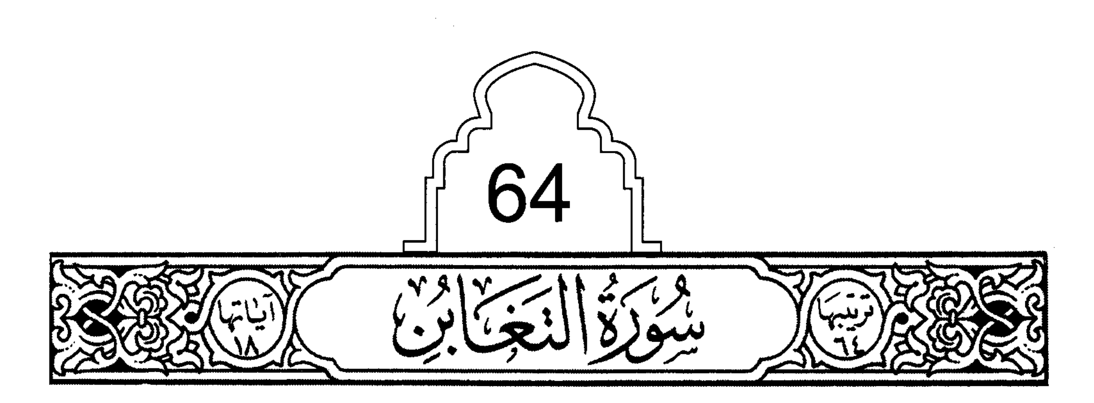
5 ـ مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعيرُ إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرّة .

6 ـ تألق ابن عبد الله بن أبي في موقفه من أبيه اللئيم ، فقد أعطى صورة المفاصلة الرائعة لهذا الدين .

7 ـ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والخزي والذل والهوان على المنافقين .

8 ـ لا تؤجل نفس حلّ أجلها ، ولا رجعة للدنيا بعد الموت .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية في قول الأكثرين. وقال الضحاك: مكية. وقال الكلبي: هي مكية ومدنية. وعدد آياتها (18). وهي آخر المُسَبِّحات.

موضوع السورة

فتنة الكفار والأزواج والأولاد والأموال
وأهوال يوم التغابن الشديد الأحوال

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ اشتراك جميع الكائنات بالتسبيح لله الملك القوي الحميد.

2 ـ الخلق كله لله مؤمنهم وكافرهم، وهو العليم بدقائق أعمالهم.

3 ـ أحسن الله تعالى كل شيء خلقه، وعلم أفعال العباد وسرائرهم وما يعلنون.

4 ـ تذكيرُ الله تعالى عباده خبرَ من كفر من الأمم ونزول انتقامه بهم الأليم، وهذا جزاء البغي والكبر ومعاندة الوحي والمرسلين.

5 ـ استبعاد الكفار البعث والحساب، وتأكيد الله تعالى الجزاء والعقاب.

6 ـ دعوة الله عباده الصدق في الإيمان، والاستعداد ليوم الشدة والزحام.

7 ـ المؤمنون خالدون في جنات النعيم، والكفار مخلدون في نار الجحيم.

8 ـ إثبات حدوث المصائب بأمر الله العظيم ، وإثبات أمر الهداية من الله للمؤمنين.

9 ـ الأمر بطاعة الله ورسوله الكريم ، وحسن التوكل على الله العظيم.

10 ـ تنبيه الله عباده المؤمنين لفتنة الأزواج والأولاد والأموال ، والحث على التقوى والسمع والطاعة والبذل وحسن الأقوال والأعمال.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 4. **قوله تعالى:** ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تسبيحُ جميع الكائنات لله الملك القوي الحميد، الذي خَلَقَ الخلق وَعَلِمَ الإيمان والكفر وهو العليم البصير، وصَوَّر العباد فأحسن التصوير وإليه المصير، وتفرد بعلم الغيب وهو عليم بذات الصدور.

فقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. إخْبارٌ من الله تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء يسبّح له ويمجّده ويقدّسه، ويصلي له ويوحِّده، كقوله جل ذكره: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44].

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾. أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، وسلطانه ماض وقضاؤه نافذ في جميع المخلوقات، وهو المحمود على جميع ما يخلقه ويُقَدِّره.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. أي: ما شاء كان، ومالم يشأ لم يكن، وكل أمر أراده فلا مانع له ولا مدافع.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾. قال ابن عباس: (إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، ويعيدهم في يوم القيامة مؤمناً وكافراً). وقال الزجاج: (إن الله

خلق الكافر ، وكُفْرُهُ فِعْلٌ له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر. وخلق المؤمن ، وإيمانه فعلٌ له وكسب ، مع أن الله خالق الإيمان).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 ـ 10].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً: [خلقَ الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً ، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً][(1)].

الحديث الثاني: أخرج أحمد في المسند ، وابن سعد في «الطبقات» بسند صحيح عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ مرفوعاً: [إن الله عزَّ وجل خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي. فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر][(2)].

وله شاهد في المسند وزوائد المسند بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى ، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى ، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم ، فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي ، وقال للذي في كتفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي][(3)].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً: [إن أحدكم أو الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غيرُ ذراعٍ أو باعٍ ، فَيَسْبِقُ عليه الكتاب فيعملُ بِعَمَلِ أهلِ الجنة فيدخُلُها ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعملِ أهل

---

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني (10543) ، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (2/ 190) ، واللالكائي في «السنة» (130/ 1 ـ 2). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1831).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 186) ، وابن سعد (1/ 30) ، وابن حبان (1806) ، وغيرهم.

(3) رواه أحمد وابنه في زوائد «المسند» (6/ 441) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (ج 15/ 136/ 1) ، وإسناده صحيح. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (49).

الجنة حتى ما يكونُ بينه وبينها غيرُ ذراع أو ذراعين ، فَيَسْبِقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعملِ أهل النار فيدخُلُها](1) .

الحديث الرابع: أخرج الشيخان وابن حبان من حديث سهل بن سعد مرفوعاً: [إنّ الرجل ليَعْملُ عملَ أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإنّ الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة](2) .

والمقصود: تعلق علم الله الأزلي بكل معلوم ، فيجري ما علم وما أراد وما حكم .

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ . أي: والله الذي خلقكم بصير بأعمالكم ، فاحذروا غضبه وما يعقب مخالفة أمره ونهيه .

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ . قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: خلق السماوات السبع والأرض بالعدل والإنصاف) . وقال ابن كثير: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالعدل والحكمة) .

وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ . قال ابن عباس: (يعني آدم خلقه بيده) .

قلت: بل الآية تعم جميع الخلائق ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]. قال النسفي: (﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي جعلكم أحسن الحيوان كله وأبهاه) .

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ . أي: المرجع ، فيجازي كلاً بعمله ، فأحسنوا سرائركم وأعمالكم كما أحسن الله صوركم .

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ . قال الزمخشري: (نبه بعلمه ما في السماوات والأرض ، ثم بعلمه ما يسرّه العباد ويعلنونه ، ثم بعلمه ذوات الصدور ، أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ، ولا عازب عنه ، فحقه أن يتقى ويحذر ، ولا يجترأُ على شيء مما يخالف رضاه . وتكرير العلم ، في معنى تكرير الوعيد . وكل ما ذكره بعد قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6594) ـ كتاب القدر . ورواه مسلم (2643) ، وأبو داود (4708) ، والترمذي (2137) ، وابن ماجة (76) ، وأحمد (1/ 414) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2898) ، (6493) ، ومسلم (112) ، وابن حبان (6175) ، والبيهقي في الدلائل (4/ 252) ، وأحمد (5/ 331) .

كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ كما ترى ، في معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته).

5 ـ 6. **قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝﴾.

في هذه الآيات: تذكيرُ الله تعالى عباده خَبَرَ من كفر من قبل ونزل بهم العذاب الأليم ، ذلك بسبب البغي والكبر ومعاندة الوحي والمرسلين.

فقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾. قال القرطبي: (الخطاب لقريش. أي: ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية. ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي عوقبوا. ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي موجع).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾. أي: هذا العذاب الذي نزل بتلك الأمم بسبب كفرهم برسلهم وقد جاؤوهم بالآيات الباهرات والدلائل القاطعات على النبوة ، فأنكروا أن يكون الرسول من البشر كِبراً وعلواً. قال النسفي: (أنكروا الرسالة للبشر ولم ينكروا العبادة للحجر).

وقوله: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾. أي: كفروا بالرسل وأعرضوا عن الإيمان ، وتولوا عن صحيح الدليل والبرهان.

وقوله: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾. قال مقاتل: (أي بسلطانه عن طاعة عباده). وقيل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان ، عن زيادة تدعو إلى الرشد وتقود إلى الهداية.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول: والله غني عن جميع خلقه ، محمود عند جميعهم بجميل أياديه عندهم ، وكريم فعاله فيهم).

7 ـ 10 . **قوله تعالى:** ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: استبعادُ الكفار البعث والحساب ، وتأكيدُ الله تعالى الجزاء والعقاب ، ودعوة الله عباده إلى الصدق في الإيمان ، والاستعداد ليوم الشدة والزحام ، فالمؤمنون في جنات النعيم ، والكفار مخلدون في الجحيم.

فقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾. أي ظنوا أنهم لا يبعثون بعد موتهم. قال القرطبي: (والزَّعم هو القول بالظن). وقال شُريح: (لكل شيء كُنْية ، وكُنْيَةُ الكذب زعموا).

وقوله: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾. أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين للبعث بعد الموت: بلى وربّي لتخرجن من قبوركم أحياء ، ثم لتخبرن بما أسلفتم من أعمال أيام دنياكم.

وقوله: ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. أي: وبعثكم ومجازاتكم هين على الله تعالى. وهذه ثالث آية أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد تأكيداً لذلك ، وتشديداً في لهجة الإثبات أمام زعم المشركين. **وهذه الآيات:**

1 ـ قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: 53].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: 3].

3 ـ وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7].

وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. أمرهم بالإيمان بالله تعالى ورسوله محمد ﷺ بعد أن عرفهم قيام الساعة وهدّدهم موقف العرض والحساب.

وقوله: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾. يعني القرآن. فهو نور يهدي به الله قلوب العباد، وهو نور يُهتدى به من ظلمة الضلال إلى سبيل النجاة والرشاد.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. أي: فلا تخفى عليه سرائركم وعلانيتكم.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾. قال ابن كثير: (وهو يومُ القيامة، سُمِّيَ بذلك لأنه يُجْمَعُ فيه الأوّلون والآخرون في صعيد واحدٍ، يُسْمِعُهم الداعي وينفذهم البَصَر، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: 103]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 49 ـ 50]).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾. قال ابن عباس: (هو اسم من أسماء يوم القيامة، عظّمهُ وحذّره عباده). وقال قتادة: (﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ هو يوم القيامة، وهو يوم التغابن: يوم غبن أهل الجنة أهل النار). وقال مقاتل: (لا غَبْنَ أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويُذهب بأولئك إلى النار).

قلت: والتغابن في لغة العرب يحمل معنى الذهول، فأهل الجنة يذهلون يوم القيامة من حال أهل النار الذي صاروا إليه، فإطلاق اسم ﴿ٱلتَّغَابُنِ﴾ على يوم القيامة هو من باب التهويل والتحذير من أهوال ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. أي: ومن يَصْدُق الله الإيمان والعمل يمح عنه ذنوبه ويدخله بساتين الخلود تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار وذلك هو الظفر العظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. أي: والذين جحدوا توحيد الله وإفراده بالتعظيم، وكذبوا بكتابه ورسوله أولئك أهل النار يمكثون فيها ولا يخرجون منها، فبئس المستقر وساء المنقلب والمآل والقرار.

11 ـ 13. قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا

عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ حدوث المصائب بأمر الله ، وإثباتُ أمر الهداية للمؤمنين والتوفيق بإذن الله ، والأمر بطاعة الله ورسوله والتوكل على الله .

فقوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ . قال ابن عباس : (بأمر الله ، يعني عن قَدَره ومشيئته) . وقال القرطبي : (﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي بإرادته وقضائه) .

وقوله : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ . قال ابن عباس : (يعني : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه) . وعن الأعمش ، عن أبي ظبيان قال : كنا عند علقمة ، فَقُرِئ عنده هذه الآية : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ فَسُئل عن ذلك فقال : (هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيسلم ذلك ويرضى) ـ رواه ابن جرير .

وقال سعيد بن جبير : (﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ ، يعني : يسترجع ، يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة : 156]) .

والمقصود : من نزلت به مصيبة فصبر واسترجع طمأن الله قلبه وعوضه خيراً منها . كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : 155 ـ 157] .

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها . قالت : فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة ، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ؟ ثم إني قلتها ، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ][1] .

الحديث الثاني: أخرج الدارمي وأحمد بسند صحيح عن صهيب قال : [بينا

(1) حديث صحيح . رواه مسلم (3/ 37) ، وأحمد (6/ 309) ، والبيهقي (4/ 65) .

رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن][1].

الحديث الثالث: أخرج الطيالسي والبيهقي بسند صحيح عن سعد مرفوعاً: [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر ، وإذا أصابه خير حمدَ الله وشكر ، إنّ المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه][2].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. أي: والله قد أحاط بكل شيء علماً ، بما كان ويكون وما هو كائن من قبل أن يكون ، وما لن يكون ولكن لو قدّر وكان كيف يكون.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾. أَمْرٌ بتعظيم الوحيين: القرآن والسنة المطهرة ، فإن في طاعة الله ورسوله النجاة والسعادة في الدارين.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾. أي: فإن أعرضتم وأدبرتم عن طاعة الله وطاعة رسوله مستكبرين فإن واجب الرسول البلاغ ، والله سبحانه وليّ الانتقام ممن عصاه ، وخالف أمره وركب هواه. قال الزهريُّ: (من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم).

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. أَوّلُه خبر عن التوحيد يفيد الطلب ، والتقدير: أفردوا الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، وأحسنوا التوكل عليه فإنه هو ولي المؤمنين.

14 ـ 18. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ

---

(1) أخرجه الدارمي (2/ 318) ، وأحمد (6/ 16) وسنده صحيح على شرط الإمام مسلم. وبنحوه روى مسلم في الصحيح (8/ 227) ، وله شواهد كثيرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه الطيالسي (211) ، والبيهقي بسند صحيح. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (147) ، وصحيح الجامع الصغير (3881).

وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تنبيهُ الله تعالى عباده المؤمنين إلى فتنة الأزواج والأولاد والأموال وما قد يشغل عن ذكره والجهاد في سبيله، والحث على التقوى والسمع والطاعة والإنفاق في سبيل الله لنصرة دينه.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾. تنبيه المؤمنين إلى مواطن من العداوة تصد عن طاعة الله وتلهي عن ذكر الله. فإن من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويُثَبِّطْنَهم عن العمل الصالح، وربما حَمَلْنَهم على بعض الأعمال المنكرات، وكذلك فإنّ نحو هذه العداوة قد يتسبب بها الأولاد.

أخرج الترمذي بسند حسن عن ابن عباس، وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾. قال: [هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، أن يأتوا رسول الله، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ الآية][1]. وفي رواية ابن أبي حاتم: (فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾).

وعن مجاهد: (﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: يحمل الرجلَ على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع الرجلُ مع حُبِّه إلا أن يطيعه). وقال ابن زيد: (﴿فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾: يعني على دينكم).

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].

---

(1) حسن صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3317) ـ كتاب التفسير ـ سورة التغابن. وانظر صحيح الترمذي (2642). ورواه الطبري (34198). ورواه الحاكم وابن أبي حاتم.

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن يَعْلى العامري أنه قال: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي ﷺ فضمّهما إليه وقال: [إن الولدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ](1).

الحديث الثاني: أخرج الحاكم بسند صحيح من حديث الأسود بن خلف مرفوعاً: [إنَّ الولدَ مبخلة مجبنة مجهلةٌ محزنة](2).

الحديث الثالث: أخرج أبو يعلى والبزار بسند صحيح في الشواهد عن أبي سعيد مرفوعاً: [الولدُ ثمرة القلب، وإنه مَجْبنةٌ، مَبْخلَةٌ، مَحْزَنَةٌ](3).

وقوله: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال النسفي: (﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عنهم إذا اطلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ تستروا ذنوبهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم سيئاتكم).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قال قتادة: (﴿فِتْنَةٌ﴾ يقول: بلاء، ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهي الجنة).

وفي التنزيل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14].

وفي سنن أبي داود وابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن بريدة، أن أباه حدثه قال: [رأيت رسول الله ﷺ يخطب، فأقبل حسن وحسين عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل النبي ﷺ فأخذهما فوضعهما في حِجْرِه، فقال: صدق الله ورسوله، ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. رأيت هَذَيْن فلم أصبر، ثم أخذ في خطبته](4).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3666) ـ كتاب الأدب. انظر صحيح ابن ماجة (2957).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم من حديث الأسود بن خلف. والطبراني من حديث خولة بن حكيم. انظر تخريج المشكاة (4691 ـ 4692)، وصحيح الجامع (1986).

(3) صحيح لغيره. أخرجه البزار (1892)، وأبو يعلى (1032)، وانظر صحيح الجامع (7037).

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1109)، وابن ماجة (3600)، والترمذي (3774)، وأحمد (5/ 354)، والحاكم (4/ 354)، وابن حبان (6039).

وأخرج الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد عن الشَّعبي قال: [حَدّثنا الأشعث بن قيس قال: قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ في وَفْدِ كِنْدَةَ ، فقال لي: هل لكَ من ولَد؟ قلتُ: غلامٌ وُلِدَ لي في مخرجي إليك من ابنة حَمَد ، ولَوددْتُ أن بمكانه شِبَعَ القوم. قال: لا تقولَنّ ذلك ، فإن فيهم قُرّة عين ، وأجراً إذا قُبضوا ، ثم قال: ولئن قلت ذاك إنهم لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ ، إنهم لمجبنة مَحْزنة][1].

وقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾. أصل عظيم من أصول هذه الشريعة المطهرة ، وجواب من جوامع الكلم لكثير من المسائل الفقهية المستعصية. والمقصود: استوفوا جهدكم معشر المؤمنين في تقوى ربكم وابذلوا طاقتكم.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه][2].

وقوله: ﴿ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾. قال ابن كثير: (أي: كونوا مُنقادين لما يأمُركم الله به ورسولُه ، لا تحيدوا عنه يمنةً ولا يسْرَةً ، ولا تُقَدِّموا بين يدي الله ورسوله ، ولا تَتَخَلَّفوا عما أُمِرتم ، ولا تركَبوا ما عنه زُجِرتم).

وقوله: ﴿ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وأنفقوا مالاً من أموالكم لأنفسكم تستنقذوها من عذاب الله. والخير في هذا الموضع المال). والمراد: بذلُ المال على الفقراء من الأرحام والقرابات ، والمساكين من المسلمين ذوي الحاجات.

وقوله: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. أي: ومن يدافع السقوط فينصره الله على هوى نفسه وبخلها وشحها وحرصها وطمعها يصبح من المفلحين الناجين المدركين آمالهم عند ربهم.

وفي التنزيل:

﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل: 8 ـ 11].

وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم ، فإن الظلم

---

(1) حسن بشواهده. أخرجه أحمد (5/ 211) ، والحاكم (4/ 239) ، والطبراني (646).
(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (1337) ، وسنن النسائي (5/ 110) ، في أثناء حديث طويل.

ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم][1] .

وقوله : ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الآية .

قال النسفي : (﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بنية وإخلاص ، وذكر القرض تلطف في الاستدعاء ﴿يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ يكتب لكم بالواحدة عشراً أو سبع مئة إلى ما شاء من الزيادة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبل القليل ويعطي الجزيل ﴿حَلِيمٌ﴾ يقيل الجليل من ذنب البخيل ، أو يضعف الصدقة لدافعها ولا يعجل العقوبة لمانعها) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ينزلُ الله تعالى في السماء الدنيا لِشَطْرِ الليل ، أو ثلث الليل الآخر ، فيقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له! أو يسألني فأعْطِيَه! ثم يقول: مَنْ يُقْرِضْ غيرَ عديمٍ ولا ظلوم][2] .

وقوله : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ . أي يعلم ما خفي من سرائر القلوب ، وما انتشر من ظواهر الأمور والخطوب .

وقوله : ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ . أي الذي قهر بعزته وكبريائه كل شيء ، والذي أتقن كل شيء فأحكم خلقه ، فهو الحكيم في أقواله وأفعاله وقدره وشرعه وتدبيره .

تم تفسير سورة التغابن
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر السبت 3 شوال 1426 هـ
الموافق 5 / تشرين الثاني / 2005 م

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في الصحيح (2578) ـ كتاب البر والصلة ، من حديث جابر .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (758) ح (171) ـ كتاب صلاة المسافرين . وأخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» ص (131) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (496) . وأعدم الرجل ـ في لغة العرب ـ إذا افتقر ، فهو معدوم وعديم وعدوم .

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ علم الله تعالى من يستحق الهداية ممن يستحق الضلال .

2 ـ استبعد الكفار أن تكون هدايتهم على أيدي بشر مثلهم .

3 ـ التغابن اسم من أسماء يوم القيامة ، عظّمه الله وحذّره عباده .

4 ـ عجباً للمؤمن ، إن الله تعالى لا يقضي له قضاء إلا كان خيراً له .

5 ـ من استسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعَوَّضَه عما فاته .

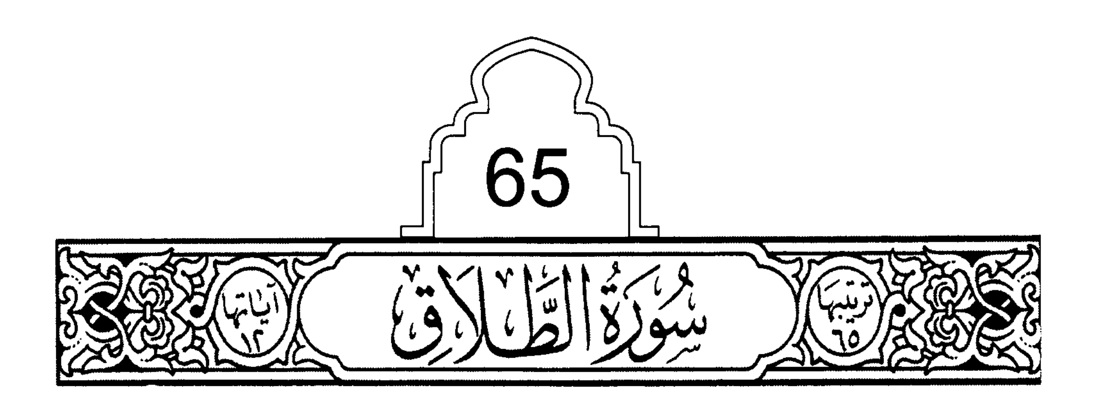
6 ـ الأزواج والأولاد والمال فتنة ، فإياكم أن تفتنوا بذلك عن دينكم .

7 ـ الولد ثمرة القلب ، وإنه مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ محزنة .

8 ـ الصدقات على الله جزاؤها ونزلت منزلة القرض له .

9 ـ اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشُّحَ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم .

10 ـ الله تعالى يعلم ما خفي من سرائر القلوب ، وما انتشر من ظواهر الأمور والخطوب .



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (12).

موضوع السورة

أحكام الطلاق والعدة

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ بيان العدة التي تطلق لها النساء ، وتأكيد حق السكنى للمطلقة مادام لزوجها عليها رجعة.

2 ـ الحث على تعظيم حدود الله ، والتحذير من تجاوز حدود الشريعة.

3 ـ الأمر بالإحسان للزوجات في الإمساك أو الفراق ، وبيان جائزة التقوى والحث على التوكل على الله فهو علامة الفلاح والسباق.

4 ـ بيان عدة الآيسة والصغار اللائي لم يحضن ، وتوضيح عدة الحامل.

5 ـ الأمْرُ بالسكنى والنفقة للمطلقة حتى انقضاء عدتها ، والتحذير من التضييق عليها.

6 ـ الحامل ينفق عليها حتى تضع حملها ، وأجر الإرضاع على الآباء ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

7 ـ سنة الله تعالى في الانتقام من أهل القرى الظالمين ، وامتنان الله سبحانه بنعمة الوحي والهداية ونعيم الآخرة على المؤمنين .

8 ـ الإخبار عن قدرته تعالى وسلطانه العظيم ، وخلقه سبع سماوات وسبع أرضين .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾

في هذه الآية: بيانُ العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، وتأكيد حق السكنى للمطلقة مادام لزوجها عليها رجعة، والحث على تعظيم حدود الله.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. قال القرطبي: (الخطاب للنبي ﷺ، خوطب بلفظ الجماعة تعظيماً وتفخيماً).

أخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، عن ابن شهاب قال: أخبرني سالِمٌ: [أنّ عبد الله بن عمرَ رضي الله عنهما أخبره: أنه طَلَّقَ امرأتَهُ وهي حائضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لرسول الله ﷺ، فَتَغَيَّظَ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: لِيُراجِعْها ثُمَّ يُمْسِكْها حتى تَطْهُرَ، ثم تحيضَ فتطهُرَ، فإنْ بدا له أن يُطَلِّقها فليطلِّقْها طاهِراً قَبْلَ أن يَمَسَّها، فتِلك العِدَّةُ كما أمَرَهُ الله](1). ورواه مسلم وفيه: [فتلك العدَّة التي أمر الله أن يطلق لها النساء].

وفي صحيح مسلم عن ابن جُرَيْج قال: [أخبرني أبو الزبير: أنه سَمِعَ عبدَ الرحمن بنَ أيمنَ مولى عَزَّةَ، يسألُ ابنَ عُمَرَ؟ وأبو الزبير يسمع ذلك، كيف ترى في رَجُلٍ طَلَّقَ امرأته حائِضاً؟ فقال: طَلَّقَ ابنُ عمر امرأته وهي حائِضٌ على عهد رسول الله ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ رسول الله ﷺ؟ فقال: إنَّ عبدَ الله بن عمرَ طَلَّقَ امرأته وهي

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4908) ـ كتاب التفسير. ورواه مسلم (1471) ح (1).

حائِضٌ ، فقال له النبي ﷺ: «لِيُراجِعْها» ، فردّها ، وقال: «إذا طَهُرت فَليُطَلِّقْ أو لِيُمْسِكْ»

قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾][1].

ورواه أبو داود وفيه: [وقرأ النبي ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ في قُبُلِ ، عدتهن].

وعن ابن عباس: (﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قال: لا يُطَلِّقها وهي حائضٌ ولا في طُهرٍ قد جامعها فيه ، ولكن: يتركُها حتى إذا حاضت وطَهُرت طلَّقَها تطليقةً). وقال عكرمة: (﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ، العِدّة: الطهر ، والقُرْء الحَيضة ، أن يُطَلِّقها حُبْلى مستبيناً حَمْلُها ، ولا يُطَلِّقها وقد طاف عليها ، ولا يدري حُبْلى هي أم لا).

قال ابن كثير: (ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكامَ الطلاق وقَسَّموه إلى طلاق سُنَّة وطلاق بِدْعَة ، فطلاقُ السنة أن يُطَلِّقها طاهراً من غير جِماع ، أو حامِلاً قد استبان حَملُها ، والبِدْعي: هو أن يُطَلِّقها في حال الحيض ، أو في طهر قد جامعها فيه ، ولا يدري أحَمَلت أم لا؟ وطلاق ثالثٌ لا سُنّة فيه ولا بِدعة ، وهو طلاقُ الصغيرة والآيِسة ، وغير المدخول بها).

وقوله: ﴿ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾. قال السدي: (احفظوا العدة). وقال النسفي: (اضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن ، وخوطب الأزواج لغفلة النساء). والمقصود من ذلك: ضبط أول العدة ونهايتها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾. أي وخافوا ربكم أيها الناس في ضبط تلك العدة واحذروا معصيته في أي أمر أو حدّ من حدود شرعه.

وقوله: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾. قال ابن عباس: (هي المطلقة لا تخرج من بيتها ، مادام لزوجها عليها رجعة ، وكانت في عدة). فلها حق السكنى أثناء عدتها ، وليس لزوجها أن يخرجها كما ليس لها أن تخرج لأنها معتقلة لحق زوجها.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1471) ح (14) ـ كتاب الطلاق. وأخرجه أبو داود (2185) ، والنسائي (6/ 139) ، وأحمد (2/ 80 ـ 81) ، والشافعي (2/ 33).

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾. قال مجاهد: (إلا أن يزنين)، وقال الحسن: (الزنى، فتخرج ليقام عليها الحد). وقال قتادة: (إلا أن يطلقها على نشوز، فلها أن تحول من بيت زوجها). وقال ابن عباس: (والفاحشة: هي المعصية). وقال: (الفاحشة المبينة أن تبذُوَ على أهلها).

والخلاصة من أقوال المفسرين في ذلك: لا يُخْرَجْنَ من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة وهي: أ ـ الزنا. ب ـ إذا نشَزَت المرأة أو بَذَتْ على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفِعال.

وقوله: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾. أي: شرائعه ومحارمه وما حَدّ لخلقه من الأحكام.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾. قال الضحاك: (يقول: تلك طاعة الله فلا تعتدوها. من كان على غير هذه فقد ظلم نفسه). وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ومن يتجاوز حدود الله التي حدّها لخلقه فقد ظلم نفسه، يقول: فقد أكسب نفسه وزراً، فصار بذلك لها ظالماً، وعليها متعدّياً).

وقوله: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾. قال قتادة: (أي مراجعة). قال: (هذا في مراجعة الرجل امرأته). وقال مقاتل: (﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد طلقة أو طلقتين ﴿أَمۡرٗا﴾ أي المراجعة من غير خلاف). قال القرطبي: (الأمر الذي يحدثه الله أن يُقَلِّبَ قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه، فيراجعها).

ومن هنا ذهب الإمام أحمد وطائفة من السلف إلى أن المبتوتة لا تجب لها السكنى ولا النفقة، وقد صحّ بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ:

فقد أخرج النسائي في «الكبرى» والطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن عامر الشعبي: [أنه دخل على فاطمة بنتِ قيس أُختِ الضّحاك بن قيس القُرَشي، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إليَّ وهو مُنطلقٌ في جيش إلى اليمنِ بِطَلاقي، فسألتُ أولياءَه النفقة عليَّ والسكنى، فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً، ولا أوصانا به، فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ فقُلت: يا رسول الله! إنَّ أبا عَمْرو بن حفص أرسلَ إليَّ بِطَلاقي، فطلبتُ السكنى والنفقة عليّ، فقال أولياؤه: لم يُرسِل إلينا في ذلك بشيءٍ. فقال رسول الله ﷺ: إنما السكنَى

والنفقةُ للمرأة إذا كان لزوجها عليه رَجْعَةٌ ، فإذا كانت لا تَحِلّ له حتى تَنكِحَ زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى][1] .

2 ـ 3. قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالى الرجال بالإحسان للزوجات في الإمساك أو الفراق ، وبيانُ جائزة التقوى والحث على صدق التوكل على الله ففي ذلك الفلاح والسباق .

فقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ . أي المعتدات ، إذا قاربن انقضاء العدة. قال ابن جرير: (﴿ أَجَلَهُنَّ ﴾ وذلك حين قرب انقضاء عددهن) .

وقوله: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ . قال الضحاك: (يقول: فراجع إن كنت تريد المراجعة قبل أن تنقضي العدّة بإمساك بمعروف ، والمعروف أن تحسن صحبتها ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ والتسريح بإحسان: أن يدعها حتى تمضي عدتها ، ويعطيها مهراً إن كان لها عليه إذا طلقها) . وقال ابن كثير: (﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ : أي محسناً إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي: من غير مُقَابحةٍ ولا مُشاتمةٍ ولا تعنيف ، بل يُطَلِّقها على وَجه جَميل وسبيل حسن) .

وقوله: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ . هو على الندب لا على الوجوب ، سواء في الطلاق أو الرجعة ، كقوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة: 282]. وهو مذهب أبي حنيفة.

قلت: وإنما يتأكد في حق مَنْ عُرِف بالاستهتار في هذه الأمور وعدم المبالاة.

قال القرطبي: (وفائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد ، وألا يُتَّهَمَ في إمساكها ،

(1) حديث حسن. أخرجه النسائي في «الكبرى» (5596) ، والطبراني في «الأوسط» (1164)، وإسناده حسن ، وللحديث طرق وشواهد كثيرة.

ولئلا يموت أحدهما فيدّعي الباقي ثبوت الزوجية لِيَرث).

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن عمران بن حصين، سئل عن الرجل يطلق امرأته، ثم يقع بها، ولم يشهد على طلاقها، ولا على رجعتها، فقال: [طَلَّقْتَ لغير سُنة، وراجَعْتَ لغير سنة: أَشْهِدْ على طلاقها، وعلى رجعتها، ولا تَعُدْ][1].

وعن الحسن: (﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: من المسلمين). وقال قتادة: (من أحراركم).

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾. قال النسفي: (لوجهه خالصاً، وذلك أن يقيموها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الضرر).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾. أي: إنما ينتفع بهذه الأحكام والمواعظ من كان يؤمن بالله ويعظم شرعه، ويخاف عقابه في الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾. أصل عظيم من أصول الشريعة المطهرة، فإن التقوى هي مفتاح كل خير، وكل فرج ومخرج من كل أمر عسير.

قال ابن عباس: (﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ يقول: نجاته من كلّ كرب في الدنيا والآخرة). وعن قتادة: (﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ قال: من شبهات الأمور، والكرب عند الموت). وقال الحسن: (مخرجاً مما نهى الله عنه). وقال أبو العالية: (مخرجاً من كل شدة). وقال الربيع بن خُثَيْم: (﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من كل شيء ضاق على الناس). وقال الكلبي: (﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالصبر عند المصيبة ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من النار إلى الجنة). وقال الحسين بن الفضل: (﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أداء الفرائض، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من العقوبة).

وقال سهل بن عبد الله: (﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في اتباع السنة ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من عقوبة أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب).

وقيل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في الرزق بقطع العلائق يجعل له مخرجاً بالكفاية. وقال عمر بن عثمان الصَّدفي: (﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه يخرجه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2186) ـ تفريع أبواب الطلاق. باب الرجل يراجع ولا يشهد. وانظر صحيح سنن أبي داود (1915).

من الحرام إلى الحلال ، ومن الضّيق إلى السّعة ، ومن النار إلى الجنة).

وقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. أي من جهةٍ لا تخطر بباله. قال قتادة: (من حيث لا يرجو ولا يؤمل). وفي الأثر عن أبي ذر قال: (إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم ـ تلا ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فما زال يكررها ويعيدها)[1].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنته ، يعطى بها (وفي رواية: يثاب عليها الرزق في الدنيا) ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها][2].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. أي: ومن يفوّض أموره إلى الله ، ويحسن الاعتماد عليه ـ سبحانه ـ فهو كافيه ما أهمه وما أغمّه.

قال الإمام أحمد: (التوكل عمل القلب). وقال سهل: (التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد). وقيل: (هو علم القلب بكفاية الرب للعبد).

قلت: ولا يستقيم التوكل إلا من أهل العمل ومواجهة القدر بالقدر ، وإلا كان عجزاً وكسلاً. وقد امتدح الله المؤمنين بهذه الصفة العالية فقال جل ثناؤه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12]. وقال جل ذكره: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

ومن كنزو السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: [لَوْ أنكُم كُنْتم تَوَكّلُون على الله حقَّ توكُّلِه لَرُزِقْتُم كما تُرْزَقُ الطيرُ ، تَغْدو خِماصاً ، وتروح بِطاناً][3].

الحديث الثاني: أخرج أحمد وأبو داود والترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [من نزلت به فاقةٌ ، فأنزلَها بالناس ، لَمْ تُسَدَّ فاقتُه ،

---

(1) أخرجه الحاكم (2/ 492) ، والبيهقي في «الشعب» (1330) مرفوعاً ، ولا يصح رفعه كما قال الهيثمي (9130) ففيه انقطاع. والأشبه أن يكون موقوفاً.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 135) ، وأحمد (3/ 125). وانظر السلسلة الصحيحة (53).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2344) ، وابن ماجة (4164). انظر صحيح الترمذي (1911).

ومن نزلت به فاقةٌ ، فأنزلها بالله ، فيوشِكُ اللهُ له برزقٍ عاجل ، أو آجلٍ].

وفي لفظ : [من نزل به حاجةٌ فأنزلها بالناس كانَ قَمِناً ألا تُسَهَّل حاجتُه ، ومنْ أنزلها بالله أتاه الله برزقٍ عاجل ، أو بموت آجل](1).

الحديث الثالث : أخرج البزار وابن أبي الدنيا بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً: [لو تعلمونَ قَدْر رحمةِ الله عزَّ وجل ، لاتَّكلتُم عليها](2).

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ ﴾. قال ابن كثير : (أي: مُنْفِذٌ قضاياه وأحكامه في خَلْقِه بما يُريده ويشاؤه).

وقوله : ﴿ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾. قال مسروق : (أجلاً). أو قال : (منتهى). قال القرطبي : (أي لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه. وقيل : تقديراً).

وفي التنزيل : ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ [الرعد : 8].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وكان عرشه على الماء](3).

ورواه الترمذي بلفظ: [قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة].

4 ـ 5. قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 442) ح (4207) ورجاله ثقات ، وأخرجه الترمذي (2326) ، وأبو داود من حديث ابن مسعود. وانظر صحيح الجامع (6442).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (2/ 193/ 1) ، ورواه البزار بإسناد حسن كما قال الهيثمي (10/ 213). وانظر السلسلة الصحيحة (2167).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 51) ـ باب كتب المقادير قبل الخلق. وانظر مختصر صحيح مسلم (1841) بلفظ: (كتب الله مقادير الخلائق. . .) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (1750) ـ أبواب القدر ، ورواه أحمد.

لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

في هذ الآيات: بيانُ عدة الآيسة ـ وهي التي انقطع محيضها لكبرها ـ أنها ثلاثة أشهر عوضاً عن ثلاثة القروء في حق من تحيض، وكذا الصغار اللائي لم يحضن بَعْدُ لصغرهن فعدتهن مثل عدة الآيسة ثلاثة أشهر، وأما الحامل فعدتها تنتهي بوضع الحمل، والفلاح كل الفلاح إنما هو بامتثال التقوى والله عنده أجر عظيم.

فقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾. قال القرطبي: (يعني قعدن عن المحيض). وقوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ فيه قولان عند المفسرين يكمل أحدهما الآخر:

القول الأول: أي إن رأين دماً فشككتم أهو دم حيض أو استحاضة. وهو قول مجاهد وابن زيد.

القول الثاني: إن شككتم فلم تدروا ما الحكم فيهن، فإن عدتهن ثلاثة أشهر.

قال النسفي: (﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي فهذا حكمهن). وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾. قال السدي: (الجواري). قال ابن جرير: (يقول: وكذلك عدد اللائي لم يحضن من الجواري الصغار إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول).

وقوله: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. قال ابن كثير: (يقول تعالى: ومن كانت حامِلاً فَعِدَّتُها بوضعه، ولو كان بعد الطلاقِ أو الموتِ بِفُواقِ ناقة).

وفي صحيح البخاري عن يحيى قال: أخبرني أبو سلمة قال: [جاء رجلٌ إلىٰ ابن عباس ـ وأبو هريرة جالِسٌ عِنده ـ فقال: أَفْتِني في امرأة وَلَدَتْ بَعْدَ زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخِرُ الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابنِ أخي ـ يعني أبا سلمة ـ فأرسلَ ابنُ عباس غُلامَهُ كُرَيباً إلى أم سلمة يسألها فقالت: قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الأسلمية وهي حُبْلى، فوضَعَتْ بَعْدَ موتِه بأربعين ليلة، فَخُطِبَتْ فأنكحها رسولُ الله ﷺ وكان أبو السّنابل فيمن خطبها][1].

وأخرج البخاري وأحمد والنسائي عن المِسور بن مَخْرمة: [أنَّ سُبَيْعَةَ الأسلمية تُوفي

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4909) ـ كتاب التفسير، عند هذه الآية من سورة الطلاق.

عنها زوجها وهي حامل ، فلم تمكُث إلا لياليَ حتى وضعت ، فلما تَعَلّت من نفاسها خُطِبَت ، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح ، فأَذِنَ لها أن تُنْكَحَ ، فَنُكِحَت][1].

وفي صحيح مسلم عن ابن شهاب: حدثني عُبَيْد الله بنُ عبدِ الله بنِ عُتبة بن مسعود ، أن أباه كتبَ إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزُّهري ، يأمره أن يَدْخُلَ على سُبَيْعَةَ بِنْتِ الحارثِ الأَسْلَمِيّةِ ، فيسألَها عن حَديثها وعَمَّا قال لها رسول الله ﷺ حين استَفْتَتْهُ ، فكتب عمرُ بن عبد الله إلى عبد الله بن عُتبة يُخْبِرُه أن سُبَيْعَةَ أَخْبَرَتْه ، أنها كانت تحت سَعْدِ بن خَوْلَةَ ، وهو في بني عامرِ بن لؤي ، وكان مِمَّن شهد بَدْراً ، فتُوفي عنها في حَجَّة الوداع وهي حامِلٌ ، فلَمْ تَنْشَبْ أن وَضَعَتْ حَمْلَها بَعْدَ وفاتِه ، فلمّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفاسِها تَجَمَّلَتْ لِلخُطَّاب ، فدخَلَ عليها أبو السّنابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ ـ رجلٌ من بني عبد الدار ـ فقال لها مالي أَراكِ مُتَجَمِّلَةً؟ لعلّك تَرْجين النِّكاح ، إنَّك واللهِ! ما أنْتِ بناكِحٍ حتى تَمُرَّ عليك أربعةُ أَشْهُرٍ وعَشْرٌ. قالت سُبَيْعة: فلما قال لي ذلك ، جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيابي حين أَمْسَيْتُ ، فأَتَيْتُ رسولَ الله ﷺ فسأَلْتُهُ عن ذلك؟ فأفتاني بأني قدْ حَلَلْتُ حين وَضَعْتُ حَمْلي ، وأمَرَني بالتزوُّج إنْ بدا لي][2]. قال ابن شهاب: (فلا أرى بأساً أنْ تَتَزَوَّجَ حين وضَعَتْ ، وإنْ كانت في دَمِها ، غيرَ أنه لا يَقْرَبُها زوجُها حتى تَطْهُر).

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾. قال مقاتل: (ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يُسراً في توفيقه للطاعة).

والمقصود: تأكيد أن تقوى الله بتعظيم أوامره واجتناب نواهيه مفتاح كل فرج وتيسير ، وكل مخرج من أمر عسير.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾. أي هذا الذي ذُكِرَ من الأحكام الشرعية هو أمرُ الله أنزله إليكم من اللوح المحفوظ وبَيّنَه لكم ، لتكونوا على بصيرة في أمور دينكم.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾. أي: ومن يخف الله فيعظم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5320) ، والنسائي (6/ 190) ، وأحمد (4/ 327) ، وابن ماجة (2029) ، والشافعي (2/ 52 ـ 53) ، والبيهقي (7/ 428) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1484) ـ كتاب الطلاق. باب انقضاء عدة المتوفى عنها وغيرها ، بوضع الحمل. وانظر صحيح البخاري (5319) ، وسنن أبي داود (2306) ، والنسائي (6/ 194 ـ 195) ، وابن ماجة (2028) ، والبيهقي (7/ 428).

أمر دينه حق التعظيم يمح عنه ذنوبه ويجزل له الثواب على التقوى والعمل الصالح، ويدخله جنته وذلك أعظم الجزاء وأطيب النعيم.

6 ـ 7. **قوله تعالى**: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾.

في هذه الآيات: الأَمْرُ بالسكنى والنفقة للمطلقة حتى انقضاء عدتها، والتحذير من التضييق عليها، والحاملُ ينْفق عليها حتى تضع حملها، وأجر الإرضاع على الآباء، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

فقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾. قال ابن عباس: (يقول: من سعتكم). قال السدي: (المرأة يطلقها، فعليه أن يسكنها، وينفق عليها). قال ابن كثير: (يقول تعالى آمراً عباده إذا طَلَّقَ أحدُهم المرأة أن يُسْكِنها في منزل حتى تنقضي عدَّتها، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: عندكم). وعن قتادة: (﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ قال: إن لم تجد إلا جَنْبَ بيتِكَ فأسكنها فيه). وقال السدي: (﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾: من ملككم، من مقدرتكم).

وقوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾. قال مجاهد: (في المسكن). وقال سفيان: (ليس ينبغي له أن يضارها ويضيق عليها مكانها). وقال مقاتل: (يعني يُضاجِرها لِتَفْتَدِيَ منه بمالها أو تخرجَ مِن مسكنه). قال القاسمي: (﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ أي لا تستعملوا معهن الضرار ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ أي في المسكن ببعض الأسباب، من إنزال من لا يوافقهن، أو بشغل مكانهن، أو غير ذلك، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء).

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. قال السدي: (ينفق على الحبلى إذا كانت حاملاً حتى تضع حملها). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل وكنّ بائنات منكم، فأنفقوا عليهن في عدّتهن منكم حتى يضعن حملهن).

وقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. قال القرطبي: (﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ ـ يعني

المطلقات ـ أولادكم منهن فعلى الآباء أن يعطوهنّ أجرة إرضاعهن).

وقوله: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾. قال النسفي: (أي تشاوروا على التراضي في الأجرة، أو ليأمر بعضكم بعضاً، والخطاب للآباء والأمهات ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بما يليق بالسنة، ويحسن في المروءة، فلا يماكس الأب ولا تعاسر الأم لأنه ولدهما، وهما شريكان فيه وفي وجوب الإشفاق عليه). وقال القرطبي: (﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات، أي وليَقْبَلْ بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل. والجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة. والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع).

وقوله: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾. قال السدي: (إن أبت الأم أن ترضع ولدها إذا طلقها أبوه التمس له مرضعة أخرى، الأمّ أحق إذا رضيت من أجر الرضاع بما يرضى به غيرُهَا، فلا ينبغي له أن ينتزع منها).

وقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾. قال سفيان: (يقول: من طاقته). أي: لينفق على المولود والدُه أو وليُّه، بحسب قدرته وعلى قدر وسعه).

وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾. قال ابن زيد: (فرض لها من قدر ما يجد). وقال السدي: (﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ يقول: لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني). وقال سفيان: (﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ يقول: إلا ما أطاقت). وهو كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾. قال سفيان: (بعد الشدة الرخاء). قال ابن جرير: (﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ﴾ للمقل من المال المقدور عليه رزقه ﴿بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ يقول: من بعد شدة رخاء، ومن بَعد ضيق سعة، ومن بعد فقر غنى).

قلت: والآية وعد من الله تعالى بالفرج على المعسر الممتثل أمر الله في بذل وسعه بأنه سيجعل له بعد الضيق غنى، وبعد الشدة سعة، وبعد العسر يسراً.

وفي التنزيل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5 ـ 6].

أخرج الخطيب في «التاريخ» بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً: [النَّصْرُ مع الصَّبْر، والفرج مع الكرب، وإن مع العُسْر يسراً][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287)، والديلمي (4/ 111 ـ 112).

8 ـ 11. **قوله تعالى:** ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآيات: سُنَّةُ الله تعالى في الانتقام من أهل القرى إذا تكبروا على الحق وتمادوا على الرسل غير ما ينتظرهم في الآخرة من العقاب، وامتنان الله سبحانه على المؤمنين بنعمة الوحي والهداية في الدنيا وما أعدَّ لهم في الآخرة من جزيل الثواب.

فقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾. قال السدي: (غيّرت وعصت). وقال ابن زيد: (العتوّ هاهنا الكفر والمعصية، وعتت عن أمر ربها: تركته ولم تقبله). والمقصود: كم من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وتمادوا في تكذيبهم الرسل ولجّوا في الكفر والفساد والمعصية.

وقوله: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾. أي جازيناها بالعذاب في الدنيا. قال ابن عباس: (يقول: لم نرحم). قال القرطبي: (لما ذكر الأحكام ذكر وحذّر مخالفة الأمر، وذكر عُتُوّ قوم وحلول العذاب بهم). وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، فعذبناها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع والقَحْطِ والسيف والخَسْف والمَسْخ وسائر المصائب، وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً. والنُّكر: المنكر.

وقوله: ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾. أي في الآخرة، عذبناها عذاباً منكراً فظيعاً.

وقوله: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾. أي فذاقت غِبَّ مخالفتها، وتجرّعت نتيجة طغيانها. قال ابن زيد: (ذاقت عاقبة ما عملت من الشر. الوبال: العاقبة).

وقوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾. أي هلاكاً في الدنيا وألوان العذاب، وفي الآخرة في نار جهنم.

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾. بيان لذلك الخسران أنه العذاب الشديد في نار الآخرة بعدما حلّ بهم من العذاب في الدنيا.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾. قال السدي: (يا أولي العقول). وقال ابن كثير: (أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبَكم ما أصابَهم يا أولي الألباب).

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. بدل من ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أو نعت لهم. أي الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله.

وقوله: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾. يعني القرآن. والمقصود: يا أولي العقول النيرة الذين آمنتم بالله وصدقتم رسوله، اتقوا الله الذي أنزل عليكم القرآن، فخافوه واعملوا بطاعته واحذروا معصيته.

وقوله: ﴿رَسُولًا﴾. قيل: قد نُصب على أنه بدل اشتمال[1]. وقيل: الرسول تفسير وترجمة عن الذكر ـ واختاره ابن جرير. وقال الزجاج: (إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل، أي أنزل إليكم قرآناً وأرسل رسولاً). ويجوز أن ينتصب ﴿رَسُولًا﴾ على الإغراء، والتقدير: اتبعوا رسولاً.

وقوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. أي: يقرأ عليكم آيات القرآن، ويبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام، ليخرج المؤمنين به من ظلمات الجاهلية والكفر، إلى نور العلم والإيمان.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾. أي: قد وسع الله عليه من ألوان الرزق والنعيم في الجنات. قال النسفي: (﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق المؤمنين من الثواب).

12. **قوله تعالى:** ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾.

في هذه الآية: إخبار الله تعالى عن قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلق سبع سماوات وسبع أرضين، يتنزل الأمر بينهن بإذن الواحد القهار الحكيم ليكون ذلك باعثاً على تعظيم دينه القويم.

---

(1) أي لأن الرسول هو الذي بلغ الذّكر. فيكون ﴿رَسُولًا﴾ بدل اشتمال وملابسة.

فقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾. قال ابن جرير: (لا ما يعبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تقدر على خلق شيء).

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾. أي: في الخلق والعدد. قال قتادة: (خلق سبع سماوات وسبع أرضين، في كل سماء من سمائه وأرض من أرضه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه).

قلت: وأما تفصيل توضع الأرضين السبع فالله أعلم به، وإنما نسلم لقول الله تعالى في هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾، وكذلك لما ثبت في السنة الصحيحة في آفاق ذلك من أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في الصحيح عن سعيد بن زيد قال: سَمِعت رسول الله ﷺ يقول: [من أخذ شِبْراً من الأرض بغير حَقِّهِ، طُوِّقَهُ في سَبْع أَرَضين يوم القيامة][1]. وفي لفظ: [من اقتطع شبراً من الأرض ظُلماً، طَوَّقه الله إياه يومَ القيامة من سَبْعِ أرضين].

الحديث الثاني: خرّج مسلم ـ كذلك ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يأخُذُ أحدٌ شِبْراً من الأرض بغير حَقِّهِ، إلا طَوَّقَهُ الله إلى سَبْعِ أرضين يوم القيامة][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد في المسند، بسند صحيح من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [إن نبيَّ الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرتك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بـ «لا إله إلا الله»، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت «لا إله إلا الله» في كفة، رجحت بهن «لا إله إلا الله»، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن «لا إله إلا الله». وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر][3].

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (1610) ـ كتاب المساقاة. ح (137)، (138). باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها. وللحديث قصة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1611) ـ كتاب المساقاة. الباب السابق.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (548)، وأحمد (2/ 169 ـ 170). والبيهقي في «الأسماء» (79). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (134).

الحديث الرابع: أخرج النسائي وابن حبان بسند حسن عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه ، أنّ كعباً حلف بالذي فلق البحر لموسى: [أنَّ صُهيباً حدّثه أن محمداً ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: «اللهم ربَّ السماوات السبع وما أَظْلَلْنَ ، وربَّ الأرضين السبع وما أَقْلَلْنَ ، وربَّ الشياطين وما أَضْلَلْنَ ، وربَّ الرياح وما أَذْرَيْنَ ، إنا نسألك خيرَ هذه القرية وخيرَ أهلها ، ونعوذ بك من شَرِّها وشَرِّ أهلها وشَرِّ ما فيها»][1].

فهذه الآية مع هذه الأحاديث تثبت وجود الأرضين السبع كما أثبت الوحي من قرآن وسنة وجود السماوات السبع ، ومن فسّر الآية من المعاصرين بما يؤول إلى نفي المثلية في العدد اغتراراً بما وصل إليه علم الأوربيين والأمريكان وغيرهم من الرقي وأنهم لا يعلمون سبع أرضين فقد أبعد النُّجْعَة وأغرقَ في النَّزْع وخالف القرآن والحديث بلا مستند. وإنما يقال له: هل علم القوم حقيقة وجود سبع سماوات طباقاً؟! الجواب: لا ، وإنما هو خبر الله تعالى آمنا به وصدقناه وجاءت به جميع الكتب المنزلة على الرسل. ومن ثم يقال لهؤلاء: أفننكر كلام الله وكلام رسوله بجهل الأوربين وأقرانهم ، مع اعترافهم أنهم كلما ازدادوا علماً بالكون ازدادوا علماً بجهلهم به ، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76] ، والقائل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

وقوله: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾. قال مجاهد: (يتنزل الأمر من السماوات السبع إلى الأرضين السبع). والأمر هنا الوحي أو القضاء والقدر.

وفي قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السُّفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها. وقيل: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ بحياة بعض وموت بعض وغِنى قوم وفقر قوم. وقيل: هو ما يُدَبَّرُ فيهن من عجيب تدبيره ، فَيُنزل المطر ويُخرج النبات ويأتي بالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها ، فينقلهم من حال إلى حال.

وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال القرطبي: (يعني أن من قدر على هذا الملك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر ، ومن العفو والانتقام أمكن ، وإن استوى كل ذلك في مقدوره ومُكْنَته).

---

(1) حديث حسن. أخرجه النسائي في «الكبرى» (8826) ، (10377) ، وأخرجه ابن حبان (2709) ، وابن خزيمة (3565) ، والحاكم (1/ 446) ، والبيهقي (5/ 252).

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ . ـ علماً ـ نصب على المصدر المؤكد ، أو هو تمييز ، والتقدير: قد علم كل شيء علماً ، أو أحاط إحاطةً علماً. قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم عقوبته ، فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع ، وهو على ذلك قادر ، ومحيط أيضاً بأعمالكم ، فلا يخفى عليه منها خاف ، وهو محصيها عليكم ، ليجازيكم بها ، يوم تجزى كل نفس ما كسبت).

تم تفسير سورة الطلاق

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

صبيحة الأربعاء 7 شوال 1426 هـ

الموافق 9/ تشرين الثاني/ 2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ لا تطلق المرأة في الحيض ولا في طهر مَسّها فيه .

2 ـ يجب على المطلقة أن تقضي عدتها في بيت زوجها .

3 ـ المطلقة المبتوتة ليس لها نفقة ولا سكنى .

4 ـ الطلاق يقع بمجرد التلفظ به ولا يجب فيه إشهاد بل يستحب .

5 ـ عدة المطلقة اليائسة والمطلقة غير البالغة ثلاثة أشهر .

6 ـ عدة الحامل : المطلقة أو المتوفى عنها زوجها لحين وضعها .

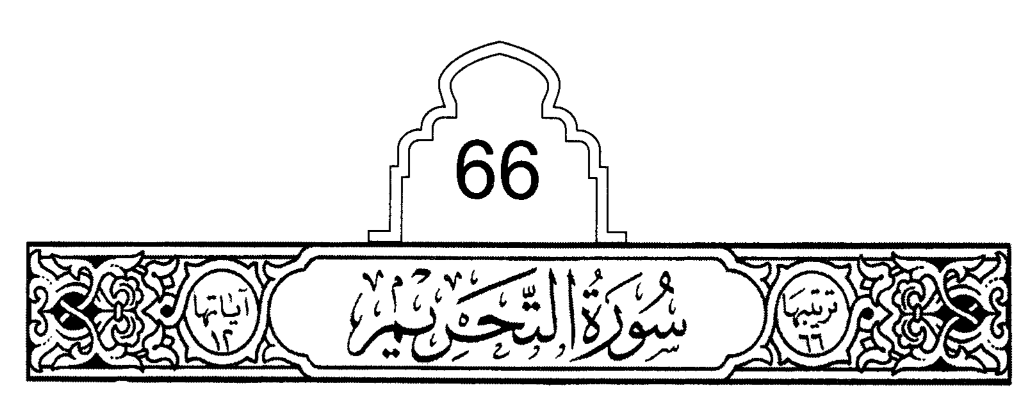
7 ـ النفقة على المطلقات الحاملات حين يلدن ولهن أجر الإرضاع .

8 ـ النَّصْرُ مع الصَّبر ، والفرج مع الكرب ، وإن مع العُسْرِ يُسْراً .

9 ـ إهلاك الله الأمم الكافرة من قبل عبرة كبيرة لهذه الأمة .

10 ـ لا يأخذ أَحَدٌ شِبْراً من الأرض بغير حَقِّه ، إلا طَوَّقَهُ الله إلى سبع أرضين يوم القيامة .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (12).

موضوع السورة

تحريم النبي ﷺ على نفسه بعض الطيبات
والأمر بمجاهدة الكفار والتماس أعلى الدرجات والقربات

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ عتاب لطيف من الله لرسوله في تحريمه على نفسه ما أَحَلَّ الله له ابتغاء مرضاة أزواجه والله غفور رحيم.

2 ـ تبيانه تعالى كيفية تحليل اليمين وكفّارته ، والله هو العليم الحكيم.

3 ـ عتابُ الله لزوجات رسوله ليقدموا له أهنأ العيش وأطيبه ، وإلا جاء الاستبدال من الله لهن بِمَنْ هُنَّ أكثر حرصاً على التقوى والإيمان ، والعمل الصالح والإحسان.

4 ـ الأمر للمؤمنين بالاجتهاد في طاعة الله هم وذريتهم للنجاة من عذاب الله الأليم ، وتصوير مشهد الخزي والندامة يوم القيامة على الكافرين والمنافقين ، ومشهد النجاة والفرح والسرور للمؤمنين في جنات النعيم.

5 ـ أمْرُ الله تعالى نبيه ﷺ بمجاهدة الكفار والمنافقين أصحاب الجحيم. وضَرْبُه تعالى

المثل بامرأة نوح وامرأة لوط في خيانتهما منهاج النبوة لتكونا يوم القيامة في النار مع الداخلين.

6 ـ ضَرْبُ الله المثل بامرأة فرعون للمؤمنين ، ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها وكانت من القانتين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 5. **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرٗا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٖ مُّؤْمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبْكَارٗا ۝٥﴾.

في هذه الآيات: عِتابٌ لطيف من الله تعالى لرسوله ﷺ في تحريمه على نفسه ما أَحَلَّ الله له ابتغاء مرضاة أزواجه والله غفور رحيم، وقد أوضح الله تعالى له كيفية التحلل من ذلك وكفارة اليمين. وعتابٌ لطيف آخر لزوجاته ﷺ ليقدموا له أهنأ العيش وأطيبه وإلا جاء الاستبدال من الله العليم الحكيم.

أسباب نزول هذه الآيات:

لقد ورد ذكر سبب نزول هذه الآيات في أحاديث من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن ابن جريج قال: [زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول: سمعت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب ابنة جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة أن أيَّتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني لأجد منك ريح مغافير[1]، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك،

(1) مغافير: جمع مغفور، وهو صمغ حُلْوٌ له رائحة كريهة ينضجه شجر يسمى العُرْفط كأن النحل وقف=

فقال: لا بأس، شربت عسلاً عند زينب ابنة جحش ولن أعودَ له. فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ إلى ﴿ تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لعائشة وحفصة ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ لقوله: بل شربت عسلاً][1].

وفي رواية: (قال: ولن أعود له وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً).

الحديث الثاني: يروي النسائي بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه: [أنّ رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إلى آخر الآية][2].

الحديث الثالث: يروي البزّار في مسنده بإسناد صحيح عن ابن عباس: [﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ قال: نزلت هذه في سُرِّيَتِه][3].

وذكر ابن جرير بإسناده من حديث زيد بن أسلم وعُبيد الله بن عبد الله بن عباس: أن الآية نزلت في شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها فوجدت حفصة في نفسها في ذلك.

فعن زيد بن أسلم: (أنّ رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه، فقالت: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي؟).

وفي رواية ابن عباس: (قال: ألا ترضين أن أحرِّمها فلا أقربها؟ قالت: بلى. فحرّمها. وقال لها: لا تذكري ذلك لأحد، فذكرته لعائشة).

ورواه الهيثم بن كليب في مسنده، كما ذكر الحافظ ابن كثير، وقال هذا إسناد صحيح، عن ابن عمر: [قال النبي ﷺ لحفصة: لا تخبري أحداً وإنّ أم إبراهيم عليَّ حرام. فقالت: أتحرم ما أَحَلَّ الله لك؟ قال: فو الله لا أقربها. قال: فلم يقربها، حتى

= عليه، وكان يكره عليه الصلاة والسلام أن يرى منه رائحة كريهة فحرّمه على نفسه.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (5267) ـ كتاب الطلاق. وكذلك (6691).

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي في السنن (3959)، وفي الكبرى (21)، وفي «التفسير» (627)، وأخرجه الحاكم (2/ 493) من طريقين، وهو صحيح، وله شواهد.

(3) حديث صحيح. أخرجه البزار (2274)، (2275) «كشف»، ورواه الطبراني ـ حديث رقم ـ (11130) وإسناده صحيح. وقال الهيثمي في «المجمع» (7/ 126): رجال البزار رجال الصحيح غير بشر بن آدم، وهو ثقة.

أخبرت عائشة ، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾][1].

قال الشوكاني: في تفسيره «ج 5/ ص 252»: (فهذان سببان صحيحان لنزول الآية ، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل وقصة مارية ، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً وفي كل واحد منهما أنه أسَرَّ الحديث إلى بعض أزواجه).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. أي غفور يا محمد ذنوب التائبين ، وقد غفر لك تحريمك على نفسك ما أحل لك.

وقوله: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾. قال الشعبي: (عوتب في التحريم ، وجاءت الكفارة في اليمين). أي: قد بين الله لكم تحلة أيمانكم ، وحدّها لكم أيها الناس ، فتحليل اليمين كفارتها. والتحلّة: مصدر بمعنى التحليل. فشرع تحليل الأيمان بحل ما عقدته بالكفارة.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾. قال القرطبي: (وليّكم وناصركم بإزالة الحظر فيما تحرمونه على أنفسكم ، وبالترخيص لكم في تحليل أيمانكم بالكفارة ، وبالثواب على ما تخرجونه في الكفارة).

وقوله: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾. أي: فلما أخبرت بالحديث الذي أسرّ إليها رسول الله ﷺ صاحبتها وأظهر الله نبيّه محمداً ﷺ على أنها قد أنبأت بذلك صاحبتها ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ ﴾ أي عرّف النبي ﷺ حفصة بعض ذلك الحديث وأخبرها به وترك أن يخبرها ببعض.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾. أي: قالت حفصة حين أنبأها ذلك: من أنبأك هذا الخبر وأخبرك به؟ قال النبي ﷺ: خبرني به ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بسرائر عباده ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بأمورهم وأحوالهم ، لا يخفى عليه شيء.

وعن ابن زيد قال: (﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ﴾ ولم تشك أن صاحبتها أخبرت عنها ﴿ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾).

وقوله: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾. قال ابن عباس: (يقول: زاغت قلوبكما ، يقول: قد أثمت قلوبكما). وقال قتادة: (أي مالت قلوبكما). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن تتوبا إلى الله أيتها المرأتان فقد مالت قلوبكما إلى محبة

(1) إسناده صحيح. وصححه الحافظ ابن كثير. وانظر «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة التحريم. وله شواهد.

ما كرهه رسول الله ﷺ من اجتنابه جاريته ، وتحريمها على نفسه ، أو تحريم ما كان له حلالاً مما حرّمه على نفسه بسبب حفصة).

وقال القرطبي: (﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني حفصة وعائشة ، حَثَّهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي زاغت ومالت عن الحق. وهو أنهما أَحَبَّتَا ما كرِهَ النبي ﷺ من اجتناب جاريته واجتناب العسل ، وكان عليه السلام يحبّ العسل والنساء).

وقوله: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾. أي تتظاهرا على النبي وتتعاونا عليه بالمعصية والإيذاء. قال الضحاك: (﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ يقول: على معصية النبي ﷺ وأذاه).
وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي: الله وليّه وناصره ، فلا يضره ذلك التظاهر منهما ، وكذلك جبريل وليه ، وكذلك ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال عكرمة: (أبو بكر وعمر). فقد كانا عوناً له عليهما وهما أبوا عائشة وحفصة. وقيل: خيار المؤمنين. وقيل الأنبياء. وقال السدي: (هم أصحاب محمد ﷺ). قلت: واللفظ يعمّ من صلح من المؤمنين ممن آمن وعمل صالحاً.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾. أي: والملائكة على تكاثر عددهم بعد نصرة الله وجبريل وصالحي المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ فوج مظاهر له ، أعوان على من آذاه ، وأراد مَساءته ، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه.

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾.

روى مسلم في صحيحه عن سِمَاكٍ أَبي زُمَيْلٍ: حدَّثني عبد الله بن عباس: حدّثني عمر بن الخطاب قال: [لمّا اعتزَلَ نبيُّ الله ﷺ نِساءه قال: دخلتُ المسجدَ ، فإذا الناس يَنْكُتون بالحصى ويقولون: طَلَّق رسول الله ﷺ نِساءه ، وذلك قبل أَنْ يُؤْمَرْنَ بالحجاب ـ قال عمر ـ فقلت: لأَعْلَمَنَّ ذلك اليوم ـ قال ـ: فَدَخَلْتُ على عائشةَ ، فقلت: يا بِنْتَ أبي بكر! أَقَدْ بلغَ مِنْ شأنِكِ أَنْ تُؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: مالِي ومالَكَ يا ابْنَ الخَطّاب؟ عَليك بِعَيْبَتِكَ[1]. قال: فدخَلْتُ على حفصةَ بنتِ عمرَ ، فقلت لها: يا حفصةُ! أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شأنِكِ أَنْ تؤذي رسولَ الله ﷺ؟ والله! لقد عَلِمْتِ أَنَّ رسولَ الله ﷺ لا يُحبُّكِ ، ولولا أنا لَطَلَّقَكِ رسولُ الله ﷺ ، فبكَتْ أشدَّ البُكاء ، فقلت لها: أينَ

(1) المراد عليك بوعظ ابنتك حفصة. والعيبة في لغة العرب: وعاء يجعل الإنسان فيه أفضل ثيابه ونفيس متاعه ، فشبهت ابنته بها.

رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خِزانته في المَشْرُبَة، فدخلت فإذا أنا بِرباحٍ غلامِ رسول الله ﷺ قاعِداً على أُسْكُفَّةِ المَشْرُبة، مُدَلٍّ رِجليه على نَقيرٍ مِنْ خَشَبٍ، وهو جِذْعٌ يَرْقى عليه رسول الله ﷺ ويَنْحَدِرُ، فنادَيْتُ: يا رباحُ! استأذِن لي عِندك على رسول الله ﷺ، فَنَظَرَ رَباحٌ إلى الغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إليَّ فلم يَقُل شيئاً، ثم رفعتُ صوتي فقُلتُ: يا رباحُ! استأذِن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أَظُنُّ أنَّ رسولُ الله ﷺ ظَنَّ أني جِئْتُ مِنْ أجل حَفْصَةَ، والله! لئِن أمرني رسولُ الله ﷺ بِضَرْبِ عُنُقِها لأضرِبَنَّ عُنَقَها، ورَفَعْتُ صَوْتي، فأَوْمَأَ إليَّ أنِ ارْقَهْ، فدَخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مُضْطَجِعٌ على حَصير فَجَلَسْتُ، فأدْنَى عليه إزارَهُ، وليسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وإذا الحصيرُ قد أَثَّرَ في جنبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبصري في خِزَانَةِ رسول الله ﷺ، فإذا أنا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاع، ومِثْلِها قَرَظاً[1] في ناحية الغُرْفةِ، وإذا أَفِيقٌ[2] مُعَلَّقٌ، ـ قال ـ: فابْتَدَرَتْ عَيْنايَ. قال: «ما يبكيك؟ يا ابن الخطاب!» قلت: يا نبيَّ الله! ومالي لا أَبْكي؟ وهذا الحصيرُ قد أَثَّرَ في جَنْبِكَ، وهذه خِزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاكَ قيصرُ وكِسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصَفْوَتُهُ، وهذِه خِزانَتُكَ. فقال: «يا ابنَ الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخِرةُ ولهم الدنيا؟» قلت: بلى. قال: ودَخَلْتُ عليه حينَ دخَلْتُ وأنا أرى في وجهه الغضبَ، فقلت: يا رسول الله! ما يَشُقُّ عليك من شأنِ النساء؟ فإن كنتَ طَلَّقْتَهُنَّ فإن الله معك وملائكتَه وجبريلَ وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلَّما تكَلَّمْتُ ـ وأحْمَدُ الله ـ بكلام إلا رَجوْتُ أنْ يكونَ اللهُ يُصَدِّقُ قولي الذي أقولُ. ونزلت هذه الآيةُ آيةُ التَّخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: 5] ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4]، وكانت عائِشةُ بِنْتُ أبي بكر وحفصةُ تَظاهرانِ على سائرِ نساء النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله! أَطَلَّقْتَهُنَّ؟ قال: «لا». قلت: يا رسول الله! إني دخلتُ المسجدَ والمسلمون يَنْكتون بالحصى، يقولون: طَلَّقَ رسولُ الله ﷺ نِساءَه، أَفَأَنْزِلُ فَأُخبِرَهُم أَنَّكَ لم تُطَلِّقهُنَّ؟ قال: «نعم، إن شئت» فلم أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حتى تَحَسَّرَ الغَضَبُ عن وَجْهِهِ، وحتى كَشَرَ فَضحِكَ، وكان مِنْ أَحْسَنِ الناس ثَغْراً، ثمَّ نزلَ نبيُّ الله ﷺ فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بالجِذع، ونزلَ رسول الله ﷺ كأَنَّما يمشي على الأرض ما يَمَسُّهُ بيده، فقلت: يا رسول الله! إنّما كُنْتَ في الغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ. قال: «إنَّ

(1) القرظ: ورق السلم يدبغ به.
(2) أفيقٌ: هو الجلد الذي لم يتم دباغه، وجمعه أَفَق، كأديم وأَدَم.

الشهر يكون تِسعاً وعِشْرين» فقمت على باب المسجد ، فناديتُ بأعلى صوتي : لَمْ يُطَلِّق رسول الله ﷺ نِساءَهُ ، ونزلَتْ هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ ﴾ [النساء: 83] فكنتُ أنا استنبطْتُ ذلكَ الأمْرَ ، وأنزل الله عز وجلَّ آيةَ التَّخْيير][1] .

وفي جامع الترمذي عن عائشة قالت له: يا رسول الله ﷺ لا تخبر أزواجك أني اخترتك ، فقال النبي ﷺ: [إنما بعثني الله مُبَلِّغاً ولم يَبْعَثني مُتَعَنِّتاً][2] .

وقوله: ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾ . قال ابن جرير: (﴿ مُسْلِمَٰتٍ ﴾ يقول: خاضعات لله بالطاعة ﴿ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ يعني مصدقات بالله ورسوله).

وقوله: ﴿ قَٰنِتَٰتٍ﴾ . قال ابن زيد: (مطيعات). وكذلك قال قتادة.

وقوله: ﴿ تَٰٓئِبَٰتٍ ﴾ . أي: راجعات إلى ما يحبّه الله منهن من طاعته عما يكرهه منهن.

وقوله: ﴿ عَٰبِدَٰتٍ﴾ . أي: متذللات لله بطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ . قال ابن عباس: (صائمات). وقال زيد بن أسلم: (مهاجرات). والأول أرجح. وقد صح عند ابن جرير عن أبي هريرة موقوفاً: [﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ هم الصائمون][3] .

وكان بعض أهل العربية يرى أن الصائم إنما سمي سائحاً لأن السائح لا زاد معه ، وإنما يأكل حيث يجد الطعام ، فكأنه أُخِذَ من ذلك. حكاه ابن جرير وأُثِرَ عن الفَرّاء والقُتَبي وغيرهما.

وقوله: ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ . قال ابن كثير: (أي: مِنْهُنَّ ثَيِّباتٍ ، ومنهن أبكاراً ، أي ليكون ذلك أشهى إلى النفوس ، فإن التنوع يَبْسُط النفسَ).

وإنما سميت الثيب ثيباً لأنها ثابت إلى بيت أبويها ، وأما البِكْرُ فهي العذراء ، سُمِّيت بِكْراً لأنها على أوَّل حالتها التي خُلِقَت بها ـ حكاه القرطبي.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1479) ـ كتاب الطلاق ، ح (30) ، وح (31).
(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2644) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1516).
(3) أخرجه الطبري (17302) ـ سورة التوبة ، آية (112) ، وهو صحيح موقوف.

6 ـ 8. **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (7) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالى عباده المؤمنين الاجتهاد في طاعته هم وذريتهم للنجاة من عذابه الأليم، وتصوير مشهد الخزي يوم القيامة على الكافرين والمنافقين، ومشهد النجاة والسرور والفرح في دخول المؤمنين جنات النعيم.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. قال سفيان، عن منصور عن رجل، عن علي بن أبي طالب قال: (يقول: أدّبوهم، علِّموهم). ـ رواه ابن جرير.

وعن ابن عباس: (﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومُروا أهليكم بالذكر يُنْجيكم الله من النار). وقال مجاهد: (اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله). وقال قتادة: (يقيهم أن يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليهم بأمر الله يأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية ردعتهم عنها، وزجرتهم عنها). وعن الضحاك: (حقٌّ على المسلم أن يُعَلِّم أهله من قرابتِه وإمائه وعبيده ما فرَض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: [لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمَّ وخَصَّ، فقال: يا بني كعب بن لؤي

أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبدِ شمسٍ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مَناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحِماً سأبُلُّها ببلالها](1) .

وفي سنن أبي داود عن سبرة قال: قال النبي ﷺ: [مُروا الصَّبيَ بالصلاة إذا بلغ سَبْعَ سنين ، وإذا بلغَ عَشْرَ سنين فاضربوه عليها](2) .

وله شاهد عنده من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: [مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع](3) .

قال ابن كثير: (قال الفقهاء: وهكذا في الصوم ، ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المَعْصية ، وتَرْك المنكر ، والله الموفق).

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة أنّ النبي ﷺ كان إذا أوْتَرَ يقول: [قومي فَأوتري يا عائشة](4) .

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضحَ في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فَصَلّت ، وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء](5) .

وقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾. قال ابن جرير: (يقول: حطبها الذي يوقد على هذه النار بنو آدم وحجارة الكبريت). وعن مجاهد: (هي حجارةٌ من كبريت ، أنتنُ من الجيفة).

وقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾. قال القرطبي: (يعني الملائكة الزبانية غِلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا ، خُلِقوا من الغضب ، وَحُبِّبَ إليهم عذابُ الخلق

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (204) ـ كتاب الإيمان. وانظر صحيح البخاري (4771).
(2) حسن صحيح. أخرجه أبو داود (494) ـ كتاب الصلاة. باب متى يؤمر الغلام بالصلاة.
(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (495) ـ كتاب الصلاة. انظر صحيح أبي داود (466).
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (744) ، وأحمد (2/ 152) ، (2/ 205) من حديث عائشة.
(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1308) ، وأحمد (2/ 250) ، ، النسائي (3/ 205) وغيرهم.

كما حُبِّبَ لبني آدم أكل الطعام والشراب. ﴿ شِدَادٌ ﴾ أي: شداد الأبدان. وقيل: غِلاظ الأقوال شداد الأفعال. وقيل: غِلاظ في أخذهم أهل النار شداد عليهم). وقيل: ﴿ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أي: طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿ شِدَادٌ ﴾ في تركيبهم ومنظرهم المزعج الرهيب.

وقوله: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾. أي: لا يخالفون الله في أمره من زيادة أو نقصان، ولا يتأخرون عن فعل ما يأمرهم طرفة عين، بل يبادرون إلى الامتثال وتنفيذ الأمر بإتقان.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

أي: يقال للكفار يوم القيامة: إنه لا ينفعكم عذر اليوم فلا تعتذروا، إنما توفون جزاء أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا. قال ابن جرير: (فلا تطلبوا المعاذير منها). وقال القرطبي: (﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ ﴾ فإن عذركم لا ينفع. وهذا النّهي لتحقيق اليأس).

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾. إرشاد من الله تعالى عباده المؤمنين للمبادرة إلى التوبة الصادقة قبل فوات الأوان.

يروي ابن جرير بسنده عن سماك، عن النعمان بن بشير، قال: سُئِلَ عمر عن التوبة النصوح، قال: (التوبة النصوح: أن يتوب الرجل من العمل السَّيئ، ثم لا يعود إليه أبداً). وقال ابن عباس: (﴿ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أن لا يعود صاحبها لذلك الذنب الذي يتوب منه، ويقال: توبته أن لا يرجع إلى ذنب تركه). وقال قتادة: (هي الصادقة الناصحة). وقال ابن زيد: (التوبة النصوح الصادقة، يعلم أنها صدق ندامة على خطيئته، وحبّ الرجوع إلى طاعته، فهذا النصوح).

وعن الحسن: (التوبة النصوح: أن تُبْغِضَ الذنب كما أحببتَه، وتستغفِرَ منه إذا ذكرته).

قلت: وشروط التوبة النصوح كما أحب تصنيفها خمسة:

أولاً: أن يكف عن الآثام وينقلع عن المحرمات.

ثانياً: أن يندم على ما فرط باجتراح السيئات.

ثالثاً: أن يعقد العزم ألا يعود إلى السقوط في هذه الآثام والزلات.

رابعاً: أن يؤدي الحقوق إلى أصحابها وكذلك الأمانات.

خامساً: أن يترك الصحبة الفاسدة التي تحمله على الموبقات. وأن يهاجر من الأرض والقرية التي يعمل أهلها المنكرات، إلى القرى والبلاد التي يغلب على أهلها فعل الحسنات.

وأما ترتيب أدلتها من الكتاب والسنة:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

2 ـ أخرج أحمد وابن ماجة بسند حسن عن ابن معقل قال: [دخلت مع أبي على عبد الله، فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ: «النَّدمُ توبة». فقال له أبي: أنت سمعت النبي ﷺيقول: «الندم توبة»؟ قال: نعم][1].

ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد الأنصاري بلفظ: [الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له].

3 ـ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

4 ـ قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58].

وفي مسند أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [نفسُ المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه][2].

5 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 97].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري ـ في قصة الرجل قتل تسعة وتسعين نفساً ثم كمّل بالراهب مئة، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فنصحه فقال له ـ: [ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 33)، وابن ماجة (4252). انظر صحيح ابن ماجة (3429). ورواه الطبراني بسند حسن من حديث أبي سعيد الأنصاري. انظر صحيح الجامع (6679).
(2) حديث صحيح. رواه أحمد من حديث أبي هريرة. انظر تخريج: «مشكاة المصابيح» (2915).

الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء] الحديث[1].

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. قال القرطبي: (﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة). وقال النسفي: (هذا على ما جرت به عادة الملوك من الإجابة بعسى ولعل ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت).

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾. قال القاسمي: (أي لا يذلّهم. تعريض لأعدائهم بالخزي والصغار).

وقوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾. قال ابن جرير: (يقول: يسعى نورهم أمامهم ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ يقول: وبأيمانهم كتابهم).

وقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال مجاهد: (هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نورَ المنافقين قد طفِئ).

أخرج الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أوّل من يُؤْذَنُ له بالسجود يومَ القيامة، وأنا أول من يرفع رأسه، فأنظرُ بين يديَّ، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مِثْلُ ذلك، وعن يميني مِثْلُ ذلك، وعن شمالي مِثْلُ ذلك. فقال رجل: كيف تعرِف أمتَك يا رسول الله ﷺ من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: هم غرٌّ مُحَجَّلُون، مِنْ أَثَرِ الوضوء، ليس لأحد كذلك غيرهم، وأَعْرِفُهُم أنهم يؤتَون كُتُبَهُم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذُرِّيَّتُهُم][2]. ورواه محمد بن نصر المروزِيّ بنحوه وفي روايته: [غرٌّ مُحَجَّلُون من أثر الوضوء، ولا يكون أحدٌ من الأمم كذلك غيرُهم، وأعرفهم أنهم يُؤتَون كُتُبَهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثَر السجود، وأعرِفُهم بِنُورهم يسعى بين أيديهم].

وأخرج الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن يحيى بن حسان، عن رجل من بني كنانة قال: صلّيت خلف النبي ﷺ عام الفتح فسمعته يقول: [اللهم لا تخزني يومَ القيامة][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 373)، (6/ 374)، وأخرجه مسلم (2766).

(2) رواه أحمد، وفي إسناده ابن لهيعة، وهو حديث حسن في المتابعات. انظر صحيح الترغيب (1/ 175) ـ كتاب الطهارة، الترغيب في الوضوء وإسباغه.

(3) أخرجه أحمد في المسند (4/ 234)، ورجاله كلهم ثقات، وجهالة الصحابي لا تضرّ.

9 ـ 10. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالى نبيّه ﷺ بمجاهدة الكفار والمنافقين أصحاب الجحيم، وضَرْبه تعالى المثل بامرأة نوح وامرأة لوط في خيانتهما منهاج النبوة لتكونا يوم القيامة في النار مع الداخلين.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾. قال قتادة: (أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يجاهد الكفار بالسيف، ويغلظ على المنافقين بالحدود). فجهاد الكفار بالسلاح والقتال، وجهاد المنافقين بالوعيد واللسان وبإقامة الحدود عليهم.

وقوله: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. قال قتادة: (يقول: واشدد عليهم في ذات الله). وقوله: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. أي: ومكثهم جهنم ومستقرهم إلى النار، وبئس القرار والموضع الذي يصيرون إليه نار السعير.

وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قال ابن كثير: (أي: في مخالطتِهم المسلمين ومُعَاشَرتهم لهم، أنَّ ذلك لا يُجْدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قُلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾، أي: نبيَّين رسُولَين عندهما في صُحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشدَّ العشرة والاختلاط).

وقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، أي في الدين، لم يوافقاهما على الإيمان والرسالة. وليس المقصود الزنا أو الفاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات عن ذلك لحرمة الأنبياء. قال ابن عباس: (ما بغت امرأة نبي قط. إنما كانت خيانتهما في الدين). وقال عكرمة: (وكانت خيانتهما أنهما كانتا مشركتين). وقال الضحاك: (كانتا مخالفتين دين النبي ﷺ كافرتين بالله).

يروي ابن جرير بإسناده عن سفيان عن موسى بن أبي عائشة عن سليمان بن قيس، عن ابن عباس: (قوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: قال: كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون.

وكانت امرأة لوط تَدُلّ على الضيف). أو قال: (أما امرأة نوح فكانت تُخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تَدُلُّ قومها على أضيافِهِ).

وقال العوفي، عن ابن عباس قال: (كانت خيانتُهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تَطّلِعُ على سِرِّ نوح، فإذا آمن معَ نوحٍ أحدٌ أخبرت الجبابرة من قوم نُوح به، وأما امرأة لوطٍ فكانت إذا أضافَ لوطٌ أحداً أخبرتْ به أهلَ المدينة ممن يعمل السوء).

وقوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾. أي فما نفع هاتين المرأتين إذ عصتا الله أن أزواجهما أنبياء. قال قادة: (هاتان زوجتا نَبِيَّي الله، لما عصتا ربهما لم يغن أزواجهما عنهما من الله شيئاً). وقال: (يقول الله: لم يغن صلاح هذين عن هاتين شيئاً، وامرأة فرعون لم يضرّها كفر فرعون).

وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾. قال ابن جرير: (قال الله لهما يوم القيامة: ادخلا أيتها المرأتان نار جهنم مع الداخلين فيها).

11 ـ 12. قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الصورة المقابلة من المثل، فالذين آمنوا لا يضرهم مخالطةُ الكافرين إن ضاق الأمر عليهم أو حوصروا أو كانوا محتاجين إليهم، فإن الله تعالى قضى أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن لكل نفس ماكسبت، وامرأة فرعون خير مثل في ذلك للمؤمنين، وكذلك مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها وصبرت على أمر ربها وكانت من القانتين.

فقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾. قال قتادة: (كان فرعون أغنى أهلِ الأرض وأكفره، فوالله ما ضَرَّ امرأته كُفْر زَوجها حين أطاعت رَبَّها لِتَعلموا أن الله تعالى حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه).

وقوله: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾. قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار. قال النسفي: (فكأنها أرادت الدرجة العالية لأنه تعالى منزه عن المكان، فعبرت

عنها بقولها عندك). قال ابن جرير: (فاستجاب الله لها فبنى لها بيتاً في الجنة).

وقوله: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾. قال القرطبي: (تعني بالعمل الكفر. وقيل: من عمله من عذابه وظلمه وشماتته. وقال ابن عباس: الجماع).

وقوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. قال مقاتل: (القبط). وقال الكلبي: (أهل مصر). قال ابن جرير: (تقول: وأخلصني وأنقذني من عمل القوم الكافرين بك، ومن عذابهم). وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم، رضي الله عنها.

أخرج أبو يعلىٰ بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [إنّ فرعون أوْتدَ لامرأتِهِ أربعة أوتادٍ في يديها ورِجْليها، فكان إذا تفرّقوا عنها ظلّلتها الملائكة، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فكشف لها عن بيتها في الجنة][1].

وله شاهد عند الحاكم والطبري بسند على شرط الشيخين من حديث سلمان رضي الله عنه قال: [كانت امرأة فرعون تُعَذَّبُ بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترىٰ بيتها في الجنة].

وشاهد عند البيهقي في «شعب الإيمان» عن ثابت عن أبي رافع قال: [وتَدَ فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم حمل على بطنها رحىً عظيمة حتى ماتت] ـ وهو مرسل صحيح ـ.

وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾. قال ابن كثير: (أي: حَفِظَتْه وصانته. الإحصان: هو العَفاف والحُرمة. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، أي: بواسِطة المَلَك، وهو جبريلُ، فإن الله بَعَثَهُ إليها فتَمَثَّلَ لها في صورة بَشَر سَوِيٍّ، وأمره الله تعالى أن ينفُخ بفيه في جيب دِرْعِها، فنزلت النفخةُ فوَلَجَت في فَرْجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام).

وقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾. أي: بقدره وشرعه. قال قتادة: (يقول: آمنت بعيسى، وهو كلمة الله ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ يعني التوراة والإنجيل).

وقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾. أي: من المطيعين المخبتين. قال قتادة: (يقول: وكانت من القوم المطيعين).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (4/ 1521 ـ 1522) وإسناده على شرط مسلم، وانظر للشاهد الأول تفسير الطبري (110/28)، والحاكم (492/2)، وهو موقوف إسناده صحيح. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2508). وللشاهد الثاني «شعب الإيمان» (1638/244/2).

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث كثيرة في فضل آسية بنت مزاحم ـ امرأة فرعون ـ وفضل مريم بنت عمران عليهما السلام.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [خير نسائِها مريمُ بنتُ عمران، وخير نسائها خديجةُ بنتُ خُوَيلد][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد في المسند بسند على شرط الصحيح عن ابن عباس قال: [خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خُطوطٍ، وقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلمُ. فقال رسولُ الله ﷺ: أفضلُ نساءِ أهل الجنة خديجة بنتُ خُوَيلد، وفاطِمةُ بنتُ محمد، ومريم ابنةُ عِمران، وآسية ابنةُ مزاحمٍ امرأة فِرعون][2].

وله شاهد في المسند ـ أيضاً ـ من حديث أنس بلفظ: [خير نساء العالمين أربع: مريمُ بنتُ عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [كَملَ من الرجال كثير، ولم يكمُلْ من النساء إلا آسية امرأةُ فرعون، ومريم بنتُ عمران ـ زاد ابن مردويه: (وخديجة بنت خويلد) ـ وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام][3].

تم تفسير سورة التحريم
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
صبيحة الجمعة 9 شوال 1426 هـ
الموافق 11 / تشرين الثاني / 2005 م

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3815) ـ كتاب مناقب الأنصار. ورواه مسلم برقم (2430) ـ كتاب فضائل الصحابة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 316) وإسناده على شرط الصحيح. وانظر للشاهد ـ بعده ـ صحيح الجامع (3323)، وسنده صحيح.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3411) ـ كتاب أحاديث الأنبياء، وكذلك (3769)، (5418). وأخرجه مسلم (2431) ـ كتاب فضائل الصحابة، ورواه أحمد، وغيرهم.

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ حَرَّم الرسول ﷺ أمَّ ولده إبراهيم فعاتبه الله وأمره بإعادتها .

2 ـ التحريم ليس طلاقاً إلا بنية الطلاق ، وكفارة التحريم كفارة يمين .

3 ـ تحريم مارية وتحريم العسل واقعتان مستقلتان في أسباب نزول الآية .

4 ـ هدَّدَ الله نساء نبيّه أن يستقمن أو يزوجه خيراً منهن .

5 ـ المسلم مسؤول عن أهل بيته أمراً ونهياً وترغيباً وترهيباً .

6 ـ مُروا الصَّبي بالصلاة إذا بلغ سَبْعَ سنين ، وإذا بلغ عَشْر سنين فاضربوه عليها .

7 ـ المؤمن نوره يسعى بين يديه يوم القيامة والمنافق يطفأ نوره .

8 ـ الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

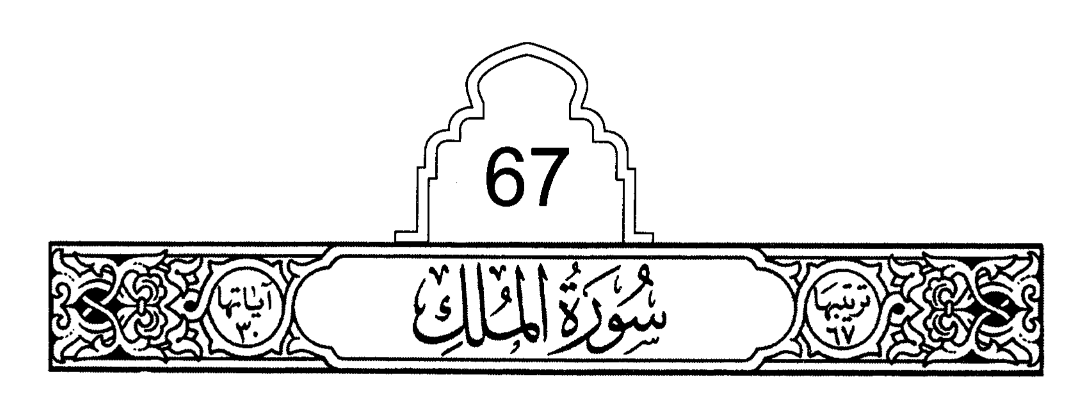
9 ـ نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء .

10 ـ رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة : اختارت الجار قبل الدار .

11 ـ أفضل نساء أهلِ الجنة خديجة بنتُ خوَيلد ، وفاطمة بنتُ محمد ، ومريم ابنة عِمران ، وآسية ابنةُ مزاحمٍ امرأة فرعون .

12 ـ كمل من الرجال كثير ، ولم يكمُلْ من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران . وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (30).

ذكر ما جاء في فضلها من أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ سُورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجلٍ حتى غُفِرَ له ، وهي ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾][1].

وفي رواية: (شفعت لصاحبها حتى غُفر له).

وفي رواية: [إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل فأخرجته من النار ، وأدخلته الجنة].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني في «الأوسط» بسند جيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [سُورة من القرآن ما هي إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة ، وهي ﴿تَبَٰرَكَ﴾][2].

---

(1) حديث حسن صحيح. أخرجه أحمد (2/ 299) ، وأبو داود (1400) ، والترمذي (2891) ، والنسائي في «الكبرى» (710) ، وفي «التفسير» (632) ، وابن ماجة (3786). وانظر للروايات المختلفة: تخريج الترغيب (2/ 222) ، وصحيح الجامع الصغير (2088).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (3667) ، وإسناده قوي ، وله شواهد.

الحديث الثالث: أخرج الحاكم وأبو الشيخ بسند صحيح عن عبد الله مرفوعاً: [سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر][1].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن جابر: [أنَّ النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾][2].

موضوع السورة

كمال الملك لله رب العالمين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ البدء بتمجيد الله تعالى خالق الموت والحياة، جاعل الكواكب زينة للسماوات، والشهب رجوماً للشياطين.

2 ـ إعداد الله نار جهنم ليعذب بها الكافرين، الذين كذبوا الرسل وعاندوا الوحي الكريم.

3 ـ تخصيص رفيع الأجر لأهل الخشية والخوف من الله العظيم، الذي ذلل الأرض لعباده ليسعوا في مناكبها ويكونوا من الشاكرين.

4 ـ تنبيه الله عباده أن لا يأمنوا عقابه إن اختاروا طريق المعصية والآثام، ودعوتهم لرؤية بديع قدرته في حركة الطير فوقهم ما يمسكهن إلا الرحمان.

5 ـ تنبيه العباد أن النصر والرزق بيد الله العلي الكريم، الذي إليه يرجع الخلق وتكون الندامة والخزي على الكافرين.

6 ـ الثناء على المؤمنين في توكلهم على العزيز الرحيم، وتنبيه العباد إلى نعمة الماء الذي إن غار لا يأتيهم به إلا الرحمان الكريم.

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 498)، وأبو الشيخ في «طبقات الأصبهانيين» (264) وهو صحيح الإسناد. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1140).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2316) ـ أبواب فضائل القرآن. باب ما جاء في سورة الملك، من حديث جابر رضي الله عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 5. قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: تمجيدُ الله تعالى نفسه فهو الخالق القادر العزيز الغفور، الذي خلق الموت والحياة والسماوات وَزَيَّنَها بالكواكب وجعل الشهب رجوماً للشياطين، وأعدّ عذاب السعير للكافرين.

فقوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾. تفاعل من البركة. قال الحسن: (تقدّس). وقال ابن جرير: (تعاظم وتعالى). فهو تمجيد من الله تعالى لنفسه الكريمة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾. قال ابن عباس: (بيده الملك يُعِزُّ من يشاء ويُذِلّ من يشاء، ويحيي ويميت، ويُغني ويُفقِر، ويُعطي ويمنع). وقال محمد بن إسحاق: (له ملك النبوّة التي أعزّ بها من اتبعه وذلّ بها من خالفه). والمقصود: بيده سبحانه مُلك الدنيا والآخرة وسلطانهما، وأمره وقضاؤه نافذ فيهما، فتعالى الله الملك القهار.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال القرطبي: (من إنعام وانتقام). والمعنى: أمره نافذ في كل شيء لكمال قهره وقدرته، فلا يعجزه شيء.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. قال قتادة: (أذلّ الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ودار فناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء). والمقصود: أوجد سبحانه الخلائق من العدم ليختبرهم أيهم أفضل عملاً. قال النسفي:

(والمعنى: خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليمتحنكم بأمره ونهيه فيما بين الموت الذي يعم الأمير والأسير والحياة التي لا تفي بعليل ولا طبيب، فيظهر منكم ما علم أنه يكون منكم، فيجازيكم على عملكم لا على علمه بكم).

وقدّم الموت على الحياة، لأن الموت إلى القهر أقرب، ولأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نَصَبَ موته بين عينيه، وأَكْثَر من ذكر هادِمِ اللذات الذي يسحبه إلى قبره مما في يديه.

وعن الفضيل بن عياض: (﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: أخلصه وأصوبه. فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السنة).

وقال شيخ الإسلام: (وإذا كانت جميع الحسنات، لابد فيها من شيئين: أن يراد بها وجه الله، وأن تكون موافقة للشريعة، فهذا في الأقوال والأفعال. في الكلم الطيب، والعمل الصالح، في الأمور العلمية، والأمور العملية العبادية).

أخرج الطبراني في «الكبير» بسند حسن عن عباد بن تميم عن عمه مرفوعاً: [يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية][1].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾. أي: وهو الغالب الذي لا يعجزه من عصاه، الستور لمن تاب واستعتب والتمس رضاه.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾. قال ابن جرير: (طبقاً فوق طبق، بعضها فوق بعض). قال القرطبي: (و﴿طِبَاقًا﴾ نعت لـ ﴿سَبْعَ﴾ فهو وصف بالمصدر).

وقوله: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾. قال قتادة: (ما ترى فيهم من اختلاف). وقال ابن كثير: (﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، أي: بل هو مُصْطَحِبٌ مُسْتَوٍ، ليس فيه اختلافٌ ولا تنافرٌ ولا مخالفة، ولا نقصٌ ولا عيبٌ ولا خَلَلَ).

وقوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾. قال ابن عباس: (أي: شقوق). وفي

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح. انظر «المجمع» (6/ 655). ورواه أبو نعيم في «الحلية» (7/ 122). والبيهقي في «الزهد» (2/ 37/ 2). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (508).

رواية: (أي: وَهِيٌّ). وقال السدي: (﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: من خُرُوق). وقال قتادة: (أي هل ترى خَلَلاً يا ابن آدم؟). والمقصود: اردد طرفك إلى السماء فقلِّب البصر في أرجائها فانظر متأملاً هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو شقوقاً.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾. قال قتادة: (مرتين). أي رجعتين مرة بعد مرة. فإن النظرة الأولى قد لا تكشف العيب، فانظر الثانية نظر الفاحص المستكشف.

وقوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾. قال ابن عباس: (ذليلاً). وقال مجاهد: (صاغراً). فأخبر الله تعالى أنه وإن نظر في السماء مرة بعد مرة متفحصاً لا يرى فيها عيباً بل يتحيّر بالنظر إليها، ويرجع البصر خاشعاً صاغراً متباعداً عن رؤية أي عيب أو نقص أو خلل. وفي لغة العرب: خَسَأ البصر أي سَدِر ـ يعني لم يكد يبصر ـ من باب قَطَع وخَضَع. وخسأت الكلبَ أي أبعدته وطردته.

وقوله: ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾. الحسور: الإعياء. قال قتادة: (﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ يقول: مُعْيٍ لم ير خللاً ولا تفاوتاً). والمقصود: عاد البصر بعد التأمل حسيراً ـ أي كليلاً ـ قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرُّر ولا يرى نقصاً ولا عيباً.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾. بيان لكمال زينة السماء وتمام خلقها وحسن تلألئها بعد نفي النقص أو العيب في صرحها. والمصابيح: الكواكب التي وضعت فيها السيَّارات والثوابتِ. قال النسفي: (﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بكواكب مضيئة كإضاءة الصبح، والمصابيح السرج، فسميت بها الكواكب والناس يزينون مساجدهم ودورهم بإيقاد المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بمصابيح، أي بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾. أي وجعلنا الشهب التي تصدر عن هذه المصابيح رجوماً لأعدائكم من الشياطين. والرجوم: جمع رجم، وهو مصدر سُمِّيَ به ما يرجم به. قال قتادة: (خلق الله تعالى النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر والأوقات. فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلّف ما لا علم له به، وتعدّى وظلم).

أخرج البخاري عن ابن عباس قال: [انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين. فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء

وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء][1].

فهؤلاء الشياطين ما عادوا يَحْظَون اليوم بخبر كامل من السماء كما كانوا قبل بعثة النبي ﷺ، فربما استرقوا جزءاً من الخبر لا تكتمل معه قصة أو خبر قبل أن تحرقهم الشهب وتقطع عليهم السبيل.

قال شيخ الإسلام: (وقد أخبر سبحانه في كتابه من منافع النجوم، فإنه يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وأخبر أنها زينة للسماء الدنيا، وأخبر أن الشياطين تُرجم بالنجوم).

قلت: وأما ما يربط به المنجمون بعض ما يحدث في الدنيا في حياة الناس من موتِ أحد مشاهيرهم، أو ولادة مولود لبعضهم، أو مما ينتظر بعضهم من أماني وأحلام في المستقبل يزعمون أن الأفلاك توجبه، فكل ذلك من الكذب على الله بغير علم.

قال محمد بن كعب: (والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلاً ويتخذون النجوم علة).

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾. أي: وأعتدنا لهؤلاء الشياطين أشدّ الحريق مقابل ما تعاطوا به من السحر والكفر والكذب على الله ورسله.

6 ـ 11. **قوله تعالى**: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4921) ـ كتاب التفسير. ورواه مسلم والترمذي وغيرهما.

كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾.

في هذه الآيات: إعدادُ الله نار جهنم ليعذب بها الكافرين، الذين كذبوا الرسل وعاندوا الوحي الكريم، ليذوقوا الخزي والندامة والألم في مستقرهم في الجحيم.

فقوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾. أي أَعَدَّ الله لكل من كفر به من الشياطين وغيرهم عذاب النار في الآخرة.

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. أي: وبئس المرجع والمآل والمستقر والمنقلب.

وقوله: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾. قال ابن جريج: (يعني الصياح). وقوله: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾. قال مجاهد: (يقول: تغلي كما يغلي القِدْر). وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾. قال ابن عباس: (تكاد يفارق بعضها بعضاً وتنفطر). وقال: (يقول: تتفرّق). قال ابن زيد: (التميز: التفرّق من الغيظ على أهل معاصي الله غضباً لله، وانتقاماً له). والمقصود: تكاد جهنم ينفصل بعضها من بعض، مِنْ شدّة غيظها على أهلها وحنقها بهم.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

أي: كلما ألقي فيها جماعة من الكفار سألهم خزنة جهنم ـ على جهة التوبيخ والتقريع ـ: ألم يأتكم رسول في الدنيا ينذركم لقاء يومكم هذا ويحذركم مآسيه؟! فأجابوا: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ حذرنا وأنذرنا فقابلناه بالتكذيب وقلنا: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي على ألسنتكم معشر الرسل ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحق بعيد.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

2 ـ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: 71].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [ليسَ أحدٌ

أَحَبَّ إليه المدحُ من الله عزَّ وجلَّ ، مِنْ أجْلِ ذلك مَدَحَ نَفْسَهُ ، وليسَ أحَدٌ أَغْيَرَ من الله ، مِنْ أَجْلِ ذلك حَرَّمَ الفواحِشَ ، وليس أحَدٌ أحبَّ إليه العُذرُ من الله ، مِنْ أجْلِ ذلك أنزل الكِتابَ وأرسَلَ الرُّسُل][1] .

وفي سنن أبي داود بسَند صحيح عن أبي البَخْتَرِيِّ الطائي قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ أنه قال: [لَنْ يهلكَ الناس حتى يَعْذِروا ، أو يُعْذِروا ، من أنفسهم][2] .

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

إِخْبَارٌ من الله عز وجل عن وقوع الكافرين يوم الحسرة بالندامة ، ورجوعهم على أنفسهم بالملامة. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وقال الفوج الذي ألقي في النار للخزنة ﴿ لَوْ كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ من النذر ما جاؤونا به من النصيحة ، أو نعقل عنهم ما كانوا يدعوننا إليه ﴿ مَا كُنَّا ﴾اليوم ﴿ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ يعني أهل النار). والمقصود: ما كانوا يسمعون الإنذار سماع طالب الحق ، ولا يعقلون حجج الوحي عقل المتأمل المتدبر ، وهذا ما وَرَّطهم في العذاب يوم القيامة. قال النسفي: (وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل وأنهما حجتان ملزمتان).

وقوله: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ ﴾. أي: أقروا بكفرهم في تكذيب الرسل ومعاندة حجج الوحي. ووحّد الذنب وقد أضيف إلى الجمع لأن فيه معنى الفعل ، فالذنب بمعنى الجمع ، فأدّى الواحد عن الجميع ، كما يقال: خرج عطاء الناس أي أعطيتهم.

وقوله: ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: بُعْداً). قال القرطبي: (أي فَبُعْداً لهم من رحمة الله).

12 ـ 15. قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2760) ح (35) ـ كتاب التوبة. باب غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش. قال القاضي: (يحتمل أن المراد الاعتذار ، أي اعتذار العباد إليه من تقصيرهم ، وتوبتهم من معاصيهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾). ـ يفسِّر «العُذْر».

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4347) ، بإسناد حسن ، وجهالة الصحابي لا تضرّ ، فالإسناد رجاله ثقات. وانظر صحيح سنن أبي داود (3653).

ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ رفيع الأجر والثواب لأهل الخشية والخوف من الله العظيم، الذي يعلم السر وأخفى وهو اللطيف الخبير الكريم، والذي ذلَّل الأرض لعباده ليسعوا في مناكبها وليشكروه على نعمه وليستعدوا للقائه في يوم الحشر العظيم.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾. قال ابن جرير: (يخافون ربهم ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يقول: وهم لم يرَوْه).

قلت: بل الخشية أخص من الخوف، فالخشية للعلماء بالله، والخوف لعامة المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]. وكما قال نبيه ﷺ: [إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية] ـ رواه مسلم.

وقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. أي لهم عفو من الله عن ذنوبهم، وثواب جزيل على خشيتهم إياه ـ سبحانه ـ بالغيب.

وقوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾. اللفظ لفظ الأمر والمراد به الخبر. والتقدير: سواء أخفيتم قولكم وكلامكم أيها الناس أو أعلنتموه فإن إسراركم وإجهاركم قد أحاط به الله.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. أي: إنه تعالى محيط بضمائر الصدور لا يخفى عليه منها شيء، فغيرها أحرى أن لا يخفى عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. أي: ألا يعلم السر من خلق السر، وهو ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ بعباده ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بهم وبأعمالهم.

واللطيف اسم من أسماء الله تعالى. ومعناه: الذي يوصِلُ إليك أَرَبَك في رِفْق. وقيل: هو الذي لَطُفَ عن أن يُدْرَكَ بالكيفية.

قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [الشورى: 19].

والخبير: العالم العارف بما كان وما يكون. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 18].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾. أي: سهلة تستقرون عليها، قد سَهّلَها لكم. والذلول في كلام العرب المنقاد الذي يَذِلّ لك. والمصدر الذُّلُ وهو اللين والانقياد.

وقوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾. أي في أطرافها ونواحيها وأرجائها. قال ابن عباس: (يقول: امشوا في أطرافها). وقال مجاهد: (في طرقها وفجاجها).

قال ابن كثير: (أي: فَسَافِروا حيث شِئْتُم من أقطارها، وتردّدوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سَعْيَكُم لا يُجْدي عليكم شيئاً، إلا أن ييُسِّره الله لكم، ولهذا قال: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ ـ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل).

وفي سنن ابن ماجة والترمذي بسند حسن عن عمر بن الخطاب يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [لو أنكم تَتَوَكّلون على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزقُ الطير، تَغْدو خِماصاً وتروح بِطاناً](1).

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾. أي: وإليه المرجع سبحانه يوم القيامة، هو ينشركم من قبوركم للقيام بين يديه في أرض المحشر.

16 ـ 19. قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

في هذه الآيات: تنبيهُ الله تعالى عباده أن لا يأمنوا عقابه إن اختاروا طريق المعصية والآثام، فلقد أهلك سبحانه من قبلهم من أهل الكفر والمكر والإجرام، فهلا نظروا إلى بديع قدرته في حركة الطير فوقهم ما يمسكهن إلا الرحمان.

فقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾. أي: أأمنتم الله الذي استوى على العرش فوق سبع سماوات أن ينزل نقمته بأهل المعاصي والآثام. قال ابن عباس: (أأمنتم عذاب من في

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2344)، وابن ماجة (4164)، وأحمد (1/ 30)، وغيرهم.

السماء إن عصيتموه). وقيل: تقديره أأمنتم من في السماء قدرته وسلطانه وعرشُه ومملكتُه. قال القرطبي: (وخَصَّ السماءَ وإن عَمَّ مُلْكُهُ تنبيهاً على أن الإله الذي تنفذ قدرته في السماء لا من يعظّمونه في الأرض). وقال ابن جرير ـ شيخ المفسرين ـ: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله).

قلت: والآية دليل ساطع من أدلة العلو وأن الله تعالى في السماء ـ أي: على السماء ـ فإن ﴿فِي﴾ ـ في هذه الآية كما ذكر البيهقي والذهبي وأئمة السلف ـ تعني «على».

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5].

3 ـ وقال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 4 ـ 5].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق ذلك أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج مسلم عن جابر: [ـ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة ـ: ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إليهم ويقول: اللهم اشهد]. وفي رواية: [فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكُتُها إلى الناس، اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء][2].

الحديث الثالث: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا تأمنوني وأنا أمين مَنْ في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً][3].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (4/ 39 ـ 43). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (707).
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4941)، والترمذي (1/ 350)، وأحمد (2/ 160)، وغيرهم.
(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (514) ص (140)، وهو جزء من حديث طويل.

وقوله: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾. أي كما خسف بقارون. ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب وتتحرك. والمَوْر: الاضطراب بالذهاب والمجيء.

وقوله: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ـ وهو الله ـ ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾. قال ابن جرير: (وهو التراب فيه الحصباء الصغار). وقال القرطبي: (أي حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل. وقيل: ريحٌ فيها حجارة وحَصْباء. وقيل: سحاب فيه حجارة).

وقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾. أي: فستعلمون كيف يكون إنذاري وعاقبة من كذّب به. قال النسفي: (أي إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. أي: ولقد كذّب ـ يا محمد ـ الذين من قبل هؤلاء المشركين من قريش من الأمم السالفة والقرون الخالية رسلهم.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾. قال ابن كثير: (أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي: عظيماً شديداً أليماً).

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾. قال مجاهد: (بَسْطُهُنَّ أجنحتهنّ وقبضهنّ). وقال قتادة: (﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: الطير يصف جناحه كما رأيت، ثم يقبضه). والمقصود: أولم ينظر هؤلاء القوم نظرة تأمل في جماعات الطير، تارة يَصْفُفْنَ أجنحتهنَّ في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً.

وقوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. أي: ما يمسك الطير في الجو فوقكم إلا الرحمن، بما سخّر لهن من الهواء، وبما دبّرَ لهن من بنية يتأتى منها الجري في الجوّ. كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 79].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾. قال القاشاني: (أي فيعطيه ما يليق به، ويُسَوِّيه بحسب مشيئته، ويودع فيه ما يريده بمقتضى حكمته، ثم يهديه إليه بتوفيقه). وقال ابن جرير: (يقول: فلهم بذلك مذكر إن ذكروا، ومعتبر إن اعتبروا، يعلمون به أن ربهم واحد لا شريك له ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يقول: إن الله بكل شيء ذو بصر وخبرة، لا يدخل تدبيره خلل، ولا يُرى في خلقه تفاوت).

20 ـ 27. **قوله تعالى:** ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تنبيهُ العباد أن النصر والرزق بيد الله العلي الكريم، الذي خلق الأرض وبَثَّ فيها العباد وجعل لهم السمع والأبصار ليشكروه وإليه المرجع يوم الحشر العظيم، يوم يرسل الله الخزي والندامة والمذلة على الكافرين.

فقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾. تبكيت وتقريع بالمشركين الذين عبدوا مع الله آلهة يبتغون بذلك النصر والرزق، ويظنون أنها تقربهم إلى الله زلفى. قال ابن جرير: (يقول: من هذا الذي هو جند لكم أيها الكافرون به ينصركم من دون الرحمن إن أراد بكم سوءاً، فيدفع عنكم ما أراد بكم من ذلك).

وقوله: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾. قال القرطبي: (من الشياطين، تَغرّهم بأن لا عذاب ولا حساب).

وقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾. أي: أم من هذا الذي هو يطعمكم ويسقيكم، ويأتي بأقواتكم ويغدق عليكم ويعطيكم حوائجكم، إن قطع الله رزقه عنكم؟!

وقوله: ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول: في ضلال). وقال مجاهد: (﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ قال: في كفور). والمقصود: بل استمروا في طغيانهم وتماديهم وضلالهم وشرودهم عن الحق.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر يمضي في ضلاله وتخبطه كالمنكِّس رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله، فهو لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه، وأما المؤمن فهو يمضي في طريقه مطمئناً يستضيء بنور إيمانه ويقينه، فهو كالذي يمشي سوياً معتدلاً ناظراً ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله، يبصر العقبات ويحذر العثرات.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾. أي خلقكم ابتداء. قال القرطبي: (أمر نبيه أن يعرّفهم قبح شركهم مع اعترافهم بأن الله خلقهم).

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾. قال النسفي: (خصّها لأنها آلات العلم). فالسمع تسمعون به، والأبصار تبصرون بها، والأفئدة تعقلون بها.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. قال القاسمي: (أي باستعمالها فيما خلقت له).

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال ابن عباس: (أي خلقكم في الأرض). وقال ابن شجرة: (نشركم فيها وفرّقكم على ظهرها).

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. أي: وإليه تجمعون من قبوركم لمشهد الحساب ونيل الثواب والعقاب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. استهزاء من المشركين بيوم المعاد. أي يقولون: متى يوم القيامة! ومتى هذا العذاب الذي تِعدوننا به إن كنتم صادقين في وعدكم! أعلمونا زمانه وميعاده؟!

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: قل لهم يا محمد: إن وقت قيام الساعة موكول أمره وعلمه إلى الله، فلا يشاركه في علمه غيره، وإنما أنا ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: مخوّف ومعلم لكم، ﴿مُّبِينٌ﴾: أبيّن لكم الشرائع.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾. أي قريباً. فهو مصدر بمعنى مُزْدَلَفاً. قال مجاهد: (﴿زُلْفَةً﴾: قد اقترب). وقال الحسن: (لما عاينوه).

وقوله: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. قال قتادة: (لما رأوا عذاب الله زلفة، يقول: سيئت وجوههم حين عاينوا من عذاب الله وخزيه ما عاينوا). وقال ابن زيد: (الزلفة حاضر قد حضرهم عذاب الله عزّ وجل).

وفي التنزيل: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: 47 ـ 48].

وقوله: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾. قال ابن زيد: (استعجالهم العذاب).
أي: يقال لهم حينئذ على وجه التقريع والتوبيخ: هذا الذي كنتم تكذبون وتدّعون من أجله الأباطيل والأحاديث، هذا هو العذاب الذي كنتم به تذكرون ربكم أن يعجله لكم وتتمايلون مستهزئين.

28 ـ 30. **قوله تعالى**: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ۝٣٠﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ مرجع الأمر كله لله العلي العظيم، فهو الرحمان عليه يتوكل المؤمنون وسيعلم الكفار أنهم أهل الضلال المبين. مَنْ يأتيكم أيها الناس بالماء إن غار في أرضكم سوى الله الحكيم الكريم!

فقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾. أي: قل يا محمد للمشركين من قومك أرأيتم أيها الناس إن أماتني الله وأصحابي أو أخّر آجالنا.

وقوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال ابن كثير: (أي خَلِّصوا أنفسكم، فإنه لا مُنْقِذَ لكم من الله إلا التوبةُ والإنابةُ، والرجوعُ إلى دينه، ولا ينفعكم وقوعُ ما تتمنون لنا من العذاب والنّكال، فسواء عذَّبنا الله أو رحِمنا، فلا مناصَ لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم).

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾. قال النسفيّ: (أي الذي أدعوكم إليه الرحمان ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ صدقنا به ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فوضنا إليه أمورنا).

وقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. أي: فستعلمون معشر المشركين إذا نزل العذاب بكم ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نحن أم أنتم، وسترون لمن تكون العاقبة في الدارين.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾. الغائر: الذاهب في الأرض وهو ضد النابع.
أي: قل يا محمد ـ يا معشر قريش ـ ماذا لو غار ماء آباركم وينابيعكم فذهب في الأرض

لا تناله الدلاء ، ولا الفؤوس الحداد ، ولا السواعد الشداد. قال القرطبي: (وكان ماؤهم من بئرين: بئر زمزم وبئر ميمون).

وقوله: ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينِۭ ﴾. إظهار بديع لرحمة الله في خلقه ، لعل المشركين يكفرون بالطواغيت ويعظمون أمره ، وينصرفون إلى امتثال شرعه!

قال ابن عباس: (﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينِۭ ﴾ يقول: بماء عذب). وقال قتادة: (الماء المعين: الجاري). وقال سعيد بن جبير: (الظاهر). وفي رواية أخرى عن ابن عباس: (﴿ بِمَآءٍ مَّعِينِۭ ﴾ أي ظاهر تراه العيون).

وبناء على ذلك فإن ﴿ مَّعِينِۭ ﴾ أي ظاهر تراه العيون ، فهو مفعول ، أو هو من مَعَن الماء إذا كثُر فهو على وزن فعيل ، أي هو كثير جار ونابع وسائح على وجه الأرض.

والمقصود: لابد لهم أمام هذا القرع الرائع أن يقولوا إنّما يأتينا به الله ، فقل لهم يا محمد: فلم تشركون به من لا يقدر على التحكم بمياهكم وآباركم وينابيعكم! وليس له أمر إجرائها في سائر أقطار البلاد ، حسب حاجة البهائم والعباد.

أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن ابن عباس قال: [ما مِن عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء ، ثم قرأ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: 50]][1].

وله شاهد عند البغوي عن ابن مسعود يرفعه: [ليس من سنة بأمَرَّ من أخرى ، ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حوّلَ الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار][2].

تم تفسير سورة الملك

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

عصر الأحد 11 شوال 1426 هـ

الموافق 13 / تشرين الثاني / 2005 م

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 403) ، وابن جرير في «التفسير» (19/ 15) ، وهو صحيح على شرط الشيخين. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2461).

(2) صحيح مرفوع. أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» (6/ 184 ـ منار). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ج (5) ص (593). وقوله: «بأمَرّ» أي بأسوأ.

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر.

2 ـ كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ السجدة والملك.

3 ـ لن يُرى في خلق السماوات السبع من خلل مهما تكرر إمعان النظر.

4 ـ ندامة الكفار في جهنم حيث لا تنفع الندامة.

5 ـ الأجر والمغفرة للذين يخشون ربهم بالغيب.

6 ـ طلب الرزق لا ينافي التوكل. ولو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

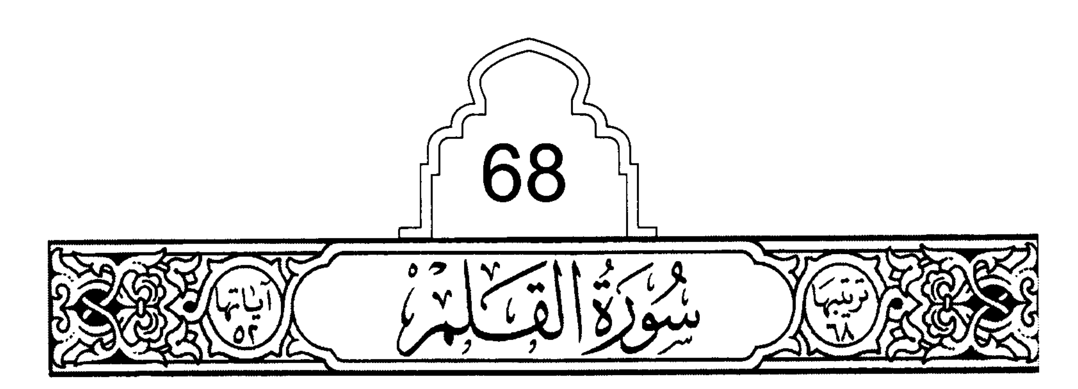
7 ـ ذات الله تعالى فوق كل مخلوق، ووسعت صفاته كلَّ شيء.

8 ـ لا يرزق غير الله إن أمسك رزقه، ولا يجير من عذاب الله أحد إن أنزل نقمته.

9 ـ من هذا الذي ينبع الماء إن أراد أن يجعله غائراً في الأرض!

10 ـ ما مِنْ عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء.





وهي سورة مكية ، ويقال لها سورة نون ، وعدد آياتها (52) .

موضوع السورة

القلم أول ما خلق الله رب العالمين
وكُتب فيه تقدير جميع ما في الدارين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ القسم بالقلم لتأكيد الله نبوة رسوله الكريم ، وإثبات الخلق جميعه لله العظيم .

2 ـ توعد الله تعالىٰ المنافقين والكافرين ، والله تعالى هو أعلم بالضالين وبالمهتدين .

3 ـ الدعوة لإقامة منهج الولاء والبراء ، والتحذير الشديد من اتباع سبيل الأعداء .

4 ـ قصة أصحاب الجنة وانعكاس المكر السَّيِّئ على أهله الماكرين ، والشعور بالندم بعد نزول الانتقام من الله رب العالمين ، وبقاء الأمل بالله بعد التوبة فإن الفوز هو النجاة من عذاب الجحيم .

5 ـ التفريق بين المسلمين والمجرمين ، فالمؤمنون في سرور ونعيم ، والكافرون هم وشركاؤهم في نار الجحيم .

6 ـ ظهور الساق يوم الحشر ككلمة السر بين المؤمنين وربهم ليخروا له ساجدين ، وحرمان الله المنافقين أن يكونوا مع الساجدين .

7 ـ استدراج الله الكفار في الدنيا وكذلك المنافقين ، حتى يحيط بهم كيده المتين .

8 ـ أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر ، وكشف محاولات الكفار إصابته بالعين والسحر .

9 ـ اتهام الكفار الرسول بالجنون ، وهذا الوحي ونبي الحق شرف للعالمين .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 7. **قوله تعالى:** ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

في هذه الآيات: قَسَمٌ من الله تعالى بالقلم يؤكد النبوة لنبيه الكريم، ويثبت له الخُلق العظيم، ويتوعد المنافقين والكافرين، والله تعالى هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.

فقوله: ﴿نٓ﴾ ـ كقوله في أوائل السور المتقدمة التي تبدأ بمثل هذه الحروف المقطعة، والراجح أن المراد الإعجاز، أي: هذا القرآن مكون من مثل هذه الأحرف، والخلق عاجزون عن معارضته بمثله.

وقوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. قسم من الله تعالى بالقلم، والمراد جنس القلم الذي يُكتب به، كما قال جل ثناؤه: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 3 ـ 5].

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح من حديث عبادة مرفوعاً: [إن أَوَّلَ ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة][1].

وفي رواية: [إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد]. وفي لفظ آخر: (اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة).

وعن ابن عباس: (﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: يعني وما يكتبون). وقال أيضاً: (وما يَعْملون).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 317)، والترمذي في التفسير (2/ 232)، وانظر تخريج أحاديث «مشكاة المصابيح» (94).

وقال السدي: (﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: يعني الملائكة وما تكتُبُ من عمل العباد). قال ابن كثير: (﴿وَٱلْقَلَمِ﴾. فهو قَسَمٌ منه تعالى، وتنبيهٌ لِخَلْقِهِ على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تُنالُ العُلوم).

وقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. قال النسفي: (أي بإنعامه عليك بالنبوة وغيرها). وقال القرطبي: (والنعمة هاهنا الرحمة). وقيل: النعمة هاهنا قسم والتقدير: ما أنت ونعمة ربك بمجنون، فالواو والباء من حروف القسم.

والمقصود: ما أنت ـ يا محمد ـ بما جئت به قومك من الوحي والهدى والحق بمجنون ـ كما نسبك الجهلة من قومك ظلماً إلى الجنون ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾. أي: وإن لك يا محمد عند الله الثواب العظيم الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، مقابل حملك هذه الأمانة، والصبر على أذى قومك في سبيلها. قال ابن جرير: (﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غير منقوص ولا مقطوع). فهو من قولهم: مننت الحبل إذا قطعته. وحبل منين إذا كان غير متين. وعن مجاهد: (﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غير محسوب). وقال الحسن: (غير مكدّر بالمنّ). وقال الضحاك: (أجراً بغير عمل). وعن الماوردي: (غير مقدّر وهو التفضّل، لأن الجزاء مقدّر والتفضل غير مقدّر). وجميعها أقوال متقاربة متكاملة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإنك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه).

قلت: و«على» في لغة العرب حرف استعلاء، فكأن الخلق العظيم في مقام أنت علوته يا محمد، وسموت فوقه بتألق صفاتك وأخلاقك.

ومن كنوز السنة العطرة في وصف أخلاقه وشمائله ـ ﷺ ـ أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه من حديث عائشة: [ـ وقد سألها رجل ـ: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ. قالت: ألسْتَ تَقْرأُ القرآنَ؟ قلت: بلى. قالت: فإن خُلُقَ نبيّ الله ﷺ كان القرآن][1].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذا الحديث: (ومعنى هذا أنه ـ عليه الصلاةُ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (746) ـ كتاب صلاة المسافرين، في أثناء حديث طويل.

والسلامُ ـ صارَ امتثالُ القرآن ، أمراً ونهياً ، سجيةً له وخُلقاً تَطَبَّعَهُ ، وترك طَبْعَهُ الجِبلِّيَّ ، فمهما أَمَره القرآنُ فَعَله ، ومَهما نهاه عنه تَرَكه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخُلُق العظيم ، من الحياء والكرم ، والشجاعة ، والصَّفح ، والحِلم وكلِّ خلق جميل). وقال القرطبي: (ولم يُذكر خُلُقٌ محمود إلا وكان للنبيِّ ﷺ منه الحظّ الأوفر).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: [خَدَمْتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين فما قال لي «أف» قطُّ ، ولا قال لشيء فعلتُه: لِمَ فَعَلْتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فَعَلْتَهُ؟! وكان رسول الله ﷺ من أحْسَنِ الناس خلقاً ، ولا مَسِسْتُ خَزّاً ولا حَريراً ولا شيئاً كان ألينَ من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شَمِمْتُ مسكاً ولا عِطراً كان أطيب من عَرَق رسول الله ﷺ][1].

قلت: وهذا الحديث العظيم يدل أن الله تعالى قد جمع في شخص النبي ﷺ حسن الخَلْقِ والخُلُق ، فهو من أحسن الناس خَلْقاً وخُلقاً.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن البراء قال: [كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس وجهاً وأحسن الناس خُلقاً ، ليس بالطويل ولا بالقصير][2].

الحديث الرابع: أخرج أحمد على شرط الشيخين عن عائشة قالت: [ما ضَرَبَ رسول الله ﷺ بيده خادِماً قطُّ ، ولا امرأةً ، ولا ضربَ بيده شيئاً قطُّ ، إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا خُيِّرَ بين شيئين قطّ إلا كان أحبَّهما إليه أيسرُهما حتى يكون إثماً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يُؤتَى إليه إلا أن تُنْتَهك حُرمات الله ، فيكون هو ينتقم لله عزّ وجل][3].

الحديث الخامس: أخرج أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنما بُعثت لأتمِّمَ صالح الأخلاق][4].

الحديث السادس: أخرج الترمذي بسند صحيح من حديث أبي الدرداء ، أن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6038) ، ومسلم (2309) ، وأبو داود (4774) ، ورواه أحمد (3/ 255) ، وابن حبان (2894) من حديث أنس.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3549) ، ومسلم (2337) ح (93) ، وأخرجه الترمذي في «الشمائل» (131) من حديث البراء.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 232) ، وإسناده على شرط البخاري ومسلم ، وله طرق.

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 381) ، وإسناده حسن.

النبي ﷺ قال: [ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن، وإن الله تعالى لَيُبْغِضُ الفاحش البذيء][1].

الحديث السابع: أخرج الترمذي بإسناد حسن من حديث جابر، أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ مِن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً ـ قال ـ وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدَكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمُتَشَدِّقون والمُتَفَيْهِقون. قالوا: يا رسول الله، قد عَلِمنا الثرثارون والمتشدّقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون][2].

والمتشدقون: المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز. وقيل: أراد بالمتشدق: المستهزئ بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾. قال الضحاك: (يقول: ترى ويرون). وقال ابن عباس: (ستعلم ويعلمون يوم القيامة). قال النسفي: (أي عن قريب ترى ويرون، وهذا وعد له ووعيد لهم).

وقوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾. أي: بأيكم الجنون. أهو في فريق الإيمان أم في فريق الكفر. قال مجاهد: (﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾: بأيكم المجنون). وقال قتادة: (بأيكم أولى الشيطان). والمقصود: ستعلم يا محمد ويعلم مخالفوك ومكذبوك قريباً من المفتون الذي افتُتِنَ عن الحق وضل عن سواء السبيل، فهو متبوع للشيطان وأولى أن يوصف بالجنون.

وفي التنزيل: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: 26].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: إن ربك ـ يا محمد ـ هو أعلم بمن ضل عن طريق الحق الذي أمر به، وهو أعلم بمن اهتدى إليه وإلى منهاج النجاة والسعادة في الدارين.

8 ـ 16. قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2002)، وأبو داود (4799) ـ مختصراً.
(2) إسناده حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2018)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (4/ 63).

زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآيات: دعوة من الله تعالى نبيّه ﷺ إلى إقامة منهج الولاء والبراء، والتحذير من اتباع سبيل الأعداء.

فلقد عرض المشركون على النبي ﷺ أن يترك بعض ما هو عليه مقابل أن يتركوا بعض ما هم عليه، وأن يعبد آلهتهم عاماً ويعبدوا ربّه عاماً، فقالوا له كما يروي ابن هشام: (لو قبلت آلهتنا نعبد إلهك). فأنزل الله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿تُدْهِنُ﴾ من الدُّهن، فشبه سبحانه التليين في القول بتليين الدُّهن.

قال ابن عباس: (ودّوا لو تكفر فيكفرون). وفي رواية: (لو ترخّص لهم فيرخّصون). وقال مجاهد: (لو تَركَن إلى آلهتهم، وتترك ما أنت عليه من الحق فيمالئونك). وقال قتادة: (ودّوا يا محمد لو أدهنت عن هذا الأمر، فأدهنوا معك).

والآية تشبه قوله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

وكان الأخنس بن شريق الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ ويطعن فيه، فوصفه الله بتسع صفات ذميمة في القرآن، فقال جل ذكره: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

قال ابن عباس: (والمهين: الكذاب). وقال مجاهد: (مهين: ضعيف). وقال قتادة: (وهو المكثار في الشر). وقال الحسن: (كل مكثار في الحلف مهين ضعيف).

وقوله: ﴿هَمَّازٍ﴾. قال ابن عباس: (يعني الاغتياب). وقال قتادة: (يأكل لحوم المسلمين).

وقوله: ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾. قال ابن عباس: (يمشي بالكذب). وقال قتادة: (ينقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض).

وقوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾. أي بخيل بالمال والإنفاق والعطاء. ﴿مُعْتَدٍ﴾ على الناس ﴿أَثِيمٍ﴾ ذي إثم بربه، فهو بخيل بالبذل وبالعمل، كثير الفواحش والآثام، متطاول على حقوق الناس.

ثم وصفه بقوله: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾. ليجمع بهذا الوصف ساقط الصفات وذميم الأخلاق، فإن العتل هو الجافي الشديد في كفره، وكل شديد قوي تسميه العرب عتلاً.

قال ابن عباس: (العتل: العاتل الشديد المنافق). وقال الحسن: (فاحش الخلق لئيم الضريبة).

وعن وهب الذَّماري قال: (تبكي السماء والأرض من رجل أتم الله خلقه، وأرحب جوفه، وأعطاه مِقْضَماً من الدنيا، ثم يكون ظلوماً للناس، فذلك العتل الزنيم).

والزنيم في كلام العرب هو الملصق بالقوم وليس منهم. قال ابن عباس: (والزنيم الدعيّ). وقال عكرمة: (الزنيم الذي يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها). وقيل: كانت في أذن الأخنس زنمة يعرف بها.

وقد أخبر النبي ﷺ في حديثه أن مثل هذه الصفات هي صفات مَنْ أبغضه الله وَوَعَدَهُ عذابه ونيرانه.

فقد أخرج البخاري عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كُلُّ ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبرّه. ألا أخبركم بأهل النار؟ كُلُّ عتل جَوّاظ مستكبر][1].

وروى البيهقي وابن حبان بسند جيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله يبغض كل جعظري جوّاظ، سخّاب في الأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة][2].

والجعظري هو الفظ الغليظ المتكبّر، والجواظ هو الجموع المنوع الأكول.

وقوله تعالى: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾. أي: أفي مقابلة إنعام الله تعالى عليه بالمال والولد، أعلن الكفر وكذب بالوحي واتّهم التنزيل أنه مأخوذ من أساطير الأولين؟!

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6071) ـ كتاب الأدب. وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 254 ـ 257).

(2) حديث صحيح. أخرجه البيهقي وابن حبان. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1874)، والمرجع السابق (1/ 256).

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴾. قال تعالى: ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: 11 ـ 26].

وقوله تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴾. أي: سنكويه على أنفه مهانة له، بعلامة يعرف بها إذلالاً له، ويبدو أن هذا الوعيد في الدنيا والآخرة.

فعن ابن عباس: (﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴾ فقاتل يوم بدر، فخطم بالسيف في القتال). وعن قتادة قال: (سنسم على أنفه. قال: شين لا يفارقه آخر ما عليه).

قال الزمخشري: (الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه، لتقدّمه له، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة، واشتقوا منه «الأنَفَة» وقالوا: الأنف في الأنف، وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنين. وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه. فَعبّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين وإذالة، فكيف بها على أكرم موضع منه؟ قال: وفي لفظ ﴿ ٱلۡخُرۡطُومِ ﴾ استخفاف به واستهانة، لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل. وقيل: سنعلمُه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يبين بها عن سائر الكفرة، كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم) انتهى.

17 ـ 33. **قوله تعالى**: ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ۝٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٣٣ ﴾.

في هذه الآيات: انعكاسُ المكر السَّيئ على أهله الماكرين، والشعور بالندم بعد

نزول الانتقام من الله رب العالمين ، وبقاء الأمل بالله بعد التوبة من الظلم فإن العذاب الحقيقي هو عذاب الجحيم .

فقوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ الآية . قال ابن جرير : (أي بلونا مشركي قريش ، يقول : امتحناهم فاختبرناهم ، ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ يقول : كما امتحنا أصحاب البستان ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ يقول : إذ حلفوا ليصرمُنّ ثمرها إذا أصبحوا) . وقال ابن كثير : (هذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النِّعم الجسيمة ، وهو بِعْثَةُ محمد ﷺ ، فقابلوه بالتكذيب والردِّ والمحاربة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾ ، أي : اختبرناهم ، ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ، وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ، ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ ، أي : حلفوا فيما بينهم ليجذُّن ثمرَها ليلاً ، لِئلا يعلَم بهم فقير ولا سائل ، ليتوفَّرَ ثمرُها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ . قيل : ولا يقولون إن شاء الله . قلت : والأرجح أن يقال : ولا يستثنون أحداً من الفقراء بل يحرمون الكل . فإنه لا معنى لمن بيَّت ذلك الاستثناء بقول : إن شاء الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ . قال ابن عباس : (طاف عليها أمر من الله وهم نائمون) . والمقصود : نزل بها بلاء أو آفة سماوية .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ . قال ابن عباس : (الصريم : الليل) . أي : فأصبحت كالليل الأسود . وقال الثوري والسّدي : (مثل الزّرع إذا حُصِدَ ، أي : هَشيماً يَبَساً) . والصريم في لغة العرب : المجدود المقطوع ، كما يطلق على الليل المظلم لأنه يقطع بظلمته عن التصرف . والمقصود : احترقت الأرض واسودت كالليل المظلم ، أو صُرِمَ عنها الخير : أي قطع وهلك ثمرها وشجرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ . أي : نادى بعضهم بعضاً عند الصباح ليذهبوا إلى الجِذاذِ . وقوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ . أي : باكروا بالخروج إلى زرعكم إن كنتم تريدون الحصاد . قال القاسمي : (﴿ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أي قاصدين قطع ثمارها) . وقد قطعها البلاء من أصلها بالليل وهم لا يشعرون .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ . قال قتادة : (يُسِرّون) . أي خرجوا بكرة وهم

يكتمون ذهابهم ويتسارّون فيما بينهم: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾. أي: لا تمكنوا اليوم فقيراً من الدخول عليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾. قال مجاهد: (على جِدّ قادرين في أنفسهم). وقال عكرمة: (﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: على غيظ). قلت: وفي لغة العرب: (حَرَدَ) أي: قصد. والحَرَدُ بالتحريك الغضب. والمقصود: أي غدوا على قصد وبقوة وشدة ﴿قَٰدِرِينَ﴾ أي في زعهمم على ما أصروا عليه من الصرام وحرمان المساكين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾. قال قتادة: (أي أضللنا الطريق). والمقصود: فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها ـ وقد تغيرت حالها بما نزل بها من البلاء واستحالت نضارتها وزهرتها ووفرة ثمارها إلى أرض سوداء مدلهمة ـ أنكروها وشكّوا فيها هل هي جنتهم أم لا، وظنوا أنهم قد أخطؤوا الطريق.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾. قال قتادة: (بل جوزينا فحُرمنا). قال ابن كثير: (ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقّنوا أنها هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، أي: بل هي هذه، ولكن نحن لا حَظَّ لنا ولا نصيب).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾. قال ابن عباس ومجاهد: (﴿أَوْسَطُهُمْ﴾: أي أعدَلُهم وخيرهم). والمقصود: قال أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم حين رأوا الهلاك الذي نزل بأرضهم: هلاّ كنتم شكرتم الله على ما أعطاكم وتبتم إليه من فساد نيتكم. وعن مجاهد: (﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قال: يقول: تستثنون، فكان التسبيح فيهم الاستثناء). قال النّحاس: (أصل التسبيح التنزيهُ لله عز وجل، فجعل مجاهد التسبيح في موضع إن شاء الله، لأن المعنى تنزيه الله عز وجل أن يكون شيء إلا بمشيئته).

قلت: والراجح ما ذكرناه، فإن تسبيح الله يشتمل على شكره وإخلاص النية والقصد له، ويدل على ذلك قولهم بعد ذلك: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾. قال ابن عباس: (أي نستغفر الله من ذنبنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا في منعنا المساكين). قال القرطبي: (﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ اعترفوا بالمعصية ونزهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل).

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه:

فأقبل بعضهم على بعض يلوم بعضهم بعضاً على تفريطهم فيما فرّطوا فيه من الاستثناء ، وعزمهم على ما كانوا عليه من ترك إطعام المساكين من جنتهم).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴾. أي قال أصحاب الجنة: يا ويلنا إنا كنا عاصين بمنع حق الفقراء ، وتركنا الاستثناء.

وقوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾. قال القاسمي: (﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ ﴾ أي بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العود إلى مثله. ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ أي في العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فاتنا).

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾. قال ابن زيد: (عذاب الدنيا ، هلاك أموالهم: أي عقوبة الدنيا). والمقصود: كذلك يكون العذاب في الدنيا لمن خالف الرسل وكفر بالحق وبغى الفساد في الأرض.

وقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾. أي: ولعذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا لو كان هؤلاء المشركون يفقهون. قال النسفي: (﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ لما فعلوا ما يفضي إلى هذا العذاب). وقال ابن جرير: (يقول: لارتدعوا ، وتابوا وأنابوا ، ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون).

34 ـ 41. قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ذكر مآل المتقين في روضات الجنات ، التي لا يعتريها ما يعتري بساتين الدنيا من الشوائب والآفات ، والتفريق بين المسلمين والمجرمين ، فالمؤمنون في سرور ونعيم ، والكافرون هم وشركاؤهم في نار الجحيم.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾. قال القرطبي: (أي إن للمتقين في الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص ، لا يشوبه ما ينغّصه كما يشوب جنات الدنيا).

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾. استفهام إنكار. أي: أفنساوي بين أهل الكرامة والطاعة وأهل الشقوة والمعصية في الجزاء، كلا لا يكون ذلك وربِّ الأرض والسماء.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. توبيخ على طريقة الالتفاف. قال النسفي: (﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج، وهو التسوية بين المطيع والعاصي، كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا بما شئتم).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾. أي: أم بأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف، متضمن حكماً مؤكداً كما تَدَّعُونه ـ المطيع فيه كالعاصي ـ فأنتم تختارون منه كما تشتهون؟!

وقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. زيادة في التوبيخ. أي: أم لكم ﴿أَيْمَٰنٌ﴾ أي عهود ومواثيق ﴿عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ مؤكدة، فأنتم استوثقتم بهذه العهود على الله تعالى في أن يدخلكم الجنة!! قال الشهاب: (بالغة: متناهية في التوكيد). وأصله بالغة أقصى ما يمكن، فحذف منه اختصاراً. وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: إنه سيكون لكم ما تريدون وتأملون وتشتهون!! كلا، ليس الأمر بهذه السذاجة كما تظنون وتحلمون.

وقوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾. قال ابن عباس: (يقول: أيهم بذلك كفيل). والزعيم: الكفيل والضّمين. والمقصود: سل يا محمد هؤلاء المتقوّلين من المشركين أيهم كفيل بما تقدّم: من أن لهم من الخير ما للمسلمين، أو أنّ لهم من العهود والمواثيق ما يحصل لهم به سعادة الدارين؟!

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾. أي: أم لهم شركاء من الأصنام والأنداد والطواغيت فهم لهم شهداء ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ فليشهدوا لهم على ما زعموا ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم. قال القرطبي: (وقيل: أي فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم، فهو أمر معناه التعجيز).

42 ـ 47. **قوله تعالى**: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم

﴿مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧﴾ .

في هذه الآيات: ظهورُ الساق علامة لسجود المؤمنين في المحشر لرب العالمين ، وحرمان الله تعالى المنافقين أن يكونوا مع الساجدين ، واستدراج الله لهم قبل ذلك في دار الدنيا حتى يحيط بهم كيده المتين .

فقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ .

أي : إنّ ذلك التكريم للمتقين في جنات النعيم ، والانتقام من المجرمين بصلي الجحيم ، هو يوم القيامة يوم تظهر كلمة السر بين المؤمنين وربهم ، وهي «صفة الساق» لله العظيم ، فيخرون له ساجدين ، ويكشف الله حينئذ المنافقين .

وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأكثر أهل السنن وأحمد وابن حبان عن عطاءِ بن يَسار ، عن أبي سعيد الخُدري قال : سمعت النبي ﷺ يقول : [يَكْشِفُ رَبُّنا عن ساقِه ، فَيَسْجُدُ له كُلُّ مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجُد في الدنيا رياءً وسُمعةً ، فيذهب ليسجُدَ فيعودُ ظهرُه طبقاً واحداً][1] .

الحديث الثاني: أخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» بسند صحيح عن ابن مسعود ، أن النبي ﷺ قال : [يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة ، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ، ثم ينادي مناد : أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولي كل ناس ما كان يتولى ويعبد في الدنيا؟ أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا : بلى فينطلقون ، فيتمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون ، فمنهم من ينطلق إلى الشمس ، ومنهم من ينطلق إلى القمر ، وإلى الأوثان ، ويتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ولمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير ، ويبقى محمد وأمته ، فيتمثل الرب عز وجل لهم فيأتيهم فيقول : مالكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ فيقولون : بيننا وبينه علامة فإذا رأيناه عرفناه ، فيقول : ما هي؟ فيقولون :

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4919) ، (7439) ، وهو جزء من حديث طويل . ورواه مسلم (183) ، والترمذي (2598) ، والنسائي (8/ 112) ، وابن ماجة (179) ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 16) ، وابن حبان في صحيحه (7377) .

﴿ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾. فعند ذلك يكشف عن ساقه فيخرون، ويبقى قومٌ ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون، ثم يقول: ارفعوا رؤوسكم، فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم، والرب عز وجل أمامهم][1].

الحديث الثالث: أخرج الدارمي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد، نادى مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون. ويبقى الناس على حالهم، فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم هاهنا؟ فيقولون: ننتظر إلـٰهنا. فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه، فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجداً وذلك قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾. ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد، ثم يقودهم إلى الجنة][2].

قلت: فكان الإيمان بالأَسماء والصفات سبباً للنجاة يوم القيامة، لما اشتملت هذه الصفات على كلمة السر التي بين الله وبين المؤمنين وهي «الساق» التي هي صفة من صفاته، وهي ساق تليق بجلاله وجماله وكماله، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وقد فَصَّلْتُ هذه الأبحاث في كتابي: «أصل الدين والإيمان، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان»، فلله الحمد والشكر وواسع الامتنان.

وأما ما ذهب إليه كثير من المفسرين إلى أن المقصود: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي عن شدة وكرب، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة. أو قيل عن ساق العرش، أو غير ذلك من التكلف، فيقال: أَبْعَدَ هذا البيان من الوحي العظيم، يتلو تفسيره النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، يكون هناك بيان لعالم أو حكيم!!

كلا، فإذا صَحّ الخبر عن رسول الله ﷺ مفسراً ما أشكل فهمه من القرآن، فليس لأحد بعد ذلك مقال. وهذا هو المنهج الذي كان عليه علماء الصحابة والتابعون لهم من الراسخين في العلم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه بتمامه عبد الله بن أحمد في «السنة» ص (177). وهو حديث صحيح كما أفاد الذهبي وأقرّه الألباني. انظر: «مختصر العلو» (69) ص (110).

(2) حديث صحيح. أخرجه الدارمي في السنن (2/ 326)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (584) وقال: (وهذا إسناد جيد رجاله ثقات رجال الصحيح).

وقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾. ﴿خَٰشِعَةً﴾ أي ذليلة، وهي في محل نصب حال من الضمير في يدعون، والتقدير: يدعون في حال خشوع أبصارهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي يعلوهم الصغار ويغشاهم.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾. أي: وقد كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وهم أصحاء سالمون مستطيعون. وعن إبراهيم التيمي: (﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ قال: إلى الصلاة المكتوبة). وقال سعيد بن جبير: (يسْمع المنادي إلى الصلاة المكتوبة فلا يجيبه). قال ابن عباس: (هم الكفار كانوا يدعون ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا وهم آمنون، فاليوم يدعوهم وهم خائفون. ثم أخبر الله سبحانه أنه حَالَ بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فإنه قال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: 20]، وأما في الآخرة فإنه قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾).

وقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾. قال السدي: (يعني القرآن). وقيل: يوم القيامة. والمعنى: أي دعني ـ يا محمد ـ وكِلْ أمر هؤلاء المكذبين بالقرآن إليّ. وفيه تهديد ووعيد، وتسليةٌ للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال ابن عباس: (سنمكر بهم). أي سنملي لهم ونكيدهم من حيث لا يشعرون. وقال سفيان الثوري: (نُسْبغُ عليهم النعم ونُنْسيهم الشكر). وقال الحسن: (كم مستَدْرَج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالسّتر عليه). وقال أبو رَوْقٍ: (أي كلّما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار).

والاستدراج: ترك المعاجلة، وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرّج.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55 ـ 56].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج. ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟

بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾](1).

وقوله: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾. أي أمهلهم وأؤخرهم وأُنْظِرهم وأطيل لهم المدة. والمُلاوة: المُدة من الدهر. والمقصود: إحقاق المكر والكيد بهم.

وفي الصحيحن وسنن الترمذي وابن ماجة عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذَهُ لم يُفْلِتْهُ. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾](2).

وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾. قال النسفي: (قوي شديد، فسمّى إحسانه وتمكينه كيداً كما سمّاه استدراجاً لكونه في صورة الكيد حيث كان سبباً للهلاك. والأصل أن معنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذ من جهة الأمن، ولا يجوز أن يسمى الله كائداً وماكراً ومستدرجاً).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾. استفهام بمعنى النفي. أي: أم تسألهم ـ يا محمد ـ غرامة على تبليغ الرسالة، فهم من غرامة ذلك ﴿مُّثْقَلُونَ﴾. أي: فهو يثقل عليهم لما فيه من بذل المال والكلفة.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾. قال ابن عباس: (الغيب هنا اللوح المحفوظ). قال ابن جرير: (يقول: أعندهم اللوح المحفوظ الذي فيه نبأ ما هو كائن، فهم يكتبون منه ما فيه، ويجادلونك به، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به). وقيل: ﴿يَكْتُبُونَ﴾: أي يحكمون لأنفسهم بما يريدون ويرغبون.

48 ـ 52. قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 145) وإسناده قوي. وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (4/ 115): (رواه أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب» بسند حسن).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ـ كتاب التفسير. وأخرجه مسلم (2583)، والترمذي (3110)، وابن ماجة (4018)، وابن حبان (5175)، والبيهقي (6/ 94).

ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر، وكشف محاولات الكفار إصابته ﷺ بالعين والسحر، واتهامه كذلك بالجنون، وهذا الوحي ونبي الحق إنما هما شرف للعالمين.

فقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾. تَخْفِيفٌ عن النبي ﷺ وتسليةٌ له. أي: اصبر يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله سيحكمُ لك عليهم، وامض في دعوتك، وستكون العاقبة لك وللمؤمنين في الدارين.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾. أي الذي حبسه في بطنه، وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام. قال ابن جرير: (﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ فيعاقبك ربك على تركك تبليغ ذلك، كما عاقبه فحبسه في بطنه).

قال قتادة: (﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يقول: لا تعجل كما عجل، ولا تغضب كما غضب).

وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾. قال ابن عباس: (يقول: مغموم). وقال عطاء: (مكروب). أي قد أثقله الكرب والغَمُّ وكظمه. قال النسفي: (﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظاً، من كظم السقاء إذا ملأه).

وقوله: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. أي: لولا أن تداركه الله برحمته واستجاب دعاءه. ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾: أي لنبذ من بطن الحوت بالفضاء من الأرض. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: معاتب بزلته. قال ابن عباس: (﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يقول: وهو مليم). وقال المعتمر عن أبيه عن أبي بكر: (وهو مذنب).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: 143 ـ 144].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 87 ـ 88].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن إبراهيم بن محمد بن سعد ، عن أبيه سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [دعوةُ ذي النون إذْ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]. فإنه لم يَدْعُ بها رجُلٌ مُسْلِمٌ في شيء قطُّ إلا استجابَ الله له][1].

وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. أي اصطفاه ربه واختاره وقبل دعاءه وعذره وجعله من المستكملين لصفات الصلاح. قال ابن عباس: (ردّ الله إليه الوَحي ، وشفَّعه في نفسه وفي قومه ، وقبِل توبته ، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مئة ألف أو يزيدون).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن مَتّى][2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: ينفذونك بأبصارهم من شدة النظر. قال: يقال للسهم: زهق السهم أو زلق). وفي رواية: (يقول: ليزهقونك بأبصارهم). وقال قتادة: (لينفذونك بأبصارهم ، معاداة لكتاب الله ولذكرِ الله). وقال الضحاك: (يقول: ينفذونك بأبصارهم من العداوة والبغضاء). وقال الكلبي: (ليصرعونك).

وقرأها عامة قراء المدينة ﴿لَيَزْلِقونك﴾ بفتح الياء ، وأما عامة قراء الكوفة والبصرة فقرؤوها ﴿لَيُزلقونك﴾ بضم الياء ، وكلاهما مشهور عند أهل العلم بالقراءات ، فإن العرب تقول لمن يحلق الرأس: أزلقه وزلقه.

وقال ابن جرير: (إنه عُني بذلك: وإن يكاد الذين كفروا مما عانوك بأبصارهم ليرمون بك يا محمد ، ويصرعونك ، كما تقول العرب: كاد فلان يصرعني بشدة نظره إليّ. قالوا: وإنما كانت قريش عانوا رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين ، فنظروا إليه ليعينوه ، وقالوا: ما رأينا رجلاً مثله ، أو إنه لمجنون ، فقال الله لنبيه عند ذلك: (وإن يكاد الذين كفروا ليرمونك بأبصارهم).

قلت: والعجيب أن هؤلاء الجاهليين كانوا يؤمنون بإصابة العين وتأثيرها ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3505). وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2785).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3416) ، (4631) ، ومسلم (2379) ، وأبو داود (4669) ، وابن حبان (6238). ورواه أحمد (1/ 390) من حديث عبد الله مرفوعاً.

ويعلمون صحة ذلك وصلته بالحسد ، في حين ترى كثيراً من الناس اليوم لا يكادون يفقهون معنى الحسد أو السحر أو العين ولا يؤمنون بشيء من هذا ، بل ينسبونه إلى الخرافة وإلى أساطير الأولين ، وكثير منهم واقع تحت نار السحر والعين والحسد من حيث لا يدري.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل).

قلت: وفي القرآن آيات تدل على تأثير العين ، منها هذه الآية في سورة القلم ، وآيتان في سورة يوسف:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67].

قال الضحاك: (خاف عليهم العين). وقال قتادة: (خشي نبي الله ﷺ العينَ على بنيه كانوا ذوي صورة وجمال). وفي رواية: (كانوا قد أوتوا صورة وجمالاً فخشي عليهم أَنْفُسَ الناس). وقال السدي: (خاف يعقوب ﷺ على بنيه العين فقالوا: ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ فيقال: هؤلاء لرجل واحد ! ولكن ادخلوا من أبواب متفرقة).

وكذلك قال ابن إسحاق: (لما أجمعوا الخروج ، خشي عليهم أعين الناس ، لهيأتهم ، وأنهم لرجل واحد).

2 ـ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: 68].

قال مجاهد: (﴿ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾: خيفة العين على بنيه). وقال ابن جرير: (إلا أنهم قضوا وطَراً ليعقوب بدخولهم ، لا من طريق واحد ، خوفاً من العين عليهم ، فاطمأنت نفسه أن يكونوا أُتوا من قبل ذلك ، أو نالهم من أجله مكروه).

وأما السنة العطرة فقد أسهمت بقسط وافر في الدلالة على أثر العين وسبيل الوقاية والعلاج منها. ومن ذلك أحاديث:

الحديث الأول: يروي البخاري في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ

رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة فقال: [استرقوا لها فإن بها النظرة][1].

الحديث الثاني: يروي مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [العين حق، ولو كان شيء سابقَ القدر سبقته العين، وإذا استُغْسلتم فاغسلوا][2].

أي: متى عُرِفَ الحاسد، يؤمرُ بالوضوء أو الغسل، ثم يُجْمَعُ ذلك الماء الذي تطهَّرَ به فَيُغْسَلُ به المحسود فيشفى بإذن الله، وهذا من الطب النبوي الذي يجهله كثير من الناس.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح: [أنّ أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله! إن ولد جعفر تسرع إليهم العين، فأسترقي لهم؟ فقال: نعم، فإنه لو كان شيء سابقَ القدر لسبقته العين][3].

الحديث الرابع: أخرج أحمد بسند حسن عن عائشة قالت: [دخلَ النبي ﷺ فسمع صوت صبي يبكي فقال: ما لصبيكم هذا يبكي؟ فهلا استرقيتم له من العين؟][4].

الحديث الخامس: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال: [استعيذوا بالله من العين، فإن العين حق][5].

الحديث السادس: أخرج أحمد بسند صحيح عن أبي ذر مرفوعاً: [إن العين لتولع الرجل بإذن الله حتى يصعد حالقاً ثم يتردّى منه][6].

وفي رواية: [إن العين لتوقع الرجل].

وله شاهد عنده وعند الطبراني بسند حسن من حديث ابن عباس بلفظ: [العين حق، تستنزل الحالق]. أي للعين من الأثر بإذن الله أن تسقط الرجل من الجبل الشاهق المرتفع.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (5739)، كتاب الطب، باب رُقْية العين.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2188)، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي.
(3) حديث صحيح. انظر صحيح ابن ماجة (2829)، كتاب الطب، باب من استرقى من العين.
(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 72). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1048).
(5) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2/ 356)، والحاكم (4/ 215)، والديلمي (1/ 1/ 48).
(6) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 146). وانظر السلسلة الصحيحة (889). والشاهد رواه أحمد (1/ 274)، والحاكم (4/ 215)، والطبراني كما في «المجمع» (5/ 107).

الحديث السابع: أخرج أبو نُعيم في «الحلية» بسند حسن عن جابر مرفوعاً: [العينُ تُدْخِلُ الرجلَ القبرَ ، والجمل القِدْر][1].

الحديث الثامن: يروي الطيالسي والبزار بسند حسن عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالعين][2].

وفي رواية: [أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس. يعني بالعين].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾. قال القاسمي: (أي عِظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم ، على ما في عقولهم وفطرهم من التوحيد. فكيف يُجَنَّنُ من جاء بمثله؟).

والمقصود: ما هذا القرآن الذي يعادونه ، ويعادون النبي ﷺ الذي نزل عليه ، فيرمونه بأبصارهم ويقولون ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ ـ لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه والتنفير عنه ـ ، إلا عِظَةٌ من الله لهم لعلهم يرجعون وينزجرون ، ويدركون أن هذا النبيّ شرف للعالمين ، شرفوا باتباعه والإيمان به ﷺ.

تم تفسير سورة القلم
بعون الله توفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر الخميس 15 شوال 1426 هـ
الموافق 17 / تشرين الثاني / 2005 م

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (7/ 90) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1249).

(2) حديث حسن. رواه البزار والطيالسي والبخاري في «التاريخ» من حديث جابر. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1217).

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ يقسم الله تعالى بالقلم تنبيهاً لشرف العلم وتدوينه .

2 ـ أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة .

3 ـ كان خلقُه ﷺ القرآن ، ووصفه ربه تعالى بأنه على خلق عظيم .

4 ـ كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خَلْقاً وخُلُقاً .

5 ـ لا يدخل الجنة نمام ، والله يبغض كل جعظري جوّاظ ، سخّاب في الأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا ، جاهل بأمر الآخرة .

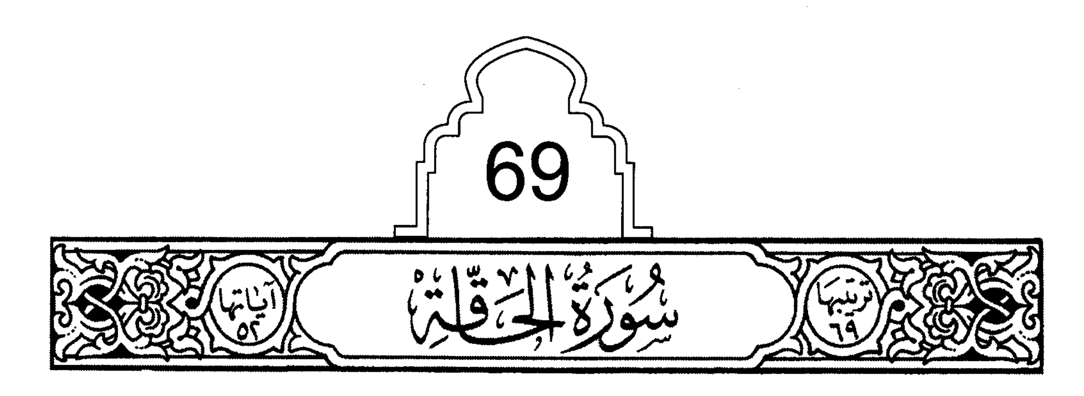
6 ـ مانعو الزكاة حرموا من مالهم في الدنيا والآخرة .

7 ـ أرادوا أن يحرموا المساكين حقهم ، فحُرموا الشجر والثمر وحقّ المساكين .

8 ـ يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد ، بل يعود ظهره طبقاً واحداً .

9 ـ إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج .

10 ـ العين حق ، ولو كان شيءٌ سابق القدر لسبقته العين .



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (52) .

موضوع السورة

الحاقة وأهوال القيامة والحساب

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ التنبيه ليوم القيامة بصيغة التفخيم ، ولفت الانتباه إلى طغيان الأمم السابقة ونزول العذاب العظيم .

2 ـ ذكر الأحداث الرهيبة لبدء القيامة والحساب ، من النفخ في الصور وحركة الأرض والجبال وانشقاق السماء ليبدأ بعد ذلك العرض ثم الثواب والعقاب .

3 ـ توزيع الكتب يوم القيامة ، فالفرحة العظيمة لأصحاب اليمين ، والخزي والندامة لأصحاب الشمال في نار الجحيم .

4 ـ تأكيد الوحي والنبوة بإقسام الله بعالمي الغيب والشهادة ، والقرآن كتاب الله الذي تفرد إليه سبحانه الطاعة والعبادة .

5 ـ المبالغة بوصف العقاب لو افترىٰ الرسول هذا الكتاب ، وهذا القرآن فيه تذكرة للمتقين ، ويحمل الحسرة والندامة للكافرين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 12. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢ ﴾.

في هذه الآيات: التنبيهُ ليوم القيامة بصيغة التفخيم، ولَفْتُ الانتباه إلى طغيان الأمم السابقة ونزول العذاب العظيم، والله تعالىٰ يجعل في ذلك الذكرىٰ وهو العزيز الحكيم.

فقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾. قال ابن عباس: (﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾: من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله، وحذّره عباده). وقال عكرمة: (الحاقة: القيامة). وقال قتادة: (﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ يعني الساعة، أحقت لكل عامل عمله). أو قال: (أحقت لكلّ قوم أعمالهم).

والمقصود: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة كالصّاخة والطّامة والقارعة والواقعة. وسميت بذلك لأن الأمور تُحَقّ فيها، وفيها يتحقق الوعدُ والوعيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾. استفهام يفيد شدّ الانتباه وتعظيم شأن المُسْتَفهم عنه. قال قتادة: (﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾: تعظيماً ليوم القيامة كما تسمعون). وقال سفيان بن عُيينة: (كل شيء قال فيه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فإنه أُخبر به، وكل شيء قال فيه: «وما يُدريك» فإنه لم يُخبر به).

قال القرطبي: (﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ أي: أيّ شيء أعلمك ما ذلك اليوم. والنبي ﷺ

كان عالماً بالقيامة ولكن بالصفة. فقيل تفخيماً لشأنها: وما أدراك ما هي ؟ كأنك لستَ تعلمها إذ لم تعاينها).

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾. القارعة: اسم من أسماء القيامة. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: كذّبت ثمود قوم صالح، وعاد قوم هود بالساعة التي تقرع قلوب العباد فيها بهجومها عليهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾. قال قتادة: (الطاغية الصيحة). وقال مجاهد: (الطاغية الذنوب). وقال ابن زيد: (إنها طغيان، وقرأ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: 11]). وقال السدي: (﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: يعني عاقر الناقة).

قلت: والراجح أنها الصيحة التي زلزلتهم، وأسكنتهم وأهمدتهم. يدل على ذلك قوله تعالىٰ بعد ذلك: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. فدل أن المراد أسلوب الهلاك.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ يقول: بريح مهلكة باردة، عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، دائمة لا تَفْتُر). وقال قتادة: (والصرصر الباردة، عتت عليهم حتىٰ نقبت عن أفئدتهم). وقال الثوري: (﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: شديدة الهبوب).

وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾. أي: سَلَّطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن عباس: (﴿حُسُومًا﴾: تباعاً). وقال مجاهد: (متتابعة). وقال قتادة: (متتابعة ليس لها فترة).

وعن سفيان: (﴿أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ قال: متتابعة، و﴿أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: 16] قال: مشائيم). وقال ابن زيد: (﴿حُسُومًا﴾ حسمتهم لم تُبْقِ منهم أحداً).

وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. قال ابن عباس: (خَرِبة).

أي: فترىٰ ـ يا محمد ـ قوم عاد بعد الرياح العاتية التي سُلطت عليهم كأنهم أصول نخل قد خوت. وقال أبو الطفيل: (﴿خَاوِيَةٍ﴾ أي بالية). وقيل: (خاوية: ساقطة).

قال القاسمي: (أي ساقطة مجتثة من أصولها كآية: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: 20]). قال القرطبي: (يحتمل أنهم شُبِّهوا بالنخل التي صرعت من أصلها، وهو إخبار عن عِظَم أجسامهم. ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع، أي

إن الريح قد قطعتهم حتىٰ صاروا كأصول النخل خاوية. أي الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخلة الخاوية الجوف).

وقال ابن كثير: (أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخرّ مَيّتاً على أمِّ رأسِه، فينشَدِخُ رأسُه وتبقىٰ جُثَّتُه كأنها قائمةُ النخلةِ إذا خَرَّت بلا أغصان).

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَت عادٌ بالدَّبور][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾. أي فهل ترىٰ يا محمد لعاد قوم هود من بقاء أو بقية. لقد بادوا عن آخرهم، ولم يبق الله لهم خلفاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾. أي بالفِعلة الخاطئة. قال الربيع: (أي: بالمعصية). وقال مجاهد: (بالخطايا). والمؤتفكات: قرىٰ قوم لوط ائتفكت ـ أي انقلبت ـ بهم.

والمقصود: جاء فرعون ومن قبله من الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ وهي قرىٰ قوم لوط ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالفَعْلة الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله والإصرار على الكفر والظلم.

وقوله: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾. قال ابن كثير: (وهذا جِنسٌ، أي: كُلٌّ كَذَّبَ رسولَ الله إليهم. كما قال تعالىٰ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: 14]. ومن كذّب برسولٍ فقد كَذَّبَ بالجميع، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105، 123، 141]. وإنما جاء إلى كل أمة رسولٌ واحد).

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾. قال ابن عباس: (يعني أخذة شديدة). وقال السدي: (مهلكة).

قال القرطبي: (﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي عالية زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم. ومنه الرّبا إذا أخذ في الذهب والفضة أكثر مما أعطىٰ. يقال: ربا الشيء يربو أي زاد وتضاعف. وقال مجاهد: شديدة. كأنه أراد زائدة في الشدة).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾. طغا الماء: أي: ارتفع وعلا. قال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3205)، كتاب بدء الخلق. وكذلك (1035)، ورواه مسلم.

ابن عباس: (يعني كثر الماء ليالي غرّق الله قوم نوح). والجارية: السفينة.

والمقصود: لما أصرّ قوم نوح على الكفر وتكذيب الوحي والنبوة أرسل الله عليهم ماء السماء فكثر حتىٰ تجاوز حده المعروف فكان الطوفان وغرق القوم الكافرين، ونجّىٰ الله بسفينة نوح المؤمنين.

وفي الآية زجر لهذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول. وفيه امتنانٌ من الله عليهم أن جعلهم ذرية من نجا من الغرق بقوله: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، ومن ثمّ فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته.

وقوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾. قال النسفي: (أي الفعلة، وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عبرة وعظة). وقال ابن كثير: (﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنىٰ عليه، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: 13]. وقال تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: 41]).

وقيل: أبقىٰ الله السفينة حتىٰ أدركها أوائل هذه الأمة. ذكره قتادة.

قلت: والراجح من السياق أن المراد قصة النجاة في سفينة الحق التي حملت نبيَّ الله نوحاً ﷺ والذين آمنوا منه، فهي التي تحمل العبرة والذكرىٰ للأجيال المؤمنة التي ستعقب هذا الحدث إلى يوم القيامة، ويدل على ذلك ختام الآية، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾. أي: وتفهم هذه الآية العظيمة والمعجزة الإيمانية أذن عقلت عن الله مراده فانتفعت بما سمعت من آيات كتابه.

وعن ابن عباس: (﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ يقول: حافظة). أو قال: (يقول: سامعة، وذلك الإعلان). وقال قتادة: (﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال: أذن عقلت عن الله، فانتفعت بما سمعت من كتاب الله). وقال الضحاك: (سمعتها أذن ووعت).

13 ـ 18. **قوله تعالىٰ**: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ

عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الأحداث الرهيبة لبدء القيامة والحساب، من النفخ في الصور وحركة الأرض والجبال وانشقاق السماء ليبدأ بعد ذلك العرض ثم الثواب والعقاب.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾. قال القاسمي: (أي: لخراب العالم).

قال أبو السعود: (هذا شروع في بيان نفس الحاقة، وكيفية وقوعها، إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها).

وعن ابن عباس: (﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ قال: هي النفخة الأولىٰ لقيام الساعة، فلم يبق أحد إلا مات). وقال الربيع: (هي النفحة الأخيرة).

قلت: والراجح أنها النفخة الأولىٰ ـ نفخة الفزع ـ التي تعقبها نفخة الصعق ثم نفخة القيام لله رب العالمين. ودليل ذلك الآية بعدها: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، وهذا منسجم مع آية سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 87 ـ 88].

قال ابن كثير: (وقد أكّدها هاهنا بأنها ﴿وَٰحِدَةً﴾، لأن أمر الله لا يُخالف ولا يُمانَع، ولا يحتاجُ إلى تكرار وتأكيد).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾. قال النسفي: (رفعتا عن موضعهما ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ دقتا وكسرتا، أي ضرب بعضها ببعض حتىٰ تندق وترجع كثيباً مهيلاً وهباء منبثاً).

والمقصود: تبدلت الأرض غير الأرض، ونسفت الجبال فكانت هباء منبثاً، لابتداء أمور القيامة من الحشر والحساب. وفي قوله: ﴿فَدُكَّتَا﴾ دليل على إدماج الجبال كلها جملة واحدة لتدك مع الأرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾. أي: فحينئذ نزلت النازلة وهي القيامة.

وقوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾. أي: وانصدعت السماء وتفطرت فهي يومئذ ضعيفة متصدعة. كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: 25]. وعن ابن عباس: (﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: يعني متمزّقة ضعيفة).

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾. أي: على ما استدقّ من السماء ينظرون إلى أهل الأرض. قال ابن عباس: (يقول: والملك على حافات السماء حين تشقق). وقال قتادة: (على نواحيها). وقال سعيد بن المسيب: (الأرجاء حافات السماء).

وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾. أي: ويحمل عرش الرحمن يوم القيامة ثمانية من الملائكة العظام.

أخرج الطبراني بسند جيد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أُذِنَ لي أَنْ أُحَدِّثَ عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلىٰ وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتِقه خفقان الطير سبع مئة عام، يقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت][1].

وأخرج أبو داود بسند صحيح من حديث جابر بن عبد الله: أنَّ رسول الله ﷺ قال: [أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالىٰ حملة العرش، مابين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة سنة][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

أي: يومئذ تعرضون على ربكم للحساب والجزاء، لا تخفىٰ منكم سريرة وحال كانت تخفىٰ في الدنيا بستر الله. قال النسفي: (﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال، شُبِّهَ ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرّف أحواله).

وقد قال ابن أبي الدنيا: أخبرنا إسحاق بن إسماعيل، أخبرنا سفيانُ بن عُيينة، عن جعفر بن بُرْقان، عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبُوا، وزِنوا أَنْفُسَكم قبل أن توزَنوا، فإنه أخفُّ عليكم في الحساب غداً أن تُحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزّينوا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾).

19 ـ 24. قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني بسند جيد من حديث أنس. انظر صحيح الجامع الصغير (866).
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4727). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (151).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: وَصْفُ الفرحة العظيمة لمن استقبل كتابه بيمينه يوم الدين ، فهو في عيشة ناعمة في الملذات في جنات النعيم.

فقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾. فيه بدء تفصيل العرض. وإعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة.

وقوله: ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾. قال القرطبي: (أي يقول ذلك ثقة بالإسلام وسروراً بنجاته ، لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والشِّمال من دلائل الغَمّ).

وعن ابن زيد: (﴿هَاؤُمُ﴾ أي: تعالوا). وقال مقاتل: (هُلُمَّ). وقيل: أي خذوا ، ومنه الخبر في الربا «إلا هاءَ وهاءَ» أي يقول كلّ واحد لصاحبه: خذ. قال القتيبي: (والأصل هاكم فأبدلت الهمزة من الكاف). وقال ابن السِّكيت والكسائي: (العرب تقول هاءَ يا رجل اقرأ ، وللاثنين هاؤما يا رجلان ، وهاؤم يا رجال ، وللمرأة هاءِ وهاؤما وهاؤمْنَ).

وأما الهاء في قوله: ﴿كِتَابِيَهْ﴾ فهي للسكت ، لا ضمير غيبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾. قال ابن عباس: (يقول: أيقنت).

وقال قتادة: (ظنَّ ظناً يقيناً ، فنفعه الله بظنه). والمعنىٰ: إني علمت أني ملاق جزائي وتكريمي يوم القيامة فأعددت له عدته من الإيمان والعمل الصالح.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. قال الفراء: (﴿رَاضِيَةٍ﴾ أي مرضية).

وقيل: ذات رِضاً ، أي يرضىٰ بها صاحبها.

والمقصود: فهو في عيش هنيء يرضاه لا ينغصه مكروه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول: في بستان عال رفيع). وقال النسفي: (﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ رفيعة المكان أو رفيعة الدرجات أو رفيعة المباني والقصور ، وهو خبر بعد خبر). والمعنىٰ: في جنة عظيمة في النفوس ، فوق الطموح والآمال في رفعتها ودرجاتها وقصورها ونعيمها وملاذها.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾. أي ثمارها قريبة متناولة ، ينالها راغبها وهو على حاله من القيام أو القعود أو الاضطجاع. قال قتادة: (دنت فلا يردّ أيديهم عنها بعد

ولا شوك). وعن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول في هذه الآية: (﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ قال: يتناول الرجل من فواكهها وهو نائم).

والقطوف: جمع قِطْف، وهو ما يُقطَفُ من الثمار. والقَطْف بالفتح المصدر، والقِطاف وقت القطف.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾.

أي: ويقال لهم تكريماً: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ لا مكروه فيه ولا تكدير ولا تنغيص ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾: أي بما قدمتم في أيام دنياكم من الأعمال الصالحة.

وفي التنزيل نحو هذه الآيات، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 7 ـ 9].

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يدني المؤمن فيضَع عليه كنَفَهُ[1] ويستره فيقول: أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربّ، حتىٰ قرَّره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطىٰ كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: 18]][2].

25 ـ 37. قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾.

في هذه الآيات: وَصْفُ مشهد الندم والخزي لمن أوتي كتابه بشماله يوم الدين، فهو اليوم في السلاسل والحميم وطعام الغسلين في نار الجحيم.

---

(1) أي: حفظه وستره.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2441)، ومسلم (2768)، وأحمد (2/ 74).

فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾.

إخبار عن حال أهل الشقوة حين توزع عليهم كتبهم في أرض المحشر بشمائلهم، فيجدون فيها حصائد أعمالهم، فيندمون غاية الندم، فيقول قائلهم: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾. قال النسفي: (لما يرىٰ فيها من الفضائح).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾. أي: يتمنىٰ أن لم يكن أعطي الكتاب، ولم يدر ما الحساب.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾. قال الضحاك: (أي موتة لا حياة بعدها).

وقال قتادة: (تمنى الموت، ولم يكن في الدنيا شيء أكره عنده من الموت).

وقوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾. أي لم يدفع عني مالي ولا جاهي العذاب، فأصبحت أسير عملي، فلا ناصر ولا مجير ولا معين.

وعن ابن عباس: (﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ يقول: ضلّت عني كل بينة فلم تغن عني شيئاً). وقال عكرمة: (﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ قال: حجتي). وقال ابن زيد: (سلطان الدنيا).

وقوله تعالىٰ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾. أي: فعند ذلك يأمر الله تعالىٰ ملائكته من خُزّان جهنم بسحبه من أرض المحشر ووضع الأغلال في عنقه ثم بإلقائه في نار جهنم ليصلىٰ فيها، ولتغمره بسعيرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾.

قال القاسمي: (﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ أي حلقة منتظمة بأخرىٰ، وهي بثالثة، وهَلُمَّ جرا. ﴿ذَرْعُهَا﴾ أي: مقدارها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ فأدخلوه فيها. أي: لفّوه بها، بحيث يكون فيما بين حلقها مرهقاً، لا يقدر على حركة).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾. تعليل استحقاقه ذلك الخزي والعذاب. فلقد كان لا يوقن بالله العظيم المستحق للعظمة وحده، بل كان يشرك معه الأنداد والطواغيت، فيصرف لهم من العبادة والتعظيم ما لا ينبغي إلا لله الواحد القهار.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾. قال القرطبي: (بيَّنَ أنه عُذّب على ترك الإطعام وعلى الأمر بالبخل، كما عُذِّب بسبب الكفر. والحَضُّ: التحريض والحَثّ).

والمقصود: إنه قد جمع إلى الكفر، الشح والبخل، والدعوة إلى ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾. أي: فليس له اليوم قريب تأخذه الحمية له كما كان له في الدنيا مما يأنس به عند النائبات والشدائد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾. قال ابن عباس: (صديد أهل النار). أو قال: (ما يخرج من لحومهم). وقال قتادة: (شر الطعام وأخبثه وأبشعه). قلت: والغِسْلين: فِعْلين من الغَسل، والمقصود: من غسالة أبدان أهل النار وصديدهم. وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾. أي: الآثمون، أصحاب الإصرار على الخطايا والآثام.

قال ابن جرير: (يقول: لا يأكل الطعام الذي من غسلين إلا الخاطئون، وهم المذنبون الذين ذنوبهم كفر بالله).

38 ـ 43. **قوله تعالىٰ**: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

في هذه الآيات: تأكيدُ الوحي والنبوة بإقسام الله تعالىٰ بعالمي الغيب والشهادة، فهو الكتاب الحق كلام الله تعالىٰ الذي تفرد إليه العبادة.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾. أي: ما الأمر كما تكذبون معشر المشركين. بل أقسم بجميع الأشياء مما ترون ومما لا ترون أن هذا القرآن قول الرسول الكريم، أوحاه إليه رب العالمين. قال ابن زيد: (﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ قال: أقسم بالأشياء، حتىٰ أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. قال النسفي: (﴿إِنَّهُ﴾ أي إن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام، أي يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾. أي: وما هذا القرآن بقول شاعر، فمحمدٌ ﷺ لا يحسن قيل الشعر. قال قتادة: (طهّره الله من ذلك وعصمه). إنكم قليلاً ما تصدقون أنتم ـ معشر المشركين من قريش ـ بما ظهر صدقه وبيانه، ووضح برهانه، ظلماً وعناداً وعتواً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾. قال قتادة: (طهّره من الكهانة،

وعصمه منها). قال القاسمي: (﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ أي كما تدعون أخرىٰ بأنه من سجع الكهان ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتعظون وتعتبرون).

فنفىٰ عنهم الإيمان أولاً ثم الذكرىٰ ثانياً: لأن اتهام القرآن بالشعر بالغة من الكذب، فهم أهل الفصاحة والعلم بصناعة العرب والشعراء. ثم إن الكهان يأخذون جُعْلاً، ويتكلفون السجع والكذب، وإدخال الأخبار ببعضها، فأين الذكرىٰ لهم في ذلك!

وقوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أي: وإنما هذا القرآن تنزيل من ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الذي ربّاهم بصنوف نعمه، وما خلقهم عبثاً ولا تركهم للضياع، بل أكرمهم بالوحي والنبوة، ليوصلهم إلى سبل السعادة ومناهج الفلاح.

44 ـ 52. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

في هذه الآيات: المبالغةُ بوصف العقاب لو افترىٰ الرسول هذا الكتاب، وإنما هو كلام الله العظيم، فيه تذكرة للمتقين، ويحمل الحسرة والندامة للكافرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾. قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ أي: محمد ﷺ أو كان كما يزعُمون مفترياً علينا، فزاد في الرِّسالة أو نقصَ منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجَلناه بالعقوبة. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾، قيل: معناه: لا نتقمنا منه باليمين، لأنها أشدُّ في البَطْش. وقيل: لأخذنا بيمينه).

قلت: فهناك تأويلان متكاملان لقوله تعالىٰ: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾:

التأويل الأول: أي لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة. ذكره ابن جرير واختاره.

التأويل الثاني: أي لأخذنا منه باليد اليمنىٰ من يديه. فهو كقول السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه: خذ بيده، فأقمه، وافعل به كذا وكذا، والمقصود الإهانة. قال الزمخشري: (المعنىٰ لو ادّعىٰ علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً،

كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم ، معاجلة بالسخط والانتقام. فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول. وهو أن يؤخذ بيده ، وتضرب رقبته. وخصّ اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده ، وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور ، لنظره إلى السيف ، أخذ بيمينه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾. قال ابن عباس: (وهو نياطُ القلبِ ، وهو العِرْق الذي القلب مُعَلَّقٌ فيه). وقال مجاهد: (الوتين: حبل القلب الذي في الظهر). وقال الضحاك: (وتين القلب: وهو عرق يكون في القلب ، فإذا قطع مات الإنسان).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾. أي: فما منكم أيها الناس من أحد يحجزنا عن محمد ومعاقبته لو تقول علينا بعض الأقاويل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. قال قتادة: (القرآن). أي: وإنّ هذا القرآن عظة يتعظ به أهل الإيمان والتقوىٰ ، لئلا يندرجوا مع أهل الكفر والشقوة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾. قال الربيع: (بالقرآن). أي: وإنا لنعلم أنه مع هذا البيان والإعجاز لهذا القرآن فإن منكم من يكذب به ، إيثاراً للدنيا والهوىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. أي: وإنه لتحسر وندم سيلحق بالكافرين بهذا القرآن يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وإنه للحق اليقين الذي لا شك فيه أنه من عند الله ، لم يتقوّله محمد ﷺ).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾. قال ابن عباس: (أي فصَلّ لربك). وقيل: أي نزه الله عن السوء والنقائص.

تم تفسير سورة الحاقة
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر السبت 17 شوال 1426 هـ
الموافق 19 / تشرين الثاني / 2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ الحاقة من أسماء يوم القيامة ، عظّمه الله ، وحذّره عباده .

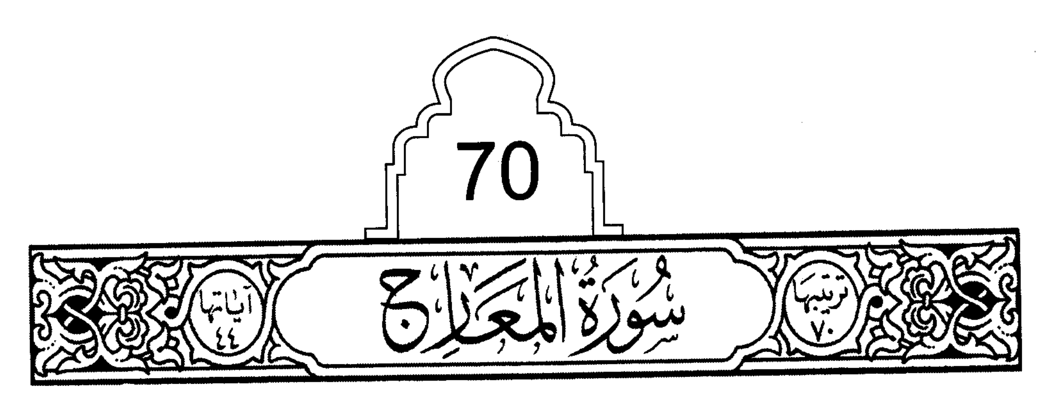
2 ـ هلكت ثمود بالصيحة وعادٌ بريح صرصر وكفار قوم نوح بالغرق والمؤمنون حُمِلوا في الجارية .

3 ـ يُعطىٰ أصحاب اليمين كتبهم بأيمانهم ، ويسعىٰ نورهم من بين أيديهم .

4 ـ يُعطىٰ أصحاب الشمال كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم .

5 ـ يُسلسل الكفار بالأغلال ، ويساق المتكبرون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار : طينة الخبال .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (44) .

موضوع السورة

تأكيد عذاب الله ـ ذي المعارج ـ على أهل الكفر والسيئات
وتحذير المؤمنين من سَيِّئِ الأخلاق والعادات

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ سؤال بعض الكافرين عن عذاب الله وهو لا محالة واقع ، وليس له من دون الله ذي المعارج دافع .

2 ـ حث الله تعالىٰ نبيّه ﷺ على الصبر ، فإن النصر لا بد قريب .

3 ـ وَصْفُ الأهوال التي تسبق القيامة ، ومشهد الذل في المحشر على المجرمين والندامة .

4 ـ إخبار الله عن الإنسان وما فيه من سَيِّئِ العادات ، وثناء على المصلين المزكين في أرفع الصفات ، وتخصيص الله تعالىٰ لهم في الجنة أرفع الدرجات .

5 ـ استنكار على المشركين نفورهم عن الحق وبديع الآيات ، وتوبيخ لهم في طمعهم بالجنة وهم قائمون على الشرك والموبقات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 7. **قوله تعالى:** ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾.

في هذه الآيات: سؤالُ بعض الكفار عن عذاب الله وهو لا محالة واقع، على الكافرين وليس له من دون الله ذي المعارج دافع، فاصبر يا محمد فكل آت قريب والصبر نافع.

فقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾. قال ابن عباس: (ذاك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع). وقال مجاهد: (دعا داع ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ قال: يقع في الآخرة). وقال قتادة: (سأل عذاب الله أقوام، فبين الله على من يقع على الكافرين).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: 32].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: 47].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال: [قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 33 ـ 34] الآية][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4649) ـ كتاب التفسير من صحيحه ـ سورة الأنفال.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ليس للعذاب الواقع على الكافرين من الله دافع يدفعه عنهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾. قال الرازي: (المعارج جمع معرج، وهو المصعد). قال ابن عباس: (﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ يقول: العلو والفواضل). أو قال: (ذي الدرجات).

وقال قتادة: (ذي الفواضل والنِّعم). وقال مجاهد: (﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ قال: معارج السماء). وقيل: هي معارج الملائكة، لأنها تعرج إلى السماء فوصف نفسه بذلك.

وقيل: المعارج هي الدرجات التي يعطيها سبحانه أولياءه في الجنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾.

أي: تصعد إليه الملائكة ﴿ وَٱلرُّوحُ ﴾ ـ وهو جبريل عليه السلام أو روح المؤمن عند الموت ـ فيكون مقدار صعودهم ذلك في يوم لغيرهم من الخلق خمسين ألف سنة.

قال ابن كثير: (وأما﴿ وَٱلرُّوحُ ﴾: يحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من بابَ عطْفِ الخاص على العام. ويحتمل أن يكون اسمَ جنسٍ لأرواح بني آدم فإنها إذا قُبِضَت يُصْعَدُ بها إلى السماء).

قلت: وكلا المعنين حق، فصعود الروح جبريل وكذلك أرواح المؤمنين ثابت في السنة الصحيحة:

ففي المسند وسنن أبي داود ومستدرك الحاكم بسند صحيح من حديث البراء مرفوعاً: [فيصعدون بها ـ أي روح المؤمن ـ فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتىٰ ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتىٰ ينتهي به إلى السماء السابعة] الحديث[1].

وعن مجاهد: (﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾. قال: منتهىٰ أمره من أسفل

(1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. أخرجه أحمد (4/ 287) (4/ 295)، وأخرجه أبو داود (2/ 281)، والحاكم (1/ 37 ـ 40)، والطيالسي (رقم 753).

الأرضين إلى منتهىٰ أمره من فوق السماوات والأرض مقدار خمسين ألف سنة ، ويوم كان مقداره ألف سنة ، يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، فذلك مقداره ألف سنة ، لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمس مئة عام).

قلت: والآية دليل واضح من أدلة العلو لله تعالىٰ فوق جميع خلقه ، فوق السماوات السبع فوق العرش العظيم.

ففي التنزيل:

1 ـ قوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5].

2 ـ وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10].

3 ـ وقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك: 16].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [الملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفحر وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذي باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهو يصلون][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد في المسند بسند جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كان ملك الموت يأتي الناس عياناً ، فأتىٰ موسىٰ عليه السلام فلطمه ، فذهب بعينه ، فعرج إلى ربه عز وجل فقال: يا رب بعثتني إلى موسىٰ فلطمني فذهب بعيني ، ولولا كرامته عليك لشققت عليه. قال: ارجع إلى عبدي فقل له: فليضع يده على ثور ، فله بكل شعرة وارت كفه سنة يعيشها] الحديث[2].

الحديث الثالث: حديث المعراج ـ في الصحيحين وغيرهما ـ عن أنس وفيه: [ثم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (555) ، ومسلم (632) ، ورواه أحمد (2/ 312).
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد ، وأصله وشاهده في الصحيحين. انظر: «مختصر العلو» (86).

عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل] الحديث[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾. أي: فاصبر يا محمد على أذىٰ قومك صبراً لا جزع فيه، ولا يثنيك ما تلقىٰ منهم من الأذىٰ عن تبليغ رسالة ربك، فإن النصر مع الصبر، وإن مع العسر يسراً.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾. قال النسفي: (﴿إِنَّهُمْ﴾ إن الكفار ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ أي العذاب أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ مستحيلاً ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ كائناً لا محالة، فالمراد بالبعيد البعيد من الإمكان، وبالقريب القريب منه).

8 ـ 18. قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ الأهوال التي تسبق القيامة، ومشهد الذل في أرض المحشر على المجرمين والندامة، ونار جهنم قد أعدت لاستقبال الطغاة لتنقلهم من الفرحة إلى السآمة.

فقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾. يعني: كالشيء المذاب. قال مجاهد: (كَعَكَرِ الزيت). وقال قتادة: (تتحول يومئذ لوناً آخر إلى الحمرة).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾. يعني: كالصوف المنفوش. وهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5]. وعن مجاهد: (﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ قال: كالصوف).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾. أي: ولا يسأل قريب قريبه عن شأنه أو حاله لانشغاله بشأن نفسه. قال قتادة: (﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ يشغل كل إنسان بنفسه عن الناس).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (فتح الباري 7/ 201 ـ 202)، (6/ 477)، وصحيح مسلم (1/ 148)، (1/ 156 ـ 157)، من حديث الإسراء والمعراج.

وقوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: المقصود الأقرباء يعرف بعضهم بعضاً، ثم ينشغل كل بنفسه عن غيره.

قال ابن عباس: (﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: يعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض، يقول: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 37]).

وقال قتادة: (﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يعرفونهم يعلمون، والله ليعرِفَنَّ قوم قوماً، وأناس أناساً).

التأويل الثاني: المؤمنون يبصرون الكفار. قال مجاهد: (﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ المؤمنون يبصرون الكافرين).

التأويل الثالث: الكفار الأتباع يعرفون المتبوعين الرؤساء في النار.

قال ابن زيد: (﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: يبصرون الذين أضلوهم في الدنيا في النار).

والتأويل الأول هو الأنسب للسياق، وهو اختيار ابن جرير. قال: (معنىٰ ذلك: ولا يسأل حميم حميماً عن شأنه، ولكنهم يبصرونهم فيعرفونهم، ثم يفر بعضهم من بعض). وبنحوه ذكر الحافظ ابن كثير حيث قال: (أي: لا يسأل القريبُ عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغلُه نفسُه عن غيره).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

أي: يتمنىٰ الكافر لو يفتدي يومئذ من عذاب جهنم بأعز من كان عليه في الدنيا: الولد والزوجة والأخ والعشيرة، بل وكل أهل الأرض ليحظىٰ بالنجاة ولكن هيهات!!

وعن قتادة: (﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾. الأحبّ فالأحبّ، والأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته لشدائد ذلك اليوم).

وعن مجاهد: (﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ قال: قبيلته). وقال ابن زيد: (﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ قال: الصاحبة الزوجة ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ قال: فصيلته: عشيرته).

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾. أي: لا سبيل له إلى ذلك، فإنه لا يُقبل منه فِداءٌ ولو جاء بأهل الأرض وبأعزّ ما يجده من المال ولو بملءِ الأرض ذهباً لو استطاع إلى

ذلك سبيلاً ، فإن ﴿ لَظَىٰ ﴾ ـ وهي جهنم ـ له بالمرصاد.

قال القرطبي: (﴿ كَلَّآ ﴾: تكون بمعنىٰ حقاً ، وبمعنىٰ لا. وهي هنا تحتمل الأمرين ، فإذا كانت بمعنىٰ حقاً كان تمام الكلام ﴿ يُنجِيهِ ﴾. وإذا كانت بمعنىٰ لا كان تمام الكلام عليها ، أي ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء ثم قال: ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ أي هي جهنم ، أي تتلظّىٰ نيرانها).

و﴿ لَظَىٰ ﴾ اسم من أسماء جهنم ، واشتقاق ﴿ لَظَىٰ ﴾ من التلظّي. والتِظاءُ النار التهابها ، وتلظيها تَلَهُّبُها ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: 14] أي تتلهب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾. قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع ، وعاصم ـ في رواية أبي بكر عنه ـ «نَزَّاعَةٌ» بالرفع. وقرأها عاصم في رواية أبي عمرو عنه ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ بالنصب. فبالرفع هي خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هي» ، أو خبر آخر لإن ، أو بدل من لظىٰ. وبالنصب تكون حالاً مؤكدة ، أو تُنْصَبُ على معنىٰ أنها تتلظىٰ نزاعة ، أي في حال نزعها للشّوىٰ. وقيل غير ذلك.

والشّوىٰ في لغة العرب: جمع شواة وهي جلدة الرأس. والشّوىٰ: اليدان والرجلان والرأس من الآدميين ، وكل ما ليس مقتلاً. يقال: رماه فأشواه إذا لم يصب المقتل.

وعن ابن عباس: (﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ قال: تنزع أم الرأس). وفي رواية: (يعني الجلود والهام). وقال مجاهد: (﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ قال: لجلود الرأس). وقال أبو صالح: (نزاعة للحم الساقين). وقال قتادة: (أي نزاعة لهامته ومكارم خلْقه وأطرافه). وقال الضحاك: (تبري اللحم والجلد عن العظم حتىٰ لا تترك منه شيئاً). وقال ابن زيد: (الشوىٰ: الآراب العظام).

فقوله تعالىٰ: ﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾. قال مجاهد: (عن الحق). وقال قتادة: (﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ عن طاعة الله ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ قال: عن كتابه ، وعن حقه). وقال ابن زيد: (ليس لها سلطان إلا على هوانِ مَنْ كفرَ وتولىٰ وأدبر عن الله ، فأما من آمن بالله ورسوله ، فليس لها عليه سلطان). قال ابن كثير: (أي: تَدْعُو النارُ إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدَّر لهم أنّهم في الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسانٍ طَلقٍ ذَلْقٍ ، ثم تَلْتَقِطُهم من بين أهل المحشر كما يَلْتَقِطُ الطيرُ الحبَّ ، وذلك أنهم كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كانوا ممن ﴿ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ، أي: كَذَّب بقلبه ، وتركَ العملَ بجوارِحه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾. قال مجاهد: (جمع المال). وقال قتادة: (كان

جَموعاً قموماً للخبيث). قال ابن جرير: (يقول: وجمع مالاً فجعله في وعاء، ومنع حقّ الله منه، فلم يزكّ ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه).

19 ـ 35. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالىٰ عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الصفات والأخلاق الدنيئة الواجب مدافعتها، وثناءٌ على المصلين المزكين المشفقين من عذاب الله الحافظين فروجهم والموفون بعهودهم والمؤدون الأمانات إلى أهلها، ووعد لهم مع البشرىٰ بدخول الجنان والاستقرار في روضاتها.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾. الهلع: شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر. والهلوع: الجزوع الحريص. قال سعيد بن جبير: (﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ قال: شحيحاً جزوعاً). وقال عكرمة: (ضجُوراً). وقال الضحاك: (﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني الكافر ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ يقول: هو بخيل منوع للخير، جزُوع إذا نزل به البلاء، فهذا الهلوع). وقال شعبة: (الهلوع: الحريص).

أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [شرُّ ما في رجلٍ شحٌّ هالِعٌ، وَجُبْنٌ خالِعٌ][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾. تفسير لآفاق ذلك الهلع: قال ابن كثير: (أي:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (2511). كتاب الجهاد. باب في الجرأة والجبن. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر صحيح سنن أبي داود (2192)، ومسند أحمد (2/ 302)، وصحيح ابن حبان (3250).

إذا أصابه الضُّرُّ فَزِع وجَزِع وانخلعَ قلبُهُ من شدة الرُّعب ، وأيِسَ أن يحصلَ له بعد ذلك خير).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾. قال النسفي: (وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس ، وهذا طبعه وهو مأمور بمخالفة طبعه وموافقه شرعه. والشر: الضر والفقر. والخير: السعة والغنىٰ. (أو المرض والصحة)).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العبادُ فيه ، إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدُهما: اللهمَّ ! أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر: اللهم ! أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾. قال القرطبي: (دلّ على أن ما قبله في الكفار ، فالإنسان اسم جنس بدليل الاستثناء الذي يعقبه ، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [العصر: 2 ـ 3]). وقال ابن كثير: (أي: الإنسان من حيثُ هو مُتَّصِفٌ بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفَّقَه ، وهداه إلى الخير ويَسَّرَ له أسبابه ، وهم المصلون).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾. يشمل في مفهومه المحافظة على أوقاتها وأركانها وواجباتها ، وسكونها وخشوعها جزء من ذلك.

وعن إبراهيم النخعي: (﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ قال: الصلوات الخمس). أو قال: (المكتوبة).

وعن ابن مسعود قال: (الذين يصلونها لوقتها ، فأما تركها فكفر). وقال عقبة بن عامر: (هم الذين إذا صلوا لم يلتفِتوا خلفهم ، ولا عن أيمانهم ، ولا عن شمائلهم).

رواه بسنده ابن جرير. كما روىٰ عن قتادة قوله: (ذُكر لنا أن دانيال نعت أمة محمد ﷺ قال: يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا ، أو عاد ما أُرسلت عليهم الريح العقيم ، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة ، فعليكم بالصلاة فإنها خُلُقٌ للمؤمنين حسن).

وقال ابن جريج والحسن: (هم الذين يكثرون فعل التطوع منها).

وقيل: المراد بالدوام السكون والخشوع ، ومنه الماء الدائم ، أي: الساكن الراكد.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1010) ، كتاب الزكاة ، باب في المنفق والممسك.

ولا شك أن الطمأنينة ركن من أركان الصلاة.

ففي التنزيل:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1 ـ 2].

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن الحارث الأشعري ـ من وصايا يحيىٰ بن زكريا عليه السلام كما ذكر لنا رسول الله ﷺ ـ: [وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة؟ فقال: [هو اختلاس يختَلِسُهُ الشيطان من صلاة العبد][2].

والاختلاس: هو الاختطاف بسرعة على غفلة. قال العلامة الطيبي طيب الله ثراه: (سمي اختلاساً تصويراً لقبيح تلك الفعلة بالمختلس، لأن المصلي يقبل عليه الرب سبحانه وتعالىٰ والشيطان مرتصد له ينتظر فوات ذلك عليه، فإذا التفت اغتنم الشيطان الفرصة فسلبه تلك الحالة). والله أعلم.

الحديث الثالث: أخرج النسائي والترمذي ـ واللفظ للنسائي ـ من حديث رفاعةَ بن رافع ـ حديث المسيء صلاته ـ قال له النبي ﷺ: [إنه لا تَتِمُّ صلاةُ أحدِكم حتىٰ يُسْبِغَ الوضوءَ كما أمَرَه الله تعالى، ويغسلَ وجهَهُ ويديه إلى المرفقين، ويمسحَ برأسِه ورجليه إلى الكعبين، ثم يكبّر اللهَ، ويحمدُه، ويُمَجِّدُه، ويقرأ من القرآن ما أذِنَ اللهُ له فيه وتَيَسَّرَ، ثم يكبر ويركع، فيضع كفيه على ركبتيه حتىٰ تطمئن مفاصِلُهُ وتسترخي، ثم يقول: سمع الله لمن حمده، ويستوي قائماً حتىٰ يأخذ كلُّ عظمٍ مأخذه، ويقيمَ صُلبَه، ثم يكبر، فيسجدُ، ويُمَكِّنُ جبهتَه من الأرض، حتىٰ تطمئِنَّ مفاصِلُهُ وتسترخي، ثم يكبِّر فيرفع رأسه، ويستوي قاعداً على مقعدته ويقيم صلبه (فوصف الصلاة هكذا حتىٰ فرغ ثم قال:) لا تتم صلاةُ أحدكم حتىٰ يفعلَ ذلك][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. قال قتادة: (الحق

(1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. انظر صحيح سنن الترمذي (2298)، أبواب الإمثال.
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (910)، في الصلاة. باب الالتفات في الصلاة. ورواه البخاري.
(3) رواه النسائي وهذا لفظه، والترمذي وقال: «حديث حسن». انظر صحيح الترغيب (1/ 537).

المعلوم: الزكاة). أو قال: (الزكاة المفروضة). وقال ابن عباس: (يقول: هو سوى الصدقة يصل بها رحمه، أو يقري بها ضيفاً، أو يحمل بها كَلًّا، أو يُعين بها محروماً).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وإلا الذين في أموالهم حقّ مؤقت، وهو الزكاة للسائل الذي يسأله من ماله، والمحروم الذي قد حرم الغنىٰ، فهو فقير لا يسأل).

قلت: والزكاة أشبه بالحق المعلوم، وسوىٰ الزكاة ليس بمعلوم، إنما هو واجب على قدر الحاجة، فيكون بعد الزكاة المعلومة في أنصبتها ومقاديرها، كما قال الشعبي: (إن في المال حقاً سوىٰ الزكاة).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾. أي: وإلاَّ المؤمنون باليوم الآخر، فهم يقرون بالبعث والحساب، ويعملون لما يكون فيه الفوز بالجنة والنجاة من العقاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾. أي: والذين هم في الدنيا من عذاب الآخرة خائفون وجلون، فهم راجون رحمة ربهم لا يضيعون له فرضاً، ولا يتعدّون له حدّاً، وهم له خاشعون.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾. قال النسفي: (أي لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الاجتهاد والطاعة أن يأمنه، وينبغي أن يكون مترجحاً بين الخوف والرجاء).

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أَمَّنْتُه يوم أجمع عبادي][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾. أي: والذين هم حافظون فروجهم عن الحرام، فهم يمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾. أي: ويستثنىٰ مما سبق الأزواج والإماء، فهن حلال لمن ملكهن بكلمة الله وضوابط الشرع.

أخرج أبو داود بسند حسن عن حكيم، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله!

(1) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم والبزار بسند حسن. انظر صحيح الجامع الصغير (4208).

عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال: [احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينُك] الحديث[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾. أي: فمن التمس لفرجه منكحاً سوىٰ زوجته أو ما ملكت يمينه فهو بذلك متعد حدود الله ، ماض في طريق معصيته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وإلا الذين هم لأمانات الله التي ائتمنهم عليها من فرائضه وأمانات عباده التي اؤْتُمِنُوا عليها ، وعهوده التي أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم ، وعهود عباده التي أعطاهم على ما عقده لهم على نفسه راعون ، يرقبون ذلك ، ويحفظونه فلا يضيعونه ، ولكنهم يؤدّونها ويتعاهدونها على ما ألزمهم الله وأوجب عليهم حفظها).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 58].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 34].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ حَمَلَ علينا السلاح فليس مِنّا ، ومَنْ غَشَّنا فليس منا][2].

وفي الصحيحين من حديث أنس قال: قال النبي ﷺ: [لكل غادر لواء يومَ القيامة ، يقال: هذه غَدْرةُ فلان][3].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [المسلم أخو المسلم ، لا يخونُه ، ولا يَكذِبُه ، ولا يخذُله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عِرضُه ومالُه ودمُه][4].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾. أي: والذين لا يكتمون الشهادة التي استشهدوا عليها ، بل يؤدونها صحيحة غير مبدلة ولا معدّلة.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (4017) ، كتاب الحمّام. باب ما جاء في التعرّي. ورواه ابن ماجة (1920). وانظر صحيح سنن أبي داود (3391).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (101) ، كتاب الإيمان. وانظر كذلك الحديث (100) ، (102).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 464) ، (12/ 299) ، وأخرجه مسلم (1735).

(4) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1572) ، وكذلك(1152) من حديث ابن عمر.

قال القرطبي: (﴿قَآئِمُونَ﴾ على من كانت عليه من قريب أو بعيد، يقومون بها عند الحاكم ولا يكتمونها ولا يغيرونها).

وفي التنزيل: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: 283].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. قال قتادة: (علىٰ وضوئها وركوعها وسجودها). وقيل: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها. وقيل: الدوام عليها الاستكثار منها، والمحافظة عليها أن لا تضيع عن مواقيتها.

قلت: الدوام يشمل المحافظة على أدائها وعدم الانشغال عنها. وأما المحافظة عليها فيضم مراعاة إسباغ الوضوء لها وإقامتها في مواقيتها بأركانها وواجباتها ومستحباتها وآدابها. وقد افتتح الكلام بذكر الدوام على الصلاة واختتمه بذكر المحافظة عليها، ليدل على مكانتها في الإسلام وشرفها وعلو قدر صاحبها.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾. أي: هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات والنعوت الرفيعة هم أهل الكرامة وحسن التكريم في الآخرة، ينعمون بأنواع الملاذ، وصنوف المسارّ، وألوان الكرامات.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقموا أبَداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبداً، وإنَّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً][1].

36 ـ 44. قوله تعالىٰ: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: استنكارٌ على المشركين نفورهم من الحق وقد رأوا أمامهم تأييد الله نبيّه بالنصر والمعجزات، وتوبيخٌ لهم في طمعهم بالجنان وهم باقون على الشرك

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2837)، كتاب الجنة ونعيمها. باب في دوام نعيم أهل الجنة.

والموبقات ، كلا فإن مآلهم إلى نار الجحيم والحميم والدركات .

فقوله تعالىٰ : ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ . قال قتادة : (عامدين). وقال ابن زيد : (المهطع : الذي لا يطرف. وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : معناه : مسرعين).

وعن الحسن : (﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ قال : منطلقين). والمعنىٰ : فمال هؤلاء الكفار من قومك ـ يا محمد ـ مسرعين نافرين منك وهم مشاهدون لما أيدك الله به من الآيات والمعجزات . كما قال تعالىٰ : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر : 49 ـ 51].

وقوله تعالىٰ : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ . أي متفرقين ، واحِدها عِزَةٌ.

قال ابن عباس : (﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ قال : قِبلك ينظرون ، ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ . قال : العزين : العُصَبُ من الناس ، عن يمين وشمال مُعرِضين يستهزئون به). وعن الحسن : (﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ متفرقين ، يأخذون يميناً وشمالاً يقولون : ما قال هذا الرجل ؟). وقال قتادة : (﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أي : فِرَقاً حول النبي ﷺ لا يَرغبون في كتاب الله ، ولا في نبيّه ﷺ).

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة : [أن رسول الله ﷺ خرجَ عليهم وهم حِلَقٌ ، فقال : «مالي أراكُم عِزينَ ؟»][1].

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ﴾ . قال ابن كثير (أي : أيطمعُ هؤلاء ، والحالةُ هذه من فرارهم عن الرسول ونِفَارهم عن الحق أن يدخلوا جناتِ النعيم ؟ بل مأواهم نارُ الجحيم).

وقوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ . قال قتادة : (إنما خُلِقْتَ من قَذرٍ يا ابن آدم ، فاتق الله). قال ابن جرير : (يقول جلّ وعزّ : إنا خلقناهم من منيّ قذر ، وإنما يستوجب دخول الجنة من يستوجبه منهم بالطاعة ، لا بأنه مخلوق ، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم عصاة كفرة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (430/ 119) ، وأبو داود (4823) ، والنسائي في «التفسير» (642) ، وأخرجه الطبري (34965). وفيه حث على الاجتماع ، ونهي عن الفرقة.

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : 20] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : 5 ـ 10] .

ومن كنوز صحيح السنة حديث رائع في ذكر هذه الآيات موضع التفسير :

فقد أخرج الحاكم في المستدرك ، وأحمد في المسند ، وابن ماجة مختصراً ، بإسناد صحيح ـ واللفظ للحاكم ـ عن جبير بن نفير ، عن بسر بن جحاش القرشي قال : [تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ثم بزق رسول الله ﷺ على كفّه فقال : يقول الله : يا ابن آدم أنّىٰ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتىٰ إذا سَوَّيْتُكَ وعدَّلتك مشيت بين بردتين وللأرض منك وئيد ـ يعني شكوىٰ ـ فجمعت ومنعت ، حتىٰ إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأنىٰ أوان الصدقة ؟!][1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ .

قال القرطبي : (﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ أي أقسم . و«لا» صلة . ﴿ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ هي مشارق الشمس ومغاربها . ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ يقول : نقدر على إهلاكهم والذهاب بهم ، والمجيء بخير منهم في الفضل والطوع والمال . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ . تهديد ووعيد .

أي : فاتركهم ـ يا محمد ـ يخوضوا في باطلهم ولهوهم وغرورهم ، وانشغل أنت بما أمرت به من البلاغ وإقامة الدين الحق ، فإن لهم يوماً يحاصرهم فيه العذاب ويدفعون ثمن الكبر والاستهتار غالياً .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (2/ 502) ، (2/ 323) ، وأحمد (4/ 210) ، وابن سعد (7/ 427) ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وقال البوصيري في «الزوائد» (ق 168/ 1) : «إسناده صحيح ، ورجاله ثقات» . وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (1143) : (وهو كما قالوا) .

أي: إنه اليوم الذي يخرجون فيه من قبورهم مسرعين ، وذلك حين يسمعون الصيحة الآخرة إلى إجابة الداعي كأنهم إلى عَلَم أو غاية يستبقون.

و﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من «يَوْمَهُم» الذي قبله ، والأجداث: القبور ، وهي: جمع جدث. و﴿ سِرَاعًا ﴾: أي مسرعين. وعن ابن عباس: (﴿ إِلَىٰ نُصُبٍ ﴾ إلى غاية ، وهي التي تنصب إليها بصرك). وهناك قراءة مشهورة بفتح النون ، أي: «نَصْبٍ». قال الكلبيّ: (إلى شيء منصوب ، عَلَم أو راية).

والإيفاض الإسراع ، فقوله: ﴿ يُوفِضُونَ ﴾. أي: يُسرعون. قال قتادة: (﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ قال: إلى عَلَم يسعون). وقال أبو العالية: (إلى علامات يستبقون).

وقوله: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: خاضعة أبصارهم للذي هم فيه من الخزي والهوان ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ يقول: تغشاهم ذلة). والرَهَقُ: الغشيان. قال قتادة: (هو سواد الوجوه).

والمقصود: ذليلة أبصارهم في ذلك اليوم لما يتوقعونه من الخزي والهوان والعذاب.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾. أي: ذلك هو اليوم الذي كانوا يوعدون في الدنيا أنهم ملاقوه ، وأنه سيكون يوم شؤم عليهم ، لما ينتظرهم فيه من العذاب والقصاص والنكال.

تم تفسير سورة المعارج

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

مساء يوم الثلاثاء 20 ـ شوال ـ 1426 هـ

الموافق 22 ـ تشرين الثاني ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ عذاب الله لا شك واقع بالكافرين.

2 ـ الملائكة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج إلى الله الذين باتوا فيكم ليسألهم عن حالكم.

3 ـ لظىٰ: اسم من أسماء جهنم ، وأصله من التَلظِّي وهو التلَهُّب.

4 ـ ويل لمانع الزكاة: كنزه صفائح نار وتدوسه بقره وإبله وغنمه غداً.

5 ـ تدعو النار أهلها بلسان فصيح ، وتلتقطهم كما يلتقط الطير الحب.

6 ـ الإنسان هلوع جزوع منوع إلا المصلين المزكين العفيفين.

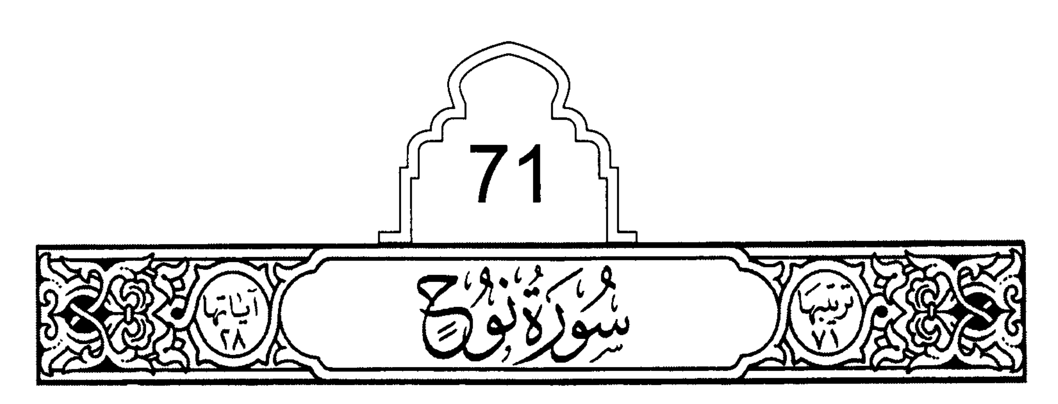
7 ـ ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما: اللهم أعط مُنْفِقاً خلفاً ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً.

8 ـ احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ، وغطّ فخذك فإن الفخذ عورة.

9 ـ لكل غادر لواء يوم القيامة ، يقال: هذه غَدْرةُ فلان.

10 ـ الأمناء والقائمون بالقسط والمقيمون الصلاة والحافظون فروجهم أولئك في جنات النعيم ، وأهل الكفر والكبر والعناد في نار الجحيم.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (28) .

موضوع السورة

خبر نوح عليه الصلاة والسلام
وقصة إغراق الله أهل الكفر والإجرام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إرسال الله نبيّه نوحاً عليه الصلاة والسلام ، لينذر قومه مغبة الشرك بالله وتعظيم الشهوات والآثام .

2 ـ صَبْرُ نوح ﷺ على أذىٰ قومه اللئام ، وهو يدعوهم إلى تعظيم الله وعبادته وشكره على جميل الإنعام ، ونتائج ذلك عليهم برغد العيش وحياة الكرام .

3 ـ بثُّ نوحٍ الشكوىٰ إلى الله العظيم ، عما يلقاه من تمرد قومه واتباعهم سبل الشياطين .

4 ـ إغراق الله قوم نوح الكافرين ، ودعاء نوح ربه إهلاك من في الأرض من المجرمين ، والمغفرة له ولوالديه ولجميع المؤمنين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 4. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن إرساله نبيّه نوحاً ﷺ إلى قومه لينذرهم بأسه ـ جَلَّت عظمته ـ قبل حلوله ، فإن تداركوا أنفسهم بالتوبة والإنابة وإفراده تعالىٰ بالتعظيم ورسوله بالمتابعة رفع عنهم سخطه وكفّر عنهم سيئاتهم ومَدَّ في أعمارهم بالراحة والهناءة في العيش ، ليوافقوا الأجل المسمىٰ لهم في أم الكتاب .

فقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ . نوح ﷺ هو أول رسول إلى أهل الأرض .

ففي الصحيحين والمسند من حديث أبي هريرة ـ حديث الشفاعة ـ مرفوعاً: [فيقول آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مِثْلَه ، ولن يغضبَ بعدَه مِثْلَهُ ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً ﷺ فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسمّاك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك. . .] الحديث(1) .

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ . أي بأن أنذر قومك ، فموضع ﴿أَنْ﴾ نصب بإسقاط الخافض. ويجوز ﴿أَنْ﴾ بمعنىٰ المفسِّرة فلا محل لها من الإعراب . ـ حكاه القرطبي .

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال ابن عباس: (يعني عذاب النار في الآخرة) .

وقال الكلبي: (هو ما نزل عليهم من الطوفان). وقيل: أي أنذرهم العذاب الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (3340) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه مسلم (1/ 127 ـ 129). ورواه أحمد .

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾. أي مخوف بيِّن النذارة ، ظاهر الأمر واضحه ، ومظهره بلسانكم الذي تعرفونه .

وقوله تعالى : ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾. قال قتادة : (أرسل الله المرسلين بأن يُعْبَد اللهُ وحدَه ، وأن تتقىٰ محارمه ، وأن يُطاع أمره) .

وقوله : ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾. أي : إنْ أثبتّم لله تعالىٰ وحده التعظيم ، فأفردتموه بالعبادة وأفردتم رسوله بالمتابعة فيما جاءكم به من الوحي الكريم ، غفر الله لكم ذنوبكم .

وفي ﴿مِنْ﴾ أكثر من تأويل عند المفسرين :

التأويل الأول : ﴿مِنْ﴾ صلة زائدة . والتقدير : يغفر لكم ذنوبكم . قاله السدي .

التأويل الثاني : ﴿مِنْ﴾ للتبعيض . والتقدير : يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين . قال ابن كثير : (وقيل : إنها للتبعيض ، أي : يغفرلكم الذنوب العِظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام) .

التأويل الثالث : ﴿مِنْ﴾ بمعنىٰ «عن» . والتقدير : يصفح لكم عن ذنوبكم . واختاره ابن جرير . وقال زيد بن أسلم : (المعنىٰ يخرجكم من ذنوبكم) . وقال ابن شجرة : (يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها) .

وقوله : ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾. فيه أقوال متكاملة .

1 ـ قال ابن عباس : (أي ينسئ في أعماركم) . ومفهومه : أن الله تعالىٰ كان قد قضىٰ قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك في أعمارهم ، وإن لو يؤمنوا عوجلوا بالعذاب . ـ حكاه القرطبي .

2 ـ قال مقاتل : (يؤخركم إلى منتهىٰ آجالكم في عافية ، فلا يعاقبكم بالقحط وغيره) . ومفهومه : يؤخركم الله بذلك من العقوبات والشدائد إلى آجالكم .

3 ـ قال الزجاج : (أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير موتة المستأصلين بالعذاب) . وعن الفراء : (﴿أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ عندكم تعرفونه ، لا يميتكم غَرَقاً ولا حَرقاً ولا قتْلاً) .

قلت : وزيادة العمر في الطاعة والبر وصلة الرحم زيادة حقيقية ، وهي في علم الله تعالىٰ ومكتوبة في اللوح المحفوظ ، وقد ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة .

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ أَحَبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقه، ويُنْسَأَ له في أثرِه، فليصل رحِمه][1].

وفي رواية: [مَنْ سَرَّه أن يُبْسَطَ له في رزقه أو يُنْسَأَ له في أثرِهِ فليصل رَحِمَه][2].

قال الألباني رحمه الله: (هذا الحديث نص في أن صلة الرحم سبب للزيادة في الرزق وطول العمر، ولا ينافيه أن الرزق والعمر مقدران، فإنهما مقدران بأسبابهما. ألا ترىٰ أن دخول الجنة أو النار مقدر أيضاً، ومع ذلك فدخولهما مربوط بالسبب من الإيمان أو الكفر. قال: فإذا قلنا طال عمره حقيقة بصلته للرحم فهو كما لو قلنا: دخل الجنة بإيمانه ولا فرق).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عائشة، أن النبي ﷺ قال لها: [إنّه من أعطي حظّه من الرفق، فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم، وحسن الخلق وحسن الجوار، يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار][3].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند حسن عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر][4].

وقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: بادِرُوا بالطاعة قبل حلول النّقمة، فإنه إذا أَمَرَ تعالىٰ بِكَوْنِ ذلك لا يُرَدُّ ولا يُمانَعُ، فإنه العظيم الذي قَهَرَ كُلَّ شيءٍ، العزيزُ الذي دانت لعِزَّته جميع المخلوقات).

5 ـ 20. قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5986)، كتاب الأدب. وأخرجه مسلم (8/ 8).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2067)، كتاب البيوع. باب من أحب البَسْطَ في الرزق. وانظر مختصر صحيح مسلم (1762) ـ تحقيق الألباني. وكذلك التعقيب عليه ص (470).
(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 159) ورجاله ثقات. وله شاهد رواه الترمذي (1/ 362).
(4) حديث حسن. انظر تخريج «الترغيب» (2/ 31)، وصحيح الجامع الصغير (3691). وسنده حسن.

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالىٰ عن صبر نبيِّه ـ نوح ﷺ ـ على دعوة قومه وأذاهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ، فلم يزدادوا إلا عتواً ونفوراً واستكباراً ، وأنه دعاهم إلى تعظيم الله واستغفاره وشكره الذي ينعكس عليهم رزقاً وخيراً وأنهاراً ، ومع ذلك أصروا على الكفر والمنكر وتناسوا النعم فهم لا يرجون لله وقاراً .

فقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ . قال النسفي : (دائباً بلا فتور) .

والمقصود: واصلت لهم الدعاء ودأبت في ذلك بالليل والنهار حرصاً على نجاتهم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ . قال القرطبي : (أي تباعداً من الإيمان) .

وقال ابن جرير : (يقول : إلا إدباراً عنه[1] وهرباً منه وإعراضاً عنه) .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ . أي : لئلا يسمعوا دعائي . قال ابن كثير : (أي سَدُّوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه . كما أخبر تعالىٰ عن كفار قريش : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت : 26]) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ . قال ابن عباس : (تنكَّروا له لئلا يعرفهم) .

وقال سعيد بن جبير : (غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول) .

وقوله : ﴿ وَأَصَرُّوا۟ ﴾ . أي : ركبوا رؤوسهم بالاستمرار على ما هم عليه من الكفر والشّر فلم يتوبوا . والإصرار على الذنوب من أكبر الكبائر وفيه الوعيد الشديد .

فقد أخرج البخاري في «الأدب المفرد» ، وأحمد في المسند ، بإسناد صحيح ، عن

(1) أي عن الحق الذي دعاهم إليه .

عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [ارْحَموا تُرْحموا ، واغْفِروا يُغْفَر لكم ، وويل لأقماع القول ، وويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون][1].

قال الزمخشري: (من المجاز: «ويل لأقماع القول» وهم الذين يستمعون ولا يعون).

والمقصود: تشبيه الذين يستمعون القول فلا يعونه ولا يعملون به بالأقماع ـ جمع قِمْع ، وهو الإناء الذي يجعل في رأس الظرف ليملأ بالمائع ـ لا تعي شيئاً مما يفرغ فيها ، فكأنه يمر عليها مجتازاً كما يمر الشراب في القمع.

وقوله: ﴿ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾. ﴿ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ تفخيم. قال ابن جرير: (يقول: وتكبروا فتعاظموا عن الإذعان للحقّ ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾. أي جهرة بين الناس. قال مجاهد: (الجهار الكلام المعلن به).

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾. أي صرخت لهم ورفعت صوتي بإنذارهم.

قال مجاهد: (﴿ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ يقول: صحت بهم).

وقوله: ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾. قال مجاهد: (فيما بيني وبينهم).

أي: أخفيت دعوتي بيني وبين بعضهم ، وأتيتهم في منازلهم ، فنَوّعت في أساليب تلطّفي لهم ، لقبول دعوتي حرصاً على نجاتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾. أي: فقلت لهم: سلوا الله المغفرة من ذنوبكم السالفة وما اجترحتم من الآثام ، بإخلاصكم إليه التقرب والتوسل بصحيح الإيمان ، إنه سبحانه هو السِّتير الغفار صاحب الغفران.

قال الفضيل: (يقول العبد: أستغفر الله. وتفسيرها أَقِلْني).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾. قال البخاري: قال ابن عباس: (﴿ مِّدْرَارًا﴾: يتبع بعضها بعضاً). أي: إنكم إن أخلصتم التعظيم والعبادة لله العظيم ،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (380) ، وأحمد (2/ 165) ، (2/ 219) ، وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (1/ 42). وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (482).

وأحسنتم الاستغفار والإنابة إليه سقاكم من غيث كثير متتابع إنه هو البرّ الرحيم. وقال النسفي: (﴿مِّدْرَارًا﴾ كثيرة الدّرور).

يروي ابن جرير بإسناده عن الشعبي قال: (خرج عمر بن الخطاب يستسقي، فما زاد على الاستغفار، ثم رجع فقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح[1] السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، وقرأ الآية التي في سورة هود حتىٰ بلغ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: 52]).

وقال الأوزاعي: (خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: اللهم إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: 91] وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا! فرفع يديه ورفعوا أيديهم فَسُقوا).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

قال قتادة: (علم نبي الله ﷺ أنهم أهل حرص على الدنيا فقال: هلمّوا إلى طاعة الله، فإن في طاعة الله درك الدنيا والآخرة).

وقال ابن صبيح: (شكا رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له: استغفر الله. وشكا آخر إليه الفقر فقال له: استغفر الله. وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله. وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئاً، إن الله تعالىٰ يقول في سورة «نوح»: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾).

قال ابن كثير: (أي: إذا تُبْتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كَثُرَ الرزقُ عليكم، وأسقاكم من بَرَكات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبتَ لكم الزرعَ، وأدرَّ لكم الضَّرعَ، وأمدَّكم بأموال وبنينَ، أي: أعطاكمُ الأموالَ والأولادَ، وجعل لكم جناتٍ فيها أنواع الثمار، وخَلَّلَهَا بالأنهار الجارية بينها).

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾. ترهيب بعد ترغيب. وفيه أقوال متقاربة:

---

(1) المجدح: نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة بما يعرفونه لا قولاً بالأنواء. اهـ ابن الأثير.

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ يقول: عظمة). وقال مجاهد: (لا تبالون لله عظمة). أو قال: (لا تبالون عظمة ربكم. قال: والرجاء: الطمع والمخافة).

2 ـ قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته).

3 ـ قال ابن عباس في رواية أخرىٰ: (ما لكم لا تعلمون لله عظمة).

4 ـ قال قتادة: (﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾: لا ترجون لله عاقبة).

5 ـ قال ابن زيد: (﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ قال: الوقار الطاعة).

والخلاصة: عدل القرآن بهم من دعوتهم بمقام الترغيب إلى دعوتهم بمقام الترهيب من الله وبأسه ونقمته وجبروته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾. أي: وقد خلقكم سبحانه حالاً بعد حال، طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة. قال ابن عباس: (﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾. يقول: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة). قال مجاهد: (من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم ما ذكر حتىٰ يتمّ خلقه). وقال قتادة: (طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً عظاماً، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأه خلقاً آخر، أنبت به الشعر، فتبارك الله أحسن الخالقين).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾. هو دليل آخر يقرع الله به آذان وأبصار المشركين: أنَّ الذي قدّر هذا التركيب العلوي العجيب يجب أن يُعْبَد. وعن ابن عباس: (﴿ طِبَاقًا ﴾. بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرىٰ كالقباب). قال القرطبي: (وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ على جهة الإخبار لا المعاينة. قال: ﴿ طِبَاقًا ﴾ نصب على أنه مصدر، أي مطابقة طباقاً. أو حال بمعنىٰ ذات طباق، فحذف ذات وأقام طِباقاً مقامه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾. هو كقوله جلت عظمته: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: 5].

قال ابن كثير: (﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾. أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كُلاً منهما أُنموذَجاً على حِدَةٍ، لِيُعْرَفَ الليلُ والنهار بمطلَع الشمس

وَمَغيبها ، وقدَّر القمر منازلَ وبُروجاً ، وفاوت نورَهُ ، فتارةً يزدادُ حتىٰ يتناهىٰ ثم يشرع في النقص حتىٰ يسْتَسِرَّ ، ليدلَّ على مضي الشهور والأعوام).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾. قال ابن جريج: (يعني آدم عليه السلام خلقه من أديم الأرض كلها). وقال النسفي: (﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أنشأكم، استعير الإنبات للإنشاء ﴿نَبَاتًا﴾ فنبتم نباتاً). وقال ابن جريج: (أنبتهم في الأرض بالكِبَر بعد الصِّغَر وبالطول بعد القِصَر).

قلت: وقد ثبت في السنة الصحيحة أن الله تبارك وتعالىٰ قبض قبضة من جميع ترب الأرض فخلق منها آدم ، فجاء نسله متفاوتاً حسب طبيعة تلك الترب ، فأشبه خلق الإنسان خلق النبات وترعرعه.

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله خلقَ آدمَ من قُبْضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض ، فجاءَ بنو آدمَ على قَدْر الأرض ، فجاءَ مِنهم الأحْمَرُ ، والأبيضُ ، والأسودُ ، وبين ذلك ، والسَّهْلُ ، والحَزْنُ ، والخبيثُ ، والطيِّبُ][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾. أي: ثم يعيدكم في الأرض عند موتكم فتدفنون فيها ، إلى أن يخرجكم من قبوركم بالنشور للبعث يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾. أي مبسوطة تستقرون عليها ، فقد مَهَّدَها لكم لتصلح لانتشاركم في معايشكم ، وقرَّرها وثَبَّتها بالجبال الراسيات والشمِّ الشامخات.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾. قال ابن عباس: (يقول: طرقاً مختلفة).

وقال قتادة: (طرقاً وأعلاماً). والفجاج: جمع فجّ: وهو الطريق. والمعنىٰ: يقول نوح لقومه ـ في معرض تذكيرهم نعم ربه عليهم ـ: إن الله تعالىٰ قد مهّدَ لكم هذه الأرض وبسطها لتستقروا عليها ، ولتسلكوا منها طرقاً صعاباً متفرقة في أرجائها وأطرافها ونواحيها لالتماس مصالحكم. فجمع لكم بذلك بين تسخير المنشآت العلوية والسفلية ، لتنالوا من الفوائد والمنافع السماوية والأرضية. أفلا يحملكم هذا على إفراده تعالىٰ بالعبادة والتعظيم ، فتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً؟!

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد والترمذي من حديث أبي موسىٰ. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2355) ، أبواب تفسير القرآن. والسلسلة الصحيحة (1630).

21 ـ 24. **قوله تعالىٰ**: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: بثُّ نوحٍ ـ عليه السلام ـ الشكوىٰ إلى الله العظيم، عما يلقاه من عصيان قومه واتباعهم الهوىٰ وتعظيم الأصنام وما يملي لهم الشيطان الرجيم، وأهل الدنيا والشهوات وَمَنْ مُتِّعَ بأموال وبنين.

فقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾. قال القرطبي: (شكاهم إلى الله تعالىٰ، وأنهم عصوه ولم يتّبعوه فيما أمرهم به من الإيمان).

وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾. أي واتبعوا ساداتهم وأغنياءهم وكبراءهم من أبناء الدنيا والشهوات ممن لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالاً في الدنيا وهلاكاً في الآخرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾. قال مجاهد: (عظيماً). وقال ابن زيد: (كثيراً).

قال المبرد: (﴿كُبَّارًا﴾ بالتشديد للمبالغة)[1].

والمقصود: مكروا مكراً كبيراً عظيماً، في إصرارهم على الكفر والكبر، وتحريشهم السفلة على قتل نوح ومحاصرة دعوته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

أي: وقال الرؤساء لسفلتهم حافظوا على آلهتكم ولا تتركوا هذه الأنصاب وعظموها.

قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسىٰ: أخبرنا هشامٌ عن ابنِ جُرَيْجٍ. وقال عطاءٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما: [صارت الأوثان التي كانت في قوم نوحٍ في العرب بعْدُ، أَمّا وَدٌّ: فكانت لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَل، وأما سُوَاعٌ: فكانت لِهُذَيْلٍ، وأمّا يغوثُ:

---

(1) وفي لغة العرب: أمر عجيب وعُجَاب وعُجَّاب، ورجل طويل وطُوَال وطوّال، وشاب حسن وحُسَّان، وجميل وَجُمَّال، ونحو ذلك بالتخفيف والتشديد، بمعنىٰ واحد.

فكانت لِمُرادٍ ثُمَّ لبني غُطَيْفٍ ، بالجُرْفِ عِنْدَ سَبَأٍ ، وأمّا يعوقُ: فكانت لِهَمْدانَ ، وأمّا نَسْرٌ: فكانَتْ لِحِمْيَرَ ، لآلِ ذِي الكَلاع ، أسماء رجالٍ صالحين مِنْ قومِ نوح ، فلما هَلَكُوا أوْحىٰ الشيطان إلى قومهم أن انْصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنْصاباً وسَمّوها بأسْمائهم ، فَفَعَلُوا ، فلم تُعْبَدْ ، حتىٰ إذا هلك أولئِكَ وتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ][1] .

وقال ابن جرير : حَدَّثَنا ابن حُمَيد ، حدَّثنا مهرانُ ، عن سفيان ، عن موسىٰ ، عن محمد بن قيس ﴿ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : (كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح . وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم ، فلما ماتُوا قال أصحابهُم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صَوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادةِ إذا ذكرناهم . فصَوَّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليسُ فقال : إنما كانوا يعبدُونهم وبهم يُسْقَون المطرَ . فعبدوهم) .

والخلاصة : هذه كانت أكبر أصنامهم التي صوّروها وأوحىٰ الشيطان إليهم فنصبوا لها أنصاباً وعبدوها . فودّ صنم على صورة رجل ، وسواعٌ على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسرٌ على صورة نسر . وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب ، فكان ودّ لكلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ ﴾ . أي : وقد ضلّ بعبادة هذه الأصنام خلق كثير ، فاستمرت عبادتها في العرب والعجم إلى الأزمنة التي بعدها إلى يومنا هذا .

قال ابن جرير : (فَنُسِبَ الضلال إذ ضَلَّ بها عابدوها إلى أنها المُضِلّة) .

وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ ﴾ [إبراهيم : 35 ـ 36] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾ . قال ابن كثير : (دعاءٌ منه على قومه لِتَمرّدهم وكُفرهم وعِنادهم ، كما دعا موسىٰ ـ عليه السلام ـ على فرعون وملئِه في قوله : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : 88] . وقد استجاب الله لكل من النَّبِيَّيْنِ في قومه ، وأغرق أمَّته بتكذيبهم لما جاءهم به) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4920) ، كتاب التفسير . سورة نوح ، آية (23) .

25 ـ 28. **قوله تعالىٰ:** ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: إغراقُ الله قوم نوح الكافرين بالطوفان ، ليدخلوا بعد ذلك عذاب نار القبر ضريبة الآثام. ودعاء نوح ربه إهلاكَ مَنْ في الأرض مِن الكافرين ، والمغفرة له ولوالديه ولجميع المؤمنين.

فقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾. أي: فمن إصرارهم على الكفر ومخالفة رسولهم أغرقوا بالطوفان ثم أدخلوا في النيران. قال سفيان: (﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ قال: بخطيئاتهم أُغرقوا). وقال الفراء: (المعنىٰ: من أجل خطاياهم). وقال القرطبي: (﴿مَا﴾ صلة مؤكدة ، والمعنىٰ من خطاياهم. ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ أي بعد إغراقهم).

قال القشيريّ: (وهذا يدل على عذاب القبر). وقال ابن كثير: (﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ ، أي: نُقِلوا من تيّار البحار إلى حرارة النار). قلت: والقول بأنه عذاب القبر قبل عذاب جهنم قول سديد.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾ [غافر: 46].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [الأعراف: 167].

وفي سنن أبي داود ومستدرك الحاكم بسند صحيح من حديث البراء: [فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري ، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء: أن كذب ، فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها ويضيق عليه قبره ، حتىٰ تختلف أضلاعه..] الحديث[1].

(1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. أخرجه أبو داود (2/ 281) ، والحاكم (1/ 37 ـ 40).=

وقوله: ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾. قال ابن جرير: (تقتص لهم ممن فعل ذلك بهم، ولا تحول بينهم وبين ما فعل بهم).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾. هو دعاء نوح ﷺ على قومه حين يئس من اتباعهم إياه. قال قتادة: (دعا عليهم بعد أن أوحىٰ الله إليه). وقال السدي: (﴿ دَيَّارًا ﴾: أي من يسكن الديار). وقال الضحاك: (واحداً).

وأصل ﴿ دَيَّارًا ﴾ الذي يدور في الأرض فيذهب ويجيء، وهو فيْعال من الدوران ديواراً، فاجتمعت الياء والواو فأدغمت الواو فيها وصيرتا ياء مشددة، كما قيل: الحيّ القيام من قمت، وإنما هو قيوام. ذكره ابن جرير ثم قال: (والعرب تقول ما بها ديار ولا عريب، ولا دوي، ولا صافر، ولا نافخ ضرمة، يعني بذلك كله: ما بها أحد). وقال القُتَبيّ: (أصله من الدار، أي نازل بالدار. يقال: ما بالدار ديار، أي أحد).

وفي صحيح مسلم ـ كان من دعاء النبي ﷺ على الأحزاب يوم الخندق ـ: [اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم][1].

وقوله: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ﴾. أي: إن تركتهم ولم تهلكهم يضلوا عبادك الذين قد آمنوا بك، ومَنْ سيجيء بعدهم.

وقوله: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾. أي: ولا يكون في عقبهم ونسلهم ﴿ إِلَّا فَاجِرًا ﴾ في دينك ﴿ كَفَّارًا ﴾ لنعمتك. قال النسفي: (﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ إلا من إذا بلغ فجر وكفر، وإنما قال ذلك لأن الله تعالىٰ أخبره بقوله: لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن).

وقوله: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾. قال القرطبي: (دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين.

وهما: لمك بن مُتَوَشْلِخ، وشمخىٰ بنت أنوش، ذكره القشيري والثعلبي).

وقيل: (﴿ وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾: آدم وحواء). والأول أقرب، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾. قال الضحاك: (يعني مسجدي). وظاهر الآية يشمل كل من دخل منزله وهو مؤمن، فهو داخل في دعوته.

وفي سنن أبي داود والترمذي بسند حسن عن أبي سعيد: أنه سمع رسول الله ﷺ

= والطيالسي (753)، وأحمد (4/ 287 ـ 288)، ورواه النسائي (1/ 282) نحوه.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3/ 1363). وانظر كتابي: السيرة النبوية (2/ 919) لتفصيل ذلك.

يقول: [لا تَصْحَبْ إلا مؤمناً ، ولا يأكُلْ طعامَكَ إلا تقِيّ][1].

وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. دعوة تشمل كل مؤمن ومؤمنة.

قال الضحاك: (عامة إلى يوم القيامة). وقال ابن كثير: (دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يَعُمُّ الأحياء منهم والأموات ، ولهذا يُسْتَحبُّ مثلُ هذا في الدعاء ، اقتداء بنوحٍ عليه السلام ، وبما جاء في الآثار والأدعية المشروعة).

قلت: ومن ذلك ما أخرج الطبراني بسند حسن عن عبادة ، عن النبي ﷺ قال: [من استغفر للمؤمنين وللمؤمنات ، كتبَ الله له بكلِّ مُؤمنٍ ومؤمنةٍ حسنة][2].

وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾. قال مجاهد: (إلا خساراً). وقال السُدِّي: (إلا هلاكاً). والتبار: الهلاك والدمار.

والمقصود: دعا نوح عليه الصلاة والسلام على الكافرين أن لا يزدادوا في إصرارهم على كفرهم إلا دماراً وهلاكاً وخساراً في الدنيا والآخرة ، وهي دعوة تشمل كل كافر ومشرك إلى يوم القيامة.

تم تفسير سورة نوح
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
صبيحة يوم الجمعة 23 ـ شوال ـ 1426 هـ
الموافق 25 ـ تشرين الثاني ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (4832) ، والترمذي (2395) ، ورواه أحمد (3/ 38).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني بسند حسن من حديث عبادة مرفوعاً. انظر: «مجمع الزوائد» (10/ 210) وقال: «وإسناده جيد». وصحيح الجامع الصغير (5902).

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ أمر الله نوحاً ﷺ أن ينذر قومه بأس الله قبل حلوله .

2 ـ لم تزد دعوة نوح ﷺ لقومه إلا فراراً من رسالته .

3 ـ مَنْ أحَبَّ أن يُبْسَط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه .

4 ـ صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة .

5 ـ نوّعَ نوحٌ ﷺ لقومه أسباب الترغيب والترهيب بلا فائدة .

6 ـ أصنام قوم نوح هي تماثيل لرجال صالحين سابقين .

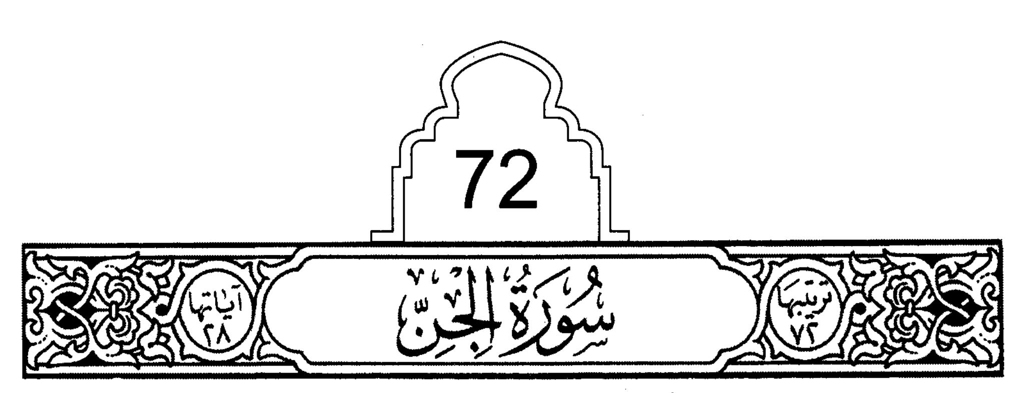
7 ـ عذاب القبر حق ، والكافر يفرش له في قبره من النار .

8 ـ لا تصحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي .

9 ـ دعاء نوح ﷺ باستئصال الكافرين والمغفرة للمؤمنين خلّده القرآن الكريم .

10 ـ من استغفر للمؤمنين والمؤمنات ، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (28).

قال المهايميّ: (سميت بها لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم في تحسين الإيمان ، وتقبيح الكفر ، مع كون أقوالهم أشد تأثيراً في قلوب العامة ، لتعظيمهم إياهم).

أسباب النزول: أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس قال: [انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين. فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث ؟! فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (في الصحيح 773) ، ومسلم (449/ 149) ، والترمذي في السنن (3323) ، ورواه أحمد في المسند (1/ 252) ، والبيهقي في «الدلائل» (2/ 226).

موضوع السورة

استماع الجن للقرآن الكريم
وافتراق أقوامهم إلى صالحين وفاسقين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إخبار الله تعالىٰ عن استماع نفر من الجن هذا القرآن ، وإعلان إيمانهم به وتكذيب زعيمهم الشيطان ، وأتباعه من شياطين الإنس والجان .

2 ـ اعتراف الجن بالشهب الحارقة تمنعهم خبر السماء ، وأن أهل الأرض يذوقون بسبب ذنوبهم الشقاء .

3 ـ انقسام الجن إلى فريقين : مؤمنين وفاسقين . فأهل الإيمان آمنون في جنات النعيم ، وأهل الفسق خالدون مع إبليس في نار الجحيم .

4 ـ إثبات المساجد لله فلا يعبد فيها إلا الله العظيم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، ومن أصر على الشرك والمعصية صار يوم القيامة إلى الجحيم .

5 ـ إثبات علم الغيب وأمر الوعد والوعيد لله العلي العظيم ، فهو سبحانه قد أرسل الرسل وعَلِمَ أعمالهم وأحصىٰ كل شيء في كتاب مبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 7. **قوله تعالىٰ:** ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالىٰ عن استماع نفر من الجن هذا القرآن، وإعلان إيمانهم به وكذب زعيمهم الشيطان، وكذلك أتباعه من شياطين الإنس والجان.

فقوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾. أي: قل يا محمد مخبراً قومك: أوحىٰ الله إلي أن نفراً من الجن استمعوا هذا القرآن. والنّفر جماعة من الثلاثة إلى العشرة. وقوله: ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: جن نصيبين.

وقوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾. قال النسفي: (﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم حين رجعوا إليهم من استماع قراءة النبي ﷺ في صلاة الفجر ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ عجيباً بديعاً مبايناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه، والعجب ما يكون خارجاً عن العادة، وهو مصدر وضع موضع العجيب).

وقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾: أي إلى السّداد والنجاة والفلاح. وهو منهج التوحيد والحق والإيمان.

وقوله: ﴿فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾. أي: فصدقناه ولن نشرك بربنا أحداً من خلقه.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾. الجدّ في لغة العرب: العظمة والجلال. أي: تعالت عظمته وتقدس أمره وفضله جل جلاله. قال ابن عباس: (﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: فِعْلُهُ وأمرُه

وقدرتُه). وقال أيضاً: (جدُّ الله: آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه). وقال مجاهد: (﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾: جلال ربنا). وقال قتادة: (تعالىٰ جلالُه وعظمته وأمره). وقال السُّدِّي: (تعالىٰ أمرُ ربنا). وقال سعيد بن جبير: (تعالىٰ ربُّنا).

وفي الصحيحين من حديث المغيرة مرفوعاً: [ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجد](1). قال أبو عبيدة والخليل: (أي ذا الغنىٰ، منك الغنىٰ، إنما تنفعه الطاعة).

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾. هو تنزيهٌ من مؤمني الجن ـ حين أسلموا وآمنوا بالقرآن ـ لله تعالىٰ أمره وجلت قدرته، عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾. أي: وأنه كان يقول إبليس على الله جوراً وظلماً، وباطلاً وزوراً. قال مجاهد: (﴿سَفِيهُنَا﴾ يعنون إبليس). وقال السُّدي، عن أبي مالك: (﴿شَطَطًا﴾، أي: جوراً). وقال ابن زيد: (ظُلماً كبيراً). قال ابن كثير: (ويُحتمل أن يكون المرادُ بقولهم: ﴿سَفِيهُنَا﴾: اسمَ جنس لكل من زَعَم أن لله صاحبةً أو ولداً. ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾، أي: قبل إسلامِه ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾، أي: باطلاً وزُوراً).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

قال القرطبي: (﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي حسبنا ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولداً، حتىٰ سمعنا القرآن وتَبَيَّنّا به الحقّ).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. ترهيب من التعامل مع الجن، كالاستعاذة بهم أو استخدامهم في السحر والإضلال.

قال السُّدي: (كان الرجل يخرُج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذُ بسيِّد هذا الوادي من الجِنّ أن أُضَرَّ أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشِيتي، قال: فإذا عاذَ بهم من دون الله رَهقَتهم الجنّ الأذىٰ عند ذلك).

وقال عكرمة: (كان الجن يَفْرَقُون من الإنس كما يفرَقُ الإنس منهم أو أشد، فكان الإنسُ إذا نزلوا وادياً هَرَبَ الجنُّ، فيقول سَيِّدُ القوم: نعوذ بسيِّد أهل هذا الوادي. فقال الجِنُّ: نراهُم يَفْرَقُونَ منا كما نَفْرَقُ منهم. فدنَوا من الإنس فأصابوهم بالخَبَلِ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6330)، ومسلم (593) من حديث المغيرة في أثناء حديث.

والجُنونِ ، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾). رواه ابن أبي حاتم.

وقال قتادة: (﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ، أي إثماً ، وازدادت الجنُّ عليهم جَرَاءَةً).

وقال أبو العالية: (﴿رَهَقًا﴾ ، أي: خوفاً). وقال مجاهد: (زاد الكفارُ طغياناً).

والمقصود: لما رأت الجن التماس بعض الإنس الفرج منهم تسلطوا عليهم بمزيد من الخوف والإرهاب والذعر والطغيان ، حتىٰ أوقعوهم في الشرك الأكبر والموبقات والظلم والآثام.

وفي التنزيل نحو ذلك: قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 128 ـ 129].

قال ابن عباس: (﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ يعني أضللتم منهم كثيراً). وقال مجاهد: (كثر من أغويتم). فحكىٰ الله إجابتهم بقوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾. والتقدير في العربية: استمتع بعضنا بعضاً.

قال ابن جريج: (كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي ، فذلك استمتاعهم ، فاعتذروا يوم القيامة).

وقال القرطبي: (فاستمتاع الجن من الإنس أن تلذذوا بطاعة الإنس إياهم ، وتلذذ الإنس بقبولهم من الجن حتىٰ زنوا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم).

وقيل: وأما استمتاع الجن بالإنس فبما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر. وقيل: استمتاع الجن بالإنس أنهم يعترفون أن الجن يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون.

وعن ابن زيد: (﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾: ظالمي الجن وظالمي الإنس ، وقرأ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36] ، قال: نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس).

قلت: فهذا التسليط من الله تعالىٰ لظلمة الجن على ظلمة الإنس داخل في مفهوم قوله جلت عظمته: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾.

إخبارٌ من الله سبحانه عن قيل هؤلاء النفر من الجن: عن ظنهم أن لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً يدعوهم إلى التوحيد ويصحح له المسار، كما ظن بعض رجال الإنس. قال الكلبي: (ظن كفار الجنّ كما ظن كفرة الإنس أن لن يبعث الله رسولاً). واختاره ابن جرير.

ويجوز أن يكون المعنىٰ أن الجن ظنوا كما ظننتم يا أهل مكة أنه لا بعث بعد الموت. قال النسفي: (أي إن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم، ثم بسماع القرآن اهتدوا وأقروا بالبعث فهلا أقررتم كما أقروا).

8 ـ 10. قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)﴾.

في هذه الآيات: اعترافُ الجن بالشهب الحارقة التي أصبحت تمنعهم خبر السماء، وحسن أدبهم في نسب إرادة الرشد لربهم وأنه يذوق أهل الأرض بِسبب ذنوبهم الشقاء.

فقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾. قال النسفي: (طلبنا بلوغ السماء واستماع أهلها. واللمس: المس، فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف).

وقوله: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾. قال ابن جرير: (يعني حفظة).

والمقصود: فوجدنا جمعاً أقوياء من الملائكة يحرسون ويمنعون الجن من الاقتراب.

وقوله: ﴿وَشُهُبًا﴾. جمع شهاب، وهي النجوم التي كانت تُرجم بها الشياطين.

والمقصود: أن الشياطين كانت تسترق السمع من السماء مما تتكلم به الملائكة مما قضىٰ الله به في الأرض، فيلقونه إلى الكهنة والسحرة ليضلوا الناس عن الدين الحق، فلما بُعِثَ النبي ﷺ حفظ الله السماء بالحرس الشديد والشهب الحارقة، فطرِدت الشياطين عن مقاعدها، وهذا من لطف الله بخلقه، وحفظه لكتابه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

قال قتادة: (كانت الجن تسمع سمع السماء ، فلما بعث الله نبيّه ، حُرست السماء ، وُمنعوا ذلك ، فتفقّدت الجنّ ذلك من أنفسها).

والرَّصَد: الحافظ للشيء والجمع أرصاد ، وقيل: الرصد هو الشهاب ، أي شهاباً قد أرصد له ليرجم به.

أخرج البخاري في صحيحه عن عكرمة قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: [إن نبيَّ الله ﷺ قال: إذا قضىٰ الله تعالىٰ الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان[1] ، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلىٰ من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلىٰ من تحته حتىٰ يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مئة كذبة ، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء][2].

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: [كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً. فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوه فيكون باطلاً. فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمىٰ بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين ـ أراه قال بمكة ـ فلقوه فأخبروه هذا الحدث الذي حدث في الأرض][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾.

قال ابن كثير: (أي لا ندري أشر أريد بأهل الأرض أم رشد ، وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل). وقال ابن القيم: (قول مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ فأتوا بالفعل المبني للمجهول تأدباً ولم يقولوا أراده ربهم. وكذلك قول الخضر في السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: 79] ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها بينما قال في الغلام:

---

(1) أي تجر على حجر أملس.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4710) ، كتاب التفسير ، وقد مضىٰ بتمامه.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2648) ، كتاب التفسير ، سورة الجن.

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: 82].

وقال في موضع آخر: (ومن ذلك الأدب الرفيع قول إبراهيم ﷺ: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطفاً على قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: 78 ـ 79]. فنسب كل الخير لله سبحانه، وتأدب مع الله فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل وإذا أمرضني، مع أن الخلق كله لله، ولكن ما أصابه من مرض ينسبه إلى سبب من الذنب أو التقصير في حق الله تبارك وتعالىٰ. ومثله قول موسىٰ عليه السلام لما تمتع بالقوة وأدْهَشَ من حوله أمام البئر قال متأدباً متواضعاً لله: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]. ومثله قول أيوب: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83]. فهو غاية في الأدب مع الله نسب الضر وإصابته له لتقصير منه فمسَّه، ولم يقل فعافني واشفني بل قال متواضعاً مخبتاً مستسلماً لله: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. وكذلك قال آدم من قبل: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] ولم يحتج بالقضاء والقدر)[1].

قلت: وهذا الأدب الرفيع قد ورد في السنة الصحيحة في أحاديث، منها:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب ـ في استفتاح النبي ﷺ في صلاة الليل ـ: [أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسنِ الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخيرُ كُلُّهُ في يَدْيكَ، والشَّرُ ليس إليك، أنا بِكَ وإليكَ] الحديث[2].

فقوله: «والشرّ ليس إليك» يمثل تأدباً رفيعاً مع الله سبحانه، فهو ينسب الذنب والتقصير والمصائب لنفسه مع أن الكل من خلق الله وتقديره.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [سَيِّدُ الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك وَوَعْدِك ما استطعت، أعوذ بك من شَرِّ ما صَنَعْتَ، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفرلي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل

(1) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين. وانظر كتابي: «أصل الدين والإيمان» (1/ 307 ـ 308).
(2) حديث صحيح. رواه مسلم (771)، كتاب صلاة المسافرين. وهو جزء من حديث أطول.

وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة][1] .

فهذا الحديث هو سيد الاستغفار ، فقد جمع من أبلغ الأدب وأرفع الخصال ، فلفظة «أبوء» تعني أُقِرُّ وأعترف فيها من الأدب الكثير ، فرتب الله على صاحبها الجزاء الكبير .

11 ـ 17 . **قوله تعالىٰ** : ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ .

في هذه الآيات : انقسام الجن إلى فريقين : مؤمنين وفاسقين ، فأهل الإيمان آمنون في جنات النعيم ، ومن فسق عن أمر الله كان مع إبليس في نار الجحيم .

فقوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ . أي : منا المسلمون العاملون بطاعة الله ، ومنا غير ذلك . قال ابن عباس : (منا المسلم ، ومنا المشرك) .

وقوله : ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ . قال عكرمة : (يقول : أهواء مختلفة) . وقال قتادة : (كان القوم على أهواء شتىٰ) . وقال مجاهد : (﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ قال : مسلمين وكافرين) . وقال ابن زيد : (صالح وكافر) .

والطرائق : جمع طريقة ، والمقصود طريقة الرجل ومذهبه . والقِدد : جمع قِدَّة ، وهي الضروب والأجناس المختلفة . قال الرازي : (و«القِدّةُ» ـ بالكسر ـ الطريقة والفِرْقَةُ من الناس ، إذا كان هَوَى كُلّ واحدٍ على حِدَةٍ ، يقال : ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾) . قال ابن جرير : (﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ يقول : وأنا كنا أهواء مختلفة ، وفِرَقاً شتىٰ ، منا المؤمن والكافر) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (6306) ، كتاب الدعوات . باب أفضل الاستغفار .

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. أي: وأنا علمنا أننا لن نعجز الله في الأرض إن أراد بنا سوءاً. قال النسفي: (﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أيقنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ﴾ لن نفوته ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال، أي لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها).

وقوله: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾. قال القرطبي: (أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله: أنا في قبضته وسلطانه، لن نفوته بهرب ولا غيره. و﴿هَرَبًا﴾ مصدر في موضع الحال أي هاربين).

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾. فَهُم يفتخرون بذلك، وهو مَفْخَرٌ لهم بحق، وشرف رفيع. أي: وأنا لما سمعنا القرآن آمنا به وبالله، وصدّقنا محمداً ﷺ على رسالته. قال الحسن: (بعث الله محمداً ﷺ إلى الإنس والجن، ولم يبعث الله تعالىٰ قط رسولاً من الجن، ولا من أهل البادية، ولا من النساء، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: 109]).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر مرفوعاً: [بعثت إلى الأحمر والأسود]. قال مجاهد: (يعني الإنس والجن). فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مُبَلِّغاً لهم عن الله تعالىٰ ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز.

وقوله: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾. البخس: النقصان. والرَّهق: العدوان. قال ابن عباس: (فلا يخاف أن يُنْقَصَ من حسناته أو يحمل عليه غيرُ سيئاته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: 112]).

وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾. القاسط: الجائر، لأنه عادل عن الحق، والمُقْسِطُ: العادل، لأنه عادل إلى الحق. والعرب تقول: قَسَطَ فلان: أي جار، وأقسط: إذا عدل. والمعنىٰ: وأنا منا المسلمون الذين خضعوا لله بالطاعة ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن الإسلام وقصد السبيل. قال ابن عباس: (﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾: العادلون عن الحق). وقال مجاهد: (الظالمون). وقال قتادة: (الجائرون).

وقوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾. أي: فمن استقام على الحق وخضع لله بالطاعة فأولئك ترجّوا رشداً في دينهم والتمسوا سبيل النجاة والفلاح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾. أي: وأما الجائرون عن الإسلام الملتمسون غير سبيل المؤمنين ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وقوداً توقد بهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

قال ابن عباس: (يعني بالاستقامة: الطاعة. فأما الغدق فالماء الطاهر الكثير).

وقال مجاهد: (﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ قال: نافعاً كثيراً، لأعطيناهم مالاً كثيراً). والعرب تقول: غدِقَت العينُ تغدَق، فهي غَدِقة، إذا كثر ماؤها. والمقصود بالآية أن الاستقامة على الدين الحق سبب في سعة الرزق وإقبال الدنيا. قال قتادة: (يقول: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا). وقال: (لو اتقوا لوسَّعَ عليهم في الرزق). وقال الربيع: (﴿مَّآءً غَدَقًا﴾: عيشاً رغداً).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 ـ 3].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي في السنن بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: [لو أنكم كُنتم تَوَكَّلونَ على الله حقَّ توكّلِهِ لَرُزِقْتُم كما تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِماصاً، وتروح بِطاناً][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله تعالىٰ يقول: يا ابنَ آدم تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غنىٰ وأسُدَّ فقرك، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أسُدَّ فقرك][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي في الجامع بسند صحيح عن أنس، عن النبي ﷺ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4164)، وأحمد في المسند، والترمذي في الجامع. انظر صحيح سنن الترمذي (1911).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3/ 308)، وأحمد (2/ 358)، وابن ماجة (2/ 525)، وابن حبان (2477). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1359).

قال: [من كانت الآخرة همَّهُ ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة . ومن كانت الدنيا هَمَّهُ ، جعلَ الله فقره بين عينيه ، وفرَّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له][1] .

وقوله : ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ . أي لنختبرهم فيه . قال قتادة : (لنبتليهم فيه) . وقال زيد بن أسلم : (لنبتليهم من يستمرُّ على الهداية ممَّن يرتد إلى الغواية) .

والمقصود: أنَّ الاستقامة على الحق والهدىٰ يغدق الله بها على أهلها الرزق الوفير والسعة في الدنيا ، وهذا الإغداق بحد ذاته موضع امتحان للعباد واختبار لهم ، وكثير من الناس يضعف شكره لله عند انفتاح الدنيا وزينتها .

أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي الدرداء قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقرَ ونتخوفه . فقال : [آلْفَقْرَ تخافون ؟ والذي نَفْسي بيده لَتُصَبَّنَّ عليكمُ الدنيا صَبّاً حتىٰ لا يُزيغَ قَلْبَ أحدِكُم إزاغَةً إلاهِيَهْ . وَايْمُ الله لقد تركْتُكُم على مِثْلِ البيضاء ، ليلُها ونهارُها سواء][2] .

وبعض المفسرين ذهب إلى تأويل قوله تعالىٰ : ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ قال طريقة الضلالة ، والراجح ما ذكرناه ، وهو المناسب للسياق ، والله تعالىٰ أعلم .

وقوله : ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ . أي : ومن يعرض عن هذا القرآن ، ومتابعة النبي عليه الصلاة والسلام ، يسلكه الله عذاباً صعباً شاقاً شديداً .

قال ابن عباس : (﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ يقول : مشقة من العذاب يصعد فيها) . وقال أيضاً : (﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ قال : جبل في جهنم) . وقال قتادة : (عذاباً لا راحةَ فيه) . أو قال : (صَعوداً من عذاب الله لا راحة فيه) . وقال ابن زيد : (الصعد : العذاب المنصب) .

18 ـ 24 . قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2/ 76) ، وله شاهد عند ابن ماجة (2/ 524) ، وكذلك عند ابن حبان (72) من حديث زيد بن ثابت مرفوعاً ، وإسناده صحيح .

(2) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (5) . باب اتباع سنة رسول الله ﷺ .

بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: إثباتُ المساجد لله فلا يعبد فيها غير الله الواحد الأحد العلي العظيم ، وأنه ما على الرسول إلا البلاغ المبين ، ومَنْ أَصَرَّ على الشرك بالله وعصيانه كان في الآخرة من أهل الجحيم .

فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ . أي: وقل أوحي إليّ أن المساجد لله. وقال الخليل: (أي ولأن المساجد لله). وقال عكرمة: (﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ قال: المساجد كلها). وقال قتادة: (كانت اليهود والنصارىٰ إذا دخلوا كنائِسهم وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيّه أن يوحّد الله وحده).

قال القرطبي: (قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ﴾ إضافة تشريف وتكريم ، ثم خصّ بالذكر منها البيت العتيق فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: 26]).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ . فيه تأويلان:

الأول: أي لما قام محمد ﷺ يدعوهم إلى الله تبارك وتعالىٰ كادت العرب يجتمعون ضده ويزدحمون على حربه وإطفاء النور الذي جاء به.

الثاني: أي لما قام محمد ﷺ يصلي اجتمع أصحابه عليه يصلون بصلاته ويسجدون بسجوده. وكلا المعنيين حق.

و ﴿لِبَدًا﴾ أي جماعات ، من تلبُّد الشيء على الشيء أي تجمع ، ومنه اللِّبْد الذي يفرش لتراكم صوفه ، وكل شيء ألصقته إلصاقاً شديداً فقد لبَّدته. قال الرازي: (ويقال: الناس لُبَدٌ أيضاً أي مُجتمعون).

وعن مجاهد: (﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قال: جميعاً). وقال ابن زيد: (واللبد: الشيء الذي بعضه فوق بعض ، قال: تظاهروا عليه بعضهم على بعض ، تظاهروا على رسول الله ﷺ). وقال قتادة: (تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبىٰ الله إلا أن ينصره ويمضيه ، ويظهره على من ناوأه).

وفي جامع الترمذي بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: [قول الجن لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته

ويسجدون بسجوده قال: تعجبوا من طواعية أصحابه له قالوا لقومهم: لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾. قال ابن كثير: (أي: قال لهم الرسول لمّا آذوه وخالفوه وكذَّبوه وتظاهروا عليه، لِيُبطِلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته: ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى ﴾، أي: أعبدُ ربي وحدَه لا شريك له، وأستجيرُ به وأتوكَّلُ عليه، ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾. أي: قل لهم يا محمد: إن ما جئتكم به هو الحق، ولا أملك أمر هدايتكم أو غوايتكم، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها كيف يشاء، ومن ثمَّ فالهداية أو الإضلال إنما شأن ذلك إليه جلت عظمته وقدرته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾.

قال قتادة: (أي: لا نصيرَ ولا ملجأ). وقال أيضاً: (لا وليَّ ولا موئِل). وقال مجاهد: (﴿ مُلْتَحَدًا ﴾: ملجأ). وقال السدي: (حِرْزاً).

قال القرطبي: (﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أي لا يدفع عذابه عني أحد إن استحفظته. ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ أي ملتجأ ألجأ إليه).

وقوله: ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾. قال الحسن: (فإن فيه الأمان والنجاة). فهو استثناء من قوله: ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ ﴾. أي: لا يخلصني من بأس الله إلا إخلاص إبلاغ الرسالة والدعوة إلى سبيله عز وجل. كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: 67].

ويجوز أن يكون مستثنىً من قوله تعالى ـ في الآية السابقة ـ: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾.

قال قتادة: (فذلك الذي أملكه بتوفيق الله، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما). والتقدير: لا أملك لكم إلا أن أبلغكم. قلت: وكلا المعنيين حق، وفي كل منهما انسجام مع سياق الآيات والبيان والإعجاز.

---

(1) صحيح الإسناد. أخرجه الترمذي بإسناد صحيح عن ابن عباس. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2647)، كتاب التفسير، عند هذه الآية.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ومن يعص الله فيما أمره ونهاه ويكذّب به، ورسوله، فجحد رسالاته، فإن له نار جهنم يصلاها ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يقول: ماكثين فيها أبداً إلى غير نهاية).

ونصب: ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ على الحال، وجُمعَ لأن المقصود وصف مصير كل من فعل ذلك. فوُحِّدَ أوّلاً للفظ «مَنْ» ثم جمع للمعنىٰ.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾. قيل: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا مبتدأ. والتقدير: حتىٰ إذا رأوا عذاب الآخرة الذي يوعدون، أو عذاب الدنيا قبله من القتل يوم بدر والخزي، هنالك سيعلمون. ـ حكاه القرطبي.

وقيل: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ متعلق بمحذوف دلت عليه الحال. والتقدير: لا يزالون على ما هم عليه حتىٰ ﴿إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾. حكاه النسفي.

وقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾. أي: فسيعلمون عند حلول العذاب بهم ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾: أهم أم المؤمنون المخلصون التوحيد والتعظيم لله عز وجل. أي: بل المشركون في حال خزي تام ومذلة يومئذ لا ناصر لهم بالكلِّية، وهم أقلُّ عدداً من جنود الله عزّ وجل التي ستحيط بهم وتحاصرهم إلى أشد العذاب.

25 ـ 28. قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ علم الغيب وأمر الوعد والوعيد لله العلي العظيم، فهو سبحانه قد أرسل الرسل وعلم أعمالهم وأحصىٰ كل شيء في كتاب مبين.

فقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾.

قال القرطبي: (يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا، أي لا أدري، فـ ﴿إِنْ﴾ بمعنىٰ «ما» أو «لا». أي لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله).

وقوله: ﴿أَمَدًا﴾ ـ أي غاية وأجلاً. قال النسفي: (﴿أَمَدًا﴾ غاية بعيدة، يعني أنكم تعذبون قطعاً، ولكن لا أدري أهو حالّ أم مؤجل).

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾. أي هو عالم الغيب، والغيب ما غاب عن العباد.

وقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾. قال ابن عباس: (فأعلم الله سبحانه الرسل من الغيب الوحي وأظهرهم عليه بما أوحىٰ إليهم من غيبه، وما يحكم الله، فإنه لا يعلم ذلك غيره).

وعن قتادة: (﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه يصطفيهم، ويطلعهم على ما يشاء من الغيب). وقال ابن زيد: (ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء، أنزل على رسول الله ﷺ الغيب القرآن، قال: وحدثنا فيه بالغيب بما يكون يوم القيامة).

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾. قال قتادة: (الملائكة).

وقال ابن عباس: (هي معقبات من الملائكة يحفظون النبي ﷺ من الشيطان حتىٰ يتبين الذي أرسل به إليهم، وذلك حين يقول: ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم).

وقال إبراهيم النخعي: (الملائكة رصد من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من الجن).

وغاية المعنىٰ أن يقال: إنّ الله تعالىٰ يختصّ رسوله بمزيد من مُعَقِّباتٍ من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويعصمونه من الشياطين ووساوسهم وتخاليطهم حتىٰ يبلغ الوحي.

وقوله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾. فيه تفاسير، حسب عودة الضمير:

1 ـ قيل: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ عائد على النبي ﷺ. قال سعيد بن جبير: (ليعلم محمد ﷺ). وقال قتادة: (ليعلم نبيُّ الله أن الرسلَ قد بَلَّغَت عن الله، وأن الملائكةَ حفظتها ودفعت عنها). ـ واختاره ابن جرير.

2 ـ قيل: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ ـ عائد علىٰ من كذّب الرسل. قال العوفي عن ابن عباس: (﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾، قال: هي مُعَقِّبات من الملائكة يحفظون النبي من الشيطان، حتىٰ يتبيَّن الذي أُرسِلَ إليهم، وذلك حين يقولُ: ليعْلَمَ أهلُ الشرك أن قد أُبلغوا رسالاتِ ربهم).

وقال مجاهد: (ليعلمَ من كذَّب الرسل أن قد أبلغوا رسالاتِ ربهم).

3 ـ قيل: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ ـ عائدٌ على الله عز وجل. قال النسفي: (أي ليعلم الله ذلك

موجوداً حال وجوده ، كما كان يعلم ذلك قبل وجوده أنه يوجد).

قلت: وكل ذلك من التأويل المنسجم مع السياق القرآني والإعجاز البياني.

وقوله: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. قال سعيد بن جبير: (ليعلم الرسل أن ربهم أحاط بهم ، فبلغوا رسالاتهم). قال ابن جرير: (يقول: وعلم بكل ما عندهم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ يقول: علم عدد الأشياء كلها ، فلم يخف عليه منها شيء). و﴿عَدَدًا﴾ منصوب على الحال ، أي: وعلم كل شيء معدوداً محصوراً. وقيل: بل هو مصدر في معنىٰ إحصاء ، والله تعالىٰ أعلم.

تم تفسير سورة الجن

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

ظهر الأحد 25 شوال 1426 هـ

الموافق 27 ـ تشرين الثاني ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ اشتراك الجن في بلاغ رسول الله ﷺ ، واستماعهم إليه وهو يقرأ القرآن ، وإيمانهم به وبرسالته .

2 ـ كانت الجن تسمع سمع السماء ، فلما بعث الله نبيّه ، حُرست السماء ، ومُنعوا ذلك .

3 ـ أرسل إبليس سبعة من الجن ليكتشفوا له الخبر فرجعوا مسلمين .

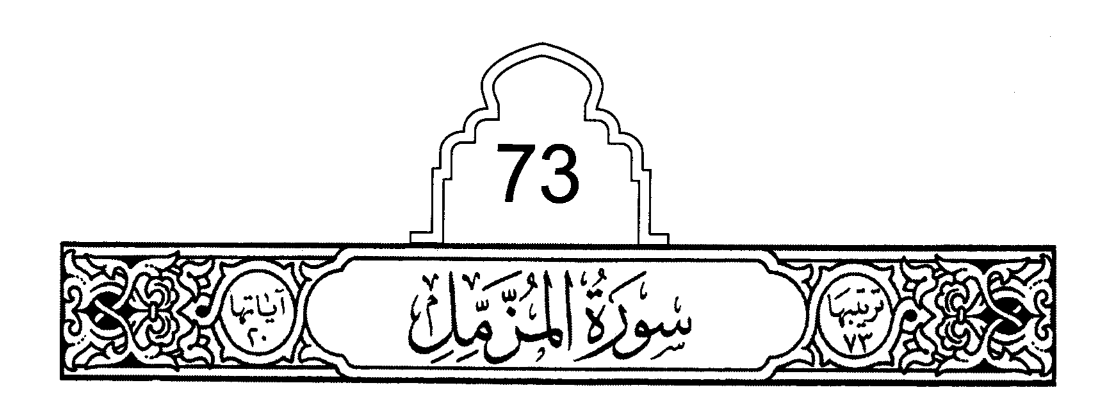
4 ـ الجن فريقان : مسلمون وفاسقون . فمن أسلم نجا ، ومن تمرد هلك .

5 ـ المساجد لله تعالىٰ فلا تدعوا مع الله أحداً .

6 ـ الله يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته .

7 ـ علم الله الأشياء قبل وقوعها ، وأحاط بها ، وأحصاها عدداً .





وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (20).

موضوع السورة

توجيه المزمل عليه الصلاة والسلام
إلى قيام الليل وحمل الأمانة وجهاد الكفار اللئام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ توجيه الوحي الكريم نبي الله والمؤمنين ، إلى توثيق الصلة بالله أيام الشدة عن طريق قيام الليل وذكر الله العظيم.

2 ـ أَمْرُ الله نبيّه بالصبر على أذىٰ أهل الجحيم ، وله في صبر موسىٰ على أذىٰ فرعون وجنده أسوة حتىٰ يأتي النصر المبين.

3 ـ هذه السورة من القرآن فيها تذكرة لأولي الألباب ، وتسلية للنبي ﷺ والأصحاب.

4 ـ كان قيام الله فريضة أول الإسلام ، ثم خفف على أمة هذا النبي عليه الصلاة والسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 9. **قوله تعالىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

في هذه الآيات: توجيهُ الوحي الكريم، نبي الله ﷺ والمؤمنين ـ أيام التعذيب والاضطهاد في مكة من الطغاة على أوائل المسلمين ـ إلى توثيق الصلة بالله عز وجل عن طريق قيام الليل وذكر الله العظيم.

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾. قال الضحاك: (يا أيها النائم). وقال قتادة: (يا أيها المزمل في ثيابه). وقال ابن عباس: (يا محمد زملت القرآن).

وقوله تعالىٰ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أمْرٌ من الله سبحانه رسوله ﷺ أن يترك التُّزَمُّل، وهو التغطّي في الليل، وينهض إلى قيام الليل، فكان واجباً عليه وحده.

وكان هذا بعد مجيء الأمر العام بصلاة ركعتين أول النهار وآخره. قال مقاتل بن سليمان: (فرض الله في أول الإسلام الصلاة، ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي لقوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: 55]). ثم جاء الأمر بتمكين العزيمة في صلاة الليل، وتفصيل ذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: [فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتىٰ انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله

التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً مِنْ بَعْد فريضة][1] .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند جيد عن ابن عباس قال: [لما نزلت أولُ المزّمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتىٰ نزل آخِرُها ، وكان بين أولها وآخِرها سنة][2] .

الحديث الثالث: أخرج ابن جرير في «التفسير» بسنده عن أبي عبد الرحمن قال: [لما نزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ قاموا حولاً حتىٰ ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتىٰ نزلت: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ فاستراح الناس][3] .

وأما قوله: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . فهو استثناء من الليل. قال القرطبي: (أي صلّ الليل كله إلا يسيراً منه ، لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن ، فاستثنىٰ منه القليل لراحة الجسد. والقليل من الشيء ما دون النصف).

وقوله تعالى: ﴿ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ . قال ابن كثير: (﴿ نِّصْفَهُۥٓ ﴾: بَدَلٌ من الليل ، ﴿ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ ، أي: أمرناك أن تقومَ نصفَ الليل بزيادة قليلة أو نُقْصانٍ قليل ، لا حَرَجَ عليك في ذلك).

قلت: وقد جاء الأمر بالتخفيف في آخر هذه السورة رحمة من الله بنبيه ﷺ والمؤمنين.

فقد أخرج أبو داود بسند حسن عن ابن عباس: [قال في المزمل: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ ﴾ نسختها الآية التي فيها: ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [المزمل: 20]][4] .

وقوله: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ . الترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام.

والمقصود: لا تعجل ـ يا محمد ـ بقراءة القرآن ، بل اقرأه في تمهل وتعقل وبيان ، وتدبّر للمعاني والعبر والأحكام.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/ 53 ـ 54). وانظر صحيح مسلم (746) ، كتاب صلاة المسافرين. باب جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (1305) ، كتاب الصلاة. أبواب قيام الليل. باب نسخ قيام الليل. وانظر صحيح سنن أبي داود (1157).

(3) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (35177). وانظر كتابي: السيرة النبوية (1/ 226) لتفصيل البحث.

(4) حديث حسن. أخرجه أبو داود (1304) ، أبواب قيام الليل. باب نسخ قيام الليل.

قال قتادة: (﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾. قال: بيّنه بياناً). وقال مجاهد: (بعضه على أثر بعض، على تؤدة). وقال أيضاً: (ترسل فيه ترسلاً). وقال الحسن: (اقرأه قراءة بينة).

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن قتادة قال: سألتُ أنسَ بنَ مالكٍ عن قِراءة النبي ﷺ فقال: [كانَ يَمُدُّ مَدّاً][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن قتادة قال: [سُئِلَ أنسٌ: كَيْفَ كانَتْ قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانتْ مَدّاً، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يَمُدُّ بِبِاسمِ اللهِ، ويُمُدّ بالرحمٰن، ويَمُدُّ بالرحيم][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن أم سلمة: أنها سُئِلَتْ عن قِراءة رسول الله ﷺ فقالت: [كان يقطع قراءته آية آية، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾][3].

الحديث الرابع: أخرج أحمد وأبو داود والترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُقال لصاحِب القرآن: اقرأ وارق ورتِّل كما كنت تُرَتِّل في الدنيا، فإن منزِلتَك عند آخِر آية تقرؤها][4].

الحديث الخامس: أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: [زَيّنوا القرآن بأصواتكم][5].

الحديث السادس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص، أو سعيد بن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: [ليس منا مَنْ لم يَتَغَنَّ بالقرآن][6].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5045)، كتاب فضائل القرآن. باب مدّ القراءة.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5046)، الباب السابق. وأخرجه ابن حبان (6317).
(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 302)، وأبو داود (1466)، والترمذي (2927). وانظر: «صفة صلاة النبي ﷺ» ص (77). والإرواء (343)، وله شواهد.
(4) حديث حسن. أخرجه أبو داود (1464)، والترمذي (2914)، وأحمد (2/ 192).
(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1468)، والنسائي (2/ 179)، وابن ماجة (1342)، وأحمد (4/ 296)، وابن حبان (749)، وعبد الرزاق (4176).
(6) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1469) في الصلاة. باب استحباب الترتيل في القراءة.

الحديث السابع: أخرج ابن ماجة بإسناد صحيح عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ مِنْ أَحْسَنِ الناسِ صَوْتاً بالقرآن، الذي إذا سَمِعْتُموه يَقْرأُ، حَسِبْتُموه يَخْشىٰ الله][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. أي: إنا سنوحي إليك هذا القرآن، وهو قول ثقيل يثقل حمله والعمل بشرائعه. قال قتادة: (ثقيل والله فرائضُهُ وحدوده). وقال مجاهد: (حلاله وحرامه). وقال الحسن: (العمل به). وقال أبو العالية: (ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام). وقال محمد بن كعب: (ثقيلاً على المنافقين).

وقيل: على الكفار، لما فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان لضلالتهم وسبّ آلهتهم، والكشف عما حرّفه أهل الكتاب. حكاه القرطبي.

وقال الحسين بن الفضل: (ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد). وقال ابن زيد: (هو والله ثقيل مبارك، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة).

قلت: والخلاصة أن هذا القرآن العظيم ثقيل في تنزيله، ثقيل في أحكامه وعبره وآياته، ثقيل في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثقيل في ميزان من عظّمه وقام بما فيه يوم القيامة.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال: [أنزل الله على رسوله ﷺ وفخِذه على فخذِي، فَثَقُلَتْ عليَّ، حتىٰ خِفْتُ أن تَرُضَّ فخذي][2].

وفي صحيح البخاري ـ أيضاً ـ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: [أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزلُ عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقاً][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (1339) في الصلاة. باب في حسن الصوت بالقرآن.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5/ 182). وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 158 ـ 172). البحث التاسع: أقسام الوحي وأنواعه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في مقدمة الصحيح. حديث (2)، كتاب بدء الوحي.

وفي المسند ومستدرك الحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام: أي ربِّ مَنَعْتُه الطعامَ والشهواتِ بالنهار فشفعني فيه. يقول القرآن: ربِّ مَنَعْتُه النومَ بالليل فشفعني فيه، فَيُشفَعان][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾.

يقال نشأ: إذا قام من الليل. قال مجاهد: (إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم). وفي الصحاح: (ناشئة الليل أول ساعاته، وقيل ما ينشأ فيه من الطاعات) ذكره الرازي. وعن قتادة: (﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾: أي أثبت في الخير، وأحفظ في الحفظ). وقال مجاهد: (يواطئُ سمعك وبصرك وقلبك بعضه بعضاً). وفي سنن أبي داود بسند حسن عن ابن عباس قال: [و﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أوله، وكانت صلاتهم لأول الليل. يقول: هو أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متىٰ يستيقظ، وقوله: ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ هو أجدر أن يفقه في القرآن][2].

وعن ابن زيد: (﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾: أقوم قراءة لفراغه من الدنيا).

قلت: والمقصود بناشئة الليل ساعاته وأوقاته التي ينهض بها العبد للقيام بين يدي الله عز وجل، فهي ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة. فقم بها ـ يا محمد ـ وأؤمر قومك ليقوموا فيها، فإن السكينة والقوة ستنزل على قلوبهم وستصقل بها نفوسهم وعقولهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾. أي تصَرُّفاً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً. قال مجاهد: (﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾: متاعاً طويلاً).

والسَّبْح: الجري والدوران، ومنه السابح في الماء، لتقلبه بيديه ورجليه.

وقيل: السبح الفراغ. أي إن لك فراغاً للحاجات بالنهار.

ففي سنن أبي داود بسند حسن عن ابن عباس قال: [وقوله: ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ يقول: فراغاً طويلاً][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد والطبراني والحاكم. انظر تخريج المشكاة (1963)، والترغيب (2/ 60)، ورواه البيهقي. انظر صحيح الجامع الصغير (3776).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (1304)، أبواب قيام الليل. انظر: صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1156).

(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1156)، أبواب قيام الليل. باب نسخ قيام الليل. وهو خاتمة حديث قد مضىٰ أوله.

قلت: والراجح في المعنىٰ: إن ـ لك يا محمد ـ في النهار وقتاً لحوائجك وأمور حياتك ، فأفرغ الليل واملأ القلب من القرآن والناس نيام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾.

أي: واذكر ربك يا محمد ، وأكثر من ذكره ، وانقطع إليه ، وتفرغ لعبادته.

والتبتل: الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل. وفي لغة العرب: بتلت الشيء أي قطعته.

والمقصود: انقطع بعبادتك إلى الله ولا تشرك به غيره.

وعن ابن عباس: (﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ قال: أخلص له إخلاصاً). وقال مجاهد: (أخلص إليه المسألة والدعاء). وقال الحسن: (بَتِّل نفسك واجتهد).

وقال قتادة: (أخلص له العبادة والدعوة). وقال ابن زيد: (أي تفرّغ لعبادته).

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ [الشرح: 7 ـ 8].

وفي المسند وجامع الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله تعالىٰ يقول: يا ابنَ آدم تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غنىٰ وأسُدَّ فقرك ، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أسُدَّ فقرك][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾.

أي: هو رب المشارق والمغارب المتفرد بالملك والجبروت فلا يستحق العبادة غيره ، فأفرده بالتعظيم والتأليه والتوكل. قال القرطبي: (﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أي قائماً بأمورك. وقيل: كفيلاً بما وعدك).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: 123].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: 5].

وقد كان من دعائه ﷺ: [اللهم لك أسلمت ، وبك آمنتُ ، وعليك توكّلتُ ، وإليك أنَبتُ ، وبكَ خاصمتُ ، اللهم إني أعوذُ بعزتك ، لا إله إلا أنت ، أن تُضِلَّني ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 358) ، والترمذي (3/ 308) ، وابن ماجة (2/ 525) ، وأخرجه ابن حبان (2477). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1359).

أنت الحيُّ الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون][1] .

10 ـ 18 . **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨ ﴾ .

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالىٰ نبيه ﷺ بالصبر على ما يقوله المكذبون من سفهاء قومه وهجرهم الهجر الجميل الذي لا عتاب معه فإن الله أعد للمجرمين عذاب الجحيم ، وقد أرسل إلى فرعون موسىٰ من قبل فاستكبر هو وجنوده حتىٰ نزل بهم العذاب الأليم .

فقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ . قال القرطبي : (﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي من الأذىٰ والسبّ والاستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ، ولا تمتنع من دعائهم . ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ أي لا تتعرض لهم ، ولا تشتغل بمكافأتهم ، فإن في ذلك ترك الدعاء إلى الله ، وكان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعدُ بقتالهم وقتلهم) . وقال قتادة: (قوله: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ براءة نسخت ما ها هنا ، أمر بقتالهم حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لا يقبل منهم غيرها) .

وقال أبو الدرداء: (إنا لَنَكْشِرُ في وجوه أقوام ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم) .

وقوله: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾ . قال ابن كثير: (أي: دَعني والمكذِّبين

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 302) ، ورواه مسلم في الصحيح ، كتاب الذكر ، ورواه البخاري مختصراً في كتاب التوحيد. من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

المُترَفين أصحابَ الأموال ، فإنهم أقدرُ على الطاعة من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم).

وقوله: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ . يعني رويداً. أي إلى مدّة آجالهم. وقيل: إلى مدة الدنيا.

قال قتادة: (إن لله فيهم طَلِبة وحاجة). قالت عائشة: (لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسير حتىٰ كانت وقعة بدر). رواه ابن جرير بسنده إلى عبد الله بن الزبير عن عائشة.

وفي التنزيل: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ . قال ابن عباس وعكرمة: (﴿أَنكَالًا﴾: قيوداً).

وقال مجاهد: (الأنكال: القيود). وواحدها نِكْل ، وهو ما منع الإنسان من الحركة.

وقيل: سمّي نِكلاً ، لأنه يُنَكَّلُ به. والجحيم: السعير المضطرمة.

وقوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ . أي: طعاماً يغُصُّ به آكله فلا هو سالك ولا خارج.

قال ابن عباس: (يَنْشِب في الحلق فلا يدخلُ ولا يخرُج).

وقوله: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ . أي: وعذاباً مؤلماً موجعاً.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ . أي: تُزَلزل فتتحرك وتضطرب بمن عليها.

ونصب ﴿يَوْمَ﴾ على الظرفية ، والتقدير: ينكل بهم ويعذبون ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ﴾ .

وقيل: بنزع الخافض ، والتقدير: هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض والجبال.

وقوله: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ . قال مجاهد: (ينهال). وقال ابن عباس: (الكثيب المهيل: الرمل السائل. أو قال: اللين الذي إذا مسسته تتابع).

وفي لغة العرب: هلت الرمل إذا حُرِّك أسفله. والمهيل: الذي يمرّ تحت الأرجل. والمعنىٰ: تصير الجبال يومئذ ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة صماء.

ثم إنها تُنْسَفُ نسفاً لا يبقىٰ لها أثر ، حتىٰ تصير الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ [طه: 106 ـ 107] أي: وادياً ، ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أي رابية.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ . الخطاب لقريش ، والمراد سائر الناس. قال ابن جرير: (﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ بإجابة من أجاب منكم دعوتي ، وامتناع

من امتنع منكم من الإجابة ، يوم تلقوني في القيامة).

وقوله: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولًا ﴾ . أي: هو كإرسالنا موسىٰ رسولاً إلى فرعون وقومه من قبل ، لإقامة حجة الوحي والنبوة.

وقوله تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذًا وَبِيلًا ﴾ . قال ابن عباس: (شديداً).

قال ابن زيد: (الوبيل: الشّر ، والعرب تقول لمن تتابع عليه الشر: لقد أوبل عليه).

وقال الزجاج: (﴿ أَخۡذًا وَبِيلًا ﴾ أي ثقيلاً غليظاً. ومنه قيل للمطر وابل[1]).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمًا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴾ . توبيخ وتقريع.

أي: كيف تقون أنفسكم إن بقيتم على كفركم عذاب يوم يصير فيه الأطفال الصغار ﴿ شِيبًا ﴾ أي بيض الشعور لشدة هَوْله. وهذا كناية عن شدة الخوف.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال: [يقول الله تعالىٰ يا آدم ! فيقول: لبيك وسعديك والخير كله في يديك. فيقول: أخرج بعث النار ، قال: وما بعث النار ؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين. فعندها يشيب الصغير ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: 2]][2].

وفي رواية: [فحينئذ تضع الحامِلُ حَمْلَها ويشيبُ الوليدُ].

وقوله: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ ﴾. أي: متشققة بذلك اليوم لشدّته وعظيم هوله ، وانفطارها لنزول الملائكة. وقال ابن عباس: (تشقق السماء حين ينزل الرحمن جل وعزّ). وقال مجاهد: (﴿ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ ﴾: مثقلة به). قال النسفي: (﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ ﴾ وصف لليوم بالشدة أيضاً. أي السماء على عظمها وإحكامها تنفطر به أي تنشق ، فما ظنّك بغيرها من الخلائق).

وقوله: ﴿ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴾. أي: كان وعد الله بالقيامة والحساب والجزاء كائناً لا شك فيه ولا خُلْف. وقال مقاتل: (كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كلّه).

19 ـ 20. **قوله تعالىٰ:** ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩

(1) مطر وابل: أي مطر شديد.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4741) ، كتاب التفسير. ورواه مسلم (1/ 139 ـ 140).

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (٢٠) ﴾ .

في هذه الآيات: يخبر جل ذكره أن هذه السورة من القرآن فيها تذكرة يتذكر بها أولو الألباب ، وأن قِيامَ الليل كان فريضة أول الإسلام ثم خفف الله ذلك على النبي والأصحاب .

فقوله : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ . يعني هذه السورة . وقال قتادة : (يعني القرآن) .

وقوله : ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ . قال قتادة : (بطاعة الله) . قال النسفي : (أي فمن شاء اتعظ بها واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوىٰ والخشية) .

ولا شك أن هذه المشيئة مقهورة بمشيئة الله ، فهو أعلم من يستحق الهداية والفضل . كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الدهر : 30] .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ .

أي : إنّ ربك يا محمد يعلم أنك تقوم أقَلَّ من ثلثي الليل مصلياً ، ونصفه وثلثه أحياناً . ويقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك ، وذلك حين فرض عليهم قيام الليل .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ . أي : يعلم مقادير الليل والنهار على حَقائقها ، فيعلم القدر الذي تقومونه من الليل ، وإنما تعلمون أنتم قدْر قيامكم بالتحري والاجتهاد .

وقوله : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ . قال الحسن : (لن تطيقوه) . وقال قتادة : (قيام الليل كتب عليكم) . قال القرطبي : (أي علم أنكم لن تحصوه ، لأنكم إن زدتم ثقل عليكم ، واحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضاً ، وإن نقصتم شقّ ذلك عليكم) .

وقوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ . أي : فعاد عليكم بالعفو ، ورجع من تثقيل إلى تخفيف ،

ومن عُسْرٍ إلى يسر ، فصفح عن التقصير فيما أمرتم به ، وأسقط عنكم فرض قيام الليل .

وقوله : ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : فاقرؤوا من الليل ما تيسر لكم من القرآن في صلاتكم ، وهذا تخفيف من الله عز وجل عن عباده فرضه الذي كان فرض عليهم بقوله : ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾) .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث سعد بن هشام بن عامر ـ أنه قال لعائشة رضي الله عنها ـ أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ. فقالت : ألستَ تَقْرَأُ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ ؟ قُلْتُ : بلىٰ . قالت : [فإنَّ الله عزَّ وجَلَّ افترضَ قِيامَ الليل في أوَّل هذه السورة ، فقام نَبِيُّ الله ﷺ وأصحابُه حولاً ، وأمسك الله خاتِمَتَها اثْنَي عشر شَهْراً في السماء ، حتىٰ أنزل الله ، في آخرِ هذه السورة ، التخفيف ، فصار قيامُ الليل تطوعاً بَعْدَ فريضة][1] .

وقوله : ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ .

أي : علم الله أن سيكون في هذه الأمة أصحاب أعذار في ترك قيام الليل : كالمرضىٰ ، والمسافرين في مكاسبهم ومتاجرهم ، والمنشغلين بما هو أعظم من ذلك وهو أمر الغزو والجهاد لإعلاء كلمة الله في الأرض .

وقوله : ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ . أي فاقرؤوا إن تيسّر عليكم ذلك ، وصلّوا من الليل ما استطعتم . قال ابن كثير : (أي : قوموا بما تَيَسَّرَ عليكمُ منه) .

وقوله : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ . أي : وأقيموا الصلاة المفروضة عليكم ، وأدوا الزكاة الواجبة في أموالكم . والآية مكية ، والمراد الصلاة التي فرضت بمكة أول الإسلام ، وكذلك الزكاة العامة قبل أن تحدد أنصبتها في المدينة .

وقوله : ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ . يعني من الصدقات . قال : عمر بن الخطاب : (هو النفقة في سبيل الله) . وقال زيد بن أسلم : (القرض الحسن النفقة على الأهل) . وقال ابن زيد : (القرض : النوافل سوىٰ الزكاة) . قال القرطبي : (القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالىٰ خالصاً من المال الطيب) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (746) ، كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض . وهو جزء من حديث طويل .

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 245].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: 18].

قال النسفي: (القرض لغة: القطع، فالمقرض يقطع ذلك القدر من ماله فيدفعه إلى غيره، وكذا المتصدق يقطع ذلك القدر من ماله فيجعله لله تعالىٰ، وإنما أضافه إلى نفسه لئلا يَمُنَّ على الفقير فيما تصدق به عليه، وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القربة فلا يكون له عليه منّة، بل المنّة للفقير عليه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الحلال بالإخلاص).

قلت: وقد جاء النص بتحريم القرض الذي يجرّ نفعاً، فهو مخالف للقرض الحسن الذي رضيه الله لعباده ورغّبه بهم.

فقد أخرج أحمد وأصحاب السنن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ بعث عتّاب بن أسيد إلى مكة فقال: [أتدري إلى أين أبعثك؟ إلى أهل الله، وهم أهل مكة، فانْهَهُم عن أربع: عن بيع وسَلَفٍ، وعن شرطين في بيع، وربح ما لم يضمن، وبيع ما ليس عندك][1].

فقوله: «بيع وسلف» فسّره ابن الأثير بقوله: (هو مثلُ أن يقول: بعتُكَ العبد بألف علىٰ أن تسلفني في متاع، أو علىٰ أن تقرضني ألفاً، لأنه إنما يقرضه ليحابيه في الثمن، فيدخل في حدّ الجهالة، ولأن كل قرض جرَّ منفعة فهو رباً).

وقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

«خَيْرَاً» مفعول به ثان لتجدوه. و﴿أَجْرًا﴾ تمييز. والمعنىٰ: كل ما تقدّموه من الصدقات والنفقات في سبيل الله هو خيرٌ مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا.

ففي صحيح البخاري عن عبد الله: [قال النبي ﷺ: أَيُّكُم مالُ وارِثِهِ أَحَبُّ إليه من

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد وأصحاب السنن، والحاكم (2/ 17)، والبيهقي (5/ 313).

مالِهِ ؟ قالوا: يا رسول الله ، ما مِنّا أحدٌ إلا مالُه أحَبُّ إليه. قال: فإنَّ مالَه ما قدَّمَ ، ومالَ وارثِه ما أخَّرَ][1].

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أي وسلوا الله المغفرة لذنوبكم فإنه تعالىٰ غفور رحيم. قال سعيد بن جبير: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما كان قبل التوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ لكم بعدها).

تم تفسير سورة المُزَّمِّل
بِعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر الثلاثاء 27 شوال 1426 هـ
29/ تشرين الثاني /2005 م

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6442) ، كتاب الرقاق. باب ما قدَّمَ من ماله فهو له.

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ أمر الله رسوله بقيام الليل وترتيل القرآن.

2 ـ عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى ربكم ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات.

3 ـ كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته آية آية ، وكان يمدّ مَدّاً.

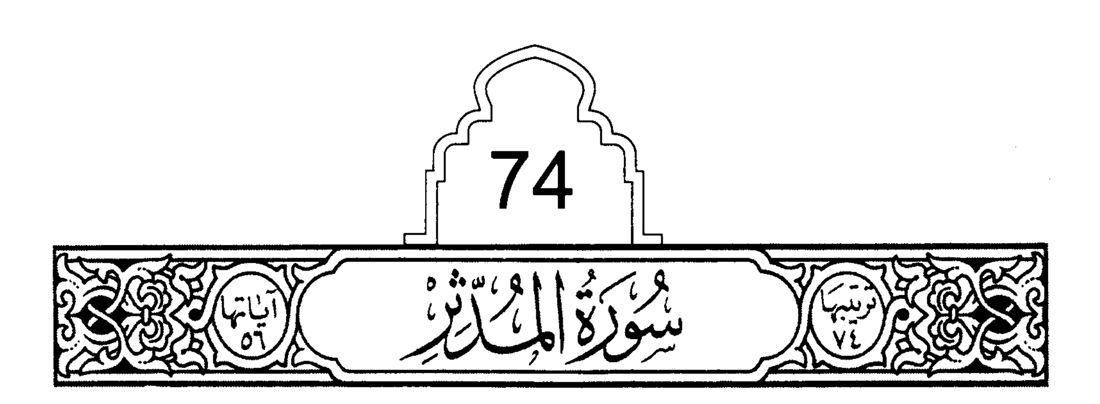
4 ـ إنَّ من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ، الذي إذا سمعتموه يقرأ ، حَسِبْتموه يخشىٰ الله.

5 ـ قيام الليل كان فريضة سَنَة ، ثم خَفَّفَهُ الله إلى تطوع.

6 ـ من يعص الرسول يأخذه الله أخذاً وبيلاً.

7 ـ الصدقة تُطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

8 ـ أفضل أعمالكم ، وأرفعها في درجاتكم ، وأزكاها عند مليككم : ذكر الله تعالىٰ.



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (56).

موضوع السورة

توجيه المدثر عليه الصلاة والسلام
إلى حياة الصبر والجهاد وتبليغ الدعوة للأنام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ أمر الله رسوله بالإنذار ، وتطهير العمل والثياب ، والصبر لله العزيز الحكيم.

2 ـ النفخ في الصور أمر عظيم ، وَوَقْعُ ذلك اليوم على الكافرين أليم.

3 ـ توعُّدُ الله تعالىٰ الوليد بن المغيرة العذاب المهين ، لا تهامه بالسحر كلام الله العظيم.

4 ـ تهديد الله تعالىٰ الكفار بملائكة العذاب تقهرهم في نار الجحيم ، وَعِدّة هؤلاء الملائكة الزبانية الشداد تسعة عشر كما هو مكتوب في كتب أهل الكتابين.

5 ـ إقسام الله تعالىٰ بالقمر والليل والصبح أن جهنم إحدىٰ الكُبَر ، جعلها سبحانه نذيراً للبشر.

6 ـ ارتهانُ كل نفس بكسبها ، ونجاة أصحاب اليمين ، وخزي المجرمين في نار الجحيم.

7 ـ هذا القرآن تذكرة للمتقين ، وما يذكرون إلا بمشيئة الله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 10. **قوله تعالىٰ:** ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بإنذار قومه وتعظيم الله العلي العظيم، وتطهير الثياب والعمل من الشرك والصبر لله العزيز الحكيم، فإنه إذا نفخ في الصور فذلك يوم على الكافرين أليم.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. نزل ذلك بعد قوله تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

فلقد علم النبي ﷺ يقيناً أنه أصبح نبياً بعدما فجئه الملك بغار حراء، وأدرك أن جبريل سفيرُ الوحي الذي ينقل الخبر إليه من الله في السماء، ولكن الوحي فتر أياماً بعد ذلك ـ كما يروي ابن سعد عن ابن عباس ـ قبل أن يعاود المجيء والنداء، وكان ذلك قد أهمَّ النبي ﷺ.

قال ابن حجر في «الفتح»: (وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العود).

وفي الصحيحين واللفظ للإمام مسلم عن أبي سلمة قال: [أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي. فقال في حديثه: فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجثيت منه (وفي رواية للبخاري: فرُعبت منه) حتىٰ هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا

﴿ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾. قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان. ثم حَمِيَ الوحي وتتابع][1].

وكذلك في الصحيحين عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: يا أيها المدثر. قلت: يقولون اقرأ باسم ربك الذي خلق. فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك وقلت له مثلَ الذي قلت، فقال جابر: لا أُحَدِّثُكَ إلا ما حَدَّثنا رسول الله ﷺ. قال: [جَاوَرْتُ بحراء فلما قضيت جواري هَبَطْتُ فاستبطنت الوادي فنويت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، (وفي رواية: فإذا هو على العرش في الهواء، يعني جبريل عليه السلام، فأخذتني رجفة شديدة)، (وفي رواية: فإذا هو جالس على كرسي بين السماء والأرض)، (وفي رواية: على عرش بين السماء والأرض) فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصُبُّوا عليّ ماء بارداً. قال: فدثروني وصبّوا عليّ ماء بارداً. قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾][2].

وفي التحقيق أن ﴿ٱقْرَأْ﴾ نزلت قبل ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ لأسباب ذكرها ابن القيم رحمه الله:

الأول: أن قوله: «ما أنا بقارئ» صريح أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً.

الثاني: أن الأمر بالقراءة هو في الترتيب قبل الأمر بالإنذار.

الثالث: أن اجتهاد جابر غيرُ تحديث عائشة عن النبي ﷺ وخبره عن نفسه.

الرابع: أنه جاء في حديث جابر ما يشير إلى أن ﴿ٱقْرَأْ﴾ نزلت أولاً، وهو قوله عليه السلام: «فرفعتِ رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء...» أي يوم نزل عليه أول مرة بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾.

فتكون هذه الآيات هي ثاني ما نزل من القرآن على النبي ﷺ، وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

والمُدَّثِّر في لغة العرب: من دثَرَ وتَدَثَّرَ أي تَلَفَّفَ في الدثار، وهو كل ما كان من

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3238)، ومسلم (161) ح (256)، وأحمد (3/ 325).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4922)، ورواه مسلم (161)، ح (257)، كتاب الإيمان.

الثياب فوق الشعار. حكاه الرازي. وله في التفاسير أكثر من تأويل:

التأويل الأول: قيل المراد: (يا أيها المتدثر بثيابِهِ عند نومه).

قال ابن عباس: (قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ قال: يا أيها النائم). وقال قتادة: (يقول المتدثر في ثيابه). وقال ابن جرير: (وذكر أن نبيَّ الله ﷺ قيل له ذلك وهو متدثر بقطيفة). ثم روىٰ عن إبراهيم ـ من التابعين ـ قوله: (كان متدثراً في قطيفة).

التأويل الثاني: قيل بل المعنىٰ: يا أيها المتدثر النبوة وأثقالها.

قال عكرمة: (دُثِّرت هذا الأمر فقم به). فيكون المعنىٰ: يا مَنْ حُمِّلْتَ أعباء النبوة، وحُفِظْتَ وغُطيِّت بأمانة الوحي، قم فأنذر الناس عذاب الله الشديد، وانهض إلى الأمة فأنقذها من مغبة الاسترسال بالشرك وتعظيم الشهوات وتجاهل الآخرة.

فقوله تعالىٰ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾. أي: قم من نومك فأنذر قومك عذابَ الله الذي أشركوا به وعبدوا غيره. قال قتادة: (أي أنذر عذابَ الله ووقائعه في الأمم وشدة نِقْمَتِهِ).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. أي: وربّك فَعَظِّم دون غيره من الآلهة والأنداد والطواغيت.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾. قال ابن عباس: (لا تلبسها على معصية ولا علىٰ غدرة. قال: وثيابك فَطَهِّرْ من الإثم. قال: نَقِّ الثياب في كلام العرب).

وقال: (لا تكن ثيابُكَ التي تلبس من مكسب غيرِ طائب). وقال مجاهد: (عملك فأصلح).

فيكون المعنىٰ: أي نَقِّ سريرتك وَصَفِّها لله، وأطِبْ كسبك ومطعمك، وطهر الداخل والخارج.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾. قال مجاهد: (الأوثان). وقال الضحاك: (يقول: اهجر المعصية).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾. قال ابن عباس: (لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها). وقال الحسن: (لا تمنن تستكثر عملك الصالح). أي لا يكثر عملك في عينك فتمنن على ربك، فإنما هو فضله ومنّه عليك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾. قال ابن زيد: (حمل أمراً عظيماً محاربة العرب ثم العجم من بعد العرب في الله).

قلت: وقد اشتملت هذه الآيات التي كانت في أول ما نزل من القرآن على منهاج الإسلام كله ، فرسمت محاور هذا الدين وأعمدة هذا البنيان ، وأوضحت معالم هذا الدين بشكل مجمل . ففي مضمونها :

أولاً : تعظيم الله وحده وتصغير الشرك والطغاة والطواغيت .

وقد ضُمِّنَ هذا المعنىٰ بقوله : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ، ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ . فهي دعوة التوحيد دعوة الرسل عليهم السلام .

أخرج أحمد وأبو داود بسند صحيح عن أبي تميمةَ عن رجل من قومه ، أنه أتىٰ رسول الله ﷺ ، أو قال : شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال : أنت رسول الله ـ أو قال : أنت محمد ؟ ـ فقال : نعم . قال : فإلامَ تَدْعو ؟ قال : [أدعو إلى ربك الذي إنْ مَسَّكَ ضر فدعوته كشفَ عنكَ ، والذي إن أضْلَلْتَ بأرض قفرٍ فدعوته ردّ عليك ، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك][1] .

ثانياً : تزكية النفس .

وقد تضمن هذا المفهوم في قوله سبحانه : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ .

ويكون هذا بلزوم عبادات وشرائع شرعها ، وأخلاق ومعاليَ رغَّب ودعا إليها ، وبتركِ قبائح وفواحِشَ حذّر من مغبتها .

ولقد وقع في رواية أخرىٰ للحديث السابق تفصيلٌ آخر يربط هذه الأخلاق مع أعلاها ، ويوضح نَسَبها إلى أرفعها وأرقاها ، وهو تعظيم الله جل ذكره وإفراده بكل معاني العبادة .

فقد أخرج أبو داود والترمذي عن أبي جري جابر بن سليم قال : [رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه ، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه ، قلت : من هذا ؟ قالوا : هذا رسول الله ﷺ ، قلت : عليك السلام يا رسول الله ، مرتين ، قال : «لا تقل عليك السلام ، فإن عليك السلام تحية الميت ، قل : السلام عليك» . قال : قلت : أنت رسول الله ﷺ ؟ قال : «أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضُرٌّ فدعوته كشفه عنك ، وإن أصابك عامُ سنةٍ فَدَعَوْتَهُ أنْبَتَها لكَ ، وإذا كنت بأرض قَفْراءَ أو فلاةٍ فَضَلَّتْ راحلتك

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4084) ، كتاب اللباس . باب ما جاء في إسبال الإزار . انظر صحيح سنن أبي داود (3442) ، ورواه أحمد . انظر صحيح الجامع (242) .

فَدَعَوْتَهُ رَدَّها عليك». قلت: اعهد إلي، قال: «لا تَسُبَّنَّ أَحَداً» قال: فما سَبَبْتُ بعده حراً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاة، قال: «ولا تَحْقِرَنَّ شيئاً مِنَ المَعْرُوف، وأَنْ تُكَلِّمَ أخاك وأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إليه وَجْهُكَ إنَّ ذلكَ من المعروف، وارْفَعْ إزارك إلى نصف الساق، فإن أَبَيْتَ فإلىٰ الكعبين، وإياك وإسبالَ الإزار فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتَمكَ وعَيَّركَ بما يعلم فيك فلا تعيّره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه»][1].

ثالثاً: حفظ الجماعة المؤمنة، بالدعوة إلى بنائها وتوثيق أواصر التعاون والأخوة فيما بينها.

فقد قال جل ذكره في أول ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾. أي قم يا محمد إلى الجماعة فاحفظها، وإلى الأمة فأنذرها، فإن القوة والحفظ متعلقة ببناء الجماعة وحفظ كيانها وحماية صرحها، فليعطف غنيها على فقيرها، وليرحم قويها ضعيفها، وليشد بعضها أزر بعض.

وقد قال الله في أواخر السورة نفسها: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

أخرج عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند، بإسناد حسن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ لمْ يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شُكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب][2].

رابعاً: الصبر على الأذىٰ.

وهو داخل في قوله سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾. قال ابن زيد: (حمل أمراً عظيماً محاربة العرب ثم العجم من بعد العرب في الله). وبنحوه قال الله في سورة الأحقاف لنبيّه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4084)، والترمذي (2877). انظر صحيح أبي داود (3442).

(2) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (5/ 211)، (5/ 212)، وصحيح الجامع (6417). وله شاهد عند البخاري في الأدب المفرد (33)، وعند أبي داود (2/ 290) وابن حبان (2070).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [ما يُصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا همٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىً ولا غمٍّ ، حتىٰ الشوكةُ يُشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه][1] . والنصب: التعب والوصب: المرض.

خامساً: التحذير من الدار الآخرة.

وهو داخل في قوله تعالىٰ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾. وبنحوه قوله جل ذكره في سورة مريم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: 39].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾. قال ابن عباس: (الناقور: الصور). وقال مجاهد: (وهو كهيئة القرن). والمقصود: ذِكْرُ أول شدائد القيامة، وهو النفخ في الصور.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد قال: [قال رسول الله ﷺ: «وكيفَ أنْعَمُ وصاحِبُ القَرْنِ قد التقمَ القَرْنَ واسْتَمَعَ الإِذْنَ متىٰ يُؤْمَرُ بالنَّفْخ فَيَنْفُخَ». فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: «قولوا حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيلُ، على الله توكَّلنا»][2] .

وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾. قال ابن عباس: (يقول: شديد).

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾. قال قتادة: (فَبَيَّنَ الله على من يقع).

قال النسفي: (وأكّد بقوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ليؤذن بأنه يسير على المؤمنين. أو ﴿عَسِيرٌ﴾ لا يرجىٰ أن يرجع يسيراً كما يرجىٰ تيسير العسير من أمور الدنيا).

11 ـ 30. **قوله تعالى:** ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2573)، كتاب الأدب، ورواه البخاري وغيره.
(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1980)، أبواب صفة القيامة. باب ما جاء في الصُّور.

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات: توعُّد الله سبحانه الوليد بن المغيرة العذاب الأليم، لاتهامه القرآن بالسحر وافتراء الكذب على كلام الله العظيم.

فإنه ما إنْ أتىٰ موسم الحج عقب الأمر بالجهر بالدعوة، إلا وخشيت قريش ماذا تقول للعرب في شأن محمد، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة وكان من أعلمهم بالفصاحة والشعر ولسان العرب، وكلموه في الأمر عسىٰ أن يجدوا له حلاً ومخرجاً.

يروي البيهقي والحاكم على شرط البخاري عن عكرمة عن ابن عباس: [أن الوليد بن المغيرة جاء رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم! إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لم؟ قال: ليعطوكه فأنت أتيت محمداً لتعرض ما قبله. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له. قال: وماذا أقول؟ فو الله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برَجَزِه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجنِ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا. ووالله إن لِقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه. قال: قف عني حتىٰ أفكر فيه، فلما فكَّر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر بأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ الآيات][1].

قال ابن عباس: (أنزل الله في الوليد بن المغيرة قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾).

وقوله: ﴿وَحِيدًا﴾. قال مجاهد: (خلقته وحده ليس معه مال ولا ولد). وقال قتادة: (وهو الوليد بن المغيرة، أخرجه الله من بطن أمه وحيداً لا مال له ولا ولد، فرزقه الله المال والولد، والثروة والنماء).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾. قال مجاهد: (كان ماله ألف دينار).

---

(1) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (1/ 556)، والحاكم في المستدرك (2/ 507)، وانظر: «الصحيح المسند في أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة المدثر، الآيات (11 ـ 30).

وقال سفيان: (بلغني أنه أربعة آلاف دينار). وقال ابن جرير: (وهو الكثير الممدود عدده أو مساحته) ـ إشارة إلى الأراضي والمال.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾. قال مجاهد: (كان بنوه عشرة، وقوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ قال: من المال والولد). أي: وبسطت له في العيش بسطاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾. أي: ثم يأمل ويطمح أن أزيده مالاً وثروة وولداً فوق ما أعطيته. كلا ليس الأمر كذلك كما يرجو، فإنه كان لآياتنا وحججنا جاحداً معانداً. قال الحارث: (معانداً عنها، مجانباً لها).

وعن قتادة: (﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ قال: كفوراً بآيات الله جحوداً بها).

وقوله تعالىٰ: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾. قال مجاهد: (مشقة من العذاب). وقيل: هو جبل في جهنم يصعد بها يوم القيامة ثم يهوي إرهاقاً وتعباً من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾. أي: فكّر في شأن النبي ﷺ والقرآن و ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي هيأ الكلام في نفسه. قال قتادة: (زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل، فإذا هو ليس له بشعر، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه سحر، فأنزل الله فيه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾: قبض ما بين عينيه وكلح).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾. أي لُعِنَ. وقيل: فَقُهر وغُلبَ، وكل مُذَلَّل مُقَتَّل.

وقال الزهري: (عُذِّب، وهو من باب الدعاء). وقال ناسٌ: ﴿كَيْفَ﴾ تعجيب، والمقصود: العجب كل العجب مما صدر منه في شأن القرآن بعد فكر وروية ؟!

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾. قال القرطبي: (﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ أي لُعِنَ لعناً بعد لعن. وقيل: فقتل بضرب من العقوبة، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي على أي حال قَدر).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾. أي: بأي شيء يرد الحق ويدفعه. وإنما هو المكر والكذب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾. ﴿عَبَسَ﴾ أي قبض بين عينيه وقطّب. ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كلح وكره. قال النسفي(﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه ﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في التقبض والكلوح).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾. قيل: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي ولّىٰ وأعرض ذاهباً إلى أهله

﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ أي تعظم عن أن يؤمن. وقيل: أدبر عن الإيمان واستكبر حين دُعي إليه.

والمقصود: ركبه الشيطان وعلا رأسه وفِكْرَه فأدبر واستكبر.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾. قال أبو رزين: (يأخذه عن غيره). أو يأثره عن غيره.

والمقصود: نطق بكلمة الكذب في شأن الحق فجحده واتهمه ورماه بالسحر بعد التَّثَبُّتِ من أنه أعلى وأجل. فما أسهل اتهام الحق بالسحر للهروب من تكاليفه وتبعاته.

ثم قال سبحانه متوعداً إياه إثر هذه المحاولة الماكرة لطمس الحق: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ قيل: وهو باب من أبواب جهنم.

والمقصود: سأغمره في جهنم كي يصْلى حرّها. قال القرطبي: (وإنما سُمِّيت سقر من سَقَرَتْه الشمس: إذا أذابته ولوحته، وأحرقت جلدة وجهه).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾. تهويل لأمرها، ومبالغة في وصفها. أي: وأيّ شيء سقر يا محمد؟ فهي كلمة تعظيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾. أي: لا تبقي من فيها حيّاً، ولا تذر من فيها ميتاً، بل تحرقهم كلما جدد خلقهم. قال مجاهد: (لا تميت ولا تحيي). وقال مرثد: (لا تبقي منهم شيئاً أن تأكلهم، فإذا خلقوا لها لا تذرهم حتىٰ تأخذهم فتأكلهم). وقال السدي: (لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً). قال الزمخشري: (أي لا تبقي شيئاً يُلقىٰ فيها إلا أهلكته، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتىٰ يعاد. أو لا تبقي على شيء، ولا تدعه من الهلاك، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾. لَوَّاحة: أي محرقة للجلود. قال قتادة: (حرّاقة للجلد). فهو من «لوّحته الشمس» إذا سوّدت ظاهره وأطرافه. والبَشَر: جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد.

قال أبو رزين: (تلفح الجلد لفحة، فتدعه أشد سواداً من الليل). وروي عن ابن عباس: (تحرق بشرة الإنسان). فهي تغير البشر أي الجلد وتحرقه.

وقيل: بل «البشر» اسم جنس بمعنىٰ الناس. فيجوز أن يكون المعنىٰ: لائحة للناس، من «لاح»، بمعنىٰ ظهر، والبشر بمعنىٰ الناس. حكاه القاسمي.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾. أي من الخزنة المتولّين أمرها، والتسلّط على

أهلها. قال ابن كثير: (﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: من مُقَدَّمي الزبانية، عَظيمٌ خَلْقُهم، غَليظٌ خُلُقُهم).

فتوعد الله سبحانه الوليد بن المغيرة مقابل هذا الكذب والنفاق والمراوغة في تعامله مع الوحي والحق أن يصليه سقر، بعد أن أعطاه في الدنيا من المال والولد ما كان ينبغي أن يستعين به على طاعة الله وشكره، إذ كان أولاده جميعاً حاضرين أمامه يستأجرون في تجارتهم ولا يسافرون فيجهدون، وأغدق عليه من الأرض والثروة والخير الكثير، الذي سينقلب عليه في الآخرة نقمة أن كفر بالله وبرسوله.

31 ـ 37. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تهديدُ الله تعالىٰ الكفار بملائكة العذاب تقهرهم وتغلبهم في نار الجحيم، وعدة هؤلاء الملائكة الزبانية الشداد تسعة عشر كما هي في كتب أهل الكتابين. وقد أقسم الله تعالىٰ بالقمر والليل والصبح أن جهنم إحدىٰ الكبر، جعلها سبحانه نذيراً للبشر، لمن شاء أن يتقدم في الطاعة أو يتأخر.

فقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾. أي: وما جعلنا خزنة النار ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: إلا زبانيةً غلاظاً شداداً. قال ابن كثير: (وذلك ردٌّ على مشركي قُريش حين ذَكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشرَ قريش، أما يستطيع كلُّ عشرةٍ منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟ فقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾، أي شديدي الخَلْق لا يُقاوَمونَ ولا يُغالبون. وقد قيل: إنّ أبا الأشدّين ـ واسمُه: كَلَدة بن أَسِيد بن خَلَف ـ قال: يا معشرَ قُريش! اكفُوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعةَ عَشرَ، إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغَ من القوة ـ فيما يزعمون ـ أنه كان يقِفُ على جلد البقر ويُجاذِبه عشَرَةٌ لينتزِعُوه من تحت قَدَميه، فيتمزَّق الجِلدُ ولا يتزحزحُ عنه. قال السهيلي: وهو الذي

دعا رسول الله ﷺ إلى مُصارعته وقال: إن صَرَعتني آمنتُ بك. فصَرعَهُ النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن).

وقال القرطبي: (﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لم نجعلهم رجالاً فتتعاطون مغالبتهم).

والمقصود: فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم، وهم أقوم خلق الله بحقه، والغضب له، وأشدهم بأساً، وأقواهم بطشاً؟

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. قال قتادة: (إلا بلاء). وروي عن ابن عباس من غير وجه قال: (ضلالة للذين كفروا، يريد أبا جهل وذويه).

وقيل: (إلا عذاباً). أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب.

والمقصود: إنما جعلنا عدد الملائكة الزبانية الشداد ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ إضلالاً ومحنة للكافرين، حتىٰ قالوا ما قالوا مستهزئين، ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم، قال الجبائيّ: (المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالىٰ قادر على أن يقوّي هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوىٰ عليه مئة ألف ملك أقوياء). وقال الكعبي: (المراد من الفتنة الامتحان، حتىٰ يفوّض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعيّن إلى علم الخالق سبحانه. قال: وهذا من المتشابه الذي أمروا بالإيمان به).

وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾. قال ابن عباس: (وإنها في التوراة والإنجيل تسعة عشر، فأراد الله أن يستيقن أهل الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيماناً). وقال مجاهد: (يجدونه مكتوباً عندهم عدّة خزنة أهل النار).

وقال قتادة: (يصدق القرآن الكتب التي كانت قبله فيها كلها، التوراة والإنجيل، أن خزنة النار تسعة عشر). وقال أيضاً: (ليستيقن أهل الكتاب حين وافق عدّة خزنة النار ما في كتبهم). وقال ابن زيد: (﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أنك رسول الله).

وقوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾. أي: إلى إيمانهم، وذلك بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ولا يشكّ أهل التوراة والإنجيل في حقيقة ذلك والمؤمنون بالله من أمة محمد ﷺ).

وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾. أي: وليقول المنافقون

والمشركون ما الحكمة من ذكر هذا هاهنا ؟ . قال ابن زيد : (يقول : حتىٰ يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر) .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ . قال ابن كثير : (أي : مِنْ مِثل هذا وأشباهه يتأكَّدُ الإيمانُ في قلوب أقوامٍ ، ويتزلزل عند آخَرِين ، وله الحكمة البالغة ، والحجَّة الدامغةُ) .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ . قال قتادة : (أي من كثرتهم) .

قال الزمخشري : (أي وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص ، من كون بعضها على عقد كامل ، وبعضها على عدد ناقص ، وما في اختصاص كل جند بعدده ، من الحكمة إلا هو . ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا يعرف الحكمة في أعداد السماوات والأرضين وأمثالها . أو وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعزّ عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور ، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها) .

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول : روىٰ مسلم في صحيحه من حديث أنس ـ حديث الإسراء ـ أن رسول الله ﷺ قال : [ثم عرج بنا إلى السماء السابعة . . . ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه](1) .

وله شاهد في المسند عنه مرفوعاً بلفظ : [البيت المعمور في السماء السابعة ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه حتىٰ تقوم الساعة] .

الحديث الثاني : أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن من حديث أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : [إني أرىٰ ما لا تَرَوْن وأسْمَعُ ما لا تَسْمعون ، أَطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئِطّ ، ما فيها مَوْضِعُ أربع أصابع إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهتَهُ لله ساجداً]الحديث(2) .

الحديث الثالث : أخرج الطيالسي في «مسنده» ، وابن خزيمة في «صحيحه» بإسناد

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (1/ 148) . ورواه البخاري . وانظر للشاهد بعده : صحيح الجامع (2888) . رواه أحمد وغيره .

(2) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة (4190) ـ كتاب الزهد ـ باب الحزن والبكاء ، والترمذي في أبواب الزهد . انظر صحيح سنن الترمذي (1882) ، وصحيح سنن ابن ماجة (3378) .

حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [ليلةُ القَدْر ليلةُ سابِعَةٍ أو تاسعةٍ وعِشرين ، إنَّ الملائكة تلكَ الليلةَ في الأرض أكثرُ مِن عددِ الحصىٰ][1] .

وقوله: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ . قال مجاهد: (النار). والمعنىٰ: ما هذه النار الموصوفة بما ذكر إلا تذكرة ذكر الله تعالىٰ بها البشر ـ وهم بنو آدم ـ.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ . قال القاسمي: (﴿كَلَّا﴾ ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات ، أو إنكار لأن تكون لهم ذكرىٰ لأنهم لا يتذكرون).

ثم أقسم سبحانه بالقمر وبما بعده ، فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ . أي: ولّىٰ. قال ابن عباس: (دبوره: إظلامه).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ . أي أشرق. قال قتادة: (إذا أضاء وأقبل).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ . قال مجاهد: (يعني: جهنم).

والمقصود: إن جهنم لإحدى الكبر ، أي الأمور العظام.

وقوله تعالىٰ: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ . أي إنذاراً لهم. قال قتادة: (قال الحسن: والله ما أُنذر الناسُ بشيء أدهىٰ منها ، أو بداهية هي أدهىٰ منها).

وقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ . قال ابن عباس: (من شاء اتبع طاعة الله ، ومن شاء تأخر عنها). وقال قتادة: (يتقدّم في طاعة الله ، أو يتأخّر في معصيته).

وفي الآية إثبات مشيئة العبد في اختيار الطريق ، وهي مشيئة مقهورة بمشيئة الله عز وجل ، كما قال جل ذكره: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: 30]. فله الأمر سبحانه وله الحكمة والحجة البالغة.

38 ـ 56. قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا

(1) إسناده حسن. أخرجه الطيالسي في «مسنده» (2545) ، وعنه أحمد (2/ 519) ، وأخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (2/ 223). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2205). وقال الألباني: وهذا إسناد حسن.

ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: ارتهانُ كل نفس بكسبها ، ونجاة أصحاب اليمين ، وخزي المجرمين في نار الجحيم ، وهذا القرآن تذكرة للمتقين ، وما يذكرون إلا بمشيئة الله رب العالمين .

فقوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ . أي : مرهونة ومحبوسة بكسبها ، معتقلة بعملها يوم القيامة . قال ابن عباس : (يقول : مأخوذة بعملها) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ . قال ابن زيد : (أصحاب اليمين لا يرتهنون بذنوبهم ، ولكن يغفرها الله لهم ، وقرأ قول الله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : 40] قال : لا يؤاخذهم الله بِسَيِّئ أعمالهم ، ولكن يغفرها الله لهم ، ويتجاوز عنهم كما وعدهم) .

قال القاسمي : (﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي فإنهم فكّوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : أصحاب اليمين في بساتين يتساءلون عن المجرمين الذين سُلكوا في سقر ، أيّ شيء سلككم في سقر ؟) .

قال ابن كثير : (أي : يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ . أي : ما قمنا بحق الله تعالىٰ ، ولا بحق عباده الواجب علينا . فما عبدنا الله ولا أحْسَنّا إلى خَلْقِه المحتاجين .

وقوله : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ . أي : وكنا نخوض في الباطل وفيما لا نعلم . قال قتادة : (يقولون : كلما غوىٰ غاوٍ غوينا معه) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾. أي: وكنا نكذب بيوم الحساب، يوم الثواب والعقاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾. أي: حتىٰ أتانا الموت الموقن به. وهو كقوله تعالىٰ: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: 99].

وفي صحيح البخاري من حديث أم العلاء مرفوعاً: [أمّا هو ـ يعني عثمان بن مظعون ـ فقد جاءه اليقين من رِّبه][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾. قال النسفي: (من الملائكة والنبيين والصالحين، لأنها للمؤمنين دون الكافرين. وفيه دليل ثبوت الشفاعة للمؤمنين).

وفي سنن ابن ماجة بإسناد صحيح عن عبد الله بن قيس قال: كنت عند أبي بردة ذات ليلة. فدخل علينا الحارث بن أُقَيْش. فحدثنا الحارث ليلتئذ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: [إنَّ من أمتي مَنْ يدخُل الجنةَ بشفاعتِهِ أكثرُ مِنْ مُضَرَ. وإنَّ مِنْ أمتي من يَعْظُمُ للنار حتىٰ يكونَ أحَدَ زواياها][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾. قال قتادة: (أي عن هذا القرآن).

أي: فما لهؤلاء المشركين الذين قِبَلك ـ يا محمد ـ لا يستمعون لهذه الذكرىٰ من الوحي، فيعرضون ولا يعتبرون ولا يتعظون !؟

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾. أي فهم يُوَلُّونَ تولية الحمر لفرارها من الصيد. قال ابن عباس: (أراد الحمر الوحشية). وقرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء، أي مُنَفَّرَة مذعورة. والباقون بالكسر، أي نافرة. وهما قراءتان مشهورتان.

وقوله تعالى: ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾. أي نفرت وهربت من رُماة يرمونها، أو من أسد يريد افتراسها. قال ابن عباس: (﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ قال: الرماة). أو قال: (رجال القَنْص). وقال زيد بن أسلم: (هو الأسد). وقال حَمَّاد بن سَلَمَةَ، عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس: (الأسد بالعربية، ويقال له بالحبشية قَسْوَرة، وبالفارسية شِيرٌ، وبالنبطية أويا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3929) من حديث أم العلاء، وله قصة. واليقين: الموت.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4323)، كتاب الزهد. باب صفة النار. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3490). والحديث فيه إثبات الشفاعة للمؤمنين.

والمقصود: كأن هؤلاء المشركين في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه كحمر الوحش وهي تشتد هاربة من الأسد أو الرماة يريدون صيدها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِي مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾. أي: كتباً مفتوحة موجهة إليهم من رب العالمين، يقال لهم فيها: إني قد أرسلت إليكم محمداً ﷺ فاتبعوه.

قال مجاهد: (﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِي مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ قال: إلى فلان من ربّ العالمين).

وقال قتادة: (قد قال قائلون من الناس: يا محمد إن سرّك أن نتبعك فائتنا بكتاب خاصة إلى فلان وفلان، نؤمر فيه باتباعك. قال قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل). أو المعنىٰ: يريد كل واحد منهم أن ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبي ﷺ، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: 124]. وكقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [الإسراء: 93].

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾. قال قتادة: (إنما أفسدهم أنهم كانوا لا يصدّقون بالآخرة، ولا يخافونها، هو الذي أفسدهم). قال القاسمي: (﴿ كَلَّا ﴾ أي لا يكون مرادهم، ولا يتبع الحق أهواءهم. أو ليس إرادتهم تلك للرغبة في الإيمان، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره، وإنما هم مردة الداء، ولذا قال: ﴿ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي لا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يخشون العقاب، لإيثارهم العاجلة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾. قال قتادة: (أي القرآن). أي حقاً إن القرآن تذكرة وعظة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾. أي: فمن شاء اتعظ وعمل بما فيه من أمر الله ونهيه، واستعدّ للقاء ربه.

وقوله: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾. ترويحٌ لقلب النبي ﷺ مما كان يخامرهُ من إعراضهم، وتسلية له عما يلقاه من كبرهم وعنادهم وهو يحرص على إيمانهم.

والمعنى: ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكير إلا بمشيئة الله لهم. وهو كقوله سبحانه: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: 30].

وقوله: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾. قال قتادة: (ربنا محقوق أن تتقىٰ محارمه،

وهو أهل المغفرة يغفر الذنوب). أو قال: (أهل أن تتقىٰ محارمه ، وأهل المغفرة: أهل أن يغفر الذنوب).

والمقصود: الله تعالى أهل أن يُخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنوب من تاب إليه وأناب.

تم تفسير سورة المدثر
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر الخميس 1/ ذي القعدة/1426 هـ
الموافق 1/ كانون الأول/ 2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ نزول المدثر لم يكن أول القرآن ، إنما كان بعد فترة الوحي .

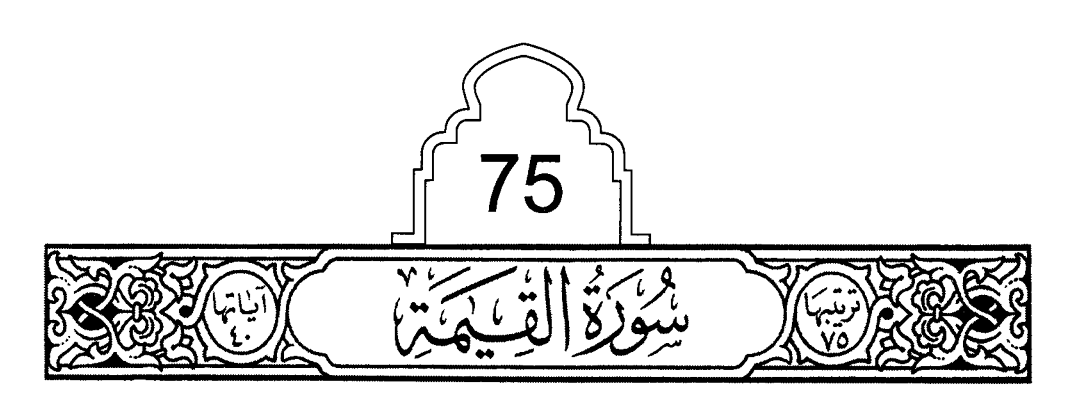
2 ـ اشتمال سورة المدثر على منهاج الإسلام: تعظيم الرب ، وتطهير القلب والثياب ، وهجر المعصية ، والصبر على الأذىٰ.

3 ـ أثر الصاحب السَّيِّئِ في حياة ومصير صاحبه ، فقد كاد الوليد بن المغيرة أن يسلم لولا مكر أبي جهل به لعنهما الله .

4 ـ ذكر عدد ملائكة النار ليستيقن أهل الكتاب بصدق رسالة محمد ﷺ .

5 ـ اليقين الموت ، وليس المعرفة كما يدعي أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (40) .

قال المهايميّ : (سميت به لتضمنها غاية تعظيم ذلك اليوم ، من لا يتناهىٰ ثوابه وعقابه ، بحيث تتحسَّر فيه كل نفس من تقصيرها ، وإن عملت ما عملت) .

موضوع السورة

أحوال الناس عند الاحتضار
وأهوال القيامة والحساب والانتظار

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إثبات الله تعالىٰ المعاد ، وتأكيد بعث الأجساد .

2 ـ ذكر أهوال القيامة قبل الحساب ، ومعرفة الإنسان بنفسه واستحقاقه الثواب أو العقاب .

3 ـ تكفُّلُ الله تعالىٰ تثبيت القرآن في قلب نبيه عليه الصلاة والسلام ، والناس في لهو وغفلة عن هول يوم الزحام .

4 ـ الوجوه يوم القيامة إما ناضرة وهي وجوه المؤمنين ، أو باسرة وهي وجوه الكافرين .

5 ـ الإخبار عن حالة الإنسان عند الاحتضار ، وما يرافق ذلك من تقلب الأحوال ، وإلى الله المرجع في النهاية والمآل .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 15. **قوله تعالىٰ:** ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ الله تعالىٰ المعاد، وتأكيد بعث الأجساد، وذِكْرُ أهوال القيامة قبل الحساب، ومعرفة الإنسان بنفسه وأعماله واستحقاقه الثواب أو العقاب.

فقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. قيل: ﴿لَآ﴾ صلة، وقيل: ﴿لَآ﴾ توكيد للكلام:

أ ـ قال سعيد بن جبير: (﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قال: أقسم بيوم القيامة).

ب ـ قال أبو بكر بن عياش: (قوله ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ توكيد للقسم، كقوله لا والله).

والمقصود: إثبات المعاد، والردّ على منكري بعث الأجساد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾. قال الحسن: (أقسم بيوم القيامة، ولم يُقسم بالنفس اللوامة). وقال قتادة: (بل أقسم بهما جميعاً). قلت: والصحيح أنه أقسم بهما تعالىٰ جميعاً، وهو اختيار شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله.

وعن سعيد بن جبير: (﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: تلوم على الخير والشر). وقال مجاهد: (تندَّم على ما فات وتلوم عليه). وقال الحسن البصري: (إن المؤمن ـ والله ـ ما نراه إلا يلومُ نفسَه: ما أردتُ بِكلمتي؟ وما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديثِ نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدُماً ما يُعاتِبُ نفسه).

قال القاشانيّ: (جمع بين القيامة والنفس اللوامة، في القسم بهما، تعظيماً لشأنهما، وتناسباً بينهما. إذ النفس اللوامة، هي المصدقة بها، المقرّة بوقوعها، المهيئة لأسبابها، لأنها تلوم نفسها أبداً في التقصير، والتقاعد عن الخيرات، وإن أحسنت، لحرصها على الزيادة في الخير، وأعمال البر، تيقُّناً بالجزاء، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسيانٍ).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: أيَظُنُّ ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرّقها؟).

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾. البنان: الأصابع، واحدها بنانة. أي: بلىٰ قادرين على ما هو أعظم من ذلك: أن نسوي أصابع يديه ورجليه لتصبح شيئاً واحداً كخفّ البعير أو حافر الحمار، فإذا هو يأكل بفيه كسائر البهائم. قال ابن عباس: (﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ قال: لو شاء لجعله خفاً أو حافراً). وقال الحسن: (جعلها يداً، وجعلها أصابع يقبضهنّ ويبسطهنّ، ولو شاء لجمعهُنّ، فاتقيت الأرض بفيك، ولكن سوّاك خلقاً حسناً).

و﴿قَـٰدِرِينَ﴾ حال من الفاعل المضمر في الفعل المحذوف. قال سيبويه: (على معنىٰ نجمعها قادرين). وقيل: بل المعنىٰ نقدر قادرين، أو نقوىٰ قادرين ـ حكاه الفرّاء.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾. فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال ابن عباس: (يعني الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة. ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة). وقال: (﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ قال: يمضي قدماً). وقال سعيد بن جبير: (﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ قال: سوف أتوب).

2 ـ وقال عبد الرحمن بن زيد: (يعني الكافر يكذّب بما أمامه من البعث والحساب).

3 ـ وقال مجاهد: (﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾: يمضي أمامه راكباً رأسه). وقال الحسن: (لا تلقىٰ ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُماً قُدُماً، إلا من قد عصم الله). وقال: (قدُماً في المعاصي). وقال عكرمة: (قدماً لا ينزع عن فجور).

4 ـ وقال الضحاك: (هو الأمل، يؤمل الإنسان: أعيش وأصيب من الدنيا كذا، وأصيب كذا، ولا يذكر الموت).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾. أي يسأل: متىٰ يوم القيامة ؟ سؤال استبعاد واستهزاء ، أو تسويفاً منه للتوبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد: (هذا عند الموت).

وقال الحسن: (هذا يوم القيامة). وقرأ نافع وأبان عن عاصم: «بَرَقَ» والمعنىٰ: لمع البصر من شدة شخوصه ، فتراه لا يطرِف. وقرأ الباقون بالكسر «بَرِق» والمعنىٰ: تَحَيَّرِ فلم يطرِف. قال الفرّاء والخليل: (بَرِق: فزع وبُهِتَ وتحيَّر).

قلت: والمقصود تنبيه المستبعد للقيامة إلى معالم حدوثها: إنه انبهار الأبصار ولمعها وتحيّرها من شدة الشخوص للموت أو للبعث.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ . قال قتادة: (ذهب ضوؤه فلا ضوء له).

والمقصود: ذهب ضوؤه كله ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ . قال مجاهد: (كُوِّرا يوم القيامة).

والمقصود: ذهب ضوؤهما جميعاً ، فتجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ . قال ابن كثير: (أي: إذا عاينَ ابنُ آدم هذه الأهوالَ يومَ القيامة حينئذ يُريد أن يَفِرَّ ويقول: أينَ المَفَرُّ ؟ أي: هل من مَلجإٍ أو موئِل ؟).

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: لا حرز). وقال أيضاً: (يعني: لا حصن ، ولا ملجأ). وقال الحسن: (يقول: لا جبل). والوزَرُ في لغة العرب: ما يُلجأُ إليه من حِصْنٍ أو جبل أو غيرهما. قال السدي: (كانوا في الدنيا إذا فزعوا تحصّنوا في الجبال ، فقال الله لهم: لا وزَرَ يعصمكم يومئذ مني).

والمقصود: ليس يومئذ فرار ينفع صاحبه ، ولا شيء يلجأ إليه من حصن ولا جبل ولا معقل.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ . قال قتادة: (أي المنتهىٰ).

والمقصود: إلى ربك أيها الإنسان يومئذ المرجع والمنتهىٰ والاستقرار ، وهو الذي يقرّ جميع خلقه مقرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: ما عمل قبل

موته ، وما سنّ فعمل به بعد موته). وقال أيضاً: (يقول: بما قدّم من المعصية ، وأخَّر من الطاعة ، فينبأ بذلك). وقال مجاهد: (بأول عمله وآخره).

وقال قتادة: (﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ ﴾ من طاعة الله ﴿ وَأَخَّرَ ﴾ مما ضَيَّعَ من حق الله). أو قال: (بما قدّم من طاعته ، وأخَّر من حقوق الله).

والمقصود: يَخْبَرُ العبد يومئذ بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، مقطوعها ومستمرها ، كما قال سبحانه: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 49].

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾.

أي: بل الإنسان يعرف ما هو عليه من إيمان أو كفر ، وطاعة أو معصية ، واستقامة أو اعوجاج ، ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك ، فعليه من يكذّب عذره ، وجوارحه ستكون عليه شاهدة يوم الحساب.

فعن ابن عباس: (﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول: الإنسان شاهد على نفسه وحده). وقال قتادة: (شاهد عليها بعملها). وقال سعيد بن جبير: (شاهد على نفسه ولو اعتذر). وعن مجاهد: (قوله: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ قال: ولو جادل عنها ، فهو بصير عليها). وقال السدي: (﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ ولو أرخىٰ الستور ، وأغلق الأبواب). وقال الحسن: (﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ لم تقبل معاذيره).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: 14].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: 24].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [ثم يلقىٰ الثالث فيقول له مثل ذلك[1] ، فيقول: يا رب آمنتُ بك وبكتابك وبرسلك ، وصلّيت وصُمْتُ وتَصَدَّقْتُ ، ويُثْنّي بخير ما استطاع ، قال: فيقول: هاهنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك ، ويتفكّر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ ؟ فَيُخْتَم على فيه ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطِقِي ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك لِيُعْذِرَ من نفسه ،

(1) أي يسأله الله كما سأل رجلين قبله: «ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع»؟ وكانا أقرّا بذلك وأنكرا البعث ولقاء الله. فقال لكل منهما: اليوم أنساك كما نسيتني.

وذلك المنافق ، وذلك الذي يَسْخَطُ الله عليه](1) .

16 ـ 25. **قوله تعالىٰ:** ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ .

في هذه الآيات: تكفُّلُ الله تعالىٰ تثبيت القرآن في قلب نبيّه عليه الصلاة والسلام ، والناس في لهو وغفلة عن يوم الزحام ، والوجوه يومئذ إما ناضرة وهي وجوه المؤمنين ، أو باسرة وهي وجوه الكافرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ . قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: (أنّ النبي ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن تعجَّل يريد حفظه). قال سعيد: (يحرّك شفتيه ليحفظه). وقال ابن عباس: (كان يحرك به لسانه وشفتيه ، فيشتد عليه ، فكان يعرف ذلك فيه). وقال قتادة: (كان النبي ﷺ يحرك به لسانه مخافة النسيان ، فأنزل الله ما تسمع). وقال الحسن: (كان رسول الله ﷺ يحرك به لسانه ليستذكره ، فقال الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ إنا سنحفظه عليك).

وفي الصحيحين والمسند وجامع الترمذي عن سعيد بن جبير: [عن ابن عباس ، في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرّك شفتيه ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ . قال: جَمْعَهُ في صدرك ثمَّ تقرأه. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ . قال: فاستمع وأنصت. ثم إنّ علينا أن تقرأه ، قال: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه](2) .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 216) ، كتاب التوبة وقبولها وسعة رحمة الله وغير ذلك. باب: تقرير النعم يوم القيامة على الكافر والمنافق. وانظر مختصر صحيح مسلم (1932).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4927) ، (5044) ، (7524) ، ومسلم (448/ 147) ، وأحمد (1/ 343) وإسناده على شرطهما. ورواه الترمذي (3329) ، والنسائي في «التفسير» (654).

وروىٰ البخاري في كتاب التفسير من صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحيُ حَرَّك به لسانَه يُريد أنْ يحفَظَهُ، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾][1]. وفي رواية: [فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ـ يخشىٰ أن يتفلت منه].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾. قال البخاري: قال ابن عباس: [﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾: أن نَجْمَعَهُ في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أن تَقْرَأه][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾. قال ابن عباس: (﴿قَرَأْنَٰهُ﴾: بيّناه. ﴿فَٱتَّبِعْ﴾: اعْمَل به). ذكره البخاري في «كتاب التفسير» عند هذه الآية أول الباب.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: [﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾: فإذا أَنْزَلْنَاهُ فاستمع ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ علينا أن نُبيِّنَهُ بِلسانِك. قال: فكان إذا أتاهُ جِبريلُ أطْرَقَ، فإذا ذهب قرأهُ كما وعَدَهُ الله][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾. قال قتادة: (اختار أكثر الناس العاجلة، إلا من رحم الله وعصم). قال النسفي: (﴿كَلَّا﴾ ردع عن إنكار البعث أو ردع لرسول الله ﷺ عن العجلة وإنكار لها عليه، وأكّده بقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قيل: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبّون العاجلة الدنيا وشهواتها ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ الدار الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها).

وقوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾. أي: ناعمة غضة حسنة مشرقة. قال مجاهد: (مسرورة). وقال: (الوجوه الحسنة. نضرة الوجوه: حُسنها. من السرور والنعيم والغبطة).

وقال ابن زيد: (الناضرة: الناعمة). قلت: والنَّضْرة في لغة العرب: الحُسْن والرَّوْنَق.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4927)، كتاب التفسير، سورة القيامة (آية: 16). وانظر كذلك الحديث (4928) ـ عند الآية (17).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4928)، كتاب التفسير، عند هذه الآية.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4929)، كتاب التفسير، في ختام حديث في تفسير هذه الآيات من سورة القيامة: (16 ـ 19). وانظر مسند أحمد (1/ 343) نحوه.

وفي الحديث: [نَضَّرَ الله امرأً سمع مقالتي فوعاها]: أي دعاء لوجهه بالنضارة. أي: نعَّمَهُ وحَسَّنه وزاده نوراً وإشراقاً وبهاء وجمالاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تنظر إلى ربها نظراً. قاله عكرمة. وكان الحسن يقول: (نضرت وجوههم ونظروا إلى ربّهم). والآية في إثبات رؤية المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة، وأما الكفار فيحرمهم ربهم من هذه النعمة العظيمة فلا يبصرون إلا ما يخزيهم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15].

قال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: [حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟ فقال الشافعي: لما أن حُجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضىٰ]. وفي رواية: (ما حجب الفجار إلا وقد عَلِمَ أن الأبرار يرونه عز وجل).

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]. فالحسنىٰ هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

ففي صحيح مسلم عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالىٰ: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار! قال: فيرفَعُ الحجاب فينظرون إلى وجه الله، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾][1].

ومن كنوز السنة الصحيحة في مفهوم هذه الآية كذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إنكم سترون ربكم عياناً. وفي رواية: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ:

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (181)، والترمذي (2552)، وأخرجه أحمد (4/ 333).

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: 39]][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أنَّ أناساً قالوا: يا رسول الله ! هل نرىٰ ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحْواً ليس معها سحاب ؟ قالوا: لا يا رسول الله ! قال: ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . .]الحديث[2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والشيخان من حديث أبي موسىٰ الأشعري ، عن النبي ﷺ قال: [جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جلّ وعزَّ إلا رِداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن][3].

وفي أفراد مسلم ، عن جابر في حديثه: [إن الله يتجلّىٰ للمؤمنين يضحك][4].

يعني في عرصات القيامة. فالمؤمنون ينظرُون إلى ربهم عز وجل في العرصات ، ثم في روضات الجنات.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾. قال مجاهد: (كاشرة). وقال قتادة: (أي كالحة). وقال ابن زيد: (عابسة). وقال السدي: (تُغَيّر ألوانها).

وفي كلام العرب: بسَرَ الرجل وجهه ، أي: كَلَحَ ، ويقال: عَبَسَ وبَسَرَ.

والمقصود: تكون وجوه الفجار يوم القيامة مسودة كالحة متغيرة الألوان من هول ما توقن أنها قادمة عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾. الفاقرة: الداهية والأمر العظيم. أي: توقن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (554) ، كتاب مواقيت الصلاة ، وأخرجه كذلك (4851) ، (7434) ، وأخرجه مسلم (633) ، وأبو داود (4729) ، والترمذي (2551) ، وابن ماجة (177) ، ورواه أحمد (4/ 360) ، وكذلك ابن حبان (7442).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7437) ، وأخرجه مسلم (182). وأخرجه أحمد (2/ 293 ـ 294) ، وأخرجه ابن حبان (7429) من حديث أبي هريرة.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4878) ، (4880) ، ومسلم (180) ، وأحمد (4/ 411).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (191) في أثناء حديث مطول. وانظر تفصيل البحث في كتابي: «أصل الدين والإيمان» ـ رؤية الله يوم القيامة ـ بحث (10) ص (206).

وتعلم أنها هالكة خاسرة، وفي الداهية والشر العظيم مقحمة ماضية.

قال مجاهد: (﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ قال: داهية). وقال قتادة: (أي شر).

وقال ابن زيد: (تظن أنه ستدخل النار، قال: تلك الفاقرة، وأصل الفاقرة: الوسم الذي يفقر به على الأنف). وقال الأصمعي: (أصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتىٰ يخلص إلى العظم). فنعوذ بالله من حال ومستقبل الكفار والفجّار.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس: 38 ـ 42].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشية: 2 ـ 10].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: 106].

قال ابن عباس: (تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفُرْقة).

26 ـ 40. **قوله تعالىٰ:** ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله سبحانه عن حالة الاحتضار، وما يرافق ذلك من الأحوال والأهوال، والمرجع إلى الله سبحانه والمعاد والمآل.

فقوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾. كلاّ: رَدْعٌ وزَجْر. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ليس الأمر كما يظن هؤلاء المشركون من أنهم لا يعاقبون على شركهم ومعصيتهم ربهم، بل إذا بلغت نفس أحدهم التراقي عند مماته وحشرج بها).

وقال ابن زيد: (﴿ التَّرَاقِيَ ﴾: نفسه). قال القرطبي: (وقيل: ﴿ كَلَّا ﴾ معناه حقاً، أي

حقاً أن المساق لله ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ أي إذا ارتقت النفس إلى التراقي).

والتراقي: جمع تَرْقُوة، وهي العظام المكتنفة لِنُقْرَةِ النَّحر ـ بين ثُغرة النحر والعاتق ـ، وهو مقدّم الحلق من أعلىٰ الصدر، موضع الحَشرجة. وقد يكنىٰ عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي، والمقصود: تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾. ـ هو على وجه الاستبعاد واليأس ـ قال ابن عباس: (أي: هل من راق يرقي). وقال أبو قلابة: (هل من طبيب شاف). وقال ابن زيد: (وقال أهله: من ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به؟ وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد نزل به شيئاً).

وقيل: بل المعنىٰ: من رَقِيَ يَرْقىٰ، إذا صَعِدَ. قال أبوالجوزاء، عن ابن عباس: (﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قال قيل: مَنْ يَرْقىٰ بروحِه، ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟).

وعلى هذا فإنه يكون من كلام الملائكة. وكلا المعنيين وارد منسجم مع السياق والإعجاز.

وقد أظهر عاصم وقوم النون في قوله تعالىٰ: ﴿ مَنْ رَاقٍ﴾ واللام في قوله: ﴿ بَلْ رَانَ﴾ [المطففين: 14] لئلا يشبه مَرَّاق وهو بائع المَرْقة، وبَرَّان في تثنية البر. قال القرطبي: (والصحيح ترك الإظهار، وكسرة القاف في ﴿ مَنْ رَاقٍ﴾ وفتحة النون في ﴿ بَلْ رَانَ﴾ تكفي في زوالِ اللبس).

قلت: وكلام القرطبي مناسب في هذا المقام، لئلا يفهم قوم وجوب مثل هذا الوقف.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾. أي: وأيقن الإنسان حين عاين الملائكة أنه مفارق الدنيا والأهل والمال والولد.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾. فيه أقوال متقاربة ومتكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (التفت عليه الدنيا والآخرة. يقول: آخرَ يوم من أيام الدنيا، وأولَ يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدَّة بالشدَّة إلا مَن رحم الله).

2 ـ وقال عكرمة: (﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾: الأمر العظيم بالأمر العظيم).

وقال مجاهد: (بلاء ببلاء. يقول: تتابعت عليه الشدائد). قال الضحاك: (اجتمع

عليه أمران: الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه).

3 ـ وقال الشعبي: (المعنىٰ التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدّة الكرب). وقال قتادة: (أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدىٰ رجليه على الأخرى).

4 ـ وقال سعيد بن المسيب والحسن: (هما ساقا الإنسان إذا التفتا في الكفن). وقال زيد بن أسلم: (التفت ساق الكفن بساق الميت). وقال الحسن أيضاً: (ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه ، ولقد كان عليهما جوّالاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾. أي المرجع والمآب. والمساقُ: المصدر من ساق يسوق ، وذلك أن الملائكة ترفع الروح فتسوقها عبر السماوات إلى السماء التي فيها الله تعالىٰ. ـ هذا إن كان الميت من أهل الإيمان ـ. وأما الكافر أو الفاجر فتساق روحه إلى السماء الدنيا فقط ولا يفتح لها ثم يقول الله تعالىٰ في الحالتين: [أعيدوا عبدي إلى الأرض ، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى] الحديث[1].

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: 61 ـ 62].

وفي سنن ابن ماجة ـ في احتضار الكافر ـ من حديث أبي هريرة مرفوعاً:

[فيقال: لا مَرْحباً بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث. ارجعي ذميمةً ، فإنها لا تُفْتَحُ لكِ أبواب السَّماء ، فيُرْسَلُ بها من السماء ، ثم تصيرُ إلى القبر][2].

وأخرج الحاكم وابن ماجة وابن أبي عاصم بإسناد رجاله ثقات عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [إذا كان أجَلُ أحدِكم بِأَرْض ، أَوْثَبَتْهُ إليها الحاجةُ. (وفي رواية: أثبتَ الله له إليها حاجة) فإذا بلغ أقصىٰ أثرِه ، قبضَهُ الله سبحانه. فتقول الأرض يوم القيامة: ربّ ! هذا ما استودعتني][3].

---

(1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. أخرجه أحمد (4/ 288) ، وأبو داود (2/ 281) ، والحاكم (1/ 37 ـ 40) ، والنسائي (1/ 282) مختصراً ، من حديث البراء.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4262) ، كتاب الزهد. باب ذكر الموت والاستعداد له. وإسناده صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3437).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2/ 566) ، والحاكم (1/ 41 ـ 42) ، وابن أبي عاصم في =

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. إخبار عن الكافر كان في الدنيا مكذباً بالحق معرضاً عن الإيمان والعمل الصالح. قال قتادة: (لا صدق بكتاب الله ولا صلى لله ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ كذب بكتاب الله، وتولىٰ عن طاعة الله).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ﴾. قال ابن عباس: (يختال). وقال زيد بن أسلم: (يتبختر).

قال النسفي: (وأصله يتمطط أي يتمدد، لأن المتبختر يمد خطاه، فأبدلت الطاء ياء لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة).

والمقصود: ثم انصرف إلى أهله مختالاً يتبختر، فهو يتمطط ـ يتمدد ـ من التكسّل والتثاقل عن داعي الحق.

وفي جامع الترمذي ودلائل البيهقي بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً: [إذا مشت أمتي المُطَيْطاءَ وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم][(1)].

والمُطيطاء: التبختر ومدّ اليدين في المشي. قال ابن الأثير: (وهي من المصغرات التي لم يُستعمل لها مكبر).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾. تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، لذلك الكافر المتبختر.

أخرج النسائي في «التفسير»، والطبراني في «المعجم» والحاكم في «المستدرك» بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال: [قلت لابن عباس: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ قال: قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل، ثم أنزله الله عز وجل][(2)].

= «السنة» (346)، والطبراني في«الكبير» (3/ 76/ 1). وقال البوصيري في «الزوائد» (ق 263/ 2): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات». وانظر «الصحيحة» (1222).

(1) حديث حسن في الشواهد. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2261)، والبيهقي في «الدلائل» (6/ 525)، والبغوي (4200) من حديث ابن عمر. وأخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية نعيم بن حماد برقم (187)، وكذلك ابن عدي (6/ 335).

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (658)، والطبراني (12298)، والحاكم (2/ 510) وصححه. ووافقه الذهبي. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة القيامة. آية (34 ـ 35). وله شواهد.

و ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ بمعنىٰ ويل لك[1] ، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره ولاء متكرراً مضاعفاً ، فَكُرِّر للتأكيد. كأنه قيل: ويل لك فويل لك ، ثم ويل لك فويل لك.

وقيل: ويل لك يوم الموت ، وويل لك في القبر ، وويل لك حين البعث ، وويل لك في النار. حكاه النسفي.

وقيل: المعنىٰ بُعْداً لك. فبعداً في أمر دنياك ، وبعداً لك فبعداً في أمر أخراك ـ حكاه الرازي عن القاضي. ثم قال: قال القفال: (هذا يحتمل وجوهاً: **أحدها** ـ أنه وعيد مبتدأ من الله للكافر.

والثاني: أنه شيء قاله النبي ﷺ لعدوه ـ يعني أبا جهل ـ فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالىٰ مثل ذلك.

والثالث: أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيّه بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنىٰ: ثم ذهب إلى أهله يتمطىٰ ، فقل له يا محمد: أولىٰ لك فأولىٰ ، أي احذر ، فقد قرب منك ما لا قبل لك به من المكروه).

وقيل: الأحسن أنه أفعل تفضيل خبر لمبتدأ يقدر كما يليق بمقامه. فالتقدير هنا: النار أولىٰ لك. يعني: أنت أحق بها ، وأهل لها ـ حكاه الزمخشري.

قلت: وكل ما سبق من وجوه الإعجاز البلاغي الذي يظهر وجوه الإعجاز القرآني ، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾. قال ابن عباس: (يقول: هملاً).

وقال مجاهد: (لا يؤمر ، ولا يُنهىٰ). وقال السدي: (يعني لا يبعث).

وقال ابن كثير: (والظاهر أن الآية تعمّ الحالين ، اي: ليس يترك في هذه الدنيا مُهْمَلاً لا يُؤمر ولا يُنهىٰ ، ولا يُترك في قبره سُدىً لا يُبعث ، بل هو مأمورٌ منهيٌّ في الدنيا ، محشورٌ إلى الله في الدار الآخرة. والمقصود هنا إثبات المعاد ، والردّ على من أنكره من أهل الزَّيغِ والجهل والعِناد).

---

(1) قال الشهاب: (هو محصل معناه المراد منه ، فإنه مثله ، فيرد للدعاء عليه ، أو للتهديد والوعيد). وعن الأصمعي: (أنها تكون للتحسر على أمر فات). وقيل: (أولىٰ: اسم وزنه «أفعل» من الويل. وقيل بل هو فعل ماض دعائيّ من (الولي) واللام مزيدة. أي أولاك الله ما تكرهه. أو غير مزيدة ، أي أدنىٰ الهلاك لك).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾. استدلال على الإعادة بالبدأة.

أي: ألم يكن الإنسان ماء مهيناً في قطرة تمنىٰ في الرحم. والنطفة: الماء القليل، من نطفَ الماء: إذا قطرَ. و﴿يُمْنَىٰ﴾ أي يراق من الأصلاب فيصب في الأرحام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾. أي: ثم كان دماً بعد النطفة فقَدّر الرحمن الخلق فسواه تسوية، وعدّله تعديلاً، بجعل الروح فيه، فجعله ناطقاً سميعاً بصيراً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: فجعل من هذا الإنسان بعد ما سواه خلقاً سوياً أولاداً له، ذكوراً وإناثاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾. أي: أليس الذي أنشأ هذا الخلق البديع، فبدأ خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم صيره إنساناً، له أولاد ذكور وإناث، ﴿بِقَادِرٍ﴾ أن يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا؟ فإن الإعادة أهون من الابتداء.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن موسىٰ ابن أبي عائشة قال: [كان رجل يُصَلِّي فوق بيته وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك، فبلىٰ، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ][1].

قال أبو داود: قال أحمد: (يعجبني في الفريضة، أن يدعو بما في القرآن).

تم تفسير سورة القيامة
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
غروب شمس يوم السبت 3/ ذي القعدة/ 1426 هـ
الموافق 3/كانون الأول/2005 م



(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (884) ورجاله رجال البخاري ومسلم، وجهالة الصحابي لا تضر.

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ «لا» التي تسبق القسم هي نفي لمزاعم الكفار ، ثم يأتي القسم.

2 ـ الذي يخلق يعيد ، ولا مفرّ للمكذب بالبعث من النار.

3 ـ نضّر الله امرأ سمع حديث المصطفىٰ ﷺ فنقله ورواه بأمانة ، فإنه رب مُبَلَّغٍ أوعىٰ من سامع ، ورب حامل فقه ليس بفقيه.

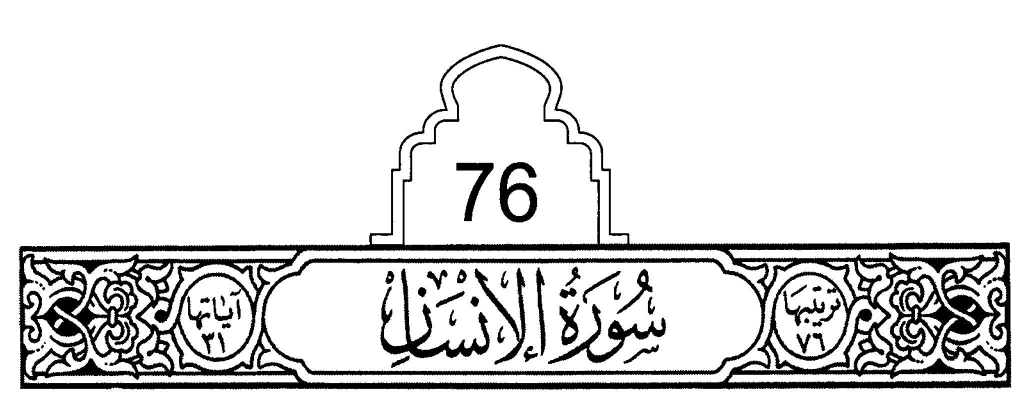
4 ـ إن الله تعالىٰ يتجلىٰ للمؤمنين يوم القيامة يضحك.

5 ـ حُقَّ لوجوه المؤمنين أن تنضر وهي تنظر إلى خالقها عز وجل.

6 ـ حُقَّ لوجوه الكفار أن تكون باسرة ، ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾.

7 ـ كان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك ، فبلىٰ.





وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (31).

قال البخاري في كتاب الجُمعة: حدثنا أبو نُعيم ، حدثنا سفيان ، عن سَعد بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن هُرمُزَ الأعرج ، عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنه قال: [كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة ، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾][1].

موضوع السورة

قصة الإنسان في الدارين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ خَلْقُ الله الإنسان من نطفة فجعله سميعاً بصيراً ، وهداهُ لاختيار أحد السبيلين ليكون إما شاكراً وإما كفوراً.

2 ـ نَعْتُ حال الكافرين في السلاسل والجحيم ، ونَعْتُ حال المتقين في جنات النعيم.

3 ـ ذِكْرُ ما في الجنة لأهلها من النعيم والفضل العميم ، وهو تكرمة لهم من الله العلي الكريم.

4 ـ امتنان الرحمن عز وجل على نبيه الكريم ، بهذا التنزيل العظيم ، ودعوته للاستعانة بالصبر والصلاة على مكر المجرمين، الذين توعدهم الله سوء العذاب في نار الجحيم.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (891) ، ورواه مسلم (880) من حديث سفيان الثوري به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 3. **قوله تعالى**: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

في هذه الآيات: خَلْقُ الله تعالى الإنسان من نطفة فجعله سميعاً بصيراً، وتوضيح السبيلين له ليختار لنفسه أن يكون شاكراً أو كفوراً.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

قال سيبويه: (﴿هَلْ﴾ بمعنىٰ قد). وقال الفرّاء: («هل» تكون جَحْداً، وتكونُ خَبَراً، فهذا من الخبر). فهو كما تقول: هل أعطيتك؟ تُقَرِّره بأنك أعطيته. والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟. وقيل: (هي بمنزلة الاستفهام، والمعنىٰ أتىٰ). قلت: هَلْ ـ في لغة العرب ـ للاستفهام، وقد تُصرف مجازاً إلى معاني أخرىٰ، والأنسب للسياق هنا التقرير. قال الشهاب: (أي الحمل على الإقرار بما دخلت عليه، والمقرر بِهِ من ينكر البعث).

والمرادُ بالإنسان جنس بني آدم. قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أَوْجَدَهُ بعد أن لم يكن شيئاً يُذكر، لحقارتهِ وضَعفه).

وقد علم الله تعالى أن جواب القوم: نعم، قد مضىٰ دهر طويل لا إنسان فيه. فيقال لهم: فالذي أوجدهم بعد أن لم يكونوا، كيف يمتنع عليه إحياؤهم بعد موتهم؟ حكاه القاسمي.

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾.

بيان وتفصيل لبدء ذلكَ الإيجاد والكون بعد عدم. وقوله: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ يعني أخلاط، واحدها مِشْج وَمَشِيج. ويقال: مشجْتُ هذا بهذا أي خلطته، فهو مَمْشُوج

ومشيج ، أي مَخلوط وخليط. قال ابن عباس: (ماء المرأة وماء الرجل يمشجان). وقال عكرمة: (ماء الرجل وماء المرأة يختلطان).

وقال الربيع: (الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة).

وعن قتادة قال: (الأمشاج: اختلط الماء والدم، ثم كان علقة، ثم كان مضغة).

وقال أيضاً: (﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أطوار الخلق، طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، وطوراً عظاماً، ثم كسىٰ الله العظام لحماً، ثم أنشأهُ خلقاً آخر، أنبت له الشعر).

والمقصود: خلق الله تعالى الإنسان من اختلاط ماء الرجل بماء المرأة، ثم نقله بعد ذلكَ من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولونٍ إلى لون.

وقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾. هو سرّ وغاية الخلق. أي نختبره ونمتحنه، كما قال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [الملك: 2].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾. أي: فجعلنا له سمعاً وبصراً يساعدانه على طاعة الله أو معصيته.

وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾. قال مجاهد: (أي بيّنا له السبيل إلى الشقاء والسعادة). وقال عكرمة: (بيّنا له طريق الخير وطريق الشّر).

وقال النسفي: (بيّنا له طريق الهدىٰ بأدلة العقل والسمع).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: 52].

فهذه الهداية المذكورة في قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ والآيات السابقة بعدها هداية الدلالة والإرشاد ـ هداية الرسل وإقامة حجة الله على عباده ـ وهي المرتبة الثانية من مراتب الهداية كما وردت في الكتاب والسنة. فمراتب الهداية:

أ ـ الهداية العامة لجميع الخلق لمصالحهم.

ب ـ هداية الدلالة والإرشاد.

ج ـ هداية التوفيق والإلهام.

ء ـ الهداية إلى الجنة يوم القيامة.

وقد فصلت هذا البحث في كتابي: «أصل الدين والإيمان، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان»، فلله الحمد والمنة.

فهداية السبيل هنا هي بيان طريق النجاة والسعادة في الدارين، وقد قام بذلكَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أكمل وجه.

ففي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقاً عليهِ أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم...] الحديث[1].

وقوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾. قال قتادة: (إما شاكراً للنعم وإما كفوراً لها).

قال ابن جرير: (فيكون قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالاً من الهاء التي في هديناه، فيكون معنىٰ الكلام إذا وجه ذلكَ إلى هذا التأويل: إنا هديناهُ السبيل، إما شقياً وإما سعيداً). وقيل التأويل: إنا بينا لهُ طريق الجنة، وعرفناه سبيله، إن شكر، أو كفر.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [والقرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك، كُلُّ الناس يغدو، فبايعٌ نفسَهُ، فمعتِقُها، أو موبِقها][2].

قال القرطبي: (وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنىٰ المبالغة، نفياً للمبالغة في الشكر، وإثباتاً لها في الكفر، لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّىٰ، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتفِ عن الكفر المبالغة).

والمقصود: لما كان الشكر قلّ من يتصف به قال: ﴿شَاكِرًا﴾، ولما كان الكفر كثيراً

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (6/ 18)، كتاب الإمارة. وانظر مختصر صحيح مسلم (1199)، ورواه أحمد (2/ 161)، (2/ 191).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (223)، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، في ختام حديث.

من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر قال: ﴿ كَفُورًا﴾ بصيغة المبالغة، والله تعالى أعلم.

4 ـ 12. **قوله تعالىٰ:** ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

في هذه الآيات: وَصْفُ حال الكافرين في السلاسل والجحيم، ونَعْتُ حال المتقين في الملذات والسرور والنعيم، فإنهم كانوا قبل ذلك محسنين، يعظمون أوامر ربهم ويخشون يوم الحشر العظيم.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾.

السلاسل: القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعاً كما مضىٰ في «الحاقة». والأغلالُ جمع غُلّ. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: إنا أعتدنا لمن كفر نعمتنا وخالف أمرنا سلاسل يُسْتوثق بها منهم شدّاً في الجحيم ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ يقول: وتشدّ بالأغلال فيها أيديهم إلى أعناقهم. وقوله: ﴿وَسَعِيرًا﴾ يقول: ونار تُسعر عليهم فتتوقد).

وعن جبير بن نُفير، عن أبي الدرداء كان يقول: (ارفعوا هذه الأيدي إلى الله جل ثناؤه قبل أن تُغَلَّ بالأغلال). وقال الحسن: (إن الأغلال لم تجعل في أعناقِ أهل النار، لأنهم أعجزوا الربَّ سبحانه ولكن إذلالاً).

وفي جامع الترمذي ومسند أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحشر المتكبرون يوم القيامةِ أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل

مكان ، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسقونَ من عُصَارةِ أهل النار ، طينة الخبال][1] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ .

الأبرار : أهل الصدق والوفاء بامتثال ما أمر الله تعالى . واحدهم بَرٌّ . والكأس : كل إناء كان فيه شراب . والكافور : مزاج يجمع بين التبريد والرائحة الطيبة .

وقال ابن عباس : (﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ يريد الخمر) . فنفس الخمر تسمىٰ كأساً ، وقيل : الكأس الزجاجة إذا كان فيها خمر . قال قتادة : (تمزج لهم بالكافور وتُختم بالمسك) . وقال الحسن : (بَرْدُ الكافورِ في طيب الزَّنجبيل) .

وقوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ . فيه أكثر من تأويل حسب إعراب ﴿ عَيْنًا ﴾ :

1 ـ قيل : يشربون عيناً . قال الزجاج : (المعنىٰ من عين) .

2 ـ وقيل : ﴿ عَيْنًا ﴾ بدل من كافور . قال الفراء : (إن الكافور اسم لعين ماء في الجنة) .

3 ـ وقيل : ﴿ عَيْنًا ﴾ بدل من كأس على الموضع .

4 ـ وقيل : ﴿ عَيْنًا ﴾ حال من المضمر في مزاجها .

5 ـ وقيل : نصب على المدح . قلت : وكل ما سبق يقتضيه الإعجاز لهذا القرآن العظيم . والمقصود : أن الأبرار يشربون في الجنةِ من عين نضاخة بشراب ممزوج بالكافور ، وقد جمع بين التبريد والرائحةِ الطيبة واللذاذة الرائعة .

وقوله : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ . قال مجاهد : (يقودونها حيث شاؤوا) . وقال قتادة : (مستقيد ماؤها لهم يفجرونها حيثُ شاؤوا) . وقال الثوري : (يُصرِّفونها حيث شاؤوا) . قال النسفي : (﴿ يُفَجِّرُونَهَا ﴾ يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم ﴿ تَفْجِيرًا ﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم) .

وقوله : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ . قال قتادة : (بطاعة الله ، وبالصلاة ، وبالحج ، وبالعمرة) .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : إن الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ، برّوا بوفائهم لله بالنذور التي كانوا ينذرونها في طاعة الله) .

---

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد والترمذي . انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2025) ، وصحيح الجامع الصغير (7896) .

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي اللهُ عَنها: أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطيعَ اللهَ فليُطِعْهُ، ومَنْ نذرَ أَنْ يعصي الله فلا يعصه][1].

وفي سنن النسائي بسند صحيح عن عمران بن حُصين عن النبي ﷺ قال: [النَّذْرُ نَذْران، فما كان من نَذْرٍ في طاعة الله فذلك لله، وفيه الوفاء. وما كان من نذر في معصية الله، فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه. ويكفّره ما يكفِّرُ اليمين][2].

وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾. أي: ممتداً طويلاً فاشياً. قال ابن عباس: (﴿مُسْتَطِيرًا﴾: فاشياً).

وقال قتادة: (استطار ـ والله ـ شرُّ ذلك اليوم حتىٰ ملأ السماوات والأرض).

والمعنىٰ كما قال ابن كثير: (ويتركون المحرَّمات التي نهاهم عنها خِيْفَةً من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شرّه مستطيرٌ، أي: منتشرٌ عام على الناس إلا من رحم الله).

وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾. الضمير في ﴿حُبِّهِۦ﴾ يعود على الطعام. قال مجاهد: (﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ قال: وهم يشتهونه). وقال سليمان بن قيس: (على حبهم للطعام).

والمقصود: وكذلكَ من صفات هؤلاء الأبرار التي برّوا بها أنهم يطعمون المحتاجين الطعام في حال مَحبّتهم وشهوتهم له.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177].

2 ـ وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92].

وفي صحيح مسلم عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هُريرة قال: [أتىٰ رسول الله ﷺ رَجُلٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6696)، (6700)، وأبو داود (3289)، والترمذي (1526)، والنسائي (1717)، ومالك في الموطأ (2/ 476)، وأحمد (6/ 36).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي (3599)، وتخريج «الإرواء» (8/ 217).

فقال: يا رسول الله! أيُّ الصَّدقة أعظَمُ؟ فقال: أن تَصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ ، تخشىٰ الفقر وتأمل الغنىٰ] الحديث[1] .

والمراد: أن خير الصدقة ما كان حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتكَ إليه ، وهو مفهوم قوله ﷺ: (وأنتَ صحيح شحيح تخشىٰ الفقر وتأمل الغنىٰ) .

وبعض المفسرين أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ على الله عز وجل ، أي على حبّ الله ، والأول أرجح وأنسب للمعنىٰ ولنظيره من الآيات والأحاديث كما سبق بيانه ، واللهُ تعالى أعلم .

وقوله: ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ . المسكين هو الفقير ذو الحاجة لا يجد ما يكفيه . واليتيم هو مَنْ فقد أبويه أو أحدهما في حال صغره . والأسير المحبوس . قال مجاهد: (الأسير: المسجون) . أو قال: (المحبوس) .

وقال قتادة: (لقد أمَرَ الله بالأُسراء أن يحسن إليهم ، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك) . وقال: (كان أسراهم يومئذ المشرك ، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه) .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ . قال مجاهد: (أما إنهم ما تكلموا به ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأثنىٰ بِهِ عليهم ليرغب في ذلكَ راغب) .

والمقصود: إنما يطعم هؤلاء الأبرار الفقراء واليتامىٰ والأسارىٰ لوجه الله ، فهم لا يتوقعون المكافأة ، ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلكَ ، علمه الله من قلوبهم فأثنىٰ عليهم بذلك .

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ . قال ابن عباس: (﴿عَبُوسًا﴾ ضَيِّقاً ، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: طويلًا) . وقال مجاهد: (﴿عَبُوسًا﴾ ، العابس الشفتين: ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ ، قال: تقبيض الوجه بالبُسُور) . وقال قتادة: (تعبس فيه الوجوه من الهول ، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: تقليصُ الجبين وما بين العينين ، من الهول) . وقال ابن زيد: (العَبوس: الشرّ ، والقمطرير: الشديد) .

قلت: والعرب تقول اقمطَرّ اليوم فهو مُقْمَطِرّ إذا كان صعباً شديداً . ويوم عبوس أي تعبس فيهِ الوجوه من هوله وشدته . فيكون المعنىٰ: إنا نخاف يوماً ذا عبوس ـ لكثرة

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1032) ، كتاب الزكاة . باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح .

عبوس الكفار فيه ـ ، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ صعباً شديد الأهوال.

وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾.

أي: فآمنهم الله بلطفه ورحمته من شدائد ذلك اليوم ، ومنحهم حسناً وبهاءً في وجوههم ، وسروراً في قلوبهم. قال الحسن: (﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ قال: نضرة في الوجوه ، وسروراً في القلوب). فإن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه.

وفي النضرة ثلاثة أوجه: قال الضحاك: (البياض والنقاء). وقال سعيد بن جبير: (الحسن والبهاء). وقال ابن زيد: (أثر النعمة. قال: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ قال: نعمة وسروراً).

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: 38 ـ 39].

وفي الصحيحين والمسند من حديث كعب بن مالك ـ حين تاب الله عليه بعد التخلف عن تبوك ـ قال: [فلما سَلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال: وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ.. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه كأنه قطعة قمر ، حتىٰ يُعْرَفَ ذلكَ منه][1].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾. قال قتادة: (يقول: وجزاهم بما صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ومحارمه ، جنة وحريراً).

والمقصود: أورثهم سبحانهُ بصبرهم على إقامة الدين الحق خير منزل وأرغد عيش وأحسن لباس.

13 ـ 22. قوله تعالى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4418) ، ومسلم (2769) ، والترمذي (3102) ، وأحمد (38716) ، والنسائي في «التفسير» (252) ، وابن حبان (3370) ، وهو جزء من حديث طويل.

شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: ذِكْرُ ما فيه أهل الجنة من الفضل العميم ، وروائع النعيم المقيم ، وما ذاكَ إلا تكرمةً لهم من الله العلي الكريم .

فقوله تعالى : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ .

الأرائك : جمع أريكة . قال ابن عباس : (يعني الحِجال) . وقال قتادة : (كنا نُحَدَّثُ أنها الحجالُ في الأسرّة) . ونصب ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ على الحال . والزمهرير : البرد الشديد . قال مُرَّة الهَمداني : (الزمهرير : البرد القاطع) .

والمقصود : جزاهم ربهم جنة متكئين فيها على الأسرة التي عليها الكلل ، ولا يرون حرَّ الشمس ولا برد الزمهرير ، بل أعذب المناخ وأروع المجلس .

وقوله : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ . قال ابن جرير : (وقرُبت منهم ظلالُ أشجارها) .

وقوله : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ . قال قتادة : (لا يردُّ أيديهم عنها بُعد ولا شوك) .

وقال مجاهد : (إذا قام ارتفعت بقدره ، وإن قعد تدلّت حتىٰ ينالها ، وإن اضطجع تدلّت حتىٰ ينالها ، فذلكَ تذليلها) .

والمقصود: ذُلِّل لهم اجتناءُ ثمر شجرها ، فقد دنت منهم أغصانها ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن : 54] ، وكما قال جلت عظمته : ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 23] . قال ابن زيد : (الدانية : التي قد دنت عليهم ثمارها) . وقال ابن كثير : (أي متىٰ تعاطاه دنا القِطفُ إليهِ وتَدلَّىٰ من أعلىٰ غُصنِه ، كأنهُ سامعٌ طائع) .

وقوله : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ . أي : وتدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشرب بآنيةٍ من فضة وكؤوس الفضة . والأكواب : جمع كوب . وهو كوز لا أذن له ، أو إبريق لا عروة له .

وقوله : ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ . قال النسفي : (كان تامة ، أي كونت فكانت قوارير بتكوين الله ، نصب على الحال) . وقيل : ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ في محل نصب خبر كان . وقال ابن جرير : (يقول : كانت هذه الأواني والأكواب قوارير ، فحوّلها الله فضة . وقيل : إنما قيل : ويطاف عليهم بآنية من فضة ، ليدلّ بذلك على أن أرض الجنة فضة ، لأن كلّ آنية تُتَّخَذُ ، فإنما تُتخذ من تربة الأرض التي فيها ، فدلَّ جلّ ثناؤهُ بوصفة الآنية متىٰ يطاف

بها على أهل الجنة أنها من فضة ، ليعلم عباده أن تربة أرض الجنة فضة).

وقوله: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾. قال الحسن: (صفاء القوارير في بياض الفضة). وقال مجاهد: (فيها رقة القوارير في صفاء الفضة). ونصب ﴿قَوَارِيرَا۟﴾ هنا علىٰ البدلية أو «تمييزاً» لتبيان الله له بقوله: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾. والمقصود: هذه القوارير الموصوفة تجمع بين صفاء الزجاج وبياض الفضة ، والقوارير لا تكونُ عادة إلا من زجاج ، فجعلها اللهُ من فضة شفافة يُرىٰ ما في باطنها من ظاهرها مما لا نظير لهُ في الدنيا.

وقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾. أي مصنوعة في حجومٍ على قدر ريِّ طالبيها من أهل الجنة ، وهو أبلغ في الاعتناءِ والتشريف والتكريم وحسن الضيافة. قال الحسن: (قُدِّرت لريّ القوم). وقال سعيد: (قدر ريِّهم). وقال مجاهد: (لا تنقص ولا تفيض).

وقال ابن جرير: (قدّرها لهم السُّقاة يطوفون بها عليهم).

وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾. قال مجاهد: (يأثُرُ لهم ما كانوا يشربون في الدنيا فيحبِّبُه إليهم). وقال قتادة: (تمزج بالزنجبيل).

والمقصود: يسقون ـ أي الأبرار ـ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ أي: خمراً مزجت بالزنجبيل. قال القاسمي: (أي ما يشبهه في الطعم. وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به). وقال ابن كثير: (فتارة يُمزَجُ لهم الشرابُ بالكافور وهو باردٌ ، وتارةً بالزنجبيل وهو حارٌّ ، ليعتدل الأمرُ ، وهؤلاء يُمزَجُ لهم من هذا تارة ومن هذا تارةً. وأما المقرَّبون فإنهم يشربونَ من كلٍّ منهما صِرْفاً ، كما قال قتادة وغير واحد).

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾. السلسبيل في لغة العرب: اسم لماء في غاية السلاسة ، حديد الجرية ، يسوغ في الحلوق. قال عكرمة: (اسم عين في الجنة). وقال مجاهد: (سميت بذلك لسلاسة سيلها وجدة جريها).

وقوله: ﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿زَنجَبِيلًا﴾ ، فسميت العين زنجبيلا لطعم الزنجبيل فيها. والعرب تستلذه وتستطيبه ، وقد جمع بين سلاسة الانحدار وسهولة المساغ والمذاق الطيب.

وقوله: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾. أي: ويطوف على أهل الجنةِ غلمانٌ ينشئهم الله لخدمةِ المؤمنين ، أو ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى قائمين على خدمة أصحاب النعيم ، وهم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالة واحدة وسن واحدة لا يتغيرون عنها. وقال قتادة: (﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي لا يموتون). والمعنىٰ الأول أرجح.

قال القرطبي: (﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي باقون على ما هم عليهِ من الشباب والغضاضةِ والحُسن ، لا يَهْرَمونَ ولا يتغيرون ، ويكونون على سنّ واحدة على مر الأزمنة. وقيل: مخلّدون لا يموتون. وقيل: مُسَوَّرون مَقَرَّطون ، أي مُحَلَّونَ والتخليد التحلية).

أخرج أبو نعيم في «الحلية» ، والطبراني في «الأوسط» ، بسند حسن في الشواهد عن أنس بن مالك قال: [سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين لم يكن لهم ذنوب يعاقبون بها فيدخلون النار ، ولم تكن لهم حسنة يجازون بها فيكونون من ملوك الجنة؟ فقال النبي ﷺ: هم خدم أهل الجنة][1].

وله شاهد عند ابن مندة في «المعرفة» عن سنان بن سعد عن أبي مالك قال: سئل النبي ﷺ عن أطفال المشركين؟ قال: [أطفال المشركين هم خَدَمُ أهل الجنة][2].

وقوله: ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾. أي: وإذا نظرت إليهم في حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم وسرعة انتشارهم في قضاء حوائج السادة ظننتهم لؤلؤاً مفرقاً منثوراً. وأما الحور العين فشبَّههن باللؤلؤ المكنون المخزون لأنهن لا يُمتهنَّ بالخدمة.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾.

﴿ ثَمَّ ﴾ ظرف مكان. والمقصود: وإذا رأيت هناك في الجنة ـ يا محمد ـ ورميت بطرفك في أرجائها رأيت مملكة لله عظيمة وسلطاناً باهراً وكرامة لهؤلاء الأبرار في الكسوة والطعام والشراب وألوان الملذات وروعة الخدمة.

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث أبي سعيد مرفوعاً: [إن أدنىٰ أهل الجنة منزلاً رجلٌ صرفَ الله وجهه عن النار قِبَل الجنة... فيقول: أي رب أدخلني الجنة ، فيدخلُ الجنة ، فإذا دخلَ الجنة قال: هذا لي؟ فيقول الله لهُ: تمنَّ ، فيتمنىٰ ، ويذكره الله عزَّ وجلَّ: سَلْ مِنْ كذا وكذا ، حتىٰ إذا انقطعت به الأماني ، قال الله: هو لك وعشرةُ أمثالِه ، ثم يدخله اللهُ الجنة ، فيدخلُ عليه زوجتاهُ من الحور العين ، فيقولان: الحمدُ

---

(1) صحيح لغيره. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 308) من طريق الطبراني. وأخرج الجملة الأخيرة منه أبو يعلىٰ في «مسنده» (1011 ـ 1012) ، ويشهد له أيضاً ما أخرجه البزار في مسنده (232). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1468).

(2) رواه ابن مندة في «المعرفة» (2/ 261/ 1) ، ويشهد له ما قبله. انظر صحيح الجامع الصغير (1035) ، والسلسلة الصحيحة (1468) ، والحديث صحيح في الشواهد.

لله الذي أحياكَ لنا ، وأحيانا لكَ. فيقول: ما أعطيَ أحدٌ مثل ما أعطيتُ] الحديث[1].

وقوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

السندس: ما رقّ من الديباج ، والإستبرق: ما غلظ منه. قال الزجاج: (هما نوعان من الحرير). وقوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ يفيد أن ذلكَ اللباس ظاهر بارز للزينة والجمال.

فالرفيع منه كالقمصان مما يلي الأبدان ، والنوع الأغلظ على الظاهر وله البريق واللمعان. و﴿خُضْرٌ﴾ نعت للثياب.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [مَن يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ، ولا تبلىٰ ثيابه ، ولا يفنىٰ شبابه ، في الجنة ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر][2].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: [أهدىٰ أكيدر[3] دومة إلى النبي ﷺ جبة من سندس ، فتعجب الناس من حسنها. فقال: «لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»][4].

وفيهما من حديث البراء قال: [أهدي لرسول الله ﷺ ثوب حرير فجعلوا يعجبون من لينه ، فقال رسول الله ﷺ: تعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا][5]. وفي رواية: (خير منها وألين).

وقوله: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾. أي: وحلاّهم ربهم أساور ـ جمع أسورة ـ من فضة. والمقصود بذلك: حلية الأبرار. وأما المقرّبون فتميزوا عنهم كما قال جل ذكره: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: 23].

وقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾. قال أبو قلابة وإبراهيم النخعي: (يؤتون بالطعام ، فإذا كان آخره أُتوا بالشراب الطهور ، فيشربون ، فتضمر بطونهم من ذلك ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك). قال ابن جرير: (﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾. يقول تعالى ذكره: وسقىٰ هؤلاء الأبرار ربُّهم شراباً طهوراً ، ومن طهره أنه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 120) ، (1/ 135) ، وأخرجه أحمد (3/ 27).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2836) ، كتاب الجنة ونعيمها. وانظر كذلك (2824).

(3) أكيدر دومة: أي أميرها.

(4) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (2615) ، (3248) ، وصحيح مسلم (2469).

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3802) ، (5836) ، وأخرجه مسلم (2468) عن البراء.

لا يصير بولاً نَجِساً ، ولكنه يصير رشحاً من أبدانهم كرشح المسك).

وقال النسفي: (﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ ليس برجس كخمر الدنيا لأن كونها رجساً بالشرع لا بالعقل ولا تكليف ثمّ ، أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة وتدوسه الأقدام الدنسة).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾. قال قتادة: (لقد شكر الله سعياً قليلاً. قال: غفر لهم الذنب وشكر لهم الحُسْنَىٰ). وقال مجاهد: (﴿مَّشْكُورًا﴾ أي مقبولاً). قال القرطبي: (والمعنىٰ متقارب ، فإنه سبحانهُ إذا قبل العمل شكره ، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل ، إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم).

والمقصود: يقال لأهل الجنة تكريماً لهم وإحساناً إليهم: إن هذا النعيم الذي وردتموه إنما كانَ جزاء لأعمالكم ، وكان سعيكم محموداً ومقبولاً ومرضياً.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً. وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تَنْعَموا فلا تَبأسوا أبداً ، فذلكَ قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾][1].

23 ـ 31. **قوله تعالى:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2837) ، كتاب الجنة ونعيمها. باب في دوام نعيم أهل الجنة.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ .

في هذه الآيات : امتنانُ الرحمن عز وجل على نبيهِ الكريم ، بما نزل عليهِ من هذا التنزيل العظيم ، ودعوته للاستعانة بالصبر والصلاة على مكر المجرمين ، الذين توعدهم الله سوء العذاب يوم الدين .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ . قال ابن عباس : (أنزل القرآن متفرّقاً : آية بعد آية ، ولم ينزل جملة واحدة ، فلذلكَ قال : ﴿نَزَّلْنَا﴾) .

قال النسفي : (﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لإنّ تأكيد على تأكيد لمعنىٰ اختصاص الله بالتنزيل ليستقر في نفس النبي ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيلهُ مفرقاً إلا حكمة وصواباً ومن الحكمةِ الأمر بالمصابرة) .

وقوله : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ . قال ابن عباس : (اصبر على أذىٰ المشركين ، هكذا قضيت) .

قال ابن كثير : (أي : كما أكرمتُكَ بما أنزلتُ عليكَ فاصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سَيُدَبِّرُكَ بِحُسْنِ تدبيره) .

وقوله : ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ . الآثم الفاجر في أفعاله ، والكفور : الكافر بقلبه . قال ابن جرير : (يقول : ولا تطع في معصية الله من مشركي قومكَ آثماً يريدُ بركوبه معاصيه ، أو كفوراً : يعني جحوداً لنعمه عنده ، وآلائه قبله ، فهو يكفر به ، ويعبد غيره) .

وقوله : ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ . أي : واذكر ـ يا محمد ـ ربك فادعهُ بكرة في صلاة الصبح ، وعشياً في صلاة الظهر والعصر . قال ابن زيد : (بكرة : صلاة الصبح . وأصيلاً : صلاة الظهر الأصيل) . وقيل : هو الذكر المطلق سواء كان في الصلاة أو في غيرها .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ . قال ابن عباس : (يعني الصلاة والتسبيح) . قال القرطبي : (﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة . ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ يعني التطوع في الليل ، قاله ابن حبيب) .

وقوله : ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ . توبيخ وتقريع لكفار مكة الذين آثروا العاجلة وهي الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، فهم يحبون البقاء فيها وتعجبهم زينتها .

وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾. أي: ويدعونَ بين أيديهم يوماً عسيراً شديداً هم قادمون عليه، قد أثقلته المصائب والأهوال.

وقوله: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾. قال ابن عباس: (يقول: شددنا خلقهم). والمقصود: خلقناهم ابتداء، وشددنا أوصالهم بعضاً إلى بعض بالعروق والعصب.

وقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾. أي: لو شئنا لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾. قال قتادة: (إن هذه السورة تذكرة). أي: لمن تذكر واتعظ واعتبر.

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾. أي: فمن شاء أيها الناس اتخذ طاعة الله واتباع رسوله سبيلاً له، فإن في ذلك النجاة كل النجاة، والسعادة في الدارين.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. أي: وما اتخاذكم السبيل إلى ربكم أيها الناس إلا بمشيئته جلَّت عظمته، فإنه لا يُطاع سبحانه إلا بإذنه، كما لا يعصىٰ إلا بإذنه، فمشيئتهُ قاهرة لكل مشيئةٍ، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وقدره وشرعه، العليم بمن يستحق الهداية والنجاة، ولذلكَ ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أخرج الإمام أحمد في المسند، وابن أبي عاصم في «السنة»، بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تعجبوا بعمل أحد حتى تنظروا بما يختم له، فإن العامل يعمل زماناً من دهره، أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحول فيعملُ عملاً سيئاً. وإن العبد ليعملُ زماناً من دهره بعملٍ سَيِّئٍ لو ماتَ عليهِ دخل النار، ثم يتحول فيعملُ عملاً صالحاً. وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً استعملهُ قبل موتهِ فوفقه لعملٍ صالحٍ، ثم يقبضه عليه][1].

وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾. قال أبو السعود: (بيان لإحكامِ مشيئتهِ تعالى المترتبة على علمه وحكمته).

وقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أي: وأعدَّ اللهُ للظالمينَ الذين صرفوا مشيئتهم

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (120/3، 123)، (230/3، 257)، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (347، 353)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1334).

إلى معصيتِهِ عذاباً في نارِ جهنمَ مؤلماً موجعاً.

تم تفسير سورة الإنسان
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
صبيحة يوم الثلاثاء 6/ ذي القعدة/ 1426 هـ
الموافق 6/ كانون الأول/ 2005 م

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ خلق الله الإنسان ودلّه على طريقي الخير والشر.

2 ـ مراتب الهداية:

أ ـ الهداية العامة للخلق.

ب ـ هداية الدلالة والإرشاد.

ج ـ هداية التوفيق والإلهام.

ء ـ الهداية إلى الجنة يوم القيامة.

3 ـ الأبرار في الدنيا في الطاعات والقيام بالواجبات، ووفاء بالنذر وإطعامُ المساكين واليتيم والأسير والقرابات.

4 ـ الأبرار في الجنةِ في النعيم المقيم، تكرمةً لهم من الله رب العالمين.

5 ـ في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

6 ـ هذه السورة تذكرة لمن شاء أن يسلك طريق الحق.

7 ـ إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً استعملهُ قبل موتِهِ فوفقهُ لعمل صالحٍ، ثم يقبضه عليه.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (50).

الأحاديث الواردة في ذكرها:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت. قال: [شَيَّبَتْني هودٌ ، والواقعةُ ، والمُرسلاتُ ، وعَمَّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: [بينما نحن مع النبي ﷺ ، في غار بمنىٰ ، إذ نزلت عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ ، فإنه ليتلوها وإني لأتلقَّاها من فيه ، وإنَّ فاه لَرَطْبٌ بها ، إذ وَثَبت علينا حَيَّةٌ ، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها». فابتدرناها فذهبت. فقال النبي ﷺ: «وُقِيَتْ شَرَّكم كما وُقيتم شرَّها»][2]. قال عمر: (حَفِظْتُهُ مِنْ أُبَيٍّ في غارٍ بمنىً).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي اللهُ عَنهما أنّه قال: [إنَّ أُمَّ الفَضْلِ سَمِعَتْهُ وهو يقْرأُ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فقالت: والله يا بُنَيَّ لقد ذكَّرْتَنِي

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3297) ، كتاب التفسير. وانظر صحيح سنن الترمذي (2627).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1830) ، (4934) ، ومسلم (2234) ، (2235) ، وأخرجه أحمد (1/ 428) ، والحاكم (1/ 453) ، وابن حبان (708).

بقراءتك هذه السورة ، إنَّها لآخِرُ ما سمِعْتُ من رسول الله ﷺ ، يقرأُ بها في المغرب][1] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عُبيد الله ، عن ابن عباس ، عن أمِّهِ : [أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عُرفاً][2] .

موضوع السورة

الإقسام بالملائكة المرسلات
على نيل المؤمنين أرفع الدرجات
واستقرار المشركين في النار أسفل الدركات

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قسم الله تعالى بالملائكة الكرام ، يرسلها بالوحي إلى أنبيائه خير الأنام .

2 ـ ذكر أهوال القيامة للوقوف للحساب ، ووزن الأعمال والفصل بالثواب أو العقاب .

3 ـ إهلاك الله الكافرين ، وخلقه تعالى الإنسان من ماء مهين ، وجعله الأرض كفاتاً والجبال أوتاداً والماءَ فراتاً رحمة للعالمين ، فويل يومئذ للمكذبين .

4 ـ توجيه الكفار يوم القيامة إلى نار العذاب ، فقد استحقوا بجرائمهم أشد العقاب .

5 ـ وَصْفُ حال المتقين يوم الدين في جنات النعيم ، وتوعّد المجرمين المكذبين نار الجحيم ، جزاء بما كانوا يعملون .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (763) ، كتاب الأذان . باب القراءة في المغرب . وأخرجه كذلك برقم(4429) ، وأخرجه مسلم (462/ 173) ، ورواه أصحاب السنن .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (6/ 338) ، وإسناده على شرط البخاري ومسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 15. **قوله تعالى**: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (15)﴾.

في هذه الآيات: يقسم الله تعالى بالملائكة يرسلها بالوحي إلى أنبيائه. تعصف لسرعة طيرانها وتنشر أجنحتها آتية بما يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، حتىٰ توصل الوحي إلى الأنبياء، إعذاراً من الله إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه، وعذراً للمحقين ونذراً للمبطلين. فإذا النجوم محي نورها وذهب ضوؤها، وإذا السماء فتحت وشقت، ونسفت الجبال فقلعت من مكانها وطارت في الجو هباءً فاستوىٰ مكانها بالأرض، وإذا جعل للرسل وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، إنه يوم عظيم يعجب العبادُ منه لشدته ومزيد أهواله ضُرِبَ الأجل للرسل لجمعهم، يحضرون فيه للشهادة على أممهم. إنه يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الناس بأعمالهم فيفرَّقون إلى الجنة والنار، وما أعلمك بيوم الفصل؟! إنه أمر هائل لا يقادر قدره، وويل يومئذ للمكذبين من عذاب الله الذي أُعدَّ لهم.

فقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾. إقسام من الله بالملائكة ترسل بالمعروف.

روىٰ مسروق عن عبد الله قال: (هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي). وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح وغيرهم. وعن ابن عباس وابن مسعود: (إنها الرياح) ـ أرسلت متتابعة ـ ﴿عُرْفًا﴾: أي يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس.

والخلاف قائم بين المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم في توجيه الآيات إلى الرياح أو الملائكة. قيل. المرسلات والعاصفات والناشرات هي الرياح. والفارقات

والملقيات هي الملائكة ، ومنهم من قال إنها جميعاً الملائكة .

قلت : والراجح أنها الملائكة في جميع الآيات لوجوه :[1]

1 ـ لا مناسبة بين الريح والملائكة في موضوع القسم .

2 ـ ليس هناك من فارق يفصل الصفات الثلاثة الأولىٰ عن الصفتين الأخيرتين ليعلم أنهما لموصوفَيْن .

3 ـ توالي فاءات التعقيب يدل على أن الموصوف شيء واحد .

4 ـ السياق يفيد أن كل صفة موضحة لما قبلها .

5 ـ هذه الصفات بمجموعها تنسجم مع كون الموصوف الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ .

هي الملائكةُ . قال أبو صالح : (الملائكةُ تنشر الكتب) .

وقال قتادة : (﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ : هي الملائكة تلقي الذكر على الرسل وتبلغه) .

قال النسفي : (أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيّهن ، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي ، أو نشرن الشرائع في الأرض ، أو نشرن النفوس الموتىٰ بالكفر والجهل بما أوحين ، ففرقن بين الحق والباطل ، فألقين ذكراً إلى الأنبياء عليهم السلام) .

وقوله تعالى : ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ . قال ابن عباس : (يعني الملائكة) . وقال قتادة : (عذراً من الله ، ونُذْراً منه إلى خلقه) . أو قال : (عذراً لله على خلقه ، ونذراً للمؤمنين ينتفعون به ، ويأخذون به) . والمقصود : إرسالُ الملائكةِ إعذارٌ من الله إلى الخلق ، وإنذارٌ لهم عقابه إن خالفوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ . هو جواب القسم . قال ابن كثير : (هذا هو المُقْسَمُ عليه بهذه الأقسام ، أي : ما وُعِدْتُمْ بِهِ من قيام الساعة ، والنفخ في الصور ، وبَعْثِ الأجساد ، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، ومجازاةُ كلّ عامل بعملِهِ ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، إن هذا كله ﴿ لَوَٰقِعٌ ﴾ ، أي : لكائن لا محالة) .

---

(1) انظر بعض هذه الوجوه في مختصر تفسير ابن كثير ـ نسيب الرفاعي ـ سورة المرسلات .

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: فإذا النجومُ ذهب ضياؤها، فلم يكن لها نور ولا ضوء).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴾ [التكوير: 2].

2 ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾ [الانفطار: 2].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴾. أي: شقّقت وصدّعت وتدلّت أرجاؤها، ووهت أطرافها. قال ابن عباس: (فرجت للطيّ). وقيل: فتحت: كقوله تعالى: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴾ [النبأ: 19].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴾. قال ابن عباس: (سُوِّيت بالأرض). وقال القرطبي: (أي ذهب بها كلها بسرعة).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴾ [طه: 105 ـ 107].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: 47].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: جُمعت).

وقال مجاهد: (أُجِّلَت). وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: (﴿ أُقِّتَتۡ ﴾: أُوعِدَت). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإذا الرسل أجلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة).

وقوله تعالى: ﴿ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴾. أي ليوم عظيم يعجب العباد منه لشدّتهِ ومزيد أهواله ضُرِبَ الأجل للرسل لجمعهم، يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

قال النسفي: (﴿ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴾ أخرت وأمهلت، وفيه تعظيم لليوم وتعجيب من هوله، والتأجيل من الأجل، كالتوقيت من الوقت).

وقوله تعالى: ﴿ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴾. بيان ليوم التأجيل، وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الناس بأعمالهم، فيفَرَّقون إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾. أي: وما أعلمكَ بيوم الفصل؟ فهو تعجيب آخر وتعظيم لأمر ذلك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾. وعيد أكيد، وتهديد شديد، يحمل في مفهومه ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليهم. قال القرطبي: (أي عذاب وخزي لمن كذّب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد. وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب، لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم).

16 ـ 28. **قوله تعالى:** ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول تعالى ذكره: ألم نهلك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد ﷺ ـ يعني ـ بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم، ثم نتبعهم الآخرين ممن جاؤوا بعدهم ممن أشبههم في عنادهم وتكذيبهم؟! ألم نخلقكم ـ أيها الناس ـ من ماء مهين، ثم سوّيناكم فقدرنا فنعم القادرون؟! ألم نجعل الأرض تضم الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها، والرواسي فوقها؟! ألم نسقكم الماء من ينابيعها وأنهارها؟! فويل يومئذ للمكذبين.

فقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾. قال النسفي: (الأمم الخالية المكذبة).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾. وعيد لأهل مكة، أي ثم نسلك بأمثالهم من الآخرين المكذبين ما فعلنا بالأولين لما كذبوا الحق وعاندوا الرسل.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾. قال القاسمي: (﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الأخذ العظيم ﴿نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي بكل من أجرم وطغىٰ وبغىٰ).

وقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾. قال ابن جرير: (بأخبار الله التي ذكرناها في هذه الآية، الجاحدين قدرته على ما يشاء).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾. قال ابن عباس: (يعني بالمهين: الضعيف).

والآية امتنان من الله تعالى على خلقه، واحتجاج على الإعادة بالبدء.

أخرج ابن ماجة بسند حسن عن بسر بن جحَّاش القُرَشي قال: [بزَق النبي ﷺ في كفه. ثم وضع أصبُعَهُ السبابة وقال: يقول الله عزَّ وجَلَّ: أنّىٰ تُعْجزُني، ابنَ آدم! وقد خلقتكَ مِنْ مِثْلِ هذِه. فإذا بَلَغَتْ نَفْسُكَ هذه (وأشارَ إلى حلقه) قُلْتَ: أتصدقُ. وأنّىٰ أوانُ الصدقة؟][1].

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾. قال مجاهد: (الرحم). قال ابن كثير: (يعني: جمَعناه في الرحم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرَّحم مُعَدٌّ لذلك، حافِظٌ لما أودِعَ فيهِ من الماء).

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. وهو مدة الحمل، وهي في جنس البشر بين ستة أشهر إلى تسعة أشهر.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾. أي: فقدرنا على ذلك، فنعم القادرون عليه نحن. وهو المعنىٰ إذا قرئ ﴿فقَدَرْنا﴾ بالتخفيف ـ قراءة أهل الكوفة والبصرة.

وأما إذا قُرئ: «فَقَدَّرنا» بالتشديد ـ قراءة أهل المدينة ـ فيكون المعنىٰ: فقدّرنا ذلك الخلق تقديراً: الأعضاء والصفات، وجعلنا كل حال من أحوال ذلكَ التخلّق على الصفة التي أردنا، فنعم المقدّر الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول جلّ ثناؤه: ويل يومئذ للمكذبين بأن الله خلقهم من ماء مهين). قلت: والأشمل من ذلكَ أن يقال: ويل يومئذ للمكذبين بنعمة الفطرة والعناية من الله بأطوار النشوء والتكوين واستواء الخلق.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾. قال ابن عباس: (يقول: كِنًّا). وقال أبو عبيدة: (كفاتاً: أوعية). قال القرطبي: (أي: ضامّة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها).

قلت: وأصلها في لغة العرب من كفتَ: أي ضَمَّ. قال الرازي: (والكِفات: الموضِعُ الذي يُكْفَتُ فيه شيء أي يُضَمّ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾).

وقوله تعالى: ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾. قال الشعبي: (بطنها لأمواتكم، وظهرها

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (2707)، كتاب الوصايا. وانظر صحيح ابن ماجة (2188).

لأحيائكم). وقال مجاهد: (﴿كِفَاتًا﴾ تكفت أذاهم وما يخرج منهم، ﴿أَحْيَآءً﴾ تواريه، ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ يدفنون: تكفتهم).

وقال الحارث: (يغيبون فيها ما أرادوا).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾. قال قتادة: (يعني الجبال).

وقال ابن عباس: (يقول: جبالاً مشرفات). والمقصود: أرسىٰ الله تعالىٰ الأرض بالجبال لئلا تميد وتضطرب. فهو امتنان منه سبحانهُ على عباده في معرض ذكر النعم الكبيرة المنسية.

وقوله: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾. قال ابن عباس: (يقول: عذباً). أي من السحاب أو العيون.

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. أي: بهذا السيل العظيم من النِّعم.

29 ـ 40. **قوله تعالى:** ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: توجيه الكفار يوم القيامة إلى نار العذاب، فقد استحقوا بجرائمهم وكفرهم وصدهم عن سبيل الله أشد العقاب.

فقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لهؤلاء المكذبين بهذه النِّعم، والحجج التي احتجّ بها عليهم يوم القيامة: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ من عذاب الله لأهل الكفر به).

وقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾. المراد لهب النار إذا ارتفعَ وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب. قال مجاهد: (قوله ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ قال: دخان جهنم). وقال قتادة: (هو كقوله: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29]. قال: والسرادق: دخان النار، فأحاط بهم سرادقها، ثم تفرق، فكان ثلاث شعب،

فقال: انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب: شعبة هاهنا ، وشعبة هاهنا ، وشعبة هاهنا).

وقوله تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾. أي: ثم إنّ ظل الدخان لا يغني بنفسه من اللهب ، فهو لا يظلهم من حرها ، ولا يُكنُّهم من لهبها. قال القرطبي: (﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: ليس كالظلّ الذي يقي حرَّ الشمس ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي لا يدفع من لهب جهنم شيئاً. واللهب ما يعلو على النار إذا اضطرمت ، من أحمر وأصفر وأخضر).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾. أي: وإنما يتطاير الشرر من لهبها كالقصر. قال ابن مسعود: (كالحصون). وقال ابن عباس ومجاهد: (يعني أصول الشجر). والشرر جمع شررة ، والشرار جمع شرارة ، وهو ما تطاير من النار من كل جهة ، وأصله عند العرب من شَرَّرت الثوب إذا بسطته للشمس ليجف. والمقصود: يتطاير شرر نار جهنم كالقصر ـ وهو البناء العالي ـ في العظم ، أو كارتفاع الغليظ من الشجر (جمع قصرة).

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾. فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: قيل المراد به الإبل السود ، ذكره الحسن وقتادة واختاره ابن جرير.

التأويل الثاني: قيل بل المراد قطع النحاس. وذكره ابن عباس.

التأويل الثالث: قيل بل المراد به حبال السفن ، ذكره مجاهد.

وقال البخاري: (حدثنا عمرو بن علي: حدثنا يحيىٰ: أخبرنا سفيان: حدثني عبد الرحمن بن عابس قال: [سمعت ابن عباس رضي اللهُ عنهما يقول: ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ قال: كُنّا نَعْمِدُ إلى الخشبة ثلاثةَ أَذْرُعٍ وفوق ذلكَ ، فنَرْفَعُه للشتاء فنسميه القَصْرَ ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾: حِبالُ السُّفُن تُجْمَعُ حتىٰ تكون كأوساط الرجال][1].

قلت: وخلاصة القول ـ فإن شدة اللهب المنبعث من سعير جهنم يتطاير شرره في السماء بشدة وسرعة ، حتىٰ ينشطر ثلاثة فروع ، كل واحد منهم كحبل السفينة المفتول والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. أي: فويل يومئذ للمكذبين بهذا الوعيد الذي توعده الله المكذبين ، للوحي والمرسلين.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾. أي: لا يتكلمون. وسئل ابن عباس رضي الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4933) ، كتاب التفسير ، سورة المرسلات. وانظر (4932).

عنهما عن هذه الآية ، وعن قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : 31] فقال : (في ذلكَ اليوم مواقف ، في بعضها يختصمون ، وفي بعضها لا ينطقون). أو المعنىٰ لا ينطقون بما ينفعهم فجعل نطقهم كلا نطق ـ حكاه النسفي.

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ . أي : ولا يسمح لهم في الاعتذار والتنصل ، فقد قامت عليهم حجة الله البالغة ، وفاتهم قطار الاعتذار والتوبة.

وقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . أي : بهذه الحقائق والمشاهد من الخزي يوم القيامة.

وقوله : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ . أي : ويقال لهم يوم يبعثون : هذا اليوم هو يوم يفصل الله فيه بين عباده ، فيتبين المحق من المبطل . والخطاب لهؤلاء المكذبين بالبعث.

وقوله : ﴿ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ . قال ابن عباس : (جمع الذين كذبوا محمداً والذين كذّبوا النبيين من قبله).

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ . قال الضحاك ، عن ابن عباس : (أي قدرتم على حرب : «فكيدوني» أي حاربوني). وقال القرطبي : (﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾ أي حيلة في الخلاص من الهلاك ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ أي فاحتالوا لأنفسكم وقاووني[1] ولن تجدوا ذلكَ). وهو تهديد شديد ووعيد أكيد ، مفاده أنهم سيكونون يومئذ في قبضة حكمه سبحانه فيهم ، فلا مفرّ ولا خلاص ولا نجاة.

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : 33].

2 ـ وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود : 57].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً إلى النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : [يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني][2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(1) في القاموس : التقاوي : تزايد الشركاء.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 17) ، وأحمد في المسند (5/ 160) في أثناء حديث طويل.

[يقبضُ الله الأرضَ ويطوي السماوات بيمينه ، ثم يقول: أنا الملك ، أين ملوك الأرض؟][1] .

وفي لفظ عند الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر : [يطوي الله السماوات يومَ القيامةِ ثم يأخذهن بيدهِ اليمنىٰ ثم يقول: أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين يأخذهن بيدهِ الأخرىٰ ثم يقول: أنا الملك ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟] .

وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . أي: بالبعث والجزاء ونوال الثواب ونكال العقاب .

41 ـ 50. قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠ ﴾ .

في هذه الآيات: نَعْتُ حال المتقين يوم الدين ، فهم في الملذات في جنات النعيم ، وتوعّد المجرمين المكذبين نار الجحيم ، جزاء بما كانوا يعملون .

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره: إن الذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه في الدنيا ، واجتنابِ معاصيه ﴿ فِى ظِلَٰلٍ ﴾ ظليلة ، وكنّ كنين ، لا يصيبهم أذىٰ حر ولا قرّ ، إذ كان الكافرون بالله في ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب . ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أنهار تجري خلال أشجار جناتهم) .

وقوله تعالى: ﴿ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ . أي: ويأكلون من سائر أنواع الثمار ، من كل ما اشتهوا وتمنوا من صنوف الفاكهة وثمار الأشجار .

وقوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . أي: ويقال لهم على سبيل الإحسان إليهم وحسن الاستقبال والضيافة: كلوا من هذه الفواكه واشربوا من هذه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2/ 48) ، كتاب التفسير ، وكذلك (6519) ، (7382) ، و(7413). وانظر للشاهد بعده: مختصر صحيح مسلم (1946).

العيون ، فلا تكدير عليكم ولا تنغيص ، ولا أذىٰ يلحق أبدانكم ، بل سرور وهناءة وعافية مقابل صبركم وحسن أعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ . أي: إنا كذلكَ نثيب الذين أحسنوا الإيمان وأخلصوا العمل.

وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾. أي: بتكريم الله المتقين ، وحسن مستقر الأبرار والصالحين.

وقوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ . تهديد شديد ، ووعيد أكيد.

قال ابن زيد: (عُني به أهل الكفر). والمقصودُ: كلوا معشر الكفرة في بقية آجالكم ، وتمتعوا ببقية أعمالكم ، فإنه مسنون بكم سنة الله في من سبقكم من المجرمين ، خِزي وعذاب في الدنيا ثم جحيم وسعير في الآخرة.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 70].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: 3].

وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ . أي: الذين كذبوا بما أخبر الله جلت عظمتهُ أنه فاعل بالمجرمين المستكبرين.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ . قال ابن كثير: (أي: إذا أُمِرَ هؤلاء الجهلةُ من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلكَ واستكبروا عنه. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾. أي: فبأي حديث غير هذا القرآن المعجز يصدقون إذا لم يؤمنوا به؟ وهو توبيخ للمشركين واستخفاف بعقولهم.

تم تفسير سورة المرسلات

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

عصر يوم الأربعاء 7/ ذي القعدة/1426 هـ

الموافق 7/كانون الأول/2005 م

دروس ونتـائج وأحـكام

1 ـ «المرسلات» من أخوات «هود». شَيَّبَت نبينا محمداً ﷺ قبل المشيب.

2 ـ ويل للمكذبين من عذاب الله يوم القيامة.

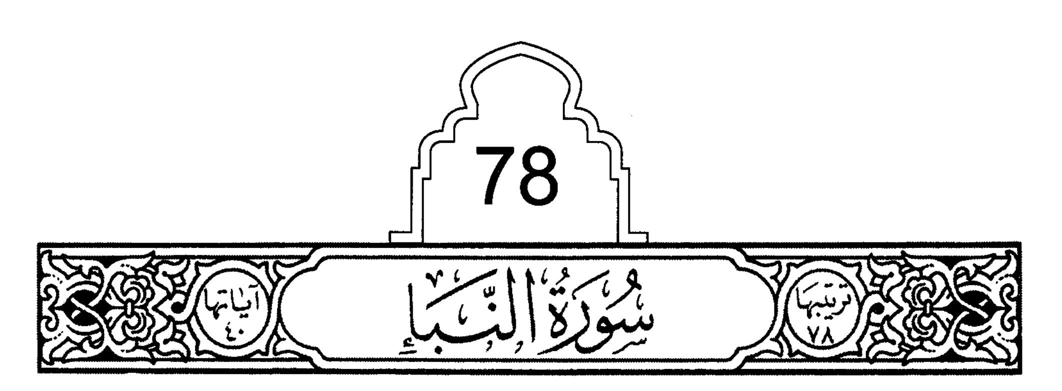
3 ـ يقول الله عز وجل: أنّىٰ تعجزني ابن آدم! وقد خلقتك من مثل هذه. فإذا بلغت نفسك هذه (وأشار إلى حلقه) قلت: أتصدق. وأنَّىٰ أوان الصدقة؟

4 ـ يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟

5 ـ ويل يومئذ للمكذبين بقدرة الله بعد هذا البيان.

6 ـ العباد المتقون خالدون في جنات النعيم، والمجرمون خالدون في نار الجحيم.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (40).

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت! قال: [شَيَّبَتْني هودٌ ، والواقعةُ ، والمرسلاتُ ، وعَمَّ يتساءلون ، وإذا الشمس كُوِّرت][1].

موضوع السورة

النبأ العظيم وأحوال الناس في الآخرة

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ تقريع المشركين في إنكارهم المعاد ، وبعث الأجساد ، عن طريق الاستفهام.

2 ـ تقرير الله تعالى آياته الكبيرة ، ونعمه على العباد الجليلة.

3 ـ تأكيد يوم الفصل للجزاء والحساب ، يوم ينفخ في الصور ويحشر الناس ويبدأ وزن الأعمال لنيل الثواب ونكال العقاب.

4 ـ نَعْتُ أهوال جهنم وأحوال سكانها في العذاب ، فقد كانوا على الكفر والتكذيب بالحساب.

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3297) ، كتاب التفسير. انظر صحيح سنن الترمذي (2627).

5 ـ نَعْتُ أحوال أهل السعادة في جنات النعيم ، فهم في الحدائق مع الكواعب والشراب والملذات وألوان التكريم .

6 ـ رهبة الموقف في أرض المحشر وإنصات الجميع لقرار الله العظيم ، فلا يملك أحد التكلم بالشفاعة إلا بإذن الله الرحيم .

7 ـ حث العباد على الاستعداد لذلك اليوم العظيم ، الذي يتمنىٰ فيه الكافر لو صار تراباً وتخلص من العذاب الأليم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 16. **قال تعالى:** ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

في هذه الآيات: تقريعُ الله تعالى المشركين في إنكارهم المعاد وبعث الأجساد، وتقرير آياته تعالى الكبيرة ونعمه الجليلة على العباد، فقد جعل الله الأرض مهاداً والجبال كالأوتاد، وخلق الأزواج والنوم والليل والنهار وجعل سبع سماوات شداد، وجعل الشمس كالسراج الوهاج، وأنزل من السحاب الماء الثجاج، ليحيي به الأرض وثمرات وجنات البلاد.

فقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾. إنكار من الله على المشركين إنكارهم وقوع القيامة. قال قتادة: (النبأ العظيم: البعث بعد الموت). قال القاسمي: (والاستفهام للتفخيم أو للتبكيت). وسمّاه سبحانه النبأ العظيم لأن أمر القيامةِ يحمل الهول الكبير، والحدث المفظع الباهر.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾. قال قتادة: (فصار الناس فيه فريقين: مصدق ومكذب، فأما الموت فقد أقروا به لمعاينتهم إياه، واختلفوا في البعث بعد الموت).

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾. تهديد شديد، ووعيد أكيد. قال النسفي: (﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاختلاف أو التساؤل هزؤاً ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عياناً أن ما يتساءلون عنه حق. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كرّر الردع للتشديد، و﴿ثُمَّ﴾ يشعر بأن الثاني أبلغ من الأول وأشد).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾. أي: ألم نجعل الأرض ممهدة لكم تمتهدونها وتفترشونها، فهي ساكنة قارة بأهلها ثابتة. قال قتادة: (﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾: أي بساطاً).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾. قال قتادة: (والجبال للأرض أوتاداً أن تميد بكم).

قال القرطبي: (أي: لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها).

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾. قال ابن كثير: (يعني: ذكراً وأنثىٰ، يستمتعُ كل منهما بالآخر، ويحصُل التناسُلُ بذلك، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21]).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾. السبت والسبات هو السكون. قال الرازي: (و«السُّبات» النوم، وأصلهُ الراحة، ومنهُ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾).

وقيل: إنما سمي السبت سبتاً، لأنه يوم راحة ودعة.

والمقصود: امتنانٌ من الله سبحانه على عباده أن جعلَ نومهم راحةً لهم ودعة، يسكنون فيه من عناء العمل والحركة في النهار، ويهدؤون خلاله كأنهم أموات ولم تفارقهم الأرواح.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾. قال قتادة: (سكناً).

وقال النسفي: (﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ستراً يستركم عن العيون إذا أردتم إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه). وقال ابن جرير: (﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يقول تعالى ذكره: وجعلنا الليل لكم غشاءً يغشاكم سواده، وتغطيكم ظلمته، كما يغطي الثوب لابسه، لتسكنوا فيه عن التصرف لما كنتم تتصرفون له نهاراً).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾. أي: وجعلنا النهار مشرقاً مضيئاً، ليناسب انتشاركم في طلب التكسب والمعاش، والتصرف بمصالح دنياكم، والتقلب في متاجركم و حوائجكم. قال مجاهد: (قوله: ﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ قال: يبتغون فيه من فضل الله).

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾. شداداً: جمع شديدة، أي محكمة قوية. وقيل غلاظاً، غلظ كل واحدة مسيرة خمس مئة عام. والمقصود: سقفنا فوقكم سبع

سماوات محكمة البنيان ، لا صدوع فيهن ولا فطور ، ولا يبليهن مرّ الليالي والأيام ، وَزَيَّنّاها بالكواكب الحسان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾. يعني بالسراج: الشمس. وقوله: ﴿وَهَّاجًا﴾ أي وَقّاداً مضيئاً. قال ابن عباس: (﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ يقول: مضيئاً). وفي رواية قال: (يقول سراجاً منيراً). وقال مجاهد: (﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ قال: يتلألأ).

وقال سفيان: (يتلألأ ضوؤه). والمقصود: وجعل سبحانه الشمس من رحمته وَهّاجة تتلألأ بالضياء والنور ، ويتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾.

المعصرات: السحاب. قال ابن عباس: (﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أي: مِنَ السحاب).

وقال الفرّاء: (هي السحاب التي تتحلّبُ بالمطر ولم تُمطر بعدُ ، كما يُقال: امرأةٌ مُعْصِرٌ: إذا دنا حيضُها ولم تحض). وقال ابن عباس في رواية أخرىٰ: (﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ قال: الرياح). وكأن المقصود أنها تستدرُّ المطر من السحاب.

والقول الأول أرجح: أن المعصرات هي السحاب ، واختاره ابن جرير وابن كثير وغيرهما.

وفي التنزيل ما يؤيد ذلكَ ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: 48].

وقوله: ﴿ثَجَّاجًا﴾. قال مجاهد: (مُنصبّاً). وقال الثوري: (مُتَتابعاً).

وقال ابن زيد: (كثيراً). قلت: وفي لغة العرب: ثَجَّ الماءَ سَيَّلَهُ. ومطرٌ ثجّاج: أي مُنْصَبٌّ جداً. فيكون الثجُّ هو الصبُّ المتتابع الكثير.

وفي الحديث: [أفضل الحجّ العجّ والثجّ][1]. والعجّ: هو رفع الصوت بالتلبيةِ. والثجُّ: سيلان دماء الهدي والأضاحي ، أو صبّ دماء البُدْن.

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح من حديث حمنة بنت جحش. قالت: [يا رسول الله ، إني امرأة أستحاض حيضة كثيرة شديدة ، فما ترىٰ فيها ، قد منعتني الصلاة والصوم؟ فقال: أنْعَتُ لكِ الكرسُفَ فإنه يُذْهِبُ الدَّمَ. قالت: هو أكثر من ذلك ، قال:

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في الجامع من حديث ابن عمر. انظر صحيح الجامع (1112).

فاتخذي ثَوْباً. فقالت: هو أكثر من ذلك، إنما أثجُّ ثجاً] الحديث[1].

وقد أورده الحافظ ابن كثير مستدلاً منه أن استعمال الثجّ إنما هو في الصبّ المتتابع الكثير.

وقوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾. أي: لنخرج بذلكَ الماء حبّاً كالحنطة والشعير وما يُدَّخر للأناسي والأنعام، و﴿وَنَبَاتًا﴾ كالكلأ والخضر الذي تأكله الدواب أو الزرع الذي يُؤكل رطباً.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾. أي: وبساتين ملتفة الأشجار. قال ابن عباس: (﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ قال: مجتمعة). وقال مجاهد: (ملتفة). وقال قتادة: (التف بعضها إلى بعض). والمقصود: تشعبت أغصان أشجار تلك البساتين والحدائق فأصبحت ملتفة بعضها ببعض.

قال الرازي: (قدّم الحب لأنه الأصل في الغذاء. وثنىٰ بالنبات لاحتياج الحيوانات إليه. وأخّر الجنات لأن الحاجة إلى الفواكه ليست بضرورية).

17 ـ 30. **قوله تعالى**: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تأكيدُ الله تعالى يوم الفصل ميقاتاً للحساب، يوم ينفخ في الصور ويحشر الناس لنيل الثواب ونكال العقاب، وتفتح السماء وتسير الجبال كالسراب، وتحضر جهنم ليصلاها الطغاة والمجرمون ويلقون سوء العذاب.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾. يوم الفصل: يوم القيامة، سمي كذلكَ لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه. قال قتادة: (هو يوم عظّمهُ الله، يَفصل الله فيه بين الأولين والآخرين بأعمالهم).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (287). وانظر صحيح سنن أبي داود (267).

قال النسفي: (﴿ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ وقتاً محدداً ومنتهىً معلوماً لوقوع الجزاء ، أو ميعاداً للثواب والعقاب).

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾. الصور: قَرْن. قال مجاهد: (﴿ أَفْوَاجًا ﴾: زمراً زمراً). والمقصود ابتداء يوم الفصل بالنفخ في الصور فإذا جميع الخلائق من الجن والإنس يجيئون زمراً زمراً ، وجماعة جماعة. قال ابن جرير: (وإنما قيل: ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ لأن كل أمة أرسل الله إليها رسولاً تأتي مع الذي أرسل إليها ، كما قال: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: 71]).

أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحبُ الصور قد التقمه وأصغىٰ سمعه وحنىٰ جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله! وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل][1].

وأخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه عند هذه الآية: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ قال: حدَّثني محمّد: أخبَرنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ قال: [قال رسول الله ﷺ: «ما بين النَّفختين أربعون». قال: أربعون يوماً؟ قال: أَبيْتُ. قال: أربعون شهراً؟ قال: أبَيْت ، قال: أربعون سنة؟ قال: أَبيتُ. قال: ثم يُنزِلُ الله من السماء ماءً فيَنْبُتون كما ينبُتُ البَقْلُ ، ليسَ من الإنسان شيء إلا يَبْلىٰ ، إلا عَظماً واحِداً وهو عَجْبُ الذَّنَبِ ، ومِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة][2].

وقوله تعالى: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾. قال القرطبي: (أي لنزول الملائكة ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: 25]. وقيل: تقطعت ، فكانت قطعاً كالأبواب). والمقصود: تتصدع السماء يومئذ وتتشقق بعد أن كانت من قبل شداداً لا فطور فيها ولا صدوع. وتصير ذات أبواب كثيرة لنزول الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾. أي: وتُجْتَثُّ الجبال يومئذ من أصولها ، فتصير هباءً منبثاً ، كالسراب يحسبه من يراه من بعيد ماءً ، وإنما هو هباء.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2431) ، (3243) من حديث أبي سعيد الخدري ، وإسناده حسن.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4935) ، كتاب التفسير ، وكذلك ـ حديث رقم ـ (4814) من حديث أبي هريرة.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: 88].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: 105 ـ 107].

4 ـ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: 47].

قال القاسمي: (﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي رفعت من أماكنها في الهواء. وذلكَ إنما يكون بعد تفتيتها وجعلها أجزاءً متصاعدة كالهباء. وفي الآية تشبيه بليغ. والجامع أن كلاً منهما يرىٰ على شكل شيء، وليس به. فالسراب يرى كأنه بحر وليس كذلك. والجبال إذا فتتت وارتفعت في الهواء، ترىٰ كأنها جبال وليست بجبال. بل غبار غليظ متراكم، يرىٰ من بعيد كأنه جبل).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾. أي مُرْصَدَةً مُهيأةً مُعَدَّةً مُجهَّزَة. و﴿مِرْصَادًا﴾ مفعال من الرَّصد، والرَّصَد: كل شيء كان أمامك.

قال القرطبي: (فجهنم مُعَدَّةٌ مترصّدة، مُتفعِّل من الرصْد وهو الترقب، أي هي متطلعة لِمَن يأتي. والمرصاد مِفعال من أبنية المبالغة كالمِعطار والمِغيار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار).

وقوله تعالى: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾. قال قتادة: (مأوىً ومنزلاً). والمقصود: أن جهنم ستكون منزل الطاغين ممن طغىٰ في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم.

وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾. «أحقاباً» جمع حُقْب، وهو الدهر أو المدة من الزمان، ولا عدد يحصره، بل كلما مضىٰ حقب تبعه آخر، ويستعمل عند قصد تتابع الأزمنة، والمعنىٰ: (ماكثين في النار ما دامت الدهور تتعاقب).

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾. أي: لا يجدون فيها برداً يبرد لهيب النار عنهم، إلا الغساق. ولا شراباً يرويهم من شدة العطش إلا الحميم.

وللمفسرين أقوالٌ في ذلك.

أ ـ قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾.

1 ـ قال ابن عباس: (البَرْد، النوم، والشراب: الماء). وقال أيضاً: (البرد: برد الشراب).

2 ـ قال الزجاج: (أي لا يذوقون فيها برد ريح، ولا ظل، ولا نومٍ).

3 ـ وقال الحسن وعطاء وابن زيد: (﴿بَرْدًا﴾: أي رَوْحاً وراحةً).

ب ـ قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾.

1 ـ قال أبو عبيدة: (الحميم: الماء الحار). وقال النحاس: (أصل الحميم: الماء الحار، ومنه اشتق الحمّام، ومنه الحمّىٰ، ومنه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: 43] إنما يراد به النهاية في الحر).

2 ـ وقال ابن زيد: (الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض ثم يُسْقونه. والغساق: الصديد الذي يخرج من جلودهم، مما تصهرهم النار في حياض يجتمع فيها فيسقونه). وقال إبراهيم: (الغساق: ما يقطر من جلودهم، وما يسيل من نتنهم). وقيل: الغساق الزمهرير، والأرجح أن يكون صديد أهل النار وقيحهم.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾. الوفاق بمعنىٰ الموافقة. قال ابن عباس: (يقول: وافق أعمالهم). وقال قتادة: (وافق الجزاء أعمال القوم أعمال السوء). و﴿جَزَآءً﴾ نُصب على المصدر، والتقدير: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم. قال الحسن: (كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم بما يسوءهم).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾. قال قتادة: (أي لا يخافون حساباً). والمقصود: أن هؤلاء الكفار لم يكونوا يؤمنون أن ثمَّ داراً يقاضون فيها على أعمالهم، ويحاسبون على جرائمهم وكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾. أي: وكذَّب هؤلاء الكفار بالوحي والنبوة تكذيباً كبيراً. قال الفراء: (هي لغة يَمانية فصيحة، يقولون: كَذَّبت به كِذّاباً، وخرقت القميص خِرَّاقاً، وكل فِعْل في وزن «فَعَّلَ» فمصدره «فِعَّال» مشدَّد في لغتهم).

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾. «كُلَّ» نُصب بفعل محذوف يدل عليه ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ﴾. والتقدير: وأحصينا كل شيء أحصيناه كتاباً. ونُصب ﴿كِتَـٰبًا﴾ على المصدر. قال القرطبي: (لأن معنىٰ أحصينا: كتبنا، أي كتبناه كتاباً).

قال ابن كثير: (أي: وقد عَلِمنا أعمال العباد كلهم، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم

على ذلكَ ، إن خيراً فخيرٌ ، وإن شرّاً فشرّ) .

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ . هو من أشدّ ما نزل في القرآن في خزي الكفار. قال قتادة: عن أبي أيوب الأزدي ، عن عبد الله بن عمرو ، قال: (لم تنزل على أهل النار آية أشد من هذه ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال فهم في مزيد من العذاب أبداً). رواه بسنده ابن جرير.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: 19 ـ 22].

3 ـ وقال تعالى: ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد رضي اللهُ عَنه ، عن النبي ﷺ قال: [أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون](1) .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال: [نارُكم جُزْءٌ من سبعين جُزءاً من نار جهنم. قيل: يا رسول الله ، إن كانت لكافية. قال: فُضِّلَتْ عليهن بتسعة وستين جُزْءاً كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّها](2) .

31 ـ 36. قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن أحوال أهل السعادة والتكريم ، أهل الخلود في جنات النعيم ، فهم في الحدائق مع الكواعب والشراب والملذات والترفيه والتنعيم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 118). وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان. بحث «النار: صفتها وصفة أهلها» (2/ 760).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (3265) ، كتاب بدء الخلق. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1976).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. المفاز من الفوز: وهو النجاة والظَّفر بالخير. والمفازة: واحدة المفاوِز، وهي الفلاة إذا قلّ ماؤها. قال الأصمعي: (سُمِّيت بذلك تفاؤلاً بالسلامةِ والفوز).

وعن مجاهد: (﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال: فازوا بأن نجوا من النار). وقال قتادة: (أي والله مفازاً من النار إلى الجنة، ومن عذاب الله إلى رحمته).

وعن ابن عباس: (﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال: مُتَنَزَّهاً). قلت: ولا تعارض بين القولين، فإن الفوز بالنجاة من العذاب إلى رضوان الله ورحمته هو غاية المتعة والتنزّه.

وقوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾. قال ابن جرير: (الحدائق ترجمة وبيان عن المفاز).

والحدائق: جمع حديقة، وهي البستان المحوّط عليه. والأعناب: جمع عنب، أي كروم أعناب. والمعنىٰ: إن المتقين يوم القيامة يتنزهون في حدائق الجنان، وكروم الأعناب، وهم في غاية المتعة والسرور، والأمن والراحة والحُبور.

وقوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾. الكواعب: النواهد. جمع كاعِب. والأتراب: الأقران في السن، جمع تِرْب.

قال ابن زيد: (الكواعب: التي قد نهدت وكعّبَ ثديها). والمقصود: وحوراً نواهد، أي: ثديهن نواهد لم يتدلَّين لأنهن أبكار عُرُب أتراب، أي في سِنٍّ واحدة. قال القاسمي: (﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي بنات فلكت ثديّهن، أي استدارت مع ارتفاع يسير ﴿أَتْرَابًا﴾ أي متساويات في السن).

وقوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾. قال ابن عباس: (مملوءة متتابعة). وقال عكرمة: (صافية). وقال الحسن: (مُترعة مملوءة). وفي لغة العرب يقال: أَدْهَقْتُ الكأس: أي ملأتها، وكأسٌ دِهاق أي ممتلئة. والمقصود: وَيُقَدَّمُ لهؤلاء الأبرار المتقين في الجنة كأس ملأىٰ من خمرٍ لذة للشاربين، ليجتمع عليهم بذلكَ جمال الحدائق والكواعب ولذة الشراب.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾. اللغو: الباطل. قال القرطبي: (هو ما يُلغىٰ من الكلام ويُطْرَح. قال: وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو، بخلاف أهل الدنيا). و﴿كِذَّٰبًا﴾ أي مكاذبة. أي لا يُكَذِّب بعضهم بعضاً ولا يسمعون كذباً. قال بعض العلماء: (اللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين، بل هو من أشد الأذىٰ لقلوبهم. فأرادَ الله إزاحة ذلكَ عنهم).

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾. قال النسفي: (﴿جَزَآءً﴾ مصدر، أي جزاهم جزاء ﴿مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾ مصدر، أو بدل من جزاء ﴿حِسَابًا﴾ صفة، يعني كافياً، أو على حسب أعمالهم). وفي لغة العرب: أعطاني فلاناً فأحسبني أي: كفاني. ومنه ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافِيَّ. والمقصود: كُلُّ ما سبق ذكره من ألوان السرور والنعيم، إنما جازىٰ الله به المتقين، فأعطاهم عطاء كافياً وافراً شاملاً كثيراً، مقابل ما قدَّموا من العطاء لهذا الدين وجاهدوا في سبيل الله جهاداً كبيراً.

37 ـ 40. قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن نفسه أنه رب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، ولا يملك أحد أن يتكلم يوم الحشر إلا بإذنه الكريم، فهو يوم رهيب يتمنىٰ الكافر فيهِ لو صار تراباً وتخلص من العذاب المهين الأليم.

فقوله: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾. إخْبَارٌ من الله تعالى عن عظمته وجبروته ورحمته. وقرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو ﴿ربُّ﴾ بالرفع على الاستئناف، «الرحمنُ» خبره. أو بمعنىٰ هو رب السماوات، ويكونُ «الرحمن» مبتدأ ثانياً.

وقرأ ابن عامر وبعض أهل البصرة والكوفة ﴿ربِّ﴾ بالخفض، نَعْتاً لقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾. والتقدير: جزاء من ربك ربِ السماواتِ الرحمنِ. وهذه القراءة بالخفض هي الأشهر بين القرّاء.

وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾. قال مجاهد: (كلاماً). وقال ابن زيد: (لا يملكون أن يخاطبوا الله. والمخاطب: المخاصم الذي يخاصم صاحبه). والمقصود: لا يملك أحد في ذلك اليوم الرهيب ابتداء مخاطبته سبحانه إلا بإذنه.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: 105].

2 ـ وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255].

وفي الصحيحين والمسند من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [يجمع الله عز وجل الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعُهم الداعي وينفذُهم البصر] الحديث(1).

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾. يومَ: نصب على الظرفية، والتقدير: يوم لا يملكون منه خطاباً يوم يقوم الروح. والروح: جبريل عند الجمهور، ويؤيده قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193]. وهناك أقوال غريبة عجيبة عند المفسرين في تفسير الروح لا دليل عليها. قلت: وإنما خصّه الله سبحانهُ بالإفراد بالذكر من بين سائر الملائكة لشرفه فيهم.

والمقصود: يقف جبريل عليه السلام والملائكة الكرام في ذلكَ المشهد المهيب مصطفين صامتين لا يتكلمون.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. أي: إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة.

أو لا يتكلمون إلا في حق من أذن له الرحمن، وكان ذلكَ الشخص ممن قال صواباً في الدنيا: أي شهد بالتوحيد. فالضمير في ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ يرجع إلى الملائكة. وقيل: بل هو أعم، فلا يتكلم أحد يومئذ إلا بإذنه.

فعن ابن عباس: (﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ يقول: إلا من أذن له الرب بشهادة أن لا إله إلا الله، وهي منتهىٰ الصواب). وقال مجاهد: (﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال حقاً في الدنيا، وعمل به). وقال أبو صالح: (قال: لا إله إلا الله).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: 105].

قال الزمخشري: (﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ هما شريطتان: أن يكون المتكلم منهم مأذوناً لهُ في الكلام، وأن يتكلم بالصواب، فلا يشفع لغير مرتضىٰ، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: 28]).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [يُضْرَبُ الصراط بين ظَهْرانَي

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (3340)، كتاب أحاديث الأنبياء. وأخرجه مسلم في الصحيح (1/ 127 ـ 129).

جَهَنَّمَ ، فأكونُ أنا وأمتي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوىٰ الرسل يومئذ : اللهم! سَلِّمْ ، سَلِّم][1] .

وفي صحيح مسلم ـ أيضاً ـ من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : [ثم يضرب الجسر علىٰ جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلِّم سلِّم . فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مُسَلَّم[2] ، ومخدوش مرسَل[3] ، ومكدوس في نار جهنم[4] ، حتىٰ إذا خلص المؤمنون من النار ، فو الذي نفسي بيدِهِ ما من أحد منكم بأشدّ مناشدةً في الحق ـ قد تبين لكم ـ من المؤمنين لله يوم القيامةِ لإخوانهم الذين في النار . يقولون : ربنا! كانوا يصومون معنا ، ويصلون ويحجّون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً] الحديث[5] .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ . أي الكائن الواقع لا محالة . يعني يوم القيامة .

وقوله : ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ . قال قتادة : (سبيلاً . قال : اتخذوا إلى الله مآباً بطاعته ، وما يقربهم إليه) . وقال سفيان : (مرجعاً منزلاً) .

والمقصود : فمن أراد النجاة اتخذ مرجعاً وطريقاً إلى الله سبحانهُ ، بالتقرب إليه بالإيمان والعمل الصالح .

وقوله : ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ . قال ابن جرير : (يقول : إنا حذرناكم أيها الناس عذاباً قد دنا منكم وقرب) . قال ابن كثير : (يعني يوم القيامة ، لتأكُّد وقوعه صار قريباً ، لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ آتٍ) .

وقوله : ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ . أي : ذلكَ العذاب يوم يعرض على الإنسان جميع أعماله أولها وآخرها ، قديمها وحديثها ، خيرها وشرها .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (182) ، كتاب الإيمان . باب معرفة طريق الرؤية ، في أثناء حديث .
(2) أي : نجاة وسلامة .
(3) أي : خدش ، ولكن صاحبه ينطلق ويصل مع الإرهاق .
(4) أي : متراكم بعضه فوق بعض في جهنم .
(5) حديث صحيح . رواه مسلم (1/ 118) . وانظر تفصيل البحث في كتابي : أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ـ بحث : الصراط على جهنم والشفاعة (2/ 752) .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: 49].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: 30].

وأخرج البخاري ومسلم عن عديٍّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: [ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينَهُ وبينه ترجمان، ولا حجابٌ يَحْجُبُه، فينظُر أيمنَ منه فلا يرىٰ إلا ما قدَّمَ من عمله، وينظُر أشأمَ منهُ فلا يرىٰ إلا ما قدَّمَ، وينظر بين يديهِ فلا يرىٰ إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرة][1].

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾. وذلكَ حين يرىٰ القصاص بين البهائم، ثم يسمع قول الله لها: كوني تراباً، فعندئذ يتقطع قلبه ندامة وحسرة، ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾. فقد ارتسمت أمامه جرائمهُ التي أجَّجَ فيها الحياة الدنيا، وتخيّل لحظات القصاص اليوم، وأيقن أن لا فرار من أمر الله ولا نهايةَ لعذابه ونكاله، وعلم أنَّ البهائم قد اقتصت من بعضها ولكنها سعدت إذ انتهت، وأما من كفر بالله من الثقلين فلا سبيلَ اليوم إلى الفرار أو الخلاص.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرةَ مرفوعاً: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامةِ، حتىٰ يقاد للشاةِ الجلحاء من الشاة القرناء][2]. والجلحاء: التي لا قرن لها.

وله شاهد عند الإمام أحمد عنه مرفوعاً بلفظ: [يقتصّ الخلق بعضهم من بعض، حتىٰ الجماء من القرناء، وحتىٰ الذرة من الذرة][3]. والجمّاء: التي لا قرن لها.

ومن طريق أبي حجيرة عنه مرفوعاً بلفظ: [ألا والذي نفسي بيده، ليختصمن كل شيء يوم القيامة حتىٰ الشاتان فيما انتطحتا][4].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6539)، كتاب الرقاق. وأخرجه مسلم (1016)، كتاب الزكاة.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 18 ـ 19) كتاب الظلم. باب القصاص وأداء الحقوق يوم القيامة، من حديث أبي هريرة.
(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 363). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1967).
(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 290). وانظر «الصحيحة» ج(3) ص(609).

وفي مسند أحمد والطيالسي بسند صحيح عن أبي ذر قال: [رأىٰ رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان ، فقال: يا أبا ذر! أتدري فيمَ تنتطحان؟ قلت: لا. قال: ولكن ربك يدري ، وسيقضي بينهما يوم القيامة][1].

وفي التفاسير عن ابن عمر (ونحوه عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة) قال: (إذا كان يوم القيامةِ مُدَّت الأرضُ مَدَّ الأديم ، وحشر الدواب والبهائم والوحوش ، ثم يوضع القصاص بين البهائم ، حتىٰ يُقْتَصَّ للشاةِ الجماء من الشاة القرناء بنطحتها ، فإذا فرغ من القصاص بينها قيل لها: كوني تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾).

وعن سفيان قال: (إذ قيل للبهائم: كونوا تراباً ، يقول الكافر يا ليتني كنتُ تراباً).

تم تفسير سورة النبأ
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر يوم السبت 10/ ذي القعدة/ 1426 هـ
الموافق 10/ 12/ 2005 م.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 162). وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (2/ 741).

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ النبأ العظيم هو أمر القيامة ، سمي بذلكَ لأنه يحمل الهول الكبير ، والحدث المفظع المثير.

2 ـ ليس من شيء من الإنسان إلا يَبْلىٰ إلا عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة.

3 ـ ﴿مِرْصَادًا﴾ أي مرصدة معدة مجهزة ، فكأنهُ يكثر من جهنم انتظار الكفار.

4 ـ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ من الموافقة ، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم.

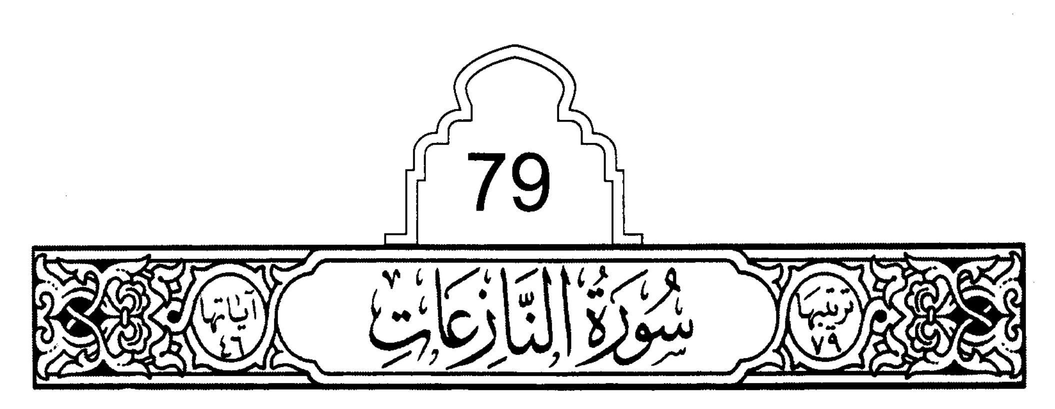
5 ـ ناركم التي توقدون منها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فضِّلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثلُ حرِّها.

6 ـ الكواعِبُ: النواهد ، جمع كاعِب. والأتراب: الأقران في السن ، جمع تِرْب.

7 ـ يقف جبريل عليه السلام والملائكة الكرام في ذلكَ المشهد المهيب مصطفين صامتين لا يتكلمون.

8 ـ يقتص الخلق بعضهم من بعض ، حتىٰ الجماء من القرناء ، وحتىٰ الذرة من الذرة.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (46) .

موضوع السورة

نزع النازعات أرواح العباد
وتقريع المشركين وتفصيل الحياة في دار المعاد

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قسم الله تعالى بالملائكة النازعات أرواح العباد ، الناشطات السابحات السابقات المدبرات الأمر من السماء إلى الأرض ، على وقوع المعاد .

2 ـ القلوب يومئذ خائفة ، والأبصار خاشعة ، والمنكرون للحساب في حالة خاسرة .

3 ـ ذكر قصة موسى مع الطاغية فرعون للاعتبار ، ليتعظ بها كفار قريش ويدعوا الاستكبار .

4 ـ إظهار بدائع قدرة الله العظيم ، في السماء والأرض والليل والنهار والجبال مما فيه تقريع للمشركين ، الذين يشركون بعبادة الله المنعم الرحمان الرحيم .

5 ـ وقوع الإنسان في شباك كسبه وعمله يوم الدين ، وبروز جهنم أمام الخلق لتكون مثوىً للمتكبرين ، ومن آثر طاعة الله ونهى النفس عن الهوى فالمأوى جنات النعيم .

6 ـ أمر الساعة أمر مباغت لا يعلمه إلا رب العالمين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 14. قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآيات: يقسم سبحانه بالملائكة التي تنزع أرواح العباد من أجسادهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المدّ، ﴿غَرْقًا﴾ أي: إغراقاً في النزع من أقاصي الأجساد، كما يقسم سبحانه بالملائكة الناشطات السابحات السابقات المدبرات على وقوع المعاد، والقلوب يومئذ خائفة، والأبصار خاشعة، والمنكرون للحساب في حالة خاسرة.

فقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾. قال ابن عباس ومجاهد: (هي الملائكة تَنْزِعُ نفوس بني آدم). وقال علي وابن مسعود رضي الله عنهما: (النازعات: الملائكة التي تنزع أرواحَ الكفار). قلت: والمقصود بالإغراق المبالغة في النزع، وهو حال أرواح الكفار عند نزعها.

ففي حديث أحمد وأبي داود عن البراء ـ في نزع روح الكافر أو الفاجر ـ قال رسول الله ﷺ: [وإنّ العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد، سود الوجوه، معهم المسوح من النار، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرّق في

جسده ، فينتزعها كما يُنْتَزع السَّفُود الكثير الشعب من الصوف المبلول ، فتقطع معها العروق والعصب][1] .

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ . قال ابن عباس: (يعني الملائكة تنشط نفس المؤمن ، فتقبضها كما يُنْشَط العِقال من يد البعير: إذا حُلَّ عنه). وقال أيضاً: (هي أنفس المؤمنين عند الموت تَنْشَطُ للخروج ، وذلك أنه ما من مؤمن يحضره الموت إلا وتُعرض عليه الجنة قبل أن يموت ، فيرى فيها ما أعدّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين ، فهم يدعونه إليها ، فنفسه إليهم نشطَة أن تخرج فتأتيهم).

قلت: والمقصود الملائكة حين تأخذ أرواح المؤمنين عند الاحتضار فتجذبها برفق. فالنزع جذب بشدة و﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ للكافرين. والنشط جذب بِرفق ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ للمؤمنين.

وفي حديث البراء السابق: [إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها] الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ . قال علي رضي الله عنه: (هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين). وقال مجاهد: (هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ، كما يقال للفرس الجواد سابح: إذا أسرع في جريه). وعن مجاهد أيضاً: (الملائكة تسبح في نزولها وصعودها).

والمقصود: هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ، يسبحون في الهواء كما يسبح الغواص في الماء.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ . قال علي رضي الله عنه: (هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام). وقال مجاهد: (هي الملائكة تسبق ابن آدم بالخير والعمل الصالح). وقيل: تسبق ابن آدم إلى العمل الصالح فتكتبه.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287 ـ 288) ، وأبو داود (2/ 281) ، والحاكم (1/ 37 ـ 40).

والمقصود: هي الملائكة تسبق إلى تنفيذ أمر الله ، كما تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ . قال القشيري : (أجمعوا علىٰ أن المراد الملائكة) . قال الحسن : (تدبّر الأمر من السماء إلى الأرض) . والمقصود: تدبير الملائكة للأمر وهو نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما ، وبقضاء الله إلىٰ أهل الأرض في الرياح والأمطار والنوازل وغير ذلك . قال النسفي : (وجواب القسم محذوف ، وهو لتبعثن ، لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ . الرجف : شدة الحركة . والردف المتابعة .

يروي البخاري عن ابن عباس : [الراجفة النفخة الأولى . والرادفة : الثانية][1] .

والمقصود: وصفت النفخة الأولى وهي ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ بما يحدث بحدوثها من رجف تضطرب به الأرض حتى يموت كل من عليها ، ثم تجيء النفخة الثانية وهي ﴿ ٱلرَّادِفَةُ ﴾ التي تردف ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ والتي يكون عندها البعث .

وقوله تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ . قال ابن عباس : (يعني خائفة) . وقال السُّدي : (زائلة عن أماكنها) . وقال المؤرِّج : (قلقة مُسْتَوْفِزة ، مرتكضة[2] غير ساكنة) . وفي لغة العرب : وجَفَ القلب يَجفُ وجِيفاً إذا خفق . والمقصود: القلوب يوم الحشر خائفة وجلة مضطربة تخفق من هول الموقف .

وقوله تعالى : ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾ . أي : أبصار أصحابها منكسرة ذليلة من معاينة هذا الحدث الجلل . وهو كقوله تعالى : ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [القلم : 43] .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴾ . استفهام بمعنى الإنكار ، والحافرة : القبور . وقيل : الحالة الأولى . قال ابن كثير : (يعني مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعادِ ، يستبعدون وقوعَ البعثِ بعد المصير إلى الحافرة ، وهي القبور ، قاله مجاهد . وبعد تمزّق أجسادهم وتفتُّت عظامهم ونُخُورها) . وقال النسفي : (أي أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر فنعود أحياء كما كنا ، والحافرة الحالة الأولى ، يقال لمن كان في

(1) حديث صحيح . رواه البخاري في ترجمة باب . وانظر كتابي : أصل الدين والإيمان (725) لتفصيل البحث .

(2) مرتكضة : مضطربة .

أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته ، أي إلى حالته الأولى. ويقال النقد عند الحافرة ، أي عند الحالة الأولى وهي الصفقة).

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾. قال ابن عباس ومجاهد: (أي بالية). وقال ابن عباس: (وهو العظم إذا بَلِيَ ودخَلَت الريحُ فيه). وفي لغة العرب: نَخِرَ العظم: أي بلِيَ وتفتت. والمقصود: استبعاد المشركين البعث بعد الموت وقد صارت العظام بالية متفتِّتة.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

قال محمد بن كعب: (قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسَرنَّ). والمقصود: قال منكرو البعث: لئن رددنا بعد الموت لنخسرنّ بما يصيبنا مما يقوله محمد.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾. قال مجاهد: (صيحة واحدة). وقال الحسن البصري: (زَجْرَةٌ من الغَضَب). وقال إبراهيم التَّيْمِيُّ: (أشَدُّ ما يكون الربُّ غَضباً على خَلْقِهِ يومَ يَبْعَثهم). وقال الربيع بن أنس: (زَجْرةٌ واحدة: هي النفخة الآخرة).

والمقصود: فإنما هو ـ معشر المُنكرين للمعاد والحساب ـ أمرٌ واحد من الواحد القهار لا مَثْنَوية فيه ولا تأكيد ، فإذا جميع الناس قيام ينظرون. وذلك حين يأمر الجبار إسرافيل لينفخ نفخة البعث.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾. الساهرة في كلام العرب: وجه الأرض. قال مجاهد: (كانوا بأسفلها ، فأُخرجوا إلى أعلاها). وقال قتادة: (لما تباعد البعث في أعين القوم ، قال الله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ يقول: فإذا هم بأعلى الأرض ، بعدما كانوا في جوفها). وقال أيضاً: (فإذا هم يخرجون من قبورهم فوق الأرض).

15 ـ 26. **قوله تعالى:** ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ

ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: ذكر قصة موسى مع فرعون الطاغية للاعتبار ، ليتعظ بذلك كفار قريش ومن مضى على سبيلهم بالكفر والاستهتار ، فقد أهلك الله الطاغية وجنوده وكان للنبوة الظفر والانتصار.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾. تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من أذى قومه وتكذيبهم. قيل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي قد جاءك وبلَغَك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾. قال القرطبي: (أي إن فرعون كان أقوىٰ من كفار عصرك ، ثم أخذناه ، وكذلك هؤلاء). وقيل: «هل» بمعنى «ما» أي ما أتاك ، ولكن أخبرت به ، فإن فيه عبرة لمن يخشى. وقال النسفي: (﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ استفهام يتضمن التنبيه على أن هذا مما يجب أن يشيع ، والتشريف للمخاطب به)

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. أي: حين ناجاه ربه بالوادي المطهر الذي اسمه ﴿طُوًى﴾. قال ابن جرير: (يعني بالمقدس: المطهَّر المبارك). وعن مجاهد: (قوله ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي). قال الفرّاء: (طوَى: واد بين المدينة ومصر. قال: وهو معدول عن طاوٍ ، كما عدل عمر عن عامر). وفي الصحاح: (طِوى: بضم الطاء وكسرها اسم موضع بالشأم يُصْرَفُ ولا يُصْرف: فمن صَرَفه جعله اسمَ وادٍ ومكانٍ وجَعَله نكرة. ومن لم يَصْرِفْه جَعَلَهُ بَلْدَةً وبُقْعَةً وجعله معرفة). قال الرازي: (وقال بعضهم: طُوىً هو الشيء المثنيُّ ، وقال في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ طُوِيَ مرتين أي قُدِّسَ مرتين). وقال الحسن: (ثُنِيَت فيه البركة والتقديس مرتين).

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾. أي: ناداه ربه أن اذهب إلى فرعون فقد عتا وتجاوز حدّه في العدوان ، والتكبر على ربه.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾. قال ابن عباس: (هل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله). وقال ابن زيد: (إلى أن تسلم). قال النسفي: (﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان بالطاعة والإيمان). والمقصود: دعا موسى فرعون ليكون زكياً مؤمناً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾. أي: وأرشدك إلى تعظيم ربك والتزام طاعته فتخافه وتتقيه. قال ابن كثير: (أي: أدُلّكَ إلى عبادة ربك ، ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ ، أي: فيصيرَ قلبُكَ خاضعاً له مطيعاً خاشعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير).

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾. قال الحسن: (يده وعصاه). وقال ابن زيد: (العصا والحية). والمقصود: أظهر له موسى حجة بالغة تدل على صدق النبوة.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾. أي فكذب بالآيات والنبوة، وعصى ربه عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾. أي: ثم ولّى معرضاً عن الحق الذي أُظهر له، ومضى يسعى في معصية الله وفيما يسخطه عليه. قال مجاهد: (﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ قال: يعمل بالفساد). وقيل: مضى في مقابلة الحق بالباطل، فجمع السحرة ليقابلوا معجزة موسى الباهرة.

وقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. قال ابن زيد: (صرخ وحشر قومه، فنادى فيهم، فلما اجتمعوا قال: أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى). وقيل: جمع جنوده للقتال والمحاربة، والسَّحرة للمعارضة. وقيل: حشر الناس للحضور فقال لهم بصوت عال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي لا رب لكم فوقي، يحاول تثبيت اهتزاز سلطانه. قال القاضي: (وقد كان الأليق به، بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية، أن لا يقول هذا القول. لأن، عند ظهور الذلة والعجز كيف يليق أن يقول ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؟ فدلت هذه الآية على أنه في ذلك الوقت صار كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول).

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾. أي: فعاقبه الله وانتقم منه انتقاماً جعله به عبرةً ونكالاً لأمثاله من الطغاة والمتمردين في الدنيا، وإماماً إلى النار يوم القيامة.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: 99].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: 41].

فيكون قوله: ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ يعني الدنيا والآخرة. وقيل المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية. وقيل: كفره وعصيانه. والراجح الأول، لدلالة الآيات السابقة على ذلك، فهو ملعون في الدنيا والآخرة.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن شعبة قال: أخبرني عدي بن ثابت، وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ذكر أحدهما عن النبي ﷺ: [أَنَّهُ ذَكَرَ

أنَّ جِبرئيل جَعَلَ يَدُسُّ في فِي فرعون الطِّين ، خَشْيَةَ أن يقولَ: لا إله إلا الله فَيَرْحَمَهُ الله ، أو خَشية أنْ يَرْحَمَهُ](1) .

وروى الترمذي ـ كذلك ـ عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال: [لما أَغْرَقَ الله فرعون قال: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. فقال جبرئيلُ: يا محمدُ لو رأيتني وأنا آخُذُ من حالِ البحر وأدُسُّهُ في فيه مَخافةَ أنْ تدرِكَهُ الرحمة](2) .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ . أي إن في ذلك الخزي والعقاب لفرعون وجنده اعتباراً وعظة لمن يخاف الله عز وجل ويخشى عقابه.

27 ـ 33. **قوله تعالى**: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إظهارُ بدائع قدرة الله العظيم ، وتقريعٌ بذلك وتوبيخ للمشركين ، الذين يغفلون عن آلاء ونعم الرحمان الرحيم.

فقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ . تقريع وتوبيخ للمشركين. قال القرطبي: (يريد أهل مكة ، أي أخلقكم بعد الموت أشدّ في تقديركم ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ فمن قدَر على السماء قَدَرَ على الإعادة ، كقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: 57] وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ ﴾ [يس: 81]. قال: ثم وصف السماء فقال: ﴿ بَنَىٰهَا ﴾ أي رفعها فوقكم كالبناء).

قلت: وقد أثبت التقدم العلمي والكشوف العلمية الحديثة أن أجرام السماء كأحجار في بناء واحد يشد بعضه بعضاً ، ويقوم كل على الآخر في انسجام وتناسق عجيب ، فإذا اختل النظام في جرم أو أجرام اختل البناء كله.

وقوله تعالى: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ . قال ابن عباس: (﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ يقول بُنيانها).

---

(1) صحيح الإسناد. أخرجه الترمذي في السنن (3108). انظر صحيح سنن الترمذي (2484).
(2) صحيح بما قبله. أخرجه الترمذي (3107) ـ كتاب التفسير ـ سورة يونس. وانظر كذلك: صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2483).

وقال مجاهد: (﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾: رفع بناءها بغير عمد). وقال قتادة: (يقول: رفع بناءها فسواها).

قلت: ومن الإعجاز العلمي المعاصر الذي تعكسه دقة هذه الألفاظ القرآنية: أَنَّ الإنسان لم يعرف مقدار ارتفاع السماء إلا بعد كشف العلم عن مواقع بعض النجوم، فعرفنا أن السماء مرتفعة وليست قريبة كما يظن بالنظر المجرد، فسبحان الله الذي ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾. أي أظلم ليلها ونوّر نهارها. قال ابن عباس: (﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يقول: أظلم ليلها). وهو من غَطِشَ الليل أي ظَلِم، والغَطَش والغَبَشُ الظلمة. وعن قتادة: (﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ يقول: نوّر ضياءها). وقال الضحاك: (﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ قال: نهارها). وقال ابن زيد: (ضوء النهار).

ويؤكد الباحثون المعاصرون أن الأرض والشمس والنجوم كانت جميعاً شيئاً واحداً لا يتميز عليه ليل أو نهار، فلما حدث الانفصال وأخذت بعض الكواكب تبرد وتدور حول نفسها فببرودتها أصبحت معتمة، وبدورانها أمام الشمس والنجوم المضيئة تميز عليها النهار، كما تميز الليل. وهكذا تبين لنا دقة هذا التعبير القرآني المعجز: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾. أي بسطها. من دَحَوْتُ الشيء دحواً: إذا بسطته. قال القاسمي: (﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد تسوية السماء على الوجه السابق، وإبراز الأضواء ﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي بسطها ومهّدها لسكنى أهلها، وتقلبهم في أقطارها).

يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني في كتابِهِ «توحيد الخالق» (ص 355): (دحاها: أي بسطها لتكون صالحة للإنبات ونفع الإنسان. ومن معاني الأدحية: البيض، ومن معاني دحا: دحرج. ويظهر أن الأرض عند انفصالها أخذت تدور وتتدحرج في مسارها ولا تزال تتدحرج وتتقلب وهي تجري في فلكها ومسارها، فهل تلقى هذه الحقيقة العلمية أوضح معنى من قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾).

وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾. قال ابن عباس: (ودَحْيُها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقّق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبالَ والرِّمالَ والسُّبُلَ والآكام). وقال الضحاك: (﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾: ما خلق الله فيها من النبات، و﴿مَآءَهَا﴾: ما فجّر فيها من الأنهار). قال القُتَبي: (دَلَّ بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً

للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح ، لأن النار من العيدان والملح من الماء). وقال القرطبي: (﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي أخرج من الأرض ﴿مَاءَهَا﴾ أي العيون المتفجرة بالماء ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ أي النبات الذي يُرْعى).

ومن آفاق العلم الحديث أن الأرض يخرج منها ماء المطر ، ولا يزال بعض الناس يظنون أن ماء المطر يسكب من خزانات في السماء. وماء البحار الأول كان جزءاً من الأرض نتج عن التفاعلات الكيماوية أثناء تصلب القشرة الأرضية. ولقد كانت هذه التفاعلات بقدر معلوم لتنتج ماء بقدر مناسب[1].

وقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾. قال قتادة: (أي أثبتها لا تميد بأهلها). وتقدير الكلام: والجبال أرساها فيها ، أي قرّرها وأثبتها وأكّدها في أماكنها.

وقوله تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾. قال ابن كثير: (أي: دَحَا الأرض فأنْبَعَ عُيونها ، وأظهَرَ مكنونها ، وأجْرَى أنهارها ، وأنْبَتَ زُروعها وأشجارها وثِمارها ، وثَبَّتَ جِبالها لتستقر بأهلِها ويقِرَّ قرارُها ، كلّ ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكُلونها ويركبُونَها مدّةَ احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمدُ ، وينْقَضِيَ الأجلُ).

34 ـ 46. **قوله تعالى**: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآيات: وقوعُ الإنسان في شباك كسبه وعمله يوم الدين ، وقد أُظهرت أمام الخلق نار الجحيم ، فأما من آثر طاعة ربه ورضاه فهو في روضات النعيم ، وأما من آثر طاعة الشيطان واتباع الشهوات فهو في العذاب الأليم ، وأمر الساعة أمر مباغت لا يعلمه إلا رب العالمين.

---

(1) انظر تفصيل البحث في: «كتاب توحيد الخالق» ـ عبد المجيد الزنداني ـ ص (350 ـ 355).

فقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾. أي: الداهية العظمى. قال ابن عباس: (من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذَّره عباده). وسميت كذلك لأنها تطمّ على كل هائلة من الأمور، فتغمر ما سواها بعظيم هولها. كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: 46]. وجواب «إذا» محذوف يدل عليه التقسيم بعده. والتقدير: ظهرت الأعمال. أو انقسم الناس قسمين.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾. أي: وحينئذ يتذكر الإنسان جميع أعماله، مما عمل من خير أو شر، وذلك بعرضه عليه. كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر: 23].

وقوله تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾. أي: وأظهرت نار الله للناظرين فرآها الناس بياناً.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾. قال مجاهد: (﴿ طَغَىٰ ﴾: عصى). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فأما من عتا على ربه، وعصاه واستكبر عن عبادته).

وقوله تعالى: ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾. أي: وقدّم متاعَ الحياة الدنيا وشهواتها، على كرامة الآخرة ونعيمها، فعمل لدنياه، على حساب دينه وأخراه.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾. أي: فإن المنزل والمقام في الآخرة في الجحيم، حيث طعام الزقوم، وشراب الحميم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾. قال ابن كثير: (أي: خاف القيامَ بين يدي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردَّها إلى طاعة مولاها).

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾. أي: فإن المنزل والمقام يوم القيامة في جنة السُّرور والنَعيم، حيث الحفاوة والتكريم، والخلود في نعيم مقيم.

وقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾. قال القاسمي: (أي إقامتها. أي متى يقيمها الله ويكوّنها. قال الناصر: وفيه إشعار بثقل اليوم كقوله: ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان: 27]، ألا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل، كمرسى السفينة وإرساء الجبال). وقال الفراء: (رُسُوّها قيامها كرسوّ السفينة). وقال أبو عبيدة: (أي منتهاها، ومرسى السفينة حيث تنتهي). وقال الربيع بن أنس: (متىٰ زمانها)، والمعنى متقارب.

وقوله تعالى: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ .

أخرج الحاكم في المستدرك بسند صحيح على شرط الشيخين عن عائشة قالت: [لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله عز وجل: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾][1] .

وأخرج البزار ورجاله رجال الصحيح عن طارق بن شهاب قال: [كان النبي ﷺ لا يزال يذكر شأن الساعة حتى نزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾][2] .

قال القرطبي: (ويجوز أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له ، أي فيم أنت من ذلك حتى يسألوك بيانَه ، ولست ممن يعلمه. رُوي معناه عن ابن عباس. والذكْرَى بمعنى الذكر. ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ أي منتهى علمها ، فلا يوجد عند غيره علم الساعة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: 34].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: 187].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: [قال ـ جبريل ـ يا رسول الله! متى تقوم الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل][3] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ . قال النسفي: (أي لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدها).

وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ . قال قتادة: (وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة).

والمعنى: كأن هؤلاء المكذبين بها ، وبما فيها من الجزاء والحساب ، يوم

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ، وأقرّه الذهبي. وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (3492) عن عروة به. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة النازعات ، الآيات (41 ـ 45). وأخرجه الطبري (36314).

(2) حديث صحيح. أخرجه البزار (2279) ، والطبري (36315) ـ عن طارق بن شهاب مرسلاً.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (10) ـ كتاب الإيمان. باب: الإسلام ما هو وبيان خصاله ، من حديث أبي هريرة.

يشاهدون وقوعها ، ويعاينون عظيم هولها ، يستقصرون مدّة لبثهم في دنياهم وفي قبورهم ، إلى ساعة من نهار ، بمقدار عشية أو ضحاها .

قال الفرّاء : (يقول القائل : وهل للعشية ضُحاً؟ وإنما الضحا لصدر النهار ، ولكن أضيف الضحى إلى العشية ، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب ، يقولون : آتيك الغداةَ أو عشيتَها ، وآتيك العشيةَ أو غداتها ، فتكون العشية في معنى آخر النهار ، والغداة في معنى أول النهار) .

قال النسفي : (وإنما صحت إضافة الضحا إلى العشية للملابسة بينهما لاجتماعهما في نهار واحد ، والمراد أن مُدة لبثهم لم تبلغ يوماً كاملاً ولكن أحد طرفي النهار ، عشيته أو ضحاه ، والله أعلم) .

تم تفسير سورة النازعات
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر يوم الاثنين 12 / ذي القعدة / 1426 هـ
الموافق 12 / كانون الأول / 2005 م

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الراجفة : النفخة الأولى ، والرادفة : النفخة الثانية .

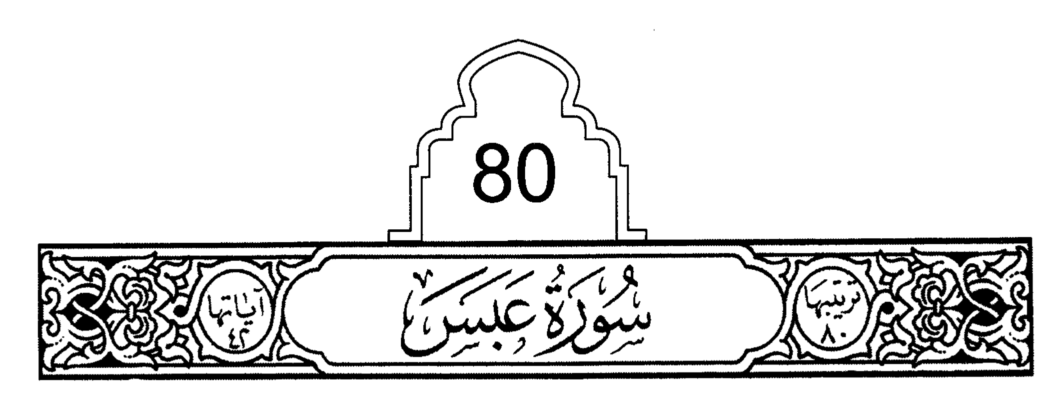
2 ـ أشدُّ ما يكون الرب غضباً يوم يبعث العباد ، ويقف بين يديه الطغاة .

3 ـ جعل جبريل يدسُّ الطين في فِي فرعون عند الغرق خشية أن تدركه الرحمة .

4 ـ الطامّة الكبرى : الداهية العظمى ، من أسماء يوم القيامة ، عظّمه الله وحذّره عباده ، سميت بالطامة لأنها تطمّ على كل هائلة بهولها .

5 ـ وقت الدنيا في أعين المكذبين بالآخرة كأحد طرفي النهار ، عشيته أو ضحاه .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (42).

سبب نزول السورة:

أخرج الترمذي بإسناد صحيح عن عائشة قال: [أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني. وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يُعرض عنه ، ويقبل على الآخر ويقول: «أترى بما أقولُ بأساً؟» فيقول: لا ، ففي هذا أنزل][1]. وفي رواية ابن جرير: [ففي هذا أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾].

موضوع السورة

المعاتبة على العبس في وجه بعض المؤمنين
وامتنان الله على العباد بالنعم العظيمة وتفصيل المصير يوم الدين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ العتاب اللطيف من الله سبحانه لنبيه الكريم ، لانشغاله ببعض المشركين عن ابن أم مكتوم.

(1) صحيح الإسناد. أخرجه الترمذي (3331) ـ كتاب التفسير. سورة عبس. وقال الحافظ العراقي في تخريج «الإحياء»: (رجاله رجال الصحيح). ورواه ابن حبان ، والحاكم (2/ 514) ، وأبو يعلى (4848) ، والطبري (76318) وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

2 ـ هذه التذكرة والعظة هي في صحف مكرمة مطهرة ، بأيدي ملائكة كرام بررة .

3ـ العجب من كفر الإنسان مع إحسان الله إليه ، وهو خلقه سبحانه وأعطاه وأماته وأقبره وسيقف غداً بين يديه .

4 ـ حثّ الإنسان على النظر في نعم الله عليه ، من الماء والطعام والنبات والفواكه والثمار والحدائق التي سخّرها إليه .

5 ـ التهديد بقدوم الصاخة وهي القيامة ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وجميع خلانه .

6 ـ الوجوه يوم الحساب ضاحكة مستبشرة ، أو عليها غبرة ترهقها قترة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 16 . **قوله تعالى :** ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦ ﴾ .

في هذه الآيات : عتابٌ لطيف من الله سبحانه لنبيه ﷺ ، وقد انشغل يوماً بتكليم بعض عظماء قريش طمعاً في إسلامه ، فأعرضَ عن ابن أم مكتوم الذي جاءه يسأل عن شيء من أمر دينه ، وعبس في وجهه وأقبل على الآخر رغبة في هدايته ، فكان العتاب تذكرة وعبرة وعظة ، في صحف مكرمة مطهرة ، بأيدي ملائكة كرام على ربهم ، أتقياء صادقين في إيمانهم .

فقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ . قال ابن جرير : (﴿ عَبَسَ ﴾ : قبض وجهه تكرُّهاً ، ﴿ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ يقول : وأعرض) . وقال القرطبي : (﴿ عَبَسَ ﴾ أي كلح بوجهه . ﴿ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أي أعرض بوجهه) .

وقوله تعالى : ﴿ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾ . «أنْ» في موضع نصب لأنه مفعول له ، والتقدير :

لأن جاءه الأعمى ، وهو ابن أم مكتوم رضي الله عنه الذي لا يبصر بعينيه.

أخرج أبو يعلى في المسند ، بإسناد حسن ، عن قتادة ، عن أنس قال: [جاء ابنُ أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يُكَلِّمُ أُبَيَّ بن خَلَفٍ ، فأعرض عنه ، فأنزل الله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ، فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك يُكْرِمُهُ][1]. قال قتادة: (وأخبرني أنس بن مالك قال: رأيته يوم القادسيَّةِ وعليه درْعٌ ومعه رايةٌ سوداءُ ، يعني ابن أمِّ مكتوم).

قلت: فكان العتاب اللطيف من الله سبحانه ، لأن ابن أم مكتوم يرجح في ميزان الحق على المئات من أمثال أبي بن خلف وأمثاله من المشركين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾. أي: وما يدريك يا محمد ، لعل هذا الأعمى المؤمن الذي عبست في وجهه يزّكى: أي يتطهر من ذنوبه ، ويرتفع في إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾. أي: أو يعتبر ويتعظ فينفعه الاتعاظ والاعتبار ، ويشد ذلك من عزيمته ليثبت على سبيل الأخيار.

وقوله: «فتنفعَه» نصبه عاصم جواباً لِلَعَلّ ، ورفعه غيره ـ «فتنفعُه» ـ عطفاً على «يذكّر» ، وهما قراءتان مشهورتان في الأمصار.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾. قال النسفي: (أي من كان غنياً بالمال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض بالإقبال عليه حرصاً على إيمانه). والتصدِّي: الإصغاء. وأصله في كلام العرب من الصَّدَد: القُرب. يقال: دارِي صَدَدَ دارِه أي قُبالتَها ، وهو نَصْبٌ على الظَّرف. وقراءة عامة القراء «تَصَدّى» بالتخفيف ، على طرح التاء الثانية تخفيفاً.

والمقصود: إنك تقبل ـ يا محمد ـ عليه بوجهك وحديثك ، وهو يظهر الاستغناء عنك والإعراض عما جئت به ، غرّه ماله وجاهه وسلطانه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾. أي: وما أنت ـ يا محمد ـ بمطالب بهذا الكافر إذا لم يؤمن ويرشد ويتطهر ، فإنما أنت رسول ، وما عليك إلا البلاغ. قال مجاهد: (يقول: وأي شيء عليك أن لا يتطهَّرَ من كفره فيسلم؟).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾.

قال مجاهد: (يقول: وأما هذا الأعمى الذي جاءك سعياً ، وهو يخشى الله ويتقيه ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (3123) ، وإسناده حسن ، رجاله ثقات.

﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ يقول: فأنت عنه تعرض، وتشاغَلُ عنه بغيره وتغافَلُ).

وأصل ﴿ تَلَهَّىٰ ﴾ تتلهى، جاءت مخففة. والتلهي: التغافل. ولَهِيتُ عن الشيء أي تشاغلت عنه. ولهِيتُ عنه وتَلهيتُ: بمعنى.

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾. ـ كلاّ ـ كلمة ردع وزجر. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: «كلاّ» ما الأمر كما تفعل يا محمد، من أن تعبس في وجه من جاءك يسعى وهو يخشى، وتتصدى لمن استغنى ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يقول: إن هذه العظة وهذه السورة تذكرة، يقول: عظة وعبرة).

قال ابن كثير: (ومن هنا أمر الله ـ عزّ وجل ـ رسولَه ﷺ ألاّ يَخُصَّ بالإنذار أحداً، بل يُساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسَّادة والعبيد، والرجال والنِّساء، والصِّغار والكبار. ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، له الحكمةُ والحُجَّة. قال: وقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾، أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم).

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾. أي حفظه، فالذكر خلاف النسيان. أو اتعظ به، فيكون من «التذكير». وفي الآية إثبات مشيئة خلقها الله تعالى للإنسان، لو أحسن استعمالها لنجا وأدرك السعادة في الدارين.

قال الزمخشري: (وذكّر الضمير لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ. وقيل: الضمير للقرآن، والكلام استطراد).

وقوله تعالى: ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾. أي: إنها تذكرة كائنة في صحف مكرمة عند الله، لما فيها من العلم والحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾. قال يحيى بن سلام: (مرفوعة في السماء السابعة). وقال الطبري: (مرفوعة الذكر والقدر). وقيل: مرفوعة عن الشُّبَهِ والتناقض. والمقصود: إنها رفيعة القدر عند الله، ومرفوعة عنده تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾. قال الحسن: (من كل دنس). وقيل: مصانة عن أن ينالها الكفار. وهو معنى قول السُّدّيّ. وعن الحسن أيضاً: (مطهرة من أن تنزل على المشركين). والمقصود: إنها في صحف مكرمة مرفوعة، منزهة لا يمسها إلا المطهرون، مصونة عن الشياطين والكفار.

وقوله تعالى: ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾. السفرة هنا الملائكة، سُمّوا كذلك لأنهم يسفرون

بالوحي بين الله ورسوله ، من السفارة ، وهي السعي بين القوم . وعن مجاهد : (﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال كَتَبَة). وقال ابن زيد : (السفرة الذين يحصون الأعمال). والمعنى الأول أنسب ، فهم الملائكة يسفرون بين الله ورسوله بالوحي ، واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ . قال ابن عباس : (يعني الملائكة). والبررة : جمع بارّ ، والمقصود : ملائكة كرام على ربهم ، أتقياء مطيعون لربهم ، صادقون في إيمانهم .

وفي الصحيحين والمسند من حديث عائشة ، عن النبي ﷺ قال : [مَثَلُ الذي يَقْرأُ القرآنَ وهو حافِظٌ له مع السَّفرة الكرامِ البَرَرَة ، ومَثَلُ الذي يَقْرَأُ القرآن وهوَ يتعاهَدُهُ وهوعليه شديدٌ فلهُ أجران][1] .

17 ـ 32 . قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : تَعَجُّبٌ من كفر الإنسان مع إحسان الله إليه ، وقد خلقه وأعطاه وأماته وأقبره ثم سيقف بين يديه ، وقد ضيَّع العمر وتجاهل النعم الجليلة التي لا تحصى من الطعام والماء والنبات والفواكه والثمار والحدائق له ولأنعامه التي سخّرها إليه .

فقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ . قال سفيان : (بلغني أنه الكافر). قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : لعن الإنسان الكافر ما أكفره! . وفي قوله ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ وجهان : أحدهما : التعجب من كفره ، مع إحسان الله إليه ، وأياديه عنده . والآخر : ما الذي أكفره ، أي : أيُّ شيء أكفره؟).

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ .

بيانٌ لحقارة الشيء الذي خلقه الله منه ، ثم هو يتكبر ويتعظم عن طاعة ربه والإقرار بتوحيده والرجوع إليه يوم المعاد .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4937) ـ عند تفسير هذه الآية ـ كتاب التفسير ـ سورة عبس . وأخرجه مسلم (798) ، وأحمد (6/ 48) ، والترمذي (2904) ، وأبو داود (1454) ، وابن ماجة (3779) ، والدارمي (2/ 444) ، وابن أبي شيبة (10/ 490) ، وغيرهم .

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾. قال ابن عباس: (يعني بذلك خروجه من بطن أمه يسَّره له). وقال مجاهد: (هو كقوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: 3]). وقال الحسن: (سبيل الخير). وقال ابن زيد: (هداه للإسلام الذي يسَّره له، وأعلمه به، والسبيل سبيل الإسلام).

قلت: وقول مجاهد والحسن وابن زيد أنسب لسياق الآيات، الخلق فإقامة الحجة فالموت فالبعث والحساب، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾. يعني: ثم قبض روحه في نهاية أجله، فأماته بعد ذلك، فوضعه في حفرةٍ وصيّره ذا قبر. قال أبو عبيدة: (﴿ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾: جعل له قبراً، وأمر أن يُقْبَر). وعن الفَرَّاء: (أي جعل له قبراً يوارَى فيه إكراماً، ولم يجعله مما يُلْقى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي[1]).

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾. أي: أحياه بعد موته. ومنه يقال البعث والنشور. وفي الصحاح: نَشَرَ الميتُ فهو ناشِرٌ: عاشَ بعد الموت. وأنشره الله تعالى: أحياه.

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾. ـ كلاّ ـ ردع للإنسان عن الكفر. وعن مجاهد: (﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ قال: لا يقضي أحد أبداً ما افْتُرِض عليه، أو كل ما افترض عليه). وقال النسفي: (لم يفعل هذا الكافر ما أمره الله به من الإيمان). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: كلاّ ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر، من أنه قد أدّى حق الله عليه، في نفسه وماله، لَمَّا يقض ما أمره، لم يُؤَدِّ ما فرض عليه من الفرائض رَبُّه).

وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾. قال مجاهد: (وشرابه. قال: إلى مأكله ومشربه. آية لهم). قال ابن كثير: (فيه امتنانٌ وفيه استدلالٌ بإحياءِ النبات من الأرض الهامِدةَ على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية وتُراباً مُتَمزقاً).

وقوله تعالى: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾. أي أنزلنا المطر من السماء إنزالاً، وصببناه على الأرض صَبّاً.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾. أي: ثم تخلل الماء في الأرض ودخل في تخومها، ولامس الحبّ المودع فيها، ففتقنا الأرض عن الحب أول ما نبت، لصغره وضعفه عن شقها، حتى نبت وارتفع وظهر على وجه الأرض.

---

(1) العوافي: كل طالب فضل أو رزق.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴾. يعني حبّ الزرع، ويشمل جميع ما يُذكر من الحبوب، كالحنطة والشعير وغير ذلك من قوت الناس. والمقصود: أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد إلى أن يصير حباً في حالة الانتفاع والغذاء.

وقوله تعالى: ﴿ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴾. ـ ﴿ وَعِنَبٗا ﴾ أي: وكرم عنب. والقضب: القتّ الرطب الذي تعلف به الدواب. قال الحسن: (القضب: العَلَف). وقال قتادة: (القضب: الفصافص). وعن ابن عباس: (﴿ وَقَضۡبٗا ﴾ يقول: الفِصفِصة). وهي التي تأكلها الدواب رطبة وتدعى القتّ. وسمي «قَضْبَاً» لأنه يقضب، أي يقطع مرة بعد أخرى.

وقوله: ﴿ وَزَيۡتُونٗا ﴾. أي شجرة الزيتون التي يستخرج من نتاجها الزيت، وهو أُدْمٌ وعصيره أُدْمٌ، ويُدَّهن به ويستصبح به.

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [ائتدِمُوا بالزَّيت وادَّهِنُوا به، فإنه مِنْ شجرة مباركة][1].

وفي رواية: [كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة].

وفضل الزيت وارد في القرآن الكريم، في قوله تعالى في سورة «النور»: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ ﴾.

قال ابن القيم في «زاد المعاد»: (الزيت حار رطب في الأولى، وغلط من قال: يابس، والزيت بحسب زيتونه، فالمعتصر من النضيج أعدلُه وأجوده، ومن الفج فيه برودة ويُبوسة، ومن الزيتون الأحمر متوسط بين الزيتين، ومن الأسود يُسخن ويرطب باعتدال، وينفع من السموم، ويطلق البطن، ويخرج الدود، والعتيق منه أشد تسخيناً وتحليلاً، وما استُخْرج منه بالماء فهو أقل حرارة، وألطف وأبلغ في النفع، وجميع أصنافه مليّنة للبشرة، وتبطىء الشيب. قال: وماء الزيتون المالح يمنع من تَنفُّط حرق النار، ويشد اللِّثَةَ، وورقُه ينفع من الحمرة والنّملة، والقروح الوسخة، والشَّرى، ويمنع العرق، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا).

وقوله: ﴿ وَنَخۡلٗا ﴾ ـ يعني النخيل. قال ابن كثير: (يُؤكَلْ بلحاً بُسراً وَرُطَباً، وتَمراً، ونيئاً، ومَطبوخاً، ويُعْتَصَرُ منه رُبٌّ وَخَلٌّ).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3319) ـ كتاب الأطعمة. باب الزيت. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2682)، ومختصر الشمائل (133 ـ 134). وانظر للرواية الأخرى جامع الترمذي (1/ 340)، ومستدرك الحاكم (2/ 122).

وقوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾. أي: وبساتين غلاظ الأشجار جمع غلباء، بديعة المنظر ويستظل بظلها. قال ابن عباس: (﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ قال: الحدائق: ما التف واجتمع). وقال ابن زيد: (﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾: عظام النخل العظيمة الجذع. قال: والغُلْبُ من الرجال: العظام الرقاب، يقال: هو أغلب الرقبة: عظيمها). وقال ابن عباس أيضاً: (﴿غُلْبًا﴾ أي طوال. قال: الشجر الذي يستظل به). وقال عكرمة: (﴿غُلْبًا﴾ أي غِلاظُ الأوساط. وفي رواية: غِلاظ الرقاب).

وقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾. الفاكهة ما يتفكه به من الثمار. والأبّ: الكلأ والمرعى، فهو ما أنبتته الأرض مما يخصّ الدواب. قال ابن عباس: (الفاكهة كُلُّ ما أُكِلَ رُطباً. والأبُّ ما أنبتت الأرض مما تأكلُه الدوابُّ ولا يأكُلُهُ الناس). وفي رواية عنه: (هو الحشيش للبهائم). وقال مجاهد: (الأبُّ: الكلأ). وقال عطاء: (كُلُّ شيء نبتَ على وجه الأرض فهو أبٌّ).

وقوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾. امتنان من الله سبحانه على عباده، فإن إنبات هذه الأشياء إمتاع للناس ولبهائمهم المسخرة لهم. ونصب ﴿مَّتَٰعًا﴾ على المصدر المؤكّد.

والخلاصة: يرزق الله تعالى العباد من النباتات والأشجار، التي تصنع الطعام من الماء، والتراب، والهواء، ويُسَخِّرُ الله الشمس للنبات، لإتمام صُنْعِ الغِذاء الذي يحتاجُه الإنسان، والحيوان، وما كان للغذاء أن يُوَفَّرَ، لولا أن الله يسوق الماء العذبَ، ويُهَيِّىءُ التربة الصالحة للزراعة، ويوجد الجَوَّ، والظروف المناسبة، لإنتاج الغذاء من النباتات، عيشة لكم أيها الناس ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

33 ـ 42. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

في هذه الآيات: التهديد بقدوم الصَّاخة وهي القيامة، يوم يطلب المرء النجاة ويفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وجميع خِلاّنِه، والوجوه يومئذ إما ضاحكة مستبشرة

وهي وجوه الكرام البررة ، أو عليها غبرة وترهقها قترة وهي وجوه الكفرة الفجرة.

فقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾. قال ابن عباس: (﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾: اسمٌ من أسماء القيامة ، عَظَّمَهُ الله ، وحَذَّره عباده). قال البغوي: (﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾: يعني صيحة القيامة ، سُمِّيت بذلك لأنها تَصُخُّ الأسماعَ ، أي تُبالِغُ في إسماعها حتى تكاد تُصِمُّها). وفي الصحاح: (﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ الصَّيْحَةُ تُصِمُّ لِشدَّتها تقول: صَخَّ الصوتُ الأذنَ من باب ردَّ). قال الرازي: (ومنه سميت القيامة ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾). واختار القرطبي أنها النفخة الثانية ، فهي التي تَصُخُّ الأسماع ، أي تُصِمُّها فلا تسمع إلا ما يُدْعَى به للأحياء. وذكر نحوه ابن جرير.

وفي سنن أبي داود بسند صحيح من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [ما من دابة إلا وهي مُصِيخَةٌ يومَ الجمعة من حينِ تُصبحُ حتى تطلعَ الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس][(1)].

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾.

أي: تجيء الصاخة في اليوم الذي يهرب الإنسان من ألصق الناس به وأعزهم عليه لانشغاله بنفسه. قال قتادة: (الأحبّ فالأحبّ ، والأقرب فالأقرب ، من هول ذلك اليوم).

قال ابن جرير: (ويعني بقوله يفر من أخيه: يفر عن أخيه. ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾ يعني زوجته التي كانت في الدنيا ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ حذاراً من مطالبتهم إياه بما بينه وبينهم من التبعات والمظالم).

وقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾. أي: كل امرئٍ يومئذ هو في شغل شاغِله عن غيره ، فهو يشغله حتى عن الأقرباء ويصرفه عنهم ، ويفرّ عنهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم ، ولئلا يروا ما هو فيه من الشدة. وعن قتادة: (﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أفضى إلى كل إنسان ما يشغله عن الناس).

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [«تحشرون حُفاةً

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1046) ـ تفريع أبواب الجمعة. باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة. انظر صحيح أبي داود (924) ، والإصاخة: الإنصات والاستماع. وأخرجه ابن حبان (2770) ، ومالك (1/ 108 ـ 110) ، والحاكم (1/ 278) ، وأحمد (2/ 486) بأتم منه.

عُرَاة غُرْلاً». فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾][1].

وأخرج النسائي بإسناد صحيح عن عروة: [عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُبْعث الناسُ يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرلاً». فقالت عائشة: يا رسول الله! فكيف بالعورات؟ فقال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾][2].

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾. أي: مشرقة مستنيرة مضيئة، وهي وجوه المؤمنين الذين نالوا رضوان الله. وفي لغة العرب: أسفر وجه فلان: إذا حسن وأشرق، وأسفر الصبح: إذا أضاء. وعن ابن عباس: (قوله ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ يقول: مشرقة).

وقوله تعالى: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾. قال ابن زيد: (هؤلاء أهل الجنة). أي: وجوه أهل السعادة يومئذ ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أي مسرورة فرحة. ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: قد ظهر البِشر عليها بما آتاها الله من الكرامة.

وقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾. أي غبار ودخان وكدورة.

وقوله تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾. أي: يغشاها سواد وكسوف وشدّة. قال ابن عباس: (﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يقول: تغشاها ذلة). وقال: (يغشاها سواد الوجوه). والقَتَر في كلام العرب: الغبار. قال زيد بن أسلم: (القَتَرة: ما ارتفعت إلى السماء. والغَبَرَة: ما انحطت إلى الأرض، والغبار والغَبَرة: واحد).

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾. أي هؤلاء الموصوفون بهذا الخزي هم الكفرة قلوبهم، الفجرةُ في أعمالهم، فجوزوا بخبث نياتهم وبسوء أعمالهم.

تم تفسير سورة عبس
بعون الله وتوفيقه، وواسع منِّه وكرمه
عصر يوم الثلاثاء 13/ ذي القعدة/ 1426 هـ
الموافق 13/ كانون الأول/ 2005 م

---

(1) حسن صحيح. أخرجه الترمذي (3332) ـ كتاب التفسير. انظر صحيح سنن الترمذي (2652).
(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (668)، وفي «السنن» (2083)، وأخرجه الحاكم في «مستدركه» (4/ 564)، وإسناده صحيح.

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ ابن أم مكتوم الأعمى يرجح في ميزان الحق على المئات من أمثال أبي بن خلف.

2 ـ يتساوى في الإنذار الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصِّغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء.

3 ـ مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافِظٌ له مع السَّفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران.

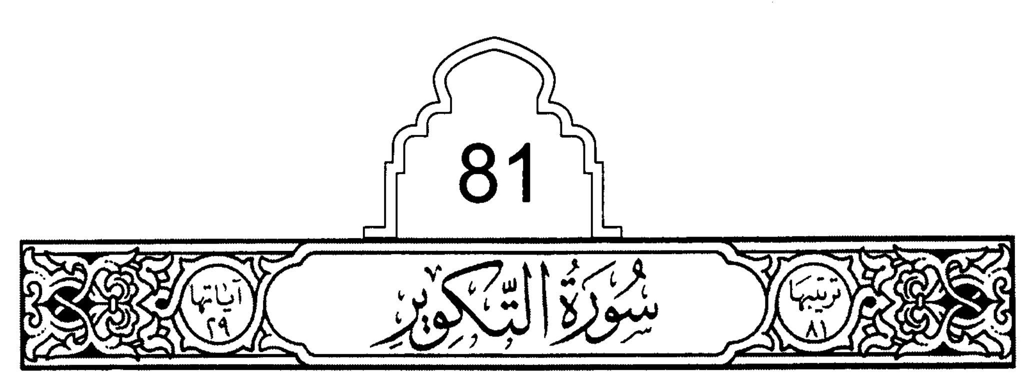
4 ـ ائتدموا بالزيت وادَّهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة.

5 ـ الأبّ: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، فهو يشمل الكلأ والحشيش للبهائم وما نبت على وجه الأرض.

6 ـ يحشر الناس حفاة عراة غرلاً، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

7 ـ وجوه المؤمنين يوم الحشر مشرقة مستنيرة ناعمة، ووجوه المشركين يومئذ عليها غبار وسواد وكدورة.





وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (29).

ما ورد في ذكرها:

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت! قال: [شَيَّبَتْني هودٌ ، والواقعةُ ، والمرسلاتُ ، وعَمَّ يتساءلون ، وإذا الشمس كُوِّرَت][1].

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم بإسناد حسن عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ سَرَّه أن ينظرَ إلى يوم القيامة كأنه رَأيُ عَيْنٍ فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾][2].

وأخرج النسائي بسند صحيح عن عمرو بن حريث قال: [سمعت النبي ﷺ يقرأ في الفجر: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾][3].

موضوع السورة

تكوير الشمس وأهوال الحشر يوم الدين
والانتصار للنبي وهذا الوحي العظيم

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3297) ـ كتاب التفسير. انظر صحيح سنن الترمذي (2627).
(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 27 ـ 36 ـ 100) ، والترمذي (3333) ، والحاكم (2/ 515) وإسناده حسن. وانظر صحيح سنن الترمذي (2653).
(3) حديث صحيح. أخرجه النسائي في السنن من حديث عمرو بن حريث ـ انظر: صحيح سنن النسائي (911) ـ وأخرج ابن ماجة في السنن (817) نحوه.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ وصف الأحداث الرهيبة التي تسبق قيام الساعة .

2 ـ بدء الحشر وحضور جميع الخلق بين يدي الله العظيم ، ودنو الجنة وبروز الجحيم ، وقد علمت كل نفس ما استحقت من الثواب أو العذاب الأليم .

3 ـ قسم الله تعالى بالكواكب والليل والصبح أن القرآن قول رسول عن الله كريم على الله الكريم ، ذو قدرة ومكانة رفيعة وقد رآه نبينا في صورته بالأفق المبين .

4 ـ ما يضن محمد ﷺ بالخبر اليقين ، وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم .

5 ـ أين تسلكون معشر المكذبين وتتركون هذا الذكر الحكيم ، وما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله رب العالمين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 14 . **قوله تعالى** : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ﴾ .

في هذه الآيات: وَصْفُ الأحداث الرهيبة التي تسبق يوم القيامة العظيم ، وبدء الحشر وحضور جميع الخلق بين يدي العزيز الحكيم ، ودنو الجنة وبروز نار الجحيم ، وقد علمت كل نفس ما يقودها عملها إلى الثواب أو العذاب الأليم .

فقوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ . أي : جُعِلَتْ مثل شكل الكرة ، تلفُّ فتجمع فيرمى بها . وفي التفاسير أقوال كثيرة في مفهوم هذه الآية ، منها :

1 ـ قال ابن عباس : (﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، يعني : أظلمت) . وفي رواية : (ذهبت) .

2 ـ وقال مجاهد: (اضمَحلّت وذهبت). وقال قتادة: (ذهب ضوؤها).

3 ـ وقال سعيد بن جبير: (﴿كُوِّرَتْ﴾: غُوِّرَتْ). وقال أبو صالح: (نُكِّسَت).

4 ـ وقال الربيع بن خُثَيم: (﴿كُوِّرَتْ﴾ يعني: رُمِيَ بها). وقال أبو صالح أيضاً: (أُلقيت). وقال زيد بن أسلم: (تقع في الأرض).

قال ابن جرير: (والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جَمْعُ الشيء بعضِه على بعض، ومنه تكوير العِمامة وهو لَفُّها على الرأس، وكتكوير الكارة وهو جمع الثياب بعضِها إلى بعضٍ ولفّها، وكذلك قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إنما معناه: جمع بعضها إلى بعض، ثم لُفَّت فرمي بها، وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوؤها).

قلت: وقد ثبت في السنة الصحيحة أن الشمس والقمر ثوران مُكَوّران في النار يوم القيامة.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [الشمسُ والقمرُ مُكَوَّرانِ يومَ القيامة][1].

وأخرج الإمام الطحاوي في «مشكل الآثار» بإسناد صحيح على شرط البخاري عن عبد الله بن الداناج[2] قال: شهدت أبا سلمة بن عبد الرحمن جلس في مسجد في زمن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، قال: فجاء الحسن فجلس إليه فتحدثا، فقال أبو سلمة: حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: [الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة]. فقال الحسن: ما ذنبهما؟! فقال: إنما أحدثك عن رسول الله ﷺ، فسكت الحسن[3].

قال الإسماعيلي: (لا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما، فإن لله في النار ملائكة وحجارة وغيرها لتكون لأهل النار عذاباً وآلة من آلات العذاب، وما شاء الله من ذلك فلا تكون هي معذبة).

وقال الخطابي: (ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك، ولكنه تبكيت لمن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3200) ـ كتاب بدء الخلق. باب صفة الشمس والقمر.

(2) بفتح الدال والنون معناه العالم، معرب (دانا)، كما في «اللباب» وغيره.

(3) حديث صحيح. أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (1/ 66 ـ 67)، ورواه البيهقي في كتاب «البعث والنشور»، وكذا البزار والإسماعيلي والخطابي، وإسناده صحيح على شرط البخاري كما ذكر الألباني في السلسلة الصحيحة (124).

كان يعبدهما في الدنيا ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلاً).

ومن ثَمَّ فليس المراد من الحديث ما تبادر لذهن الحسن البصري أن الشمس والقمر يعذبان عقوبة لهما، كلا، فالله تعالى لا يعذب من أطاعه من خلقه وسجد له، والشمس والقمر كانا على ذلك السجود والتعظيم، كما قال جلّت عظمته: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: 18]. وإنما يكوران ويلقيان في النار يوم القيامة تبكيتاً لعُبَّادهما، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾. أي: تهافتت وتناثرت فتساقطت. قال ابن عباس: (تساقطت). وقال مجاهد: (تناثرت). وقال أبو صالح: (انتثرت). وعن ابن عباس أيضاً: (﴿ٱنكَدَرَتْ﴾: تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها). قال القرطبي: (ويحتمل أن يكون انكدارها طَمْسُ آثارها. وسميت النجوم نجوماً لظهورها في السماء بضوئها).

قلت: وأصل الانكدار في كلام العرب: الانقضاض والانصباب بسرعة. قال الرازي: («انكدر» أي أسْرَع وانقضَّ، ومنه انكدرت النُّجوم). وقال أبو عبيدة: (﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ انصبَّت كما تنصب العُقاب إذا انكسرت).

والمقصود: وإذا النجوم تساقطت وتناثرت مغادرة أماكنها تنصب مسرعة كما أمرها ربّها. وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: 2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾. قال مجاهد: (ذهبت). قال النسفي: (سُيِّرت عن وجه الأرض وأبعدت، أو سيرت في الجو تسيير السحاب). والمقصود: وإذا الجبال نسفت فزالت عن أماكنها، وتركت الأرض قاعاً صفصفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾. العشار: النوق الحوامل التي في بطونها أولادها[1]. ومعنى ﴿عُطِّلَتْ﴾ أي تركت هملاً بلا راع، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم. وخصّ العشار لأنها أنفس أموال العرب، وموضع رعايتهم المتميزة. فمنعت أهوال القيامة استمرار رعايتها والعناية بها.

وعن مجاهد: (﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: سُيِّبت، تركت). قال الضحاك:

(1) والواحدة: عُشَراء. وقيل هي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر فلا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضاً. على عادة العرب في تسمية الشيء باسمه المتقدم.

(يقول: لا راعي لها). وقال الحسن: (سَيَّبها أهلها فلم تُصَرّ، ولم تُحْلَب. ولم يكن في الدنيا مال أعجب إليهم منها).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: بعثت حتى يقتص بعضها من بعض. وقيل: حشرها موتها. قال ابن عباس: (حشر البهائم: موتها، وحشر كل شيء: الموت، غير الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة). وقال قتادة: (إن هذه الخلائق موافية يوم القيامة، فيقضي الله فيها ما شاء).

قلت: ولا تعارض بين المعنيين، فإن البهائم تحشر أولاً أمام الخلق يوم القيامة، حتى إذا اقتص بعضها من بعض قضى الله عليها الموت فقال: كوني تراباً، وعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء](1).

وله شاهد عند الإمام أحمد عنه مرفوعاً بلفظ: [يقتصّ الخلق بعضهم من بعض، حتى الجماء من القرناء، وحتى الذرة من الذرة](2).

ومن طريق أبي حجيرة عنه مرفوعاً بلفظ: [ألا والذي نفسي بيده، ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا](3).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾. أي: أوقدت فصارت ناراً تضطرم. قال مجاهد: (﴿سُجِّرَتْ﴾: أوقِدَت). وقال الضحاك: (فُجِّرت). وقيل: غاض ماؤها، وقيل: فاضت. قلت: والراجح الأول، فإنه في لغة العرب: سَجَر التنّورَ أحماه، والسَّجُور: ما يُسْجَرُ به التَّنُّور. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: 6]. والمقصود: يوقد الله هذه البحار بالنار قبيل قيام الساعة فيفجرها تفجيراً، كما قال جلت عظمته في سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾. أي: قرنت النفوس بأمثالها. فيقرن الرجل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 18 ـ 19) ـ كتاب الظلم. باب القصاص وأداء الحقوق يوم القيامة، من حديث أبي هريرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 363). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1967).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 290) من طريق أبي حجيرة عن أبي هريرة. وانظر «السلسلة الصحيحة» ج (3) ص (609).

الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، والطالح مع الطالح في النار. أو تقرن الأرواح بالأجساد أو بكتبها وأعمالها ، أو تقرن نفوس المؤمنين بالحور العين ، ونفوس الكافرين بالشياطين.

ومن أقوال أئمة التفسير في ذلك :

1 ـ قال الحسن : (ألحق كل امرئٍ بشيعته : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، والمنافقون بالمنافقين. ويلحق المؤمنون بالمؤمنين).

2 ـ قال مجاهد : (﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ، قال : الأمثالُ من الناس جُمِعَ بينهم).

3 ـ وروى ابن أبي حاتم بسنده عن سِمَاكِ بن حرب ، عن النعمان بن بَشير ، أنَّ عُمَرَ خطب الناس فقرأ : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ، فقال : (تَزَوُّجُها أن تُؤلف كُلُّ شيعةٍ إلى شيعتهم). وفي رواية : (هما الرجلان يعمَلان العمل فيدخلان به الجنة أو النار). وفي رواية عن النعمان قال : سُئِل عُمَر عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ فقال : (يُقْرَنُ بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويُقرنُ بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، فذلك تزويجُ الأنفُس). وفي رواية عن النعمان : أنّ عمر قال للناس : ما تقولون في تفسير هذه الآية : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ فسكتوا. قال : (ولكن أعلَمُه هو الرجلُ يُزَوَّجُ نظيره من أهل الجنة ، والرجل يُزَوَّجُ نظيره من أهل النار ، ثم قرأ : ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات : 22]).

4 ـ وقيل : زُوِّجَ المؤمنون بالحور العين ، وزُوِّجَ الكافرون بالشياطين. حكاه القرطبي في «التذكرة».

قلت : وجميع ما سبق يفيد المعنى ، وهو جمع كل شكل بنظيره يوم القيامة ، فيضمّ المبرز في الطاعة مع السابقين ، والمتوسط مع أمثاله من أصحاب اليمين ، وأهل المعصية والكفر مع أمثالهم من أصحاب الشمال وأهل الجحيم ، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾. توبيخ لقاتلها وتهديد له فيما أقدم عليه. فقد كانت العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة. فيوم القيامة تُسأل الموؤدة على أيِّ ذنب قُتِلت ، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها. قال ابن كثير : (فإنه إذا سُئِل المظلوم فما ظَنُّ الظالم إذن؟).

قال قتادة : (كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ، ويغذو كلبه ، فعاب الله ذلك

عليهم). وقال: (هي في بعض القراءات: «سَأَلَتْ. بأي ذنب قُتِلت» لا بذنب). وكذا قال ابن عباس وأبو الضحا «سَأَلَتْ» أي: طلبت بدمها.

وفي صحيح مسلم عن عائشة، عن جُدامَةَ بنتِ وَهْبٍ، أُخْتِ عُكّاشَةَ قالت: [حَضَرْتُ رسول الله ﷺ في أُناسٍ، وهو يقول: لقد هَمَمْتُ أن أنهى عن الغِيلةِ، فَنَظَرْتُ في الروم وفارِسَ، فإذا هُمْ يُغِيلونَ أولادهم، فلا يَضُرُّ أولادهم ذلك شيئاً. ثم سألوه عن العَزْلِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأدُ الخفيّ». وفي رواية: وهي: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾][1].

وفي مسند أحمد ومعجم الطبراني بسند صحيح عن سلمةَ بن يزيدَ الجُعْفِيِّ قال: [انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسولَ الله! إن أُمَّنا مُليكة كانت تَصِل الرَّحِمَ وتَقْري الضيف، وتفعل وتفعل. هلكت في الجاهلية، فهل ذلك نافِعُها شيئاً؟ قال: لا. قلنا: فإنها كانت وَأَدَتَ أُختاً لنا في الجاهلية، فهل ذلك نافِعُها شيئاً؟ قال: الوائدةُ والموؤدةُ في النار، إلا أن يُدرِكَ الوائدةَ الإسلامُ، فيعفو الله عنها][2].

قلت: والمقصود أن الموؤودة إن كانت كبيرة تعقل ورضيت بفعل أبيها وأمها بوأدها فتشترك معهم في الإثم وعذاب النار، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾. أي كتب الأعمال إذا نشرت للحساب. قال الضحاك: (أعطي كلُّ إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله). وقال قتادة: (صحيفتك يا ابنَ آدمَ، تُملي فيها، ثم تُطوَى، ثم تُنْشَرُ عليك يوم القيامة، فَنَظَرَ رجلٌ ماذا يُملي في صحيفته).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾. أي: تشققت وأزيلت. وعن مجاهد: (﴿كُشِطَتْ﴾ قال: اجتُذبت). وقال السُّدي: (كُشِفَت). وقال الضحاك: (تنكشِطُ فتذهب). وقال الزجاج: (قلعت كما يقلع السَقف).

قلت: وأصل الكَشْطِ في لغة العرب: قَلْع عن شدّة التزاق، وانكشط: أي ذهب، والمقصود: تُنْزَعُ السماء من مكانها كما ينزع الغِطاء عن الشيء فتطوى، كما قال جلت

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1442) ح (141)، (142) ـ كتاب النكاح، وأخرجه الترمذي (2076)، وابن ماجة (2011)، والنسائي (6/ 106 ـ 107)، وأحمد (6/ 434).
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 478)، والنسائي في «التفسير» (669)، وأخرجه الطبراني (6319)، وإسناده على شرطهما.

عظمته: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: 104].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾. أي: وإذا الجحيم أوقد عليها فأحميت. قال قتادة: (سعّرها غضب الله، وخطايا بني آدم).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾. أي: وإذا الجنة قرّبت وأدنيت. قال الضحاك وقتادة والربيع بن خُثَيم: (أي قربت إلى أهلها).

وقوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾. جواب ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ وما بعدها.

والمقصود: علمت كل نفس ما أحضرته عند نشر الصحف، من خير أو شر.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا** ﴾ [آل عمران: 30].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: 13].

أخرج الحاكم بإسناد صحيح من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً: [تعلمون المعادَ إلى الله، ثم إلى الجنة أو إلى النار، وإقامةٌ لا ظعن فيه، وخلودٌ لا موت، في أجسادٍ لا تموت][(1)].

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: (نزلت: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾، قال عمر: لما بلغ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ قال: لهذا أُجري الحديث). والمقصود: إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء والأهوال التي ذكرت، عملت نفس حينئذ ما أحضرت من عملها وما أعدّت لمستقبلها.

15 ـ 29. قوله تعالى: ﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ**

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 83). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1668).

مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يقسم تعالى بالكواكب التي تخنِسُ بالنهار فتختفي وتظهر بالليل، كما يقسم سبحانه بالليل إذا نشأ وأقبل بظلامه، والصبح إذا أضاء وامتد بنوره ونسائمه، إنَّ هذا القرآن لقول رسول عن الله كريم على الله، ذي قدرة عالية، ومكانة رفيعة مكينة، رآه نبينا ﷺ في صورته بالأفق المبين، وما يضن محمد ﷺ بالخبر اليقين، وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، فأين تسلكون وتتركون هذا الذكر الحكيم، وما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله رب العالمين.

فقوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾. أي أُقسم، و«لا» زائدة. والخُنَّس: هي النجوم تخنِس بالنهار فتختفي تحت ضوء الشمس ولا ترى. قال علي: (هي النجوم تخنِسُ بالنهار، وتَظْهَرُ بالليل). رواه بإسناده ابن جرير.

وفي الصِّحاح: (و«الخُنَّسُ» الكواكِبُ كلها. لأنها تخنِس في المغيب، أو لأنها تخنِسُ نهاراً). وخَنَسَ عنه: أي تأخَّر. و«أخْنَسَهُ» غيْرُه أي خَلَّفَهُ ومضى عنه. والخُنَّس: جمع خانِس وخانِسة.

وقوله تعالى: ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾. أي ﴿ الْجَوَارِ ﴾ تجري في أفلاكها ﴿ الْكُنَّسِ ﴾ تختفي في وقت غروبها.

يروي ابن جرير بسنده عن سماك بن حرب، قال: سمعت خالد بن عرعرة، قال: سمعت علياً عليه السلام، وسئل عن ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ قال: (هي النجوم تخنس بالنهار، وتكنس بالليل).

قلت: والجواري: جمع جارية من جرى يجري. والكُنَّس: جمع كانس وكانِسة. وأصل الكُنُسِ من الكِناس، وهو المكان الذي يختفي فيه الوحش، من غزالٍ أو غيره.

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾. أي: والليل إذا نشأ وأقبل بظلامه، أو أدبر وانتهت ظلمته. فالآية تحتمل التأويلين:

1 ـ قال مجاهد: (﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾: أظلم). وقال سعيد بن جبير: (إذا نشأ). وقال الحسن البصري: (إذا غشي الناس).

2 ـ وقال ابن عباس: (﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ إذا أدبر). وقال ابن زيد: (عسعس: تولى). وروى أبو داود الطيالسي عن أبي عبد الرحمن السلَمِيّ قال: (خرج علينا عليٌّ ـ رضي الله

عنه ـ حينَ ثَوَّب المُثَوِّبُ بصلاة الصبح[1] فقال: أين السائلون عن الوَتْرِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ ، هذا حينُ وَتْرٍ حَسَن).

قلت: والإعجاز القرآني يحتمل الوجهين، فإن لفظة ﴿عَسۡعَسَ﴾ تستعمل في الإقبال والإدبار، والسياق يدل على ذلك أيضاً، فإن قوله تعالى في الآية بعدها: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي طلع وأضاء وأقبل. فتكون المقابلة بين الآيتين: والليل إذا أدبر، والصبح إذا أقبل. أو والليل إذا أظلم، والصبح إذا أشرق ـ والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾. أي: أقبل بروح ونسيم، وأضاء بنور عميم. قال الضحاك: (﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ ، قال: إذا طلع). وقال قتادة: (إذا أضاءَ وأقبل). وقال سعيد بن جبير: (إذا نشأ).

وفي لغة العرب: تنفَّس الصبح تَبَلَّج، والتنفُّس: خروج النسيم من الجوف. وقيل للنهار إذا زاد: تنفّس، والمقصود: والصبح إذا امتد بنسيمه وضيائه حتى يصير نهاراً واضحاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾. هذا جواب القسم. والرسول الكريم: جبريل عليه السلام. والمعنى: إنّ هذا القرآن لقول رسول عن الله كريم على الله. قال ابن عباس وقتادة: (يعني جبريل). قال ابن كثير: (يعني: إن هذا القرآن لتبليغُ رسولٍ كريم، أي: مَلَكٍ شريف حَسَن الخَلْقِ، بَهِيّ المنظر، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام).

وقوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾. أي: هو ذو قدرة عالية، ومكانة مكينة رفيعة، عند الله جلت عظمته.

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٖ﴾ [النجم: 5 ـ 6].

قال النسفي: (﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ قدرة على ما يكلف لا يعجز عنه ولا يضعف ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ عند الله ﴿مَكِينٖ﴾ ذي جاه ومنزلة، ولما كانت حال المكانة على حسب حال المكين قال: عند ذي العرش، ليدل على عظم منزلته ومكانته).

وقوله تعالى: ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾. أي مطاع هناك بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه، مؤتمن على الوحي وغيره. يعني جبريل عليه السلام. قال قتادة: (﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾ ، أي في

(1) ورواه ابن جرير بلفظ: (بعدما أذّن المؤذن بالصبح). وفي آخره: (نِعْمَ ساعة الوتر هذه).

السماوات ، يعني : ليس هو من أفناءِ الملائكةِ ، بل هو من السادة والأشراف ، مُعتنىً به ، انتخِبَ لهذه الرسالة العظيمة).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾. تزكية من الله تعالى لعبده ورسوله البشري محمد ﷺ ، بعد تزكية عبده ورسوله المَلَكي جبريل بوصفه بالأمانة.

وعن ميمون بن مهران: (﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ قال: ذاكم محمد ﷺ). وذِكْرُ الله محمداً ﷺ بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾. أي: قد رأى محمد جبريل في صورته ، له ست مئة جناح. قال مجاهد: (رآه نحو أجياد ، وهو مشرق مكة).

والأفق المبين: أي البيِّن. قال القرطبي: (لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مُبين. أي من جهته تُرى الأشياء).

وفي التنزيل نحو ذلك. قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: 5 ـ 10].

فهذه هي الرؤيا الأولى التي كانت بالبطحاء ، وهي المشار إليها هنا في سورة التكوير ، والتي يبدو أنها نزلت قبل ليلة الإسراء ، لأن الرؤيا الثانية عند سدرة المنتهى لم تذكر فيها ، وإنما ذكرت في سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: 13 ـ 15] ، والتي نزلت بعد الإسراء. أفاده الحافظ ابن كثير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾. أي: وما محمد ﷺ بخبر السماء بباخل ، فإنه لا يبخل بالوحي ، ولا يقصر في التبليغ ، بل يعلّم الخلق كلام الله وأحكامه. قال مجاهد: (ما يضن عليكم بما يعلم). وقد قرأته عامة قراء المدينة والكوفة ﴿بِضَنِينٍ﴾ ـ والضنين: البخيل ـ ، والمقصود ما سبق ، إنه غير بخيل عليهم بتعليمهم ما علّمه الله من الوحي وأحكام الشرع. وأما بعض قراء مكة والبصرة فالقراءة عندهم «بظنين» ـ والظنين: المُتَّهم ـ ، والمقصود: إنه غير متهم فيما يخبرهم عن الله من الأنباء. وكلاهما قراءتان مشهورتان في الأمصار.

يروي ابن جرير بسنده عن سفيان ، عن عاصم ، عن زر: («وما هو على الغيب بظنين» قال: الظنين: المتهم. وفي قراءتكم «بضنين» والضنين: البخيل ، والغيب:

القرآن). قال قتادة: (إن هذا القرآن غيب، فأعطاه الله محمداً، فبذله وعلّمه ودعا إليه، والله ما ضَنَّ به رسول الله ﷺ).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾. أي: وما هذا القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب، بل هو كلام الله ووحيه. كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: 210 ـ 212].

وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾. أي: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم، وأين تذهب بكم عقولكم في التكذيب بهذا الوحي الذي يسطع بحججه كالشمس. قال قتادة: (يقول: فأين تعدلون عن كتابي وطاعتي).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. ـ ﴿إِنْ﴾ بمعنى ما ـ أي: وما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين وتذكير لهم. وقيل: ما محمد إلا ذكر. والأول أرجح لدلالة السياق عليه.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾. قال مجاهد: (يتبع الحق). قال ابن جرير: (معنى الكلام: إن هو إلا ذكر لمن شاء منكم أن يستقيم على سبيل الحق فيتبعه ويؤمن به). وقال القاسمي: (وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بدل من ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أي إنه ذكرى لمن أراد الاستقامة على الطريق الحق، بصرف إرادته وميله إليه والثبات عليه. أما من أعرض ونأى، فمن أين تنفعه الذكرى، وقد زاده الران عمى؟).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. إثبات لافتقار مشيئة العباد إلى مشيئة القهار سبحانه، فكل مشيئة في هذا الكون مقهورة بمشيئته تعالى. قال الحسن: (والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها). والمقصود: وما تشاؤون الاستقامة أيها القوم ولا تقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه

تم تفسير سورة التكوير

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

عصر يوم الخميس 15/ ذي القعدة/ 1426 هـ

الموافق 15/ كانون الأول/ 2005 م

ـ دروس ونتـــائج وأحكـــام ـ

1 ـ سورة التكوير ، شَيَّبَتْ نبينا ﷺ مع أخوات هود قبل المشيب .

2 ـ الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة .

3 ـ العشار : النوق الحوامل التي في بطونها أولادها ، والواحدة : عُشراء .

4 ـ لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء .

5 ـ العزل هو الوأد الخفي ، والوائدة ـ والموؤدة الراضية بالوأد ـ في النار .

6 ـ تعلمون المعاد إلى الله ، ثم إلى الجنة أو إلى النار ، وإقامة لا ظعن فيه ، وخلود لا موت ، في أجساد لا تموت .

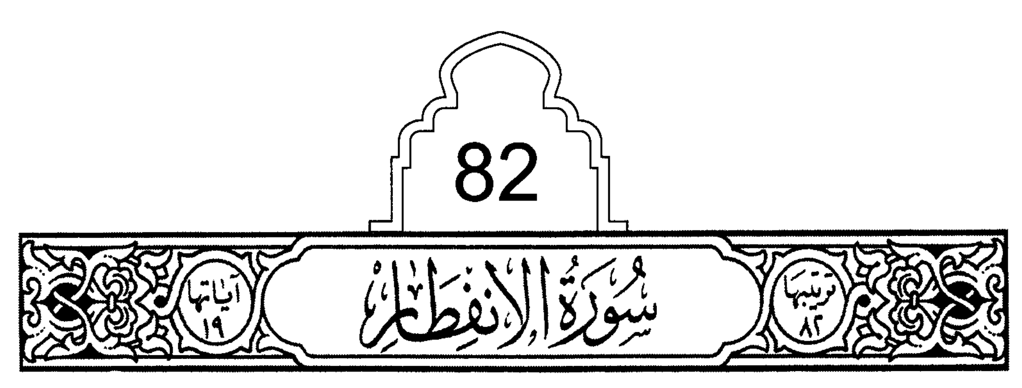
7 ـ الجواري الكُنَّس : هي التي تجري في أفلاكها وتختفي وقت غروبها .

8 ـ لفظة «عسعس» تستعمل في الإقبال والإدبار .

9 ـ إثبات مشيئة العبد بقوله تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ .

10 ـ إثبات افتقار مشيئة العباد إلى مشيئة الواحد القهار ، فإن العون والمدد والتوفيق كله من الله .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (19).

أخرج النسائي في «التفسير» بإسناد صحيح عن جابر قال: [قام معاذٌ فَصلَّى العشاء الآخرةَ فطَوَّل ، فقال النبي ﷺ: أَفَتَّانٌ يا معاذ؟ أفتَّان يا معاذ؟! أين كُنْتَ عن ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾][1] .

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم بإسناد حسن عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ سَرَّه أن ينظرَ إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ ، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾][2] .

موضوع السورة

انفطار السماء وأهوال يوم الحساب
وأحوال الناس في الثواب أو العقاب

---

(1) أخرجه النسائي في «التفسير» (672) ، وفي «السنن» (831) ، (984) وإسناده صحيح. وهو من أفراد النسائي ، وأصل الحديث مخرج في الصحيحين دون ذكر ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ .

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 27 ـ 36 ـ 100) ، والترمذي (3333) ، والحاكم (2/ 515) ، وإسناده حسن. وانظر صحيح سنن الترمذي (2653).

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انفطار السماء لنزول الملائكة وتساقط الكواكب وتفجر البحار وتبعثر القبور لمشهد الحساب ، ونيل الثواب ونكال العقاب.

2 ـ تقسيم المآل بحسب الأعمال ، فأهل الإيمان في جنات النعيم ، وأهل الكفر في نار الجحيم.

3 ـ يوم الدين هو يوم الجزاء والحساب ، وحصول العبد على نتائج كسبه من الثواب أو العقاب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 12. **قوله تعالى**: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

في هذه الآيات: تَشقُّق السماء لنزول الملائكة يوم القيامة ، وتساقط الكواكب وتفجر البحار وتبعثر القبور لخروج الموتى لمشهد الفرح أو الندامة.

فقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾. أي: تشققت لنزول الملائكة. كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: 25]. وقيل: تفطّرت لهيبة الله تعالى. كقوله جلت عظمته: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: 18]. والفَطْر: الشَّقُ ، وتَفَطَّر الشيء: شَقَّقَ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾. أي: تساقطت متفرقة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾. قال ابن عباس: (فجّر الله بعضَها في بعض). ـ أي فصارت بحراً واحداً ـ أو انفجارها كانفجار البراكين ، وهذا قبيل قيام الساعة.

وقال البخاري: (قال الرَّبيع بن خُثَيْمٍ: «فُجِّرت»: فاضت).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾. أي قُلِبَ ترابها، وأخرج الموتى منها. قال ابن عباس: (بُحِثَتْ). وقال السُّدّي: (تُبَعْثَر: تُحَرَّكُ فَيخرج مَنْ فيها).

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾. أي: علمت حينئذ عند نشر الصحف ما قدّمت من عمل خير أو شرّ، وما أخّرت من حسنة أو سيئة. كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13].

والمقصود: إذا كانت هذه الحوادث الرهيبة قامت القيامة، فحوسبت كل نفس بماعملت، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها. قال القاسمي: (﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ أي لذلك اليوم من عمل صالح أو سَيِّئ ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ أي تركت من خير أو شر. أو المعنى: ما قدمت من عمل طيب لم تقصر فيه، وما أخرت أي قصرت فيه. والمراد بالعلم بالتقديم والتأخير، وجدان الجزاء عليهما، وتحقق مصداق الوعد عليهما).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾. تهديد لمن تمادى في العصيان، وغرّه عفو الرحمان، إذ لم يعاجله بالعقاب والانتقام. قال ابن عمر: (غرّه ـ والله ـ جهله). وقال قتادة: (غرّ ابن آدم هذا العدو الشيطان). وقال الفضيل بن عياض: (لو قال لي: «ما غرّك بي»، لقلت: سُتورك المُرْخاة). قال ابن كثير: (إنما أتى باسمه ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ لِيُنَبِّهَ على أنه لا ينبغي أن يقابَلَ الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾. قال البخاري: (وقرأ الأعمش وعاصم «فَعَدَلك» بالتخفيف، وقرأه أهل الحِجاز بالتشديد، وأراد مُعْتدِل الخَلْق، ومن خَفَّفَ يَعْني: في أي صورة شاء: إمّا حَسَنٌ، وإما قبيحٌ، أو طويلٌ أو قصير).

والمقصود: خلقك ربك أيها الإنسان من نطفة ولم تك شيئاً «فسوّاك» رجُلاً تسمع وتبصر وتعقل ﴿فَعَدَلَكَ﴾ جعلك معتدلاً قائماً حسن الصورة، وجعل أعضاءك متعادلة متناسبة، في أحسن الهيئات والأشكال.

أخرج ابن ماجة وأحمد وابن سعد بسند حسن عن جُبَيْر بن نُفَير، عن بُسْر ابن جَحَّاش، أنّ رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفِّه، ووضع عليها إصبعه ثم قال: [يقول الله تعالى: يا ابن آدم! أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سَوَّيْتُكَ وعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بردين وللأرض منك وئيدٌ، فجمعت ومَنَعْتَ، حتى إذا بَلَغَتْ

نفسك هذه ـ وأشار إلى حلقه ـ «وفي رواية: حتى إذا بلغت التّراقي» قلتَ: أتصدق، وأنّى أوان التصدق؟!][1].

وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾. أي: ركبك سبحانه في الصورة التي شاءها من الصور المختلفة، وأنت لم تختر صورة نفسك. قال مجاهد: (﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾: في أي شَبَه أبٍ أو أمٍّ أو خالٍ أو عمٍّ). وقال مكحول: (إن شاء ذكراً، وإن شاء أنثى). وقال عكرمة: (إن شاء في صورة إنسان، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير). قال قتادة: (قادر ـ الله ـ ربنا على ذلك). ـ والمقصود هنا: ولكنه بلطفه وحلمه اختار لك سبحانه أنسب شكل وأحسن منظر، وكَرَّمك على سائر المخلوقات في أحسن تقويم ـ.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾. ـ كلاّ ـ للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذَريعة إلى الكفر به. والدين: الجزاء. قال النسفي: (﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ ردع عن الغفلة عن الله تعالى ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أصلاً، وهو الجزاء، أو دين الإسلام فلا تصدقون ثواباً ولا عقاباً).

وعن مجاهد: (﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ قال: بالحساب). أو قال: (بيوم الحساب). وقال قتادة: (قوله ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ قال: يوم شدّة، يوم يدين الله العباد بأعمالهم).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾. يعني: وإن عليكم لملائكة رقباء حفظة يحفظون أعمالكم، ويحصونها عليكم، كراماً على الله كاتبين، يكتبون ما يصدر عنكم. والمقصود: فاحرصوا على أعمال الإيمان والطاعة لتكتب لكم، واجتنبوا الشرك والقبائح والآثام أن تسطر في صحائفكم.

وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾. أي من خير أو شر. قال القاسمي: (أي يحصونه عليكم، فلا يغفلون ولا ينسون).

قال الرازي: (إنّ الله تعالى أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم. لأن ذلك أبلغ في تقرير المعنى عندهم. ولما كان الأبلغ عندهم في المحاسبة إخراج كتاب بشهود، خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة. فيخرج لهم كتب

(1) إسناده حسن. أخرجه ابن ماجة (2/ 159)، وأحمد (4/ 210)، وابن سعد في «الطبقات» (7/ 427). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (1099).

منشورة ، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم ، كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره).

13 ـ 19. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

في هذه الآيات: تقسيم المآل بحسب الأعمال ، فأهل الإيمان والبر في نعيم الجنان ، وأهل الكفر والعصيان في صِلِيِّ النيران ، إنه يوم الدين والحساب ، يوم نيل الثواب ونكال العقاب.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: إنّ الذين برّوا بأداء فرائض الله ، واجتناب معاصيه ، لفي نعيم الجنان ينعمون فيها). والأبرار جمع «بَرّ» وهو المتصف بالبِرّ ـ أي الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾. أي: وإن الذين فجروا عن أمر الله ـ أي انشقوا عنه وخالفوه ـ سيصيرون إلى الجحيم.

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾. أي يصلى هؤلاء الفجار الجحيم يوم القيامة ، يوم يُدان العباد بالأعمال ، فيجازون بها. قال ابن عباس: (﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ من أسماء يوم القيامة ، عظّمهُ الله ، وحذّره عباده).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾. أي: لا يفارق أصحاب الجحيم النار أبداً ، ولا يغيبون عنها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوماً واحداً ، بل هم فيها أبدَ الآبدين. كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: 48].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾. قال قتادة: (تعظيماً ليوم القيامة ، يوم تدان فيه الناس بأعمالهم).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾. تأكيد لِعِظَم ذلك اليوم عن طريق التكرار ، وتفخيم لأهواله التي تحمل الفضيحة والخزي على الكفرة والمجرمين والفجار.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾. تفسير لما يكون في

ذلك اليوم الرهيب ، حيث لا تغني نفس عن نفس شيئاً ، وتنتهي فيه الرياسات ، والممالك والقرارات ، والأمر يومئذ للجبار ، الواحد القهار. وعن قتادة: (﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ قال: ليس ثم أحد يومئذ يقضي شيئاً ولا يصنع شيئاً إلا رب العالمين). وقال أيضاً: (والأمر والله اليوم لله ، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: 26].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: [قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]. قال: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباسُ بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمةَ رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمةُ بنتَ محمد سليني من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً][1].

تم تفسير سورة الانفطار

بعون الله وتوفيقه ، وواسعِ منِّه وكرمه

عِشاء الخميس 15 / ذي القعدة / 1426 هـ

الموافق 15 / كانون الأول / 2005 م

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4771) ـ كتاب التفسير. وانظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (204) ـ كتاب الإيمان.

- دروس ونتـائج وأحكـام -

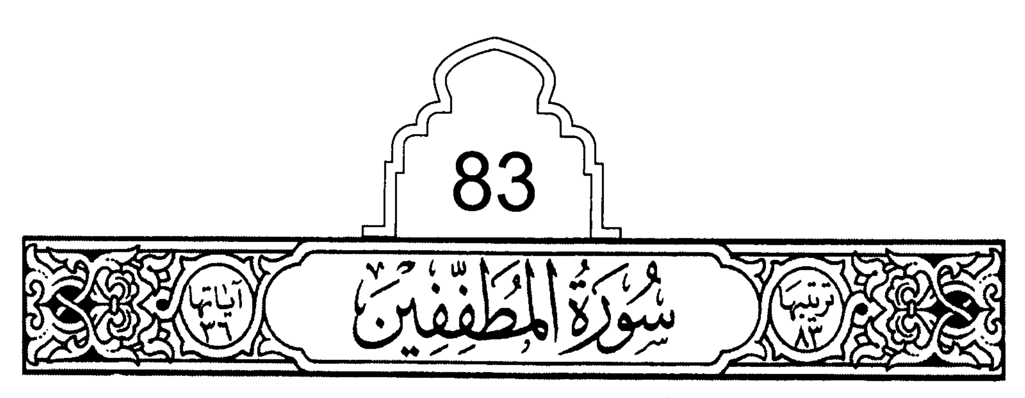
1 - انفطار السماء تشققها لنزول الملائكة ، والفَطْر : الشَّق .

2 - يوم الدين : يوم يدين الله العباد بأعمالهم ، وهو يوم شدة على الناس .

3 - الأبرار : جمع بَرّ ، وهو المتصف بالبِرّ ، أي الطاعة .

4 - الأمر دوماً لله ، ولكنه يوم القيامة لا ينازعه فيه أحد .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (36) .

ما ورد في ذكرها :

أخرج ابن ماجة والنسائي بسند حسن عن ابن عباس : [لما قدم النبي ﷺ المدينةَ ، كانوا من أَخْبَثِ الناس كيلاً . فأنزل الله سبحانه : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ، فأحسنوا الكيل بعد ذلك][1] .

وأخرج البخاري في «التاريخ الصغير» ، وأحمد وابن حبان والبزار ، بسند صحيح ، عن أبي هريرة قال : [خَرَجَ ﷺ إلى خيبر حين استخلف سباع بن عرفطة على المدينة ، قال أبو هريرة : قدمتُ المدينة مهاجراً فصليتُ الصبحَ وراء سباع ، فقرأ في الركعة الأولى ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، وقرأ في الركعة الثانية ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ، قال أبو هريرة : فأقول في الصلاةِ : ويلٌ لأبي فلان! له مكيالان ، إذا اكتال اكتال بالوافي ، وإذا كالَ كالَ بالناقص ، فلما فرغنا من صلاتِنا أتينا سباعاً فزودنا شيئاً حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وقد افتتح خيبر ، فكلم المسلمين ، فأشركونا في سهمانهم][2] .

موضوع السورة

تهديد المطففين وخزي المجرمين يوم الدين
ونَعْتُ حال السعداء الأتقياء المؤمنين

---

(1) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة (2223) ، كتاب التجارات ، باب التوقي في الكيل والوزن .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في «التارخ الصغير» (ص 11 ـ 12) ، وأحمد (2/ 345) ، (2/ 346) ، وابن حبان (467) ، والبزار (3/ 79/ 2281) ، وأخرجه الحاكم (3/ 36) ، وقال : «صحيح» ووافقه الذهبي ، وأقرّه الألباني في «الصحيحة» (2965) .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ تهديد الله تعالى المطففين ، الذي يعبثون بالكيل والميزان ولا يوفون.

2 ـ تثبيت كتاب الفجار في سجين ، في سجل أهل النار أسفل الأرضين.

3 ـ طبع الله على قلوب المكذبين ، وحجبهم عن ربهم يوم الدين ، ثم مصيرهم إلى الجحيم.

4 ـ تثبيت كتاب الأبرار في عليين ، وهم يوم القيامة في النضارة والنعيم.

5 ـ نَعْت حال المجرمين في الدنيا وهم بالمؤمنين يسخرون ، وانعكاس هذه الحال ليصبح المؤمنون يوم القيامة هم من الكفار يضحكون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 6. **قوله تعالى**: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

في هذه الآيات: التحذير الشديد والوعيد الأكيد للمطففين ، الذين يعبثون بالكيل والميزان ويسلكون سبيل المنافقين ، فالخزي والفضيحة والقصاص والعذاب يوم الدين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. التطفيف: النقص من الكيل أو الوزن شيئاً طفيفاً ، أي نزراً حقيراً. وربما كان لأحدهم صاعان يكيل للناس بأحدهما ويكتال لنفسه بالآخر. قال الزجاج: (إنما قيل للفاعل من هذا مُطفِّف ، لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف ، وإنما أخذ من طَفِّ الشيء وهو جانبه).

قال القرطبي: (﴿وَيْلٌ﴾ أي شدة عذاب في الآخرة) ـ ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. وقال ابن عباس: (إنه وادٍ في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، فهو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي الذين ينقصون مكاييلهم وموازينهم).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾. يعني الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن. قال الفراء: (﴿ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي من الناس، يقال: اكتلت منك: أي استوفيت منك، ويقال اكتلت ما عليك: أي أخذت ما عليك). وقال الزَّجاج: (أي إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل). والمقصود: الذين إذا استوفوا أخذوا الزيادة، وإذا أوفوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم. ـ ذكره القرطبي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾. أي: وإذا كالوا لغيرهم من الناس ينقصون الكيل، وإذا وزنوا لغيرهم من الناس ينقصون الوزن.

قلت: والآيات في موضع التوبيخ الشديد، وتَحْمِلُ التهديد والوعيد الأكيد، فإن الأصل الوفاء في الكيل والميزان، وقد أهلك الله تعالى قوم شعيب عبر الزمان، لما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: 35].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: 152].

4 ـ وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 9].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن سويد بن قيس قال: [جلبتُ أنا ومخرَفة العبدي بَزّاً من هَجَر... فجاءنا رسول الله ﷺ فساومنا سراويل. وعندنا وَزَّان

يزن بالأجر. فقال له النبي ﷺ: يا وَزَّانُ! زِنْ وأرجِحْ][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة ـ كذلك ـ في الباب عن سِماك بن حرب قال: سمعت مالكاً، أبا صفوان بن عُمَيْرة، قال: [بعت من رسول الله ﷺ رِجْلَ سراويل قبل الهجرة. فوزن لي. فأرجح لي][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة في الباب ـ أيضاً ـ بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا وَزَنْتُم فَأَرْجِحُوا][3].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة: [أنَّ رسول الله ﷺ، مرَّ برجل يبيع طعاماً، فسأله: كيف تبيع؟ فأخبره، فأوحى إليه: أن أدخل يدك فيه، فأدخل يده فيه، فإذا هو مبلول، فقال رسول الله ﷺ: لَيْسَ منّا مَنْ غَشَّ][4].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ألا يظن هؤلاء المطففون الناس في مكاييلهم وموازينهم، أنهم مبعوثون من قبورهم بعد مماتهم، ليوم عظيم شأنه، هائل أمره، فظيع هوله).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أي يوم يقوم الناس واقفين منتظرين لأمر رب العالمين، أو لجزائه، أو لحسابه. وفي الآية دلالة على عظم ذنب التطفيف، ومزيد إثمه وفظاعة عقابه.

وفي السنة الصحيحة من ذكر آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم ومالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [أنّ النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: حتى يغيبَ أَحَدُهم في رَشْحِهِ إلى أَنْصافِ أُذُنَيْه][5]. وفي رواية: [يقوم أحدهم في رَشْحِه إلى أَنْصَاف أُذُنَيْه].

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2220) ـ كتاب التجارات. باب الرجحان في الوزن.
(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2221) ـ الباب السابق. انظر صحيح سنن ابن ماجة (1806).
(3) أخرجه ابن ماجة في السنن (2222) ـ الباب السابق. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (1807).
(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3452) ـ كتاب الإجازة. باب في النهي عن الغَشِّ. انظر صحيح سنن أبي داود (2946)، ونحوه في صحيح ابن ماجة (1809). وأصله في صحيح مسلم.
(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4938) ـ كتاب التفسير، عند هذه الآية. وكذلك أخرجه برقم (6531) ـ كتاب الرقاق. وأخرجه مسلم (2862) ح (60)، والترمذي (2422)، و(3336)، والنسائي في «التفسير» (677)، وابن ماجة (4278).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن نافع، عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: لعظمة الرحمن ـ عزّ وجل ـ يوم القيامة، حتى إنَّ العرقَ لَيُلْجِمُ الرجالَ إلى أنصاف آذانهم][1].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: [يَعْرَقُ الناس يوم القيامة حتى يذهبَ عَرَقُهُم في الأرض سبعين ذراعاً، ويُلجمهم حتى يبْلغ آذانهم][2].

وله شاهد في صحيح مسلم من حديث المقداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد، حتى تكونَ قِيدَ مَيلٍ أو مَيلين. قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرقِ كَقَدْرِ أعمالهم، وفي رواية: (فيكون الناس على قَدْر أعمالهم في العرق). فمنهم من يكون إلى كَعْبَيْهِ، ومنهم من يكون إلى رُكْبَتَيْهِ، ومِنْهُم من يكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم من يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلجاماً. قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه][3].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة: بأي شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: [لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قَبْلَكَ، كان إذا قام كبّر عَشْراً، وحمد الله عشراً، وسَبّحَ عشراً، وهَلَّلَ عشراً، واستغفر عشراً، وقال: «اللهم اغفِر لي، واهْدني، وارزقني، وعافني» ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة][4].

7 ـ 17. قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 31)، والطبري في «التفسير» (36582). وقوله: «لعظمة الرحمن» مدرج غالباً.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6532) ـ كتاب الرقاق. عند تفسير هذه الآيات.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2864) ـ كتاب الجنة ونعيمها. باب في صفة يوم القيامة. وأخرجه أحمد (6/ 3 ـ 4)، والبغوي (4317)، وابن حبان (7330)، وغيرهم.

(4) حسن صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (766)، والنسائي (3/ 208 ـ 209)، وأحمد في المسند (6/ 143)، وابن ماجة في السنن (1356)، وابن حبان في صحيحه (2602)، وإسناده حسن، ورجاله ثقات. وانظر صحيح سنن أبي داود (693).

ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تثبيتُ كتاب الفجار في سجين ، في سجل أهل النار أسفل الأرضين ، الذين يكذبون بيوم الدين ، وقد طبع الله على قلوبهم وهم عن ربهم يوم القيامة من المحجوبين ، ثم مصيرهم ومستقرهم إلى نار الجحيم .

فقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾. قال قتادة: (في أسفل الأرض السابعة). وقال الضحاك: (يقول: في الأرض السفلى). وسِجِّين: فِعِّيلٌ من السِّجن ، وهو الضيق ، كما يقال: فِسِّيق وسِكِّير. والمقصود: حقاً إن كتاب أعمال الفجار مكتوب في سجل أهل النار في الأرض السفلى ليناسب سفالة نياتهم وتوجهاتهم .

وفي حديث البراء ـ في خروج روح الكافر والفاجر لا تفتح لها أبواب السماء ـ فيقول الله عز وجل: [اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى](1) .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ . تعظيم لأمر سجين ، وتهويل لمصير أهله .

وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ . قال قتادة: (كتاب مكتوب). قال النسفي: (وفسّر سجيناً بكتاب مرقوم ، فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه! قلت: سجين كتاب جامع هو ديوان الشّر دوّن الله فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس ، وهو كتاب مرقوم مسطور بيّن الكتابة ، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه ، من رقم الثياب علامتها ، والمعنى أنّ ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان ، وسمي سجيناً فِعّيلاً من السجن ، وهو الحبس والتضييق ، لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم ، أو لأنه مطروح تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم) .

وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . أي: الهلاك والدمارُ للمكذبين ، يوم يخرج المكتوب ، وتصدر النتائج ، ويحين وقت النكال والقصاص .

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . أي: الذين يكذبون بيوم الحساب والمجازاة. قال ابن زيد: (أهل الشرك يكذبون بالدين) .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ . أي: فاجر جائر متجاوز في الإثم منهمك في أسبابه. قال قتادة: (﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦ ﴾: أي بيوم الدين ، إلا كل معتد في

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287 ـ 288) ، وأبو داود (2/ 281) ، والحاكم (1/ 37 ـ 40).

قوله ، أثيم بربه). وقال ابن كثير: (أي: مُعْتد في أفعاله ، من تَعاطي الحرامِ والمجاوزةِ في تناول المُباح ، والأثيم في أقواله إن حَدَّثَ كذب ، وإن وعَدَ أخلف ، وإن خاصَمَ فَجَر).

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾. أي: إذا تتلى عليه آياتنا المنزلة على محمد ﷺ قال: هذا ما سطّره الأولون فكتبوه في كتبهم ، من أحاديثهم وأباطيلهم وخرافاتهم.

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . ـ كلاّ ـ رَدْعٌ وزجر ، أي ليس الأمر كما يصف ذلك المعتدي الأثيم ، وإنما هي المعاصي والذنوب والآثام ، تزاحمت وتكاثرت فأحاطت بقلوبهم حتى غَطّاها الران.

أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ العبدَ إذا أخطأ خطيئـةً نُكِتَـتْ في قلبه نُـكْتَـةٌ سَـوْداء ، فـإذا نَـزَعَ واستَغْفَرَ وتابَ صُقِلَ قَلبُهُ ، وإنْ عادَ زيدَ فيها حتى تَعْلُو قلبَهُ ، وهو الرّان الذي ذكر الله ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾][1]. قال ابن عباس: (طبع على قلوبهم ما كسبوا).

وعن الحسن: (﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ قال: الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب فيموت). وقال مجاهد: (العبد يعمل بالذنوب ، فتحيط بالقلب ، ثم ترتفع ، حتى تغشى القلب). وقال أيضاً: (انبثت على قلبه الخطايا حتى غمرته). وقال الضحاك: (الرين موت القلب). وعن أبي سليمان: (الرين والقسوة زماما الغفلة). وقيل: الرينُ يعتري قلوبَ الكافرين ، والغيمُ للأبرار ، والغينُ للمقرَّبين.

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾. أي: بل هم ممنوعون عن رؤيته تعالى يوم القيامة. قال قتادة: (هو لا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم). وقال الحسين بن الفضل: (كما حَجَبَهُم في الدنيا عن توحيده حَجَبَهُم في العقبى عن رؤيته). وقال الزجاج: (في الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم ، وإلا لا يكون التخصيص مفيداً). وقال مالك بن أنس: (لما حجب أعداءه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه).

قلت: و﴿ كَلَّا ﴾ رَدْعٌ عن الكسب الرائن على القلب ، فهو الذي منعهم من رؤية

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3334) ، والنسائي في «التفسير» (678) ، وفي «السنن» (418) ، ورواه ابن ماجة (4244) ، والطبري (36623). وانظر صحيح سنن الترمذي (2654).

وجهه سبحانه يوم الحساب. وإلا فالمؤمنون ينعمون بلذة النظر إلى وجهه الكريم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22 ـ 23].

2 ـ وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]. فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله العظيم.

3 ـ وقال تعالى هنا ـ في شأن الكفار ـ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15].

قال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: [حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عَزَّ وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟ فقال الشافعي: لما أن حُجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى]. وفي رواية: [ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل][1].

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد وجامع الترمذي عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار! قال: فيرفَعُ الحجاب، فينظرون إلى وجه الله، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾][2].

وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه: [إن الله يتجلّى للمؤمنين يضحك][3] ـ يعني في عرصات القيامة ـ مما يدل أن المؤمنين ينظرون إليه سبحانه في العرصات وفي روضات الجنات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾. أي: ثم إنهم مع هذا الحرمان، عن رؤية وجه الرحيم المنّان، لواردو الجحيم فمشويون في النيران، ليجمعوا بذلك بين تعاسة النفس وعذاب الأبدان.

---

(1) انظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 206) ـ البحث العاشر ـ رؤية الله يوم القيامة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (181)، والترمذي (2552)، ورواه أحمد (4/ 333).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (191) ـ في أثناء حديث مطول.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. أي: ثم يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير: هذا التكذيب للرسل في الدنيا أوصلكم إلى عذاب السعير.

18 ـ 28. **قوله تعالى:** ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تثبيتُ كتاب الأبرار في عليين، وإثبات نضارة وجوههم يوم الدين، فهم في الملذات في جنات النعيم.

فقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾. أي حقاً إن كتاب الأبرار مختلف عن كتاب الفجار، فهؤلاء كتابهم في عليين، وأولئك كتابهم في سجين. والأبرار: جمع بَرّ، وهم الذين بروا الله بأداء فرائضه، واجتناب محارمه. و﴿عليون﴾ معناه علوّ في علوّ مضاعف، كأنه لا غاية له. قال النسفي: (هو علم لديوان الخير الذي دوّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع عِلِّيّ، فِعِّيل من العلو، سمي به لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة، أو لأنه مرفوع في السماء السابعة).

يروي ابن جرير بسنده عن هلال بن يساف، قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر عن العليين، فقال كعب: (هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين). وقال قتادة: (في السماء العليا). وقال الضحاك: (﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾: في السماء عند الله).

وفي سنن أبي داود ومسند أحمد من حديث البراء مرفوعاً ـ في ارتفاع روح المؤمن بعد نزعها إلى طبقات السماء ـ: [فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، فيكتب كتابه في عليين][1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾. أي: وما أعلمك يا محمد أيّ شيء عِلّيون؟

---

(1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث رواه أبو داود (2/ 281)، وأحمد (4/ 287 ـ 288)، والحاكم (1/ 37 ـ 40)، والطيالسي (753)، وقد مضى، وإسناده صحيح.

على جهة التفخيم والتعظيم لعليين في المنزلة العالية.

أخرج ابن ماجة والترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أهل الدرجات العُلا ليَراهم من تَحْتَهم كما تَرَوْنَ النَّجْمَ الطالِعَ في أُفُقِ السَّماء، وإنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ منهم وأنْعَما][1].

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾. أي: الكتاب الذي فيه أسماء الأبرار كتاب مسطور. وقوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. قال قتادة: (وهم الملائكة). وقال العوفي، عن ابن عباس: (يشهُده من كلِّ سماء مقرّبوها). والمقصود: أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم ويرونه. وقيل: يشهدون بما فيه يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾. الأرائك: الأسِرّة التي في الحجال، وهي الكِلَل. قيل: ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات. وقيل: ينظرون إلى وجهه جل جلاله.

وقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾. قال ابن كثير: (أي: تَعْرِفُ إذا نظرتَ إليهم في وجوههم نَضْرَة النعيم، أي: صِفَة الترافة والحِشْمَةِ والسُرور والدَّعةِ والرِّياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم).

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾. أي: يُسْقون من خمر من الجنة. قال ابن عباس: (يعني بالرحيق: الخمر). قلت: والرحيق من أسماء الخمر، وهو من الخمر ما لا غش فيه ولا شيء يفسده[2]. والمختوم الذي له ختام، فهو ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار.

وقوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾. قال ابن مسعود: (أي: خَلْطُه مِسْكٌ). وقال ابن عباس: (طيَّبَ الله لهم الخمر، فكانَ آخرَ شيء جُعِلَ فيها مسكٌ، خُتِمَ بِمِسْك). وقال الحسن: (﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، أي: عاقِبَته مِسْك). وقال مجاهد: (طِيْبُهُ مِسْك).

والمقصود: أنَّ آخر طعمه ريح المسك، فإذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك. وقيل: مختومة أوعيته بمسك، ليجمع بذلك بين الرائحة العطرة والمذاق اللذيذ.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (96)، والترمذي (3658). وانظر صحيح الترمذي (2892).
(2) وفي الصحاح: (الرحيق: صَفْوةُ الخَمْر)، وهو من رَحَقَ ـ حكاه الرازي.

وقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾. أي: وفي ذلك فليرغب الراغبون. والتنافس: التنازع في الشيء والتشاجر عليه، فيريده كل واحد لنفسه، وينفس به على غيره: أي يضنّ به. وهو مأخوذ من الشيء النفيس، والذي تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه وتشتهيه. قال القرطبي: (وقيل: الفاء[1] بمعنى إلى، أي: وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل، نظيره: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: 61]).

والمقصود: التنافس بالمسارعة إلى الخيرات والانتهاء عن السيئات، فهو التسابق المحمود إلى طاعة الله ونيل رضاه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾. أي: ويمزج ذلك الرحيق من تسنيم، وهو شراب ينصبّ عليهم من علوّ، وهو أشرف شراب الجنة. فعن مجاهد: (﴿تَسْنِيمٍ﴾ قال: تسنيم، يعلو). وعن معمر، عن الكلبي قال: (تسنيم ينصب عليهم من فوقهم، وهو شراب المقربين).

والتسنيم مصدر سنّمه إذا رفعه. قال ابن جرير: (والتسنيم: التفعيل من قول القائل: سنمتهم العين تسنيماً: إذا أجريتها عليهم من فوقهم، فكان معناه في هذا الموضع: ومزاجه من ماء ينزل عليهم من فوقهم فينحدر عليهم).

والخلاصة: ومزاج ذلك الرحيق من ﴿تَسْنِيمٍ﴾ وهو علم لعين بعينها، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنّمه إذا رفعه، لأنها أرفع شراب في الجنة، أو لأنها تأتيهم من فوق وتنصب في أوانيهم ـ ذكره النسفي.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. عَيْناً: حال، أو نصب على المدح. والمعنى: يسقون الرحيق من عين التسنيم يمزجون بها كؤوسهم. قال ابن عباس وابن مسعود: (عين في الجنة يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين).

29 ـ 36. **قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى

(1) أي في قوله: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾.

ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: نَعْتُ حال المجرمين في دار الدنيا وهم بالمؤمنين يسخرون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ويلمزون ، ثم انعكاس هذه الحال ليصبح المؤمنون يوم القيامة هم من أعدائهم يضحكون ، على الأرائك ينظرون ، وقد نزل بالكفار سخط الله ونالوا نكال ما كانوا يفعلون .

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ . قال قتادة: (في الدنيا ، يقولون: والله إن هؤلاء لكذبة ، وما هم على شيء ، استهزاءً بهم).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ . أي: وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، بقصد احتقارهم. وهو من الغمز: الإشارة بالجفون والحواجب ، فهم يعيِّرونهم بالإسلام ويعيبونهم به .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ . أي: وإذا رجع الكفار إلى أهلهم من مجالسهم رجعوا معجبين بما هم فيه متلذذين به ، يتفكهون بالطعن في المؤمنين ، والاستهزاء بهم. قال ابن عباس: (فاكهين: معجبين). وقال ابن زيد: (انقلب ناعماً ، هذا في الدنيا ، ثم أعقب النار في الآخرة). قال ابن كثير: (أي: وإذا انقلب ، أي: رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ، أي: مهما طلبوا وجدُوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقِرونهم ويحسُدونهم).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ . أي: لكونهم على غير دينهم. قال النسفي: (﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ وإذا رأى الكافرون المؤمنين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي خدع محمد هؤلاء فضلوا وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة من الكرامات ، فقد تركوا الحقيقة بالخيال ، وهذا هو عين الضلال).

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ . أي: ولم يرسل هؤلاء الكفار على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم ، وإنما كُلِّفوا بالإيمان بالله والعمل بطاعته ، ولم يجعلوا رقباء على غيرهم .

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ

تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: 108 ـ 111].

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾. أي: ففي ذلك اليوم يضحك المؤمنون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، فقلب الله الصورة وحاق المكر بأهله، فعزّ المؤمنين وأخزى الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾. أي: ينظرون إلى وجه ربهم وهم على سررهم، وإلى خزي وعذاب الكافرين. قال النسفي: (﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال، أي يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار، بعد العزة والاستكبار، وهم على الأرائك آمنون). وقال ابن كثير: (﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾، أي: إلى الله ـ عزَّ وجل ـ في مُقابلةِ من زَعَم فيهم أنهم ضالّون، وليسوا بضالين، بل هم أولياء الله المُقَرَّبين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته).

وقوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾. قيل معنى ﴿هَلْ﴾ التقرير. والتقدير: قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم. وقيل: هو إضمار على القول. قال القرطبي: (والمعنى، يقول بعض المؤمنين لبعض ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي أثيب وجُوزي. وهو من ثاب يثوب أي رجع، فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويستعمل في الخير والشر).

وخلاصة القول: هل جوزي الكفار على استهزائهم بالحق والمؤمنين؟! نعم، قد جوزوا أتم الجزاء وأكمله، وقوبلوا في الآخرة بنقيض مسلكهم، وحصدوا نتاج زرعهم: البكاء بعد الضحك، والندم بعد الفرح، والحصار في عذاب النار، بعد الانطلاق بالفساد والإفساد في دار الاختيار.

تم تفسير سورة المطففين

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

صبيحة يوم السبت 17/ ذي القعدة/ 1426 هـ

الموافق 17/ كانون الأول/ 2005 م

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ إذا وزنتم فأرجِحوا. وليس منا من غشّ ، والمكر والخداع في النار.

2 ـ إن العَرَقَ ليلجِمُ الرجال يوم القيامة إلى أنصاف آذانهم ، وتفاوت الناس يومئذ في العَرَقِ بحسب أعمالهم.

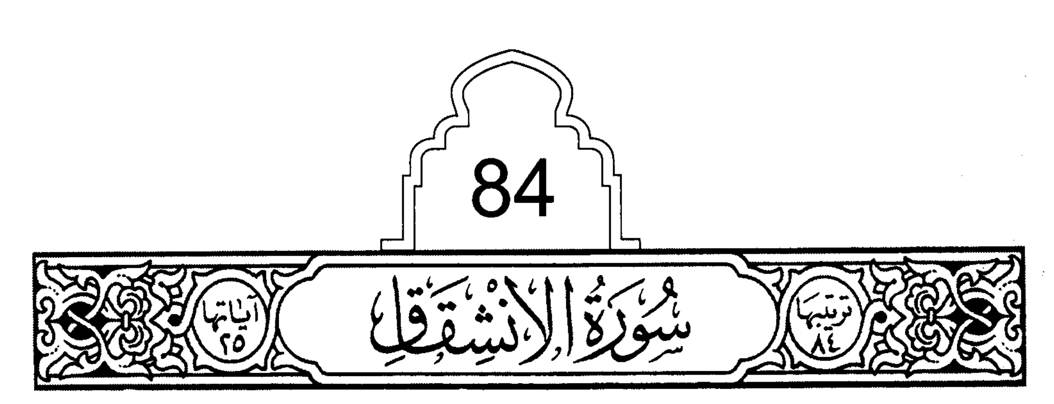
3 ـ إذا أخطأ العبد خطيئة نكتت في قلبه نُكتة سوداء ، فإذا نزعَ واستغفر وتاب صُقِلَ قلبه ، وإن عاد زيدَ فيها حتى تعلو قلبه ، وذلك هو الران.

4 ـ كما حجب الله الكفار في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته.

5 ـ الرحيق من أسماء الخمر ، وهو من الخمر ما لا غش فيه ولا شيء يفسده.

6 ـ جزاء الكفار يوم الحساب: البكاء بعد الضحك ، والندم بعد الفرح ، والعذاب في النار ، بعد الانطلاق في الفساد والإفساد في دار الاختيار.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (25) .

الأحاديث الواردة في ذكرها:

الحديث الأول: أخرج أحمد والترمذي والحاكم بإسناد حسن عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ سَرَّه أنْ ينظرَ إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي رافع قال: [صَلَّيتُ مع أبي هريرة العَتَمَةَ فقرأ: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ فسجد ، فقلت: ما هذه؟ قال: سَجَدْتُ بها خلْفَ أبي القاسم ﷺ ، فلا أزال أسْجُدُ فيها حتى ألقاه][2] .

الحديث الثالث: روى مسلم في صحيحه عن أبي سلمةَ بنِ عبدِ الرحمن: [أنَّ أبا هريرة قرأ لهم: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ . فسجد فيها. فلما انصرف أخبرهم أنَّ رسول الله ﷺ: سَجَدَ فيها][3] .

الحديث الرابع: أخرج مسلم وأصحاب السنن عن عطاءِ بنِ ميناءِ ، عن أبي هريرة

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (2/ 27 ـ 36 ـ 100) ، والترمذي (3333) ، والحاكم (2/ 515).
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1078) ـ كتاب سجود القرآن ، وأخرجه مسلم (578) ح (11) ، وأخرجه أبو داود (1408) ، والنسائي (2/ 161).
(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (578) ـ كتاب المساجد ـ ح (107) ، وأخرجه النسائي في «التفسير» (680) ، وفي «السنن» (961).

قال: [سَجَدْنا مع النبي ﷺ في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ . و﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾][1] . وفي رواية قال: [سجدَ رسول الله ﷺ: في : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ . و﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾] .

موضوع السورة

انشقاق السماء ومد الأرض يوم الدين

وسعادة المؤمنين وشقاء الكافرين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ تشقق السماء ودكّ الجبال وبسط الأرض وإخراج الأموات من بطنها لمشهد الحشر.

2 ـ كل ما يلقى الإنسان في هذه الدنيا من العناء والجهد في سبيل الله يلقى ثوابه عند ربه الكريم.

3 ـ من أوتي كتاب أعماله بيمينه فقد ظفر بالفوز العظيم ، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يصلى نار الجحيم.

4 ـ قَسَمُ الله بالشفق ، والليل وما جمع ، والقمر إذا استوى واجتمع ، أن العباد مدعوون لتتابعٍ في الأحوال: من الغنى والفقر والموت والبعث ثم العرض ، فما لأكثرهم لا يؤمنون.

5 ـ الكفار موعدهم إلى نار الجحيم ، والمؤمنون مستقرهم في جنات النعيم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (578) ح (108 ـ 109) ، وأخرجه أبو داود (1407) ، والنسائي (2/ 162) ، والترمذي (573) ، وابن ماجة (1058) ، وأخرجه ابن حبان (2767).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 15. **قوله تعالى:** ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (14) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)﴾.

في هذه الآيات: تصدُّع السماء ودَكُّ الجبال وبسط الأرض وإخراجها ما فيها من الأموات لمشهد الحشر العظيم، وكل ما يلقى الإنسان في هذه الدنيا من العناء والجهد في سبيل الله يقابله به الرحمان الكريم، فمن أوتي كتاب أعماله بيمينه فقد ظفر بالفوز العظيم، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يصلى نار الجحيم.

فقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾. أي انصدعت، وتفطّرت، وكانت أبواباً. وذلك يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾. أي: أطاعت ربها واستمعت لأمره لها بالانشقاق، وحُقَّ لها أن تطيع وتنقاد وتسمع. قال ابن عباس: (﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾: سمعت لربها. قال: حقّقت لطاعة ربها). وقال سعيد بن جبير: (﴿وَحُقَّتْ﴾: وحقّ لها).

والمقصود: وحُقَّ لها أن تطيع أمر ربها، فهو العظيم الواحد القهار الذي لا يمانع أمره ولا يخالف.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾. أي بُسِطت، ودكت جبالها، حتى صارت قاعاً صفصفاً. قال ابن كثير: (﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسْطَتْ وَفُرِشَت وَوُسِّعت).

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾. أي: أخرجت ما فيها من الأموات وطرحته على ظهرها، ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي: تبرأت منهم وتخلّت عنهم إلى الله لينفذ فيهم أمره. قال قتادة: (﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾: أخرجت أثقالها وما فيها). وقال سعيد بن جبير: (ألقت

ما في بطنها من الموتى ، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء). وقال النسفي: (﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾: ورمت ما في جوفها من الكنوز والموتى. ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾: وخلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء في باطنها كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وسمعت الأرض في إلقائها ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها أحياء ، أمرَ ربها وأطاعت ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ يقول: وحَقَّقها الله للاستماع لأمره في ذلك ، والانتهاء إلى طاعته). وقال القاسمي: (﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي انقادت له في التخلية ، وحق لها ذلك ، وإعادة الآية للتنبيه على أن ذلك تحت سلطان الجلال الإلهي وقهره ومشيئته. وجواب ﴿ وَإِذَا ﴾ محذوف للتهويل بالإبهام. أي: كان ما كان مما لا يفي به البيان. أو لاقى الإنسان كدحه ، كما قال).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾. هو خلاصة هذه الحياة. والمراد جنس الإنسان ، فيشمل المؤمن والكافر. والمعنى: إنك أيها الإنسان ساع إلى ربك سعياً ، وعاملٌ عملاً ، وسوف تلاقي ربك بعملك.

قال ابن عباس: (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ يقول: تعمل عملاً تلقى الله به خيراً كان أو شراً). فالضمير في ﴿ فَمُلَٰقِيهِ ﴾ يعود على ﴿ رَبِّكَ ﴾ أي: فملاق ربك ، أو يعود على الكدح والعمل ، وكلا المعنيين متلازم.

أخرج الحاكم والطيالسي بسند حسن عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [قال جبريل: يا محمدُ! عِشْ ما شِئت فإنك مَيِّت ، وأحْبِبْ ما شِئت فإنك مُفَارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه][(1)].

قلت: والآية تنبيه للعاقل أن يلتمس في كدحه طاعة الله ويجتنب ما يسخطه. كما قال قتادة: (إن كَدْحَكَ ـ يا ابن آدمَ ـ لضعيف ، فمن استطاع أن يكون كدحُه في طاعة الله فليفعَلْ ، ولا قوة إلا بالله).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾.

أي: من أعطي كتاب أعماله بيمينه ، تعرض عليه سيئاته ، ثم يغفرها الله من غير أن يناقشه الحساب.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (4/ 325) ، والطيالسي (1755) ، والبيهقي في «الشعب» (10540) من حديث جابر بن عبد الله ، وإسناده حسن.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [قال رسول الله ﷺ: «ليسَ أحَدٌ يُحاسَبُ إلا هَلَكَ»، قالت: قلتُ: يا رسول الله، جعلني الله فِداءَكَ، أليس يقول الله عَزَّ وجل: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قال: ذاكَ العَرْضُ يُعْرَضونَ، ومن نوقِشَ الحِسابَ هَلَكَ][1].

وفي رواية: [ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، مَنْ نوقِشَ الحساب يوم القيامة عُذِّب]. وفي لفظ: [ذاكِ العرض، ولكن من نوقِشَ المحاسَبَةَ هلك].

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ حُوسِبَ عُذِّب][2].

وأخرج أحمد والطبري بسند صحيح عن عائشة قالت: [سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً». فلما انصرف قلتُ: يا رسول الله! ما الحساب اليسير؟ قال: أن يُنْظَرَ في كتابه فَيُتجاوزَ له عنه، إنه من نوقش الحساب ـ يا عائشة ـ يومئذ هلك][3].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾. أي: وينصرف إلى أهله في الجنة ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أي: مغتبطاً قرير العين. قال قتادة: (إلى أهل أعدّ الله له في الجنة).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾. أي بشماله من وراء ظهره. قال مجاهد: (يجعل يده من وراء ظهره). وقال ابن كثير: (تُثْنى يدُه إلى ورائه ويُعْطى كتابه بها كذلك).

وقوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾. قال الضحاك: (يدعو بالهلاك). قال ابن جرير: (يقول: فسوف ينادي بالهلاك، وهو أن يقول: واثبوراه! واويلاه! وهو من قولهم: دعا فلان لهفه: إذا قال: والهفاه).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾. أي: يدخلها ويقاسي حرّ نارها.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾. أي: إنه كان فرحاً باتباع هواه وركوب

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4939) ـ كتاب التفسير، عند هذه الآيات. وأخرجه مسلم (2876) ح (80) ـ كتاب الجنة ونعيمها. باب إثبات الحساب.

(2) حسن صحيح. أخرجه الترمذي (3338) ـ كتاب التفسير. انظر صحيح سنن الترمذي (2658).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد من حديث عباد بن عبد الله بن الزبير بإسناد صحيح على شرط مسلم. ورواه ابن جرير في «التفسير» (36734).

شهوته ، بَطِراً أشِراً لعدم خطور الآخرة بباله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ . أي : إنه ظن أنه لا يرجع إلى الله للحساب . قال قتادة : (﴿ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ قال : أن لن ينقلب . يقول : أن لن يبعث) . وقال أيضاً : (أن لا معاد له ولا رجعة) . وقال مجاهد : (أن لا يرجع إلينا) .

والحَوْر : هو الرجوع : من حارَ يحور إذا رجع ، قال ابن عباس : (ما كنت أدري : ما يحور؟ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها : حُوري ، أي ارجعي إليّ) .

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث عبد الله بن سرجس قال : [كان رسول الله ﷺ إذا سافر ، يتعوَّذُ مِن وَعْثاءِ السَّفر ، وكآبة المُنْقَلب ، والحَوْرِ بَعْد الكون ـ وفي رواية : بعد الكَوْر ـ ، ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر في الأهل والمال][(1)] . فهو يتعوذ من الحَوْر بَعْد الكَوْر : يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، فأصل الحور الرجوع .

وقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ . أي : ليس الأمر كما يظن أن لا رجعة ولا حساب ، بل إنه سيحور إلى ربه ويرجع ، إن ربّه عالم به قبل أن يخلقه ، وقضى له الرجوع إليه ، والوقوف للجزاء بين يديه ، وقد علم بما سبق له في أي الفريقين يستقر : في أهل السعادة أم أهل الشقاء .

قال النسفي : (﴿ بَلَىٰٓ ﴾ إيجاب لما بعد النفي في ﴿ لَّن يَحُورَ ﴾ أي بلى ليحورن ﴿ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ ﴾ وبأعماله ﴿ بَصِيرًا ﴾ لا يخفى عليه ، فلابد أن يرجعه ويجازيه عليها) .

16 ـ 25 . قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : قَسَمُ الله تعالى بالشفق والليل وما جمع ، والقمر إذا استوى واجتمع ، أن عباده مَدْعوُّونَ إلى أحوال ومنازل تتابع ، من الغنى والفقر والموت

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1343) ـ كتاب الحج ، وأخرجه أحمد (5/ 83) ، والترمذي (3435) ، والنسائي (8/ 272) ، وابن ماجة (3888) .

والبعث والعرض الرهيب ، فما لأكثرهم لا يؤمنون ولا يستعدون لذلك المشهد المهيب ، فالكفار موعدهم نار الجحيم ، والمؤمنون مستقرهم في جنات النعيم .

فقوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ . أي : فأقسم ، و«لا» صلة . والشفق : الحمرة التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة . قال مالك : (الشَّفَقُ الحمرة التي في المغرب ، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجت من وقت المغرب ووجبت صلاة العشاء) . وقال الجوهري في الصحاح : (الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العَتَمة) . وأصل الكلمة من رقة الشيء ، يقال : شيء شفِق أي لا تماسك له لرقته ، والمقصود : هنا رقة ضوء الشمس عند الغروب .

وفي صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : [وقت صلاة المغرب إذا غابت الشمس ، ما لم يسقط الشّفق][(1)] .

وفيه أيضاً من حديث بريدة مرفوعاً : [وصَلّى المغرب قبْلَ أن يغيبَ الشَّفَقُ][(2)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ . أي : والليل وما جَمَعَ وحَمَلَ ، فإنه جمع وضمّ ما كان منتشراً بالنهار في تصرّفه ، وذلك أنّ الليل إذا أقبل آوى كل شيء إلى مأواه . قال ابن عباس : (﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ : وما جمع) . وقال قتادة : (وما جمع من نجم ودابة) ، وكأنه ـ تعالى ـ أقسم بالضياء والظلام .

قال ابن جرير : (أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلاً) . وقال عكرمة : (﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ ، يقول : ما ساقَ من ظُلمة ، إذا كان الليل ذهب كلُّ شَيء إلى مأواه) .

قلت : وأصل الوَسْق في لغة العرب : من وَسَقَ الشيء إذا جَمعه وحمله وضَمّه . وأوْسَق البعير أي : حَمَّلَهُ حِمله . ومنه قيل للطعام الكثير المجتمع : وَسْقٌ ، وهو ستون صاعاً . قال الرازي : (ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ فإذا جَلَّلَ الليلُ الجبالَ والأشجار والبحار والأرض فاجتمعت له فقد وسَقَها) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ . أي : والقمر إذا تَمَّ واجتمع واستوى وتكامل في منتصف الشهر القمري . قال ابن عباس : (﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ : إذا اجتمع واستوى) . وقال الحسن : (اتسق : أي امتلأ واجتمع) . وقال قتادة : (إذا استدار) . والاتساق افتعال

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (612) ـ كتاب المساجد ـ ح (174) . في أثناء حديث طويل .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (613) ـ كتاب المساجد ـ من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه .

من الوسْق الذي هو الجمع ، يقال: وسقته فاتسق. ويقال: أمر فلان متسق: أي مجتمع على الصلاح منتظم. والمقصود في الآية: أنه يقسم تعالى بالقمر إذا تكامل نورُه وأبْدَرَ ، فجعله مقابلاً لليل وما وسق.

وقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾. اللام واقعة في جواب القسم. والمعنى: لتركبن أيها الناس حالاً بعد حال ، من الغنى والفقر ، والموت والحياة ، ودخول الجنة أو النار. قال ابن عباس: (الشدائد والأهوال: الموت ، ثم البعث ، ثم العَرْض).

وأخرج البخاري في «كتاب التفسير» من صحيحه ، عند هذه الآية عن مجاهد قال: قال ابن عباس: [﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: حالاً بَعْدَ حالٍ. قال هذا نبيّكم ﷺ][1].

والطبق واحد الأطباق، وطبقات الناس مراتبهم. قال الرازي: (و«الطَبَقُ» الحال)[2].

ومن أقوال أئمة المفسرين في تفصيل ذلك:

1 ـ قال الحسن: (﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: أمراً بعد أمر ، رخاء بعد شدّة ، وشدّة بعد رخَاء ، وغنىً بعد فقر ، وفقراً بعد غِنىً ، وصحة بعد سُقْم ، وسقماً بعد صحة).

2 ـ وقال سعيد بن جبير: (منزلة بعد منزلة ، قومٌ كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة ، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة).

3 ـ وقال ابن زيد: (ولتصيرُن من طبقِ الدنيا إلى طبقِ الآخرة). قال القاسمي: (﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي حالاً بعد حال. والمعنيّ بالحال الأولى البعث للجزاء على الأعمال. وبالثانية الحياة الأولى. وفيه تنبيه على مطابقة كل واحدة لأختها. فإن الحياة الثانية تماثل الأولى وتطابقها من حيث الحسّ والإدراك والألم واللذة ، وإن خفي اكتناهها. وجوز أن يكون ﴿طَبَقًا﴾ جمع طبقة وهي المرتبة. أي لتركبن مراتب شديدة مجاوزة عن مراتب وطبقات ، وأطواراً مرتبة بالموت وما بعده من مواطن البعث والنشور. قال الشهاب: الطبق معناه ما طابق غيره مطلقاً في الأصل ، ثم إنه خص بما ذكر ، وهو الحال المطابقة أو مراتب الشدّة المتعاقبة).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4940) ـ كتاب التفسير ، سورة الانشقاق ، آية (19).

(2) والعرب تقول لمن وقع في أمر شديد: وقعَ في بناتِ طَبَق ، وإحدى بنات طبَق ، ومنه قيل للداهية الشديدة: أم طبق ، وإحدى بناتِ طبق: وأصلها من الحَيّات ، إذ يقال للحية أم طبق لتحوِّيها. ـ حكاه القرطبي.

أي: فمالهم لا يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر وهذا الوحي مع وجود موجبات الإيمان! وما يمنعهم من السجود إذا تليت عليهم آيات الرحمان!؟. قال ابن زيد: (﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: بهذا الحديث، وبهذا الأمر). وهذا استفهام إنكار. وقيل: بل هو تعجب، والمعنى: اعجبوا منهم في تركهم الإيمان مع هذه الحجج والآيات، وتركهم السجود إذا تليت عليهم آيات القرآن إعظاماً وإكراماً واحتراماً؟!

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: [سجدنا مع النبي ﷺ في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾](1).

وقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴾. قال ابن كثير: (أي: من سَجِيَّتهم التكذيب والعناد والمخالفةُ للحق).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾. قال مجاهد وقتادة: (يكتمون في صدورهم). وهو مأخوذ من الوعاء الذي يَجْمع ما فيه. والعرب تقول: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء. والمقصود: والله أعلم بما يضمرونه في صدورهم من المكر والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. أي: فبشر يا محمد هؤلاء المكذبين بعذاب موجع أعدّه الله لهم. وقد جعله بشارة تهكّماً بهم.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾. قال ابن عباس: (غير منقوص). وقال مجاهد: (غير محسوب). والاستثناء هنا منقطع، والتقدير: لكن الذين آمنوا حق الإيمانِ بقلوبهم، وصدّقوا ذلك بأقوالهم وأعمالهم، لهم أجر عند الله غير منقوص ولا مقطوع(2)، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: 108].

تم تفسير سورة الانشقاق

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

صبيحة الأحد 18/ذي القعدة/ 1426 هـ

الموافق 18/كانون الأول/ 2005 م

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (578) ح (108 ـ 109). وأخرجه أبو داود (1407)، وقد مضى.

(2) والعرب تقول: مَنَنْتُ الحبل: إذا قطعته. وقيل المعنى: لا يُمَنُّ عليهم به، والأول أرجح، لأن الله تعالى له المنة على أهل الجنة في ما آتاهم ورزقهم، فقد دخلوها بِمَنّهِ ورحمته وكرمه. والله تعالى أعلم.

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ .

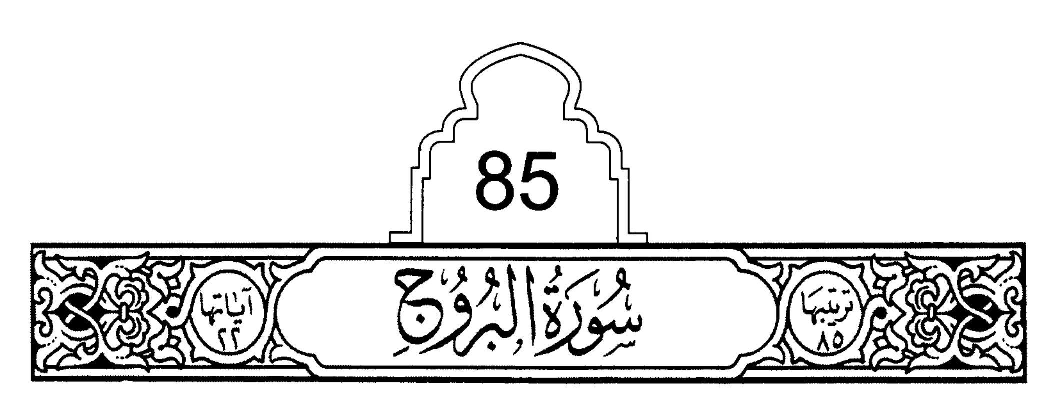
2 ـ ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فمن نوقش الحساب عُذِّب .

3 ـ أصل الحَوْرِ الرجوع . من حار يحور إذا رجع .

4 ـ ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : أي حالاً بعد حال .

5 ـ سجد النبي في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ ، وسجد معه أصحابه .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (22).

وثبت في السنة الصحيحة أن رسول الله ﷺ كان يجعل الركعتين الأخيرتين من صلاة الظهر أقصر من الأوليين ، و[كان ـ أحياناً ـ يقرأ بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ وبـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ونحوهما من السور][1] .

وأخرج النسائي بسند صحيح عن جابر بن سمرة: [أنَّ النبي ﷺ ، كان يقرأ في الظهر والعصر ، بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ ، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ونحوهما][2] .

موضوع السورة

القسم بالسماء ذات البروج وأيام الجمعة وعرفة والقيامة أن العذاب واقع بالمجرمين ، وأن المؤمنين أهل البر والعمل الصالح مُسْتَقَرّهُم في جنات النعيم .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قسم الله تعالىٰ بالسماء ويوم القيامة ويوم الجمعة ويوم عرفة ، أن أصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين سيلقون عذابه وسخطه .

---

(1) انظر صحيح مسلم ـ كتاب المساجد ، ومسند الطيالسي. وتفصيل ذلك في «صفة صلاة النبي» ـ الألباني ـ ما كان يقرؤه ﷺ في الصلوات ـ ص (94 ـ 95).

(2) حسن صحيح. أخرجه النسائي في السنن «صحيح النسائي ـ 936» كتاب الافتتاح ، باب القراءة في الركعتين الأوليين من صلاة العصر. وانظر صحيح سنن الترمذي (252).

2 ـ البشرىٰ للمؤمنين أهل الصالحات والقربات بجنات النعيم ، والوعيد الشديد على الطغاة أمثال فرعون بنار الجحيم.

3 ـ هذا القرآن مجيد عزيز ليس بالسحر ولا بالشعر كما يقولون ، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ لو كانوا يعلمون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 10. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10)﴾.

في هذه الآيات: يقسم الله تعالىٰ بالسماء ذات النجوم العظام ، وباليوم الموعود يوم القيامة الذي فيه يكون الثواب أو الانتقام ، وبالشاهد يوم الجمعة أعظم الأيام ، وبالمشهود يوم عرفة يوم حجّ أهل الإسلام ، أنه قد لُعن الطغاة أصحاب الأخدود وأمثالهم ، الذين قهروا المؤمنين وفتنوهم عن دينهم.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾. أي: النجوم العظام. قال ابن عباس: (البروج: النجوم). وفي التنزيل نحو ذلك ، قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: 61].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾. قسم آخر من الله تبارك وتعالىٰ باليوم الموعود ـ وهو القيامة ـ ، وبالشاهد ـ وهو يوم الجمعة ـ ، وبالمشهود ـ وهو يوم عرفة.

فقد أخرج الترمذي بسند حسن ـ عند تفسير هذه الآيات ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [اليوم الموعود يومُ القيامة ، واليوم المشهودُ يومُ عرفةَ ، والشاهِدُ يومُ

الجمعة. قال: وما طلعت الشَّمسُ ولا غربت على يَوْم أفضلَ مِنْهُ ، فيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عَبْدٌ مؤمِنٌ يدعو الله بخير إلا استجابَ الله لهُ ، ولاَ يَستعيذُ مِنْ شيءٍ إلا أعاذَهُ الله مِنْهُ](1).

وله شاهد عند الطبراني بسند حسن لغيره عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [اليوم الموعود يوم القيامة ، وإن الشاهد يوم الجمعة ، وإن المشهود يوم عرفة ، ويوم الجمعة ذخره الله لنا ، وصلاة الوسطىٰ صلاة العصر](2).

قلت: فاليوم الموعود هو اليوم الذي وُعِدَ به الخلائق للحشر والحساب ، والشاهد يوم الجمعة وفيه تقوم الساعة ويشهد محمد ﷺ وأمته على الأمم ، واليوم المشهود يوم عرفة تشهده الملائكة ، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾. هذا جواب القسم. أي لعن الطغاة أصحاب الأخدود.

قال ابن عباس: (كل شيء في القرآن ﴿قُتِلَ﴾ فهو لُعِنَ). والأخدود: الحفيرُ في الأرض. قال البخاري: (قال مجاهد: ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾: شقٌّ في الأرض).

والآية خبرٌ من الله تعالىٰ عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين فقهروهم ليرجعوا عن دينهم ، فلما أبوا ، عمدوا إلى تأجيج النار في أخاديد حفروها فقذفوهم فيها وهم ينظرون إليهم.

وهو قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

النار: بدل اشتمال من الخدود.

والوقود: الحطب الذي توقد به. وقوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾. أي: لُعِنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين على الكراسي عند الأخدود ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من عرض المؤمنين على النار ليرجعوا عن دينهم ﴿شُهُودٌ﴾ أي حضور ، وهم كذلك يشهدون على أنفسهم بما فعلوا يوم القيامة ، ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم. وعن قتادة: (﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يعني بذلك الكفار). والمراد بهذا التأويل: حضور ، أي

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3339) ، كتاب التفسير. انظر صحيح سنن الترمذي (2659).

(2) حسن لغيره. أخرجه الطبراني (3458). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ج (4) ص (5) عقب الحديث (1502). وانظر صحيح الجامع الصغير (8056) ـ (8057).

كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين ، فمن أبىٰ ألقوه في النار وهم شهود لذلك التعذيب. فبالتأويل الأول ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنىٰ «مع» أي: وهم: مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وبالتأويل الثاني: وهم على ما فعلوه بالمؤمنين في الدنيا شهود على أنفسهم يوم القيامة. وكلا التأويلين صحيح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

أي: وما وجَدَ هؤلاء الكفار ـ الذين فتنوا المؤمنين ـ على المؤمنين والمؤمنات إلا أنهم أخلصوا الإيمان بالله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الشديد في انتقامه من أعدائه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾. أي: المحمود بإحسانه إلى خلقه، والمحمود في كل حال.

وفي السنة الصحيحة حديثان في آفاق هذه الآيات:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في الصحيح، والنسائي في السنن والتفسير، وأحمد في المسند، عن صُهَيب، أن رسول الله ﷺ قال: [كانَ مَلِكٌ فيمَنْ كان قَبْلكُمْ، وكانَ له ساحِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ قال للملك: إني قَدْ كَبُرْتُ فابْعَثْ إليَّ غُلاماً أُعَلِّمْهُ السِّحْر، فَبَعَثَ إليه غُلاماً يُعَلِّمُهُ، فكان في طَريقِهِ، إذا سَلَكَ، راهِبٌ، فَقَعَدَ إليه وسَمِعَ كلامَهُ، فأعْجَبَهُ، فكانَ إذا أتىٰ الساحِرَ مَرَّ بالراهب وقَعَدَ إليه، فإذا أتىٰ الساحِرِ ضَرَبَهُ، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خَشيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنَي أَهْلي، وإذا خَشيتَ أهلكَ فَقُلْ: حَبَسَني السَّاحِرُ، فبينما هو كذلكَ إذْ أتىٰ على دابَّةٍ عَظيمةٍ قَدْ حَبَسَتِ الناس، فقال: اليَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أفضلُ أم الراهِبُ أفضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَراً فقال: اللهمَّ! إنْ كانَ أمرُ الراهب أحبَّ إليكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فاقْتُل هذه الدّابةَ، حتىٰ يمضيَ الناسُ، فرَماها فقتَلها، ومضىٰ الناسُ، فأتىٰ الراهِبَ فأخبَرَهُ، فقال له الراهِبُ: أي بُنَيَّ! أنْتَ، اليومَ، أفضَلُ مني، قد بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ ما أَرىٰ، وإنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ، فإن ابْتُليتَ فلا تَدُلَّ عليَّ، وكان الغلامُ يُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ ويُداوي الناسَ مِنْ سائِرِ الأدواء، فَسَمِعَ جليسٌ للمَلِكِ كانَ قد عَميَ، فأتاه بهدايا كثيرةٍ، فقال: ما هاهُنَا لكَ أَجْمَعُ، إنْ أَنْتَ شَفَيْتَني، فقال: إني لا أَشْفي أحَداً، إنما يشفي اللهُ، فَإنْ أنتَ آمَنْتَ بالله دَعَوْتُ اللهَ فشفاكَ، فآمَنَ بالله، فَشَفَاهُ اللهُ، فأتىٰ المَلِكَ فَجلَسَ إليه كما كان يَجْلِسُ، فقال له المَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قال: رَبِّي، قال: أَوَلَكَ رَبٌّ غَيْري؟ قال: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فلمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتىٰ دَلَّ علىٰ الغُلام، فَجِيءَ بالغُلام، فقالَ له المَلِكُ: أيْ بُنَيَّ! قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ وتَفْعَلُ وتَفْعَلُ، فقال: إني لا أَشْفِي أحَداً، إنَّما يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتىٰ دَلَّ على الراهِبِ، فَجِيءَ بالراهِبِ،

فقيل له: ارْجِعْ عَنْ دِينكَ ، فأبىٰ فدعا بالمِئْشارِ ، فوضَعَ المِئْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ به حتىٰ وَقعَ شِقَّاهُ ، ثم جِيءَ بجليسِ الملكِ فَقِيلَ لهُ: ارْجِعْ عن دينِكَ فأبىٰ ، فوضَعَ المِئْشارَ في مَفْرِق رأسه ، فَشَقَّهُ به حتىٰ وقعَ شِقَّاه ، ثم جِيء بالغُلام فقيل له: ارْجِعْ عن دينكَ ، فأبىٰ ، فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِنْ أَصْحابه فقال: اذهبوا به إلىٰ جبل كذا وكذا ، فاصْعَدوا به الجَبَلَ ، فإذا بَلَغْتُم ذِرْوَتَهُ ، فإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ ، وإلاّ فاطْرَحُوهُ ، فذهبوا به فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ ، فقال: اللهُمَّ ! اكْفِنيهِمْ بما شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فسقَطُوا ، وجاءَ يمشي إلى الملك ، فقال له الملِكُ: ما فَعَلَ أصْحابُك ؟ قال: كفانِيهِمُ اللهُ ، فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِنْ أصْحَابِهِ فقال: اذْهَبُوا به فاحْمِلُوه في قُرْقُور[1] ، فتوسَّطُوا به البَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عن دينه وإلا فاقْذِفُوه ، فذهبوا به ، فقال: اللهمَّ ! اكْفِنيهِمْ بما شئت ، فانْكَفَأَت بهم السفينةُ فَغَرِقُوا ، وجاءَ يَمْشي إلى الملكِ ، فقال له الملكُ: ما فَعَلَ أَصْحابُكَ ؟ فقال: كَفَانِيهِمُ اللهُ ، فقال للمَلِكِ: إنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلي حتىٰ تَفْعَلَ ما آمُرُكَ بِهِ ، قال: وما هُوَ ؟ قال: تَجْمَعُ الناسَ في صَعيدٍ واحِدٍ ، وتَصْلُبُني على جِذْعٍ ، ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتي ، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ ، ثُمَّ قُلْ: باسْمِ اللهِ ، رَبِّ الغُلامِ ، ثم ارْمِني ، فإنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذلك قَتَلْتَني ، فَجمعَ الناسَ في صَعيدٍ واحِدٍ ، وصَلَّبَهُ علىٰ جِذْعٍ ، ثمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنانَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْس ثُمَّ قال: باسْمِ اللهِ ، ربِّ الغُلامِ ، ثم رَمَاهُ فوضَعَ السَّهم في صُدْغِهِ ، فوضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ في مَوْضِعِ السَّهم فماتَ ، فقال الناس: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلام ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ ، فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيلَ له: أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ قَدْ ، واللهِ ! نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ ، قَدْ آمَنَ الناسُ ، فَأَمَرَ بالأُخْدودِ بأفْواهِ السِّكَك[2] فَخُدَّتْ وأَضْرَمَ النِّيرانَ ، وقال: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عن دينِهِ فَأَحْمُوهُ فيها ، أوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ ، فَفَعَلُوا حتىٰ جاءت امرأةٌ ومَعَها صَبِيٌّ لها ، فتقاعَسَتْ[3] أن تَقَعَ فيها ، فقال لها الغُلامُ: يا أُمَّهِ اصْبِرِي ، فإنَّكِ على الحق][4] .

الحديث الثاني: أخرج الترمذي في السنن بإسناد على شرط البخاري ومسلم عن

---

(1) القرقور: السفينة الصغيرة.

(2) أفواه السكك: أي أبواب الطرق.

(3) أي توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (3005) كتاب الزهد. وأخرجه النسائي في «التفسير» (681) ، وفي «السنن» (614) ، وأخرجه أحمد في المسند (6/ 17).

صهيب قال: [كان رسول الله ﷺ، إذا صلى العصر همس، ـ والهمس في قول بعضهم: تحرك شفتيه كأنه يتكلم ـ فقيل له: إنك يا رسول الله إذا صليت العصر همست. قال: «إنَّ نبيّاً من الأنبياء كان أُعْجِبَ بأمَّتِه فقال: مَنْ يقومُ لهؤلاء، فأوحىٰ الله إليه أن خَيِّرْهُم بينَ أنْ أنتقِمَ منهم وبين أنْ أسَلِّطَ عليهم عَدُوَّهُمْ؟ فاختاروا النِّقْمَةَ، فسَلَّطَ عليهم المَوْتَ، فماتَ مِنهم في يوم سبعون ألفاً».

قال: وكانَ إذا حَدَّثَ بهذا الحديث، حَدثَ بهذا الحديثِ الآخَرِ.

عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان مَلِكٌ مِنَ المُلوك، وكان لذَلِكَ المَلِكِ كاهِنٌ يَكْهَنُ لهُ، فقال الكاهِنُ: انظروا إليّ غُلاماً فَهِماً أو قال: فَطِناً لقناً فأعَلِّمَهُ عِلْمي هذا فإني أخاف أنْ أموتَ فينقطِعَ مِنكمُ هذا العِلْمُ ولا يكونَ فيكُم مَنْ يَعْلَمُهُ. قال: فنظروا لهُ على ما وَصَفَ فأمَرُوه أنْ يَحْضُرَ ذلك الكاهِنَ وأَنْ يَخْتَلِفَ إليه. فَجَعَلَ يختلف إليه وكان على طريقِ الغُلام راهبٌ في صَوْمَعَةٍ... فَذَكَرَ القصة السابقة بتمامها إلى أن قال: فوَضَعَ الغلام يَدَهُ على صُدْغِهِ حينَ رُمِيَ ثُمَّ ماتَ، فقال أناسٌ: لقد عَلِمَ هذا الغُلام عِلْماً ما عَلِمَهُ أحدٌ فإنّا نُؤمِنُ بِرَبِّ هذا الغُلام، قال: فقيل للملِكِ أَجَزِعْتَ أنْ خَالَفَكَ ثلاثَةٌ فهذا العالمُ كُلُّهمُ قد خالفوك، قال: فَخَدَّ أخدُوداً ثُمَّ ألقىٰ فيها الحَطَبَ والنار ثُمَّ جَمَعَ الناسَ فقال: مَنْ رَجَعَ عَنْ دينه تركْناهُ ومَنْ لمْ يرجعْ أَلْقَيْناهُ في هذه النار، فجعلَ يُلْقيهم في تِلكَ الأخدُودِ. قال: يقول الله تبارك وتعالىٰ فيه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ حتىٰ بلغ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ قال: فأما الغلامُ فإنَّهُ دُفِنَ، قال: فَيُذكَرُ أنه أُخْرِجَ في زَمَنِ عُمَرَ بنِ الخَطّاب وإصْبَعُهُ على صُدْغِهِ كما وَضَعَها حينَ قُتِلَ»][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله الذي له ملك السماوات والأرض، فكل من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له. قال النسفي: (لأن ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل، وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب عظيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وَعِيدٌ لهم، يعني أنه علم ما فعلوه وهو مجازيهم عليه). وقيل: وهو وَعِيدٌ خير ـ كذلك ـ لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3340)، وإسناده على شرط البخاري ومسلم. وانظر صحيح سنن الترمذي (2660) ـ (2661)، كتاب التفسير، سورة البروج.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. قال ابن عباس: (حَرَّقوا المؤمنين والمؤمنات). وقال مجاهد: (عَذّبوا).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾. أي: ثم لم يتوبوا من كفرهم، ويقلعوا عن فعلهم بالمؤمنين والمؤمنات مافعلوا، ويندموا على ما أسلفوا. قال الحسن البصري: (انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة).

وقوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾. أي لهم عذابان منوعان: عذاب على كفرهم، وعذاب على فتنتهم المؤمنين وحرقهم، فإن الجزاء من جنس العمل، فيضاعف لهم العذاب.

وقيل هما واحد، أو من باب عطف الخاص على العام للمبالغة فيه.

قال القاسمي: (والأظهر أنهما واحد، وإنه من عطف التفسير والتوضيح).

قلت: والأول أرجح، فإن تضاعف العذاب على أئمة الكفر والإجرام ثابت في القرآن والسنة.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: 19 ـ 20].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 38].

أخرج الإمام أحمد في المسند، والطبراني في «المعجم الكبير» بإسناد صحيح من حديث خالد بن الوليد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة أشدُّهم عذاباً للناس في الدنيا][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 90)، والحميدي (562)، والطبراني في «المعجم الكبير» (1/ 190/ 2)، وإسناده صحيح. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم (1442)، وصحيح الجامع الصغير (1009).

وفي رواية: [أشدُّ الناس عذاباً للناس في الدنيا، أشدُّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة].

11 ـ 22. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: البشرىٰ للمؤمنين أهل الصالحات والقربات بجنات النعيم، والتهديد والوعيد على الطغاة أمثال فرعون وثمود بصلي الجحيم، وهذا القرآن مجيد عزيز ليس بالسحر أو الشعر كما يقولون، مكتوب في اللوح المحفوظ لو كانوا يعلمون.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

تسلية للمؤمنين الصابرين، على جرائم الطغاة الماكرين، فإن لهم البشرىٰ والإقامة في جنات النعيم، في حين يقيم الكافرون في عذاب الحريق ولهيب الجحيم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾. قال القرطبي: (أي العظيم، الذي لا فوز يشبهه).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾. أي: إن أخذه تعالىٰ للجبابرة والطغاة والظلمة أليم شديد، كما قال جلت عظمته: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ رضي الله تعالىٰ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله ليُملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفلِته. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾][1].

وقال المبرد: (﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ جواب القسم). والتقدير عنده: والسماء ذات

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في كتاب التفسير (4686)، سورة هود، آية (102).

البروج إن بطش ربك ، وما بينهما مُعْترض مؤكِّد للقسم ، والله تعالى أعلم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ . قال الضحاك : (يعني الخلق) . وقال ابن زيد : (يبدئ الخلق حين خلقه ، ويعيده يوم القيامة) . فهو دلالة على كمال قدرته وقوته جلت عظمته ، وفيه تهديد ووعيد للطغاة المجرمين ، على ما يفعلون بالمؤمنين ويحاربون الدين .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ . قال البخاري : (وقال ابن عباس : ﴿ ٱلْوَدُودُ ﴾ : الحبيب) . والمعنىٰ : إنه تعالىٰ بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه . وقال ابن زيد : (﴿ ٱلْوَدُودُ ﴾ : الرحيم) .

قلت : والودود : فعولٌ بمعنىٰ مفعول ، من الوُدِّ ، فالله تعالىٰ مودود ، أي : محبوب في قلوب أوليائه ، أو هو فعولٌ بمعنىٰ : فاعل ، أي : أن الله تعالىٰ يَوَدُّ عباده الصالحين ، بمعنىٰ : يرضىٰ عنهم .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : 90] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : 96] .

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [إذا أَحَبَّ الله عَبْداً نادىٰ جِبْرَئيل : إني قَدْ أَحْبَبْتُ فُلاناً فأَحِبَّهُ . قال : فينادي في السماء ، ثم تُنْزَلُ لَهُ المَحَبَّةُ في أهل الأرض ، فذلك قولُ الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾] الحديث[1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : الكريم) .

والمقصود: أي صاحب العرش الكريم ، أو صاحب العرش المُعَظَّم العالي على جميع الخلائق .

فالمجيد فيه قراءَتان : الرفع على أنه صفة للرب سبحانه . وهذه قراءة أهل مكة والمدينة والبصرة . والجرِّ على أنه صفة للعرش . وهذه قراءة أهل الكوفة .

قلت: وهما قراءتان مشهورتان في الأمصار ، وإن كنت أفضِّل القراءة بالرفع

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (3161) ، كتاب التفسير . سورة مريم ، آية (96) .

لانسجامها أكثر مع السياق ، فالله هو الغفور الودود المجيد الفعال لما يريد ، فالآيات في موضع الثناء والمدح لله تعالىٰ.

والمجيد: هو الواسع الكرم ، وقيل: هو الشريف. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: 73].

وفي سنن النسائي بإسناد صحيح عن أبي ليلىٰ قال: [قال لي كعب بن عُجرة: ألا أُهدي لك هدية ؟ قلنا: يا رسول الله ، قد عرفنا كيف السلام عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ قال: قولوا: اللهم صلّ على محمد ، وآل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وآل محمد ، كما باركت علىٰ آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. أي: لا يمتنع عليه شيء يريده ، فمهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل ، لكمال جبروته وعلمه وحكمته.

قال الزمخشري: (﴿فَعَّالٌ﴾ خبر ابتداء محذوف. وإنما قيل: «فعّال» لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة).

وقال الفراء: (هو رفع على التكرير والاستئناف ، لأنه نكرة محضة).

وعن أبي السّفر ـ سعيد بن يحمد الهمداني ـ قال: (دخل ناس من أصحاب النبي ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه يعودونه فقالوا: ألا نأتيك بطبيب ؟ قال: قد رآني ! قالوا: فما قال لك ؟ قال: قال: إني فَعَّالٌ لما أريد).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [إذا أرادَ الله خلقَ شيء لم يمنعه شيء][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾. استفهام بمعنىٰ التقرير. أي:

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي (1221 ـ 1222 ـ 1223) ص (267 ـ 277) ، وأصل الحديث في الصحيحين ، وله روايات كثيرة مشهورة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1438) ح (133) ، كتاب النكاح ، في أثناء حديث.

قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم ، التي تجمع لهم الأجناد لقتالهم ، وكيف أحل الله بأسه ونقمته بهم. وفيه تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه وأذاهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ﴾. أي: بل هؤلاء المشركون من العرب في تكذيب شديد لك ـ يا محمد ـ ، ولما جئت به من الوحي ، ولم يعتبروا بما حلّ بالأمم المكذبة قبلهم من الهلاك والمصائب والدمار.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾. أي: والله تعالىٰ قادر عليهم ، قَاهرٌ لهم ، لا يفوتونه ولا يعجزونه ، قد أحاط بأعمالهم وآجالهم ومصائرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾. قال قتادة: (يقول: قرآن كريم).

أي: بل هو قرآن عظيم متناه في الشرف والكرم والبركة ، وليس كما يقولون إنه شعر وسحر وكهانة.

قوله تعالىٰ: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۢ﴾. قال مجاهد: (في أم الكتاب). قال قتادة: (عند الله).

قال ابن كثير: (أي: هو في الملأ الأعلىٰ محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل).

وقال القرطبي: (أي مكتوب في لوح. وهو محفوظ عند الله تعالىٰ من وصول الشياطين إليه. وقيل: هو أمّ الكتاب ، ومنه انتُسِخَ القرآن والكتب).

تم تفسير سورة البروج

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

عصر الاثنين 19 ـ ذي القعدة ـ 1426 هـ

الموافق 19 / كانون الأول / 2005 م

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ اليوم الموعود يوم القيامة ، واليوم المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة .

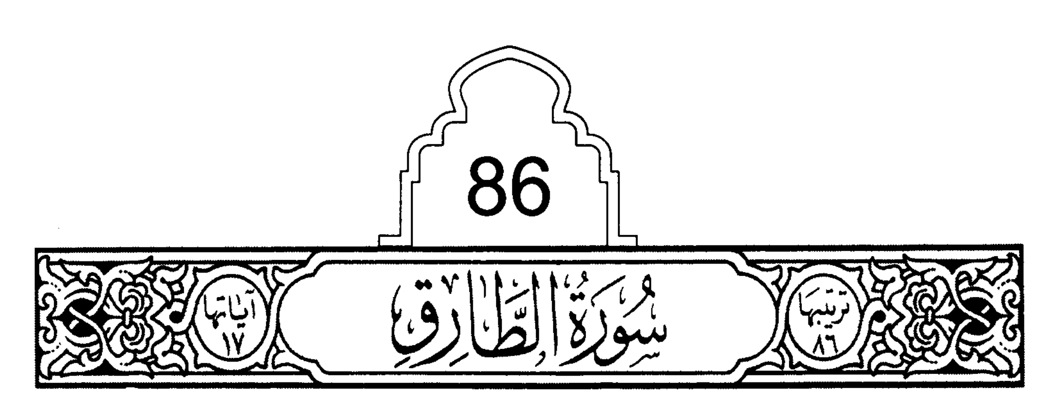
2 ـ الابتلاء حق ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، ومن يرد الله به خيراً يصب منه .

3 ـ أشد الناس عذاباً للناس في الدنيا ، أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة .

4 ـ إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

5 ـ إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (17).

أخرج الترمذي والنسائي بإسناد صحيح عن جابر بن سمرة: [أنَّ النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر ، بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ و﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ونحوهما](1).

موضوع السورة

القسم بالسماء والطارق أن كل نفس عليها حفظة من الملائكة الأبرار
وفي القيامة تبلىٰ السرائر ويتميز الأخيار من الأشرار

ـ منهاج السورة ـ

١ ـ قَسَمُ الله تعالىٰ بالسماء ونجومها وكواكبها أن كل نفس عليها حفظة من الملائكة.

2 ـ تنبيه الله تعالىٰ الإنسان للنظر في تركيب خلقه ليؤمن برجوعه إلى ربه.

3 ـ في القيامة تبلىٰ السرائر ، ولا منقذ يدفع عن الإنسان ولا ناصر.

4 ـ قَسَمُ الله تعالىٰ بالسماء ذات النفع والأرض ذات الصدع أن القرآن كلامه الذي يفصل بين الحق والباطل ، وما هو بالكلام الهازل.

5 ـ مَكْرُ الكفار بدين الله وأوليائه سيرجع عليهم بالوبال والنكال.

(1) حسن صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (252) ، وصحيح سنن النسائي (936).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 10. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10)﴾.

في هذه الآيات: يُقسم الله سبحانه بالسماء وما جعل فيها من النجوم والكواكب النيِّرة المضيئة، وتعظيم القَسَم بالسماء متعلق بعظم قدر السماء في أعين الخلق لكونها معدن رزقهم، ومسكن الملائكة، وفيها خلق الجنة، فأقسم بها وبالطارق ـ والمراد جنس النجوم ـ التي يرجم بها لعظم منفعتها، ثم فسّره بالنجم الثاقب أي المضيء، أنّ كل نفس عليها حفظة من الملائكة، فحري بالإنسان أن ينظر إلى تركيب خلقه، ليؤمن برجوعه إلى ربه، يوم تبلىٰ السرائر، فماله من منقذ يدفع عنه يومئذ ولا ناصر.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾. قال البخاري: (هو النّجْمُ، وما أتاك ليلاً فهو طارق). وقال قتادة: (إنما سُمِّيَ النجم طارقاً لأنه إنما يُرىٰ بالليل ويختفي بالنَهار).

ويؤيد ذلك ما في الصحيحين والمسند من حديث جابر بن عبد الله قال: [كان النبي ﷺ يَكْرَهُ أن يأتِيَ الرجُلُ أهْلَهُ طُرُوقاً][1]. أي: يأتيهم فجأةً بالليل.

وفي رواية: [إذا أطالَ أحدكم الغَيْبَةَ فلا يَطْرُق أهْلَهُ ليلاً].

ورواه الحاكم من حديث ابن رواحة، والطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [لا تطرقوا النساء ليلاً][2].

وفي المسند ومعجم الطبراني بسند جيد من حديث أبي التياح في تعوذ النبي ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5243) ـ (5244)، كتاب النكاح، وأخرجه مسلم (1528)، وأحمد (3/ 299)، وأبو داود (2776)، وابن حبان (4182).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 293)، والطبراني. وانظر صحيح الجامع الصغير (7239).

الذي علّمه جبريل عليه السلام: [وَمِنْ شَرِّ فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمان!][1].

قال الشهاب: (الطارق من «الطَّرْق»، وأصل معناه الضرب بوقع وشدة يسمع لها صوت. ومنه المطرقة والطريق، لأن السابلة تطرقها. ثم صار في عرف اللغة اسماً لسالك الطريق، لتصور أنه يطرقها بقدمه. واشتهر فيه حتىٰ صار حقيقة. وتسمية الآتي ليلاً «طارقاً» لأنه في الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها).

وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾. تأكيد لأهمية المُقْسَم به، لِيُنْتَبَهَ بعد ذلك إلى ما يقع في جواب هذا القسم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾. تفسير للمبهم بعد تفخيم شأنه، وتنبيه على الاعتبار والاستدلال به. والمراد بالنجم جنس النجوم. وكذلك الطارق والثاقب اسم جنس أريد به العموم. قال البخاري: (﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾: المضيء).

وقال مجاهد: (الثاقب: المتوهِّج). وقال السدي: (يثقب الشياطين إذا أرسل عليها). وقال عكرمة: (هو مضيءٌ مُحْرِقٌ للشيطان). ومنه قوله تعالىٰ: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 10].

قيل: وسمي بالثاقب لأنه يخترق بشدة ظلمة الليل. قال النسفي: (كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾. هو جواب القسم. أي ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون على كل نفس قولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشر، ويحرسونها من المصائب والآفات بإذن الله.

قال قتادة: (حفظة يحفظون عليك رزقكَ وعملك وأجلك).

وقال أيضاً: (قَرينُهُ يحفظ عليه عمله، من خير أو شر).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 11].

---

(1) إسناده جيد. أخرجه أحمد (3/ 419)، وأبو يعلىٰ (6844)، ورجاله رجال الصحيح.

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10 ـ 12].

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: [إن صاحب الشمال ليرفع القلم ستَّ ساعات عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾. استفهام للتنبيه، أي لينظر ابن آدم من أي شيء خُلق؟ قال القرطبي: (وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر في أوّل أمره وسنته الأولىٰ، حتىٰ يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يُمْلي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره).

وقوله تعالىٰ: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾. أي: مصبوب في الرحم. وهو ماء الرجل وماء المرأة، لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما، وهو يخرج منهما دفقاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾. يعني صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صَدْرها. قال الرازي: (و«التَّريبة» واحدة «الترائب» وهي عظام الصَّدْر).

وعن ابن عباس: (﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ قال: صلب الرجل وترائب المرأة، أصفرُ رقيقٌ، لا يكونُ الولدُ إلا منهما). وقال الضحاك عن ابن عباس: (تريبةُ المرأة موضِعُ القِلادَة). وقال سعيد بن جبير عنه: (الترائب: بين ثَدْيَيْها).

وعن مجاهد: (الترائِبُ ما بين المَنْكِبين إلى الصدر). وقال أيضاً: (الترائب أسفلُ من التَّراقي). وقال سفيان الثوري: (فوق الثديين).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾. فيه قولان عند المفسرين:

القول الأول: إنه تعالىٰ على رجْعِ هذا الماء الدافق إلى مقرّه الذي خرج منه لقادر.

قال عكرمة: (﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ قال: إنه على ردّه في صلبه لقادر). وقال مجاهد: (على أن يرد الماء في الإحليل). أو قال: (على ردّ النطفة في الإحليل).

القول الثاني: إنه على بعث هذا الإنسان ـ المخلوق من ماء دافق ـ لقادر، لأن من

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «الكبير» (ق 25/ 2 مجموع 6)، والبيهقي في «الشعب» (2/ 349/ 1)، وأبو نعيم في «الحلية» (6/ 124). وانظر: «الصحيحة» (1209).

قَدَر على البدأةِ قَدَر على الإعادة. قال قتادة: (إن الله تعالىٰ ذكره على بعثه وإعادته قادر).

قلت: والقول الثاني أنسب للسياق، لورود الآية بعده: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، وهو اختيار شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير ـ رحمه الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾. قال سفيان: (تختبر). وقال قتادة: (إن هذه السرائر مختبرة، فأسِرُّوا خيراً وأعلنوه إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله).

وقال عطاء بن أبي رباح: (﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ قال: ذلك الصوم والصلاة وغسل الجنابة، وهو السرائر، ولو شاء أن يقول قد صمت وليس بصائم، وقد صَلّيت ولم يصل، وقد اغتسلت ولم يغتسل).

والمقصود: في ذلك اليوم تختبر وتعرف سرائر القلوب ونيات الأعمال، فيصبح السر علانية والمكنون مشهوراً، ويتميز الصدق من النفاق، والحسن من القبيح.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 29].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 30].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق ذلك أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ الغادِرَ يُنْصَبُ لهُ لِواءٌ يومَ القيامة، فيقال: هذه غَدْرةُ فلانِ بنِ فُلانٍ][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة والترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ يُرائي يُرائي الله بِهِ، ومَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ الله به][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: حدثني رسول الله ﷺ: [«أنَّ الله تعالىٰ إذا كان يومَ القيامة ينْزلُ إلى العبادِ ليقضِيَ بينهم، وكُلُّ أُمّةٍ جاثيةٌ، فأوّلُ من يَدْعو بِهِ رجلٌ جَمعَ القرآنَ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيل الله، ورجلٌ كثير

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6178)، كتاب الأدب، وأخرجه مسلم (1735) ح (10).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4206)، وأخرجه الترمذي (2381). وانظر: صحيح سنن الترمذي (1940) ـ أبواب الزهد ـ باب ما جاء في الرياء والسمعة.

المال. فيقول الله للقارئ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ ما أَنْزلْتُ على رسولي ؟ قال: بلىٰ يا ربِّ. قال: فماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ ؟ قال: كنتُ أقومُ به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له: كَذَبْتَ ، وتقول الملائكةُ: كَذَبْتَ ، ويقول الله له: بل أَرَدْتَ أنْ يُقالَ: فُلان قارئ ، فقد قيلَ ذلِكَ.

ويؤتىٰ بصاحبِ المال ، فيقول الله: أَلَمْ أوسِّعْ عليك حتىٰ لمْ أَدَعْكَ تحتاجُ إلى أحَدٍ ؟ قال: بلىٰ يا ربِّ. قال: فماذا عَمِلْتَ فيما آتَيْتُكَ ؟ قال: كنتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وأتصدَّق ، فيقول الله له: كَذَبْتَ ، وتقول الملائكة له: كذَبْتَ ، ويقول الله بل أَرَدْتَ أن يُقال: فُلانٌ جَوادٌ ، وقد قيلَ ذلك.

ويُؤتىٰ بالذي قُتِلَ في سبيل الله ، فيقول الله له: في ماذا قُتِلْتَ؟ فيقول: أمرتَ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتىٰ قُتِلْتُ. فيقول الله له: كَذَبْتَ ، وتقول له الملائكة: كذبتَ ، ويقول الله ، بل أردْتَ أنْ يُقالَ: فَلانٌ جَريءٌ ، فقد قيل ذلك». ثم ضرب رسول الله ﷺ على رُكبتي فقال: يا أبا هريرة: أولئك الثلاثةُ أوّلُ خَلْقِ الله تُسَعَّرُ بهم النارُ يومَ القيامة][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾. أي: فما للإنسان يومئذ من قوة في نفسه يمتنع بها من عذاب الله وأليم نكاله ، ولا ناصر ينقذه مما نزله به من ألم ومكروه ومصيبة.

قال قتادة: (﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ قال: ينصره من الله). وقال: (من قوة يمتنع بها ، ولا ناصر ينصره من الله). وقال سفيان الثوري: (القوة: العشيرة ، والناصر: الحليف).

والمقصود: لا ينجيه يومئذ إلا صدق السريرة وصحة العمل ، نسأل الله السداد والتوفيق والسلامة في الدنيا والآخرة.

11 ـ 17. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: قَسَمٌ من الله تعالىٰ بالسماء ذات النفع والمطر ، وبالأرض ذات

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الباب السابق. انظر صحيح سنن الترمذي (1942) ، وأصله في صحيح مسلم. وانظر: تخريج الترغيب (1/ 20) ص (13 ـ 15).

التصدّع عن الثمار والنبات والشجر ، أنّ القرآن كلام الله يفصل بين الحق والباطل ، وما هو بالكلام الهازل ، وما لكِيد الكفار في رجوعه عليهم من حائل .

فقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾. قال ابن عباس: (الرَّجْع: المطر). وقال أيضاً: (السحاب فيه المطر). وقال مجاهد: (السحاب يمطر ، ثم يرجع بالمطر). وقال قتادة: (ترجع بأرزاق العباد كل عام ، لولا ذلك هلكوا ، وهلكت مواشيهم).

قلت: والرَّجع في كلام العرب المطر ، سُمِّي بذلك لأنه يجيء ويرجع ويتكرر ، فأقسم الله تعالىٰ بالسماء ذات النفع والمطر المتكرر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾. قَسَمٌ آخر. قال ابن عباس: (صَدْعُها إخراج النبات في كل عام).

وقال عكرمة: (هذه تصدع عن الرزق). وقال قتادة: (تصدع عن الثمار وعن النبات ، كما رأيتم).

فالمقصود: هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات والثمار والشجر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾. هو جواب القسم. أي: إن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل.

وعن ابن عباس: (﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ قال: حقّ). وقال آخر: (حُكْمٌ عَدْلٌ).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾. أي وما هو باللعب ولا باللهو ولا الباطل.

قال ابن عباس: (﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ يقول: بالباطل). وقال مجاهد: (باللعب).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾. أي إن أعداء الله يمكرون في إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾. قال ابن جرير: (يقول: وأمكر مكراً ، ومَكْرُهُ جل ثناؤه بهم: إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم به). قلت: وقد حاق بهم يوم بدر من ذلك المكر ، فأوقع الله في صفوفهم القتل والأسر ، وكان ذلك استدراجاً لهم مقابل كيدهم برسول الله ﷺ والمؤمنين ، فإن من صفاته سبحانه المكر والكيد بالكافرين.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد: 13].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: 50].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54].

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ ليُملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِته][1].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشَّر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يُوافىٰ به يوم القيامة][2].

وقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم. قال القرطبي: (﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي أخرهم، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم، وارض بما يدبره في أمورهم. ثم نسخت بآية السيف: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: 5]).

وقوله: ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ﴾ تأكيد. قال النسفي: (﴿أَمۡهِلۡهُمۡ﴾ أنظرهم، فكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير).

وقوله: ﴿رُوَيۡدَۢا﴾. قال ابن عباس: (أي قريباً). وقال قتادة: (قليلاً).

والمقصود: أمهلهم إمهالاً قريباً أو قليلاً. و﴿رُوَيۡدَۢا﴾: مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه مرادف له في المعنىٰ. والعرب تقول: رادت الريح ترود روداً إذا تحركت حركة ضعيفة.

وفي الآية وعيد شديد للكفار بأن ما يصيبهم قريب، سواء كان في الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت. ثم فيه تسلية للنبي ﷺ ولكل داع إلى الحق الذي جاء به، بأن الصبر على حمل هذه الأمانة يعقبه الفرج، وبأن الله لا يضيع أجر المحسنين، وبأن المناوئين لهذا الدين في الأخسرين.

تم تفسير سورة الطارق

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

عصر الثلاثاء 20 ـ ذي القعدة ـ 1426 هـ

الموافق 21/كانون الأول/2005 م

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) كتاب التفسير. وأخرجه مسلم (2583) كتاب البر والصلة، ورواه ابن ماجة والترمذي. انظر صحيح الجامع (1818).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1953)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1220).

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الطارق النجم ، وما أتاك ليلاً فهو طارق .

2 ـ لا تطرقوا النساء ليلاً ، فقد كان النبي ﷺ يكره أن يأتي الرجلُ أهلَه طُروقاً ـ أي يأتيهم فجأة بالليل ـ .

3 ـ إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ ، فإن ندِمَ واستغفر الله منها ألقاها ، وإلا كتبت واحدة .

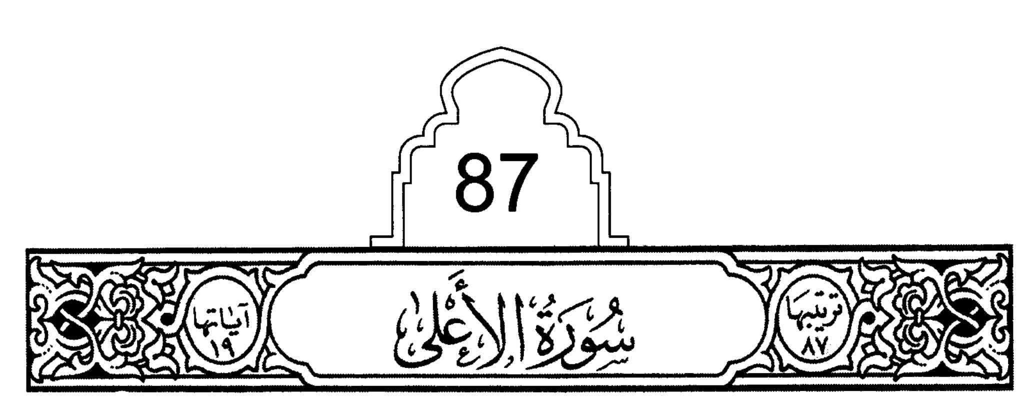
4 ـ ترائب المرأة صدرها ، والماء الذي يكون منه الولد يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة .

5 ـ لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدرته ، ويقال : هذه غدرة فلان بن فلان .

6 ـ الرَّجْع : المطر ، سمي بذلك لأنه يجيء ويرجع ويتكرر .

7 ـ إن الله تعالىٰ ليملي للظالم ، حتىٰ إذا أخذه لم يفلته .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (19).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد جاء ذكر هذه السورة الكريمة في أحاديث كثيرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في مواضِعَ من صحيحه عن البَراء بن عازبٍ قال: [أولُ من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مُصْعَب بن عمير وابنُ أم مكتوم ، فَجَعلا يقرئاننا القرآن. ثم جاءَ عَمَّار وبلالٌ وسعدٌ. ثم جاء عُمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ ، فما رأيتُ أهل المدينة فَرِحوا بشيءٍ فرَحهم به ، حتىٰ رأيت الولائِدَ والصِّبيان يقولون: هذا رسولُ الله قد جاء ، فما جاء حتىٰ قرأت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُوَرٍ مِثلها][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم ـ واللفظ للبخاري ـ عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: [أَقْبَلَ رَجُلٌ بِناضِحَين وَقَدْ جَنَحَ الليلُ ، فوافقَ مُعاذاً يُصَلِّي ، فَبَرَّكَ ناضِحَهُ وأقبل إلى مُعاذٍ ، فَقَرأ بسورةِ البقرةِ أو النساءِ فانطلق الرجلِ ، وَبَلَغَهُ أنَّ مُعاذاً نالَ مِنْه ، فأتىٰ النبيَّ ﷺ فَشَكا إليه مُعاذاً ، فقال النبي ﷺ: يا معاذُ ، أفتَّانٌ أنْتَ ؟ أوْ أَفاتِنٌ أنْتَ ؟ ـ ثلاث مرات ـ فَلَوْلا صَلَّيْتَ بِـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ، ﴿وَٱلشَّمْسِ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4941) ، (3924) ، (3925) ، (4995) ، وقد استدّل الحافظ ابن كثير بهذا الحديث أن السورة مكية ، وهو كذلك ، وهو قول الجمهور.

وَضُحَاهَا﴾ ، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ ، فإنه يصلي وراءكَ الكبيرُ والضعيفُ وذو الحاجة][1] .

وفي رواية النسائي : [قام معاذٌ فصَلَّىٰ العشاء الآخرة فَطَوَّلَ ، فقال النبي ﷺ: أفتَّانٌ يا معاذ ؟ أفتَّانٌ يا معاذ ؟! أين كُنْتَ عن ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾][2] .

الحديث الثالث: أخرج مسلم في الصحيح عن جابر بن سَمُرة : [أنَّ النبي ﷺ كان يقْرأ في الظُّهْرِ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ، وفي الصُّبح بأطولَ من ذلك][3] .

الحديث الرابع: أخرج مسلم وأصحاب السنن عن النعمان بن بشير قال: [كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين ، وفي الجمعة ، بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ . قال: وإذا اجتمع العيدُ والجمعة ، في يومٍ واحِدٍ ، يقرأُ بهما أيضاً في الصلاتين][4] .

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن النعمان بن بشير: [أنّ رسول الله ﷺ قرأ في العيدين: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ ، وإن وافق يوم الجُمعة قرأهما جميعاً][5] .

الحديث السادس: أخرج أحمد وأبو داود والحاكم بسند صحيح عن أبي بن كعب: [أنّ رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾][6] . وفي رواية لأبي داود عن عائشة أم المؤمنين فيها زيادة: [والمعوذتين].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (705) ، كتاب الأذان ، وأخرجه مسلم (465) ح (179).

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (672) ، وفي «السنن» (831) ، (984) من حديث جابر ، وإسناده صحيح. وهو من أفراد النسائي ، وقد مضىٰ.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (460) ، كتاب الصلاة. باب القراءة في الصبح.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (878) ، كتاب الجمعة ، وأخرجه أبو داود في السنن (1122) ، والترمذي (533) ، والنسائي في «التفسير» (685) ، وفي «السنن» (1424) ، (1568) ، (1590) ، وأخرجه ابن ماجة (1281).

(5) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 277) ، وإسناده على شرط الصحيح. وانظر ما قبله.

(6) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 123) ، وأبو داود (1423) ، (1424) ، والحاكم (1/ 305).

موضوع السورة

تنزيه الله الأعلىٰ ، وانتفاع المؤمن بالذكرىٰ
وشقاء الكافر في النار الكبرىٰ

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الأمر بتسبيح الله تعالىٰ الذي خلق وقدر وهدىٰ وأخرج المرعىٰ.

2 ـ البشرىٰ لنبينا ﷺ أن يتلقىٰ الوحي فيحفظه ولا ينسىٰ ، وما عليه إلا الذكرىٰ.

3 ـ انتفاع المؤمن بالذكرىٰ ، وركوب الشقي الهوىٰ ، ليصلىٰ النار الكبرىٰ.

4 ـ تأكيد الفلاح لمن تطهر من الشرك وتزكىٰ ، وعظم أمر ربه وصلىٰ.

5 ـ أكثر الناس يؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير لهم وأبقىٰ.

6 ـ هذا البيان في القرآن كما هو في الصحف الأولىٰ ، صحف إبراهيم وموسىٰ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 13. **قوله تعالىٰ:** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

في هذه الآيات: الأَمْرُ بتنزيه الله تعالىٰ الذي أَحسن كل شيء خلقه ثم هدىٰ ، والذي أخرج المرعىٰ فجعله هشيماً أحوىٰ ، والبشرىٰ لنبينا محمد ﷺ أن يتلقىٰ الوحي فيحفظه ولا ينسىٰ ، وما عليه إلا الذكرىٰ ، فهي تنفع من صلى وتزكىٰ ، وتكون حسرة على مستحق النار لا يموت فيها ولا يحيا.

فقوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾. أي: نزهه عن كل ما لا يليق به بقولك: «سبحان ربي الأعلى». قال ابن عباس والسُّدي: (معنىٰ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي عَظِّم ربك الأعلىٰ).

أخرج أحمد وأبو داود بسند صحيح عن ابن عباس: [أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلىٰ»][1].

قلت: وقوله جلّت عظمته ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ دليل صريح على علوه تعالىٰ على جميع خلقه، وقد فطر سبحانه عباده على ذلك، فالقلوب تتوجه بذلك إليه، والأيدي ترفع عند الدعاء إلى السَماء رجاء إجابته وإنزاله الفرج.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 7].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك: 16].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا تأمنوني وأنا أمين مَنْ في السماء؟ يأتيني خبرالسماء صباحاً ومساءً][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾. أي خلق الخليقة والأشياء، وسوّىٰ كل مخلوق في أحسن الهيئات. والتسوية التعديل. قال ابن عباس: (حسَّن ما خلق).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾. يعني الهداية العامة لجميع الخلق، وهي أول مراتب الهداية. والمعنىٰ: قدّر أجناس الأشياء، وأنواعها، وصفاتها، وأفعالها، وأقوالها، وآجالها، فهدىٰ كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له.

قال مجاهد: (قدّر الشقاوة والسعادة، وهدىٰ للرشد والضلالة). وعنه قال: (هدىٰ الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدىٰ الأنعام لمراعيها). وقيل: قدّر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 232)، وأبو داود (883). وانظر صحيح سنن أبي داود (785).

(2) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. انظر مختصر صحيح مسلم (514)، ورواه البخاري.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 49 ـ 50].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 6 ـ 7].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وكان عرشه على الماء][1].

ورواه الترمذي عنه بلفظ: [قَدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألفَ سنة][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾. قال قتادة: (نبت كما رأيتم، بين أصفر وأحمر وأبيض). قال ابن جرير: (يقول: والذي أخرج من الأرض مرعىٰ الأنعام، من صنوف النبات وأنواع الحشيش).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾. قال ابن عباس: (هشيماً مُتَغيِّراً). وقال مجاهد: (غثاء السيل أحوىٰ، قال: أسود). وقال قتادة: (يعود يبساً بعد خضرة).

وقال ابن زيد: (كان بقلاً ونباتاً أخضر، ثم هاج فيبس، فصار غثاء أحوىٰ، تذهب به الرياح والسيول).

قلت: والغثاء: ما يقذف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات وفتات الأشياء. فإذا يبس قيل له غثاء. قال الفراء: (الغثاء: اليبيس). والأحوىٰ: المسودّ من القِدَم. قال الرازي: (وبعير أحوىٰ: إذا خالط خُضْرَته سوادٌ وصفرة). وقال الأصمعي: (الحُوَّة حُمْرَة تضرب إلى السواد).

فيكون المعنىٰ: فجعله ـ تعالىٰ ـ بعد أن كان أخضر ـ غثاء، أي: هشيماً جافاً ﴿أَحْوَىٰ﴾ أي: أسود بعد اخضراره، وذلك أن الكلأ إذا يبس اسودّ، والله تعالىٰ أعلم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 51) في القدر: باب كتب المقادير قبل الخلق، وانظر مختصر صحيح مسلم (1841). وفي لفظ «قدَّر» بدل «كتب».

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي وأحمد. انظر صحيح سنن الترمذي (1750)، أبواب القدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ . فيه تأويلان:

التأويل الأول: أي: سنقرئك يا محمد هذا القرآن فتحفظ ولا تنسىٰ ما تقرؤه. قال القرطبي: (وهذه بُشرىٰ من الله تعالىٰ ، بشّره بأن أعطاه آية بينة ، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي ، وهو أُمِّي لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه).

التأويل الثاني: قيل بل قوله ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ طلب. أي لا تنسىٰ ما يُتلىٰ عليك.

وقال الجنيد: (﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ العمل به).

وقوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ . فيه تأويلان حسب مفهوم الآية قبله:

التأويل الأول: قال قتادة: (كان رسول الله ﷺ لا ينسىٰ شيئاً إلا ما شاء الله).

قيل: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ أن ينسخه ، فيذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته.

التأويل الثاني: قال النسفي: (وقيل: قوله: ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ على النهي والألف مزيدة للفاصلة ، كقوله السبيلا. أي فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته).

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ . أي: إنه تعالىٰ يعلم ما ظهر وما بطن ، فلا يخفىٰ عليه شيء من أقوال العباد وأعمالهم. قال ابن عباس: (﴿ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾: ما في قلبك ونفسك). وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك ، ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ هو ما نسخ من صدرك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ . أي نهون عليك عمل الجنة حتىٰ تبلغها.

قال ابن عباس: (نيسرك لأن تعمل خيراً). وعن ابن مسعود: (﴿ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي للجنة). وعن الضحاك: (نوفقك للشريعة اليسرىٰ ، وهي الحنيفية السمحة السهلة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ . أي: فعِظ يا محمد الناس بهذا الوحي ما كانت الموعظة نافعة والذكرىٰ مُجْدية. قال ابن كثير: (ومن ها هنا يُؤخَذُ الأدب في نَشْر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ: ما أنت بمحدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلُغه عقولُهم إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حَدِّث الناس بما يَعْرِفون ، أتحبون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله ؟).

وقوله تعالىٰ: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ . أي: سيتعظ بوعظك من يخاف الله ويخشىٰ عقابه ، فهذا الذي يزداد بالتذكير خشية وسداداً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾. أي: ويتجنب الذكرىٰ ويبعد عنها الشقي في علم الله. قال قتادة: (فلا والله لا يَتَنَكَّبُ عبد هذا الذكر زهداً فيه وبغضاً لأهله، إلا شقيٌّ بَيِّنُ الشقاء). قال النسفي: (﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الكافر، أو الذي هو أشقىٰ الكفرة لتوغله في عداوة رسول الله ﷺ).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾. أي الذي يدخل النار العظمىٰ، وهي نار جهنم، وأما النار الصغرىٰ فنار الدنيا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. أي: لا يموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها.

أخرج الإمام مسلم في الصحيح عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: [أمّا أهلُ النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتىٰ إذا كانوا فَحْماً أُذِنَ بالشفاعة، فجيءَ بهم ضبائِرَ ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل][1].

وأخرج الإمام أحمد في المسند على شرط الشيخين عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [«أمّا أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون ولا يحيَون، وأما أناسٌ يُريد الله بهم الرحمةَ فيميتهُم في النار فيدخُل عليهم الشُفعاء، فيأخذ الرجل الضُبارة فيُنْبِتهمُ ـ أو قال: ينبتون ـ في نهر الحياءِ ـ أو قال: الحياة ـ أو قال: الحيوانِ ـ أو قال: نهر الجنة، فينبتون ـ نبات الحبّة في حميل السيل». قال: وقال النبي ﷺ: «أما تَرَوْنَ الشجرةَ تكون خضراءَ، ثم تكون صفراءَ، أو قال: تكون صفراء ثم تكون خضراء؟». قال: فقال بعضهم: كأنَّ النبي ﷺ كان بالبادية][2].

14 ـ 19. قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (185)، وابن ماجة (4309)، وأحمد (3/ 11)، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 5)، وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: إقرار الفلاح لمن تزكىٰ من الشرك وعظم أمر ربه وصلىٰ ، وأكثر الناس يؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير لهم وأبقىٰ ، وتقرير هذا في القرآن كما هو في الصحف الأولىٰ ، صحف إبراهيم وموسىٰ.

فقوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: مَنْ تزكىٰ من الشرك).

وقال الحسن: (من كان عمله زاكياً). وقال قتادة: (يعمل وَرِعاً). وقال: (تزكىٰ رجل من ماله ، وأرضىٰ خالقه).

والمقصود: يجمع كل ما سبق: أي قد نجح وأدرك أمله مَنْ تَطَهَّرَ من الكفر والآثام ، وعمل بطاعة الرحمان.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ . أي ذكر اسم ربه بلسانه ، وأقام الصلوات المفروضة وذكر الله فيها بتحميده ودعائه. قال القاسمي: (﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي تذكر جلال ربه وعظمته ، فخشع وأشفق وقام بما لَهُ وما عليه ، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الأنفال: 2]. وجوز أن يحمل ﴿ تَزَكَّىٰ﴾ على إيتاء الزكاة و﴿صَلَّىٰ﴾ على إقامة الصلاة ، كآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: 14] ، لما عهد في كلامه تعالىٰ من الجمع بينهما في عدة آيات ، لأنهما مبدأ كل خير وعنوان السعادة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ . قال ابن كثير: (أي: تُقَدِّمونها على أمر الآخرة ، وتُبَدُّونها على ما فيه نفعُكم وصلاحُكم في معاشكم ومعادكم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ . قال قتادة: (خير في الخير ، وأبقىٰ في البقاء). قال ابن جرير: (يقول: وزينة الآخرة خير لكم أيها الناس وأبقىٰ بقاء ، لأن الحياة الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، لا تنفد ولا تفنىٰ).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ . قال أبو العالية: (قصة هذه السورة لفي الصحف الأولىٰ). وقال قتادة: (تتابعت كتب الله كما تسمعون ، أن الآخرة خير وأبقىٰ).

والمقصود: أنَّ ما تقدم من مضمون هذه السورة ، وتعريف منهاج الفلاح في الدنيا والآخرة ، وارد في تلك الصحف المكرمة .

وقوله تعالىٰ: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾. بدل من الصحف الأولىٰ. قال ابن زيد: (في الصحف التي أنزلها الله على إبراهيم وموسىٰ: أن الآخرة خير من الأولىٰ).

قال ابن جرير: (وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب ، قول من قال: إن قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾: لفي الصحف الأولىٰ ، صحف إبراهيم خليل الرحمن ، وصحف موسىٰ بن عمران).

تم تفسير سورة الأعلى
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
غروب شمس يوم الأربعاء 21 ـ ذي القعدة ـ 1426 هـ
الموافق 21/ كانون الأول/ 2005 م

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ كان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾. وكان يقرأ في العيدين والجمعة بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾.

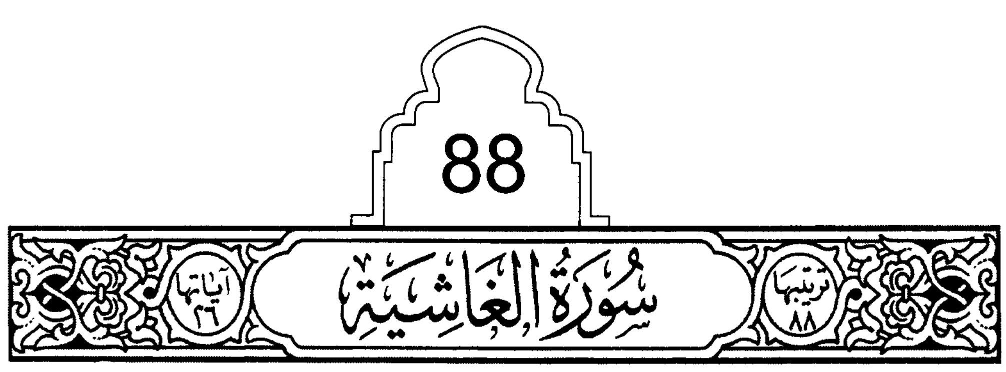
2 ـ كان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قال: سبحان ربي الأعلىٰ.

3 ـ قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة.

4 ـ أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولا يهلك على الله إلا هالك.

5 ـ في هذه السورة إثبات صفة العلو لله تعالىٰ.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (26) .

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد جاء ذكر هذه السورة الكريمة في أحاديث من السنة العطرة:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير قال: [كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين ، وفي الجمعة ، بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ، و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ . قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة ، في يوم واحدٍ ، يقرأ بهما أيضاً في الصلاتين][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن النعمان بن بشير: [أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ، و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في الصحيح عن عُبَيْد الله بنِ عبد الله قال: [كتبَ الضحاك بن قَيْسٍ إلى النعمان بن بشير: يسأله: أيَّ شيءٍ قرأ رسولُ الله ﷺ يوم الجُمعةِ ، سِوىٰ سورةِ الجُمعة ؟ فقال: كان يقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾][3] .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (878) ، كتاب الجمعة ، ورواه أصحاب السنن ، وقد مضىٰ.
(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (4/ 277) ، وإسناده على شرط الصحيح ، وقد تقدّم.
(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (878) ح (63) ، كتاب الجمعة. وأخرجه أبو داود (1123) ، والنسائي في «التفسير» (689) ، وفي «السنن» (1423) ، وأخرجه ابن ماجة (1119).

موضوع السورة

أهوال الغاشية وأحوال الناس يوم الدين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ التخويف من أهوال الغاشية وهي القيامة ، فوجوه الكفار ذليلة منكّسة ، لم ينتفع أصحابها من العمل والتعب ، والبذل والنصب.

2 ـ ذكر حال السعداء بعد ذكر مآل الأشقياء ، فوجوه المؤمنين ناعمة سعيدة ، يتقلب أصحابها في الملذات والنعم العديدة.

3 ـ التنبيه إلى النظر في المخلوقات العجيبة ، وتركيباتها الغريبة.

4 ـ هذه الذكرىٰ تنفع المؤمنين ، وستكون حسرة على الكافرين.

5 ـ المرجع إلى الله والجزاء والحساب ، والأعمال توزن على الميزان لنيل الثواب والعقاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 7. **قوله تعالىٰ:** ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)﴾.

في هذه الآيات: تخويفُ الله تعالىٰ عباده من أهوال الساعة ، فوجوه الكفار يومئذ خاشعة ذليلة ، لِهَوْلِ ما هي قادمة عليه من حياة مريرة.

فقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. قال ابن عباس: (﴿الْغَاشِيَةِ﴾ من أسماء يوم القيامة ، عظَّمَهُ الله ، وحذّره عباده). وقال قتادة: (الغاشية: الساعة). و﴿هَلْ﴾

بمعنىٰ قد ، والتقدير : قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ، أي القيامة . وسميت بذلك لأنها تغشىٰ الخلائق بأهوالها وأفزاعها وتَعُمُّهم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ . قال قتادة : (أي ذليلة) . وقال ابن عباس : (تنخشعُ ولا ينفعها عملُها) . والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه ، قال يحيىٰ بن سلام : (وجوه الكفار كلهم) . والخشوع : الخضوع والتذلل .

والمقصود: وجوه الكفار يومئذ في الموقف ذليلة منكّسة من هول ما تراه وما هي قادمة عليه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ . أي كانوا في الدنيا في تعب ونصب في العمل والعبادة ، لكنهم على منهاج فاسد ودين باطل ، فخسروا التجارة وباؤوا بغضب الله . و﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ أي تَعِبَةٌ . من نَصِب ينصَب نصَباً : إذا تَعب .

قال البخاري : (وقال ابن عباس : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ : النصارىٰ) .

وقال عكرمة : (﴿ عَامِلَةٌ ﴾ في الدنيا بالمعاصي ، ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ في النار بالعذاب والأغلال) .

وقال الضحاك عن ابن عباس : (هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل ، وعلىٰ الكفر ، مثل عبدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصاً له) .

وقال الحافظ أبو بكر البَرْقانيُّ : حَدَّثنا إبراهيم بن محمد المُزَكى ، حَدَّثنا محمد بن إسحاق السراج ، حَدَّثنا هارون بن عبد الله ، حَدّثنا سَيَّار ، حَدَّثنا جعفر قال : سَمِعتُ أبا عِمران الجَوْني يقول : (مَرَّ عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بدير راهب ، قال : فناداه : يا راهبُ ! يا راهبُ ! فأشرَفَ ، قال : فجعل عمر يَنظُرُ إليه ويبكي . فقيل له : يا أمير المؤمنينَ ، ما يُبكيك من هذا ؟ قال : ذكرتُ قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ ، فذاك الذي أبكاني) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ . قال ابن عباس : (أي : حارّة شديدة الحرّ) .

والمقصود: يصيبها صِلاؤها وحرّها ، فقد أوقدت وأحميت المدة الطويلة .

وقوله تعالىٰ : ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد : (أي : قد انتهىٰ حَرُّها وغَلَيَانُها) .

والمقصود: تسقىٰ من عين ماء شديدة حرارة مائها ، قد أوقد عليها حتىٰ وقت متأخّر.

وهو من الإيناء: بمعنىٰ التأخير. وفي لغة العرب: آناه يؤنيه إيناء ، أي أخَّرَه وحبسه وأبطأه ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: 44].

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن جابر بن عبد الله ، أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة ، ورسول الله ﷺ يخطب. فجعل يتخطىٰ الناس. فقال رسول الله ﷺ: [اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ وآنَيْتَ][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾. الضريع: نوع من الشوك ، يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطباً ، فإذا يبس فهو الضريع.

قال ابن عباس: (الضريع: الشِّبرق). وقال عكرمة: (هي شجرة ذات شوك ، لاطئة بالأرض ، فإذا كان الربيع سَمَّتها قريش الشِّبرق ، فإذا هاجَ العود سمتها الضريع). وقال مجاهد: (الشبرق اليابس). وقال قتادة: (﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ قال: هو الشبرق إذا يبس يسمىٰ الضريع). وقال: (من شرِّ الطعام وأبشَعِهِ وأخبثه).

قال البخاري: (وقال مجاهد: الضريعُ: نَبْتٌ يُقال له: الشِّبْرَقُ ، تُسَمِّيه أَهْلُ الحجاز الضريع إذا يَبِسَ ، وَهْوَ سُمٌّ).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾. أي: لا يُخْصب البدن ولا يحصل به مقصود ، ولا يسكن داعية النفس ولانهمها ولا يندفع به محذور.

8 ـ 16. قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ حال السعداء ، بعد ذكر مآل الأشقياء ، فوجوه المؤمنين

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (1115). وله شاهد عند أبي داود (1118) من حديث عبد الله بن بسر ، وكذلك النسائي (3/ 103) ، وأحمد (4/ 190) ، وغيرهم.

يومئذ وجوه ناعمة سعيدة ، يعلوها الفرح والسرور لما بُشِّرت به من حياة متميزة فريدة ، كل ما فيها ملذات ورخاء ونعم عديدة.

فقوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾. أي ذات نعمة وبهجة ، وهي وجوه المؤمنين ، لما شاهدوا من عاقبة أمرهم وحسن استقبالهم. قال ابن جرير: (يقول: هي ناعمة بتنعيم الله أهلها في جناته ، وهم أهل الإيمان بالله).

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾. أي: لعملها الذي عملته في الدنيا راضية ، لأنها قد أُعطيت من الثواب والتكريم ما أرضاها.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾. أي: في جنة رفيعة بَهيّة الروعة والجمال ، عالية الغرفات رفيعة القدر والخدمة والاستقبال.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾. قال ابن عباس: (يقول: لا تسمع أذى ولا باطلاً). وقال مجاهد: (﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ قال: شتماً). وقال قتادة: (لا تسمع فيها باطلاً ، ولا شاتماً).

قال القاسمي: (﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي لغواً ، أو كلمة ذات لغو. لأن كلامهم الحكمة والعلوم والتسبيح والتحميد).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: 25 ـ 26].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: 62].

3 ـ وقال تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: 23].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ـ في وصف الزمرة الأولىٰ والثانية في دخول الجنة ـ قال رسول الله ﷺ: [لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قُلوبهم قلبٌ واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾. قال ابن كثير: (أي: سارحة. وهذه نكرة في سياق الإثبات ، وليسَ المرادُ بها عيناً واحدةً ، وإنما هو جِنْسٌ ، يعني: فيها عيون جاريات).

وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾. السرر: جمع سرير ، و ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي عالية ناعمة

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1956) ـ (1957) ، وهو جزء من حديث أطول.

في رقتها وحسن فرشها ، وعليها الحور العين. قال النسفي: (﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ من رفعه المقدار أو السَّمْك ، ليرىٰ المؤمن بجلوسه عليه ـ أي السرير ـ جميع ما خَوَّلَهُ ربه من الملك والنعيم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾. الأكواب جمع كوب ، وهي الأباريق التي لا آذان لها.

والمقصود: قد أعدت أواني الشراب وأرصدت لطالبيها.

قال ابن جرير: (وعني بقوله ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾: أنها موضوعة على حافة العين الجارية ، كلما أرادوا الشرب ، وجدوها ملأىٰ من الشراب).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾. النمارق: الوسائد والمرافق. واحدها نُمْرُقة. قال ابن عباس: (النمارق: الوسائد). أو قال: (المجالس). وقال أيضاً: (﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ يقول: المرافق).

والمقصود: وسائد ومطارح مصفوفة بعضها إلى بعض ، أينما أراد المؤمن الجلوس جلس على واحدةٍ منها واستند إلى الأخرىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾. قال ابن عباس: (الزرابي البُسُط). وقال قتادة: (﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾: المبسوطة).

والمقصود: وبسط عراض فاخرة مفرقة في المجالس هَاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها.

17 ـ 26. قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآيات: تنبيهُ الله تعالىٰ عباده إلى النظر في مخلوقاته العجيبة ، وتركيباتها الغريبة ، فالإبل والجبال والسماء والأرض تحتاج إلى نظرة دقيقة ، وهذه الذكرىٰ تنفع

المؤمنين ، وستكون حسرة على الكافرين ، والموعد للحساب ووزن الأعمال يوم الدين .

فقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ . أي : على ما هي عليه من الخلق البديع ، والتركيب العجيب ، من عظم جثتها ، ومزيد قوّتها ، وغريب أوصافها ، ومع ذلك فهي تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، مع ما تدرّه علىٰ الناس من اللحم واللبن والوبر . وكانت الإبل من غالب دواب العرب وأنفس أموالهم ، وأكثر ما لصق بحياتهم ومعاشهم .

قال قتادة : (لما نعت الله ما في الجنة ، عجّب من ذلك أهل الضلالة ، فأنزل الله ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ فكانت الإبل من عيش العرب ومن خَوَلِهِمْ) . وكان شريحُ القاضي يقول : (اخرُجوا بنا حتىٰ ننظرَ إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ؟) .

قلت : وسرّ هذا الخلق العجيب والقوة الشديدة للإبل متعلق بطبيعة ما خُلقَتَ منه ، فإنها خُلِقت من الجن . وفي ذلك أحاديث ، منها :

الحديث الأول : أخرج أبو داود بسند صحيح عن البراء بن عازب قال : سُئِل رسول الله ﷺ عن الصلاة في مبارك الإبل فقال : [لا تُصلوا في مباركِ الإبل فإنها من الشياطين][1] .

الحديث الثاني : أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن مُغَفَّلٍ المُزَنِيِّ قال : قال النبي ﷺ : [صَلُّوا في مرابضِ الغَنَمِ ، ولا تُصَلُّوا في أَعْطانِ الإبل . فإنها خُلِقَتْ مِنَ الشياطين][2] .

الحديث الثالث : أخرج أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : [لا تصلوا في مبارك الإبل ، فإنها من الشياطين ، وصلوا في مرابض الغنم ، فإنها بركة][3] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (184) ، (493) . وانظر صحيح أبي داود (464) .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (769) ، كتاب المساجد والجماعات . باب : الصلاة في أعطان الإبل ومُراح الغنم . وانظر صحيح ابن ماجة (622) .

(3) حديث صحيح . رواه أحمد وأبو داود . انظر صحيح سنن أبي داود (169) ، وصحيح الجامع الصغير (7228) ، وله شواهد كثيرة .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾. أي فوق الأرض بلا عمد، على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل. كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: 6].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾. أي: رفعت على الأرض منتصبة، مُرْساةً راسخة، لاتميد ولا تميل ولا تزول.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾. أي بُسطت ومُدَّت ومُهِّدت.

قال القرطبي: (وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس، ومَنْ هذا حاله تفكر فيما يحضره، فقد ينظر في مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض. فأُمِروا بالنظر في هذه الأشياء، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر).

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: نُهينا أنْ نَسْأَلَ رسول الله ﷺ عَنْ شيءٍ، فكان يُعْجِبنا أن يَجيءَ الرجلُ مِنْ أَهْلِ البادية، العاقِلُ، فيَسْأَلَهُ ونحن نسمع، فجاءَ رجلٌ من أهل البادية، فقال: يا محمدُ! أتانا رسولك فزعَمَ لنا أنك تَزْعُمُ أنَّ الله أَرْسَلَكَ؟ قال: صَدَق. قال: فمن خلقَ السماء؟ قال: الله. قال: فمن خلقَ الأرض؟ قال: الله. قال: فمن نَصَبَ هذه الجبال، وجَعَل فيها ما جَعَلَ؟ قال: الله. قال: فبالذي خلقَ السماءَ وخلقَ الأرضَ وَنَصَبَ هذه الجبالَ، آلله أرسلكَ؟ قال: نعم] الحديث(1).

فسأل الرجل من أهل البادية النبي ﷺ مستدلاً بهذه الأمور والمخلوقات العظيمة التي يراها في حله وترحاله على خالقها ومالكها ومدبِّر شؤونها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾. أي: فعظ الناس يا محمد وخَوِّفهم بما جاءك من الوحي، فإنما أنت منذر وعلى ربك الحساب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: لست عليهم بجبار).

وقال ابن زيد: (لست عليهم بمسلط أن تكرههم على الإيمان).

والمقصود: لست تخلق الإيمان ـ يا محمد ـ في قلوبهم، ولم تُسَلَّط عليهم حتىٰ يؤمنوا، وإنما عليك البلاغ، وعلى الله الثواب والعقاب.

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (12)، كتاب الإيمان، وأخرجه أحمد (3/ 143)، والترمذي (619).

أخرج الترمذي بسند صحيح عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [أُمِرْت أَنْ أقاتِلَ الناسَ حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عَصَموا مني دِماءَهم وأموالهم إلا بِحَقِّها وحسابُهم على الله. ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾][1].

قال القرطبي: (وقرأ هارون الأعور «بِمُسَيْطَرٍ» بفتح الطاء، و «المسيطرون». وهي لغة تميم). وأصل ذلك في لغة العرب من السَّطر وهو الصَّف من الشيء، وهو الخَطُّ والكتابة أيضاً. قال الرازي: (والمُسَيطر والمُصَيْطر: المُسَلَّطُ على الشيء لِيُشرِفَ عليه ويتعهّد أحواله ويكتبَ عمله، قال الله تعالىٰ: ﴿لست عليهم بِمُسَيْطِر﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾. الاستثناء منقطع. والتقدير: لكن من تولىٰ عن الوعظ ونَفَر، وأعرض عن الإيمان وكفر، فإن لله الولاية والقهر، فهو تعالىٰ يعذبه في نار جهنم العذاب الأكبر.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة: [أنَّ رسول الله ﷺ قال: كُلُّ أمَّتي يدخُلون الجنَّة إلا مَنْ أبىٰ. قالوا: يا رسول الله، ومَنْ يأبىٰ؟ قال: مَنْ أطاعني دَخَلَ الجنَّة، ومَنْ عَصَاني فَقَدْ أبىٰ][2].

وأخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد حسن عن علي بن خالد، أنّ أبا أمامة الباهليَّ مَرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كَلمة سَمِعها من رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ألا كُلُّكُم يدخل الجنةَ، إلا مَنْ شَرَد على الله شِرَادَ البعير على أهله][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾. قال قتادة: (يقول: إنّ إلى الله الإياب، وعليه الحساب).

والتقدير: إلينا مرجعهم ومنقلبهم بعد موتهم، ثم علينا محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم يوم بعثهم ومعادهم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3341)، كتاب التفسير، عند هذه الآية، انظر صحيح سنن الترمذي (2662). وأخرجه أحمد (3/ 300)، والنسائي في «التفسير» (690). والحديث ورد في الصحيحين عن جماعة من الصحابة دون ذكر الآية.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (7280)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 258) وإسناده حسن، وعلي بن خالد قال عنه الحافظ في «التقريب» (4728): صدوق. ولأصل الحديث شواهد، وانظر ما قبله.

قال النسفي: (﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ رجوعهم، وفائدة تقديم الظرف التشديد في الوعيد، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ فنحاسبهم على أعمالهم، ونجازيهم بها جزاء أمثالهم. و «علىٰ» لتأكيد الوعيد لا للوجوب إذ لا يجب على الله شيء).

تم تفسير سورة الغاشية
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
مساء الخميس 22 ـ ذي القعدة ـ 1426 هـ
الموافق 22/ كانون الأول/ 2005 م

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين والجمعة بِسَبِّح والغاشية.

2 ـ الغاشية من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذّره عباده، وسميت كذلك لأنها تغشىٰ الخلائق بأهوالها وأفزاعها وتعمهم.

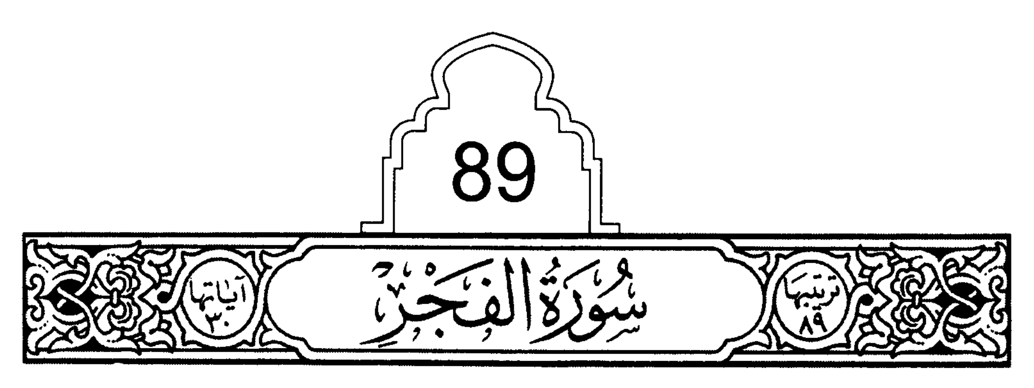
3 ـ الكافر إذا عمل أعمال الخير في الدنيا يطعم بحسنات ما عمل في الدنيا من زينتها وبهجتها، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزىٰ بها.

4 ـ لا تصلوا في مبارك الإبل فإنها خُلقت من الشياطين.

5 ـ تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله.

6 ـ كلكم يدخل الجنة إلا مَنْ شَرَدَ على الله شِرادَ البعير على أهله.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (30).

موضوع السورة

القسم بالفجر وليالي العشر والشفع والوتر والليل أن العذاب نازل بأهل الكفر والمؤمنون يفارقون الحياة في أمن وأمان إلى الجنة دار السرور والبِشْر

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قَسَمُ الله تعالىٰ بالفجر والليالي العشر والشفع والوتر والليل إذا يَسْرِ أن العذاب والنكال نازل بأهل الكفر.

2 ـ ذكر عذاب الله لِعَادٍ عقب الإصرار على الكفر ، ونقمته من ثمود وفرعون وأهل المكر.

3 ـ نعت سلوك الإنسان في فرحه عند الرخاء ، وتغيّره عند الضيق والعناء.

4 ـ أكثر الناس على البخل على اليتيم ، وإهمال إطعام المسكين.

5 ـ حرص أكثر الناس على جمع المال ، ليكون عليهم حسرة في المآل.

6 ـ وصف حال الأرض عند المعاد ، ونزول الرحمان والملائكة لفصل الحساب.

7 ـ بروز جهنم أمام الكافرين ، لينزل بهم عذاب الجحيم.

8 ـ المؤمنون يفارقون الحياة في أمن وتسليم ، ويدخلون في الآخرة جنات النعيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 14. قوله تعالىٰ: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

في هذه الآيات: يقسم الله تعالىٰ بالفجر والليالي العشر، والشفع والوتر، والليل الذي يجري ويذهب أن العذاب نازل بأهل الكفر، وقد مضىٰ عذاب عاد وثمود وفرعون وأهل المكر.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَالْفَجْرِ﴾. قَسَمٌ من الله سبحانه بالفجر وهو الصبح، لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار. قال عكرمة: (الفجر: فجر الصبح). وقال مجاهد: (المراد به فجرُ يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر). وعن ابن عباس: (﴿وَالْفَجْرِ﴾ قال: النهار). قلت: والراجح الأول، وهو الصبح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 18]. فبه يحصل انقضاء الليل وظهور الضوء، وانتشار الناس وسائر الحيوانات، لطلب العيش والأرزاق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾. قال ابن عباس: (إن الليالي العشر التي أقسم الله بها، هي ليالي العشر الأول من ذي الحجة).

وقال عبد الله بن الزبير: (أول ذي الحجة إلى يوم النحر). وقال مسروق: (ليالي العشر. قال: هي أفضل أيام السنة).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: [ما العَمَلُ في أيامِ

العَشْر أفضلُ منها في هذه. قالوا: ولا الجهادُ؟ قال: ولا الجهادُ، إلا رجلٌ خرجَ يُخاطِرُ بنفسه ومالِه فلمْ يرجِعْ بشيء](1).

ورواه أحمد وأبو داود والترمذي بلفظ: [ما مِنْ أيام العَمَلُ الصالح فيها أحبُّ إلى الله، من هذه الأيام ـ يعني أيام العشر. قالوا: يا رسول الله! ولا الجِهادُ في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ خرج بنفسه وما له فلم يرجع من ذلك بشيء](2).

وأخرج أبو داود بسند صحيح عن هنيدة بن خالد، عن امرأته، عن بعض أزواج النبي ﷺ، قالت: [كان رسول الله ﷺ يصوم تسعَ ذي الحجة، ويومَ عاشوراء، وثلاثةَ أيام من كل شهر: أول اثنين من الشهر والخميس](3).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾. الشفع: الزوج، والوتر: الفرد، وذلك من كل الأشياء. وعن عكرمة: (الشفع: يومُ الأضحىٰ، والوَتْر يوم عرفة).

وقال قتادة: (إن من الصلاة شفعاً، وإن منها وتراً). وعن ابن عباس قال: (الله وتر وأنتم شفع. ويقال الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب).

قلت: والآية عامة في كل شفع وَوَتْر، فأقسم الله قسماً عاماً يشمل الخلق والخالق، فهو وَتْر سبحانه وخلقه شفع، للازدواج فيه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49]. قال مجاهد: (كل خلق الله شفع، السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، والكفر والإيمان، والسعادة والشقاوة، والهدىٰ والضلالة، والليل والنهار).

وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: [لله تِسْعَةٌ وتسعون اسماً ـ مئةٌ إلا واحداً ـ مَنْ حَفِظَها دخَلَ الجنة، وهو وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْر](4). وفي رواية: (مَنْ أحصاها).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (969)، كتاب العيدين. باب فضل العمل في أيام التشريق.
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2438)، وأخرجه أحمد (1/ 224)، والترمذي (757).
(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2437)، كتاب الصوم، باب في صوم العشر. وانظر: صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2129). وهو مناسب للحديث قبله.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6410)، كتاب الدعوات. وأخرجه مسلم (2677)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. والوَتْر والوِتْر لغتان.

فالله تعالىٰ وتر ـ أي واحد ـ في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته ، ليس كمثله شيء .

قال ابن جرير : (والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالىٰ ذكره أقسم بالشفع والوتر ، ولم يخصِّص نوعاً من الشفع ولا من الوتر دون نوع بخبر ولا عقل ، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به ، مما قال أهل التأويل إنه داخل في قسمه هذا ، لعموم قسمه بذلك) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ . أي : إذا يمضي . قال ابن عباس : (أي إذا ذهب) . وقال مجاهد : (إذا سار) . وقال الضحاك : (أي : يجري) . قلت : فقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ﴾ ثم ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ فيه مقابلة لطيفة ، فيكون قَسَماً بإقبال النهار وإدبار الليل ، والله تعالىٰ أعلم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ . الحِجْر : العقل : لأنه يحجر صاحبه ، أي يمنعه من ارتكاب ما لا ينبغي . والمقسَم عليه محذوف ، تقديره «ليعذبن» كما يدل عليه ما بعده . قال ابن عباس : (﴿ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ لذي النهىٰ والعقل) .

وعن قتادة : (﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ قال : لذي حجىٰ ، لذي عقل ولُبّ) .

قال الرازي : (المراد من الاستفهام التأكيد . كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجّة ؟ والمعنىٰ أن من كان ذا لُبّ علم أن ما أقسم الله تعالىٰ به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية . فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ﴾ . إرم : اسم آخر لعاد الأولىٰ ، فهو على سبيل زيادة التعريف بهم . قال ابن إسحاق : (يقول الله : بعاد إرم ، إن عاد ابن إرم بن عوص بن سام بن نوح) . وهم الذين بعث الله فيهم هوداً ﷺ فكذبوه ، وعتوا في الأرض متمردين جبارين ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴾ [الحاقة : 7 ـ 8] .

قال مجاهد : (إِرَمُ أُمَّةٌ قديمة ـ يعني عاداً الأولىٰ ـ) . وقال السدي : (إن إرمَ بيتُ مَمْلكةِ عاد) .

فقوله تعالىٰ : ﴿ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ عطف بيان ، زيادة تعريف بهم . قال ابن عباس : (﴿ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ كانوا أهل عَمُود لا يقيمون) . قال ابن كثير : (وقوله تعالىٰ : ﴿ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ ، لأنهم كانوا يسكنون بُيوت الشعر التي تُرفع بالأعمدة الشِّداد ، وقد

كانوا أشدَّ الناس في زمانهم خِلْقَةً وأقواهم بَطْشاً ، ولهذا ذَكَّرهم هودٌ بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69]. وقال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]. وقال هاهنا: ﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ ، أي: القبيلة التي لم يُخلق مثلُها في بلادهم ، لقوتهم وشِدَّتهم وعظم تركيبهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ . أي: وثمود الذين كانوا ينحتون الجبال وينقبونها بيوتاً يسكنون فيها. وواديهم هو الحِجْر ، أو وادي القرىٰ ، على طريق الشام من المدينة المنورة. وفي لغة العرب: اجتاب الثوب أي فتحه ، ومنه الجيب.

و ﴿ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ : أي يقطعون الصخر بالوادي. قال ابن عباس: (ينحتونها ويخرقونها). وقال قتادة: (جابوها ونحتوها بيوتاً).

وهو كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: 149].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ . أي: وفرعون صاحب الأوتاد. قيل: هي الأهرام التي بناها الفراعنة لتكون لهم قبوراً بعد موتهم ، وسخروا في بنائها أقوامهم. وقيل: ذي الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد. وقيل غير ذلك.

فعن ابن عباس: (الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره ، ويقال: كان فرعون يوتد في أيديهم وأرجلهم أوتاداً من حديد ، يعلقهم بها). وقال عبد الرحمن بن زيد: (كانت له صخرة ترفَعُ بالبكرات ، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد ، ثم تُرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه).

قلت: والراجح بوصف فرعون ﴿ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: صاحب الجنود والعساكر والجموع والجيوش الكثيرة والعُدَد الرهيبة التي تشدّ ملكه ، وهذا يعمّ كل ما سبق.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ . صفة لِعَادٍ وثمود وفرعون ، أي: طغت كل طائفة منهم في بلادهم ، وتمردوا وعَتوا وعاثوا في الأرض بالفساد والإفساد والأذِيّة للناس.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ . أي: فأفرغ عليهم ربك وألقىٰ على تلك الطوائف عذاباً موجعاً. وهو من قول العرب: صَبَبْتُ السوط على المجرم ، أي:

جَلَدْتُهُ به جلداً شديداً. وقد كان السوط عندهم نهاية ما يُعَذَّبُ به. وقال القرطبي: (﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي نصيب عذاب).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾. قال ابن عباس: (يقول: يرىٰ ويسمع). قال ابن كثير: (يعني: يَرْصُدُ خَلْقَهُ فيما يعملون، ويجازي كُلاً بِسَعْيِهِ في الدنيا والأخرىٰ، وسَيُعْرَضُ الخلائق كُلُّهم عليه، فيحكُم فيهم بعدله، ويقابِلُ كلاً بما يَسْتَحِقُّهُ. وهو المُنَزَّهُ عن الظُلم والجور).

15 ـ 20. قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ الله تعالىٰ سلوكَ الإنسان في العسر واليسر، فهو يفرح بالنعم عند الرخاء، ويتنكر لآلاء ربه عند الضيق والعناء. وليته إذا أنعم الله عليه أكرم اليتيم، وحرص على إطعام المسكين، بل أكثر الناس يبخلون ويحرصون على جمع المال، ليكون عليهم حسرة في المآل.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: فأما الإنسان إذا ما امتحنه ربه بالنعم والغنىٰ ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالمال، وأفضل عليه، ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بما أوسع عليه من فضله ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فيفرح بذلك، ويسرُّ به ويقول: ربي أكرمني بهذه الكرامة).

والمقصود: إنكارٌ على الإنسان ظنه أن ورود ألوان النعيم والرزق عليه علامة إكرام له من الله، بل هي ابتلاء واختبار وامتحان، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55 ـ 56].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾.

أي: وأمّا إذا ما اختبره سبحانه بضيق الرزق وقلة المال فيظن أن ذلك إهانة له.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يظنون، فليس الإكرام والإهانة في كثرة المال

وقلته ، بل الإكرامُ في توفيق الطاعة والإهانةُ في الخذلان .

وقوله تعالىٰ : ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ .

قال النسفي : (أي بل هناك شر من هذا القول ، وهو أن الله يكرمهم بالغنىٰ فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرامهم اليتيم بالمبرة ، وحض أهله على طعام المسكين) .

وفي الآيات : أمر بإكرام اليتيم ، وحضّ على الإحسان إلى الفقراء والمساكين ، والحثّ والتشجيع على ذلك ، وفي السنة الصحيحة أمثال ذلك في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري عن سَهْلٍ قال : [قال رسول الله ﷺ : «أنا وكافِلُ اليتيم في الجنة هكذا» ، وأشار بالسَّبابَةِ والوُسْطىٰ وفَرَّجَ بينَهما شيئاً](1) .

الحديث الثاني : أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله مرفوعاً : [يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قوماً ليس لهم مال ولا عشيرة ، فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة](2) .

الحديث الثالث : أخرج ابن ماجة والترمذي بسند صحيح عن سلمان بن عامر الضَّبِّيِّ قال : قال رسول الله ﷺ : [الصدقة على المسكينِ صَدَقَةٌ ، وعلى ذي القرابةِ اثنتان : صَدَقَةٌ وصِلَةٌ](3) .

ولفظ الترمذي : [الصدقةُ على المسكين صدقةٌ ، وهي على ذي الرحم ثِنْتانِ : صدقةٌ وصِلة] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ . قال قتادة : (﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾ أي الميراث) . وقال ابن عباس : (﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ يقول : تأكلون أكلاً شديداً) .

قال الحسن : (نصيبه ونصيب صاحبه) . وقال مجاهد : (اللمّ : السفّ ، لفّ كل شيء) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5304) ، كتاب الطلاق ، وأخرجه أبو داود (5150) ، والترمذي (1918) ، وأحمد (5/ 333) ، وابن حبان (460) .

(2) حديث صحيح . أَخْرَجَهُ أبو داود (2534) في السنن ، وإسناده صحيح ، ورواه الحاكم .

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (1844) ، كتاب الزكاة ، باب فضل الصدقة . انظر صحيح سنن ابن ماجة (1494) ، وصحيح سنن الترمذي ، عقب الحديث (531) .

والمقصود: وتأكلون الميراث من أي جهة تحصل لكم ، من حلال أو حرام.

أخرج النسائي وأحمد بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يأتي على الناس زمان ما يبالي الرَّجل من أين أصابَ المال ؟ من حلالٍ أو حرامٍ][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾. الجمّ الكثير. والمعنىٰ: وتحبون المال حباً كثيراً ، حلاله وحرامه. قال النسفي: (﴿حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص ومنع الحقوق).

21 ـ 30. قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

في هذه الآيات: وصف الله تعالىٰ حال الأرض عند المعاد ، ونزول الرحمان والملائكة للفصل والحساب ، وبروز جهنم أمام أهلها لينزل بهم العقاب ، فالكفار في حسرة وندامة ، والمؤمنون في طمأنينة وسلامة.

فقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾. كَلَّا: ردع وزجر ، وإنكار لما هم عليه من الفعل. والدّك: الكسر والدقّ. قال القرطبي: (أي ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. فهو ردٌّ لانكبابهم على الدنيا ، وجمعهم لها ، فإن من فعل ذلك يندم يوم تُدَكُّ الأرض ، ولا ينفع الندم). وقال الزجاج: (﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا﴾: أي زلزلت فَدَكّ بعضها بعضاً). وقال المبرد: (أي ألصقت وذهب ارتفاعها).

والمقصود: زلزلت وحركت تحريكاً بعد تحريك ، أو دُكَّتْ جبالها حتىٰ استوت ، وهو إخبار من الله تعالىٰ عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. أي: وجاء الله سبحانه لفصل القضاء بين عباده ، والملائكة جاؤوا بين يديه صفوفاً صفوفاً.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في السنن بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة. انظر صحيح سنن النسائي (4149). ورواه أحمد والبخاري بنحوه.

قلت: وصفة المجيء والإتيان والاطلاع ثابتة لله تعالىٰ في القرآن والسنة الصحيحة.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة: 210].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ [الأنعام: 158].

3 ـ وقال هنا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: 22].

وفي صحيح السنة العطرة أحاديث في ذلك، منها:

الحديث الأول: أخرج ابن خزيمة بسند جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا جمع الله الأولىٰ والآخرة يوم القيامة جاء الرب تبارك وتعالىٰ إلى المؤمنين فوقف عليهم...] الحديث(1).

الحديث الثاني: أخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يجمعُ الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يَطّلِعُ عليهم رب العالمين، فيقول: ألا يتَّبع كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد] الحديث(2).

وقوله: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾. أي جيء بها يومئذ مزمومة والملائكة يجرّونها. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلك يجرّونها](3).

وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾. أي: يومئذ يتذكر الإنسان ماضيه وعمله وما صدر عنه في أيام عمره في الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾. أي: ومن أين له اليوم منفعة الذكرىٰ وقد مضىٰ زمان التذكر والاتعاظ والاعتبار.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» ص (153). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (756) وقال الألباني: وهذا إسناد لا بأس به في الشواهد.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2072)، أبواب صفة الجنة. باب ما جاء في خلود أهل الجنة، وأهل النار، وهو صدر حديث طويل.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2842)، ورواه الترمذي في السنن (2573).

وقوله: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾. قال النسفي: (هذه وهي حياة الآخرة، أي ياليتني قدمت الأعمال الصالحة في الحياة الفانية لحياتي الباقية). وقال القرطبي: (﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ أي في حياتي. فاللام بمعنىٰ في. وقيل: أي قدمت عملاً صالحاً لحياتي، أي لحياة لا موت فيها. وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة، فكأنهم لا حياة لهم، فالمعنىٰ: يا ليتني قدّمت من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمن له حياة هنيئة).

وأخرجَ الإمام أحمد في المسند، والبخاري في «التاريخ الكبير» بسند صحيح عن عتبة بن عبد قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: [لو أنّ رجلاً يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله عز وجل لحقَّره يوم القيامة][(1)].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾. قال ابن كثير: (أي: ليس أحدٌ أشدَّ عذاباً من تعذيب الله من عَصاه).

والمقصود: لا يعذِّب كعذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقِه أحد. فالكناية ترجع إلى الله تعالىٰ، وهو قول ابن عباس والحسن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾. أي: ولا يوثق الكافِرَ بالسلاسل والأغلال كوثاق الله أحد.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾.

أي: والصورة المقابلة لحال أولئك الكفرة الفجرة، هي صورة الأتقياء السعداء البررة، أصحاب النفوس الساكنة الموقنة بربها، المطمئنة لثوابه، الآمنة من عذابه، يقال لها عند الاحتضار ـ أو البعث أو دخول الجنة ـ: ارجعي إلى جوار ربك وثوابه ونعيم جنانه، راضية عن ربها، مرضية عنده.

فعن ابن عباس: (﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾، يقول: المصدقة). قال الحسن: (المطمئنة إلى ما قال الله، والمصدّقة بما قال). وقال مجاهد: (النفس التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جأشاً لأمره وطاعته). وقال أيضاً: (المنيبة المخبتة التي قد أيقنت أن الله ربها، وضربت لأمره جأشاً). وقال: (المخبتة والمطمئنة إلى الله).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 185)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (1/ 1/ 15)، وأبو نعيم في «الحلية» (2/ 15)، (5/ 219). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة(447).

وعن ابن عباس: (﴿ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ قال: تردّ الأرواح المطمئنة يوم القيامة في الأجساد).

وعن أبي صالح: (﴿ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ قال هذا عند الموت).

وفي سنن أبي داود ومسند أحمد والطيالسي بسند صحيح من حديث البراء ـ في احتضار المؤمن ـ قال رسول الله ﷺ: [ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتىٰ يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة ـ وفي رواية: المطمئنة ـ اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان] الحديث[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴾. قال أبو صالح: (هذا يوم القيامة). وقال قتادة: (قال: ادخلي في عبادي الصالحين).

والمقصود: يقال لها: ادخلي في زمرة عبادي الصالحين وكوني في جملتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾. أي: وادخلي جنتي معهم، وهي دار الخلود مَسْكَنُ الأبرار، ودار الصالحين والأخيار، وهذا هو التكريم الذي لا ينافسه كل تكريم كان في الدنيا، فنسأل الله السلامة، وبلوغ هذه الكرامة.

تم تفسير سورة الفجر

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

عصر يوم السبت 24 ـ ذي القعدة ـ 1426 هـ

الموافق 24 / كانون الأول / 2005 م

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287)، وأبو داود (2/ 281)، والطيالسي (753)، وغيرهم.

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الليالي العشر التي أقسم الله بها هي ليالي العشر الأول من ذي الحجة.

2 ـ ما مِنْ أيام العمل الصالح فيها أحبُّ إلى الله من أيام العشر.

3 ـ أقسم الله بالشفع والوتر ، وهو سبحانه وِتْرٌ يجب الوِتْر.

4 ـ ليس الإكرام والإهانة مرتبط بكثرة المال أو قلته ، بل التوفيق إلى مرضاته تعالىٰ وطاعته.

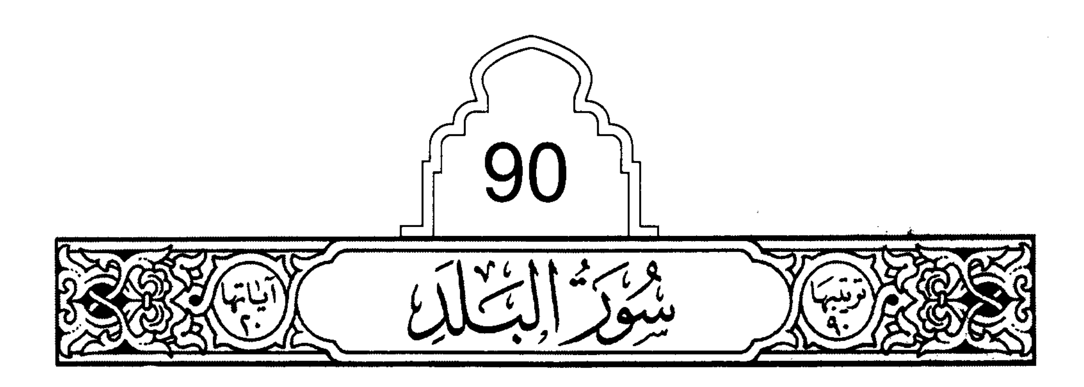
5 ـ الصدقة على المسكين صدقة ، وهي على ذي الرحم ثِنتان: صدقة وصلة.

6 ـ يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطلع عليهم رب العالمين ، فيقول: ألا يتبع كل إنسان ما كان يعبد.

7 ـ يؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها.

8 ـ يجيء ملك الموت فيجلس عند رأس المؤمن فيقول: أيتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكّية ، وعدد آياتها (20) .

موضوع السورة

القَسَمُ بمكة والوالد والولد أن الإنسان في شدة وعناء
وأن سعادته في طاعة الله واقتحام الموانع وإلا كان الشقاء

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قَسَمُ الله تعالىٰ بمكة أم القرىٰ وبالوالد وأولاده أن ابن آدم في شدة وعناء ، ثم مصيره إن كفر وعصىٰ ربه إلى الشقاء .

2 ـ حث الإنسان على إخلاص العبادة لربه الذي أغدق عليه نعمه الكثيرة ، كالعينين واللسان والشفتين والنجدين والآلاء الكبيرة .

3 ـ توجيه الإنسان لاقتحام موانع الطاعة ، من النفس والشيطان والشهوات والهوىٰ بالبذل والعمل والإيمان والجهاد والشجاعة .

4 ـ المؤمنون هم أصحاب الميمنة ، والكفار هم أصحاب المشأمة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 10. قوله تعالىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

في هذه الآيات: يقسِمُ تعالىٰ بمكة أم القرىٰ في حال كون الساكن فيها حلالاً، تنبيهاً لعظمة قدرها حالة إحرام أهلها، كما يقسم جلت عظمته بالوالد وأولاده، أن ابن آدم في شدة وعناء، ثم مصيره إن كفر وعصىٰ ربه إلى الشقاء، فهلا أخلص العبادة لربه الذي أغدق عليه نعمه الكثيرة، كالعينين واللسان والشفتين والنجدين والآلاء الكبيرة.

فقوله تعالىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾. قال الأخفش: (﴿لَآ﴾ زائدة). والتقدير: أقسم بهذا البلد ـ وهي مكة ـ. قال القرطبي: (أي أقسم بالبلد الحرام الذي أنت فيه، لكرامتك عليّ وحبّي لك). وقال مجاهد: (﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾: ﴿لَآ﴾: رَدٌّ عليهم).

وقد أقسم الله به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: 3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾. فيه تأويلان:

التأويل الأول: أي في المستقبل. قال مجاهد: (أحل لرسول الله ﷺ ما صنع فيه ساعة). وقال قتادة: (يقول: وأنت به حل لست بآثم).

وقد فصّل ذلك ابن عباس حيث قال: (﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يعني بذلك نبي الله ﷺ، أحلّ الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء، ويستحيي من شاء، فقتل يومئذ ابن خطل صَبْراً وهو آخذ بأستار الكعبة، فلم تحل لأحد من الناس بعد رسول الله ﷺ أن يقتل فيها حراماً حرّمه الله، فأحلّ الله له ما صنع بأهل مكة).

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يومَ

افْتَتَحَ مَكَّةَ: [لا هِجْرَةَ ولكِنْ جِهادٌ ونِيَّةٌ ، وإذا اسْتُنْفِرْتُم فانْفِروا ، فإن هذا بلدٌ حَرَّمَ اللهُ يومَ خلق السماوات والأرضَ ، وهو حرامٌ بِحُرْمَةِ الله إلى يوم القيامة ، وإنَّهُ لا يَحِلُّ القِتالُ فيه لأحَدٍ قبلي ولمْ يَحِلَّ لي إلا ساعةً مِنْ نَهارٍ ، فهو حرامٌ بِحُرْمَةِ الله إلى يوم القيامة] الحديث[1].

والتأويل الثاني: أي أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به ، تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك ، لأنه صار بحلولِكَ فيه عظيماً شريفاً.

قلت: وكلا المعنيين حق ، سواء أكان القسم تأويله في الحاضر أو المستقبل ، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾. قَسَمٌ من الله تعالىٰ بالوالد وأولاده ، كآدم وما تناسل من ولده ، وبكل والد ومولود من جميع الحيوانات ، تنبيهاً على عظم آية التناسل والتوالد ، ودلالتها على قدرة الله وحكمته وعلمه.

فعن ابن عباس: (﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ قال: هو الوالد وولده). وقال أيضاً: (الوالد: الذي يلد ، وما ولد: العاقر الذي لا يولد له). وقال مجاهد: (الوالد: آدم ، وما ولد: ولده). وعن عطية العوفي: (هو عموم في كل والد وكل مولود).

وقال الماوردي: (ويحتمل أن الوالد النبي ﷺ ، لتقدّم ذكره ، وما ولد أمته ، لقوله عليه السلام: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم». فأقسم به وبأمّته بعد أن أقسم ببلده ، مبالغة في تشريفه عليه السلام).

قلت: والراجح العموم ، فيدخل في ذلك كل والد ومولود ، كما تقدم ، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾. هو جواب القسم. والإنسان هنا ابن آدم. والكَبَد: الشدة والمعاناة[2]. والتقدير: لا يزال الإنسان في مكابدة شدائد هذه الدنيا ومقاساة آلامها حتىٰ يموت ، فإذا مات كابد شدائد القبر والبرزخ وأهوالهما ، ثم إذا بُعث كابد شدائد الآخرة. وفيه تسليةٌ للنبي ﷺ مما كان يكابده من قريش ، فإن الأنبياء أشُد الناس بلاء.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1834) ، كتاب جزاء الصيد. باب: لا يَحلّ القتال بمكة.

(2) أصل الكبد من (كبد الرجل كبداً) فهو أكبد ، إذا وجعت كبده وانتفخت. ثم استعمل في كل تعب ومشقة ، ومنه اشتقت المكابدة.

وعن ابن عباس: (﴿فِي كَبَدٍ﴾ قال: في شدّة خَلْقٍ، ألم تر إليه وذكر مَوْلِدَه ونبات أسنانه). وقال مجاهد: (﴿فِي كَبَدٍ﴾ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، يتكبَّدُ في الخلق). وقال ابن عباس أيضاً: (﴿فِي كَبَدٍ﴾ يقول: في نصب). أو قال: (في انتصاب، يعني القامة). قال الضحاك: (خُلِقَ منتصباً على رجلين، لم تخلق دابة على خلقه). وعن قتادة: (﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ حين خلق، في مشقة، لا يُلقىٰ ابن آدم إلا مكابد أمر الدنيا والآخرة). وعن الحسن: (يكابد أمراً من أمر الدنيا، وأمراً من أمر الآخرة). وقال أيضاً: (يكابِدُ مضايقَ الدنيا وشدائدَ الآخرة). قلت: وإنما تهوين هذه الشدائد أو عبورها وتجاوزها يكون اختصاصاً من الله تعالىٰ لأوليائه وأحبابه المؤمنين، فإنما استراح من غُفر له، ولا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه ورضاه.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: 15].

وفي صحيح السنة العطرة من آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أحمد في المسند، وأبو نعيم في الحلية، بسند حسن في الشواهد عن عائشة قالت: قيل: يا رسول الله ماتت فلانة واستراحت! فغضب رسول الله ﷺ وقال: [إنما يستريح من غُفِرَ له][1].

وفي رواية: [إنما استراحَ من غُفِرَ له].

الحديث الثاني: أخرج مالك وأحمد والشيخان عن أبي قتادة: أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة، فقال: مستريحٌ أو مستراحٌ منه. قالوا: يا رسول الله ما المتسريحُ والمستراحُ منه؟ قال: [العبدُ المؤمن يستريح من نَصَبِ الدنيا وأذاها إلى رحمه الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (6/ 69)، (6/ 102)، وأبو نعيم في «الحلية» (8/ 290). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1710)، وصحيح الجامع (2315).

(2) حديث صحيح. أخرجه مالك (1/ 241/ 54)، وعنه البخاري (4/ 233)، وكذا مسلم (3/ 54)، وأحمد (5/ 302 ـ 303)، والنسائي (1/ 272 ـ 273).

قال: [إنَّ الميتَ يصيرُ إلى القبر، فَيُجْلَسُ الرجلُ الصالحُ في قبرِهِ، غَيْرَ فَزِعٍ ولا مشعوف. ثم يُقال له: فيمَ كُنتَ؟ فيقول: كنتُ في الإسلام. فَيُقالُ له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمدٌ رسول الله ﷺ، جاءَنا بالبينات مِن عند الله فصَدَّقْناه. فيُقالُ له: هل رأيتَ الله؟ فيقولُ: ما ينبغي لأَحَدٍ أن يرىٰ الله، فَيُفْرَجُ له فُرْجَةٌ قِبَلَ النار. فينظر إليها يَحْطِمُ بَعْضُها بعْضاً. فيُقال له: انظُرْ إلى ما وقاكَ الله. ثم يُفْرَجُ له قِبَلَ الجنة. فينظرُ إلى زَهْرَتها وما فيها. فيقالُ له: هذا مَقْعَدُكَ، ويُقال له: على اليقين كُنْتَ، وعليه مُتَّ، وعليه تُبْعَثُ، إن شاءَ الله][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾. أي: أيظن الإنسان أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد، مهما اقترف من السيئات، حتىٰ ولا ربّه عزّ وجل؟!

وقوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾. أي يقول ابن آدم: أنفقت مالاً كثيراً مجتمعاً. وهو من تلبَّد الشيء: إذا اجتمع.

والمقصود: ما أنفقه من الأموال للافتخار والمباهاة والرياء. قال ابن عباس: (يعني باللبد: المال الكثير). وقال مجاهد: (﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ قال: مالاً كثيراً). قال القاسمي: (كقولهم: «خسرت عليه كذا وكذا» إذا أنفق عليه. يتفضل على الناس بالتبذير والإسراف، ويحسبه فضيلة لاحتجابه عن الفضيلة وجهله).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾. كشف لحقيقة ما كان عليه من النفاق والرياء.

قال النسفي: (﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق ما ينفق رياء وافتخاراً، يعني أن الله تعالىٰ كان يراه وكان عليه رقيباً).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾. قال قتادة: (نِعَمٌ من الله متظاهرة، يقررك بها كيما تشكره). وقال القاشانّي: (أي ألم ننعم عليه بالآلات البدنية التي يتمكن بها من اكتساب الكمال، ليبصر ما يعتبر به، ويسأل عما لا يعلم، ويتكلم فيه؟).

والمقصود: تذكير من الله تعالىٰ عباده بنعمه عليهم، في سلامة الآلات التي يتوصلون بها إلى تحصيل منافعهم الدينية والدنيوية، فالحاجة إلى العينين للرؤية، واللسان للنطق والتعبير عما في الضمير، والتكلم بالحجة والحق، والشفتين لحبس

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4268). وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3443) ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر القبر والبلىٰ، وهو جزء من حديث أطول.

الطعام والشراب وإمساكهما في الفم ، والنطق أيضاً ، وفيهما جمالٌ للوجه والفم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾. النجد: الطريق المرتفع ـ أو ما ارتفع من الأرض ـ.

فمفهوم الآية: وهديناه الطريقين: طريق الخير وطريق الشر.

والمقصود: امتنان من الله تعالىٰ على الإنسان في معرض ذكر النعم الجليلة عليه. أي: ألم نعرّفه طريق الخير وطريق الشر ، مبينتين واضحتين كتبيّن الطريقين العاليتين ! فهو يدرك ذلك بفطرته التي فطره الله عليها.

يروي ابن جرير عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ قال: (الخير والشر). وعن ابن عباس: (يقول: الهدىٰ والضلالة). وقال الضحاك: (نجد الخير ، ونجد الشر).

قلت: وفي تسميتهما بالنجدين إشارة إلى وعورة وصعوبة كل مسلك منهما ، فليس الشر بأهون من الخير ، وإنما في كل طريق ما فيه من المحن ، وإنما النجاة بمجاهدة النفس ألا تقع في الآثام ، وأن تسلك سبيل تعظيم أوامر الرحمان.

11 ـ 20. قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: توجيهُ الله تعالىٰ الإنسان لاقتحام موانع الطاعة ، من النفس والشيطان والشهوات والهوىٰ بالبذل والعمل والإيمان والجهاد والشجاعة ، فالمؤمنون أصحاب الميمنة ، والكفار أصحاب المشئمة.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾. أي: فهلا اجتهد واخترق الموانع التي تحول بينه وبين طاعة الله ، من تسويل النفس واتباع الهوىٰ والشيطان. وقال قتادة: (إنها عقبة

قُحْمَةٌ[1] شديدة فاقتحموها بطاعة الله تعالىٰ). وقال الحسن: (هي والله عقبة شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان). وقيل: العقبة خَلاصُه من هول العرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾. استفهام لزيادة التقرير والاهتمام. قال القاسمي: (أيْ أيّ شيء أعلمك ما اقتحام العقبة؟ وفي الاستفهام زيادة تقريرها وكونها عند الله تعالىٰ بمكانة رفيعة).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾. فكّها خلاصها من الأسر. وقيل: من الرِّق.

قال القرطبي: (والفكّ: هو حل القيد، والرِّق قيد. وسمي المرقوق رقبة، لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته، وسمِّي عتقها فَكّاً كفك الأسير من الأسْر).

وقد حفلت السنة العطرة بأحاديث كثيرة في فضائل العتق، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [أَيُّما رَجُلٍ أعتقَ امرأً مسلماً اسْتَنْقَذَ الله بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْواً من النار][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن سعيد بن مُرجانَةَ: [أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من أَعْتَقَ رقبةً مؤمنة أعتقَ الله بكل إِرْبٍ منها إِرْباً منه من النار، حتىٰ إنه لَيُعْتِقُ باليدِ اليدَ، وبالرجلِ الرجلَ، وبالفرجِ الفرجَ». فقال عليُّ بن الحسين: أنت سمعتَ هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم. فقال علي بن الحسين لغلام له أفْرَهُ غلمانه: ادعُ مِطْرَفاً. فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حُرٌّ لوجهِ الله][3].

وروىٰ البخاري نحوه وفيه: (فعمد عليّ بن الحسين رضي الله عنهما إلى عَبْدٍ له قد أعطاهُ به عبد الله بنُ جَعفر عَشَرَةَ آلافِ درهم، أو ألْفَ دينار فأعتقه).

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: سمعت

(1) القُحْمة: المَهْلَكة، والسنة الشديدة. والقُحَم: صِعاب الطريق. والاقتحام: الرَّميُ بالنفس في شيء من غير رَوية. والمقصود هنا: الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة. والعقبة: الطريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها، استعيرت لتمثيل ما سيأتي مما فيه معاناة ومشقة ومجاهدة للنفس من أجل النَجاة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2517) كتاب العتق. وكذلك (6715)، ورواه مسلم (1506)، والترمذي (1541)، والنسائي (9/ 505)، وأحمد (2/ 420).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 420)، وانظر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (6715)، كتاب كفارات الأيمان.

رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ أعتقَ رقَبةً مؤمنة أعتقَ الله منه بكل عُضْوٍ مِنْهُ عُضْواً من النار، حتىٰ يُعْتِقَ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ](1).

الحديث الرابع: أخرج الطبري بسند على شرط مسلم عن أبي نَجِيح قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أَيُّما مُسلِمٍ أعتقَ رجُلاً مُسلماً فإنَّ الله جاعِلٌ وقاءَ كل عَظْمٍ من عِظامه عظْماً من عِظام مُحَرِّرِه من النار. وَأَيُّما امرأة مُسلمة أعتقتْ امرأة مسلمةً فإن الله جاعل وقاءَ كلِّ عظم من عِظامِها عظماً من عِظامها من النار](2).

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن كثير بن مُرَّة، عن عمرو بن عَبَسَةَ: أنه حدَّثهم: أن النبي ﷺ قال: [مَنْ بنىٰ مسجداً لِيُذْكَرَ اللهُ فيه بنىٰ الله له بيتاً في الجنة. ومن أعتق نفساً مسلمةً كانت فِديته من جهنّم. ومن شابَ شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة](3).

الحديث السادس: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن البراء بن عازب قال: [جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! عَلِّمني عملاً يدخلني الجنةَ. فقال: لئن كُنْتَ أقصرت الخطبةَ لقد أعرضت المسألة. أعتق النسمةَ، وفكّ الرقبة. فقال: يا رسول الله! أوليستا بواحدةٍ؟ قال: لا، إن عِتْقَ النسمة أن تنفرد بِعِتْقها، وفَكَّ الرقبة أن تُعين في عِتقها. والمِنْحة الوكوفُ، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تُطِق ذلك فأطعم الجائعَ، واسقِ الظمآن «وأْمُر بالمعروف وانه عن المنكر»، فإن لم تطق ذلك فَكُفَّ لسانك إلا من الخير](4).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾. السَّغَبُ: الجوع، والساغب الجائع. قال ابن عباس: (﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾: ذي مَجاعةٍ). وقال إبراهيم النَخَعِيُّ: (في يومٍ الطعامُ فيه عزيز). وقال قتادة: (في يومٍ يُشتهىٰ فيه الطعام).

والمقصود: إن من سبل اقتحام العقبة إطعام الطعام وخاصة عند انتشار الجوع ووجود الحاجة إليه، فإطعامه فضيلة وهو مع الجوع أفضل.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (1541)، أبواب النذور والأيمان. باب ثواب من أعتق رقبة. وانظر صحيح الترمذي (1247)، وله شواهد كثيرة.
(2) حديث صحيح. أخرجه الطبري (37317)، وإسناده على شرط مسلم. وله طرق.
(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 386)، وإسناده على شرط مسلم.
(4) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (4/ 299)، وإسناده حسن، وله شواهد.

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: [لما قدم رسول الله ﷺ، يعني: المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل قدم رسول الله ﷺ فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: يا أيها الناس أفشوا السلامَ، وأطعموا الطعام، وصَلّوا والناسُ نيامٌ، تدخلوا الجنة بسلام][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾. قال ابن زيد: (ذا قرابة). والمعنىٰ: أي يطعم اليتيم ـ وهو الصغير الذي لا أب له ـ، ويكون اليتيم من أقارب هذا المقتحم الذي يبغي النجاة في الآخرة.

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن سلمان بن عامر يبلغ به النبي ﷺ قال: [الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحِم ثِنْتان: صدقةٌ وصلة][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾. أي لا شيء له، حتىٰ كأنه لشدة فقره قد لصِقَ بالتراب. وهو من «ترب الرجل» إذا افتقر، والمتربة: المسكنة والفاقة. قال ابن عباس: (﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له، ولا شيء يقيه من التراب). وفي رواية: (هو الذي لَصِقَ بالدقعاء من الفقر والحاجة، ليس له شيء). والدقعاء: التراب. وقال عكرمة: (هو الفقير المديونُ المحتاجُ). وقال سعيد بن جبير: (هو الذي لا أحدَ له). وقال قتادة: (هو ذو العيال). وقيل: هو البعيدُ التربة ـ قاله ابن عباس ـ يعني الغريب عن وطنه. وكل ما سبق داخل في مفهوم الآية، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

أي: ثم إن ذلك المقتحم للعقبة إضافة إلى ما سبق من الأوصاف الجميلة فهو مؤمن يوصف بالتحلي برفيع الإيمان في قلبه، وجميل الأعمال على جوارحه، مع الاحتساب ثواب الابتلاء عند ربه، ورحمته عباد الله جميعاً.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (1334)، (3251)، والترمذي. انظر صحيح سنن الترمذي (2019).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (658)، أبواب الزكاة، باب الصدقة على ذي القرابة. ورواه ابن ماجة (1844)، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة. وقد مضىٰ.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: 1 ـ 3].

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله مرفوعاً: [لا يرحم الله مَنْ لا يرحم الناس][1].

وله شاهد صحيح رواه الحافظ العراقي عن أنس بن مالك مرفوعاً: [والذي نفسي بيده لا يضع الله رحمته إلا على رحيم. قالوا: كلنا يرحم. قال: ليس برحمة أحدكم صاحبه، يرحم الناس كافة][2].

وأخرج البخاري في الأدب المفرد بسند قوي عن عبد الله بن عمرو يرفعه: [مَنْ لَمْ يرحَمْ صغيرَنا، ويعرِفْ حَقَّ كبيرنا، فليسَ منا][3].

وأخرج الديلمي بسند حسن في الشواهد عن معقل بن يسار مرفوعاً: [أفضل الإيمان الصبرُ والسماحة][4].

وقوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾. أي المتصفون بهذه الصفات هم أصحاب اليمين، الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم. وقال يحيىٰ بن سلام: (لأنهم ميامينُ على أنفسهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾. أي: أصحاب الشمال. قال محمد بن كعب: (أي يأخذون كتبهم بشمائلهم). قال يحيىٰ بن سلام: (لأنهم مشائيم على أنفسهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾. قال ابن عباس: (مغلقة الأبواب).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7376)، ومسلم (319)، وأحمد (4/ 562).
(2) حديث صحيح. أخرجه الحافظ العراقي في «المجلس 86 من الأمالي» (2/ 77)، وله شاهد عند ابن المبارك في «الزهد» (1/ 203). وانظر «الصحيحة» (167).
(3) حديث حسن. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (355)، وأبو داود في السنن، (4943)، والترمذي (1920)، وهو حديث قوي وله شواهد.
(4) حسن لغيره. أخرجه الديلمي (1/ 1/ 128)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (43).

وقال سعيد بن جبير: (أي مُطبقةٌ). وقال مجاهد: (أصَد الباب بلغة قريش: أي أغلقه). وقال الضحاك: (﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: حيطٌ لا باب له).

وقال قتادة: (﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: مطبقة فلا ضوءَ فيها ولا فُرَج، ولا خروج منها آخر الأبد).

قلت: وفي الصحاح: أوصَدْت الباب وآصَدْته أي أغلقته.

والمقصود: تُطبق أبواب النار وتغلق على الكفار، لحبسهم فيها، وسدّ سبل الخلاص منها، أعاذنا الله والمؤمنين من نار جهنم، بفضله ورحمته وكرمه.

تم تفسير سورة البلد
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
عصر يوم الأحد 25 ـ ذي القعدة ـ 1426 هـ
الموافق 25/كانون الأول/2005 م

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ أقسم الله بالبلد الحرام ، تشريفاً لنبيه المقيم فيه عليه الصلاة والسلام.

2 ـ الكبد من المكابدة ، والعرب تقول كبد الرجل كبداً إذا وجعت كبده وانتفخت ، ثم استعمل في كل تعب ومشقة.

3 ـ النجد: الطريق المرتفع الواضح ، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: أي طريق الخير وطريق الشر.

4 ـ العقبة: موانع الطاعة ، من النفس والهوىٰ والشيطان وغير ذلك.

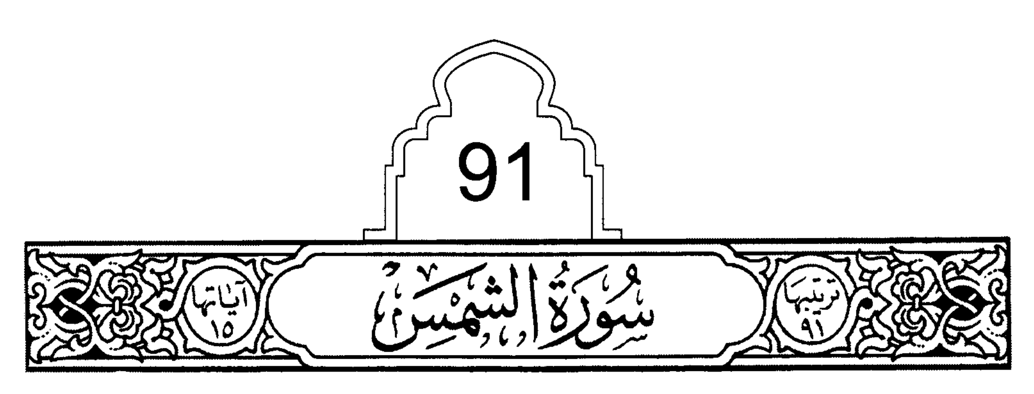
5 ـ من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله منه بكل عُضْوٍ منه عُضْواً من النار ، حتىٰ يُعْتِقَ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ.

6 ـ السَّغَب: الجوع ، والمسغبة: المجاعة ، والساغب: الجائع.

7 ـ الصدقة على المسكين صدقة ، وهي على ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة.

8 ـ من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف حق كبيرنا ، فليس منا.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (15).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد في ذكرها أحاديث من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث جابر قال: [مر رجل من الأنصار بناضحين[1] على معاذ ، وهو يصلي المغرب ، فافتتح بسورة البقرة ، فصلى الرجل ثم ذهب. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: أفتَّانٌ يا مُعَاذُ ، أفتَّانٌ يا معاذُ ، ألا قرأت بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ونحوهما][2].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: [كان رسول الله ﷺ يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ونحوها من السور][3].

الحديث الثالث: أخرج البخاري والنسائي عن جابر قال: [صلى معاذ بن جبل لأصحابه العشاء ، فطول عليهم ، فانصرف رجل منا. فأُخبر مُعاذٌ عنه ، فقال: إنه مُنافق. فلما بلغ ذلكَ الرجلَ ، دخل على النبي ﷺ فأخبره بما قال معاذ. فقال النبي

---

(1) الناضح: الجمل الذي يخرج الماء من البئر.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (705) ، ومسلم (465) ح (179) ، وانظر صحيح سنن النسائي (941) ـ في الصلاة ـ باب القراءة في المغرب بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (309). باب ما جاء في القراءة في صلاة العشاء.

ﷺ: أتريدُ أنْ تكون فتّاناً يا معاذُ ، إذا أمَّمْتَ الناس فاقرأ بـ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾][1] .

الحديث الرابع: أخرج النسائي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله ﷺ من فلان ، فصلينا وراء ذلك الإنسان ، وكان يطيل الأوليين من الظهر ، ويخفف في الأخريين ، ويخفف في العصر ، ويقرأ في المغرب بقصار المفصل ، ويقرأ في العشاء بـ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ وأشباهها][2] .

موضوع السورة

القسم بالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض
أن سعادة النفس في الدارين لمن زكاها ، والشقاوة لمن دساها

ـ منهاج السورة ـ

١ ـ قَسَمُ الله تعالى بالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض والنفس أن الفلاح بتزكية هذه النفس والشقاء لمن دساها.

2 ـ الإخبار عن تكذيب ثمود وطغيانهم ، وخروج أشقاهم لعقر الناقة التي حذرهم نبيهم .

3 ـ مقابلة الله تعالى لهم بالغضب والانتقام ، وإنزال العقاب والآلام .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري ومسلم من حديث جابر كما مضى . وانظر صحيح النسائي (954) .
(2) حديث صحيح . انظر صحيح سنن النسائي (940) . باب القراءة في المغرب بقصار المفصل .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 10. قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

في هذه الآيات: يقسم الله تعالى بالشمس ذلك الخلق العظيم، ويقسم بضوئها مبعث الحياة في عالمها الفخيم. ويقسم بالقمر والنهار والليل والسماء والأرض والنفس ومن خلقها في أحسن تقويم، أن الفلاح والسعادة لمن زكاها، والخيبة والشقاء لمن دساها.

فقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾. قسَمٌ من الله بالشمس ونهارها. فإن الضحا وقت ارتفاع الشمس بعد طلوعها إذا تمّ ضياؤها. فهما قَسَمان: أقسم الله بالشمس، وأقسم بضحا الشمس. قال مجاهد: (﴿وَضُحَىٰهَا﴾ أي ضوؤها وإشراقها). وقال قتادة: (بهاؤها). وقال السدي: (حرّها). وروى الضحاك عن ابن عباس: (﴿وَضُحَىٰهَا﴾ قال: جعل فيها الضوء وجعلها حارة).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾. أي: إذا تبعها بعد غروب الشمس. فهو قسم بالقمر عند امتلائه أو قربه من الامتلاء. إذ يضيء الليل كله مع غروب الشمس إلى الفجر. وهذا في الحقيقة قسم بالضياء في طور آخر من أطواره. وعن ابن عباس: (﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ قال: يتلو النهار). وقال قتادة: (﴿تَلَىٰهَا﴾ ليلةَ الهلالِ، إذا سقطت الشمسُ رُئيَ الهلالُ). وقال ابن زيد: (هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه. وهو يتقدَّمها في النصف الأخير من الشهر).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾. قَسَمٌ من الله بالنهار إذا جلّى الشمس، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الانجلاء. وعن مجاهد: (﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ قال: أضاء). وقال قتادة: (إذا غشيها النهار). وقيل: والنّهار إذا جلّى البسيطة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ـ ذكره مجاهد.

قال القاسمي: (﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أظهر الشمس. وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه. لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء). قلت: وهذه الأقسام كلها في تعظيم النور والضياء ليلتفت الإنسان إلى قيمة هذه النعمة الجليلة وآثارها في الإيمان والعلم، والنور والهداية في القلب، وإشراقة النفس.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾. قَسَمٌ من الله بالليل إذا يغشى الشمسَ حين تغيبُ فتظلمُ الآفاق. قال القرطبي: (﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي يغشى الشمس، فيذهب بضوئها عند سقوطها، قاله مجاهد وغيره. وقيل: يغشى الدنيا بالظُّلَم، فتُظلم الآفاق. فالكناية ترجع إلى غير مذكور).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾. فيه تأويلان حسب وقوع «ما» من الإعراب:

التأويل الأول: «ما» مصدرية. والتقدير: والسماء وبنيانها، أو: والسماء وبنائِها. كقوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ [يس: 27] أي بغفران ربي. قال قتادة: (﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ وبناؤها: خَلْقُها).

التأويل الثاني: «ما» بمعنى «مَنْ». والتقدير: والسماء وبانيها، أو: والسماء ومَنْ بناها. قال مجاهد: (﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ قال: الله بنى السماء). قلت: واختار التأويل الثاني ابن جرير، وكلا التأويلين صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾. الطَّحْوُ: البسط ـ قال الجوهري: طَحَوْتُه مثل دَحَوْتُه، أي: بسطته ـ. والمقصود: قسَمٌ من الله بالأرض التي بُسطت من كل جانب. وعن مجاهد: (﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ دحاها). وعن ابن عباس: (﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي: خلق فيها). أو قال: (قسَّمها). وقال ابن زيد: (بسَطها).

قلت: ومفهوم الطَّحْو والدَّحْو للأرض يفيد بسطها وتمهيدها للسكنى للضرب في أكنافها والتقلب في أقطارها، كما يشير اللفظ إلى كروية شكلها، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾. قَسَمٌ من الله تعالى بالنفس وتسويتها، أو بالنفس ومن سوّاها، حسب وقوع «ما» من الإعراب كما سبق. والمعنى: يقسم تعالى بالنفس التي أنشأها وسوّى أعضاءها وركب فيها الروح، وأودعها القوى النفسية الهائلة، والإدراكات الحسية العجيبة، وجعلها مستقيمة على الفطرة القويمة.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 30].

2 ـ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كُلُّ مولودٍ يولد على الفِطْرةِ، فأبواه يهوِّدانه، أو يُنَصِّرانه، أو يُمَجِّسانه، كما تولد البهيمةُ بهيمة جمْعاء هل تُحِسُّون فيها من جدعاء][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ][2].

الحديث الثالث: خرّج مسلم في الصحيح، وأحمد في المسند، عن عياض بن حِمَار قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حُنَفاءَ، فجاءتهم الشياطين فاجتالَتْهُم عن دينهم][3].

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. أي عَرَّفها طريق الفجور وطريق التقوى ومآل كل منهما. قال ابن عباس: (﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾: بَيَّنَ لها الخيرَ والشر). وقال سعيد بن جبير: (ألهمها الخير والشر). وقال مجاهد: (عَرَّفها الطاعة والمعصية). وقال ابن زيد: (جعل فيها فجورها وتقواها).

وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدِّيلِيِّ قال: قال لي عِمْرانُ بنُ الحُصَيْنِ: أرأَيْتَ ما يَعْملُ الناسُ اليومَ ويكدحونَ فيه، أشيْءٌ قُضِيَ عليهم ومضى عليهم مِنْ قَدَرٍ ما سَبَقَ؟ أو فيما يُسْتَقْبَلُونَ به ممَّا أَتاهم به نبيُّهم وثَبَتَت الحُجَّةُ عليهم؟ فقلتُ: بل شيءٌ قُضِيَ عليهم، ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكونُ ظُلْماً؟ قال: فَفَزِعْتُ مِنْ ذلكَ فَزَعاً

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4775)، ومسلم (2658)، وأحمد (2/ 253)، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6412) ـ كتاب الرقاق.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865)، وأحمد (4/ 266)، وابن حبان (653)، وغيرهم.

شديداً ، وقلتُ : كُلُّ شيءٍ خَلْقُ اللهِ ومِلْكُ يَدِهِ ، فلا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ وهم يُسْأَلون. فقال لي : يَرْحَمُكَ الله! إني لَمْ أُرِدْ بما سَأَلْتُكَ إلا لأَحْزِرَ عَقْلَكَ[1] ، إنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسولَ الله! أَرَأَيْتَ ما يَعْمَلُ الناسُ اليومَ ، ويَكْدَحُونَ[2] فيه ، أشيءٌ قُضِيَ عليهم وَمَضَى فيهم مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ؟ ، أَوْ فيما يُسْتَقْبَلُونَ به مِمَّا أَتَاهُم به نَبِيُّهُمْ ، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ عليهم؟ فقال : «لا ، بل شيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم ، وتصديقُ ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ »[3].

وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾. هو جواب القسم. وأصل الزكاة : النموّ والزيادة ، ومنه زكا الزرع ، إذا كثر ريْعُه ، ومنه تزكية القاضي للشاهد ، لأنه يرفعه بالتعديل ، وذكر الجميل. قال القرطبي : (فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمالِ البر ، شَهَرَ نفسه ورفعها. وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا وارتفاعَ الأرض ، ليشتهر مكانُها للمُعْتِفِين[4] ، وتوقد النار في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأَوْلاج والأطراف والأهضام[5] ، ليخفى مكانها عن الطالبين. فأولئك عَلَّوا أنفسهم وزَكَّوها ، وهؤلاء أخفَوا أنفسهم ودَسُّوها).

وفي الآية تأويلان متكاملان يقتضيهما الإعجاز البياني للقرآن :

التأويل الأول : قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله ، وطهّرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. قال قتادة : (من عمل خيراً زكّاها بطاعة الله). وقال أيضاً : (قد أفلح من زكّى نفسه بعمل صالح). وهذا المعنى كقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى : 14 ـ 15].

التأويل الثاني : قد أفلح من زكّى الله نفسه. وهو قول ابن عباس. وقال ابن جرير : (يقول : قد أفلح من زكى الله نفسه ، فكثر تطهيرها من الكفر والمعاصي ، وأصلحها بالصالحات من الأعمال).

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. قال أهل اللغة : (والأصل : دسَّسَها ، من

---

(1) لأحزِرَ عقلك : أي لأمتحن فهمك ومعرفتك.
(2) الكدح : هو السعي في العمل ، سواء أكان للآخرة أم للدنيا.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2650) ـ كتاب القدر ، وأخرجه أحمد (4/ 438) ، والطبري (37382) ، وأخرجه ابن أبي عاصم (174) ، وابن حبان (6182).
(4) المعتفي : كل طالب فضل أو رزق.
(5) الأولاج : غار أو كهف. والأهضام : أسافل الأودية.

التدسيس ، وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فأبدلت سينه ياء ، كما يقال: قَصَّيتُ أظفاري ، وأصله قَصَّصْتُ أظفاري). ذكره القرطبي ، وقال: (وكذا الفاجر أبداً خَفِيّ المكان ، زَمِرُ[1] المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس بركوب المعاصي. وقيل: دساها: أغواها).

وللآية تأويلان متكاملان كما سبق:

التأويل الأول: قد خاب من أهمل نفسه وتركها تركب المعاصي والآثام ، وتخوض في معصية الرحمان. قال مجاهد: (﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ قال: أضَلَّها). وقال سعيد بن جبير: (أغواها). وقال قتادة: (أثَّمها وأفجرها).

التأويل الثاني: قد خاب من دسَّى الله نفسه. قاله ابن عباس ، وابن زيد.

في صحيح السنة من آفاق هذه الآيات أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن أبي عاصم بسند حسن عن أبي هريرة ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾. قال: اللهم إيت نفسي تقواها. زكها أنت خير من زكّاها. أنت وليها ومولاها][2].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس قال: [كان رسول الله ﷺ إذا مرّ بهذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وقف ثم قال: اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وخَير من زكّاها][3].

الحديث الثالث: خَرَّجَ مُسْلِمٌ في الصحيح عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول ، قال: [كان يقول: اللهم! إني أعوذ بك من العجز والكَسَل ، والجُبْنِ والبُخْلِ ، والهَرَم وعذابِ القبر ، اللهم! آتِ نفسي تَقْواها ، وزَكِّها أنْتَ خيرُ من زَكَّاها ، أنت وَلِيُّها ومَوْلَاها ، اللهمَّ! إني أعوذ بكَ مِنَ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ ، ومِنْ قلبِ لا يخشعُ ، ومِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ ، ومَنْ دَعْوَةٍ لا يُستجاب لها][4].

---

(1) الزمر: القليل.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (319). باب: في قوله عليه السلام: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾. وله شواهد ، وانظر ما بعده.

(3) حديث حسن. أخرجه الطبراني (11191) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (7/ 138): إسناده حسن.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2722) ـ كتاب الذكر والدعاء ، باب في الأدعية.

11 ـ 15. قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالى عن تكذيب ثمود رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من بغيهم وكبرهم وطغيانهم، حتى انبعث أعتاهم وأشقاهم، فعقر الناقة التي جعلها الله اختباراً لهم، فقابلهم الله تعالى بغضبه وسخطه، ونقمته وعقابه.

فقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾. الطغيان: مجاوزة الحد في المعاصي. قال ابن زيد: (بطغيانهم وبمعصيتهم). قال البخاري: (وقال مجاهد: ﴿بِطَغْوَاهَا﴾: بمعاصيها). والمقصود: بسبب المعاصي والطغيان، الذي حملهم على تكذيب نبي الرحمان، صَالِحٍ عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾. أي: حين قام أشقى ثمود، أو أشقى البرية، وهو قُدار بنُ سالف، وهو أحيمر ثَمود، وكان عزيزاً في قومه شريفاً نسيباً رئيساً مطاعاً، فعقر الناقة. ومعنى انبعثَ: انتدب لذلك وقام به.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: 77].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن زَمْعَةَ: [أنّه سمعَ النبيَّ ﷺ يَخْطُبُ وذكَرَ الناقة والذي عَقَر، فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾: انبعثَ لها رجُلٌ عَزيزٌ عارِمٌ مَنيعٌ في رَهْطِهِ مِثْلُ أبي زَمْعَةَ][1].

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾. قال قتادة: (قَسْم الله الذي قَسَمَ لها من هذا الماء). والمقصود: فقال لهم رسول الله ـ صالحُ عليه الصلاة والسلام ـ احذروا ناقة الله وذروها، وأعطوها حقّها من شِربها من الماء، فلا تتعرضوا لها يوم شربها.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4942) ـ كتاب التفسير. سورة: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾.

وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾. أي: فكذبوا صالحاً عليه السلام فيما جاءهم به من الحق، حتى حملهم تكذيبهم على عقر الناقة التي أخرجها من الصخرة آية لهم وحجّة عليهم. قال القرطبي: (﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي عقرها الأشقى. وأضيف إلى الكل، لأنهم رضوا بفعله).

وقوله: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾. دَمْدَمْتُ الشيء ـ في لغة العرب ـ أي ألزقته بالأرض وطَحْطَحْتُه. ودمدم الله عليهم: أي أهلكهم. قال القُشَيري: (وقيل: دَمْدَمْتُ على الميت التراب: أي سَوَّيْتُ عليه[1]). والمقصود: أهلكهم الله وأطبق عليهم العذاب، فسَوّى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب.

وعن ابن عباس: (﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ ﴾ قال: دمَّرَ عليهم ربهم بذنبهم، أي بجُرمهم). وقال الفرّاء: (دمْدَم: أي أرجف). وقال المؤرِّج: (الدمدمة: إهلاك باستئصال). وقيل: حقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده. وكل ما سبق يقارب بعضه بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾. فيه تأويلان:

التأويل الأول: لا يخاف من عقر الناقة عاقبة ما أقدم عليه. قال الضحاك: (﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ قال: لم يَخَفِ الذي عَقَرَها عقباها). وقال السدي: (لا يخاف الذي صنع عقبى ما صنع).

التأويل الثاني: لا يخاف الله عاقبةً ولا تبعةً مِمَّا فَعَلَ بهم، فهو العظيم الجبار الذي يخافُه كل شيء. قال ابن عباس: (﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ قال: لا يخاف الله من أَحَدٍ تَبِعَةً). وقال الحسن: (ذاك ربنا تبارك وتعالى، لا يخاف تبعةً مما صنعَ بهم). وقال أيضاً في رواية: (ذاك الرب صنَعَ ذلك بهم، ولم يخف تبعة). وقال قتادة: (لا يَخاف أن يُتْبَعَ بشيء مما صنعَ بهم). وعن مجاهد: (الله لا يخاف عقباها).

قلت: والتأويل الثاني هو الأنسب للسياق، والمقصود الاستهزاء بهم وبالطغاة من أمثالهم، إذ كان ينبغي لهم تعظيم أمر الله والخوف منه قبل أن يدكّهم العذاب، أمَا وَلَمْ يَفْعَلوا فإن الله تعالى أنزل نقمته بهم، وانتصر لرسله منهم، وهو العزيز الجبار المنتقم الذي لا يمانعه أحد، ولا يخشى تبعة فعله من أحد.

---

(1) وقيل: دمَّمتُ على الشيء: أطبقت عليه، ودمّم عليه القبر: أطبقه.

وقد قرأ أهل الحجاز والشام: ﴿فلا يخاف عقباها﴾ بالفاء ، وقرأته قراء العراق بالواو ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ وهو الأشهر ، وكلا القراءتين معروف في الأمصار ، والله تعالى أعلم.

تم تفسير سورة الشمس
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر يوم الثلاثاء 27 ذي القعدة 1426 هـ
الموافق 27/ كانون الأول/ 2005 م

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ كان رسول الله ﷺ يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ ونحوها من السور.

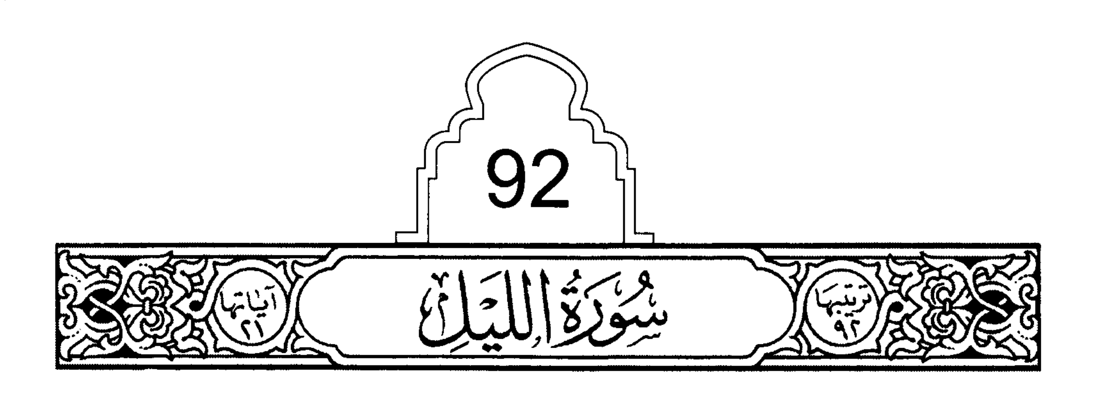
2 ـ كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانه.

3 ـ كان رسول الله ﷺ يدعو يقول: اللهم إيت نفسي تقواها ، زكِّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليها ومولاها.

4 ـ ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي عقرها الأشقى. وأضيف إلى الكل ، لأنهم رضوا بفعله. وكذلك كل عمل يرضى به الإنسان من أعمال البر أو الإفساد يلحقه ثوابه أو وزره.

وفي الحديث: [إذا عملت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدَها فكرِهها كمنْ غاب عنها ، ومَنْ غابَ عنها فرضِيَها كانَ كمن شهدها] ـ رواه أبو داود بسند حسن عن العرس بن عميرة.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (21) .

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد في ذكرها أحاديث من السنة الصحيحة :

الحديث الأول: أخرج البخاري والنسائي عن جابر قال: [صلى معاذ بن جبل لأصحابه العشاء ، فطوّل عليهم ، فانصرف رجل منا. فأُخْبِرَ مُعاذٌ عنه ، فقال: إنه مُنافق. فلما بلغ ذلكَ الرجل ، دخل على النبي ﷺ فأخبره بما قال معاذ. فقال النبي ﷺ: أتريد أنْ تكون فتّاناً يا معاذُ ، إذا أَممْتَ الناس فاقرأ بـ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾][1] .

وفي رواية: [فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر بن سمرة قال: [كان رسول الله ﷺ ، إذا دحَضَت الشمسُ صلّى الظهر ، وقرأ بنحو من ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ ، والعصر كذلك ، والصلوات إلا الصبح ، فإنه كان يطيلها][2] .

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري ومسلم من حديث جابر كما مضى. وانظر صحيح النسائي (954).
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (806). انظر صحيح أبي داود (723) ، ورواه مسلم.

موضوع السورة

القسم بالليل والنهار وبالجنسين ، أنّ سعي العباد ومصيرهم
شتى في الدارين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قَسَمُ الله تعالى بالليل وغشيانه ، وبالنهار وضيائه ، وبالجنسين الذكر والأنثى ، أنَّ سَعْيَ العباد شتى .

2 ـ الثناء على الأتقياء المؤمنين المنفقين في وجوه الخير والوعد لهم بجنات النعيم ، والتقريع على المنافقين المكذبين الذين يبخلون والوعيد لهم بصلي الجحيم .

3 ـ العون من الله تعالى لطالب الهدى واليقين ، وكل ما في هذا الكون ملك لله العظيم .

4 ـ النار مستقر أهل الشقاء الذين استحقوا العقاب ، والنجاة لأهل السعادة الذين استحقوا الثواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 11 . **قوله تعالى** : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ .

في هذه الآيات : يقسم الله تعالى بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه ، وبالنهار إذا ظهر بضيائه وإشراقه ، وبالجنسين الذكر والأنثى من خلقه ، أنّ سعيكم أيها الناس مختلف في مآله ومصيره ، فمنه عمل للجنة ، ومنه عمل للنار ، فساعٍ في فكاك نفسه ، وساعٍ

في عطبها. فأما من بذل ماله في وجوه الخير واتقى محارم الله التي نهى عنها ، وصدق بموعود الله بالثواب والجنة فسييسره الله للخصلة اليسرى: العمل بطاعة الله والإنفاق في سبيله حتى بلوغ الجنة. وأما من بخل بالبذل والفضل واستغنى عن ربه ، وكذب بموعوده ، فسييسره الله للخصلة العسرى ، حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ، ويضعف عن فعلها ، فيؤديه ذلك إلى النار.

فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾. قَسَمٌ من الله بالليل إذا وارى كل شيء بظلامه. قال القاسمي: (أي يغشى الشمس أو النهار بظلمته ، فيذهب بِذَاكَ الضياء).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾. قَسَمٌ من الله بالنهار إذا انكشف ووضح وظهر ، وبان بضوئه عن ظلمة الليل. قال ابن كثير: (﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ، أي: بضيائه وإشراقه).

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾. فيه تأويلان ممكنان:

التأويل الأول: قَسَمٌ من الله عز وجل بنفسه. قال الحسن: (معناه والذي خلق الذكر والأنثى).

التأويل الثاني: قَسَمٌ من الله تعالى بخلقه لجنسي الذكر والأنثى من بني آدم وغيرهم. فتكون «ما» مصدرية كما سبق.

أخرج البخاري في صحيحه عن إبراهيم ، عن عَلْقَمةَ قال: [دَخَلْتُ في نَفَرٍ مِنْ أصحابِ عبد الله الشَّامَ فَسَمِعَ بنا أبو الدَّرْدَاء فأتانا فقال: أفيكم مَنْ يَقْرَأُ؟ فقُلْنا: نعم. قال: فأيُّكم أقْرأ؟ فأشاروا إليَّ ، فقال: اقْرَأ ، فقرأت ﴿والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى. والذكر والأنثى﴾ قال: آنْتَ سَمِعْتَها مِنْ في صاحِبِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ ، قال: وأنا سَمِعْتُها مِنْ في النبي ﷺ ، وهؤلاء يَأبَوْن علينا][1].

وأخرج البخاري ومسلم عن الأعمش عن إبراهيم قال: [قَدِمَ أصحابُ عبدِ الله على أبي الدرداء فَطَلَبَهُم فَوَجَدهم فقال: أيُّكُمْ يَقرأُ على عَبْدِ الله قال: كُلُّنا ، قال: فأيُّكم يَحْفَظُ؟ وأشاروا إلى عَلْقَمَةَ ، قال: كيف سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؟ قال علقمة: ﴿والذكر والأنثى﴾ قال: أشهد أنّي سمعْتُ النبي ﷺ يقرأُ هكذا ، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ والله لا أُتابِعُهُم][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4943) ـ كتاب التفسير ـ سورة الليل ـ آية (2).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4944) ـ كتاب التفسير ـ ، ومسلم (824) ح (282). وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2342).

ورواه الترمذي وقال: (وهكذا قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ والذكر والأنثى).

قلت: وهذه قراءة شاذة، والقراءة المتواترة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾. جواب القسم. والمعنى: إن عملكم لمختلف. أي: كما اختلفت هذه الأشياء المُقْسَم بها اختلف ما وقع عليه القسم. قال عكرمة: (السعي: العمل، فَسَاعٍ في فَكاك نفسه، وساعٍ في عَطبها).

قال القرطبي: (و«شَتَّىٰ»: واحده شتيت، مثل مريض ومرضى. وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه. أي إنَّ عملكم لمتباعد بعضه من بعض، لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى. أي فمنكم مؤمن وبرّ، وكافر وفاجر، ومطيع وعاصٍ. وقيل: ﴿لَشَتَّىٰ﴾ أي لمختلف الجزاء، فمنكم مثاب بالجنة، ومعاقب بالنار. وقيل: أي لمختلف الأخلاق، فمنكم راحم وقاس، وحليم وطائش، وجواد وبخيل، وشبه ذلك).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعاً: [كُلُّ الناس يَغْدو، فبايعٌ نَفْسَهُ، فمعتِقُها أوْ مُوبِقُها][1].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾. قال ابن عباس: (أعطى ما عنده واتقى. قال اتقى ربه). وقال قتادة: (﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ حق الله ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ محارم الله التي نهى عنها).

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾. قال ابن عباس: (وصدق بالخَلَفِ من الله). وقال عكرمة: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ قال: بأن الله سيخلف له). وقال الضحاك: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: بلا إله إلا الله). وقال مجاهد: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ قال: بالجنة). وقال قتادة: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ قال: بموعود الله على نفسه، فعمل بذلك الموعود الذي وعده الله). قلت: وجميع ما سبق من التأويل متقارب يكمل بعضه بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾. قال ابن عباس: (يعني للخير). وقال زيد بن أسلم: (يعني للجنة). قال ابن جرير: (يقول: فسنهيئه للخَلَّةِ اليسرى، وهي العمل بما يرضاه الله منه في الدنيا، ليوجب له به في الآخرة الجنة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (223) ـ كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء. وقد مضى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾. قال ابن عباس: (بخل بما عنده، واستغنى في نفسه). وقال أيضاً: (وأما من بخل بالفضل، واستغنى عن ربه).

وقال كذلك: (يقول: من أغناه الله، فبخل بالزكاة). وقال قتادة: (وأما من بخل بحق الله عليه، واستغنى في نفسه عن ربه).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾. قال ابن عباس: (وكذب بالخَلَفِ من الله). وقال قتادة: (وكذّب بموعود الله الذي وعد). وقال الضحاك: (﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ بلا إله إلا الله). وقال مجاهد: (﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ قال: بالجنة).

وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾. أي لطريق الشر، وللضياع والخذلان، وطريق صِليّ النيران.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: 110].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: 5].

3 ـ وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: 34].

وفي صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآيات أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن عَليّ رضي الله عنه قال: [كُنّا مع النبي ﷺ في بقيع الغَرْقَدِ في جنازةٍ، فقال: «ما مِنكم مِنْ أَحَدٍ إلا وقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجنة ومَقْعَدُه من النار». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نَتَّكِلُ؟ فقال: «اعْمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»، ثُمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن عن عليٍّ رضي الله عنه قال: [كُنَّا في جَنَازَةٍ في بقيع الغَرقَدِ، فأتانا رسول الله ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنا حوْلَهُ ومَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فنَكَّسَ فجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ. ثُمَّ قال: «ما منكم مِنْ أَحَدٍ، وما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلا كُتِبَ مكانُها مِنَ الجنة والنّار، وإلا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيّةً أو سعيدةً». قال رجل: يا رسول الله، أَفَلا نَتَّكِلُ على كتابِنا ونَدَعُ العملَ؟ فَمَنْ كانَ مِنّا مِنْ أهل السعادة فسيصيرُ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4945) ـ كتاب التفسير ـ سورة الليل ـ آية (5).

إلى أهْلِ السعادة ، ومَنْ كانَ مِنّا مِنْ أهل الشَّقاءِ فسيصير إلى عَمَلِ أهل الشقاوة. قال: «أمّا أهْلُ السَّعادَة فَيُيَسَّرُون لِعَمَلِ أهل السَّعادة ، وأمّا أَهْلُ الشَّقاوة فَيُيَسَّرون لِعَمَلِ أهل الشّقاء». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ الآية][1].

الحديث الثالث: أخرج مسلم في الصحيح ، وابن جرير في التفسير ، عن جابر قال: [جاءَ سُراقةُ بنُ مالك بن جُعْشُم قال: يا رسول الله! بَيِّنْ لنا ديننا كأنّا خُلِقْنا الآن ، فيمَ العملُ اليوم؟ أفِيما جَفَّتْ به الأقلامُ وجَرَتْ به المقاديرُ ، أمْ فيما نَسْتَقْبِلُ؟ قال: «لا ، بلْ فيما جَفَّتْ به الأقلامُ وجَرَتْ به المقاديرُ» قال: ففيم العَمَلُ؟ فقال: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ»][2].

وفي رواية: [كل عامل مُيَسَّرٌ لِعَمَلِه].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾. قال مجاهد: (أي: إذا مات). وقال زيد بن أسلم: (إذا تردى في النار). والمعنى: وأيّ شيء يدفع مال هذا الذي بخل بماله واستغنى عن ربه إذا هو قضى ، ثم سقط في جهنم وهوى ، إنه لا ينفعه ماله يومئذ شيئاً.

12 ـ 21. **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝﴾.

في هذه الآيات: طالب الهدى يلقى العون من الله الكريم ، فجميع ما في الدنيا والآخرة ملك لله العظيم ، وهذه النار مستقر أهل الشقاء الذين استحقوا العقاب ، وسيجنبها أهل السعادة الذين استحقوا أحسن الثواب.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾. قال قتادة: (يقول: على الله البيان ، بيان حلاله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4948) ـ كتاب التفسير. وأخرجه مسلم (647) ح (6) ، وأخرجه أبو داود في السنن (4694) ، والترمذي في الجامع (2136) ، و(3344) ، والنسائي في «التفسير» (698) ، وأخرجه ابن ماجة في السنن (78).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2648) ـ كتاب القدر ، وأخرجه الطبري (37478).

وحرامه ، وطاعته ومعصيته). وقال الفراء: (من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، يقول: من أراد اللهَ فاللهُ على الطريق ، من أراده اهتدى إليه). والمقصود: على الله بيان الحلال والحرام ، ومن سلك طريق الهدى وصل إلى الرحمان ، كما قال جلت عظمته: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: 9].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾. أي: لنا كل ما في الآخرة وكلّ ما في الدنيا ، نتصرف به كيف نشاء. فالجميع ملك له سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾. أي: تتوقد وتتوهج. قال مجاهد: (توهَّج). قال القرطبي: (﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي حذرتكم وخوّفتكم. ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي تَلَهَّب وتتوقد. وأصله تتلظى).

وفي مسند الإمام أحمد على شرط مسلم ، عن سماك بن حرب قال: [سمعت النعمان بن بشير يخطبُ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يخطبُ يقول: «أَنْذَرْتُكم النار ، أَنْذَرتُكم النار ، أَنْذَرتُكم النار» حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسَمِعَه من مقامي هذا ، قال: حتى وقعت خَميصة كانت على عاتقه عند رِجليه][1].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾. قال ابن كثير: (أي: لا يدخُلها دخولاً تُحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى). والمقصود: هو الكافر الشقي الذي يجد صَلاها ، وهو حرّها ولهيبُها ، ويخلد فيها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. أي: كذب بالحق بقلبه ، وأعرض عن العمل بجوارحه. وقال النسفي: (إلاالكافرُ الذي كذب الرسل وأعرض عن الإيمان).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كُلُّ أمتي يدخُل الجنة يوم القيامة إلا مَنْ أبى. قالوا: ومَنْ يأبى يا رسول الله؟! قال: من أطاعني دخَل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى][2].

وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾. قال ابن جرير: (يقول: وسَيُوَقَّى صِلِيّ النار التي تلظّى التقيّ).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾. يتزكى: أي يتطهر بهذا الإنفاق من الذنوب.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 272) ، وإسناده على شرط مسلم.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (7280) ، وأحمد في المسند (2/ 361).

قال القاسمي: (أي ينفق ماله في سبيل الخير، يتزكى عن رجس البخل ودانس الإمساك).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾. أي: إنه لا يتصدّق بماله ليجازي بصدقته نعمةً لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. قال قتادة: (يقول: ليس به مثابة الناس ولا مجازاتهم، إنما عطيته لله).

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾. أي: وتالله لسوف يرضى هذا المؤتي ماله في حقوق الله عز وجل يتزكىٰ بذلك، إذا لقي ربه تبارك وتعالى، مما يلقى من رفيع الكرامة وعظيم الجزاء وروعة الاستقبال.

قلت: والجمهور على أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وهذا حقٌّ تدل عليه الآثار والنصوص العطرة، وإن كانت الآيات بعمومها تشمل كل مماثل بالبذل والصدق والجهاد.

لقد كان أبو بكر بحقٍ فارس البذل في سبيل الله لاستنقاذ المؤمنين الأوائل من التعذيب والاضطهاد، فلقد اشترى بلالاً فأعتقه كما يروي البخاري. وروى ابن أبي شيبة عن قيس بن أبي حازم قال: (اشترى أبو بكر بلالاً بخمس أواق وهو مدفون بالحجارة. قالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعنا، فقال لو أبيتم إلا مئة أوقية لأخذته) وهو مرسل صحيح(1).

ويذكر إمام أهل المغازي عروة بن الزبير فيقول: (أعتق أبو بكر رضي الله عنه ممّن يعذَّبُ في الله سبعة: عامرُ بن فُهيرة، وبلال، ونُذيرة، وأم عُبيس، والنَّهدية، وأختها، وجارية بني عمرو بن مؤمل)(2).

ثم ذكر عروة: (أنّ أبا بكر مَرَّ بالنّهدية ومولاتها تعذبها تقول: والله لا أُعْتِقُكِ حتى تعتقك حياتُك. فقال أبو بكر: فبكم؟ قالت: بكذا وكذا، فقال: قد أخذتها وأعتقتها)(3).

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (14/ 312)، بإسناد صحيح.

(2) انظر مصنف ابن أبي شيبة (12/ 10) بسند مرسل صحيح. فهو صحيح الإسناد لعروة، والذي كان يأخذ غالباً هذه الأخبار من خالته عائشة، فمراسيله في السيرة قوية.

(3) أورده ابن إسحاق في «السير والمغازي» (191) من مرسل عروة. وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (بحث 13) (1/ 220).

وقد أخرج الحاكم في المستدرك بسند حسن: [أنّ أبا قحافة ـ عثمان بن عامر ـ قال لابنه أبي بكر: يا بني! أراك تعتق رقاباً ضعافاً. فلو أعتقت قوماً جلداً يمنعونك؟ فقال: إني أريد ما أريد (أي أريد وجه الله لا المنعة) فنزلت الآية ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾][1]. والمقصود أبو بكر رضي الله عنه.

فكان ـ رضي الله عنه ـ ممن سارع لامتثال قوله عز وجل: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ [المزمل: 20].

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد وسنن النسائي والترمذي عن أبي هريرة قال: [قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دُعِيَ من أبواب الجنة، وللجنة أبوابٌ، فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الرَّيان». فقال أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ: يا رسول الله، ما عَلى أحد من ضَرورةٍ دُعِيَ، من أيها دُعِيَ، فهل يُدعَى منها كلِّها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»][2].

وفي صحيح البخاري من حديث أبي الدرداء، قال النبي ﷺ: [إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صَدَق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ مرتين، فما أُوذِيَ بعدها][3].

تم تفسير سورة الليل

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

عصر يوم الأربعاء 28 ـ ذي القعدة ـ 1426 هـ

الموافق 28 / كانون الأول / 2006 م

---

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم في «المستدرك» (2/ 525 ـ 526) بإسناد حسن.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1897)، والنسائي (4/ 168 ـ 169)، وأخرجه الترمذي (3674)، وابن حبان (308)، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (1451) ـ كتاب فضائل الصحابة.

دروس ونتــائج وأحكـــام

1 ـ السنة عدم الإطالة في صلاة العشاء ، فإذا أممت الناس فاقرأ بـ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ .

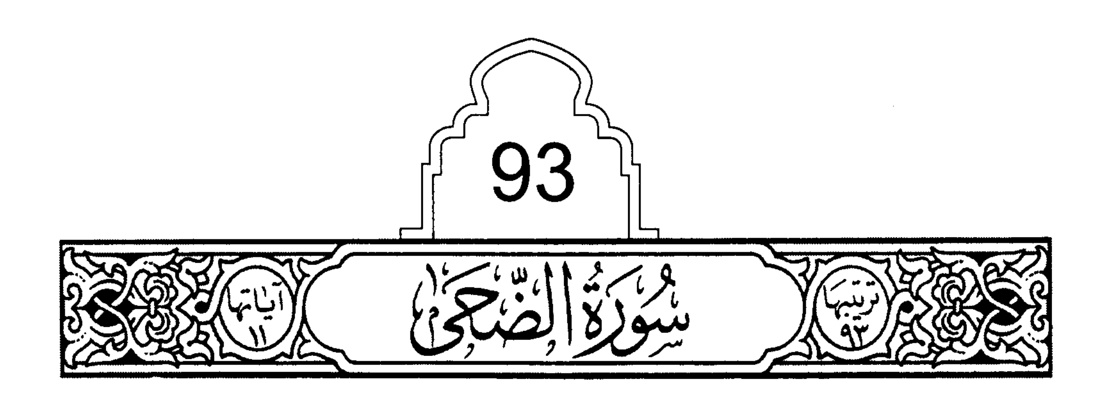
2 ـ السعي : العمل ، فَسَاعٍ في فكاك نفسه ، وساعٍ في عطبها .

3 ـ «شتىٰ» : واحده شتيت ، وقيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه .

4 ـ أهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاء . فكل عامل مُيَسَّر لعمله .

5 ـ يدعى المؤمنون للجنة من أبواب مختلفة . فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة ، ومَنْ كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الرَّيان .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (11).

أخرج النسائي في «التفسير والسنن» بإسناد صحيح عن جابر قال: [قام معاذٌ فَصَلّى العشاء الآخرةَ فطَوَّلَ ، فقال النبي ﷺ: أفتَّانٌ يا معاذ؟ أفتَّانٌ يا معاذُ؟! أَيْنَ كُنْتَ عن ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾][1] .

موضوع السورة

القَسَمُ بالليل والنهار ، أن الله حافظ حبيبه سيد الأخيار

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قَسَمُ الله تعالى بالليل والنهار ، أنه ما وَدَّعَ حبيبه ورسوله سيد الأخيار.

2 ـ تأكيد الله لنبيّه ﷺ أن الجنة خير له من هذه الدنيا ، وأنه سَيُمَكِّنُه ويعطيه من فضله حتى يرضى.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (672) ، وفي «السنن» (831) ، (984) ، وانظر صحيح سنن النسائي (953) ، وأصل الحديث في الصحيحين.

3 ـ امتنان الله تعالى على نبيه الكريم ، أن آواه وهو يتيم ، وأغناه وهداه إلى الصراط المستقيم .

4 ـ وصية الله لنبيه الرحمة بالأيتام والمساكين ، والتحدث بنعمة الله العظيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 11 . **قوله تعالى** : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : يُقْسِمُ الله تعالى بالليل والنهار ، أنه ما وَدَّعَ حبيبه ورسوله سيد الأخيار ، وأن الجنة خير له من هذه الدنيا ، وأنه سَيُمَكِّنُه ويؤتيه من فضله حتى يرضى ، فلقد آواه في يتمه وهداه وأغنى ، ليكون لليتيم كالأب الرحيم ، وليكون رؤوفاً بالمساكين ، وليحدث بنعمة ربه العظيم .

أخرج الحاكم والبيهقي والطبراني بسند صحيح ـ واللفظ للحاكم ـ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [سَأَلْتُ رَبِّي مسألةً وَوَدِدْتُ أنّي لم أسأله ، قُلْتُ : يا ربِّ! كانت قبلي رسلٌ ، منهم من سَخَّرْتَ له الرياحَ ، ومنهم من كان يُحيي الموتى ، وكلّمتَ موسى . قال : أَلَمْ أَجِدْك يتيماً فآويتُكَ؟ ألم أَجِدْكَ ضالاً فهديتُكَ؟ ألم أجِدكَ عائلاً فأغنَيْتُكَ؟ ألم أشرحْ لك صَدْرَكَ ، وَوَضَعْتُ عنكَ وِزْرَكَ؟ قال : فقلت : بلى يا رب! فوددتُ أنْ لم أسألْه][1] .

فقوله تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ . قَسَمٌ من الله بالنهار . والضُّحا اسم لوقت ارتفاع الشمس . قال قتادة : (﴿ وَالضُّحَىٰ﴾ ساعة من ساعات النهار) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (2/ 526) ، والبيهقي في «دلائل النبوة» (ج 2 ـ مخطوط) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (3/ 155) ، وانظر السلسلة الصحيحة (2538) ، وإسناده صحيح .

وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾. قَسَمٌ من الله بالليل إذا غطّى كل شيء. قال الأصمعي: (سجو الليل تغطيته النهار، مثل ما يُسَجَّى الرجل بالثوب). والعرب تقول: سجا الشيء أي سكن ودام. قلت: وكأن المقصود إقسامٌ من الله تعالى بالنهار إذا أقبل، وبالليل إذا سيطر.

وعن ابن عباس: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ يقول: والليل إذا أقبل). وقال الحسن: (إذا لَبِسَ الناس، إذا جاء). وقال مجاهد: (إذا استوى). وقال قتادة: (سكَن بالخلق). وقال الضحاك: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ يعني: استقراره وسكونه). وقال ابن زيد: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قال: إذا سكن، قال: ذلك سجْوه، كما يكون سكون البحر سجوه).

وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾. هو جواب القسم. أي: ما قطعك ربك ـ يا محمد ـ قطع المودِّع، ولم يقطع عنك الوحي ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضك. والقِلَى في لغة العرب البُغْض، تقول: قَلاهُ يَقْليه قِلىً وقَلاءً، بالفتح والمدّ. وعن ابن عباس: (﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ يقول: ما تركك ربك، وما أبغضك). وقال ابن زيد: (ما قلاك ربك وما أبغضك. قال: والقالي: المبغض).

أخرج البخاري ومسلم والنسائي والترمذي عن جُنْدب بن سُفيانَ قال: [اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقُمْ لَيْلَتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانُكَ قَدْ تركَك، لَمْ أرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾][1].

وأخرج الإمام مسلم في الصحيح عن الأسود بن قَيْسٍ أنه سَمِعَ جُنْدُباً يقول: [أَبْطَأَ جِبْريلُ على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: قَدْ وُدِّعَ مُحَمَّدٌ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾][2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾. أي: وللجنة خير لك ـ يا محمد ـ من هذه الدنيا، هذا مع ما قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة وجمال الشوكة والتمكين في الأرض، ولكنه كان أزهد الخلق فيها.

أخرج ابن حبان في صحيحه، وأحمد في مسنده، بإسناد صحيح على شرط مسلم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1124)، ومسلم (1797)، والترمذي (3345)، وأخرجه النسائي في «التفسير» (701)، وأحمد في المسند (4/ 312).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1797) ح (114) ـ كتاب الجهاد.

عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: [جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل ، فقال له جبريل: هذا المَلَكُ ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعة ، فلما نزل قال: يا محمد ، أرسلني إليك ربُّك: أمَلِكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد! فقال رسول الله ﷺ: لا ، بل عبداً رسولاً][1].

وفي جامع الترمذي وسنن ابن ماجة ومسند أحمد بسند صحيح عن عَلْقَمةَ ، عن عبد الله ـ وهو ابن مسعود ـ قال: [اضطجع رسول الله ﷺ على حَصِير ، فأثَّرَ في جنبه ، فلما استيقظَ جَعَلت أمسح جَنْبَهُ وقلتُ: يا رسولَ الله! ألا آذَنْتَنا حتى نبسُط لك على الحصيرِ شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «مالي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثلُ الدنيا كراكبٍ ظَلَّ تحت شجرة ثم راحَ وتركَها»][2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾. أي: ولسوف يُمَكِّنُكَ ربك ـ يا محمد ـ ويعطيك من فواضل نعمه حتى ترضى ، فيشمل ذلك: الفتح في الدين ، والثواب والحوض والشفاعة لأمته في الآخرة.

أخرج الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: [عُرِضَ على رسول الله ﷺ ما هو مَفتُوح على أُمَّته من بعده كنزاً كنزاً ، فَسُرَّ بذلك ، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ فأعطاه في الجنة أَلْفَ أَلْفَ قَصْرٍ ، في كل قَصْرٍ ما ينبغي له من الأزواج والخُدَّام][3].

وفي رواية عند الطبراني في «الأوسط» ـ قال رسول الله ﷺ ـ: [عرض عليَّ ما هو مفتوح لأمتي من بعدي فسرّني ، فأنزل الله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾. امتنان من الله سبحانه على نبيّه ﷺ أن رعاه منذ نعومة أظفاره. قال القرطبي: (قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾: لا أب لك قد مات أبوك ، ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: جعل لك مأوى تأوي إليه عند عمك أبي طالب ، فكفلك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في صحيحه (2137) ، وأحمد في المسند (2/ 231) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1002).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2378) ، وابن ماجة (4109) ، وأحمد (1/ 441).

(3) أخرجه الحاكم (2/ 526) ، والطبري (37513) ، والطبراني (10650) ، والواحدي في الأسباب (861). وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الضحى.

وقيل لجعفر بن محمد الصادق: (لم أوتِمَ النبي ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق).

وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾. أي: غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك الله وأرشدك لذلك. والضلال هنا بمعنى الغفلة، كما قال جل ذكره في سورة طه: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾، وكما قال لنبيّه في سورة يوسف: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.

وقيل: بل المراد وجدك ضالاً لم تكن تدري الشرائع ولا القرآن، فهداك الله إلى القرآن وإلى شرائع الإسلام، كما قال سبحانه في سورة الشورى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ . . . ﴾. وقيل: بل المراد تنشئتك في قوم ضلال فهداهم بك سبحانه.

وعن قتادة: (﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله سبحانه وتعالى).

وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾. أي: وجدك فقيراً ذا عيال لا مال لك، فأغناك بما أعطاك من الرزق. والعرب تقول: عال الرجل يعِيل عَيلة: إذا افتقر. قال النسفي: (﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ فأغناك بمال خديجة، أو بمال أفاء عليك من الغنائم).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾. قال قتادة: (كُنْ لليتيم كالأب الرحيم). قال ابن كثير: (أي: كما كنتَ يتيماً فآواك الله فلا تَقْهَر اليتيمَ، أي: لا تُذِلَّهُ وتَنْهَره وتُهنه، ولكن أَحْسِنْ إليه، وتَلَطَّفْ به).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾. قال ابن إسحاق: (أي: فلا تكن جَبّاراً، ولا مُتكبِّراً، ولا فحّاشاً، ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله). وقال قتادة: (يعني ردّ المِسكين برحمةٍ ولين). وعن السدي: (المراد طالب العلم إذا جاءه فلا تنهره). والمقصود: لا تنهر السائل إذا سألك، فكما كنت ضالاً فهداك الله، فارفق بطالب العلم المسترشد. وكما كنت فقيراً فأغناك الله، فأطعم السائل أو ردّه ردّاً ليناً.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾. أمْرٌ من الله لنبيّه بالتحدث بنعمة الله عليه، وهو كذلك سُنّة في أمته.

فعن مجاهد: (﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال: بالنبوة). أي: حدّث بالنبوة التي آتاك

الله وهي أجل النعم. وفي رواية عن مجاهد أيضاً: (﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ قال بالقرآن). والصحيح أنها تعم كل نعم الله عليه.

وروى ابن جرير بِسنده عن أبي نضرة، قال: (كان المسلمون يرون أَنَّ مِنْ شكرِ النعم أن يحدث بها).

قلت: وهذا معنى مبسوط في روائع من السنة العطرة. ومن ذلك:

الحديث الأول: أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وكذلك أحمد في المسند، والبزار والطبراني بسند حسن عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: [مَنْ لمْ يشكُر القليلَ لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناسَ لم يشكر الله. والتحدُّث بنعمةِ الله شكرٌ، وتركُها كفرٌ. والجماعةُ رحمةٌ، والفرقةُ عذابٌ][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [لا يشكر الله من لا يشكر الناس][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند حسن عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [من أُعْطِي عَطاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ به، فإن لم يجد فَلْيُثْنِ به، فمن أثنى به فقد شَكَرَهُ، ومن كتَمَهُ فقد كفَرَه][3].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود وأبو نعيم بسند صحيح عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [من أبلي بلاء فذكره، فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره][4].

الحديث الخامس: أخرج أبو يعلى بسند حسن من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [إنّ الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده][5].

---

(1) حديث حسن. أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (4/ 375)، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 278)، والبزار (1637)، وقال الهيثمي في «المجمع» (5/ 217 ـ 218): رواه البزار والطبراني وعبد الله بن أحمد، ورجالهم ثقات. وقد مضى.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4811)، والترمذي (1955)، والبخاري في «الأدب المفرد» (218)، والطيالسي (2491)، وأحمد (2/ 58)، وابن حبان (3407).

(3) حديث حسن. أخرجه أبو داود (4813)، وبنحوه الترمذي (2034). وله شواهد.

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4814)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (1/ 259)، وأخرجه ابن عساكر (16/ 302/ 1)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (618).

(5) حديث حسن. أخرجه أبو يعلى (1055)، ولصدره شاهد في صحيح مسلم (91)، من حديث ابن مسعود. وكذلك عند أبي داود (4091)، والترمذي (1999).

الحديث السادس: أخرج النسائي وأحمد بسند صحيح عن مالك بن نضلة الجُشَمِيّ قال: [كنت عند رسول الله ﷺ جالساً، فرآني رَثَّ الثياب، فقال: «ألك مال»؟ قلت: نعم، يا رسول الله، من كل المال. قال: إذا أتاك الله مالاً فلْيُرَ أثره عليك][1].

تم تفسير سورة الضحى
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
عِشاء يوم الخميس 29 ـ ذي القعدة ـ 1426 هـ
الموافق 29/ كانون الأول/ 2005 م

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ سجو الليل تغطيته النهار، والقِلى: البُغْض.

2 ـ ما الدنيا في الآخرة إلا كراكب ظلَّ تحت شجرة ثم راحَ وتَرَكها.

3 ـ إذا أردت تليين قلبك فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين.

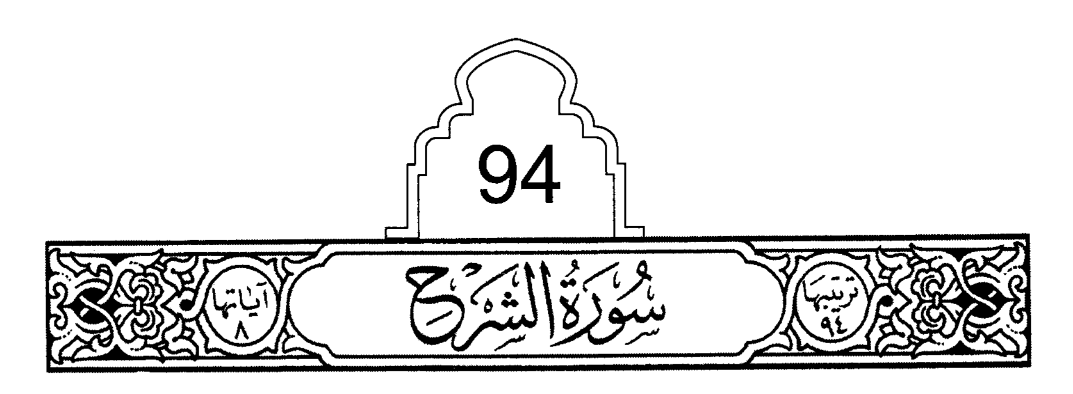
4 ـ مَنْ لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركُها كفر.

5 ـ إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

❑ ❑ ❑

---

(1) أخرجه النسائي (8/ 196)، وأحمد (3/ 373)، وهو حديث صحيح. انظر جامع الأصول (10/ 8288) ـ من حديث مالك بن نضلة، وله شواهد. وانظر ما قبله.



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (8).

موضوع السورة

انشِراحُ صدر النبي عليه الصلاة والسلام
وإِتْباعُ الله العسر باليسر والوصية بالتفرغ للعبادة والدعاء والقيام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ تذكيرُ الله تعالى نبيّه ﷺ ببعض نعمه عليه كشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر.

2 ـ تقرير الله تعالى سنة من سننه العظيمة ، وهي : إنَّ مع العسر يسراً.

3 ـ الوصية بالتفرغ للعبادة والقيام والدعاء ، بعد الفراغ من الجهاد والبلاغ والبلاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ 8. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

في هذه الآيات: تذكير الله تعالى نبيّه ببعض آلائه عليه، وإحسانه إليه، ليحضّه ذلك على المزيد من شكره، ويستوجب لديه الإكثار من حمده. وتقريره تعالى أن مع العسر يسراً، وأن بعد الضيق فرجاً. فإذا حصل الفراغ من الجهاد والبلاغ والبلاء، فالخير كل الخير في التفرغ للعبادة والقيام والدعاء.

فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. امتنان من الله تعالى على نبيه ﷺ. قال ابن جرير: (﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ يا محمد، للهدى والإيمان بالله ومعرفة الحق ﴿صَدْرَكَ﴾ فنلين لك قلبك، ونجعله وعاءً للحكمة). وقال ابن كثير: (يعني أما شرحنا لك صدرك؟ أي نوّرناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، وكما شرحَ الله صدره كذلك جعَلَ شرْعَه فسيحاً واسعاً سمْحاً سهلاً لا حَرَجَ فيه ولا إِصْرَ ولا ضيق).

قلت: والشَّرْحُ في لغة العرب الكَشْف، تقول: شرحَ الغامضَ أي فسَّره، وشرحُ الصدر فتحه وتليينه، ومنه قول ابن عباس: (﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾: ألم نُلين لك قلبك). والمراد: قد شرحنا صدرك يا محمد لقبول النبوة، وملأناه حكماً وعلماً، لتقوم بأعباء الوحي وبلاغ النبوة.

وقد أخرج الترمذي ـ في كتاب التفسير عند هذه الآية ـ بإسناد صحيح عن مالك بن صعصعة: [أنّ نبيَّ الله ﷺ قال: «بَيْنَما أنا عند البَيْتِ بَيْنَ النائم واليَقْظانِ، إذ سَمِعْتُ قائلاً يقولُ: أَحَدُ بَيْنَ الثلاثَةِ، فأُتيتُ بِطَسْتٍ من ذهب، فيها ماء زَمْزَمَ، فشُرِحَ صَدْري إلى كذا كذا». قال قتادة: قلت لأنس ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، قال: «فاسْتُخْرِجَ

قلبي فَغُسِل قلبي بماء زَمْزم ، ثم أعيدَ مكانَهُ ، ثم حُشِيَ إيماناً وحِكْمةً»][1].

ولا شك أن حدث شقّ صدره في طفولته ﷺ ثم ليلة الإسراء كما ذُكر في السيرة العطرة داخل في مفهوم هذه الآية ، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾. قال مجاهد: (ذَنْبَك). والوِزْر: الذنب. والمقصود: حططنا عنك ما سلف منك من زلل في الجاهلية. كما قال تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: 2]. قال النسفي: (﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ وخففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها. وقيل هو زلة لا تعرف بعينها وهي ترك الأفضل مع إتيان الفاضل ، والأنبياء يعاتبون بمثلها ، ووضعه عنه أن غفر له. والوزر: الحمل الثقيل).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾. أي الذي أثقل ظهرك. والإنقاض: الصوت. والمقصود: لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض ظهره من ثقل حمله.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾. أي: في الدنيا والآخرة. قال مجاهد: (لا أُذكر إلا ذُكِرْتَ معي: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله). وقال قتادة: (رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ، ولا متشهد ، ولا صاحب صلاة ، إلا ينادي بها ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله).

ورُوي عن الضحاك عن ابن عباس ، قال: (يقول له لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معي في الأذان ، والإقامة والتشهد ، ويوم الجمعة على المنابر ، ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم عرفة ، وعند الجِمار ، وعلى الصفا والمروة ، وفي خطبة النكاح ، وفي مشارق الأرض ومغاربها).

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾. إخبار من الله تعالى أن اليسر يعقب العسر ، ثم أكّد ذلك أروع التأكيد. قال مجاهد: (﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾: يتبع اليسرُ العسرَ). وفي الأثر عن عبد الله بن مسعود قال: (لو دخل العسر في حُجْر ، لجاء اليسر حتى يدخل عليه ، لأن الله يقول: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾). وفي رواية: (والذي نفسي بيده ، لو كان العسر في حُجْر ، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، ولن يغلب عسر يسرين).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2666) ـ كتاب التفسير ـ سورة ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾. والحديث أصله في الصحيحين ، وفيه قصة طويلة ـ ليلة الإسراء ـ.

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم ، وما يُتَخَوّف منهم ، فكتب إليه عمر رضي الله عنهما : (أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من مَنزِل شدّة ، يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وإن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : 200]) .

والمقصود بالآيات : تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من أذى قومه وتكذيبهم ، فإن مع الشدة التي أنت فيها ـ يا محمد ـ من جهاد هؤلاء المشركين وما في طريق الدعوة من عقبات وآلام ، رجاء وفرجاً ، ونصراً قريباً ، وظفراً مؤكداً . وهو خطاب يمضي عبر الزمان يحمل الأمن والطمأنينة وبشائر النصر لرجال هذا الدين وعلمائه الذين يقارعون مناهج الكفر والطغيان في الأرض حتى يُعْبدَ الله تعالى وحده ، ويُحكم بشرعه ويعلو منهاجه فوق كل مناهج الدنيا .

أخرج البزار في «مسنده» ، وابن عدي في «الكامل» ، بإسناد حسن في الشواهد ، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [إنَّ المَعُونَةَ تأتي مِنَ الله على قَدْرِ المُؤْنة ، وإن الصبرَ يأتي من الله على قدْرِ البلاء][1] . والمؤنة والمؤونة : القوت .

وأخرج الخطيب في «التاريخ» ، والديلمي بإسناد جيد ، عن أنس مرفوعاً : [النَّصْرُ مع الصَّبرِ ، والفرجُ مع الكَرْبِ ، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً ، وإنَّ مع العُسْر يُسْراً][2] .

ومما يُروى عن الشافعي أنه قال :

صبراً جميلاً ما أقْرَبَ الفَرجا   من راقَبَ الله في الأمور نجَا
مَن صدّق الله لم ينلْه أذى   ومَنْ رَجَاه يكونُ حَيْثُ رجَا

وقال ابن دُرَيد : أنشدني أبو حاتم السِّجستاني :

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ   وضاقَ لما به الصدرُ الرحيبُ
وأوطأتِ المكاره واطمأنّت   وَأَرستْ في أماكِنها الخُطوبُ

(1) حديث حسن . أخرجه البزار في المسند (ص 156 ـ زوائد ابن حجر) ، وابن عدي في «الكامل» (1/ 206) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1664) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287) ، والديلمي (4/ 111 ـ 112) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2382) .

ولـم تـرَ لانكشـاف الضـرِّ وجهـاً ... ولا أغنـى بحيلَتِـه الأريـبُ
أتـاك علـى قُنـوطٍ منـك غَـوثٌ ... يَمُـنُّ بـه اللطيـف المُسْتجيـبُ
وكـل الحـادثـات إذا تنـاهـتْ ... فمـوصـول بهـا الفـرجُ القـريـبُ

وقال آخر:

ولـرُبَّ ضـائقـة يضيـق بهـا الفتـى ... ذَرْعـاً، وعنـد الله منهـا المَخْـرجُ
ضـاقـت فلمـا استحكمـت حلقـاتهـا ... فُـرِجـت، وكـان يظنهـا لا تُفْـرَجُ

وقال الشيخ خير الدين وانلي رحمه الله:

صَبَرَ الصحابةُ في الحروب يقودهم ... خيـرُ الـرجـالِ وسيِّـدُ الشُّجعـان
حتـى تقـوَّضَـتِ الشـرور وزُلْـزلـتْ ... أركـانُ شـركٍ عـمَّ كـالطـوفـانِ
وتحـرّر البيـت الحـرامُ وحُطِّمَـتْ ... أصنـامُـهُ فهـوتْ علـى الأذقـان
ورقـى بـلالٌ بـالأذان مكبِّـراً ... الله أكبـرُ واحـدٌ لا ثـانِ
نَصْـرٌ مـن الله العـزيـز لجنـدِه ... والخِـزيُ للطـاغـوتِ والشيطـان
والله ينصـرُ نـاصـراً لكتـابـهِ ... مُتَـدَرِّعـاً بـالصبـر والإيمـان
لا يستحِـقُّ النصـرَ إلا صـابـرٌ ... ويبـوءُ بـالخُسْـرانِ كُـلُّ جَبـانِ
اليُسْـرُ يـأتـي بعـدَ كـلّ عَسيـرة ... والنصـرُ بعـدَ النصـرِ فـي المَيْـدانِ

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾. أي: فإذا فرغت من جهاد عدوك، أو من بلاغ دعوتك، أو من سفرك وما شَغَلَكَ، فاجتهد بدعائك وعبادتك، وتفرّغ إلى ربك. والخطاب للنبي ﷺ، وهو إلى جميع أمته من بعده. فعن ابن عباس: (﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ يقول: في الدعاء). وقال أيضاً: (يقول: فإذا فرغت مما فرض عليك من الصلاة فسل الله، وارغب إليه، وانصب له). وقال الحسن: (أمره إذا فرغ من غزوه، أن يجتهد في الدعاء والعبادة). وقال ابن زيد عن أبيه: (فإذا فرغت من الجهاد، جهاد العرب، وانقطع جهادهم، فانصب لعبادة الله ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾).

وقال مجاهد: (إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب، قال: فصلِّ). وقال: (إذا فرغت من أمر الدنيا، وقمت إلى الصلاة، فاجعل رغبتك ونيتك له).

قلت: ونَصَبَ الشيء ـ في لغة العرب ـ أقامه، ونَصِبَ: تَعِب. والمقصود: إذا فرغت من الموانع والعوائق فارجع لإقامة ما شُغلت عنه واجتهد في الذكر وطلب العلم

والإعداد وألوان العبادة التي تحتاجها لنفير آخر ، وموقف قادم ، ومشهد من مشاهد الملاحم.

أخرج الترمذي وابن ماجة وابن حبان بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله يقول: يا ابن آدم تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً ، وأسُدَّ فقرك ، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ، ولم أسُدَّ فقرك](1).

وله شاهد أخرجه الحاكم بسند صحيح عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول ربكم تبارك وتعالى: يا ابن آدم! تفرّغ لعبادتي أملأ قلبك غنى ، وأملأ يديك رزقاً. يا ابن آدم! لا تباعدْ مني فأملأ قلبك فقراً ، وأملأ يديك شغلاً](2).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾. قال مجاهد: (اجعل نيتك ورغبتك إلى الله). والمقصود: فإذا فرغت من الموانع فانصب إلى الصلاة والذكر والدعاء ، وأخلص رغبتك ونيتك إلى ربك عز وجل ، فتضرّع إليه راهباً من النار ، راغباً في الجنة ، إنه تعالى قريب من أوليائه الصالحين ، وهو الكريم المنعم البر الرحيم.

تم تفسير سورة الشرح
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
صبيحة يوم الجمعة 30 ـ ذي القعدة ـ 1426 هـ
الموافق 30 / كانون الأول / 2005 م

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3/ 308) ، وابن ماجة (2/ 525) ، وابن حبان (2477) ، ورواه أحمد (2/ 358). وانظر: السلسلة الصحيحة (1359).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 326) ، وقال: صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي. وهو كما قالا. ويصلح شاهداً للحديث الذي قبله.

دروس ونتـــائج وأحكـــام

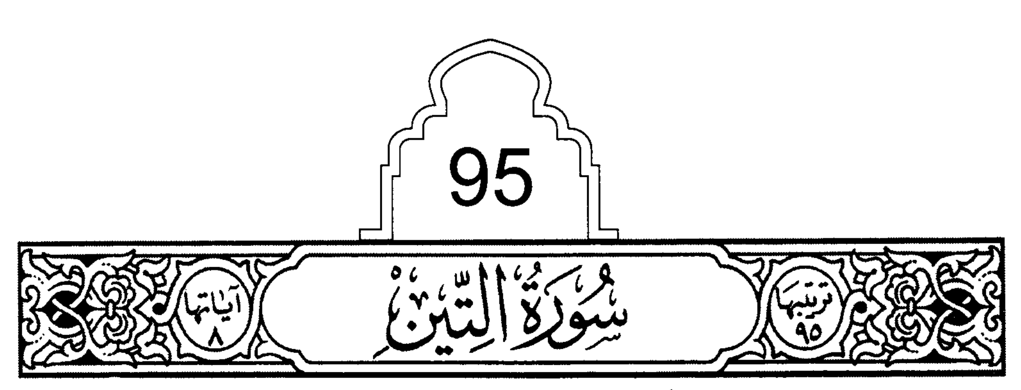
1 ـ الشّرْحُ لغة الكشف ، وشرح الصدر فتحه وتليينه .

2 ـ النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً.

3 ـ من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة .

4 ـ يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً ، وأسُدَّ فقرك ، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أَسُدَّ فقرك .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (8).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد ذكر هذه السورة في السنة الصحيحة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن البراء: [أنّ النبي ﷺ كان في سَفَرٍ ، فقرأ في العشاء في إحدى الركعتين بـ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج الشيخان وأصحاب السنن عن عَدِيٍّ بن ثابت ، أنه سمع البراء رضي الله عنه قال: [سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ في العشاء ، وما سمعت أحداً أحْسَن صوتاً منه أو قِراءةً][2].

الحديث الثالث: أخرج النسائي في السنن بإسناد صحيح عن البراء بن عازب قال: [صليت مع رسول الله ﷺ العتمة ، فقرأ فيها بـ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾]. وفي رواية: [كان رسول الله ﷺ في سفر ، فقرأ في العشاء في الركعة الأولى بـ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾][3].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (767) ـ كتاب الأذان ، وكذلك (4952) ـ كتاب التفسير.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (769) ، ومسلم (464) ح (175) ، (176) ، وأخرجه أبو داود (1221) ، والترمذي (310) ، والنسائي في «التفسير» (702) ، وفي «السنن» (1000) ، وأخرجه ابن ماجة في السنن (834) ، (835).

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي ـ حديث رقم ـ (957). باب القراءة في الركعة الأولى ، من صلاة العشاء الآخرة.

موضوع السورة

القسم بالتين والزيتون والطور ومكة أَنَّ خَلْقَ الإنسان في أحسن تقويم
وأن النجاة بالإيمان والعمل الصالح وإلا كان المَرَدُّ إلى أسفل سافلين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قَسَمُ الله تعالى بالتين والزيتون والطور المبارك والبلد الحرام أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم.

2 ـ مَرَدُّ الإنسان إلى أسفل سافلين، إن لم يكن على منهاج المرسلين.

3 ـ التعجب من التكذيب بالدين، والله يحكم وهو أحكم الحاكمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 8. **قوله تعالى**: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: يقسم الله تعالى بالتين والزيتون والجبل المبارك والبلد الحرام أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأن مَرَدَّهُ إلى أسفل سافلين، إنْ لم يكن من المؤمنين على منهاج المرسلين، وهذا هو حكم الله أحكم الحاكمين.

فقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾. قَسَمٌ من الله بالتين الذي يأكله الناس، والزيتون الذي يعصرون منه الزيت. قال البخاري: (وقال مجاهد: هو التين والزيتون الذي يأكلُ الناس). وقال مجاهد أيضاً: (هو تينكم هذا). وقال عكرمة: (هو هذا الزيتون الذي تعصرون).

وقوله تعالى: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾. هو طور سيناء، أقسم الله به. قال مجاهد: (﴿ وَطُورِ﴾: الجبل و﴿ سِينِينَ﴾: المبارك). قال كعب الأحبار: (هو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى). وقال عكرمة: (والسينين: الحسن، كما ينبت في السهل، كذلك ينبت في الجبل). وقال قتادة: (جبل بالشام، مبارك حسن).

وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾. يعني مكة، وسماه أميناً لأنه آمِن. والمقصود: يقسم الله تعالى بهذا البلد الحرام الآمن من أعدائه أن يحاربوا أهله، أو يغزوهم.

قلت: وقد جاء في التوراة: أنّ الله تجلّى على الناس في أماكن ثلاثة، هِيَ: سيْنَاء، حيث أُعطي موسى عليه السلامُ التوراةَ. ساعير «جبال في فلسطين»، حيث أُعطي الإنجيل لعيسى عليه السلام. مكّة «فاران»: حيث نزل القرآن على محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

تقول التوراة التي بين يدي اليهود إلى يومنا هذا: «جاء الرَّبُ من سَيناء، وأشرقَ لنا من ساعيرَ، وتلألأ من جبل فاران».

وفاران: هو الاسم القديم لمكة، كما تذكر التوراة نفسها في سِفْر التَّكوين (21: 22).

وقد أشار بعض الباحثين، إلى أن القرآن قد أشار إلى هذه الأماكن الثلاثة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾. التين والزيتون: إشارة إلى منابتهما في فلسطين. طور سينين: سَيْناء. هذا البلد الأمين: مكة.

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. هو جواب القسم.

وفي التفاسير أقوال متقاربة متكاملة في مفهوم هذه الآية:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ قال: في أعدل خلق). وقال إبراهيم: (في أحسن صورة). وقال مجاهد: (أحسن خلق).

2 ـ قال عكرمة: (﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ قال: الشاب القوي الجلد). وعن ابن عباس قال: (شبابه أول ما نشأ).

3 ـ قال ابن عباس ـ في رواية ـ: (خلق كل شيء منكبّاً على وجهه إلا الإنسان).

والمقصود: خلق الله تعالى الإنسان في أكمل هيئة، وأتَمِّ خَلْقٍ، وأحسن صورة،

فقد خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده ، وخلقه عالماً متكلماً مدبراً حكيماً ، جاهزاً لمهمة الاستخلاف في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾. أي: ثم رددناه إلى دركات النار في الآخرة ، مقابل تضييع العمر والشباب في الكفر والآثام ، والمعاصي والطغيان ، إلا من رحمه الرحمان. فعن مجاهد: (﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ قال: إلى النار). وقال الحسن: (جهنم مأواه).

قلت: فإذا كان هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن حال وصورة يُرَدّ شراً من كل دابة ، بعد الحُسن والنضارة ، وفي حال أسوأ من كل حال ، إلى أسفل دركات النار ، لمن لم يطع الله ويتبع الرسل ، كان هذا تأويل الردّ إلى أسفل سافلين.

وروي عن ابن عباس وعكرمة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي إلى أرْذَلِ العمر ، وإلى الهرم ، وهو اختيار ابن جرير ، والمعنى الذي ذكرناه أنسب للسياق ، لاستثناء المؤمنين من ذلك في الآية بعده ، وهو اختيار ابن كثير.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. هو كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

والمقصود: استثناء من الله تعالى للمؤمنين ، فلا يردون أسفل سافلين ، بل إلى جنة الله الواسعة في عليين. وعن مجاهد: (﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: قال: غير محسوب). وقال ابن عباس: (غير منقوص). وقد قدّمنا القول أن المقصود على الأرجح أنه ثواب دائم غير مقطوع ، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾. أي فما يحملك بعد ذلك أيها الإنسان الذي خلقك الله في أحسن تقويم ، وأنه يردك إن عصيته أسفل سافلين ، أن تكذب بالبعث والحساب ، والثواب والعقاب! وعن عكرمة: (﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ قال: الحساب). وقال ابن عباس: (يقول: ما يكذبك بحكم الله).

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾. أي قضاء وعدلاً. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: أليس الله يا محمد بأحكم من حكم في أحكامه ، وفصل قضائه بين عباده؟).

ثم روى عن سعيد بن جبير قال: (كان ابن عباس إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟ قال: سبحانك اللهم ، بلى).

قلت: والحديث المرفوع في ذلك أن يقال: (بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين) ضعيف عند المحدثين فيه مجهول ، فلا يصح عن رسول الله ﷺ.

تم تفسير سورة التين
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
صبيحة يوم السبت 1 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 31 ـ كانون الأول ـ 2005 م

دروس ونتـائج وأحكـام

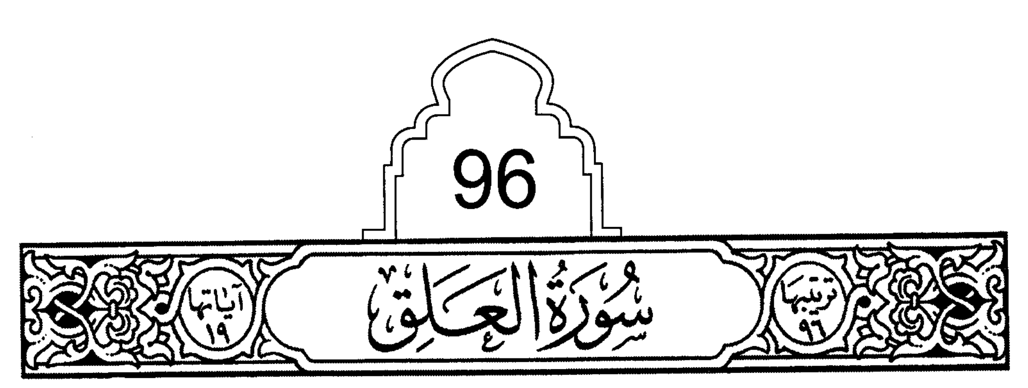
1 ـ قرأ رسول الله ﷺ في إحدى ركعتي العشاء بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾.

2 ـ خلق الله تعالى الإنسان في أكمل هيئة وأَتَمِّ خَلق وأحسن صورة.

3 ـ مرد الإنسان إلى أسفل سافلين ، إن لم يكن على منهاج المرسلين.

4 ـ الله تعالى هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكْمُ ، وهو أحكم الحاكمين.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وأول شيء نزل من القرآن ، وعدد آياتها (19).

أخرج الترمذي والنسائي عن جابر قال: [صلى معاذ بن جبل لأصحابه العشاء ، فطوّل عليهم ، فانصرف رجل منا. فَأُخبِرَ مُعاذٌ عنه ، فقال: إنه منافق. فلما بلغَ ذلك الرجل ، دخل على النبي ﷺ فأخبره بما قال معاذ. فقال النبي ﷺ: أتريد أن تكون فتّاناً يا مُعاذُ ، إذا أممْت الناس فاقرأ بـ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾][1].

موضوع السورة

ضرورة القراءة والكتابة لطلب العلم
والحث على الجهاد في حمل الدين ومقارعة أهل الظلم

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الأمر بالقراءة والحث على الكتابة بالقلم ، لتثبيت الفهم والعلم.

2 ـ الإخبار عن سلوك الإنسان حالة السعة وبسط الرزق والغنى.

3 ـ حث الله تعالى نبيه ﷺ على الثبات على الحق والهدى ، وتحدي الطاغية الذي كذب وتولى.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري ومسلم من حديث جابر كما مضى. وانظر صحيح النسائي (954).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 5. **قوله تعالى:** ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالى رسوله بالقراءة باسم الله الذي خلق، خلق الإنسان من علق، والحث على الكتابة بالقلم، لتثبيت الفهم والعلم.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: [أَوّلُ ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رُؤيا إلا جاءت مثلَ فلقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حِراء فيتحنَّث فيه قبل أن ينزعَ إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزودُ لمثلها، حتى جاءه (وفي رواية: فَجِئَهُ) الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: ما أنا بِقَارِئٍ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بِقَارِئٍ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهدَ ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بِقَارِئٍ، فأخذني فغطني الثالثة فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ الآيات. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُفُ فؤاده (وفي رواية: ترجف بوادره) فدخل على خديجة بنتِ خويلد فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة: مالي؟ وأخبرها الخبر، وقال: لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة: كلاّ أبشر فوالله ما يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتَصِل الرحم وتصدقُ الحديث وتحمل الكلَّ وتَكْسِبُ المعدوم وتَقْرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقةَ بنَ نوفل بنِ أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً قد تَنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتابَ العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية (وفي رواية: الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية) ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره

رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى ، فقال له ورقة: هذا الناموس[1] الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيها جذَعاً[2] ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومُكَ. فقال رسول الله ﷺ: وَمُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي (وفي رواية: أوذي) وإن يدركني يومُكَ أنصُرْك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشبْ ورقة أن توفي وفتر الوحي][3].

فكانت سورة العلق أول شيء نزل من القرآن[4] ، وقد رُوي ذلك عن عائشة رضي الله عنها ، وكذلك عن بعض الصحابة والتابعين.

قال عبيد بن عمير: (أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾).

وقال عطاء بن يسار: (أول سورة نزلت من القرآن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾).

وقد روى ابن جرير في تفسيره بسنده إلى أبي رجاء العطاردي قال: (كنا في المسجد الجامع ، ومقرئنا أبو موسى الأشعري ، كأني أنظر إليه بين بردين أبيضين ، قال أبو رجاء: عنه أخذت هذه السورة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وكانت أول سورة نزلت على محمد).

قال ابن جرير: (يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ محمداً ﷺ يقول: اقرأ يا محمد بذكر ربك[5] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. ثم بين الذي خلق فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني: من الدم ، وقال: من علق ، والمراد به من علقة ، لأنه ذهب إلى الجمع. ثم قال: وقوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ يقول: اقرأ يا محمد وربك الأكرم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ خَلْقَهُ الكتاب والخط).

وقال قتادة: (القلم نعمة من الله عظيمة ، لولا ذلك لم يقم ولم يصلح عيش). وقال ابن زيد: (﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قال: عَلَّمَ الإنسان خطاً بالقلم).

---

(1) الناموس: صاحب السر ، والمراد جبريل.

(2) جذعاً: أي شاباً فتياً.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3) ـ كتاب بدء الوحي. وأخرجه أحمد (6/ 153) ، ورواه مسلم.

(4) انظر التحقيق في ذلك في تفسير سورة المدثر ، وبسط الأدلة في ذلك هناك.

(5) الباء في ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ في محل نصب على الحال. والتقدير: اقرأ يا محمد مفتتحاً باسم ربك. وكأنه قيل: قل باسم الله ثم اقرأ. فهو إشارة إلى ذكر التسمية في ابتداء كل سورة. وقيل: الباء بمعنى على. أي اقرأ على اسم ربك. فالمقروء محذوف وهو القرآن. وقيل: الباء زائدة. والتقدير: اقرأ اسم ربك ، كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: 20].

قلت: والعلم لابد لِحِفْظِهِ من الكتابة ، وقد ربط الله سبحانه في هذه الآيات التي هي أول ما نزل من القرآن بين القراءة والكتابة على أنهما وسيلتا العلم الأولى لا ينفصلان ، فقال جل ذكره: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ . وفي ذلك امتنان منه ـ تعالى ـ على الإنسان أن علّمه الخط بالقلم ، ولم يكن يعلمه ، مع أشياء كثيرة غير ذلك ، مما علمه ولم يكن يعلمه. والدرس النافع المستنبط هنا هو أهمية الكتابة لطالب العلم.

أخرج الحاكم والطبراني عن أنس عن النبي ﷺ قال: [قَيِّدُوا العِلْمَ بالكتاب][1].

وله شاهد عند الخطيب وابن عبد البر بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: [قلتُ: يا رسول الله! أُقَيِّدُ العلمَ؟ قال: نعم. قلت: وما تقييده؟ قال: الكتاب].

ومن ثَمَّ فالقراءة وحدها لا تكفي لتثبيت العلم ، وإنما تعتضد بالكتابة ، فبالقراءة تتشكل ثقافة عامة ، وفرق بين الثقافة وبين العلم ، فإن العلم يقتضي استحضار الأدلة على جزئياته وفروعه ، وهذا لا يكون إلا بالاستعانة بالكتابة والتصنيف والاستفادة من طريقة العلماء.

6 ـ 19. قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩ ﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن حال الإنسان عند حصوله السعة وبسط الرزق والغنى ، فهو يتقلب في الفرح والأشر والبطر والطغيان ، وسرعان ما ينسى المنعم المتفضل المنّان. وحثُّ الله تعالى نبيه ﷺ على الثبات على الحق والهدى ، وتحدي الطاغية الذي كذب وتولى.

فقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ . أي: حقاً ، إن الإنسان ليطغى

(1) حسن لشواهده. أخرجه الحاكم في «المستدرك» (1/ 106) ، والطبراني في «الكبير» (1/ 62/ 2) ، والخطيب في «التقييد» ص (96 ـ 97) ـ كشاهد له ـ وكذلك ابن عبد البر من طرق ، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (2026) ، وصحيح الجامع (4310).

إن رأى نفسه مستغنياً بماله وقوته. قال النسفي: (﴿كَلَّآ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه. قال: ومعنى الرؤية العلم).

قلت: وهذه الآيات نزلت في أبي جهل الذي كان يحاول منع رسول الله ﷺ من الصلاة والدعوة وبلاغ الوحي، ويؤذيه أشد الإيذاء. فجاءت هذه الآيات تحمل له التهديد الشديد والوعيد الأكيد.

ففي صحيح مسلم وسنن النسائي عن أبي هريرة قال: [قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب. قال: فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إنّ بيني وبينه لخندقاً من نار وهَوْلاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لَوْ دنا لاختطفته الملائكة عضواً عضواً، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ـ يعني أبا جهل ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ...﴾][1].

وفي رواية عند ابن جرير من طريق ابن عباس: [فقال: ـ أي أبو جهل ـ: لقد علم أني أكثر هذا الوادي نادياً. فغضب النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ فقال ابن عباس: فو الله لو فعل لأخذته الملائكة من مكانه][2].

وفي رواية عند الترمذي عن ابن عباس قال: [كان النبي ﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره ـ أي أغلظ النبي لأبي جهل القول ونهَره ـ، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (4/ 2154)، وأحمد في المسند (2/ 370).

(2) حديث صحيح. انظر تفسير الطبري (3/ 256). وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 214).

(3) حديث صحيح. انظر سنن الترمذي (5/ 443 ـ 444)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (275).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾. أي: إلى الله المرجع والمصير، وعنده الحساب والثواب والعقاب. ورُجْعىٰ: على وزن فعلى، والرُّجعى والمرجع والرجوع مصادر.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾. قال مجاهد: (أبو جهل ينهى محمداً ﷺ إذا صلى). وقد سبق أن هذه الآيات نزلت في أبي جهل حين توعَّد النبي ﷺ إن رآه يصلي ليطأن على رقبته، فأخزاه الله بالوحي والملائكة.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾. قال قتادة: (محمد كان على الهدى، وأمر بالتقوى). والمقصود: كان محمد ﷺ على طريق مستقيم يهتدي من اتبعه، وكان يأمر بالإخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذي تُتقى به النار.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾. يعني أبا جهل، كذب بما جاء به رسول الله ﷺ من الحق وأعرض عن الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾. أي: ألم يعلم بأن الله مطلع على أحواله وسيجازيه بها، فواعجباً كيف اجترأ على ما اجترأ عليه؟!

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾. كلاّ: ردعٌ لأبي جهل عن معارضته محمداً ﷺ في عبادة ربه وأمره بعبادة الأصنام. والسفع في كلام العرب: القبض على الشيء وجذبه بشدة. والناصية شعر مقدم الرأس. والمقصود: لنأخذن بناصيته فتطوى مع قدميه فيطرح في النار.

قال ابن جرير: (قوله: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ يقول: ليس كما قال إنه يطأ عنق محمد، يقول: لا يقدر على ذلك، ولا يصل إليه. يقول: لئن لم ينته أبو جهل عن محمد ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ يقول: لنأخذن بمقدم رأسه، فلنضمنه ولنذلنه. وقيل: إنما قيل: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ والمعنى: لنسودن وجهه، فاكتفي بذكر الناصية من الوجه كله، إذ كانت الناصية في مقدم الوجه. وقيل: معنى ذلك: لنأخذن بناصيته إلى النار، كما قال: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: 41].

قال القرطبي: (فالآية ـ وإن كانت في أبي جهل ـ فهي عِظةٌ للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة).

وقوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. قال ابن كثير: (يعني: ناصية أبي جهل كاذبةٌ في

مقالها ، خاطئة في فعالها). قلت: وقد أثبت العلم الحديث أن الكذب يُعرف بعلامات وإشارات في الناصية ، وهو من الإعجاز العلمي لهذا القرآن العظيم.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾. قال ابن عباس: (يقول: فليدع ناصره). والمقصود: ليدع قومه وأهل ناديه. والنادي: المجلس الذي يجلس فيه القوم.

وقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. قال مجاهد: (الملائكة). والمقصود: ردٌّ على غرور أبي جهل الذي زعم الاستنصار بعشيرته وأهل ناديه ، فتحدّاه الله بأمْرِ ملائكته الغلاظ الشداد بأخذه وإلقائه في نار السعير التي تخزيه.

وقد مضى في رواية ابن جرير من طريق ابن عباس: [فقال ـ أي أبو جهل ـ: لقد علم أني أكثر هذا الوادي نادياً. فغضب النبي ﷺ ، فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. فقال ابن عباس: فو الله لو فعل لأخذته الملائكة من مكانه].

والزبانية ملائكة العذاب ، واحِدهم زِبْنِيّ كما ذكر الكسائي. وقال الأخفش: (زابن). وقال أبو عبيدة: (زِبْنِية). وقيل: زَبَانِيّ. وقال قتادة: (هم الشُّرَط في كلام العرب). قال القرطبي: (وهو مأخوذ من الزَّبْن وهو الدفع ، ومنه المزابنة[1] في البيع.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾. كلاّ: ردع لأبي جهل. أي: لا تطعه يا محمد فيما دعاكَ إليه من ترك الصلاة ، وصَلِّ لله غير مكترث به ، ولا مبال بنهيه ﴿وَٱقْتَرِب ۩﴾ إليه سبحانه بالطاعة والعبادة. قال النسفي: (﴿وَٱسْجُدْ﴾ ودُمْ على سجودك يريد الصلاة ﴿وَٱقْتَرِب ۩﴾ وتقرب إلى ربك بالسجود ، فإن أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد).

قلت: وهذا المعنى مستنبط من الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء][2].

وقد ثبتت السجدة ـ سجدة التلاوة ـ في آخر هذه السورة: ففي صحيح مسلم عن عطاءِ بنِ ميناءَ ، عن أبي هريرة قال: [سَجَدْنا مع النبي ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾. و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾][3]. ورواه أصحاب السنن.

---

(1) هي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (482) ـ كتاب الصلاة. باب ما يقال في الركوع والسجود.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (578) ح (108 ـ 109) ، وأخرجه أبو داود (1407) ، والنسائي (2/ 162) ، والترمذي (573) ، وابن ماجة (1058).

وفي رواية قال: [سَجَدَ رسول الله ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾].

تم تفسير سورة العلق
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
صبيحة يوم الأحد 1 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 1 ـ كانون الثاني ـ 2006 م

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ سورة العلق هي أول شيء نزل من القرآن.

2 ـ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.

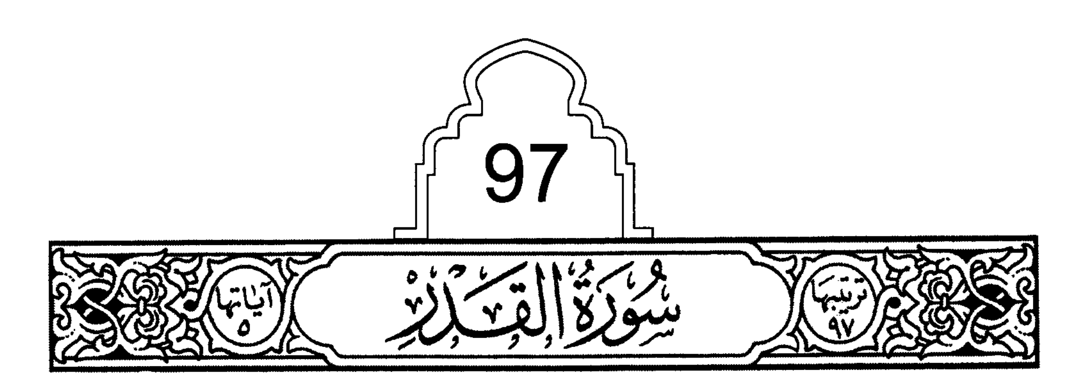
3 ـ القلم نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم ولم يصلح عيش.

4 ـ قيدوا العلم بالكتابة، فإن العلم ينسى دون تقييد بالكتاب.

5 ـ إن الإنسان ليطغى، إذا شعر بالترف والغنى.

6 ـ سجد رسول الله ﷺ في ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (5) .

موضوع السورة

فضائل ليلة القدر

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إخبار الله تعالى عن إنزاله القرآن في ليلة القدر .

2 ـ ليلة القدر ليلة مباركة من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان ، وهي أفضل ليالي العمر .

3 ـ تنزل الملائكة في تلك الليلة بإذن الله من كل أمر .

4 ـ ليلة القدر سلام وخير كلها إلى مطلع الفجر .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 5. **قوله تعالى:** ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن إنزاله القرآن في ليلة القدر، وهي ليلة مباركة من ليالي شهر رمضان أفضل ليالي العمر، تنزل فيها الملائكة بإذن الله من كل أمر، وهي سلام وخير كلها إلى مطلع الفجر.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾. كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: 3]. قال ابن عباس: (أنزل الله القرآن جُملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزَّة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفَصَّلاً بحسب الوقائع في ثلاثٍ وعشرين سنةً على رسول الله ﷺ).

قلت: وليس في المرفوع إلى النبي ﷺ شيء يؤكد التنزيل على مرحلتين، فالله أعلم بحقيقة هذا التنزيل، ويكفينا إثبات أن الله أنزل هذا القرآن في ليلة القدر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾. استفهام يفيد التنبيه. قال النسفي: (ومعنى ليلة القدر ليلة تقدير الأمور وقضائها، والقدر بمعنى التقدير، أو سميت بذلك لشرفها على سائر الليالي).

وقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. تبيان لفضلها وعظمها. قال مجاهد: (ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر، ليس في تلك الشهور ليلة القدر). وقال سفيان، بلغني عن مجاهد: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال: (عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر). وقال عمرو بن قيس الملائي: (عملٌ فيها خيرٌ من عمل ألف شهر).

وهذا المعنى الذي اختاره شيخ المفسرين، الإمام ابن جرير رحمه الله، وتابعه بذلك الحافظ ابن كثير، وتؤيده الأحاديث الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند رجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة قال: [لما حضَرَ رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهرُ رمضان ، شهر مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتُغْلَقُ فيه أبواب الجحيم ، وتُغَلُّ فيه الشياطين ، فيه ليلةٌ خيرٌ من ألفِ شهرٍ ، من حُرِمَ خيرَها فقد حُرِمَ»][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: [دخل رمضان ، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ ، وفيه لَيْلةٌ خيرٌ من ألف شهر ، مَنْ حُرِمَها فَقَدْ حُرِمَ الخَيْرَ كُلَّهُ ، ولا يُحْرَمُ خَيْرَها إلا مَحْروم»][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، أنّ رسول الله ﷺ قال: [مَنْ قامَ ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه][3].

وقوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾.

أي تهبط الملائكة في تلك الليلة من السماوات إلى الأرض ، والروح هو جبريل عليه السلام ، فهو من باب عَطْفِ الخاص على العام ، وإنما يكثر تَنَزُّلُ الملائكة تلك الليلة لكثرة بركتها ، وكثرة التلاوة للقرآن والذكر فيها ، وكل ذلك بأمر ربها.

أخرج الطيالسي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [إن الملائكة تلك الليلة أكثَرُ من عدد الحصىٰ][4].

وعن قتادة: (﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال: يقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها). وقال مجاهد: (﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال: سَلام هي من كل أمر). قال القاسمي: (﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي إنَّ الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده. فيكون الإذن مبتدئاً من الأمر على هذا المعنى. والأمر هاهنا هو الأمر في قوله: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي (4/ 129) ، وأحمد (2/ 230) ، (2/ 425) ، ورجاله رجال الصحيح ، فهو صحيح إن كان أبو قلابة سمعه من أبي هريرة ، فإنه كثير الإرسال ، وله شواهد.

(2) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (1644). كتاب الصيام. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ(1333). وله شواهد.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1091) ، ومسلم (760) ، وأبو داود (1372) ، والنسائي (8/ 118) ، والترمذي (808) ، وأحمد (2/ 529) ، وأبو يعلى (2632).

(4) حديث حسن. أخرجه الطيالسي (2545) وإسناده لا بأس به ، وله شواهد.

حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: 4 ـ 5]. فالكلام في الرسالة والأوامر والأحكام، لا في شيء آخر سواها. ولهذا قال بعضهم: إن ﴿مِّن﴾ هاهنا بمعنى الباء، أي بكل أمر).

وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾. قال قتادة: (أي هي خير كلها إلى مطلع الفجر). وقال ابن زيد: (ليس فيها شَرٌّ، هي خير كلها ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾). وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، في قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ﴾ قال: (لا يحدث فيها أمر). وقال مجاهد: (﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾: من كل أمرٍ سلام).

فضائل ليلة القدر وما ورد في تعيينها من أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن زر بن جبيش قال: [قلتُ لأُبي بن كعب: إن أخاك عبد الله بن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر، قال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان وأنها ليلة سبع وعشرين ولكنه أراد أن لا يتكل الناس، ثم حلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين. قال: قلت له: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذ لا شعاع لها][1]. وفي لفظ أبي داود: [تصبح الشمس صبيحة تلك الليلة، مثل الطَسْتِ، ليس لها شعاع حتى ترتفع].

الحديث الثاني: أخرج الطيالسي بسند حسن عن عِكرمة، عن ابن عباس: [أنَّ رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة سَمْحَةٌ طَلْقَةٌ، لا حارَّةٌ ولا باردةٌ، وتُصبح شمسُ صبيحتها ضعيفة حمراء»][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والطيالسي وابن خزيمة بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [ليلةُ القدرِ ليلةُ سابِعَةٍ أو تاسِعَةٍ وعشرين، إنَّ الملائكةَ تلكَ الليلةَ في الأرض أكثرُ من عددِ الحصى][3].

(1) حسن صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2669) ـ كتاب التفسير، سورة ليلة القدر. وانظر صحيح سنن أبي داود (1229) ـ باب في ليلة القدر. وروى مسلم نحوه.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود الطيالسي (2680)، وللحديث شواهد. فقد أخرجه بنحوه البيهقي وابن خزيمة والبزار وابن نصر. انظر صحيح الجامع (5351).

(3) إسناده حسن. أخرجه أحمد (2/ 519)، والطيالسي في «مسنده» (2545)، وأخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (2/ 223). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2205).

الحديث الرابع: أخرج الطبراني عن واثلة، وأحمد عن عبادة، بإسناد حسن، أنّ رسول الله ﷺ قال: [ليلة القدْر ليلةٌ بلِجةٌ، لا حارَّة ولا باردة، . . . ، ولا يُرمى فيها بنَجمٍ، ومنْ علامة يومِها تطلُعُ الشمس لا شعاعَ لها][1].

الحديث الخامس: أخرج مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [تحرّوا لَيْلَةَ القَدْر في السبعِ الأواخِر][2]. وفي رواية: [قال ابن عمر: رأى رجلٌ أنَّ ليلةَ القَدْرِ ليلةُ سبع وعشرين، فقال النبي ﷺ: أَرى رُؤْياكُمْ في العشر الأواخِر، فاطلبوها في الوِتْرِ منها].

وفي رواية: [تحيّنوا ليلة القَدْرِ في العشر الأواخر].

وفي لفظ: [التمسوها في العشر الأواخر يعني ليلة القدر، فإن ضَعُفَ أحدُكم أو عَجَزَ، فلا يُغْلَبَنَّ على السَّبع البواقي].

الحديث السادس: أخرج الطيالسي وأحمد بسند على شرط مسلم ـ واللفظ له ـ عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [اطلبوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، في تسع يبقين، وسبع يبقين، وخمس يبقين، وثلاث يبقين][3].

الحديث السابع: أخرج الطبراني عن عبد الله بن أنيس مرفوعاً: [تحروا ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين][4].

الحديث الثامن: أخرج أبو داود بسند صحيح عن معاوية بن أبي سفيان، عن النبي ﷺ في ليلة القدر قال: [ليلةُ القدْرِ ليلةُ سَبْعٍ وعِشْرين][5].

وله شاهد في مسند أحمد من حديث ابن عمر مرفوعاً: [تحروا ليلة القدر، فمن كان مُتَحَرِّيها فليتحرَّها في ليلة سبع وعشرين].

---

(1) حديث حسن. انظر مسند أحمد (5/ 324)، وقال الهيثمي في «المجمع» (5041): رجاله ثقات. وانظر «المجمع» (5035)، (5040). ورواه الطبراني. انظر صحيح الجامع (5348).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1165) ح (206) ـ كتاب الصيام. وكذلك ح (207)، (209)، (210)، (211)، (212). وانظر مسند أحمد (2/ 44)، (2/ 75).

(3) حديث صحيح. أخرجه الطيالسي (962) دون ذكر التسع، وأحمد (3/ 71) والسياق له وإسناده صحيح على شرط مسلم. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1471).

(4) حديث صحيح. أخرجه الطبراني وأحمد وابن نصر بإسناد صحيح. انظر صحيح الجامع (2920).

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (1386) ـ باب من قال: سبع وعشرون. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1236).

الحديث التاسع: أخرج البخاري عن عبادة بن الصامت قال: [خَرَجَ رسولُ الله ﷺ لِيُخْبِرَ الناس بليلةِ القَدْرِ، فتلاحى رَجُلان مِنَ المسلمين، قال النبي ﷺ: خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُم، فتلاحى فلانٌ وفلانٌ، وإنها رُفِعَتْ، وعسى أن يكونَ خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة][1].

قلت: وفي هذ الحديث دلالة أن الخلاف والخصام والشجار شَرٌّ بين المسلمين، قد يُرفع به خيرٌ كثير عنهم، ومن ذلك رفع تعيين ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر، ليحرص المسلمون بذلك على الجماعة، وعلى الاجتهاد بالطاعة، والله تعالى أعلم.

تم تفسير سورة القدر
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
غروب شمس يوم الاثنين 2 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 2 ـ كانون الثاني ـ 2006 م

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ تنزيل الله تعالى القرآن العظيم في ليلة القدر.

2 ـ ليلة القدر خير من ألف شهر، من حُرِمَ خيرها فقد حُرِم.

3 ـ من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه.

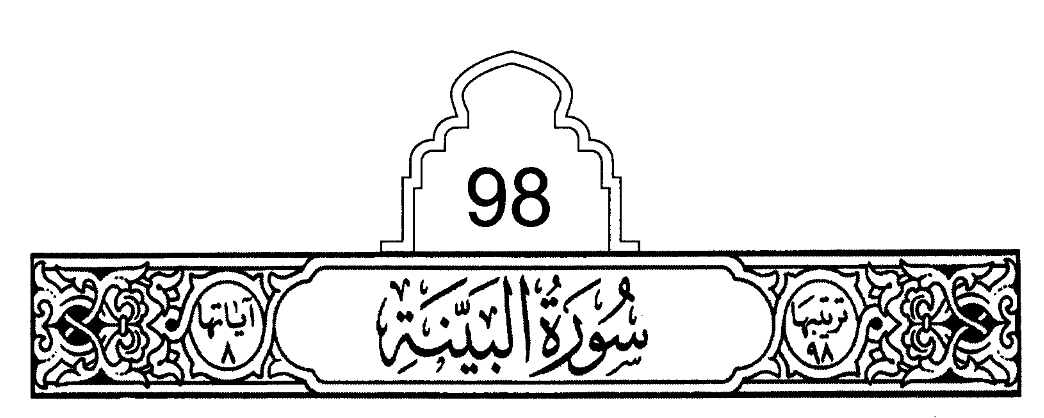
4 ـ تصبح الشمس صبيحة تلك الليلة مثل الطسْت ليس لها شعاع حتى ترتفع.

5 ـ ليلة القدر ليلةٌ سَمْحَةٌ طَلْقَةٌ، لا حارّة ولا باردة، وتصبح شمسُ صبيحتها ضعيفة حمراء.

6 ـ التمسوا ليلة القدر في التاسعة والسابعة والخامسة من العشر الأواخر من شهر رمضان.

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6049) ـ كتاب الأدب. وكذلك (49) ـ كتاب الإيمان.



وهي سورة مدنية ، ويقال لها سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ ، وعدد آياتها (8).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد وَرَدَ ذكر هذه السورة الكريمة في أحاديث من السنة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: [قال النبي ﷺ لأُبَيّ: «إنَّ الله أمَرني أنْ أقْرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾. قال: وسَمَّاني؟ قال: نَعَمْ. قال: فبكىٰ][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن أُبَيّ بن كعب: [أن رسول الله ﷺ قال: له: «إنّ الله أمَرني أن أقرأ عليك القرآن» فقرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. وقرأ فيها: إنَّ الدين عند الله الحنيفِيَّةُ المُسْلِمَةُ لا اليهودية ، ولا النَّصرانيةُ ، ولا المَجُوسيَّةُ ، مَنْ يَعْمَلْ خيراً فلَن يُكْفَرَهُ.

وقرأ عليه: لو أنَّ لابن آدمَ وادياً من مال لابتغىٰ إليه ثانياً ، ولو كان له ثانياً لابتغىٰ إليه ثالثاً ، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابنِ آدمَ إلا تُراب ، ويتوب الله على مَنْ تاب][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عبد الرحمن بن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3809) ـ كتاب مناقب الأنصار. وأخرجه مسلم (799) ، والنسائي في «التفسير» (711) ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 273).

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (3058) ـ فضل أبي بن كعب رضي الله عنه. ورواه أحمد (5/ 132) بإسناد حسن ، وله شاهد عنده (5/ 218) ورجاله ثقات.

أبزىٰ ، عن أبيه : [عن أبي بن كعب قال : قال لي رسول الله ﷺ : «إني أُمِرْتُ أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا» . قلتُ : يا رسولَ الله! وقد ذُكِرتُ هناك؟ قال : نعم . فقلت له : يا أبا المنذر! ففرِحت بذلك قال : وما يمنعني والله يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : 58]][1] .

موضوع السورة

حُجَّةُ البينة والوحي من رب العالمين

للفَصْلِ بين المشركين والمؤمنين في الدارين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الإخبار أن تعلق الكفار من أهل الكتاب والمشركين بما هم عليه من الكفر لا ينفك إلا بحجة الوحي وبلاغ الرسل .

2 ـ الأمر للناس في الكتب المنزلة بإخلاص العبادة لله وحده .

3 ـ الإخبار عن مصير كفرة أهل الكتاب والمشركين ، أنه في نار جهنم نار الجحيم .

4 ـ الإخبار عن مصير المؤمنين الصادقين ، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه فاستحقوا الخلود في جنات النعيم .

---

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (5/ 123) في المسند من وجهين ، ولبعضه شواهد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 5. قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ أنَّ الكفار من أهل الكتاب والمشركين لم يكونوا منتهين عَمَّا هم عليه من الكفر حتى تأتيهم حجة الوحي وبلاغ الرسل، فلما جاءهم الحق آمن بعضهم ومنع أكثرَهُم الكِبرُ، وقد كانوا أمروا أن يخلصوا الدين لله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويستعدوا ليوم الحشر، وذلك هو الدين الكامل الذي ارتضاه الله للبشر.

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾. قال ابن كثير: (أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارىٰ، والمشركون عَبَدَةُ الأوثان والنيران من العرب والعَجم).

وقوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾. أي: منتهين ومنفصلين عن الكفر. قال مجاهد: (لم يكونوا لينتهوا حتىٰ يتبين لهم الحق). وقال قتادة: (﴿مُنفَكِّينَ﴾ قال: منتهين عما هم فيه). وقال البخاري: (﴿مُنفَكِّينَ﴾: زائلين).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾. قال قتادة: (أي: هذا القرآن). قال النسفي: (﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، والمراد محمد ﷺ، يقول: لم يتركوا كفرهم حتىٰ يبعث محمد ﷺ، فلما بعث أسلم بعض وثبت علىٰ الكفر بعض).

وقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾. هو بدل من البينة، والمقصود محمد ﷺ.

وقوله: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾. أي: القرآن العظيم المكتتبُ في الملأ الأعلىٰ في صحف مطهرة، أي: مصونة عن التحريف واللبس. كقوله تعالىٰ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: 13 ـ 16]. قال قتادة: (﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ

﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثني عليه بأحسن الثناء).

قال القاسمي : (﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وهي صحف القرآن المطهرة من الخلط وحشو المدلّسين ، فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتىٰ يعرفه طالبوه ومنكروه معاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ . أي: مستقيمة لا اعوجاج فيها ، لاشتمالها على الحق الذي لا يختلط بباطل ولا يميل إليه ، كقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]. قال ابن زيد: (﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾: مستقيمة معتدلة).

وأما مفهوم «الكتب» في الصحف ففيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: الصحف هي الكتب. والكتب التي في الصحف هي الأحكام. كما قال الله عز وجل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: 21]. بمعنىٰ: حكم. وقال ﷺ: [والله لأقضين بينكما بكتاب الله] ـ ثم قضىٰ بالرجم. ذكره القرطبي وقال: (وليس ذِكر الرجم مسطوراً في الكتاب ، فالمعنىٰ لأقضين بينكما بحكم الله تعالىٰ).

التأويل الثاني: الكتب التي في صحف القرآن ومصاحفه ، هي ما صحّ من كتب الأولين كموسىٰ وعيسىٰ وغيرهما ، مما حكاه الله تعالىٰ في كتابه عنهم ، فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوي سليم. ذكره القاسمي وقال: (وقد ترك حكاية ما لبّس فيه الملبّسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه. ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سبيلاً إلى إنكار الحق. وإنما فضلوا عليه سواه).

التأويل الثالث: الكتب هي السور المكتوبات ـ سور القرآن ـ فكل سورة من سور المصحف كتاب قويم. قال النسفي: (﴿فِيهَا﴾ في الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ مكتوبات ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل). والتقدير: تحتوي صحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه على سور مكتوبات من القرآن هي كتب قيمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ .

أي: ولم يكن تفرق أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا لاشتباه في الأمر ، بل كان بعد وضوح الحق وظهور الصواب ، ثم بعث الله محمداً ـ ﷺ ـ فآمن به بعضهم وكفر آخرون ، وكان ينبغي أن يكونوا أمة واحدة في الإيمان بالله واتباع رسوله الذي جاءهم بالحق مصدقاً لما معهم ، ولكن تحاكم أكثرهم إلى الهوىٰ والشهوات.

وقد حذّر الله أمة محمد ﷺ من الوقوع في ما وقع به أهل الكتاب فقال جل ثناؤه:

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: 105].

أخرج الترمذي والحاكم بسند حسن في الشواهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: [ليأتين على أمتي ما أتىٰ على بني إسرائيل مثلاً بمثل حذو النعل بالنعل ، حتىٰ لو أن فيهم من نكح أمه علانية كان في أمتي من يفعل مثله. إن بني إسرائيل افترقوا علىٰ إحدىٰ وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلها في النار إلا واحدة. فقيل: يا رسول الله ، ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي][1].

وقوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾. هو أصل هذا الدين ، وركنه القويم. والمقصود: وما أمر الناس في الكتب المنزلة وكذلك في هذا القرآن إلا بعبادة الله وحده عبادة خالصة من كل ألوان الشرك ، وليجعلوا أنفسهم خالصة له في الدين. ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. قال ابن عباس: (﴿ حُنَفَآءَ ﴾: على دين إبراهيم عليه السلام). وقال قتادة: (والحنيفية: الختان ، وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات والمناسك). وأصله في لغة العرب: من تَحَنَّفَ إلى الإسلام ، أي: مال إليه ، فهو التحنّف عن الشرك إلى التوحيد.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل: 36].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64].

---

(1) حسن لشواهده. أخرجه بتمامه الترمذي في «سننه» (5/ 26 ـ طبعة أحمد شاكر) ، والحاكم في «المستدرك» (1/ 128 ـ 129) ، والآجري في «الشريعة» ص (15).

أخرج الخطيب عن جابر ، والديلمي عن عائشة ، وأحمد عنها بسند حسن عن النبي ﷺ قال: [بعثت بالحنيفية السمحة][1].

وروىٰ البخاري في كتاب الإيمان ، باب: الدين يسر وقول النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله تعالىٰ الحنيفية السمحة» ، وكذلك النسائي في «الإيمان وشرائعه» باب: الدين يسر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة][2].

وقوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. أي: ويفعلوا الصلوات على الوجه الذي يريده الله ، في أوقاتها ، ويعطوا الزكاة المفروضة عند محلها.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾. أي: إن ذلك الدين هودين الملة القائمة المستقيمة ، دين الأمة العادلة المعتدلة. قال قتادة: (﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ هو الدين الذي بعث الله به رسوله ، وشرع لنفسه ، ورضي به).

وقال الزجاج: (أي ذلك دين المِلّة المستقيمة). قال القرطبي: (و﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ نعت لموصوف محذوف. أو يقال: دِين الأمة القيمة بالحق ، أي: القائمة بالحق). قال: وقال الخليل: (﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ جمع القيم ، والقيم والقائم واحد). وقال الفراء: (أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته ، لاختلاف اللفظين). وعنه أيضاً: (هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة). وقيل: الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة. وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: (﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ هاهنا: الكتب التي جرىٰ ذكرها ، والدين مضاف إليها).

قلت: فهذه الآية العظيمة تدل أن الدين يشمل الإيمان ولوازمه من الأعمال ، وقد استدل بها أئمة كرام كالإمام الزهري والإمام الشافعي مؤكدين أن الأعمال داخلة في مفهوم الإيمان.

6 ـ 8. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ

(1) حديث حسن. رواه أحمد والديلمي. ورواه البخاري «الأدب المفرد» عن ابن عباس بلفظ: [قيل لرسول الله ﷺ: أي: الأديان أحب إلى الله تعالىٰ؟ قال: «الحنيفية السمحة»].

(2) رواه البخاري (1/ 87) في الإيمان ، ورواه النسائي (8/ 121 ـ 122) ، وهو حديث صحيح.

خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن مصير كفرة أهل الكتاب والمشركين ، أنهم في نار جهنم نار الجحيم ، خالدين فيها مع أشقياء البرية والمجرمين. ثم تقرير الله جلت عَظمته أن أهل الإيمان والعمل الصالح هم خير العالمين ، جزاؤهم عند ربهم الخلود في جنات النعيم ، تجري من تحتهم الأنهار ناعمين غانمين ، لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه فاستحقوا عنده الخلود آمنين مطمئنين.

قال ابن جرير : (﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ يقول جلّ ثناؤه: هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، هم شرّ من برأه الله وخلقه). والبرية في لغة العرب: الخليقة. قال الرازي: (البَرَىٰ: التراب. والبريّة: الخَلْق ، وأصله الهمزة ، والجمع «البرايا» و«البَريّات». وقد «براه» الله أي: خَلَقَه).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾. أي: خير الخليقة حالاً ، لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم إخباتاً ، ولذلك سيكونون خير الخليقة مصيراً ومآلاً.

وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي عن أنس بن مالك قال: [قال رجل للنبي ﷺ: يا خير البرية ، قال: «ذاك إبراهيم»][1]. أخرجه الترمذي عند تفسير هذه الآية.

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج النسائي وأحمد وابن حبان بإسناد صحيح عن عطاء بن يسار عن ابن عباس: [أنّ النبي ﷺ خرَج عليهم وهم جلوس فقال: ألا أُخبركم بخير الناس منزلة؟ قلنا: بلىٰ ، قال: رجل ممسك برأس فرسه في سبيل الله حتىٰ يموت أو يقتل. قال: فأخبركم بالذي يليه؟ فقلنا: نعم يا رسول الله ، قال: امرؤ معتزل في شعب يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويعتزل الناس. قال: فأخبركم بشر الناس منزلة؟ قلنا: نعم يا رسول الله ، قال: الذي يسأل بالله العظيم ، ولا يعطي به][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (7/ 97). وانظر صحيح سنن الترمذي (2670).
(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي (1/ 358) ، والدارمي (2/ 201 ـ 202) ، وابن حبان في =

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وأحمد بسند صحيح عن أبي هريرة: [أنّ رسول الله ﷺ وقف على ناس جلوس فقال: «ألا أُخْبِرُكُم بخيركم من شرّكم؟» قال: فسكتوا، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلىٰ يا رسول الله أخبرنا بخيرنا من شرنا. قال: «خَيْرُكم مَنْ يُرْجَىٰ خيْرُهُ ويُؤْمَنُ شرُّهُ، وشَرُّكُم مَنْ لا يُرْجَىٰ خَيْرُه، ولا يُؤْمَنُ شَرُّه»][1].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند حَسن لغيره عن عبد الله بن عمر قال: [سئل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ قال: أحسنهم خلقاً][2].

وقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

أي: ثوابهم عند ربهم يوم القيامة بساتين الجنان، تجري تحتهم الأنهار، يطلون عليها ينظرون وينعمون، ولا يحولون ولا يزولون.

وقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾. إثبات تبادل الرضا بينهم وبين ربهم. فقد رضوا عن شرعه وقدره ورضي عن دينهم وأعمالهم. قال ابن عباس: (﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: رضي أعمالهم). قال ابن جرير: (﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما أطاعوه في الدنيا، وعملوا لخلاصهم من عقابه في ذلك ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من الثواب يومئذ، علىٰ طاعتهم ربهم في الدنيا، وجزاهم عليها من الكرامة).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾. قال القاسمي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الجزاء الحسن وهذا الرضاء ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي: خاف الله في الدنيا، في سرّه وعلانيته، فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية).

تم تفسير سورة البينة

بعون الله وتوفيقه، وواسع منِّه وكرمه

غروب شمس يوم الثلاثاء 3 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ

الموافق 3/ كانون الثاني/ 2006 م

= «صحيحه» (1593)، وأحمد (1/ 237). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (255).

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2263). انظر صحيح سنن الترمذي (1845).

(2) حسن لغيره. أخرجه الطبراني (13326)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1837). وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمرو مرفوعاً بلفظ: [خياركم أحاسنكم أخلاقاً].

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ لم يترك الكفار كفرهم حتىٰ بُعِثَ محمد ﷺ ، فلما بعث آمن بعضهم وبقي على الكفر الآخرون.

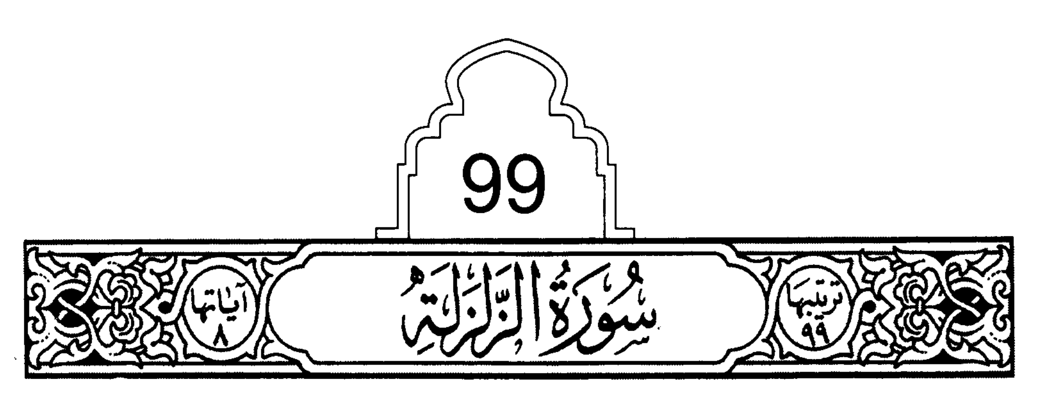
2 ـ تفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين ملة ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة. ـ كما جاء في الحديث ـ. وفي رواية: [ما أنا عليه اليوم وأصحابي].

3 ـ أحب الأديان إلى الله تعالىٰ: الحنيفية السمحة.

4 ـ خيار الناس أحسنهم خُلقاً ، وشرار الناس من لا يُرْجىٰ خَيْرُه ، ولا يُؤْمَنُ شَرُّه.

5 ـ المؤمنون الأوائل رضي الله عنهم وعن فهمهم لمراده ، ورضوا هم عن الله وعن قضائه وقدره وشرعه وثوابه.





وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (8).

أخرج أبو داود بسند حسن عن معاذ بن عبد الله الجهني : [أنّ رجلاً من جهينة أخبره : أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في الصبح : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ في الركعتين كلتيهما ، فلا أدري! أنسيَ رسول الله ﷺ ، أم قرأ ذلك عَمْداً][1] .

موضوع السورة

زلزلة الساعة ومشهد الحساب

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ زلزلة الأرض لقيام الساعة والنشور ، وإخراجها الموتىٰ من القبور .

2 ـ اندهاش الإنسان لتقلب هذه الأحوال ، ونطق الأرض بإذن ربها بما كان علىٰ ظهرها من الأعمال .

3 ـ صدور الناس لمشهد الحشر والحساب ، والوزن الحق للأعمال لنيل الثواب المستحق أو العقاب .

(1) حديث حسن . أخرجه أبو داود (816) ـ في الصلاة ـ باب الرجل يعيد سورة واحدة في الركعتين ، ورواه البيهقي وغيره . انظر صحيح سنن أبي داود (730) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 8. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: تزلزلُ الأرض لقيام الساعة والنشور، وإخراجها الموتىٰ ومن في القبور، واندهاش الإنسان لتقلب هذه الأحوال، ونطق الأرض بإذن ربها بما كان على ظهرها من الأعمال، وصدور الناس أشتاتاً لمشهد الحشر والحساب، ونيل الثواب ونكال العقاب.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. قال ابن عباس: (أي: تحرَّكت من أسفلها). والزِلزال مصدر، قال القاسمي: (أي: أصابها ذلك الزلزال الشديد، والاهتزاز الرهيب. فالإضافة للتفخيم أو الاختصاص، بمعنىٰ الزلزال المخصوص بها. وهي الرجّة التي لا غاية وراءها. والأقرب الأول، لآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: 1]).

والمقصود: إذا زلزلت الأرض لقيام الساعة فَرُجَّت رجّاً بعد استقرارها، وحُرِّكت حركة شديدة من أصلها، فاضطرب ما عليها وتكسّر لاهتزازها.

وكان ابن عباس ومجاهد يقولان: (في النفخة الأولى يزلزلها ـ لقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 6 ـ 7] ثم تزلزل ثانية، فتُخرج موتاها وهي الأثقال).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾. قال عكرمة عن ابن عباس: (الموتىٰ). وقال مجاهد: (من في القبور). وقال ابن عباس ومجاهد: (﴿أَثْقَالَهَا﴾: موتاها، تُخرجهم في النفخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثَّقَلان).

قال الأخفش: (إذا كان الميت في بطن الأرض ، فهو ثقل لها. وإذا كان فوقها ، فهو ثِقل عليها). والمقصود: تخرج الأرض يومئذ ما في جوفها من الأموات والدفائن وما عُمِلَ عليها.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدها أمثال الأسطوانِ[1] من الذهب والفِضة ، فيجيء القاتلُ فيقول: في هذا قَتَلْتُ. ويجيءُ القاطِعُ فيقولُ: في هذا قَطَعْتُ رحمي. ويجيء السارقُ فيقولُ: في هذا قُطِعَتْ يدي ، ثم يَدَعونَهُ فلا يأخذون منه شيئاً][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾. أي: وقال الإنسان لما دهمه أمرها وبَهَره خطبها: لأي شيء زلزلت وأخرجت أثقالها؟ وقد كانت قارّة ساكنة بأهلها! لقد تقلبت أحوالها بعدما جاءها من أمر الله ما جاءها. كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾. أي: يومئذ تخبر بأخبارها ، وتحدّث بما عمل عليها ، ينطقها الله سبحانه لتشهد على العباد.

وعن سفيان: (﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: ما عمل عليها من خير أو شر). وقال ابن زيد: (ما كان فيها ، وعلى ظهرها من أعمال العباد). وقال مجاهد: (تخبر الناس بما عملوا عليها).

وقوله تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾. أي: تحدّث أخبارها بوحي الله وأمره لها ، بأن تخبر عما جرىٰ عليها ، وتَشْهَد على العاملين بما كان منهم على ظهرها. وعن سفيان: (﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ قال: أعلمها ذلك). وقال مجاهد: (أَمَرَها). وقيل: (أَذِن لها).

وقال البخاري: (﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ، أوْحىٰ إليها ، ووحَىٰ لها ، وَوَحَى إليها واحِدٌ).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾. أي: يصدر الناس يومئذ من قبورهم إلى موقف الحساب ، متفرقين ينصرف بعضهم إلى جهة اليمين وبعضهم إلى جهة الشمال ، إضافة إلى التفرّق في الأديان والأعمال. قال ابنُ جُريج:

(1) جمع أسطوانة: وهي السارية ، أو العمود.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1013) ، والترمذي (2208) ، وأخرجه ابن حبان (6697).

(يتصدّعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخرَ ما عليهم). وقال السدي: (﴿أَشْتَاتًا﴾ فِرقاً). و﴿أَشْتَاتًا﴾ جمع شَتّ. **وفي التنزيل نحو ذلك:**

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: 14].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: 43].

وقال النسفي: (﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أَشْتَاتًا﴾ بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين، أو يصدرون عن الموقف أشتاتاً يتفرق بهم طريقا الجنة والنار ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

الذّر: ما يرىٰ في شعاع الشمس من الهباء. والمقصود: من يعمل في الدنيا مثقال ذرة من أعمال البر والصلاح يجد ذلك في كتابه يوم القيامة فيفرح به، أو يراه بعينه معروضاً عليه، يحمل البشرىٰ إليه. ومن يعمل كذلك في الدنيا مثقال ذرة من أعمال الفجور والسوء يجد ذلك في كتابه يوم القيامة فيسوؤه، وقد يغفره الله.

وفي صحيح البخاري ـ عند تفسير هذه الآية ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: [أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الخَيْلُ لِثلاثةٍ: لِرَجُلٍ أجْرٌ، ولِرَجُلٍ سِتْرٌ، وعلى رَجُلٍ وِزْرٌ، فأمّا الذي له أَجْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَها في سبيل الله فأطالَ لها في مَرْجٍ أو رَوْضَةٍ، فما أصابَتْ في طِيَلِها ذلك في المَرْجِ والرَّوضة كانَ له حَسناتٍ، ولو أنّها قَطَعَتْ طِيَلَها فاسْتَنَّتْ شَرَفاً أو شَرَفَين كانتْ آثارها وأرْواثُها حَسناتٍ له، وَلَوْ أَنَّها مَرّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ ولمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ به كان ذلك حسناتٍ له، فهي لذلك الرجل أَجْرٌ، وَرَجُل ربطها تَغَنِّياً وتَعَفُّفاً، ولمْ يَنْسَ حقَّ الله في رِقابِها ولا ظهورها فَهِيَ له سِتْرٌ، ورَجُلٌ ربطها فَخْراً ورياءً وَنِواءً فهي على ذلك وِزْرٌ». فَسُئِلَ رسول الله ﷺ عَنِ الحُمُرِ، قال: «ما أنزل الله عليَّ فيها إلا هذه الآيةَ الفاذَّة الجامِعةَ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4962) ـ (4963)، كتاب التفسير، سورة الزلزلة.

وفي مسند الإمام أحمد ومستدرك الحاكم بسند رجاله رجال الصحيح عن صعصَعَة بن معاوية ، عَمِّ الفرزدق: [أنه أتىٰ النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، قال: حسبي! لا أُبالي ألاّ أسمع غيرها][1] .

وقد حفلت السنة العطرة بروائع من الأحاديث في مفهوم هاتين الآيتين:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يَظلمُ مؤمناً حَسَنَةً ، يُعْطي بها في الدنيا ويَجْزي بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعمُ بحسنات ما عَمِلَ بها لله في الدنيا ، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة ، لم تكُنْ له حسنة يُجْزىٰ بها][2] .

الحديث الثاني: أخرج أحمد وابن ماجة بسند صحيح عن عوف بن الحارث بن الطفيل: أن عائشة أخبرته: أنّ النبي ﷺ كان يقول: [يا عائشةُ! إياك ومحقِّرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً][3] .

الحديث الثالث: أخرج أحمد والطبراني بسند حسن في الشواهد عن عبد الله بن مسعود ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: [إياكم ومُحقَّرات الذنوب ، فإنهنَّ يَجْتَمِعْنَ على الرجل حتىٰ يُهلكنَه ، كرجُلٍ كانَ بأرض فلاة فحضرَ صنيعَ القوم ، فجعلَ الرجلُ يجيءُ بالعودِ ، والرجل يجيءُ بالعود ، حتىٰ جمعوا من ذلك سواداً وأجَّجوا ناراً فأنضجوا ما فيها][4] .

وله شاهد في المسند ومعجم الطبراني من حديث سهل بن سعد مرفوعاً بلفظ: [إياكم ومحقَّرات الذنوب ، فإنما مثل مُحقَّرات الذنوب كمثلِ قومٍ نزلوا بطنَ وادٍ ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 59) ، والحاكم في المستدرك (3/ 613) ، والنسائي في «التفسير» (714) ، والطبراني (7411) وقال الهيثمي في «المجمع» (7/ 141): رواه أحمد والطبراني مرسلاً ومتصلاً ورجال الجميع رجال الصحيح.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم (2808) ح (56) ـ كتاب صفات المنافقين. وانظر أيضاً ح (57).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/ 70) ، وابن ماجة (4243) ، وابن حبان (5568).

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد (1/ 402) ، والطبراني (10500) ، وأخرجه أبو يعلىٰ (22/ 5) من وجه آخر ، والحديث حسن بشواهده. انظر المجمع (10/ 189) ، وصحيح الجامع (2684).

فجاء ذا بعودٍ ، وجاء ذا بعودٍ ، حتىٰ حملوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإنَّ محقرات الذنوب متىٰ يؤخذ بها صاحبها تُهلِكه](1) .

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم من حديث عَدِيّ مرفوعاً: [اتقوا النار ولو بشق تمرة ، ولو بكلمة طيبة](2) .

الحديث الخامس: أخرج البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [يا نساءَ المؤمنات ، لا تحقِرَنَّ جارة لجارتها ولو فِرسِنَ شاةٍ](3) ـ يعني ظلفها .

الحديث السادس: أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» ، ومالك في «الموطأ» ، وأحمد في المسند بإسناد حسن من حديث حواء بنت السكن مرفوعاً: [رُدُّوا السائِلَ ولو بِظِلفٍ مُحرَقٍ](4) .

الحديث السابع: أخرج أبو داود بسند صحيح من حديث جابر بن سليم مرفوعاً: [لا تحقرن شيئاً من المعروف ، وأن تُكَلِّمَ أخاكَ وأنت مُنْبَسِطٌ إليه وَجْهُكَ إنَّ ذلك من المعروف](5) .

وفي لفظ: [لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقىٰ أخاكَ ووجْهُكَ منبسِطٌ ، ولو أن تُفْرِغ من دَلْوك في إناء المُسْتقي ، وإن امرؤٌ شتمكَ بما يعلمُ فيك فلا تشتمه بما تَعْلَمُ فيه ، فإنه يكون لك أجرُه وعليه وِزْرُه] الحديث(6) .

والخلاصة: تَحثُّ خاتمة السورة على التسابق إلى مزيد من العمل الصالح ولو كان

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 331) ، والطبراني ، والبيهقي في «الشعب» (2/ 384/ 1) ، وقال الهيثمي (10/ 190): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (389) ، وصحيح الجامع (2683).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1413) ، و(1417) ، ومسلم (1016) ، وأحمد (4/ 256).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (2566) ـ كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها.

(4) حديث حسن. أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (5/ 262) ، والنسائي (5/ 81) ، وأحمد (6/ 435) ، ومالك في «الموطأ» (2/ 931) ، وابن حبان (3374).

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4084) في أثناء حديث ، كتاب اللباس ، باب ما جاء في إسبال الإزار. انظر صحيح سنن أبي داود (3442).

(6) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (5/ 64) ، وسنن النسائي «الكبرىٰ» (9694) ، (9696) ، وصحيح ابن حبان (521) ، وسنن أبي داود (4084) بسند جيد.

من الأعمال البسيطة التي لا تعب في تحصيلها ولا جهد ولا نصب ، ليرجح الميزان يوم الحساب ولو بشعرة إلى الزحزحة عن النار إلى رضوان الله إلى العبور إلى الجنة دار القرار والنعيم والخلود.

تم تفسير سورة الزلزلة
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر يوم الأربعاء 4 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 4 / كانون الثاني / 2006 م

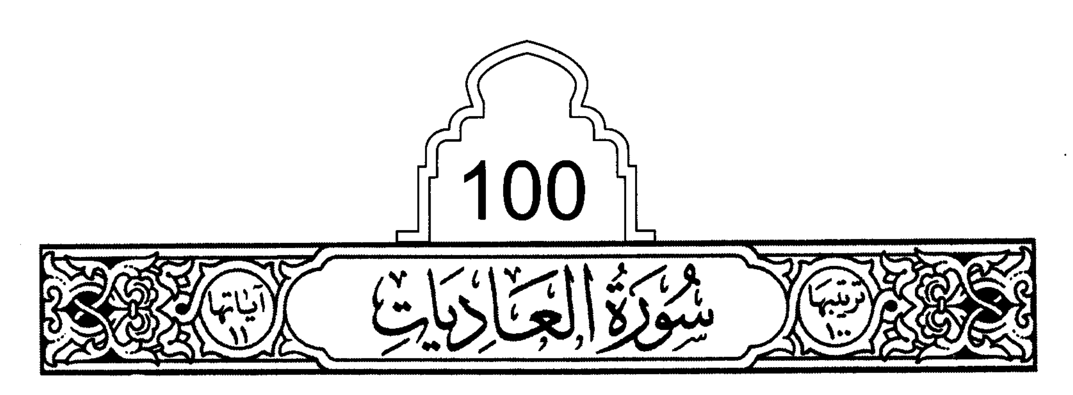
دروس ونتائج وأحكام

1 ـ تخرج الأرض يوم القيامة ما في جوفها من الأموات والدفائن وما عُمِلَ عليها.

2 ـ يصدر الناس يومئذ من قبورهم إلى موقف الحساب ، متفرقين ينصرف بعضهم إلى جهة اليمين وبعضهم إلى جهة الشمال ، إضافة إلى التفرّق في الأديان والأعمال.

3 ـ إياكم ومحقِّرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتىٰ يهلكنَه.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (11).

موضوع السورة

أثر المباغتة بالعاديات في النصر على الأعداء
ووجوب التفكر بنعم الله والبعث والجزاء

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قَسَمُ الله تعالىٰ بالخيل المباغتة في الهجوم ، يُغِيرُ عليها المجاهدون وهي تحمحم بصوتها وتقدح بحوافرها وتثير الأرض حتىٰ تنزل بساحة القوم.

2 ـ جحود الإنسان نِعم ربه الكريم ، والحُبّ الشديد للمال والتعظيم.

3 ـ الحث على التفكر بالبعث من القبور ، وإخراج السرائر من الصدور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 11. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالىٰ على المباغتين ـ في قتال الكفرة ـ والمهاجمين، فأقسم جلت عظمته بالخيل التي يُغِيرُ عليها القوم إذا أصبحوا ليباغتوا عدوهم، وهي تشتد عند الفجر وتحمحم بصوتها، وتقدح بحوافرها التي تضرب الحصىٰ فيخرج منه النار، وتثير تراب الأرض في الطريق إلى القتال، حتىٰ تنزل فجأة في ساحة القوم المجرمين فتباغتهم بهجوم سريع مفاجِئ، فتكسب الملحمة وتوقع الخسارة بالعدو وتغنم الغنائم، إنّ الإنسان لربه لكفور، وإنه لحب المال لشديد، فهلاّ تفكر بالبعث من القبور، وإخراج السرائر من الصدور، فالله تعالىٰ بأعمال العباد خبير بصير.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾. مدح من الله تعالىٰ: «العاديات ضَبْحاً» وهي الخيل التي تعدوها وهي تحمحم، والضبح: الحمحمة[1]. قال ابن عباس: (﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الخيل، هو في القتال). وقال عكرمة: (ألم ترَ إلى الفرس إذا جرىٰ كيف يضبح). وقال عطاء: (ليس شيءٌ من الدواب يضبح غير الكلب والفرس).

والآية: قسم من الله تعالىٰ بالخيل إذا أُجريت في سبيله فعدت وضبحت. وضبحاً: حال، أو مصدر في موضع الحال.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾. قال الكلبي: (تقدح بحوافرها حتىٰ يخرج منها النار). وقال قتادة: (هِجن الحرب بينهم وبين عدوهم).

---

(1) الضبح: هو الصوت الذي يُسمع من الفرس حين تعدو. قال الفرّاء: (الضَّبْحُ: صوت أنفاس الخيل إذا عَدَوْن).

والعرب تقول: وَرَى الزند يَرِي وَرْياً: إذا خرجت ناره. ويجوز بالكسر أيضاً: (وَرِيَ الزند يَرِي وَرْياً). وأصل القَدْح الاستخراج، ومنه قولهم: قَدَحْتُ العين: إذا أخرجت منها الماء الفاسد. واقتدحْت بالزند. والمِقْدَحة: ما تُقْدَح به النار. والقدّاحة والقدّاح: الحجر الذي يُوري النار. فَبِعَدْو تلك الخيل في طريقها إلى القتال أثناء المباغتة والهجوم، تضرب الحصىٰ بمناسمها بعضه ببعض، فيخرج منه النار والشرر. أثنىٰ الله سبحانه على ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾. متابعة في الوصف المثير، الموجب للمدح والثناء والكبير. قال قتادة: (أغار القوم بعدما أصبحوا على عدوهم). وعن مجاهد: (﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ قال: هي الخيل). وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: (سألني رجل عن المغيرات صبحاً، فقال: الخيل تغير في سبيل الله). وقال عكرمة: (أغارت على العدو صبحاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾. أي: فرفعن بالوادي غباراً من أثر تلك الحركة المفاجئة السريعة، والنقع: الغبار.

فعن مجاهد: (قوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ قال: الخيل). وقال عطاء: (النقع: الغبار). وقال عكرمة: (أثارت التراب بحوافرها).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾. أي: فوسطن بركابهن جمع العدو.

قال عكرمة: (جمع الكفار). وقال قتادة: (فوسطن جمع القوم). وقال الضحاك: (الجمع: الكتيبة).

وعن ابن زيد: (في قوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ قال: هذا قسم أقسم الله به. وفي قوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ قال: كل هذا قسم).

قلت: وخلاصة القول: لقد وَصف سبحانه بجوامع من الكلم وروائع من البيان تفاصيل معركة كاملة، منذ الإغارة من الفجر، حتىٰ حصول النصر، ليعلم المؤمنين أنّ هذا الدين العظيم دين قوة وعز ونصر، ودين هجوم على الباطل ومباغتة لأهل الكفر، دين قهر لأعداء الله في الأرض لا دين ضعف وعجز وكسل، أو دفاع وانتظار وخجل، وقد أقسم الله تعالىٰ بتلك الخيل المغيرة، والله سبحانه يقسم بما شاء، ولا يقسم جل ثناؤه إلا بعظيم، وأمر هام وكبير.

لقد أخرج الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه، بسند صحيح عن

عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: [كان يحب أن ينهضَ إلى عدوه عند زوال الشمس][1].

وهذا الوقت وقت راحة وتعب وقيلولة، فكان يحب عليه الصلاة والسلام أن يباغت به عدوه.

وفي رواية أخرىٰ للحديث: [كان يعجبه أن يلقىٰ العدو عند زوال الشمس].

ورَوىٰ أبو داود والنسائي بسند صحيح عن كعب قال: [كان إذا أراد غزوة وَرَّىٰ بغيرها][2].

وذلك لتحصل المباغتة والهجوم المفاجئ، فإن الحرب خدعة، والمؤمنون هم أحق الناس في الأرض بتعلم فنون المباغتة وطرق كبت العدو.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾. هو جواب القسم. والمعنىٰ: إن الإنسان لربه لكفور. قاله ابن عباس ومجاهد. وقال الحسن البصري: (هو الكفور الذي يعدّ المصائب، وينسىٰ نعم ربه). وقال: (﴿لَكَنُودٌ﴾ يقول: لوّام لربه يعدّ المصائب). وَكَنَدَ ـ في لغة العرب ـ كفَرَ النّعمة فهو كنود. قال النسفي: (﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ لكفور، أي: إنه لنعمة ربه خصوصاً لشديد الكفران).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾. فيه تأويلان حسب موقع الضمير:

التأويل الأول: إنّ الله على كنود الإنسان ربّه لشهيد: ـ يعني لشاهد ـ وهذا من باب الوعيد. قال قتادة: (﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قال: يقول: إن الله على ذلك لشهيد). وقال سفيان: (يقول: وإنّ الله عليه شهيد).

التأويل الثاني: إن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد. قال ابن كثير: (أي: بلسان حاله. أي ظاهرٌ ذلك عليه في أقواله وأفعاله).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. فيه تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: إنه لحب المال لشديد. قال القرطبي: (أي لقوي في حبه للمال).

التأويل الثاني: إنه لحريصٌ بخيل، من محبّة المال. قال ابن جرير: (قال بعض

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 356)، وله شاهد عند البخاري (6/ 91 ـ فتح)، وعند البيهقي (9/ 152). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2126).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (4538)، وكتابي: السيرة النبوية (2/ 789) لتفصيل البحث.

البصريين: معنىٰ ذلك: وإنه من أجل حبّ الخير لشديد: أي لبخيل. قال: يقال للبخيل: شديد ومتشدد).

أخرج ابن أبي خيثمة والبزار بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعاً: [مَنْهومان لا يشبعان: طالِبُ عِلم، وطالب دنيا][1].

والمقصود: أنّ الإنسان لحب المال لشديد قوي يميل كثيراً إلى البخل والإمساك، وأما لحب عبادة ربه المنعم المتكرم فبطيء ضعيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾. قال ابن عباس: (بُحِثَ).

والمقصود: أفلا يعلم إذا نُثِرَ ما في القبور من الموتىٰ وأخرجوا من قبورهم للحشر والحساب، كيف يكون مستقبله أفي الثواب أو العقاب!

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾. قال ابن عباس: (أبرِزَ). وقال سفيان: (يقول: مُيِّزَ). والمعنىٰ: ومُيِّز وبُيِّنَ يومئذ ما في الصدور من الخير والشر، وأُبرز ما فيها من السِّر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إنَّ ربهم بأعمالهم، وما أسروا في صدورهم، وأضمروه فيها، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليم لا يخفىٰ عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك يومئذ).

أخرج الحاكم بسند صحيح عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود! إني رسولُ رسولِ الله ﷺ: [تعلمون المعادَ إلى الله، ثم إلى الجنة أو إلى النار، وإقامةٌ لا ظعن فيه، وخلودٌ لا موت، في أجسادٍ لا تموت][2].

تم تفسير سورة العاديات

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

غروب شمس يوم الأربعاء 4 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ

الموافق 4/كانون الثاني/2006 م

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي خيثمة (142/ 141)، والبزار. وانظر صحيح الجامع (6500).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 83)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (10/ 396) نحوه، دون الجملة الأخيرة، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط». وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (1668)، وقد مضىٰ.

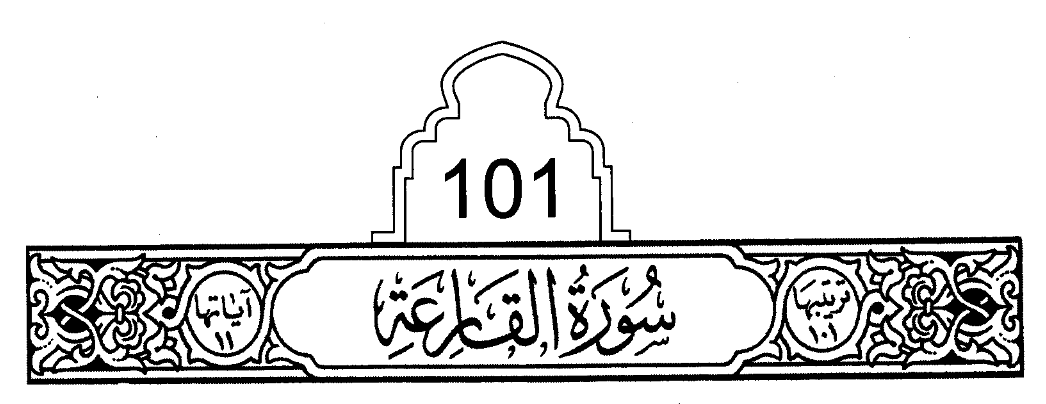
دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ كان رسول الله ﷺ يحب أن ينهض إلى عدوه عند زوال الشمس .

2 ـ منهومان لا يشبعان : طالِبُ عِلْمٍ ، وطالب دنيا .

3 ـ يبين يوم الحشر ما في الصدور من الخير والشر ، ويبرز ما كان فيها من السِّر .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (11).

موضوع السورة

أهوال القارعة وأحوال الناس يوم الدين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ التخويف من أمر القارعة ، تقرع القلوب بالفزع ، وتقرع أعداء الله بالعذاب.

2 ـ انتشار الناس كالفراش في أرض المحشر ، والجبال كالصوف المنفوش المبعثر.

3 ـ أهل الموازين الثقيلة في جنات النعيم ، وأصحاب الموازين الخفيفة في نار الجحيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 11. **قوله تعالىٰ:** ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ

ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

في هذه الآيات: تعظيمُ الله أمر القارعة، تقرع العباد بأهوالها، ويكون الناس كالفراش المنتشر في أرض الحشر، والجبال كالصوف المنفوش المبعثر، فمن ثقلت موازينه كان في جنات النعيم، ومن خفت موازينه كان في نار الجحيم.

فقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾. اسم من أسماء القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بالفزع، وتقرع أعداء الله بالعذاب. قال ابن عباس: (﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة، عَظَّمَهُ الله وحذّره عباده). وقال قتادة: (﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: الساعة). وقال وكيع: (سمعت أن القارعة والواقعة والحاقة: القيامة). قلت: وكذلك الطامّة والصّاخة والغاشية وغير ذلك من أسماء ونعوت القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره معظِّماً شأن القيامة والساعة التي يقرع العباد هولها، أي شيء القارعة، يعني بذلك: أي شيء الساعة التي يقرع الخلق هولها، أي ما أعظمها وأفظعها وأهولها).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾. قال القاسمي: (تأكيد لهولها وفظاعتها، ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق على معنىٰ أن عظم شأنها ومدىٰ شدتها، بحيث لا تكاد تناله دراية أحد، حتىٰ يدريك بها).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾. الفراش: هو الحشرة الطائرة المعروفة. والمبثوث: المنتشر. والمقصود: القارعة يوم يسير الناس على غير هدىٰ في كل اتجاه لشدة الهول حتىٰ يحشروا إلى الموقف. كما قال سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: 7].

وعن قتادة: (﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ هذا الفراش الذي رأيتم يتهافت في النار). وقال ابن زيد: (هذا شَبَهٌ شبهه الله. وكان بعض أهل العربية يقول: معنىٰ ذلك: كغوغاء الجراد، يركب بعضه بعضاً، كذلك الناس يومئذ، يجول بعضهم في بعض).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾. العهن: الصوف.

والمعنىٰ: وتكون الجبال يومئذ كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذي نُفِشَ بالندف. وهذا لأنها تتفتت وتطّاير. قال قتادة: (العهن: هو الصوف. وذكر أن الجبال تسير على الأرض وهي في صورة الجبال كالهباء). قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ويوم تكون الجبال كالصوف المنفوش. والعهن: هو الألوان من الصوف).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ﴾. أي: أعماله الصالحة. والموازين: الوزن. والمقصود: رجحت حسناته على سيئاته في الميزان.

والميزان كما دلت السنة الصحيحة هو لِوَزْنِ الأعمال يوم القيامة، وله كفتان حسيتان مشاهدتان، وهو ميزان دقيق عالي الحساسية والدقة، يعطي الوزن الصحيح لكل عمل حسب قيمته وظروف القيام به، والغربة التي رافقته، ودواعي النفس والسوء التي صاحبته، وخَلاصُه من الرياء وحبّ السمعة، وبُعده عن الظهور وحب الرياسة، والأذىٰ الذي لحق بصاحبه، والصبر الذي صُرِفَ له، وكظم الغيظ ومعالي الأخلاق وجميل الحلم الذي احتُسِبَ لله عنده، فقد هيأ الله هذا الميزان يوم القيامة ليؤشر ويدخل في الحساب هذه الدقة العالية.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 8 ـ 9].

ومن صحيح السنة العطرة في مفهوم ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم بسند جيد عن سلمان، عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب: لِمَنْ يزن هذا؟ فيقول الله تعالىٰ: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. ويوضع الصراط مثل حد الموسى فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 586). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

رسول الله ﷺ: [كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم][1].

الحديث الثالث: أخرج مسلم في الصحيح من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [الطهور شطرُ الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض][2].

الحديث الرابع: أخرج أحمد في المسند بإسناد حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه: [أنه كان يجني سِواكاً من الأراك وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ: ممَّ تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه ، فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾. قال مجاهد: (يقول: في عيشة قد رضيها في الجنة). والعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة ، والمقصود: هو في حياة مرضية يرضاها صاحبها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾. أي: خفّ وزن حسناته ، ورجح وزن سيئاته.

أخرج البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105]][4].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾. أي: فمسكنه جهنم ، وسمّاها أمّه لأنه يأوي إليها كما يأوي الطفل إلى أمه ، وسميت هاوية لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها. فعن قتادة: (﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ وهي النار هي مأواهم). وقال: (مصيره إلى النار ، هي الهاوية). وقال قتادة: (هي كلمة عربية ، كان الرجل إذا وقع في أمر شديد قال: هوت أمّهُ). وعن أبي صالح: (﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ قال: يهوون في النار على رؤوسهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7563) ـ كتاب التوحيد. وأخرجه مسلم (2694) في الذكر.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم برقم (120) ، وهو جزء من حديث أطول.

(3) حديث حسن. انظر تخريج الطحاوية (82) ـ وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 741) لمزيد من التفصيل لهذا البحث: «الحساب والقصاص والميزان».

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4729) ـ كتاب التفسير. سورة الكهف ، آية (105).

وعن سعيد عن قتادة: (﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ قال: يهوي في النار على رأسه). وعن ابن عباس: (﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ وهو مثلها، وإنما جعلت النار أمَّه، لأنها صارت مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إذ لم يكن له مأوىً غيرها، بمنزلة أمّ له).

و﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ اسم من أسماء النار. قال ابن زيد: (الهاويةُ: النار، هي أمُّه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾).

وفي سنن النسائي بسند صحيح من حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: [إذا حُضِرَ المؤمن أَتَتْهُ ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخْرُجي راضيةً مَرْضياً عنك، إلى رَوْحِ الله ورَيْحان، وربٍّ غَيْرِ غضبان، فتخرج كأطيب ريح المِسك، حتىٰ أنَّه لَيُناوِلُهُ بَعْضُهم بَعْضاً، حتىٰ يأتون به بابَ السماء، فيقولون: ما أَطْيَبَ هذه الريح، التي جاءتكم من الأرض، فيأتونَ به أرواحَ المؤمنين، فلهم أشدُّ فَرَحاً به من أَحَدِكُمْ بغائبه يَقْدَمُ عليه. فيسألونه: ماذا فعل فُلان، ماذا فعلَ فُلان؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غمِّ الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذُهِبَ به إلى أُمِّهِ الهاويةِ] الحديث[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾. استفهام للتهويل والتفظيع، ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا يدرىٰ كنهها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾. أي: قد انتهىٰ حرّها وبلغ في الشدة غايته، فهي شديدة الحرّ، قوية اللهيب والسعير.

قال ابن جرير: (يعني بالحامية: التي قد حميت من الوقود عليها).

وقد جاء تفصيل ذلك في أحاديث من السنة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [ناركم جزء من سبعين جُزءاً من نار جهنم. قيل: يا رسول الله! إن كانت لكافية. قال: فُضِّلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهنَّ مثلُ حرّها][2].

وفي رواية: [ناركم هذه التي توقد بنو آدم، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي (1729) ـ كتاب الجنائز. باب ما يلقىٰ به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه. ورواه الحاكم وابن حبان. انظر: صحيح الجامع (504).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3265)، وأخرجه مسلم (2843). وانظر: مختصر صحيح مسلم (1976)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 760) ـ لتفصيل البحث. وانظر لرواية أحمد: المسند (2/ 467)، وإسناده على شرط مسلم.

وفيها: [فإنَّها فَضَلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً، كُلُّهُنَّ مثلُ حرِّها]. وفي رواية لأحمد في المسند: [لقد فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً حرّاً فحَرّاً].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ ناركم هذه جزءٌ من سبعين جُزءاً من نار جَهَنَّم، وَضُرِبتْ بالبحر مَرَّتين، ولولا ذلك ما جَعَلَ الله فيها مَنْفَعَةً لأحد][1].

وفي رواية أخرىٰ عند أحمد عنه مرفوعاً: [هذه النار جزء من مئة جزء من جهنم].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: [أهْوَنُ أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو مُنتعِلٌ بِنَعْلَيْن من نارٍ يغلي منهما دماغُه][2].

وله شاهد في مسند أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [إنَّ أهونَ أهل النار عذاباً من له نَعلان يغلي منهما دماغُه].

الحديث الرابع: أخرج أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [إذا اشتدَّ الحرُّ فأبْرِدُوا عن الصلاة، فإن شدّة الحر من فَيْحِ جَهنّم][3].

الحديث الخامس: أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [اشتكت النار إلى ربِّها فقالت: يا ربِّ! أكَلَ بعضي بعضاً، فأذِنَ لها بنفسَين: نفسٌ في الشتاء، ونفسٌ في الصيف. فأشدُ ما تجدون في الشتاء من بَرْدِها، وأشدُّ ما تجدون في الصيف من حَرّها][4].

تم تفسير سورة القارعة

بعون الله وتوفيقه، وواسع منِّه وكرمه

صبيحة يوم الخميس 5 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ

الموافق 5/ كانون الثاني/ 2006 م

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 244)، وإسناده على شرطهما. وانظر للرواية الأخرىٰ مسند أحمد (2/ 379)، وإسناده على شرط مسلم.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم (1/ 135). وانظر للشاهد مسند أحمد (2/ 432) ورجاله ثقات.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (536)، ومسلم (615)ح (183)، وأحمد (2/ 229).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (537)، ومسلم (617) ح (185)، والترمذي (2592)، وابن ماجة (4319)، وأحمد (2/ 462)، وابن حبان (7566).

دروس ونتـــائج وأحكـــام

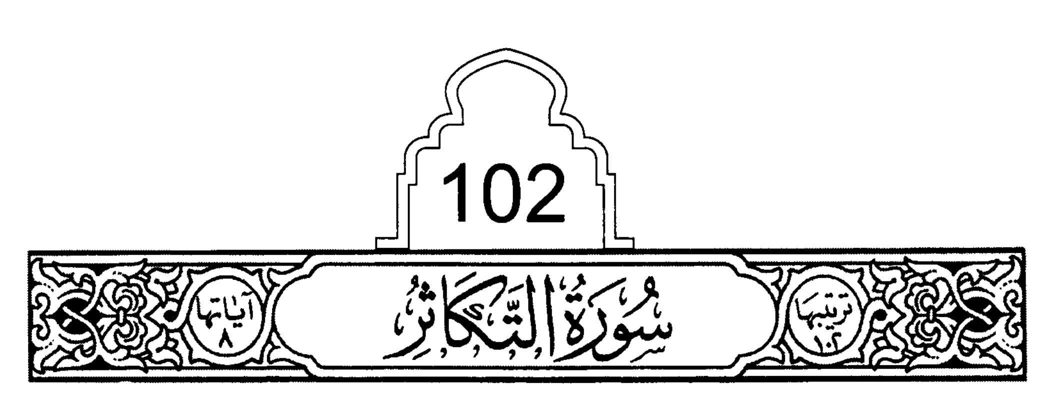
1 ـ القارعة اسم من أسماء يوم القيامة ، عظَّمه الله وحذّره عباده .

2 ـ يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت ، ليزن أعمال الصالحين الكبيرة ، وآثام المجرمين الخَطيرة .

3 ـ كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

4 ـ إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة .

5 ـ ناركم هذه التي توقد بنو آدم ، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم .



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (8).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن مُطَرِّفٍ ، عن أبيه قال: [أتيت النبي ﷺ وهو يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: يقول ابنُ آدم: مالي ، مالي ، قال: وهَلْ لكَ ، يا ابن آدمَ! مِنْ مالِكَ إلا ما أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟][1].

موضوع السورة

اختبار التفاخر والتكاثر يوم الدين
والسؤال عن النعيم ورؤية الجحيم

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الإخبار عن انشغال أكثر العباد بالتفاخر بالأموال والأولاد وإيثار الدنيا الفانية على الحياة الباقية.

2 ـ حصول الاعتبار عند المصير إلى التراب ، ومفارقة الأهل والأحباب.

3 ـ السؤال حق عن النعيم ، أمام أهوال نار الجحيم ، ولا ينجو إلا من كتب له الفوز والنجاة من الله الكريم.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2958) ـ كتاب الزهد ـ ورواه أحمد (4/ 24) ، والترمذي (2342) ، والنسائي (6/ 238) ، وابن حبان (701) ، واستدركه الحاكم (2/ 534) ، ورواه الطيالسي (1148) ، كلهم من حديث عبد الله بن الشخير.

بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ 8. **قوله تعالىٰ:** ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾.

في هذه الآيات: تقريرُ الله تعالىٰ انشغال أكثر العباد عن طاعته بالأموال والأولاد، والتفاخر والتكاثر، وإيثار الدنيا الفانية، على الحياة الباقية، فلا يحصل الاعتبار إلا عند المصير إلى التراب، ومفارقة الأهل والأحباب، ثم السؤال لا مفر منه في أرض المحشر عن النعيم، أمام أهوال نار الجحيم، ولا ينجو إلا مَنْ كُتب له الفوز والنجاة من الله الكريم.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾. تحذير ووعيد. أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد، والتفاخر بزينة هذه الحياة الدنيا، والتغالب فيها، والاستكثار من تحصيلها، عن طاعة الله والعمل للآخرة، وما ينجيكم من سخطه تعالىٰ وعقابه.

قال الحسن البصري: (﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ في الأموال والأولاد). وقيل: ﴿أَلْهَاكُمُ﴾: أنساكم. وقال قتادة: (﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي: التفاخر بالقبائل والعشائر). وقال الضحاك: (أي: ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة).

وأصل: ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ ـ في كلام العرب ـ من لَهِيَ عن الشيء لُهِيّاً ولُهْياناً ـ بضم اللام وكسرها ـ أي: سلاَ عنه وترَكَ ذِكره وأضْرَب عنه. و«ألهاه» شغَله، و«لَهّاهُ» به تَلهيةً أي: عَلَّلَهُ.

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك: [أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو أنَّ لابن آدمَ وادياً مِنْ ذَهَبٍ أحبَّ أن يكونَ لهُ واديان، ولَنْ يَمْلأَ فاهُ إلا التراب، ويتوب الله

على مَنْ تابَ». قال ثابت عن أنس عن أُبَيّ: (كُنّا نُرَىٰ هذا من القرآن حتىٰ نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾)][1].

قال ابن العربي: (وهذا نصّ صحيح مليح، غاب عن أهل التفسير فَجهِلوا وجَهَّلوا، والحمد لله على المعرفة). ومقصود كلام ابن العربي أن الحديث المتقدم ظنه بعض المفسرين من الآيات التي نسخت، وهو ليس بقرآن أصلاً، وإنما دل على ذلك نزول: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول العبد: مالي مالي! وإنما له من ماله ثلاثٌ: ما أكل فأفنىٰ، أو لبس فأبلىٰ، أو تَصَدَّق فاقتنىٰ، وما سِوَىٰ ذلك فذاهِبٌ وتارِكُهُ للناس][2].

وفي مسند أحمد وجامع الترمذي من حديث عبد الله بن الشخير قال: [انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، يقول ابنُ آدمَ: مالي مالي. وهل لك من مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لَبِسْتَ فأبليتَ، أو تصدَّقت فأمضيتَ][3].

وفي الصحيحين والمسند عن أنس أن النبي ﷺ قال: [يَهْرَمُ ابن آدم وتبقىٰ منه اثنتان: الحرصُ والأمل][4].

وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾. أي: ما زلتم في الانشغال بالدنيا عن الآخرة حتىٰ أدرككم الموت وأنتم على تلك الحال. قال ابن جرير: (وقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يعني: حتىٰ صرتم إلى المقابر فدفنتم فيها، وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر، لأن الله تعالىٰ ذكره، أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيداً منه لهم وتهدّداً).

وقال النسفي: (﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ حتىٰ أدرككم الموت على تلك الحال، أو حتىٰ زرتم المقابر وعددتم من في المقابر من موتاكم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6439) ـ (6440)، كتاب الرقاق، باب ما يُتَّقىٰ من فتنة المال.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2959) ح (4). ـ كتاب الزهد ـ من حديث أبي هريرة.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 24)، والترمذي (2342)، (3354). والنسائي في «التفسير» (716)، وفي «السنن» (3613). ورواه مسلم (3/ 2958) بنحوه.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6421)، ومسلم (1047)، ورواه أحمد في المسند (3/ 115)، ورواه أبو يعلىٰ (2979).

وقال القرطبي: (﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: حتىٰ أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زوّاراً، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبره).

قلت: والراجح أن المقصود المصير إلى القبور بعد الموت والدفن فيها، وعُبِّر عن دخولها بالزيارة لأن الإنسان ماكث فيها إلى يوم البعث، فهو كالزائر فترة محدودة إلى حين يوم النشور والحساب، ومقايضة الجزاء، والاستقرار في الجنة أوالنار، وربما كان هذا من فتح الله علي من روائع الفهم لكتابه، والله تعالىٰ أعلم.

والمقابر: جمع مَقْبَرَة ومَقْبُرَة. والقبور: جمع القبر. ولم يرد ذكر المقابر في التنزيل إلا في هذه السورة، وأما السنة فقد كثر ذكر المقابر فيها والحث على زيارتها، وزيارتها كما قيل من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها ترققه بذكر الموت والآخرة. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: [زارَ النبي ﷺ قَبْرَ أمه، فبَكَىٰ وأَبْكىٰ مَنْ حَوْلَهُ، فقال ﷺ: استأذَنْتُ ربي في أن أستغفرَ لها فلم يُؤْذَنْ لي، واسْتَأْذَنْتُه في أن أزور قَبْرَها فَأَذِنَ لي، فزوروا القبورَ، فإنها تُذَكِّرُكُم الموت][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [زُوروا القُبور. فإنها تُذَكِّرُكُم الآخِرة][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن ابن بريدة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: [نَهَيْتكُم عنْ زيارةِ القبور فزوروها، فإن في زيارتِها تذكرة][3].

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة قال: [لعن رسول الله ﷺ زَوّارات القبور][4].

والمقصود هنا: لَعْنُ النساء اللاتي يكثرن الزيارة لما لا يسلم ذلك من المخالفات الشرعية، بخلاف غيرهن فلا يشملهن اللعن، وإلا فقد أذن للرجال والنساء بزيارة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (976) ح (108) ـ كتاب الجنائز، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر الحديث (105).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (1569) ـ كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في زيارة القبور.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3235) ـ كتاب الجنائز ـ. وانظر صحيح سنن أبي داود (2772).

(4) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (1576) ـ كتاب الجنائز ـ. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (1281).

القبور. قال القرطبي: (اللعن المذكور في الحديث إنما هو للمكثرات من الزيارة لما تقتضيه الصيغة من المبالغة، ولعلّ السبب ما يفضي إليه ذلك من تضييع حق الزوج والتبرج، وما ينشأ من الصياح ونحو ذلك، وقد يقال: إذا أمن جميع ذلك فلا مانع من الإذن لهن، لأن تذكر الموت يحتاج إليه الرجال والنساء).

قال الشوكاني في «نيل الأوطار» (4/ 95): (وهذا الكلام هو الذي ينبغي اعتماده في الجمع بين أحاديث الباب المتعارضة الظاهر).

والخلاصة: إن الاعتبار بزيارة القبور من أنفع أنواع الاعتبار، وكذلك شهود الناس عند الاحتضار.

قال العلماء: (ينبغي لمن أراد علاج قلبه، وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتَضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه).

أخرج ابن ماجة والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [«أكثروا هادم اللذات» ـ يعني الموت ـ][1].

ورواه البيهقي وابن حبان بلفظ: [أكثروا ذكر هادمِ اللذات: الموتُ، فإنه لم يذكُرهُ أحدٌ في ضِيقٍ من العيش إلا وسَّعه عليه، ولا ذكَره في سَعة إلا ضَيَّقَها عليه].

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾. قال الحسن: (هذا وعيد بعد وعيد). والمقصود: زَجْرٌ لهم على التكاثر، وتَنْبيهٌ على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾. أي: لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الآخرة، حتىٰ صرتم إلى المقابر. قال النسفي: (﴿ كَلَّا ﴾ تكرير الردع للإنذار والتخويف ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ـ جواب لو محذوف ـ، أي: لو تعلمون ما بين أيديكم ﴿ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ علم الأمر يقين، أي كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم

(1) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4258). والترمذي في أبواب الزهد. انظر صحيح سنن الترمذي (1877). ورواه البيهقي وابن حبان كما في الرواية الأخرىٰ. انظر «تخريج الإرواء» (682)، وصحيح الجامع (1222).

التكاثر ، أو لفعلتم ما لا يوصف ولكنكم ضلال جهلة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ . أي : في الآخرة. قال القاسمي : (قوله تعالىٰ: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ جواب قسم مضمر ، أكّد به الوعيد ، وشدّد به التهديد ، وأوضح به ما أُنذروه تفخيماً).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾. ﴿عَيْنَ ﴾ هنا بمعنىٰ «نفس». والمقصود: ثم لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين ، وهي المشاهدة والرؤية بأعينكم. والتكرار بِثُمَّ ـ التي تفيد العطف ـ إنما هو للتغليظ في التهديد ، والزيادة في التهويل والوعيد. وقيل: الرؤية الأولىٰ بالقلب والثانية بالعين ، والمعنىٰ الأول أرجح ، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ . أي : ثم لتسألن يوم القيامة عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن شكر الله والعمل للآخرة.

قال مجاهد: (﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال: الأمن والصحة). وقال ابن عباس: (النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار). وقال سعد بن طريف عن أبي جعفر: (﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال: العافية). وقيل: الطعام والشراب.

قلت: والنعيم كلمة جامعة للأمن ، والصحة ، والفراغ ، وملاذّ المأكول والمشروب ، والماء البارد عند الظمأ ، وظلال المساكن والأشجار عند تقلب الأجواء. وغير ذلك من النعم التي لا يحصيها إلا الله.

ففي التنزيل من آفاق ذلك:

1 ـ نعمة استواء الخلق واكتمال صورته. قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: 4]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78].

2 ـ نعمة الماء والنبات والشجر. قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 10 ـ 11].

3 ـ نعمة الدواب والمسكن والملبس. قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ

ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: 80 ـ 81].

4 ـ نعمة اللبن والعسل والثمر. قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 66 ـ 69].

5 ـ نعمة الليل والنهار، ونعمة النجوم والجبال والبحار والأنهار. قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 12 ـ 18].

6 ـ نعمة الأمن. قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: 3 ـ 4].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة والترمذي بسند حسن عن الزبير بن العوام قال: [لما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، وأيّ النعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أما إنَّهُ سيكون»][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة قال: [لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الناس: يا رسول الله عن أي النعيم نسأل؟

(1) حسن الإسناد. أخرجه ابن ماجة في السنن (4158). والترمذي (3353)، وأحمد (1/ 164).

وإنما هما الأسودان ، والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا؟ قال: «إن ذلكَ سيكون»][(1)].

الحديث الثالث: أخرج ابن حبان والحاكم والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ أَوَّلَ ما يُسْأل عنه يوم القيامة ـ يَعْني العَبْدُ من النَّعيم ـ أَنْ يُقالَ: أَلَمْ نُصِحَّ لك جِسْمَكَ ، ونُرْويكَ من الماء البارد][(2)]. وفي رواية: [إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له: ألم أصحّ لك جسمك ، وأروِك من الماء البارد؟].

الحديث الرابع: أخرج البخاري والترمذي وابن ماجة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحّة الفراغ][(3)].

الحديث الخامس: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالعبد يومَ القيامة فيقول له: ألمْ أجعلْ لك سمعاً وبصراً ، ومالاً وولداً ، وسخّرت لك الأنعامَ والحرث ، وتركتك ترأس وتَرْبَعُ ، فكنتَ تظن أنك مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني][(4)].

وله شاهد عند الإمام مسلم بلفظ: [فيلقىٰ العبدَ فيقول: أي فُلْ ـ تصغير فلان ـ! ألم أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وأُزَوِّجْكَ وأُسخِّر لك الخيل والإبل وأذَرْكَ ترأسُ وتربَعُ؟ فيقول: بلىٰ أي ربّ ، قال: فيقول: أَفَظَنَنْتَ أنك ملاقِيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني].

الحديث السادس: روىٰ مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: [خَرَجَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ أو لَيْلَةٍ ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال: ما أَخْرَجَكُما مِنْ بُيوتِكُما هذه الساعة؟ قالا: الجوع ، يا رسول الله! قال: وأنا ، والذي نفسي بيده! لأَخْرَجَني الذي

---

(1) حسن بما قبله. أخرجه الترمذي في السنن بإسناد حسن من حديث أبي هريرة. انظر صحيح سنن الترمذي (2673) ـ كتاب التفسير ـ سورة التكاثر.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (2/ 240) ، وابن حبان (2585) ، والحاكم في المستدرك (4/ 138). وانظر صحيح سنن الترمذي (2674) ـ كتاب التفسير ـ عند الآية السابقة ، سورة التكاثر ، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (539).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6412) ، والترمذي (2304) ، وابن ماجة (4170).

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ، وأصله في صحيح مسلم. انظر صحيح سنن الترمذي (1978). وانظر للشاهد: مختصر صحيح مسلم (1932).

أَخْرَجَكُما ، قوموا ، فقاموا معه ، فأتىٰ رجُلاً من الأنصار ، فإذا هو ليسَ في بيتِهِ ، فلما رأتْهُ المرأةُ قالت: مَرْحَباً! وأهلاً! فقال لها رسول الله ﷺ: أين فُلانٌ؟ قالت: ذَهبَ يَسْتَعْذِبُ لنا من الماء ، إذْ جاءَ الأنصاري فنظرَ إلى رسول الله ﷺ وصاحِبَيْه ، ثم قال: الحَمْدُ لله ، ما أَحَدٌ اليومَ أكْرَمَ أضْيافاً مِنِّي ، قال: فانطلق فجاءهم بِعِذقٍ[1] فيه بُسْرٌ وتَمْرٌ ورُطَبٌ ، فقال: كُلوا مِنْ هذه ، وأخذَ المُدْيَةَ ، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك! والحلوبَ» فذبَحَ لهم ، فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العِذْقِ ، وشَربوا ، فلما أن شَبِعُوا ورَوُوا ، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمرَ: «والذي نَفْسي بيده! لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذا النعيم يومَ القيامة ، أَخْرَجَكُم من بيوتكم الجوعُ ، ثُمَّ لم تَرْجِعُوا حتىٰ أصابَكُم هذا النعيم»][2] .

تم تفسير سورة التكاثر
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه
مساء يوم الخميس 5 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 5/ كانون الثاني/ 2006 م

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنىٰ ، أو لَبِسَ فأبْلىٰ ، أو تَصَدَّقَ فأمْضىٰ.

2 ـ يهرم ابن آدم وتبقىٰ منه اثنتان: الحرص والأمل.

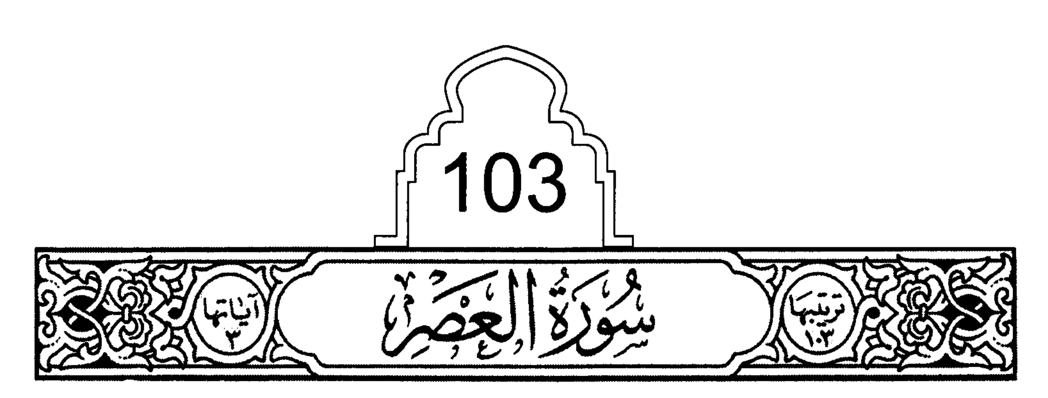
3 ـ زوروا القبور ، فإنها تذكِّركم الآخرة. وأكثروا ذكر هادم اللذات: الموت ، فإنه لم يذكره أحدٌ في ضيق من العيش إلا وسَّعه عليه ، ولا ذكره في سَعة إلا ضَيَّقها عليه.

4 ـ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصِّحة والفراغ.

---

(1) العذق: غصن من النخل ، والعذق من التمر بمنزلة العنقود من العنب.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2038) ـ كتاب الأشربة ، وأخرجه أبو داود (5128) ، والترمذي (2822) ، (2369) ، وابن ماجة (3745) ، والنسائي في «التفسير» (717).



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (3).

أخرج الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب» بسند حسن في الشواهد عن ثابت البناني عن أبي مدينة الدارمي ـ وكانت له صحبة ـ قال: [كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتىٰ يقرأ أحدهُما على الآخر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ ، ثم يُسَلِّم أحدهما على الآخر][1].

وفي لفظ: [كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرّقا إلا على أن يقرأ أحدُهما على الآخر سورة العَصْر إلى آخرها ، ثم يُسَلِّم أحدهما على الآخر]. وقال الشافعي رحمه الله: (لو تَدَبَّرَ الناسُ هذه السورة لَوَسِعَتْهم).

موضوع السورة

الإقسام بالعصر أن الإنسان مظنة الخسران
إلا إن كان من أهل الصدق في العمل والإيمان

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ قسَمُ الله تعالىٰ بالوقت والزمان ، أن الإنسان مظنة الخسران.

2 ـ استثناء أهل الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر من الخسارة ، فهؤلاء قد كتب الله لهم الفوز والربح في التجارة.

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (5120) ، والبيهقي في «الشعب» (9057) ، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2648).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 3. قوله تعالىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

في هذه الآيات: يقسم الله سبحانه بالوقت ـ وهو العمر ـ أن الإنسان مظنة الخسران، إلا إن كان من أهل الإيمان والعمل الصالح والشكر لله بمقابلة الإحسان بالإحسان، وكان من أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ في جماعة الحق ـ أهل الصبر على الغربة والمحن عبر الأيام.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾. قَسَمٌ من الله سبحانه بالدهر. وعن ابن عباس: (﴿وَالْعَصْرِ﴾ قال: العصر: ساعة من ساعات النهار). وقال الحسن: (هو العشي).

قلت: والراجح الأول وهو عموم الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر. فأقسم تعالىٰ بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب. قال القرطبي: (أيّ عصر أقسم الله به عز وجل، لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدّلها، وما فيها من الدلالة على الصانع).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾. هو جواب القسم. ويعني بالإنسان جنس الناس. قال الأخفش: (﴿لَفِي خُسْرٍ﴾: لفي هَلَكَةٍ). وقال الفراء: (عقوبة). قال ابن جرير: (يقول: إن ابن آدم لفي هلكة ونقصان). وقيل: لفي غَبْن. وقال ابن زيد: (لفي شر). والمعنىٰ متقارب. وهو كقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. استثناء من الإنسان، الذي هو مظنة الخسران. قال ابن كثير: (فاستثنىٰ من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم).

وقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾. قال القاسمي: (أي أوصىٰ بعضهم بعضاً بما أنزل الله في كتابه من أمره، واجتناب ما نهىٰ عنه من معاصيه).

وقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾. قال قتادة: (الصبر: طاعة الله). قال الرازي: (دلت الآية على أن الحق ثقيل، وأنّ المحن تلازمه. فلذلك قرن التواصي بالصبر). وقال النسفي: (﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبلو به الله عباده). وتخصيص التواصي بالحق والصبر مع دخولهما في مفهوم الأعمال الصالحة، إنما هو لإبراز مكانتهما ليحصل الاعتناء بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر، والتمييز بينهما. ولابد من العلم بحال المأمور وحال المنهي. قال: ولا بد أيضاً أن يكون حليماً، صبوراً على الأذىٰ. فإنه لا بد أن يحصل له أذىٰ. فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، كما قال لقمان لابنه: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

قال: ولهذا أمر الله الرسل ـ وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ بالصبر، كقوله لخاتم الرسل ﷺ، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة، فإن أول ما أرسل أنزلت عليه سورة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ بعد أن أنزلت عليه سورة ﴿ ٱقْرَأْ﴾ التي بها نُبِّئَ. فقال الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾. فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة، وختمها بالأمر بالصبر)[1].

فسورة «العصر» سورة جامعة لكل خير، ولذلك كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتىٰ يقرأها أحدهما على الآخر، كما مضىٰ ذكره. قال الشافعي رحمه الله: (لو فكّر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم).

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: (وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداها معرفة الحق. الثانية عمله به. الثالثة تعليمه من لا يحسنه. الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه. فذكر تعالىٰ المراتب الأربعة في هذه السورة. وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(1) انظر رسالة: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ـ شيخ الإسلام ـ وانظر كتابي: تحصيل السعادتين ص (262). لمزيد من التفصيل في هذا البحث.

ﵟءَامَنُواْﵞ وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة. ﵟوَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِﵞ وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرىٰ. ﵟوَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّﵞ ، وصىٰ به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً ، فهذه مرتبة ثالثة. ﵟوَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِﵞ ، صبروا على الحق ووصىٰ بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات. فهذه مرتبة رابعة. وهذا نهاية الكمال. فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه ، مكملاً لغيره. وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية. فصلاح القوة العلمية بالإيمان. وصلاة القوة العملية بعمل الصالحات. وتكميله غيره ، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة ، على اختصارها ، هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه ، شافياً من كل داء ، هادياً إلى كل خير) انتهىٰ.

تم تفسير سورة العصر
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر يوم الجمعة 6 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 6/ كانون الثاني/ 2006 م

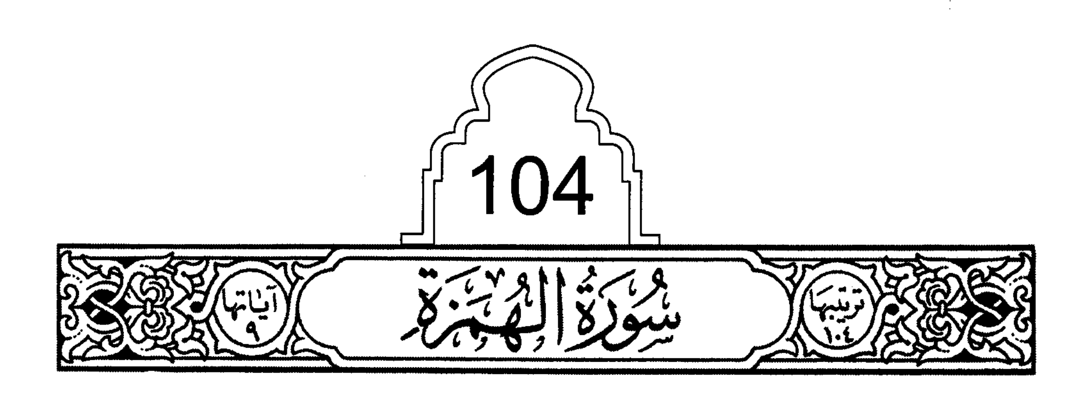
دروس ونتائج وأحكام

1 ـ لو تَدَبَّرَ الناس سورة العصر لوسعتهم.

2 ـ صلاحُ القوة العلمية بالإيمان ، وصلاحُ القوة العملية بعمل الصالحات والإحسان.

3 ـ سورة العصر من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (9).

موضوع السورة

مصير الهمزة اللمزة

الجامع المال للإثم والمعصية

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ التحذير الشديد من الغيبة للمؤمنين والطعن واللمز في السِّر والعلن.

2 ـ الوعيد الأكيد على عبيد المال الذين ينفقون أموالهم في المنكرات والفتن.

3 ـ نار الله الموقدة تطلع على الأفئدة ، ولها أبواب على أهلها مطبقة موصدة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 9. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

في هذه الآيات: التحذير الشديد من الغيبة والطعن واللمز في السر والعلن، والوعيد الأكيد على عبيد المال الذين ينفقون أموالهم في المنكرات والفتن، فإن نار الله الموقدة، تطلع على الأفئدة، ولها أبواب على أهلها مؤصدة، مطبقة بإحكام بعمد ممددة.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. أي: خزي أو عذاب أو هَلَكة للهمزة، وهو الذي يغتاب الرجل في وجهه، واللمزة الذي يغتابه من خلفه. قال ابن عباس: (﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: طعَّان معياب). وكان أمية بن خلف إذا رأىٰ رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وقيل فيه نزل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

قال ابن هشام: (الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، واللمزة الذي يعيب الناس سراً ويؤذيهم). وقال الربيع بن أنس: (الهُمَزة، يَهْمِزُه في وجهه، واللُّمَزَةُ من خَلْفِه). وقال قتادة: (يَهْمِزُهُ ويلمِزُه بلسانه وعَيْنِه، ويأكل لحوم الناس، ويطعنُ عليهم). وقيل: الهمّاز بالقول، واللمّاز بالفعل. وقال مجاهد: (الهَمْزَةُ باليد والعين، واللَّمْزَة باللسان).

قلت: وفي لغة العرب: الهمز كاللَّمز وزناً ومعنىٰ. والهمَّاز العَيَّاب. واللَّمز العيب وأصْلُه الإشارة بالعين ونحوها. ولُمَزَة بوزن هُمَزَة أي: عَيَّاب. والراجح أن اللّمزَ في السر والهمز في العلن. وفي التنزيل: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 11].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾. بيان لسبب همزه ولمزه، وهو إعجابه بما جمع من المال، وظنه أن له به الفضل، فهو لذلك يستقصر غيره.

وعن السّدي: (﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: جَمَعَهُ بعضَه على بعض، وأحصىٰ

عدده ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾. وقال محمد بن كعب: (﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ ، ألهاه مالُه بالنهار ، هذا إلى هذا ، فإذا كان الليلُ نام كأنه جيفة).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾. أي: يظن أن ما جمع من المال يخلِّده في هذه الدار. فهو لشدة إعجابه بماله ، أعماه ذلك عن التفكر بمآله.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾. أي: ليس الأمر على ما يحسبه بل لَيُطْرَحَنَّ هو وماله في النار التي تهشم كل ما يلقىٰ فيها وتحطمه. قال ابن جرير: (والحطمة: اسم من أسماء النار ، كما قيل لها: جهنم وسقر ولظىٰ ، وأحسبها سميت بذلك لحطمها كل ما ألقي فيها ، كما يقال للرجل الأكول: الحطمة).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾. تعجيب وتهويل وتعظيم ، لشأن الحطمة وأهوالها وتفخيم لأمرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾. أي: التي أوقد عليها الأحقاب الطويلة ، فهي غير خامدة ، أعدّها الله للعصاة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾. أي: يخلص حرّها إلى القلوب فيعلوها ويغشاها ، فيكون ألمها بحسب ما حوت تلك الأفئدة من المقاصد الخبيثة والنيات الزائغة الفاسدة ، وسَيِّئِ الأخلاق من الكبر ، واحتقار أهل الفضل ، والنفاق والرياء وغير ذلك. قال محمد بن كعب: (تأكل النار جميع ما في أجسادهم ، حتىٰ إذا بلغت إلى الفؤاد ، خُلِقوا خلقاً جديداً ، فرجعت تأكلهم).

وقال النسفي: (﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ يعني أنها تدخل في أجوافهم ، حتىٰ تصل إلى صدورهم ، وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب ، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ولا أشدّ تألماً منه بأدنىٰ أذىٰ يمسّه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه ، وقيل خصّ الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة ، ومعنىٰ اطلاع النار عليها أنها تشتمل عليها).

وقيل: معنى ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي: تعلم مقدار ما يستحِقُّه كل واحد منهم من العذاب ، وذلك بما استبقاه الله تعالىٰ من الأمارة الدالة عليه. ويقال: اطَّلع فلان على كذا: أي علمه. ذكره القرطبي وقال: (وقد قال الله تعالىٰ: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: 17]. وقال تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: 12]. فوصفها بهذا ، فلا يبعد أن توصف بالعلم).

قلت: وهذا تأويل لطيف منسجم مع السياق والنصوص، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾. قال الحسن: (أي مُطْبَقَة). وقال مجاهد: (مغلقة). وهو من آصَدْت الباب: إذا أغلقته. وقد مضىٰ تفصيل ذلك في سورة البلد. والمقصود: إن نار الله الموقدة ستكون مطبقة على أهلها، مغلقة عليهم أبوابها، فلا سبيل لهم إلى الخروج منها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾. قيل: أي كائنين في عمد ممدّدة موثقين. وقال مقاتل: (أطبقت الأبواب عليهم ثم شدّت بأوتار من حديد، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم رَوْح). وقال عطية العوفي: (﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾: عَمَدٍ من حديد). وقال السُّدي: (من نار). وقال عكرمة عن ابن عباس: (يعني: الأبواب هي الممدودة). وقال قتادة: (في قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة﴾). فالفاء هنا بمعنىٰ الباء. وقال العوفي، عن ابن عباس: (أدخلهم في عَمَد فمُدّت عليهم بعِمَاد، في أعناقهم السلاسلُ فَسُدّت بها الأبواب). وقال أبو صالح: (﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾: يعني القيودَ الطِّوال). وقال قتادة: (كنا نُحَدَّث أنهم يعذَّبون بعَمَدٍ في النار). واختاره ابن جرير.

قلت: والراجح من السياق أن المقصود تؤصد عليهم الأبواب ثم تمدد العمد على تلك الأبواب استيثاقاً في استيثاق، وإحكاماً في إحكام، وإطباقاً في إطباق، والله تعالىٰ أعلم.

تم تفسير سورة الهمزة

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

عصر يوم السبت 7 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ

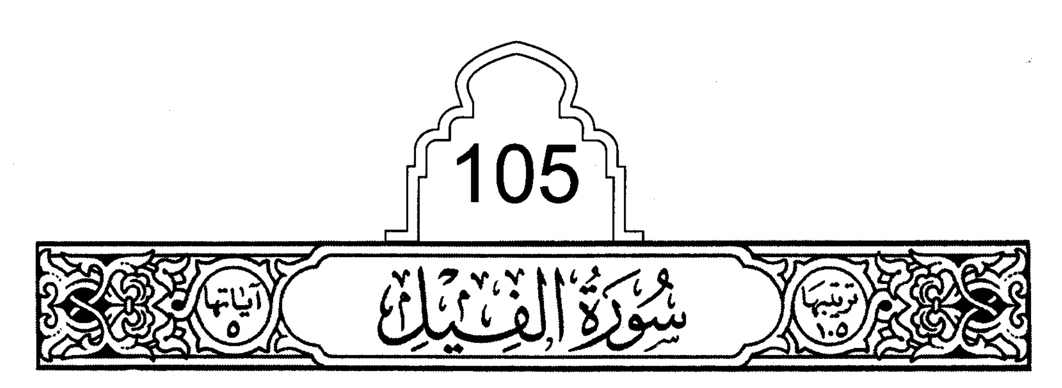
الموافق 7/كانون الثاني/2006 م

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ الهمز كاللّمز وزناً ومعنىٰ، واللمز في السر والهمز في العلن.

2 ـ الحطمة اسم من أسماء النار، تحطم كل ما ألقي فيها.

3 ـ يُحكم الإطباق على أهل النار، فلا سبيل لهم إلى الخروج منها.



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (5).

موضوع السورة

قصة أصحاب الفيل

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ امتنان الله تعالىٰ على قريش إذ نصرهم يوم الفيل وهم مشركون. فما لهم لا يؤمنون!

2 ـ رَدُّ الله كيد الكافرين بكيدهم حين أرادوا تخريب البيت الحرام ، ومكره تعالىٰ بهم وإنزال انتقامه الموجع بأصحاب الفيل البغاة اللئام.

3 ـ جعلهم كورق الزرع إذا أكلته الدواب ، وعبرة للناس على مرّ الزمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 5. **قوله تعالىٰ:** ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ قصة أصحاب الفيل ، الذين تطاولوا في البغي فحصدهم الله بالطير الأبابيل ، ترميهم بالحجارة فصاروا كورق الزرع المأكول.

وقصة أصحاب الفيل كما رواها ابن إسحاق رحمه الله: كان ذو نواس آخرَ ملوك حمير مشركاً قَتَلَ أصحاب الأخدود وكانوا نصارىٰ حوالي عشرين ألفاً ، لم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان ، فاستغاث بقيصر ملك الشام فكتب للنجاشي ملك الحبشة فبعث معه أميرين أرياط وأبرهة في جيش كثيف فدخلوا اليمن واستلبوا ملك حمير وهلك ذو نواس غريقاً في البحر. واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم أميران أرياط وأبرهة فاختلفا وتقاتلا كل معه جيش. فقال أحدهما للآخر: (إنه لا حاجة بنا إلى اصطلام الجيشين بيننا ولكن ابْرُزْ إليّ وأبرز إليك فأيهما قتل الآخر استقل بالملك). فتبارزا فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، فحمل عتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله ورجع أبرهة جريحاً.

فكتب إليه النجاشي يتوعده بما فعل ، فاستعطفه فرضي ، قد حلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيتَه فترقق وبعث بهدايا وتحف وجراب من تراب اليمن وجزَّ ناصيته ليطأها فيبر قسمه ، فَأُعجب النجاشي. ثم أرسل أبرهة للنجاشي يقول: (إني سأبني لك كنيسة باليمن لا مثيل لها).

فبناها بصنعاء رفيعة البناء عالية مزخرفة سمتها العرب «القليس» لارتفاعها ، لأن الناظر لها تكاد تسقط قلنسوته من ارتفاعها. وعزم أبرهة أن يصرف حج العرب لها بدل مكة ، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية وغضبت قريش. قيل: بعثوا فتى ليلاً

فأحدث فيها فرأىٰ السدنة ذلك وأعلموا أبرهة فأقسم ليسيرن إلى بيت مكة فيخربنه حجراً حجراً.

وذكر مقاتل بن سليمان: (أن فتية من قريش دخلوها فأجّجوا فيها ناراً وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض).

فسار أبرهة في جيش عرمرم، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة، لم يُرَ مثله يقال له «محمود» ومعه ثمانية أفيال غيره أو اثنا عشر ـ أخرىٰ ـ ليجعل السلاسل في أركان الكعبة ثم توضع في عنق الفيل فيُزجَر ليُلقىٰ الحائط جملة واحدة. وسمعت العرب فخرج رجل من أشراف اليمن ـ وهو ذو نفر ـ فدعا قومه لجهاد أبرهة وحماية بيت الله فأجابوه وقاتلوا أبرهة، لكنهم هزموا وأسر «ذو نفر» فاستصحبه معه، فلما وصل أرض خثعم اعترض له «نفيل بن حبيب الخثعمي» في قومه فقاتلوه فهزمهم أبرهة وأُسر نفيل، فأراد قتله، ثم عفا عنه، واستصحبه ليدله في بلاد الحجاز. فلما اقترب من الطائف خرج له أهلها ثقيف وصانعوه خوفاً على بيتهم المسمىٰ «اللات» فأكرمهم وبعثوا معه دليلاً «أبو رغال». فلما وصل أبرهة «المغمس» قرب مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل فأخذوها وفيها مئتا بعير لعبد المطلب.

ثم بعث ـ أي أبرهة ـ حناطة الحميري يأتيه بأشراف مكة يخبرهم ما جاء لقتالهم إلا إن صدوه عن البيت، فدُلّ على عبد المطلب فأخبره، فقال عبد المطلب: (والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه).

فأتىٰ معه أبرهة، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر، فنزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط وقال لترجمانه: (قل له ما حاجتك؟) فقال: (إن حاجتي أن يردّ عليّ الملك مئتي بعير أصابها لي). فقال أبرهة لترجمانه: (قل له: قد كنتَ أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟). فقال له عبد المطلب: (إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه). قال: (ما كان ليمتنع مني). قال: (أنت وذاك).

فرجع يأمر أهل مكة التحصن برؤوس الجبال، ثم قام عبد المطلب وأخذ بحلقة باب الكعبة هو ونفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة.

قال ابن إسحاق: (ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال).

فلما أصبح أبرهة تهيأ وهيأ فيله «محموداً» وجيشه ، فلما وجهوا الفيل نحو مكة ، أقبل نفيل بن حبيب وأخذ بأذن الفيل وقال: (ابرك محمود ، وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام).

فبرك ومضىٰ نفيل يشتد في صعود الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبىٰ ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ثم وجهوه إلى المشرق ففعل كذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك. فبعث الله طيراً من البحر أمثال الخَطاطيف ، مع كل طير ثلاثة أحجار: حجر بمنقاره ، وحجران برجليه ، فحلقت عليهم وأرسلت تلك الأحجار فهلكوا.

قال ابن إسحاق: (جاؤوا بفيلين ، فأما محمود فربض ، وأما الآخر فشجع فحصب). ففرت بقية الفيلة ، وهلك أبرهة أثناء هربه وهلك جنده معه.

يروي مقاتل: (أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم وما كان معهم ، وأنّ عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة).

فقصّ الله في القرآن الكريم ، يوم جاء الإسلام ، هذه القصة ، يمتن بها على قريش ويذكرهم فضله عليهم إذ نصرهم وهم مشركون ، وقد كانوا تخلوا عن حماية البيت وهربوا صعوداً في الجبال.

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾. قال ابن عباس: (ألمْ تسمع؟) واللفظ استفهام ، والمعنىٰ تقرير. وقيل المعنىٰ: ألم تُخْبَر. وقيل: ألمْ تعلم. والخطاب للنبي ﷺ ، ولكنه عام ، فيه امتنان من الله تعالىٰ على قريش فما لهم لا يؤمنون؟

وأصحاب الفيل هم أولئك القوم من النصارىٰ من الأحباش الذين ملكوا اليمن ، ثم ساروا يريدون تخريب الكعبة ، فلما أقبلوا على مكة أرسل الله عليهم الطير المذكورة في هذه السورة فأهلكتهم ، وكان ذلك آية ، وقد وقع قبل بعثة النبي ﷺ بأربعين عاماً ، وكان بعض الذين شهدوا ذلك أحياء عند البعثة.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾. أي: ألم يجعل الله تعالىٰ مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة ، ضلالاً منهم أدّىٰ بهم إلى الهلاك. قال القرطبي: (﴿أَلَمْ

يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في إبطال وتضييع، لأنهم أرادوا أن يكيدوا قُريشاً بالقتل والسبي، والبيت بالتخريب والهدم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾. أي: جماعات متفرقة. وهي طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا هشمه.

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: هي التي يتبع بعضها بعضاً). وقال مجاهد: (هي شتىٰ متتابعة مجتمعة). وقال قتادة: (الأبابيل: الكثيرة). وقال ابن زيد: (الأبابيل: المختلفة، تأتي من ها هنا، وتأتي من ها هنا، أتتهم من كل مكان). وقال أبو سلمة: (الأبابيل: الزمر). وعن عبيد بن عمير: (قوله: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: سود بحرية، في أظافيرها ومناقيرها الحجارة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾. قال ابن عباس: (من طين. قال: طين في حجارة. قال: سجّيل بالفارسية: سنك وكل، حجر وطين). فهي من النوع الشديد الصلب.

وقال قتادة: (كانت مع كل طير ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها). فلا يصيب بها شيئاً إلا هشمه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾. قال مجاهد: (ورق الحنطة). وقال قتادة: (هو التِّبْنُ). وقال الضحاك: (كزرع مأكول). وقال ابن زيد: (ورق الزرع وورق البقل، إذا أكلته البهائم فَراثَتْه فصار روثاً).

والمقصود: فجعلهم الله كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل. أو كورق زرع قد أكلت منه الدواب وبقي منه التبن.

قال ابن جرير: (فجعل الله أصحاب الفيل كزرع أكلته الدواب فراثته، فيبس وتفرقت أجزاؤه. شبّه تقطع أوصالهم بالعقوبة التي أنزلت بهم، وتفرق آراب أبدانهم بها، بتفرق أجزاء الروث، الذي حدث عن أكل الزرع).

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن الله حبس عن مكة

الفيل ، وسُلِّطَ عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنون][1].

وقد كان فضل الله على قريش في ذلك عظيماً ، رغم بعدهم وانهيار مفاهيمهم وتحريفهم لدين إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

فقد أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» بسند صحيح عن أم هانئ مرفوعاً: [فَضَّلَ الله قريشاً بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشي. وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون. وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيهم غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾. وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية][2].

تم تفسير سورة الفيل
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه
مساء يوم السبت 7 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 7/ كانون الثاني/ 2006 م

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ إن الله حبس عن مكة الفيل ، وَسُلِّطَ عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنون.

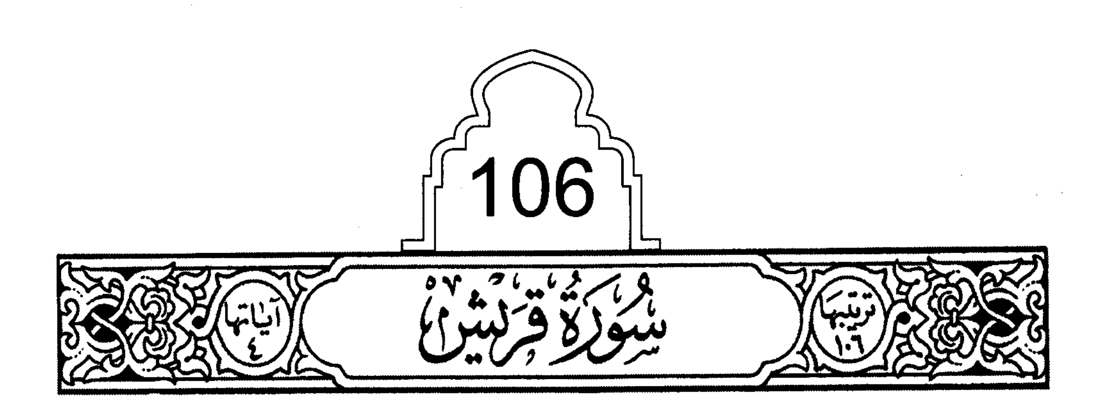
2 ـ فضل الله قريشاً بأن نصرهم يوم الفيل وهم مشركون.

3 ـ من السنة للحاج أن ينطلق من المزدلفة قبل طلوع الشمس إلىٰ منىٰ وهو يلبي ، فإذا أتىٰ بطن مُحَسِّر ـ وهو واد أهلك الله فيه أصحاب الفيل ـ أسرع السير.



(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6880) ـ كتاب الديات. وله شاهد آخر في كتاب اللقطة (2434). ورواه مسلم وغيره. وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية (1/ 63).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (1/ 1/ 341). والبيهقي في «مناقب الشافعي» (1/ 34). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1944).



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (4).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد جاء ذكر قريش وهذه السورة في أحاديث من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» بسند صحيح عن أم هانِئ مرفوعاً: [فَضَّلَ الله قريشاً بسبع خصال: فَضَّلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشي. وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون. وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيهم غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾. وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن حبان والحاكم بسند جيد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ للقرشي مِثْلي قوة الرجل من غير قريش][2]. فقيل للزهري: بم ذلك؟ قال: بِنبل الرأي.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: [لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان][3].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (1/ 1/ 341) ، والبيهقي في «مناقب الشافعي» (1/ 34). وانظر السلسلة الصحيحة (1944) ، وقد مضىٰ آخر سورة الفيل.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (2289) ، والحاكم (4/ 72) ـ على شرط البخاري ، وأخرجه أحمد (4/ 81 ـ 83). وانظر كتابي: السياسة الشرعية (157 ـ 161) لتفصيل البحث.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3501) ـ كتاب المناقب. ومسلم (1820) ـ كتاب الإمارة.

وليس المراد بذلك العدد ، وإنما المقصود انتفاء حصول ذلك .

الحديث الرابع : أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [الأئمة من قريش ، إن لهم عليكم حقاً ولكم عليهم حقاً مثل ذلك ، ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا وفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين][1] .

موضوع السورة

آلاء الله على قريش

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ امتنان الله على قريش في تذليله لهم رحلة الشتاء ورحلة الصيف .

2 ـ أمره تعالىٰ لهم أن يفردوه بالعبادة والتعظيم ، فهو رب البيت العلي العظيم .

3 ـ امتنان الله على قريش بنعمة الإطعام من الجوع ، ونعمة الأمن من الخوف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 4 . **قوله تعالىٰ** : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : امتنانُ الله تعالىٰ على قريش في تذليل رحلة الشتاء والصيف على مدار السنين ، لتعود عليهم بالخيرات بفضل الله العظيم ، إضافة إلى نعمة الأمن التي وفّرها لهم ربهم الكريم .

فقوله تعالىٰ : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ فيه أكثر من تأويل :

---

(1) حديث صحيح . انظر تخريج أحاديث فضائل الشام ص (63) . وصحيح الجامع الصغير (2755) .

التأويل الأول: اللام لام التعجب. قال الكسائي: (أي اعجبوا لإيلاف قريش).

التأويل الثاني: اللام متعلقة بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾. والتقدير: فليعبدوا ربَّ هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتيار. قال ابن عباس: (﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ قال: نعمتي على قريش إيلافُهم رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يَشْتون بمكة، ويَصيفون بالطائف).

التأويل الثالث: أهلك الله أصحاب الفيل، فجعل ذلك لإيلاف قريش، أي ليألفوا الخروج ولا يُجْترأ عليهم. ذكره مجاهد[1].

التأويل الرابع: ألَّفَ الله قريشاً إيلافاً فليعبدوا ربَّ هذا البيت ـ قاله الخليل.

التأويل الخامس: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين ـ ذكره محمد بن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

التأويل السادس: قيل بل المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم، لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترَمهم بل من ضَوَىٰ إليهم وسار معهم أمن بهم، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: 67] ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ﴾، بدل من الأول ومفسِّر له. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾. ذكره ابن كثير.

التأويل السابع: قيل بل المقصود: سياسة الإيلاف، هَيَّأها الله لرعاية مصالح قريش. فقد أعطىٰ نسب قريش إلى كنانة ـ التي تسكن قرب مكة ـ عمقاً استراتيجياً. ثم إن قريشاً قد حالفت الأحابيش الذين يعيشون قرب مكة فاستخدمتهم في حراسة القوافل المكية، ثم شملت الأحلاف خطوط التجارة المكية إلى الشام والعراق واليمن، فأوجد هاشم بن عبد مناف ما يسمىٰ بالإيلاف، وهي جعالات تشرك زعماء تلك البلاد في تجارتها. حتىٰ إنَّ هاشم بن عبد مناف تمكن من الحصول على حق التجارة داخل

(1) وأما القول بأن السورتين «الفيل» و«قريش» متصلتان، وأنهما سورة واحدة، فلا دليل عليه، بل هما سورتان منفصلتان كما دلّ على ذلك حديث أم هانِئٍ المتقدم.

أراضي الروم والفرس بالاتفاق مع حكامهم. فسياسة الإيلاف والمعاهدات كانت أساس ازدهار اقتصاد مكة ورواج تجارتها في البر والبحر(1).

واختار ابن جرير أن اللام في قوله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُـرَيْشٍ﴾ لامُ التعجب، والتقدير عنده: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك.

قلت: بل كل ما سبق من التأويل يظهر بعض وجوه الإعجاز القرآني في هاتين الكلمتين وما يمكن أن تغطي من المعاني والمفاهيم، ومِنْ ثَمَّ فقوله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُـرَيْشٍ﴾ يدخل في مفهومه جميع ما ذكر، والله تعالىٰ أعلم.

وأصل كلمة «إيلاف» من أَلِفَ يأْلَفُ إلفاً، وألفته إلافاً. أو من آلف يؤالف إيلافاً. فألفت وآلفت لغتان عند العرب. والمفهوم الإلف والتآلف أي التقارب والاجتماع.

وأصل كلمة قريش من القرش وهو الجمع والكسب. وقيل نسبة إلى سمك القرش القوي الخطير الذي يهدد سفن البحر. قال النسفي: (وقريش ولد النضر بن كنانة، سموه بتصغير القرش، وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار، والتصغير للتعظيم، فسموه بذلك لشدتهم ومنعتهم تشبيهاً بها. وقيل من القرش وهو الجمع والكسب، لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد).

قلت: والقرشية معتبرة في شروط الإمامة العظمىٰ. لقوله ﷺ: [الأئمة من قريش] ـ كما مضىٰ ذكره من حديث أنس. وله شاهد عند الحاكم والبيهقي من حديث علي عن النبي ﷺ قال: [الأئمة من قريش، أبرارها أمراء أبرارِها، وفُجّارها أمراءُ فُجّارها، وإنْ أَمَّرت عليكم قريشٌ عبداً حبشياً مُجَدَّعاً فاسمعوا له وأطيعوا، ما لم يخيِّر أحدكم بين إسلامه وضرب عنقه، فإن خُيِّرَ بين إسلامه وضرب عنقه فليقدِّم عُنقَه](2).

ومفهوم النسب إلى قريش: قيل ـ هو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. وقيل: هو فهر بن مالك.

قال الشنقيطي: (فالفهري قرشي بلا نزاع، ومن كان من أولاد مالك بن النضر، أو

(1) انظر تفصيل هذا البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين ـ القرآن والسنة الصحيحة ـ ـ البحث 3 ـ الحياة في مكة قُبيل ولادة النبي ﷺ. ص (47 ـ 62).

(2) حديث صحيح. انظر تخريج: «إرواء الغليل» ـ حديث ـ (513). وصحيح الجامع الصغير (2754). وانظر تفصيل البحث في كتابي: السياسة الشرعية (157).

أولاد النضر بن كنانة ففيه خلاف ، ومن كان من أولاد كنانة من غير النضر فليس بقرشي بلا نزاع)[1] .

ويؤيد هذا ما روىٰ مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع ، عن النبي ﷺ قال : [إنَّ الله تعالىٰ اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفىٰ قريشاً من كنانة ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم][2] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾ . ـ إيلافهم ـ بدل من الأولىٰ . فأطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً بعظيم تلك النعمة التي حباهم الله بها ، إذ كانوا يرحلون في الصيف إلى الشام وفي الشتاء إلى اليمن يتَّجِرون آمنين. قال ابن زيد: (كانت لهم رحلتان: الصيف إلى الشام ، والشتاء إلى اليمن في التجارة ، إذا كان الشتاء امتنع الشأم منهم لمكان البرد ، وكانت رحلتهم في الشتاء إلى اليمن) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾ . أي فليوحّدوا رب هذا البيت وليفردوه بالعبادة والتعظيم ، كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرّماً ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل : 91]. وهو سبحانه إنما عرّفهم أنه ربّ هذا البيت ، لأنه كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميّز تعالىٰ نفسه عنها . وهم بالبيت قد تشرفوا على سائر العرب ، ففي ذلك تنبيه لهم أن العراقة بالإيمان بالله رب هذا البيت الذي أسس على التوحيد لا بشرف المال والنسب .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ ﴾ .

أي : فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم ورزقهم بدعوة أبيهم إبراهيم وبسبب هاتين الرحلتين فخلّصهم من جوع شديد .

وعن ابن عباس : (قوله : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ ﴾ يعني : قريشاً أهل مكة ، بدعوة إبراهيم ﷺ حيث قال : ﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [إبراهيم : 37]) .

وقوله : ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ . أي : وآمنهم من القتل والسبي ، وقد كانت العرب

---

(1) انظر كتاب : «أضواء البيان» ـ الشنقيطي (1/ 52). وكتابي : السياسة الشرعية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة (157) لتفصيل البحث .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2276) ـ كتاب الفضائل . باب فضل نَسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه .

يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم. وقد آمنهم كذلك من خوف الحبشة مع الفيل ، ومن أشياء كثيرة أخرىٰ.

وعن ابن عباس: (﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ حيث قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: 35]). وعن مجاهد: (﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ قال: آمنهم من كل عدو في حرمهم).

وقال قتادة: (كان أهل مكة تجاراً ، يتعاورون ذلك شتاء وصيفاً ، آمنين في العرب ، وكانت العرب يغير بعضها على بعض ، لا يقدرون على ذلك ، ولا يستطيعونه من الخوف ، حتىٰ إن كان الرجل منهم ليصاب في حي من أحياء العرب ، وإذا قيل حَرَمِيٌّ خُلِّيَ عنه وعن ماله ، تعظيماً لذلك فيما أعطاهم الله من الأمن). وقال ابن زيد: (كانت العرب يغير بعضها على بعض ، ويسبي بعضُها بعضاً ، فأمنوا من ذلك لمكان الحرم ، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: 57]).

والخلاصة: لقد جَمَعَ الله لقريش بين الأمن والرُّخص ، فأطعمهم دون تعب ، وآمنهم دون نصب ، فليفردوه بالعبادة والتعظيم ، ومتابعة هذا النبي الكريم ، عليه وعلى الأنبياء أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ثم إن المعظم لدين الله المستجيب لأمره يجمع الله له بين أمن الدنيا والآخرة ، أمّا أَمْنُ الدنيا فهي نعمة من أجل نعم الله على العباد ، ولاسيما حين تعصف في الأرض رايات الفتن وتهدد البلاد.

قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112].

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن عُبيدِ الله بن مِحْصَن الخطمي ، ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُم آمِناً في سِرْبِهِ ، مُعَافىً في جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قوتُ يومِه ، فكأنما حِيزت له الدنيا][1]. وَحِيزت: أي جُمِعَت.

وأما أَمْنُ الآخرة ، فهو أكْبَرُ وأعلىٰ وأجَلّ من أمن الدنيا ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (4141) ، والترمذي ـ صحيح سنن الترمذي ـ (1913).

يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت : 40].

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن لغيره عن شداد بن أوس ، أن رسول الله ﷺ قال: [قال الله عز وجل: وعزتي وجَلالي ، لا أجْمَعُ لعبدي أمْنَيْن ولا خَوْفَين ، إنْ هو أمِنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي ، وإنْ هو خافني في الدنيا أَمَّنْتُه يومَ أجمعُ عبادي][1] .

تم تفسير سورة قريش
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر يوم الأحد 8 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 8 / كانون الثاني / 2006 م

دروس ونتائج وأحكام

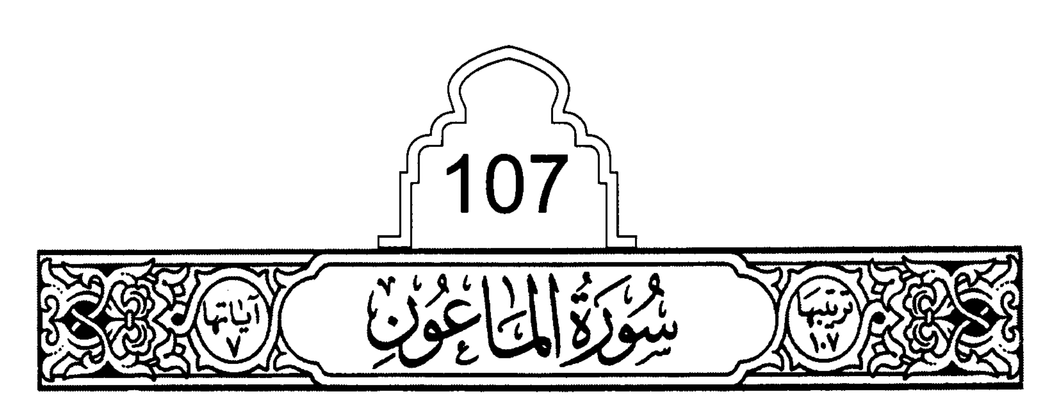
1 ـ فضل الله قريشاً بأن أنزل فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيهم غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ .

2 ـ الأئمة من قريش ، وإن للقرشي مِثْلي قوة الرجل من غير قريش .

3 ـ نعمتان يغفل عنهما وعن شكرهما كثير من الناس : نعمة الطعام ونعمة الأمن .



(1) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 98) ، وفي سنده عمر بن صبح متهم ، لكن له طريق آخر أخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» برقم (157) عن الحسن ، وهو مرسل صحيح. ووصله يحيىٰ بن صاعد في «زوائد الزهد» (158). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (742) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4208).



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (7) .

موضوع السورة

تهديد المكذبين بالحساب في المعاد
والوعيد على أهل الرياء ومنع المعونة على العباد .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ التهديد الشديد للمكذب بالجزاء والحساب يوم الدين ، الظالم لليتيم والبخيل على المسكين .

2 ـ الوعيد الأكيد على المنافقين ، المتهاونين في صلاتهم والمفرطين والمنشغلين .

3 ـ الرياء من صفات أهل النفاق ، وكذلك منع المعونة والمنفعة عن المحتاجين وأهل الاستحقاق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 7. قوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

في هذه الآيات: التهديد الشديد للمكذب بالجزاء والحساب يوم الدين، الظالم لليتيم والبخيل على المسكين، والوعيد الأكيد على المنافقين، الذين يتهاونون في صلاتهم وينشغلون عنها ويراؤون، ويمنعون المعونة وحصول المنفعة للمحتاجين.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾. أي: أأبصرت يا محمد المكذب بالحساب والجزاء في الآخرة. وعن ابن عباس: (﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ قال: الذي يكذب بحكم الله عز وجل).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾. يَدُعّ: أي يدفع. من دَعَعْتُ فلاناً عن حقه إذا دفعته عنه. قال ابن عباس: (﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ قال: يدفع حق اليتيم). وقال مجاهد: (يدفع اليتيم فلا يطعمه). وقال قتادة: (يقهره ويظلمه). والمقصود: إنّ ذاك المكذب بالدين لو تأملت حاله لوجدته ذلك الذي يدفع اليتيم عن حقه ويقهره ويظلمه، ولا يحسن إليه ولا يطعمه. وقد كان عرب الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هُنّ؟ قال: الشرك بالله، والسِّحر، وقَتْلُ النفس التي حَرَّم الله

إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات][1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ . أي : لا يحضّ نفسه ولا يأمر أهله ولا غيرهم بإطعام المسكين ، بخلاً منه بالمال ، وتكذيباً بالحساب والجزاء .

وفي التنزيل : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر : 17 ـ 18] . والمسكين هو الفقير الذي لا يجد ما يكفيه ، ولا يقوم فيسأل ما يغنيه .

يروي الطبراني وابن عساكر بسند حسن من حديث أبي بردة بن أبي موسىٰ الأشعري مرفوعاً : [ملعونٌ من سألَ بوجهِ الله ، وملعونٌ مَنْ يُسأل بوجْهِ الله ثم مَنَعَ سائِلَهُ ما لم يسألْهُ هُجْراً][2] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : (﴿ سَاهُونَ ﴾ : لاهون يتغافلون عنها ، وفي اللهو عنها والتشاغل بغيرها ، تضييعها أحياناً ، وتضييع وقتها أخرىٰ) .

ومن أقوال أئمة التفسير في تفصيل ذلك :

1 ـ قال ابن عباس : (هم المنافقون يتركون الصلاة في السرّ ، ويصلون في العلانية) .

2 ـ وقال مجاهد : (﴿ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قال : الترك لها) .

3 ـ وقال قتادة : (﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ : غافلون . قال : ساهٍ عنها ، لا يبالي صلىٰ أم لم يصلّ) . وقال مجاهد أيضاً : (يتهاونون) .

4 ـ وعن عاصم ، عن مصعب بن سعد : (السهو : الترك عن الوقت) . وقال مصعب بن سعد : (قلت لسعد : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ : أهو ما يحدث به أحدنا نفسه في صلاته؟ قال : لا ، ولكن السهو أن يؤخرها عن وقتها) .

وقال عطاء بن دينار : (الحمد لله الذي قال : ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، ولم يقل : في صلاتهم ساهون) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2766) ـ كتاب الوصايا . وأخرجه مسلم (89) ـ كتاب الإيمان .

(2) حديث حسن . أخرجه ابن عساكر (8/ 397/ 2) ، والطبراني كما في «المجمع» (3/ 103) ، وإسناده حسن . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2290) .

قلت: فالوعيد يشمل أهل الصلاة الذين أهملوها بالكلية ، أو تهاونوا في فِعلها في وقتها المقدّر لها فعُرفوا بتأخيرها ، كما يشمل المتهاونين بأدائها بأركانها وشروطها الشرعية ، وكذلك المنشغلين عن التدبر والخشوع فيها ، وعن أدائها في الجماعة من غير عذر.

ومن صحيح السنة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [أثقلُ الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاةِ فتُقام ، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم أنطلق معي برجال ، ومعهم حُزَم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرّق عليهم بيوتهم بالنار](1).

الحديث الثاني: أخرج مسلم ومالك وأحمد وابن حبان والبيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يَرْقب الشمس حتىٰ إذا كانت بين قَرْني الشيطان ، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً](2).

الحديث الثالث: أخرج الطبراني وأبو يعلىٰ بإسناد حسن عن أبي عبد الله الأشعري: [أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ رجلاً لا يتِمُّ ركوعَه ، وينقرُ في سجوده ، وهو يصلي ، فقال رسول الله ﷺ: لو مات هذا على حاله هذه مات على غيرِ مِلّة محمد ﷺ. ثم قال رسول الله ﷺ: مثل الذي لا يتم ركوعه ، ويَنْقرُ في سجوده مثلُ الجائعِ ، يأكُلُ التمرةَ والتمرتين ، لا يغنيان عنه شيئاً](3).

الحديث الرابع: أخرج الأصبهاني في «الترغيب» بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [إنَّ الرجل لَيُصَلِّي ستّين سنةً ، وما تُقْبَلُ له صلاةٌ ، ولعلّه يُتِمُّ الركوع ولا يُتِمُّ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (657) ، ومسلم (651) ح (252) ، وأحمد (2/ 424).
(2) حديث صحيح. أخرجه مالك (1/ 221) ومن طريقه أخرجه أبو داود (413) ، وأحمد (3/ 149) ، وابن حبان (261). وأخرجه مسلم (622) ، والترمذي (160) ، والنسائي (1/ 254) ، والبيهقي (1/ 443) من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء به.
(3) رواه الطبراني في «الكبير» ، وأبو يعلىٰ وابن خزيمة بسند حسن. انظر صحيح الترغيب (1/ 529).

السجود ، ويُتِمُّ السجودَ ولا يُتِمُّ الركوعَ][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾. قال الضحاك: (يعني المنافقين). وقال ابن عباس: (هم المنافقون ، كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا). وقال ابن زيد: (يصلون ، وليس الصلاة من شأنهم ، رياءً). والمقصود: إنما هم يراؤون الناس بصلاتهم إذا صلوا ، وكذلك في جمع أعمالهم التي ظاهرها البِرّ ، ليثنوا عليهم. كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: 142].

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [قال الله تعالى: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركتُه وشركه][2].

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد حسن عن أبي سعيد مرفوعاً: [ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله. قال: الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيُزين صلاته ، لما يرىٰ من نظر الرجل][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾. الماعون: اسم لما يتعاوره الناس بينهم ، من الدلو والفأس والقِدْر ، وما لا يمنع ، كالماء والملح. وقيل الماعون هو الزكاة: أي يمنعون زكاة أموالهم.

قال ابن كثير: (أي: لا أحسنُوا عبادةَ ربهم ، ولا أحسنُوا إلى خلقه حتىٰ ولا بإعارة ما يُنْتَفَعُ به ويُستعان به ، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولىٰ وأولىٰ).

وأصل الماعون في لغة العرب من المَعْن وهو القليل ـ حكاه الطبري ـ. أو من المعونة ، والألف عوض من الهاء ـ حكاه الجوهري ـ. قال قطرب: (أصل الماعون من القلة ، والمَعْنُ: الشيء القليل ، تقول العرب: ماله سَعْنَة[4] ولا معنة ، أي شيء

---

(1) حديث حسن. أخرجه الأصبهاني في «الترغيب» (ق 236/ 2) ، وإسناده حسن ، رجاله ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2535).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2985) ـ كتاب الزهد والرقائق ـ ، وقد مضىٰ.

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (3/ 30) وسنده حسن. وانظر تفصيل البحث في كتابي: «أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان» (1/ 495 ـ 499).

(4) السّعنة: الكثير.

قليل). فيكون الماعون هو المستغل من منافع الأموال ، ومن ثمَّ فتكون الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ـ على هذا المعنىٰ ـ ماعوناً.

وقال ابن العربي: (الماعون: مفعول من أعان يعين ، والعَوْن: هو الإمداد بالقوة والآلات والأسباب الميسرة للأمر).

وقال الرازي: (والماعون: اسم جامع لمنافع البيت كالقدر والفأس ونحوهما. والماعون أيضاً الماء. والماعون أيضاً الطاعة. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾. قال أبو عبيدة: الماعون في الجاهلية كُلُّ مَنْفَعَةٍ وعَطِيَّة ، وفي الإسلام الطاعة والزكاة).

ومن أقوال أئمة التفسير في ذلك:

1 ـ قال مجاهد: قال علي: (الماعونُ الزكاة). وروي ذلك عن ابن عمر ، وسعيد بن جبير. وقال الحسن البصري: (إن صلىٰ راءىٰ ، وإن فاتته لم يَأسَ عليها ، ويمنع زكاة ماله. وفي لفظ: صدقة ماله). وقال زيد بن أسلم: (هم المنافقون ، ظهرت الصلاة فصلوها ، وخفيت الزكاة فمنعوها).

2 ـ وقال المسعودي ، عن سلمةَ بن كُهَيل ، عن أبي العُبَيدين: أنه سأل ابن مسعود عن الماعون فقال: (هو ما يتعاطاه الناس بينهم ، من الفأس والقدر والدّلو ، وأشباه ذلك).

وفي لفظ: (ما يتعاور الناس بينهم: الفأس والدلو وشبهُه). وعن ابن عباس: (أنه العارية).

3 ـ وعن محمد بن كعب: (﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ قال: المعروف). وقال البخاري: (و﴿ ٱلْمَاعُونَ ﴾: المعروف كله).

4 ـ وقال الزهري: (﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾: قال: بلسان قريش المالُ).

5 ـ وقال الفراء: (سمعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء).

قلت: والجامع لهذه الأقوال المتقاربة أن الماعون يشمل أنواع المعاونة بالمال والمنافع ، والآية ذمٌّ في حق مانع العارية والمنفعة ، والصدقة والزكاة من باب أولىٰ.

أخرج أبو داود بسند حسن عن عبد الله قال: [كنا نَعُدُّ الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية ، الدَّلو ، والقدر][1].

قال عكرمة: (رأسُ الماعون زكاةُ المال ، وأدناه المُنْخُلُ والدَّلْوُ والإبرةُ) ـ رواه ابن أبي حاتم[2]. وهو قول حسن جامع منسجم مع الحديث قبله ، ومع الأقوال المتكاملة التي سبقت ذلك ، والله تعالىٰ أعلم.

تم تفسير سورة الماعون
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
ظهر يوم عرفة يوم الاثنين 9 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 9/ كانون الثاني/ 2006 م

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ ملعونٌ من سأل بوجه الله ، وملعونٌ مَنْ يُسأل بوجه الله ثم مَنَعَ سائله ما لم يسألْهُ هُجْراً.

2 ـ أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً.

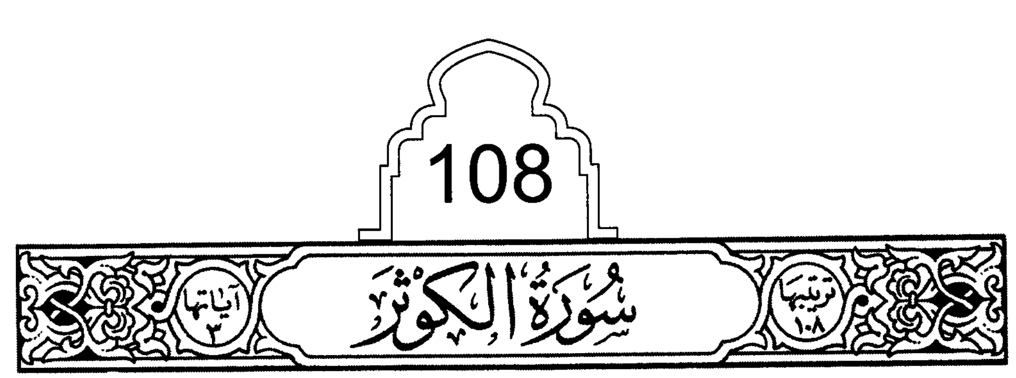
3 ـ قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه.

4 ـ الماعون: هو المعونة والمعاونة بالمال وبذل المنفعة.

❑ ❑ ❑

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود (1657) ، والنسائي في «التفسير» (721) ، والبزار (2292) وإسناده حسن. وانظر صحيح سنن أبي داود (1459) ـ كتاب الزكاة. باب في حقوق المال.

(2) وقال البخاري: (وقال عِكرمة: أعلاها الزكاة المفروضة ، وأدْناها عاريةُ المتاع). ذكره في كتاب التفسير من صحيحه ، سورة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ [الماعون: 1].



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (3) .

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد ذكر هذه السورة الكريمة في أحاديث من السنة الصحيحة :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: [بَيْنا رسول الله ﷺ ذاتَ يوم بينَ أَظْهُرنا ، إذْ أغْفَىٰ إغْفَاءَةً[1] ، ثم رَفَعَ رأسَهُ مُتَبَسِّماً ، فَقُلنا: ما أَضْحكَكَ يا رسولَ الله؟ قال: «أُنْزِلَتْ عليَّ آنِفاً سورةٌ» ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: «أتدرون ما الكَوْثَرُ؟» فقلنا: اللهُ ورسولُهُ أعْلَمُ ، قال: «فإنه نَهْرٌ وَعَدَنيه ربي عَزَّ وَجَلَّ ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثيرٌ ، وهُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة ، آنِيَتُهُ عددُ النُّجوم ، فَيُخْتَلَجُ العبدُ مِنْهم ، فأقولُ: رَبِّ ، إنَّهُ مِنْ أُمَّتي ، فيقول: ما تَدْري ما أَحْدَثوا بَعْدَك»][2] .

قلت: وفي الحديث دلالة أن السورة مدنية ، وأن البسملة تقرأ قبل كل سورة ، والله تعالىٰ أعلم .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند ثلاثي صحيح قال: حدثنا محمد بن فُضَيل ، عن المختار بن فُلْفُل ، عن أنس بن مالك قال: [أغفىٰ رسول الله ﷺ إغفاءةً ،

---

(1) أغفىٰ إغفاءة: أي نام نومة .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (400) ـ كتاب الصلاة . باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة ، سوىٰ براءة . وأخرجه أبو داود (784) ، والنسائي (2/ 133 ـ 134) .

فرفع رأسه مُتَبَسِّماً ، إما قال لهم وإما قالوا له : لِمَ ضَحِكْتَ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنه أنزِلت عَليَّ آنِفاً سورةٌ» . فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ ، حتىٰ خَتَمها قال : «هَلْ تدرون ما الكوثَرُ؟» قالوا : الله ورسوله أعلَمُ . قال : «هو نهر أعطانيه ربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ في الجنة ، عليه خَيْرٌ كثير ، تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة ، آنيتُهُ عددُ الكواكب ، يُخْتَلَجُ العبدُ منهم فأقول : يا رب! إنه من أُمتي . فيُقال : إنك لا تَدْري ما أحدثوا بَعْدَكَ!»] [1] .

الحديث الثالث : أخرج النسائي بسند صحيح عن زيد بن ثابت : [أنه قال لمروان : يا أبا عبد الملك ، أتقرأ في المغرب بـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾؟ قال : نعم! قال : فمحلوفة [2] ، لقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين ﴿ الٓمٓصٓ ﴾] [3] .

ورواه أبو داود بسند صحيح عن مروان بن الحكم قال : [قال لي زيد بن ثابت : مالك تقرأ في المغرب بقصار المفصل ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بطُولَىٰ الطُّولَيَيْن؟ قال : قلت : ما طُولىٰ الطولَيَيْنِ؟ قال : الأعراف والأخرىٰ الأنعام] .

موضوع السورة

تكريم الله رسوله بالكوثر

وتهديد المخالف له بالبتر

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ امتنان الله تعالىٰ على رسوله ﷺ بنهر في الجنة هو الكوثر .

2 ـ أمْرُه تعالىٰ نبيه ﷺ إخلاص الصلاة له والنحر .

3 ـ القضاء من الله تعالىٰ أن مبغض هذا النبي هو الأبتر .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (3/ 102) ، وانظر الحديث قبله .

(2) أي : أنني أحلف بالله . و(أطول الطوليين) : سورتا الأنعام والأعراف .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (812) ـ في الصلاة ـ باب قدر القراءة في المغرب . وأخرجه النسائي : صحيح سنن النسائي (945) . باب القراءة في المغرب بـ ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 3. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

في هذه الآيات: تكريم الله تعالىٰ رسوله ﷺ في الجنة بنهر الكوثر ، وأَمْرُهُ تعالىٰ له إخلاص الصلاة له والنحر ، وقضاء الله الذي لا يُرَدُّ أنّ مبغض هذا النبي هو الأقطع الأبتر.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾. الكوثر: فَوْعَل من الكثرة ، مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر. قال ابن عباس: (هو الخير الكثير). فقيل له: إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة! فقال: (هو من الخير الكثير).

وقال سفيان: (قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آبَ ابنك؟ قالت: بكوثر ، أي بمال كثير). وقيل الكوثر من الرجال: السيد الكثير الكثير الخير. والكوثر: العدد الكثير من الأصحاب والأشياع. وقد تكوثر: إذا كثر. قال القرطبي: (والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثراً). وقال النسفي: (الكوثر: فوعل من الكثرة ، وهو المفرط الكثرة).

قلت: والمقصود **بالكوثر** في الآية ذلك النهر في الجنة الذي جعله الله كرامة لرسول الله ﷺ ولأمته ، والذي يحمل من ألوان الخير الكثير الكثير ، فحافتاه من الذهب ، ومجراه على الدّر والياقوت، وتربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلىٰ من العسل وأبيض من الثلج ، وأوانيه من فضة. وقد جاءت نصوص السنة الصحيحة بذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن ثابت ، عن أنس: [أنّه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطِيتُ الكوثَرَ فإذا هو نهر يجري ، ولم يُشَق شَقّاً ، وإذا حافَتاه قِبابُ اللؤلؤ ، فضربت بِيَدي في

تربته ، فإذا مِسْكَةٌ ذَفِرَةٌ ، وإذا حَصَاهُ اللؤلؤ»][1] . قال أنس : (أظنكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض ، والله إنها لسائحة على وجه الأرض إحدىٰ حافتيها اللؤلؤ والأخرىٰ الياقوت ، وطينها المسك الأذفر الذي لا خلط له) ـ ذكره ابن أبي الدنيا .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال: [لَمّا عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيتُ على نهر حافَتاه قِبابُ اللؤلؤ المجوَّفة ، فقلت: ما هذا يا جبريل؟! قال: هذا الكوثر][2] .

وله شاهد عند الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [دخلت الجنة فإذا أنا بنهر ، حافَّتاه اللؤلؤ ، فَضَربتُ بيدي إلى ما يجري فيه الماء ، فإذا مسكٌ أذفَرُ ، قلت ما هذا يا جبريل؟! قال: هذا الكوثر أعطاكَهُ الله عزَّ وجلَّ] ـ وإسناده على شرط البخاري ومسلم .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود وأحمد وابن حبان بسند صحيح في الشواهد من حديث أبي برزة مرفوعاً ـ في صفة الحوض يوم القيامة ـ: [أنه يَشْخَبُ فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر ، وأن عليه آنية عدد نجوم السماء][3] .

الحديث الرابع: أخرج أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن أنس بن مالك ، قال: [لما عُرِجَ بنبي الله ﷺ في الجنة ، أو كما قال: عرض له نهر حافتاه الياقوتُ المُجَيَّبُ ، أو قال المُجَّوفُ ، فضربَ الملك الذي معه يده ، فاستخرج مسكاً ، فقال محمد ﷺ للملك الذي معه: «ما هذا»؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله عز وجل][4] . زاد الترمذي: (ثم رُفِعتْ لي سِدرةُ المنتهىٰ ، فرأيت عندها نوراً عظيماً) .

الحديث الخامس: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [الكَوْثَرُ نَهْرٌ في الجنة ، حافَّتاه مِنْ ذَهَبٍ ومَجْراهُ على الدُّر والياقوت ، تُرْبَتُهُ أطيبُ مِنَ المِسْكِ ، وماؤه أحلىٰ من العسل وأبيضُ من الثَّلج][5] .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (3/ 152) ، وإسناده على شرط مسلم .
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4964) . والشاهد رواه أحمد (3/ 103) وسنده صحيح .
(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4749) ، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 424) ، ورواه ابن حبان (6458) ، وعبد الرزاق (20852) ، وهو صحيح ، وله شواهد .
(4) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4748) ، والترمذي في «التفسير» . انظر: صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2676) . وروىٰ البخاري نحوه .
(5) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (4334) ، والترمذي: انظر صحيح سنن الترمذي (2677) .

الحديث السادس: أخرج البخاري في الصحيح، والنسائي في التفسير، عن أبي إسحاق، عن أبي عُبيدة، عن عائشة قال: سألتُها عن قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ قالت: [نَهْرٌ أُعْطِيَهُ نبيُّكم ﷺ، شاطِئَاه عليه دُرٌّ مَجَوَّفٌ، آنيتُه كعدَدِ النجوم][1].

الحديث السابع: أخرج أحمد والطبري بسند جيد عن أنس: [أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله! ما الكوثر؟ قال: نهرٌ في الجنة أعطانيه ربي، لهو أشَدُّ بياضاً من اللَّبن، وأحْلىٰ من العَسَل، فيه طيورٌ أعناقُها كأعناق الجُزُرِ. قال عمر: يا رسول الله! إنها لناعِمةٌ؟ قال: آكِلُها أَنْعَمُ منها يا عُمر][2].

وروىٰ نحوه ابن جرير وفي آخره: [«ترِدُه طير أعناقها مثلُ أعناق الجُزُر». فقال أبو بكر: يا رسول الله! إنها لناعمة؟ قال: آكِلُها أنعمُ منها].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾. أي: فأخلص لربك الصلاة والذبح علىٰ ما أولاك من الكرامة، فصل له الصلاة المكتوبة والنافلة، وانحر على اسمه النسك خالصاً له.

قال ابن عباس: (﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ قال: الصلاة المكتوبة، والنّحر: النُّسُك والذبح يوم الأضحىٰ). وقال عكرمة: (الصلاة ونحر النُّسك). وقال الربيع: (إذا صليت يوم الأضحىٰ فانحر). وقال ابن زيد: (نحر البدن).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾. أي: إن مبغضك يا محمد وما جئت به من الوحي العظيم والشرع القويم هو الأذل الأقل المنقطع عن كل خير.

أخرج البزار بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: [قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترىٰ إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خيرٌ منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية! فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾][3]. ورواه ابن جرير وزاد فيه: (وأنزلت عليه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4965)، والنسائي في «التفسير» (725).
(2) حديث إسناده جيد. أخرجه أحمد في المسند (3/ 221)، والطبري في «التفسير» (38177). ورواه ابن جرير كذلك (38174) باللفظ الآخر، وإسناده قوي.
(3) إسناده صحيح. أخرجه البزار من حديث عكرمة عن ابن عباس. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الكوثر، آية (3). ورواه ابن جرير في «التفسير» (38222) بنحوه.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾ [النساء: 51 ـ 52]).

والصنبور: الرجل الضعيف الذليل بلا أهل ولا عقب ولا ناصر[1]. وقد كان أهل الجاهلية يرون في موت أولاد النبي ﷺ انقطاعاً لأثره وذكره، فأخزاهم الله تعالىٰ بهذه الآية، بأن محمداً ﷺ سيبقىٰ أثره وذكره العطر في الأرض، وأن مبغضه هو المنقطع الذكر المقطوع من خير الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الكوثر
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
مساء يوم عيد الأضحىٰ 10 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 10 / كانون الثاني / 2006 م

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الكوثر نهر في الجنة أعطاه الله رسوله ﷺ، آنيتُه عددُ الكواكب.

2 ـ نهر الكوثر حافتاه من الذهب، ومجراه على الدّر والياقوت، وتربته أطيب من المسك.

3 ـ الكوثر ماؤه أحلىٰ من العسل، وأبيض من الثلج، وأوانيه من فضة.

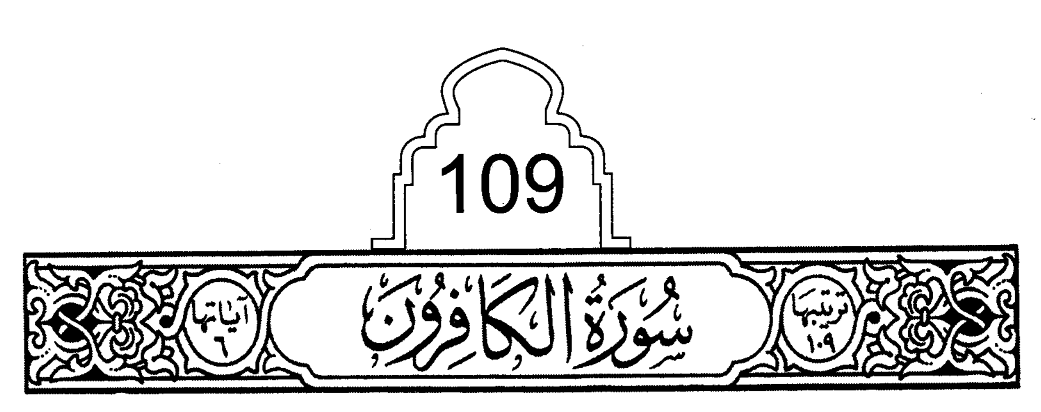
4 ـ ترد على نهر الكوثر طير أعناقها مثل أعناق الجُزُر.

5 ـ الصلاة أو الذبح لا تكون إلا لله، ولا تكون إلا بنص شرعي صحيح.

6 ـ مبغض هذا النبي الكريم، أو ما جاء به من الوحي العظيم، هو الأذل الأقطع المنقطع المحروم.

❑ ❑ ❑

(1) وأصل الصنبور في كلام العرب سفعة تنبت في جذع النخلة لا في الأرض، أو النخلة تبقىٰ منفردة. (انظر لسان العرب).



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (6).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد ذكر هذه السورة الكريمة في أحاديث من السنة الصحيحة العطرة:

الحديث الأول: يروي الترمذي بإسناد حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال: [مَنْ قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عُدِلَتْ له بِرُبْعِ القرآن ، ومن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عُدِلَت له بِثُلُثِ القرآن][1].

الحديث الثاني: يروي الطبراني بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: [﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلثَ القرآن ، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعدِلُ ربعَ القرآن][2].

ورواه الحاكم بلفظ: [قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن]. وسنده حسن.

الحديث الثالث: أخرج الطبراني في «المعجم الصغير» بسند صحيح عن علي قال: [لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي ، فلما فرغ قال: لعن الله العقرب لا تدع مصلياً

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2893) ـ أبواب فضائل القرآن. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2317). وصحيح الجامع الصغير (6342).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (3/ 203/ 2) ، والحاكم (1/ 566) ، وله شاهد في مسند أحمد (3/ 146 ـ 147). وانظر السلسلة الصحيحة (586).

ولا غيره ، ثم دعا بماء وملح ، وجعل يمسح عليها ويقرأ : بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾][1] .

الحديث الرابع : روىٰ مسلم عن جابر : [أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ، وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف][2] .

الحديث الخامس : روىٰ مسلم عن أبي هريرة : [أنّ رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر][3] .

الحديث السادس : روىٰ أحمد بسند صحيح عن ابن عمر : [أنَّ رسولَ الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب ، بضعاً وعشرين مرة ، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾][4] .

وفي رواية ، قال : [رمقت النبي ﷺ أربعاً وعشرين أو خمساً وعشرين مرة ، يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب ، بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾] .

وفي رواية : [رمقت النبي ﷺ شهراً ، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾][5] .

الحديث السابع : أخرج أبو داود بسند صحيح عن فروة بن نوفل ، عن أبيه ، أن النبي ﷺ قال لنوفل : [«اقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثم نمْ على خاتمتها ، فإنها براءةٌ من الشرك][6] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (ص 117) ، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (2/ 223). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (548).

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (707) ، باب حجة النبي ﷺ ، في أثناء حديث طويل.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (726) ح (98). وانظر مختصر صحيح مسلم (360).

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 24) ، وكذلك (2/ 95) للرواية الثانية ، وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

(5) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (417) ، وابن ماجة (1149) ، وأحمد (2/ 94) ، والنسائي (1064) من حديث مجاهد عن ابن عمر ، وإسناده على شرط الشيخين.

(6) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (5055) ـ أبواب النوم ـ وأخرجه الترمذي بنحوه. انظر صحيح سنن الترمذي (2709) ، وصحيح سنن أبي داود (4227).

موضوع السورة

الولاء للمؤمنين ، والبراء من الكافرين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ أمر الله تعالىٰ رسوله الكريم ، البراءة من دين المشركين ، ومن أوثانهم وأصنامهم وما يعبدون.

2 ـ التأكيد للكافرين أنهم في ضلال في منهاج عبادتهم ، وأنه ﷺ في منهاج مختلف في العبادة بريء من شركهم وأوثانهم.

3 ـ إعلان النبي ﷺ لقومه صراحة بأنّه ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 6. **قوله تعالىٰ**: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ الله تعالىٰ منهاج الولاء والبراء ، الذي هو سبيل المؤمنين تجاه الكفرة الأعداء.

فقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ، لا أعبد الأوثان والأنداد والأصنام التي تعبدون. والخطاب وإن كان موجهاً إلى كفار قريش ، إلا أنه ينسحب ليشمل كل كافر إلى يوم القيامة.

فعن ابن عباس: (إن قريشاً وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً ، فيكون أغنىٰ رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، ويطئوا عَقِبه ، فقالوا له: هل لك عندنا يا محمد ، وكفّ عن شتم آلهتنا ، فلا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل ، فإنا نعرض عليك

خصلة واحدة ، فهي لك ولنا فيها صلاح ، قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة : اللات والعزّىٰ ، ونعبد إلٰهك سنة ، قال: حتىٰ أنظر ما يأتي من عند ربي ، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ السورة ، وأنزل الله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾) ذكره ابن جرير في التفسير.

وقال محمد بن إسحاق: (حدثني سعيد بن مينا مولىٰ البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلف ، رسولَ الله ﷺ ، فقالوا: يا محمد ، هلمّ فلنَعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشركك في أمرنا كله ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك ، كنت قد شَرِكتنا في أمرك ، وأخذت منه بحظك ، فأنزل الله: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ حتىٰ انقضت السورة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ . أي: ولا أنتم عابدون الله وحده لا شريك له وهو ما أعبد ، ولا أنا أعبد عبادتكم ولا أسلك طريقتكم ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحب ، ثم أنتم لا تقتدون بأوامر الله وشرعه ، بل قد اخترعتم عبادة من تلقاء أنفسكم فيها من الظن والهوىٰ والابتداع الكثير ، فلكم دينكم ولي دين. قال البختري: (يقال: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الكفر ، ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ الإسلام).

ورأىٰ بعض أهل العربية أن تكرار ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وما بعده على وجه التوكيد.

وقال الحافظ ابن كثير: (وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة «﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة).

تم تفسير سورة «الكافرون»

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

ثاني أيام التشريق ـ 12 ذي الحجة ـ 1426 هـ

الموافق 12 / كانون الثاني / 2006 م.

دروس ونتـائج وأحكـام

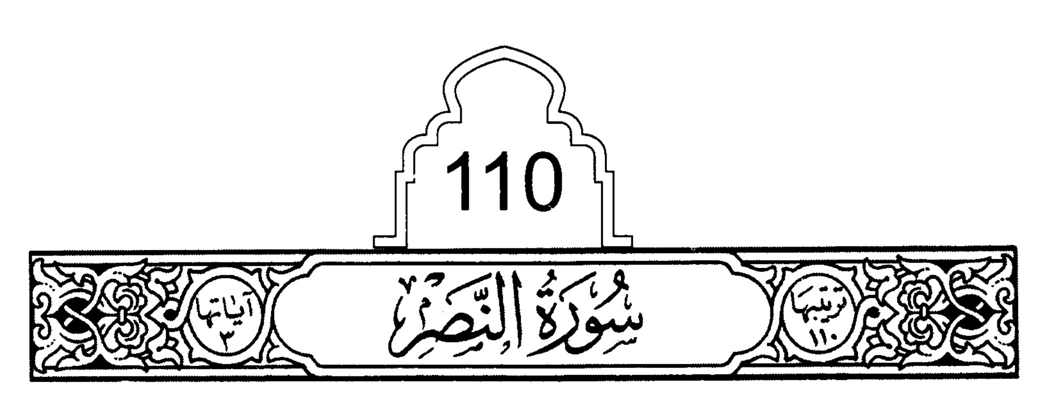
1 ـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ تعدل رُبُعَ القرآن.

2 ـ كان رسول الله ﷺ يقرأ بهذه السورة وبقل هو الله أحد في ركعتي الفجر والطواف وفي الركعتين بعد المغرب.

3 ـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ براءة من الشرك، وهي منهاج كامل للمسلم في الولاء والبراء.

4 ـ استدل الشافعي رحمه الله من قوله تعالىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ أن الكفر كله ملة واحدة.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (3). وتسمىٰ كذلك «سورة التوديع».

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد ذكر هذه السورة الكريمة في أحاديث من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتبةَ قال: [قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: تعلم - وفي رواية: تَدْري - آخِرَ سورة نزَلَت من القرآنِ، نزَلَتْ جميعاً؟ قلتُ: نَعَمْ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قال: صَدَقت][1].

الحديث الثاني: أخرج عبد الرزاق في «تفسيره»، وأحمد في «مسنده»، بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن أبي هريرة قال: [لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال: أتاكم أهلُ اليمن، هُمْ أرقّ قلوباً، الإيمانُ يمانٍ، الفقهُ يمانٍ، الحكمةُ يمانية][2].

الحديث الثالث: أخرج النسائي والطبراني بسند حسن لغيره عن عكرمة عن ابن عباس قال: [لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾... إلى آخر السورة، قال:

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (3024) ح (21) - كتاب التفسير، وأخرجه النسائي في «التفسير» - حديث رقم - (733).

(2) حديث صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (2/ 404)، ومن طريقه أحمد في «مسنده» (2/ 277)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3369).

نُعِيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت ، فأخذ في أشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة ، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : «جاء الفتح ، وجاء نصر الله ، وجاء أهل اليمن». فقال رجل : يا رسول الله! وما أهل اليمن؟ قال : «قوم رقيقة قلوبهم ، لينة قلوبهم ، الإيمان يمانٍ ، والحكمة يمانية ، والفقه يمانٍ»][1] .

موضوع السورة

النصر المبين والتمكين ، ودخول الناس في هذا الدين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ التبشير بمجيء نصر الله والفتح المبين ، ودخول الناس أفواجاً في دين الله العظيم .

2 ـ أمره تعالىٰ نبيه ﷺ بالتسبيح والشكر والاستغفار له فهو المنعم المتفضل الكريم ، الذي جاء بالفتح والنصر على الأعداء والطغاة المجرمين .

3 ـ تأكيد الله تعالىٰ قبوله توبة التائبين ، والعفو والصفح عن المذنبين المستغفرين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 3. قوله تعالىٰ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ .

في هذه الآيات : يخاطب الباري عز وجل نبيَّه ﷺ يقول : إذا حصل الفتح ، وتحقق النصر ، بعد طول عناء وصبر وجهاد ، وأقبل الناس على الدين الحق يدخلون فيه جماعات كثيرة ، وقبائل كبيرة ، بعد أن كانوا يدخلون فيه أفراداً وآحاداً ، فقد ارتفع

---

(1) أخرجه النسائي في «السنن الكبرىٰ» (6/ 525/ 11712) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (11/ 328 ـ 329) ، و«الأوسط» (3/ 15/ 2017) ، وله شاهد عند أحمد (1/ 217) ، وانظر المرجع السابق : الصحيحة ج (7) ص (1108) عقب الحديث السابق .

الخوف وزال موجب القلق والحزن ، ولم يبق إلا تسبيح الله وشكره على ما أنعم عليه من الظهور والظفر والشوكة في الأرض وعزّ الدين فوق المناهج كلها ، والاستغفار مما كان من خواطر النفس وقلقها وحزنها وضعفها ، إنه سبحانه كان للمستغفرين تواباً. ثم الاستعداد عقب ذلك للرحيل عن الدنيا ، فقد تمّ الأمر ـ يا محمد ـ وكمل الدين وحان وقت اللحاق بالرفيق الأعلىٰ.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾. أي: إذا جاءك يا محمد نصر الله على من عاداك ، وهم قريش والعرب ، وفتح عليك مكة. والنصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم ، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم. وقيل: فتح قلوبهم ـ أيضاً ـ لقبول الحق.

قال النسفي: (﴿إِذَا﴾ منصوب بِسَبِّح ، وهو لما يستقبل ، والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة. قال: ﴿جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ النصر الإغاثة والإظهار على العدو ، والفتح فتح البلاد ، والمعنىٰ نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة ، أو جنس نصر الله المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم).

يروي البزار والبيهقي عن ابن عمر قال: (نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ في أوسط أيام التشريق ، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع)[1].

وقال عمر بن الخطاب وابن عباس: (هو أجل رسول الله نُعي إليه). ذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ثم قال: (وقال ابن عمر نزلت أوسط أيام التشريق في حجة الوداع ، فعرف رسول الله أنه الوداع فخطب الناس خطبة أمرهم فيها ونهاهم).

قلت: ولا شك أن رسول الله ﷺ قد فهم من نزول هذه السورة أنه الوداع ، وأنه لا بد مفارق الدنيا قريباً إلى الرفيق الأعلىٰ.

يروي البخاري عن ابن عباس قال: [كان عمرُ يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا ، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل

---

(1) في سنده نظر ، «راجع ـ زاد المعاد ـ (2/ 289)» ، تحقيق الأرناؤوط ، لكن له شواهد.

رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ . فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول][1] .

فكان رسول الله ﷺ يكثر بعد ذلك من التسبيح والاستغفار.

وأخرج البخاري كذلك في الباب عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: [أنَّ عمر رضي الله عنه سألهم عَنْ قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قالوا: فَتْحُ المدائنِ والقُصور. قال: ما تقول يا ابنَ عباس؟ قال: أَجَلٌ أو مَثَلٌ ضُرِبَ لمحمد ﷺ ، نُعِيَتْ له نفسُهُ][2] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ . أي: جماعات كثيرة ، فوجاً بعد فوج ، بعد أن كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً ، واثنين اثنين ، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام.

وفي صحيح البخاري من حديث عمرو بن سلمة قال: [لمّا كان الفتح بادرَ كُلُّ قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تَتَلَوَّمُ بإسلامها فتحَ مكة ، يقولون: دعوه وقومَه ، فإن ظهر عليهم فهو نبيّ . .] الحديث[3] .

وفي رواية: [وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفَتْحَ فيقولون: اتركوه وقَوْمَه فإنَّهُ إنْ ظَهَرَ عليهم فهو نبيٌّ صادق ، فلما كانت وقعة أَهْلِ الفتح بادَرَ كُلُّ قَوْم بإسلامهم].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ .

فيه الجمع بين تسبيح الله ، المؤذن بالتعجب مما يَسَّره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس ، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بالنصر والفتح لأم القرىٰ ودخول الناس في الإسلام أفواجاً. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ أي: اطلب منه المغفرة لذنبك تواضُعاً لله ، واستقصاراً لعملك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ أي: إنه تعالىٰ من شأنه التوبة على المستغفرين له ، فهو يتوب على التائبين ويرحمهم بقبول توبتهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4294) ـ كتاب المغازي. وكذلك (4970) ـ كتاب التفسير.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4969) ـ كتاب التفسير ، عند هذه الآية من سورة النصر من حديث ابن عباس.

(3) حديث صحيح. وهو جزء من حديث أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4302) ـ كتاب المغازي ، من حديث عمرو بن سلمة.

وقال القرطبي: (﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح).
وقال القاسمي: (﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ أي: ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون في دين الله ، وهو دينك الذي جئتهم به لزوال ذلك الغطاء الذي كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجاً طوائف وجماعات لا آحاداً ، كما كان في بدء الأمر أيام الشدة. إذا حصل ذلك كله وهو لا ريب حاصل ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: فنزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله. وعن أن يخلف وعده في تأييده. وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذي لا يغلبه غالب ، والحكيم الذي إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين. والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين ﴿ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ أي: اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن ، لتأخر زمن النصر والفتح. والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة. والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله ، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التي تحدثها الشدائد ، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله علم أن نفس نبيّه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال فلذلك أمره به ، وكذلك تقاربه قلوب الكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام. والله يتقبل منهم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أي: إنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة ، لأنه ربٌّ يربي النفوس بالمحن. فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشدد همها بحسن الوعد. ولا يزال بها حتىٰ تبلغ الكمال. وهي في كل منزلة تتوب عن التي قبلها. وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم).

قلت: وهذا كلام بديع ، وتفسير رائع ، وتؤيده السنة الصحيحة في روائع من الأحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه عن مَسْروق ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: [ما صَلّىٰ النبي ﷺ صلاةً بعد أنْ نزلت عليه ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إلا يقول فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفِر لي»][1].

الحديث الثاني: وأخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ـ كذلك ـ عند هذه الآية ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ أنْ يقولَ في ركوعه

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4967) ـ كتاب التفسير. وانظر (794) ـ كتاب الأذان.

وسُجوده: «سُبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغْفر لي» ، يتأوَّلُ القرآن][1] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله قال: [لما أنزل على رسول الله ﷺ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ كان يكثر إذا قرأها وركع أن يقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم (ثلاثاً)][2] .

تم تفسير سورة النصر

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

عصر ثاني أيام التشريق 12 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ

الموافق 12 / كانون الثاني / 2006 م.

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ سورة النصر هي آخر سورة نزلت من القرآن الكريم .

2 ـ سورة النصر فيها الإخبار بدنو أجل رسول الله ﷺ وعلامة ذلك ، ففيها نُعيت له نفسُه عليه الصلاة والسلام .

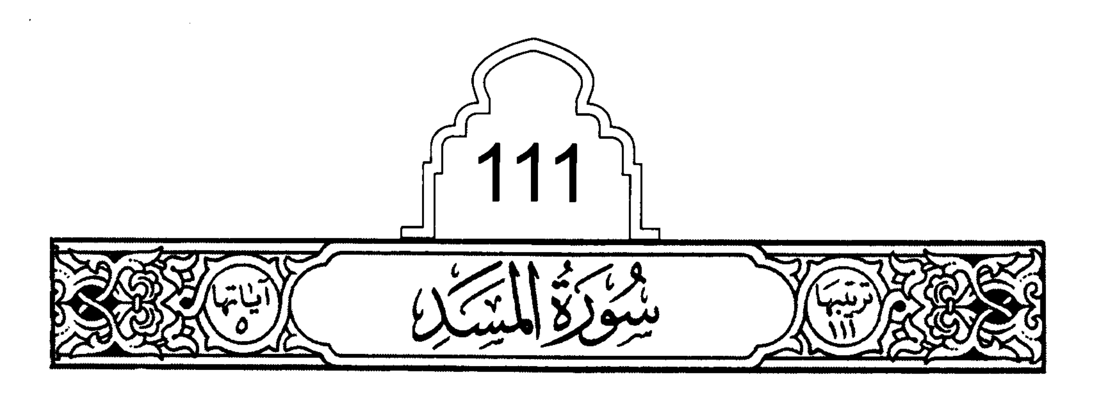
3 ـ كانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح ، فلما وقع الفتح بادر كُلُّ قوم بإسلامهم .

4 ـ كان رسول الله ﷺ يكثر بعد نزول هذه السورة أن يقول في صلاته: سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي .



(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4968) ـ كتاب التفسير . سورة النصر ، آية (1) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (1/ 410) ورجاله ثقات . وانظر تفصيل هذا البحث في كتابي: «السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة» (بحث 85 ـ التشريع النازل في حجة الوداع ـ) ص (1731 ـ 1744) .



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (5).

أسباب النزول:

لقد ورد في أسباب نزول هذه السورة الأحاديث الآتية:

الحديث الأول: أخرج البخاري في كتاب الجنائز من صحيحه ـ بابُ ذِكْرِ شِرَار الموتىٰ ـ عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [قَال أبو لَهَبٍ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ للنبي ﷺ: تَبّاً لكَ سائِرَ اليوم ، فنزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾][1]. وفي رواية: [قال أبو لهب: تَبّاً لكَ ، ألهذا جَمَعْتَنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [لمّا نَزَلَت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ (ورهْطَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصينَ) ، خرجَ رسول الله ﷺ حتىٰ صَعِدَ الصَّفا فهتف: «يا صَبَاحاهُ» ، فقالوا: مَنْ هذا؟ فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيْتُمْ إنْ أَخْبَرْتُكم أنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ من سَفْحِ هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقي؟» قالوا: ما جَرَّبْنَا عليك كَذِباً. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ». قال أبو لهب: تَبّاً لك ، ما جمعتنا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1394) ـ كتاب الجنائز ، وأخرج الرواية الأخرىٰ في كتاب التفسير من صحيحه ـ حديث رقم ـ (4973). سورة المسد ، آية (3).

إلا لهذا؟ ثم قامَ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (وقد تبَّ) ، هكذا قرأها الأعمش يومئذ][1] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن ابن عباس: [أنَّ النبي ﷺ خَرَج إلى البطحاء فَصَعِدَ إلى الجبل فنادىٰ: «يا صَبَاحاهْ» ، فاجتمعت إليه قُرَيْشٌ ، فقال: «أرأيتم إنْ حَدَّثتكم أنَّ العَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أوْ مُمَسِّيكُمْ ، أَكُنتُم تُصَدِّقوني؟» قالوا: نَعَمْ ، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: أَلِهذا جمعتنا؟ تباً لكَ ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلىٰ آخِرِها][2] .

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعِدَ النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني عدي! لبطون قريش حتىٰ اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم ، ما جَرَّبنا عليك إلا صِدْقاً. قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾][3] .

وهذا الحديث هو آخر حديث مما صَحّ في أسباب النزول في القرآن بأسانيد صحيحة مما كنت جمعته أثناء رحلة تخصصي في الولايات المتحدة الأمريكية ، كنواة لهذا التفسير الجامع على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة. وقد كتبته في مدينة سان فرانسيسكو بتاريخ 20/ 10/ 1989 أثناء رحلتي إلى ولاية كاليفورنيا في إجازة بعد أدائي امتحاناتي الجامعية.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري ـ (4971) ـ كتاب التفسير. سورة المسد. ورواه مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4972) ـ كتاب التفسير ـ سورة المسد ، آية (1 ـ 2).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4971) ، ومسلم (208) ، وابن مندة نحوه في الإيمان (949) ، ورواه الطبري (38262) ، والترمذي (3363) ، وأخرجه النسائي في التفسير كما في عمدة القاري ج (16) ص (93) ، ج (19) ص (102).

موضوع السورة

شقاء أبي لهب وزوجته في نار الجحيم

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الدعوة بالهلاك والخيبة ليدي أبي لهب والخسران.

2 ـ تأكيد خسارة الطاغية أبي لهب ، وعدم انتفاعه بماله وما كسب.

3 ـ تأكيد اشتراكه وزوجته حمالة الحطب ، في عذاب جهنم وفي جيد امرأته حبل من مسد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 5. قوله تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: قضاء الله تعالى بالهلاك والخسران ، على أبي لهب وزوجته بإيذائهما خير الأنام ، محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فقوله تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. أي: هلكت يداه وخسرت وخابت. ﴿وَتَبَّ﴾ أي: وهلك هو ، أي: قد وقع ما دعا به عليه وتحقّق.

وأصله ـ في كلام العرب ـ من التَّباب: وهو الخسران والهلاك. يقال: «تبت يداه» و«تبّاً له» بالنصب على المصدر ، بإضمار فعل ، والتقدير: أَلْزَمَهُ الله هَلاكاً وخُسْراناً.

وعن قتادة: (﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾: أي خسرت). وقال ابن زيد: (التَّبّ: الخسران).

وأبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه: عبد العُزّىٰ بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عُتبة ، وإنما سُمِي «أبا لهب» لإشراقِ وَجْهه ، وكان كثيرَ الأذِيَّةِ لرسول الله ﷺ والبِغْضَةِ له ، والازدراء به ، والتنقّص له ولدينه.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرك ، والترمذي بسند حسن عن ربيعة بن عَبّاد[1] رضي الله عنه قال: [رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله ، تُفلحوا. (وفي رواية الترمذي: تفلحوا وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم ، فإذا متم كنتم ملوكاً في الجنة ، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب). وفي رواية أحمد: (والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجلٌ وضِيءُ الوجه أحولُ ذو غَدِيرتَيْن ، يقول: إنه صابِئٌ كاذبٌ يَتْبَعُه حيث ذَهب ، فسألت عنه فقالوا: هذا عَمُّه أبو لهب)][2].

وروىٰ أحمد والطبراني بسند حسن عن حسين بن عبد الله بن عُبَيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عَبَّاد الدِّيليَّ يقولُ: [إني لَمَعَ أبي رجلٌ شابٌ أَنظرُ إلى رسول الله ﷺ يَتّبع القبائل ـ ووراءه رَجُلٌ أحوَلُ وضيءٌ ، ذو جُمَّةٍ ـ يَقِفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فُلان! إني رسول الله إليكم ، أمركم أن تعبدوا الله لا تُشرِكوا به شيئاً ، وأن تُصدِّقوني وتمنعُوني حتىٰ أُنَفِّذَ عن الله ما بعثني به». وإذا فَرَغَ من مقالته قال الآخرُ من خَلْفِه: يا بني فُلان! هذا يريدُ منكم أن تَسلَخُوا اللاتَ والعُزّىٰ ، وحُلفاءكم من الجنِّ من بني مالك بن أُقَيش ، إلى ما جاء به من البِدْعَةِ والضَّلالة ، فلا تَسْمعوا له ولا تَتّبعوه. فقلت لأبي: مَنْ هذا؟ قال: عَمُّهُ أبو لَهَبٍ][3].

وكان أبناء أبي لهب متزوجين ببنات محمد ﷺ فأمرهم بفراقهن ، فطلق عتبة وعتيبة رُقَيَّة وأمَ كلثوم. ولربما تأثر أبو لهب بزوجته الشّرسة أم جميل بنت حرب ، وهي أخت

---

(1) هو من بني الديل ، وكان جاهلياً فأسلم.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (4/ 341) ، وكذلك (3/ 491 ـ 493) ، ورواه الحاكم (1/ 16) ، والترمذي بإسناد حسن ، وانظر ما بعده.

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (3/ 492) ، والطبراني في «الكبير» (4589) ، وأخرجه الحاكم (1/ 15) ، وأحمد (3/ 492) من وجه آخر ، وصححه على شرط البخاري ومسلم ، ووافقه الذهبي. وأورده ابن كثير في التفسير ، وانظر ما قبله.

أبي سفيان ، كانت امرأة سليطة تؤزها على كراهية محمد ودينه علل شتىٰ ، ولذلك لم تأل جهداً بالنيل منه ومن الإسلام ، فبسطت فيه لسانها أيما بسط وتطاولت وتمادت.

يروي أبو يعلىٰ في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، بسند حسن لغيره ، عن أسماء قالت: [لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أقبلت أم جميل بنتُ حرب امرأةُ أبي لهب وهي تنشد: مُذَمَّمٌ أبَيْنا ، ودينه قَلَيْنا ، وأمره عَصَيْنا ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فسألت أبا بكر إن كان النبي قد هجاها فنفىٰ ذلك][1].

فيبدو أنها سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر وفي يدها حجارة ـ كما يروي ابن هشام ـ: [فأعماها الله عن رؤية رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بِهذا الفِهر[2] فاه ، أما والله إني لشاعرة:

مُذَمَّماً عَصَيْنا وأمْرَهُ أبَيْنا ودينَه قَلَيْنا

ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله ، أما تراها رأتك؟ قال: «ما رأتني ، لقد أخذ الله بصرها عني»][3].

وفي رواية عند البزار: (قالت: يا أبا بكر هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية ، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت: إنك لمصدق).

وكان يفرح عليه الصلاة والسلام حين يحرفون اسمه لضده ويشتمون (وهو قولُهم مذمَّمٌ بدل محمد) ، لأن اسمه مدح كله ، فلا يقع الشتم بذلك عليه.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا تعجبون

---

(1) حسن لغيره. أخرجه أبو يعلىٰ (1/ 153 ـ 154) ، والحاكم (2/ 361) ، وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية (1/ 210 ـ 212).

(2) الفِهْر ـ بكسر الفاء ـ الحجر ملء الكف.

(3) انظر سيرة ابن هشام (1/ 342 ـ 343) ، ورواها الحميدي (1/ 323) بهذا اللفظ عن أسماء بنت أبي بكر ، وحسنه الحافظ في «الفتح» (8/ 610).

كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنَهم ، يشتمون مذمماً ، ويلعنون مذمماً ، وأنا محمد][1] .

ومع أن أبا لهب عم رسول الله ﷺ وجاره ، وكان بيته ملصقاً ببيته ، لكنه شَقِيٌّ تَنكَّرَ للرّحم والجوار من أجل شهوة الكبر والظهور والعلو في الأرض بغير الحق ، شأن جيرانه الآخرين من المشركين الذين كانوا يؤذونه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ . قال ابن عباس : (﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني : وَلَدَه) . والمقصود : لم يدفع عنه ما جمع من المال ، ولا ما كسب من الأرباح والجاه والولد ، ما حَلّ به من التباب ، وما نزل به من عذاب الله .

وقوله تعالىٰ : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ . أي : سوف يعذب في النار الملتهبة ، تحرق جلده ، وهي ذات اشتعال وتوقد ، وهي نار جهنم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ . ـ **فيه أكثر مِن تأويل :**

التأويل الأول : كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ .

فعن ابن عباس : (﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ قال : كانت تحمل الشوك ، فتطرحه على طريق النبي ﷺ ليعقره وأصحابه) . وعن عطية الجدلي قال : (كانت تضع العضاه على طريق رسول الله ﷺ ، فكأنما يطأ به كثيباً) .

وقال ابن زيد : (كانت تأتي بأغصان الشوك ، فتطرحها بالليل في طريق رسول الله ﷺ) . ـ واختاره ابن جرير .

التأويل الثاني : قيل لها حمالة الحطب لأنها كانت تحطب الكلام ، وتمشي بالنميمة ، وتعيّر رسول الله ﷺ بالفقر .

فعن عكرمة : (قال : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ : كانت تمشي بالنميمة) . وقال قتادة : (كانت تنقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض) . وقال أيضاً : (كانت تحطب الكلام ، وتمشي بالنميمة . وقال بعضهم : كانت تعير رسول الله ﷺ بالفقر وكانت تَحْطُب فَعُيِّرت بأنها كانت تحطب) .

التأويل الثالث : قيل بل تحمل الحطب فتلقيه على زوجها في نار جهنم .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (فتح الباري : 6/ 554 ـ 555) .

قال ابن كثير: (﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾، وكانت زوجتُه من سادات نساء قريش، وهي أمُّ جَميل، واسمها أرْوَىٰ بنتُ حَرْب بن أُمَيّة، وهي أخت أبي سفيان. وكانت عوناً لزوجها على كُفْرِه وجُحودِه وعِناده، فلهذا تكونُ يوم القيامة عَوناً عليه في عذابه في نار جَهنم. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾، يعني: تحملُ الحطب فتلقي على زَوْجها، ليزدادَ في ما هو فيه، وهي مُهَيَّأةٌ لذلك مستعدة له).

قلت: والتأويل الأول أظهر وأنسب لعبارة الآية، وأما التأويل الثاني والثالث فيحتمله البيان والإعجاز، والله تعالىٰ أعلم.

ونصب عاصم ﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ على الشتم، ويسوغ الوقف على ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ لأنها عطفت على الضمير في سيصلىٰ، والتقدير: سيصلىٰ هو وامرأته، أعني حمالة الحطب. ورفع غيره ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ على أنها خبر، وامرأته مبتدأ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾. الجيد: العنق. قال ابن زيد: (﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ قال: في رقبتها). والمسد: الليف. وقال الرازي: (المَسَدُ أيضاً حَبْلٌ من لِيف أو خُوصٍ وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارِها. و«مَسَدَ» الحَبْلَ أجادَ فَتْلَهُ). قال الضحاك: (﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ قال: حبل من شجر، وهو الحبل الذي كانت تحتطب به). وقال ابن زيد: (﴿ حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾: حبال من شجر تنبت في اليمن لها مسد، وكانت تفتل، وقال: ﴿ حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾: حبل من نار في رقبتها). وقال قتادة: (قلادة من ودع). وقال عروة: (سلسلة من حديد، ذرعها سبعون ذراعاً).

وقال سعيد بن المسيب: (كانت لها قِلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللاتِ والعزىٰ لأنفقنها في عداوة محمد. ويكون ذلك عذاباً في جيدها يوم القيامة).

قلت: والراجح من المعنىٰ مما يناسب السياق: في عنقها حبل مما مسد من الحبال ـ والمسد الذي فتل من الحبال فتلاً شديداً من ليف كان أو جلد أو غيرها ـ فهي تحمل حزم الشوك وتربطها بذلك الحبل في جيدها في النار جزاء من جنس العمل، والله تعالىٰ أعلم.

وهذه السورة العظيمة تحدّىٰ الله تعالىٰ فيها أبا لهب وزوجته، اللذين أصَرّا على معاداة النبي ﷺ وتكذيب الوحي والنبوة، فتحدّاهما تعالىٰ بأنهما لن يؤمنا، لا ظاهراً

ولا باطناً ، لا سرّاً ولا علناً ، وأنهما سيخرجان من هذه الحياة الدنيا كافرين ، ولم يجبرهما تعالىٰ على الكفر والعمىٰ عن طريق الصواب ، وإنما اختارا طريق الجحد واللؤم ففارقا الحياة وقد استحقا العقاب ، والخزي في قرآن يتلىٰ على ألسنة الأجيال إلى يوم الحساب ، ثم يكون تحقيق الوعيد يومئذ بِرَدِّهما إلى أَشَدِّ أنواع الإهانة والعذاب ، فكان في ذلك أقوىٰ الأدلة على إثبات النبوة .

تم تفسير سورة المسد
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
ظهر يوم السبت 14 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 14 / كانون الثاني / 2006 م

دروس ونتائج وأحكام

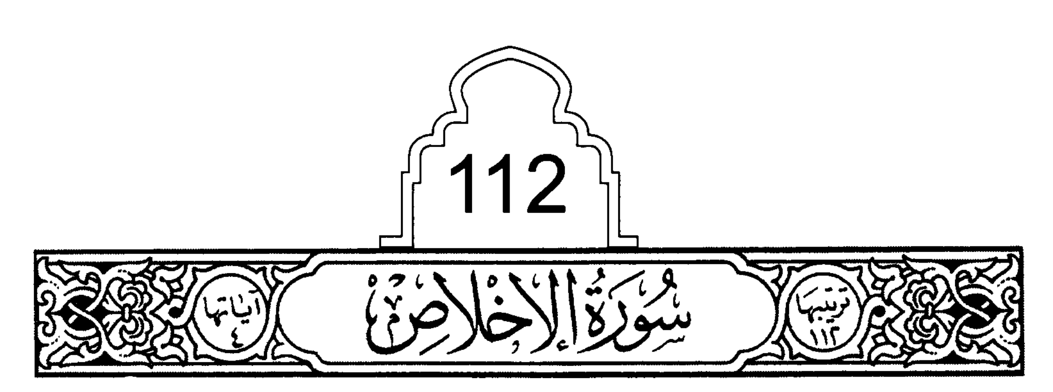
1 ـ علم الله المسبق بِصِلِيِّ أبي لهب نار الجحيم ، وخروجه من هذه الدنيا ليضاف إلى الكافرين .

2 ـ نزول هذه السورة في حياة أبي لهب اللعين ، وتأكد علم الله بعدم اختياره منهاج المؤمنين .

3 ـ التَّب من التَّباب ، وهو الهلاك والخسران .

4 ـ الزوجة المعينة لزوجها على الكفر تشترك مع زوجها الكافر في عذاب الجحيم .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (4).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد ذكر هذه السورة العظيمة وفضلها في أحاديث من السنة الصحيحة العطرة:

الحديث الأول: يروي البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: [أنَّ النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك. فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبي ﷺ: أخبروه أن الله تعالىٰ يحبه][1].

الحديث الثاني: يروي البخاري في كتاب الصلاة عن أنس رضي الله عنه قال: [كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، حتى يفرغ منها ، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنَع ذلك في كل ركعة: فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، فَقال: ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7375) ـ كتاب التوحيد. وأخرجه مسلم (813) ، والنسائي (2/ 171) ، وأخرجه ابن حبان (793).

الخبر ، فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ قال: إني أحبها ، قال: حبك إياها أدخلك الجنة][1] .

الحديث الثالث: يروي الإمام أحمد في المسند عن أنس رضي الله عنه قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. فقال رسول الله ﷺ: حبك إياها أدخلك الجنة][2] .

الحديث الرابع: يروي البخاري عن أبي سعيد: [أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر له ذلك ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن][3] .

الحديث الخامس: يروي البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: [قال رسول الله ﷺ لأصحابه: أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن][4] .

الحديث السادس: يروي الإمام أحمد عن أبي أيوب عن النبي ﷺ قال: [من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثُلُثَ القُرآن][5] .

الحديث السابع: يروي الإمام أحمد بن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن][6] .

الحديث الثامن: يروي الإمام أحمد عن معاذ بن عبد الله بن خُبَيب عن أبيه قال: [أصابنا عطش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا ، فخرج فأخذ بيدي ، فقال: قل ، فسكت؟ قال: قل. قلت: ما أقول؟ قال: قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً ، تكفيك كل يوم مرتين]. وفي رواية: [تكفك كل شيء].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (774) ، كتاب الأذان. والترمذي (2901) ، والبيهقي (2/ 61).

(2) حديث صحيح. انظر الحديث السابق ، ومسند أحمد (3/ 141) ، (3/ 150). وصحيح ابن حبان (792).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (7374) ، كتاب التوحيد. وأخرجه أبو داود في السنن (1461) ، ورواه النسائي (2/ 171).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (5015) ، كتاب فضائل القرآن.

(5) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (684) ، وأحمد في المسند (5/ 141) ، وانظر صحيح الجامع (6349) ، وله شواهد كثيرة.

(6) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 122) ، وابن ماجة (3789) ، وله شواهد.

وفي لفظ عند الترمذي وأبي داود والنسائي: [﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حيت تُمْسي ، وحين تُصْبحُ ، ثَلاَث مرات ، تكفيك من كل شيء][1].

الحديث التاسع: يروي الإمام أحمد بسند حسن عن معاذ بن أنس الجهني صاحب رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: [من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة]. وفي رواية: [من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات بنى الله له بيتاً في الجنة][2]. وفي رواية: [فقال عمر: إذن نستكثر قصوراً يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ: الله أكثر وأطيب].

ورواه الدارمي عن سعيد بن المسيب قال: إن نبي الله ﷺ قال: [من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة ، ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين في الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور في الجنة ، فقال عمر بن الخطاب: إذن نكثر قصورنا ، فقال رسول الله ﷺ: الله أوسع من ذلك].

قال الحافظ ابن كثير: (وهذا مرسل جيد).

الحديث العاشر: في أثر الدعاء بما اشتملت عليه هذه الألفاظ الكريمة من أسماء الله وصفاته.

يروي أهل السنن واللفظ للنسائي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: [أنه دخل مع رسول الله ﷺ إلى المسجد ، فإذا رجل يصلي يدعو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. قال: والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم الذي سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب][3].

الحديث الحادي عشر: في الرقية بها والاستشفاء بكلماتها.

يروي البخاري عن عائشة: [أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من

(1) حديث حسن: أخرجه أبو داود (5082) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (7860) ، والترمذي (3575).
(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (3/ 437). وانظر صحيح الجامع (6348) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (589) ، وانظر سنن الدارمي (2/ 459) لما بعده ، وسنده صحيح.
(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2763) ، وصحيح سنن ابن ماجة (3857).

جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات][1] . ورواه أصحاب السنن.

موضوع السورة

توحيد الله عز وجل

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ أمر الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بإفراده بالتوحيد فهو الله الواحد الأحد.

2 ـ وصف الله تعالىٰ نفسه بأنه الصمد ، فهو الذي يُصمد إليه أمر جميع خلقه.

3 ـ وصف الله تعالىٰ نفسه بأنه لم يلد ولم يولد ، ولم يكافئه من خلقه أحد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 4. قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

في هذه الآيات: توحيدُ الله تعالىٰ في جوامع من الكلم العظيم ، فهو الله الواحد لا نظير له ولا شبيه السيد الحي القيوم ، الذي إليه يصمد أمر جميع العباد وحاجاتهم ، وأرزاقهم ومصابهم ، والذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكافئه من خلقه أحد.

قال ابن جرير رحمه الله: (ذكر أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن نسب رب العزة ، فأنزل الله هذه السورة جواباً لهم. وقال بعضهم: بل نزلت من أجل اليهود سألوه ، فقالوا له: هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله؟ فأنزلت جواباً لهم).

ثم ذكر أثراً عن أبي بن كعب قال: (قال المشركون للنبي ﷺ: انسب لنا ربك ، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5017) ، وأبو داود (5056) ، والترمذي (3402) ، وغيرهم.

وكذلك عن عكرمة قال: (إن المشركين قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن ربك، صف لنا ربك ما هو، ومن أي شيء هو! فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة).

وعن قتادة قال: (جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: انسب لنا ربك فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختم السورة).

وبنحوه من طريق ابن إسحاق عن محمد عن سعيد قال: (أتى رهط من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخَلْقَ، فمن خلقه؟ فغضب النبي ﷺ حتى انتُقِعَ لونه، ثم ساوَرَهم غضباً لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فَسَكَّنَهُ، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد! وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه. قال: يقول الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾).

قال الحافظ ابن كثير: (وقال عكرمة: ولما قالت اليهود نحن نعبد عزير بن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقال المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾).

قلت: والصحيح المسند من ذلك ما رواه الترمذي بسند حسن عن أبي بن كعب: [أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسُب لنا ربك؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾][(1)].

والمعنى أنه الله الواحد الذي لا نظيره ولا وزير ولا شبيه ولا عديل، فهو وحده الكامل في صفاته وأفعاله. وأما قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ففيه معان جليلة ذكرها المفسرون:

الأول: السيد. قال ابن عباس: (هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار).

وعن الأعمش عن شقيق قال: (الصمد: هو السيد الذي قد انتهى سؤدده).

---

(1) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2680) ـ كتاب التفسير ـ سورة الإخلاص.

الثاني: الباقي. قال قتادة: (هو الباقي بعد خلقه). وفي رواية قال: (الصمد الدائم).

الثالث: الحي القيوم. قال الحسن: (الصمد: الحي القيوم الذي لا زوال له).

الرابع: الذي لا يأكل ولا يشرب. قال الشعبي: (الصمد: الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب).

الخامس: ليس بأجوف. قال الضحاك: (الصمد: الذي لا جوف له). وقال مجاهد: (المصمت الذي لا جوف له).

السادس: لم يلد ولم يولد. قال أبو رجاء: سمعت عكرمة قال في قوله الصمد: (الذي لم يخرج منه شيء، ولم يلد ولم يولد).

وقال أبو العالية: (الصمد: الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا سيموت، فأخبرهم تعالى ذكره أنه لا يورث ولا يموت).

السابع: نور يتلألأ. ذكره عبد الله بن بريدة.

قلت: وباستقراء هذه التفاسير المختلفة ظاهراً المتحدة تأويلاً في معنى الصمد، يتبيّن أن هذا اللفظ في صفة الباري عز وجل، هو لفظ جامع لكل صفات الجمال والكمال التي لا تليق إلا بالله عز وجل، فإليه يصمد الأمر كله، فهو الكامل في صفاته وأسمائه، الذي يجيب حوائج عباده، ويعينهم ويدبر أمورهُم ويرزقهم ويكشف مصابهم، ويرحمهم ويجعل لمضطرهم من كربه فرجاً ومخرجاً، فهو الأحد الصمد تباركت أسماؤه وصفاته.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾. قال أبو جعفر: (ليس بفان، لأنه لا شيء يلد إلا وهو فان بائد، وليس بِمُحْدث لم يكن فكان، لأن كل مولود فإنما وجد بعد أن لم يكن، وحدث بعد أن كان غير موجود، ولكنه تعالى قديم لم يزل، ودائم لم يبد، ولا يزول ولا يفنى).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

الأول: لا شبيه له ولا مثل. قال أبو العالية: (لم يكن له شَبيه ولا عدل وليس كمثله شيء).

وقال قتادة فيما يرويه عن عمرو بن غيلان عن كعب: (إن الله تعالى ذكره أسس

السماوات السبع ، والأرضين السبع ، على هذه السورة ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ وإن الله لم يكافئه أحد من خلقه).

وقال ابن عباس: (ليس كمثله شيء ، فسبحان الله الواحد القهار).

الثاني: يعني لا صاحبة له.

قال مجاهد: (﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾: يعني لا صاحبة له).

وفي ﴿ كُفُوًا ﴾ قراءتان بتسكين الفاء وضمها ، فقد قرأها قراء البصرة بالضم ﴿ كُفُوًا ﴾ وقرأها بعضُ قراء الكوفة بالتسكين ﴿كُفْواً﴾ وهما قراءتان مشهورتان.

وكلا المعنيين حق ، كما قال سبحانه في سورة (مريم): ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾.

وكذلك روى البخاري في صحيحه في هذا المعنى من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إيايَ فزعم أني لا أقدر أن أعيدَه كما كان ، وأما شتمهُ إيايَ فقوله: لي ولَدٌ ، فسبحاني أن أتخذ صاحبَةً أو ولداً][1].

تم تفسير سورة الإخلاص

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

عصر يوم السبت 14 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ

الموافق 14 / كانون الثاني / 2006 م

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4974) ـ كتاب التفسير. وكذلك (3193) ـ كتاب بدء الخلق. وانظر الروايات المختلفة في صحيح الجامع الصغير (4199) ، (4203).

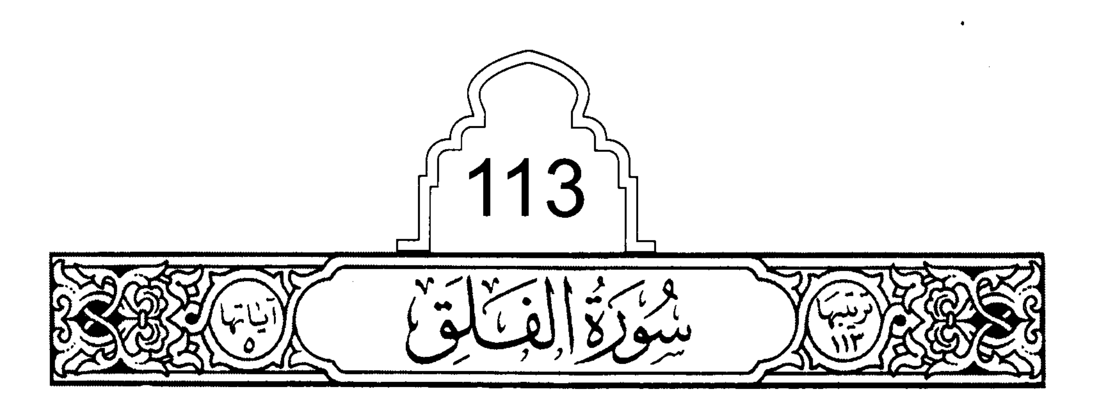
دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ سورة الإخلاص فيها صفة الرحمان عز وجل .

2 ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن ، ومن قرأها عشر مرات حتىٰ يختمها بنىٰ الله له بيتاً في الجنة .

3 ـ سورة الإخلاص يُرقىٰ بها ويستشفىٰ بكلماتها. وكان رسول الله ﷺ إذا أوىٰ إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (5).

فضائل المعوذتين وما ورد في ذكرهما:

لقد جاء ذكر فضائل هاتين السورتين العظيمتين في أحاديث من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: يروي البخاري عن زرٍّ بن حُبَيش رضي الله عنه قال: سألت أُبَيَّ بن كعب عن المعوذتين فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: [قيل لي ، فقلتُ]. فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ[1].

الحديث الثاني: يروي الإمام مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ألم ترَ آيات أُنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾][2].

الحديث الثالث: يروي الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: [بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي: يا عقبة ألا تركب. قال: فأشفقت أن تكون معصية ، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب ثم قال: يا عقب ألا أعلمك

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري ـ (4977) ـ كتاب التفسير من صحيحه ، وكذلك (4976).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 558) ، والترمذي (3367) ، وأحمد (4/ 151).

سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس. قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما ثم مرَّ بي فقال: كيف رأيت يا عقب اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت][1].

وفي رواية قال: [أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة].

الحديث الرابع: يروي الإمام النسائي بإسناد صحيح عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله ﷺ: [لن نقرأ شيئاً أبلغ عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾].

ورواه أحمد بلفظ: [اقرأ بالمعوذتين فإنك لن تقرأ بمِثلهما].

وفصّل في رواية أخرى، قال عقبة: [إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شَهباء فركبها فأخذ عقبة يقودها له، فقال رسول الله ﷺ: اقرأ قل أعوذ برب الفلق. فأعادها له حتى قرأها، فعرف أني لم أفرح بها جداً فقال: لعلك تَهَاوَنتَ بها؟ فما قمت تصلي بشيء مثلها][2].

الحديث الخامس: يروي الإمام أحمد بإسناد صحيح عن فروة بن مجاهد اللخمي قال: [لقيت رسول الله ﷺ فقال لي: يا عقبة بن عامر! صِل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك. قال: ثم أتيت رسول الله ﷺ، فقال لي: يا عقبة بن عامر: أملك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك. قال: ثم لقيت رسول الله ﷺ فقال لي: يا عقبة بن عامر! ألا أعلمك سوراً ما أنزلت في التوراة ولا في الزبور، ولا في الإنجيل، ولا في الفرقان مثلهن، لا يأتين عليك ليلة إلا قرأتهن فيها؟ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾][3].

قال عقبة: فما أتت عليّ ليلة إلا قرأتهن فيها، وحق لي أن لا أدعهن، وقد أمرني بهن رسول الله ﷺ.

وكان فروة بن مجاهد إذا حدث بهذا الحديث يقول: (ألا فرب من لا يملك لسانه، أو لا يبكي على خطيئته، ولا يسعه بيته).

الحديث السادس: يروي الإمام النسائي عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: [إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾].

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (4/ 144)، وأبو داود (1462)، والنسائي في «الكبرى» (7843).
(2) حديث إسناده على شرط مسلم، أخرجه أحمد (4/ 151)، وانظر المرجع السابق (7842).
(3) حديث حسن. انظر مسند أحمد (4/ 148)، والطبراني (17/ 271)، وله شواهد تحسنه.

وفي رواية، قال له: [يا ابن عباس ألا أدلك ـ أو ألا أخبرك ـ بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون. قال: بلى يا رسول الله. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هاتين السورتين][1].

الحديث السابع: يروي الإمام النسائي عن عقبة بن عامر قال: [كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: يا عقبة قل! قلت: ماذا أقول؟ فسكت عني، ثم قال: قل. قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال: قل، فقلت: ماذا أقول يا رسول الله ﷺ؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. فقرأتها ثم أتيت على آخرها ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: ما سأل سائل بمثلهما ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما].

ورواه الإمام أحمد من حديث أبي العلاء قال: قال رجل: [كنا مع رسول الله ﷺ في سفر والناس يعتقبون، وفي الظهر قلة، فحانت نزلة رسول الله ﷺ ونزلتي، فلحقني فضرب منكبي، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه فقال: إذا صليت فاقرأ بهما][2].

وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير وقال: (الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر والله أعلم. وقال: فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث).

الحديث الثامن: يروي الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده].

ورواه الإمام مالك بلفظ: [كان إذا اشتكى يقرأ على نَفْسِه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها][3].

الحديث التاسع: يروي ابن ماجة والترمذي بسند حسن عن أبي سعيد الخدري قال:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي (2/ 312)، وأحمد (4/ 153)، وابن سعد (2/ 312).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 79)، والنسائي (7859)، ورجاله ثقات، وله طرق كثيرة، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1104).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5016)، ومسلم (2192)، وأبو داود (3902)، ورواه مالك في الموطأ (2/ 942)، وأحمد في المسند (6/ 104)، (6/ 181).

[كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك][1] .

الحديث العاشر: يروي النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن خبيب عن النبي ﷺ قال: [﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ، ما تعوذ الناس بأفضلَ منهما][2] .

موضوع السورة

الاستعاذة بالله رب الفلق

من الشياطين والسحرة والحساد وشر ما خلق

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ أمر الله رسوله بالاستعاذة به ـ تعالىٰ ـ رب الفلق ، من شر ما خلق.

2 ـ الأمر بالاستعاذة بالله تعالىٰ من شر الغاسق إذا وقب.

3 ـ الأمر بالاستعاذة بالله تعالىٰ من شر السحرة والسواحر الذين ينفثون ويعقدون في العقد.

4 ـ الأمر بالاستعاذة بالله تعالىٰ من شر كل حاسد وما حسد.

---

(1) حديث صحيح. رواه ابن ماجة والترمذي من حديث أبي سعيد ، ورواه النسائي ، وقال الترمذي: «حسن». انظر حديث (7613) ـ تفسير ابن كثير ـ ، وكذلك آخر سورة القلم.

(2) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن النسائي ـ حديث رقم ـ (5018) ـ كتاب الاستعاذة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 5. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالىٰ نبيّه ـ وهو أمر لأمته ـ بالاستعاذة به من شر ما خلق، ومن شر ما يكون من انتشار للفواحش والآثام إذا دخل الليل ووقب، ومن شر السواحر والسحرة الذين يعقدون العقد، ومن شر كل حاسد إذا أصاب بعينه أو حسد.

فقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. أي: قل يا محمد أستجير وأستعيذ برب الفلق من شر ما خلق. وفي تفسير الفلق أكثر من قول:

الأول: الفلق هو الصبح. قال ابن عباس: (الفلق: الصُّبح). وعن القرظي: (أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾، قال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾).

وقال قتادة: (الفلق: فلق النهار)، وفي رواية عنه: (فلق الصبح).

وقيل لابن زيد: فلق الصبح؟ قال: نعم، وقرأ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾.

الثاني: الفلق هو الخلق. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (الفلق: الخلق). وقال الضحاك: (أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله).

الثالث: الفلق سجن في جهنم.

فعن ابن إسحاق بن عبد الله قال: (الفلق: سجن في جهنم). وقال سفيان: (سمعت السدي يقول: (الفلق جب في جهنم). وعن العوّام بن عبد الجبار الجولاني قال: (قدم رجل من أصحاب رسول الله الشام، فنظر إلى دور أهل الذمة، وما هم فيه من العيش والنضارة، وما وسَّع عليهم في دنياهم، قال: فقال: لا أبا لك، أليس من ورائهم الفلق؟ قال: قيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم، إذا فتحَ هَرَّ أهل النار).

وعن كعب: (أنه دخل كنيسة فأعجبه حسنها، فقال: أحسن عمل وأضل قوم، رضيت لكم الفلق، قيل وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حرّه). ذكره والأثر الذي قبله ابن جرير.

الرابع: الفلق اسم من أسماء جهنم.

فعن ابن وهب قال: سمعت خيثم بن عبد الله يقول: (سألت أبا عبد الرحمن الحيلي عن الفلق، قال: (هي جهنم).

ورجح ابن جرير أن المراد فلق الصبح. قال: (والفلق في كلام العرب: فلق الصبح، تقول العرب: هو أبين من فلق الصبح، ومن فَرَق الصبح).

وقال الحافظ ابن كثير: (والصواب القول الأول إنه فلق الصبح وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالىٰ).

فيكون المعنى: قل يا محمد أستجير وأستعيذ برب الفلق من شر ما خلق من الخلق.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾. أمر بالاستعاذة بالله من شر كل شيء خلقه في هذا الكون.

قال الحسن البصري: (جهنم وإبليس وذريته مما خلق).

فيكون المعنى: تعوذ بالله يا محمد من شر كل المخلوقات فإنه لا يصرف شرها عنك إلا الله.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾. وفي تفسيرها أقوال متقاربة:

الأول: الغاسق هو الليل إذا أظلم. قال ابن عباس: (﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قال: الليل). وقال الحسن: (أول الليل إذا أظلم). وقال القرطبي: (النهار إذا دخل في الليل). وقال مجاهد: (قوله: ﴿غَاسِقٍ﴾ قال: الليل، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ قال: إذا دخل).

قال قتادة والحسن: (إنه الليل إذا أقبل بظلامه).

الثاني: الغاسق هو غروب الشمس.

فعن محمد بن كعب قال: (هو غروب الشمس إذا جاء الليل، إذا وقب).

وقال الزهري: (الشمس إذا غربت). وقال مجاهد: (غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس).

الثالث: الغاسق هو كوكب الثريا.

قال ابن زيد: (كانت العرب تقول: الغاسق: سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها).

وقال أبو المهزم عن أبي هريرة: (ومن شر غاسق إذا وقب: الكوكب).

الرابع: قيل بل الغاسق هو القمر.

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها: [أن رسول الله ﷺ أخذ بيدها فأشار بها إلى القمر فقال: يا عائشة! استعيذي بالله من شرِّ هذا، فإن هذا هو الغاسِقُ إذا وقبَ. يعني القمر][1].

وفي لفظ للترمذي: [استعيذي بالله من هذا (يعني القمر)، فإنه الغاسق إذا وقب].

قال الألباني: (وفي الحديث دلالة على جواز الإشارة باليد إلى القمر خلافاً لما نقل عن بعض المشايخ من كراهة ذلك، والحديث يرد عليه).

ولفظ أحمد عنها قالت: [أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع وقال: تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب]. ولفظ النسائي: [تعوذي بالله من شر هذا، هذا الغاسق إذا وقب].

قلت: ويمكن الجمع بين هذه التفاسير وجعل عمدتها حديث رسول الله ﷺ، فإن القمر أكبر آية من آيات الليل، وتليه الكواكب والنجوم التي تظهر بعد غروب الشمس، فإذا دخل الليل وذهب النهار تعاقبت هذه الآيات بالظهور، فجاء الأمر من الله بالاستعاذة من هذا الغاسق إذا دخل وأقبل وما يصاحب ذلك من حركة شياطين الإنس والجن بالمعاصي والفواحش.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾. وفيه أقوال متكاملة:

الأول: المراد الرقى من طريق السحر. قال ابن عباس: (﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 241)، وأحمد (6/ 61)، والحاكم (2/ 540).

﴿ٱلۡعُقَدِ﴾ قال: ما خالط السحر من الرقى). وقال قتادة: (إياكم وما خالط السِّحر من هذه الرقى).

الثاني: قيل بل المراد السحرة والسواحر. قال الضحاك: (يعني السواحر).

وقال الحسن: (السواحر والسّحرة). وقال ابن زيد: (السواحر في العقد).

الثالث: قيل بل المراد النفث في العقد. قال مجاهد: (إذا رقين ونفثن في العقد). وفي رواية عنه قال: (الرقى في عقد الخيط). وقال عكرمة: (الأخذ في عقد الخيط).

الرابع: قيل بل المراد رقية الحية والمجانين.

يروي ابن جرير بسنده إلى طاووس قال: (ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين).

وقد ثبت في صحيح الإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم ومسند الإمام أحمد كيف سحر اليهود النبي ﷺ حتى رقاه جبريل عليه الصلاة والسلام.

فقد أخرج البخاري في كتاب الطِّب من صحيحه عن عائشة قالت: [كان رسول الله ﷺ سُحِرَ حتىٰ كان يرىٰ أنه يأتي النساءَ ولا يأتيهنَّ، فقال يا عائشةُ! أَعَلِمْتِ أن الله قد أفتاني فيما استَفْتَيْتُه فيه؟ أتاني رجلان فقعَدَ أحدُهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عندَ رأسي للآخر: ما بالُ الرجُل؟ قال: مطبوبٌ. قال: ومَنْ طَبَّهُ؟ قال: لبيد بن أَعْصَمَ ـ رجلٌ من بني زُرَيق حليف ليهود، كان منافقاً ـ قال: وفيم؟ قال: في مُشْط ومُشاطةٍ، قال: وأيْنَ؟ قال: في جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ تَحْتَ رَعُوفَةٍ في بئْرِ ذَرْوانَ. قالت: فأتىٰ النبيُ ﷺ البِئْرَ حتىٰ استَخْرَجَهُ، فقال: هذهِ البِئْرُ التي أُريتُها وكأنَّ ماءَها نُقاعَةُ الحِنَّاء، وكأنَّ نَخْلَها رؤوس الشَياطين. قال: فاستُخْرِجَ، قالت: فقلتُ: أفلا؟ ـ أيْ تنَشَّرْتَ ـ فقال: أمَا والله فَقَدْ شَفانِي وأكْرَهُ أنْ أُثِيرَ على أحدٍ من الناس شراً][1].

وجاء في رواية أخرىٰ: [حتىٰ كانَ يُخَيَّلُ إليه أنه فَعَل الشيء ولم يَفْعَلْهُ].

وفي رواية: [فأمر بالبئر فَدُفِنت][2].

قلت: وإنما كان سحره ﷺ كالمرض، ولم يؤثر على عصمة النبوة وتبليغ الرسالة، وكُلُّ ما كان يُخَيّل إليه أنه أتىٰ أهله أو فعل الشيء من أمور الدنيا ولم يَفْعَلْهُ.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5765) ـ كتاب الطب ـ، باب: هَلْ يَسْتخرِجُ السِّحْرَ؟

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5766)، (6063)، (6391)، ومسلم (2189) ح (43).

يروي الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: [دخلت على رسول الله ﷺ أعودُه وبه من الوجَع ما يعلم الله تبارك وتعالى بشدة ، ثم دخلت عليه من العشي وقد برئ أحسن بُرْءٍ فقلت له: دخلت عليك غدوةً وبك من الوجع ما يعلم الله بشدة ، ودخلت عليك العشية وقد برئت فقال: يا ابن الصامت إن جبريل عليه السلام رقاني برُقية برئتُ ألا أُعَلّمكَهَا؟ قلت: بلى. قال: بِاسْمِ الله أَرْقيكَ ، من كل شيء يؤذيكَ ، من حَسد كل حاسدٍ وعينٍ ، باسم الله يشفيك].

وله شاهدٌ في المسند عن عبادة يحدث عن رسول الله ﷺ: [أن جبريل أتاه وهو يُرْعِدُ فقال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من حَسَدِ حاسدٍ ، وكُلِّ عين ، واسْمُ الله يشفيك].

وشاهد آخر فيه أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري: [أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: اشتكيت يا مُحمد؟! قال: نعم قال: باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين يشفيك ، باسم الله أرقيك].

وفي رواية: [باسم الله أرقيك ، من كل شيء يُؤذيك ، من كل عَيْن وحاسد ، يشفيك ، أو قال: الله يَشْفيك].

وهو من حديث عائشة عنده بلفظ: [كان النبي ﷺ إذا اشتكى رقاه جبريل عليه السلام فقال: باسم الله أرقيك ، من كل داء يشفيك ، من شر حاسدٍ إذا حسد ، ومن شر كل ذي عين][(1)].

ثم قال سبحانه: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ . قال قتادة: (من شر عينه ونفسه).

وقال ابن زيد: (يهود لم يمنعهم أن يؤمنوا به إلا حسدهم).

فأمر الله نبيه أن يستعيذ به من شر كل حاسد إذا حسد ، فعابه أو سحره ، أو نظر إليه نظرة بغي وسوء ، وهذا ما رقاه به جبريل عليه الصلاة والسلام.

يروي ابن ماجة بإسناد صحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [استعيذوا بالله تعالى

---

(1) حديث صحيح. انظر الروايات المختلفة في صحيح مسلم (2186) ، ومسند أحمد (3/ 28) ، (3/ 56 ـ 58) ، (3/ 75) ، وسنن الترمذي (972).

من العين ، فإن العين حق][1] . ورواه الحاكم.

تم تفسير سورة الفلق
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه
مساء يوم السبت 14 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 14 / كانون الثاني / 2006م

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ لن نَقْرأَ شيئاً أبلغَ عنْدَ الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ .

2 ـ كان رسول الله ﷺ إذا اشتكىٰ نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده .

3 ـ استعيذوا بالله من شرِّ هذا ـ يعني القمر ـ ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب .

4 ـ استعيذوا بالله تعالىٰ من العين ، فإن العين حق .

❑ ❑ ❑

(1) صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (3508) ، والحاكم في المستدرك (4/ 215) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني .



وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (6).

موضوع السورة

الاستعاذة برب الناس ملك الناس إلهٰ الناس
من شر الشيطان اللعين الرجيم الوسواس الخناس

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ أَمْرُ الله تعالىٰ رسوله ﷺ بالاستعاذة به وهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس.

2 ـ الوسواس هو الشيطان الرجيم، يوسوس في صدور العالمين.

3 ـ الوسواس اللعين الخناس، يحاول بوسوسته إضلال ما استطاع من الجنة والناس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 6. **قوله تعالىٰ:** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

في هذه الآيات: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد أستعيذ وأستجير

برب جميع الخلق من الإنس والجن وغير ذلك ، فله الكبرياء وحده في السماوات والأرض وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو الملك لا يشاركه في ملكه أحد ، وهو الإلـه الحق فلا يستحق غيره العبادة ولا يجوز صرفها من دونه لأحد.

فقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ . ـ التجاء إلى الله الرب الملك الإلـه العظيم ، من شر الوسواس الرجيم.

قال الحافظ ابن كثير: (هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية والملك والإلـٰهية: فهو رب كل شيء ومليكه وإلـٰهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ولا يألوه جهداً في الخبال ، والمعصوم من عصمه الله).

قلت: وقد أمر الله بالاستعاذة من شر هذا الوسواس وهو الشيطان ، ولم يأمر سبحانه بلعنه وسبّه وشتمه ، فإنما هو ابتلاء من الله يسلطه على من اتبع هواه وأعرض عن دينه ، فالخلاص منه يكون بالاستعاذة بالله منه والالتجاء إليه بتعظيم دينه وشرعه.

يروي الديلمي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [لا تسبوا الشيطان ، وتعوذوا بالله من شره][(1)].

فالشيطان موكل ببني آدم ، وما من أحد إلا ومعه قرينه من الجن ، كما معه قرينه من الملك ، فهو في حالة توازن ما لم يُؤْثِر الهوى ، ويرغب أن يطغى.

روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده ، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [ما منكم من أحد ، إلا وقد وُكِّل به قرينُه من الجِنِّ وقرينُه من الملائكة. قالوا: وإياك؟ قال: وإيايَّ ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير][(2)].

قال ابن عباس: (ما من مولود إلا على قلبه الوسواس ، فإذا عقل فذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس ، قال: فذلك قوله: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الديلمي (4/ 148) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2422).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2814) ، كتاب صفات المنافقين. ح (69). باب تحريش الشيطان ، وبعثه سراياه لفتنة الناس ، وأن مع كل إنسان قريناً.

وفي رواية عنه: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس).

وقال مجاهد: (ينبسط ، فإذا ذكر الله خنس وانقبض ، فإذا غفل انبسط).

وقال قتادة: (هو الشيطان ، وهو الخنّاس أيضاً ، إذا ذكر العبد ربه خنس ، وهو يوسوس ويخنس).

وقال ابن زيد: (الخنّاس: الذي يوسوس مرة ويخنس مرة ، من الجن والإنس ، وكان يقال: شيطان الإنس أشد على الناس من شيطان الجن ، وشيطان الجن يوسوس ولا تراه ، وهذا يُعاينك معاينة).

وقيل بل هو الشيطان لا يزال يوسوس حتى يطاع ، فإن أطيع خنس.

فعن ابن عباس قال: (هو الشيطان يأمره ، فإذا أطيع خنس). وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: (ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن والفرح ، فإذا ذكر الله خنس).

قلت: ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن عاصم قال: سمعت أبا تَميمَة يحدِّث عن رَديف رسول الله ﷺ قال: عَثَرَ بالنبي ﷺ حِمارُه ، فقلت: تَعِسَ الشيطان! فقال النبي ﷺ: [لا تَقُلْ: تَعِس الشيطانُ ، فإنك إذا قلتَ: تَعِسَ الشيطانُ ، تعاظَمَ ، وقال: بِقُوَّتي صَرَعْتُهُ ، وإذا قلت: باسم الله ، تصاغَرَ حتى يصيرَ مثل الذباب](1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن سعيد المَقْبُرِيِّ ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ أَحَدَكمُ إذا كان في المسجد جاءه الشيطان فأَبَسَّ به كما يَبُسُّ الرجُلُ بدابته ، فإذا سَكَن له زَنَقَه ـ أو: أَلْجَمَه](2). قال أبو هريرة: (وأنتم تَرَوْنَ ذلك ، أما المزنوق فتراه مائلاً ـ كذا ـ لا يذكر الله ، وأما المُلْجَمُ ففاتِحٌ فاه ، لا يذكُرُ الله عَزَّ وجَلَّ).

---

(1) أخرجه أحمد في المسند (5/ 71) وإسناده قوي ، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير وقواه وقال: (تفرَّد به أحمد ، إسنادُه جَيِّدٌ قوي ، وفيه دلالةٌ على أن القلب متىٰ ذكر الله تصاغَرَ الشيطانُ وغُلِبَ ، وإن لم يذكر الله تعاظَمَ وغَلَبَ).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 330) من حديث أبي هريرة ، وإسناده حسن ، والمزنوق: المربوط بحبل يمنع من الجماح.

الحديث الثالث: أخرج أحمد والطيالسي وأبو داود بسند صحيح عن ابن عباس قال: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني أُحَدِّثُ نفسي بالشيء لأَنْ أَخِرَّ من السماء أحبّ إليَّ مِنْ أَنْ أتكَلَّمَ به. قال: فقال النبي ﷺ: الله أكبر الله أكبر، الحمدُ لله الذي رَدَّ كيدَه إلى الوسوسة][1].

وفي لفظ أبي داود: [إن أحدنا يجد في نفسه، يعرض بالشيء، لأن يكون حُمَمَةً ـ أي يصير فحماً ـ أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. المرادُ الشيطان الوسواس.

قال ابن جرير: (يعني بذلك الشيطان الوسواس، الذي يوسوس في صدور الناس: جِنِّهم وإنْسهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾. فجعل الجن في هذه الآية ناساً، كما جعلهم في الآية الأخرى رجالاً فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فالجن سماهم مرة ناساً ومرة رجالاً.

قلت: ومن وساوسه أن يعرض للمسلم في أوقات أحوج ما يحتاج فيها إلى الخشوع والتدبر واستحضار القلب فيجهد ليفسد على المؤمن طمأنينته وخشوعه. وتفصيل ذلك:

أولاً ـ يعرض له في الصلاة إذا وقف بين يدي الله سبحانه:

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: [إن الشيطان إذا سمع النداء أحالَ له ضُراطٌ حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجعَ فوسوس][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 235)، والطيالسي (2704)، وأبو داود (5112)، وابن حبان (147) وإسناده صحيح على شرطهما. وانظر صحيح سنن أبي داود (4264).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (389)، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك في صحيح الإمام مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال رسول الله ﷺ: [ذلكَ شيطانٌ يقال له خِنْزَب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً][1]. قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله تعالى عني.

ولذلك قال الله في سورة «فصلت»: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وهذا نبينا ﷺ عرض له الشيطان أثناء صلاته فاستعاذ بالله منه فأمكنه الله منه.

روى مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: [قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك، ثم قال: ألعنُك بلعنة الله ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شَيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: إن عَدُوَّ الله إبليس جاء بشهابٍ من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذُ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنُك بلعنة الله التامة، فاستأخر ثلاثَ مرات، ثم أردت أن آخذه، والله لولا دعوةُ أخي سليمان لأصبح مُوثقاً تلعب به ولدان أهل المدينة][2].

ورواه البخاري بلفظ آخر من حديث أبي هريرة وفيه: [إن الشيطان عَرَض لي فَشَدَّ علي ليقطع الصلاة عليَّ، فأمكنني الله تعالى منه فَذَعْتُهُ ـ أي خنقته ـ ولقد هممت أن أوثِقَهُ إلى سارية حتّى تُصبحُوا فتنظروا إليه فذكرتُ قولَ سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فرده الله خاسئاً][3].

ثانياً ـ يعرض له بطريق الإسلام والهجرة والجهاد لتخور عزائمه بوساوسه فيركن إلى الدنيا.

يروي الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن سبرة بن أبي فاكه عن النبي ﷺ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2203)، كتاب السلام: باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (542)، كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه، وجواز العمل القليل في الصلاة.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (461) كتاب الصلاة. وكذلك (3284) كتاب بدء الخلق.

قال: [إنَّ الشيطان قَعَدَ لابن آدمَ بأطرقِهِ ، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تُسلِم وتذرُ دينكَ ودينَ آبائِكَ وآباءِ آبائك؟! فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة: فقال: تهاجِرُ وتدعُ أرضك وسماءَكَ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرسِ في الطِّولِ ـ حبل طويل يشد به الفرس بيده ويربط لوتد فيدور ويرعى دونما يذهب ـ! فعصاه فهاجرَ ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهِدُ فهو جهدُ النفس والمال ، فتقاتلُ فتقتلُ فتنكحُ المرأةُ ويقسم المالُ؟! فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخِلَهُ الجنة ، ومن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقَصَتْهُ دابَّتُـه كان حقاً على الله أن يدخله الجنة][1] .

ثالثاً ـ يعرض له فيوسوس له بالشبهات ليفسد عليه دينه:

يروي الطبراني بسند صحيح عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان يأتي أحدكُمْ فيقول: مَنْ خلق السماء؟ فيقول: الله ، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله ، فيقولُ: من خلق الله؟! فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل آمنت بالله ورسوله][2] .

ورواه أحمد من حديث عائشة بلفظ: [إنّ الشيطان يأتي أحدَكم فيقول: مَنْ خَلَقَكَ؟ فيقول الله ، فيقولُ: فمن خلقَ الله؟! فإذا وجدَ أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسله ، فإن ذلك يذهبُ عنهُ] .

رابعاً ـ يعرض له عند طعامه وشرابه ليشاركه فيه:

روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الشيطان ليستحل الطعامَ الذي لم يُذْكرِ اسمُ اللهِ عليه ، وإنه لمّا جاء بهذا الأعرابي ليستحِلَّ به فأخذت بيده ، وجاء بهذه الجاريةِ ليستحلَّ بها فأخذت بيدها ، فو الذي نفسي بيده إن يده في يدي مع أيديهما][3] .

---

(1) حديث صحيح. رواه أحمد والنسائي وابن ماجة. انظر صحيح الجامع الصغير (1648).

(2) حديث صحيح. رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط. وانظر «مجمع الزوائد» (341). ومسند أحمد (5/ 214) ، (6/ 258) بإسناد حسن ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (116) ، (117). وأصله في صحيح البخاري (2/ 321) ، وصحيح مسلم (1/ 84).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2017) ، ورواه أبو داود والنسائي في سننهما. وانظر «صحيح الجامع الصغير» ـ حديث رقم ـ (1649).

وكذلك في صحيح الإمام مسلم عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان يحضُرُ أحدَكم عند كل شيء مِنْ شأنِه ، حتى يحضرَه عندَ طعامه ، فإذا سقطت من أحدكم اللقمةُ فليُمِط ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلْها ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابِعَهُ ، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة][1].

خامساً ـ يعرض له ليحرش بينه وبين إخوانه:

روى أحمد ومسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قد أيِسَ أن يعبده المصلون[2] ولكن في التحريش بينهم][3].

سادساً ـ يعرض له ليزين له الفواحش والمنكر:

روى أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قال: وعِزتك يا رب لا أبرحُ أُغوي عبادكَ ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني][4].

والمؤمن مطالب إزاء هذا الزحف الشيطاني ، والهجوم المتتابع الإبليسي ، بالالتجاء إلى الله ليكف عنه شر المردة ، فإنه لا يكفهم عن بني آدم إلا الله ، وقد جعلهم فتنة للبشر ليختبر بذلك دينهم وصدقهم ، ومطالب أيضاً بكف الشبهة عن نفسه أمام الناس لئلا يصطاد عليها الشيطان فيأكل عليها ويشرب ، ويشيع الفاحشة والضغينة في الأرض.

وقد صنَّف الإمام مسلم في صحيحه باباً سماه: «باب إذا مرّ برجل ومعه امرأة فليقل إنّها فلانة» وذكر تحته حديث أم المؤمنين صفية بنت حُيي رضي الله عنها قالت: [كان النبي ﷺ معتكفاً ، فأتيتُه أزوره ليلاً ، فحدثته ، ثم قمت لأنقلب فقام معي لِيقلبني ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2033) ح (135) ـ كتاب الأشربة. وانظر كذلك ح (134).

(2) زاد مسلم وحده: «في جزيرة العرب».

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 138) ، والترمذي (3/ 127) ، وأحمد (3/ 313) ، وأخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (2/ 609) ، وله شواهد كثيرة.

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد (3/ 29) ، والحاكم (4/ 261) ، والبيهقي في «الأسماء» (ص 134) ، وأورده الهيثمي في «المجمع» (10/ 207). والذهبي في «العلو» (ص 116). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (104).

وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، فَمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال النبي ﷺ: على رِسْلِكما إنها صفية بنتُ حيي ، فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: إنّ الشَيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً ، أو قال: شيئاً][1] .

تم تفسير سورة الناس
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
مساء يوم السبت 14 ـ ذي الحجة ـ 1426 هـ
الموافق 14 / كانون الثاني / 2006 م

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ما سأل سائل بمثلهما ، ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما .

2 ـ لا تسبوا الشيطان وتعوذوا بالله من شره .

3 ـ الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن غفل وسوس .

4 ـ إن الشيطان قد أيِسَ أن يعبده المصلون ولكن رضي في التحريش بينهم .

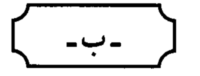
5 ـ إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرحُ أُغوي عبادَكَ ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني .

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2175) ـ كتاب السلام ـ الباب السابق الذكر .

طرف الحديث الجزء/ الصفحة

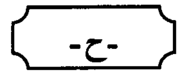
ـ أ ـ


- ب -

ـ ت ـ

- ث -

- ج -



- خ -

ـ د ـ

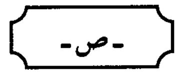
- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

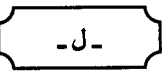


- ض -

- ف -

- ق -

- ك -


- ل -

- م -

- ن -

ـ هـ ـ

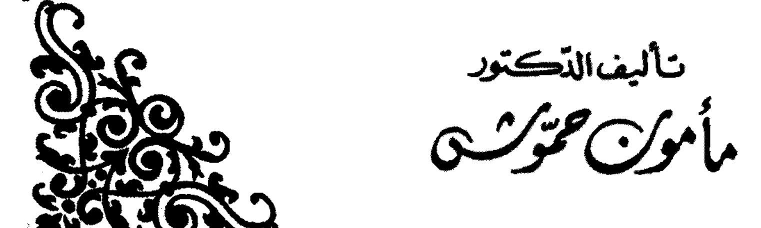
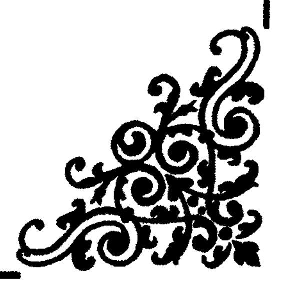
- ي -

أصلُ الدِّينِ والإيمانِ

عِندَ ٱلصَّحابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ لَهُمْ بإِحسانْ

دراسةٌ تحليليّةٌ منهجيّةٌ شاملةٌ
لأصول الإيمان ومنهج التوحيد ومسائل العقيدة
على منهاج الوحْيَين : القرآن والسّنة الصّحيحة

الجزء الأوّل

تأليف الدكتور
مأمون حمّوش

السيرة النبوية

على منهج الوحيين القرآن والسنة الصحيحة

دراسة تحليلية منهجية فقهية شاملة

في محاولة لإسقاطها على الواقع المعاصر

المجلد الثالث

تأليف

الدكتور مأمون حموش



على منهج الوحيين

القرآن والسنة الصحيحة

تأليف الدكتور

مأمون حموش

السياسة الشرعية

على منهج الوحيين

القرآن والسنة الصحيحة

دراسة تحليلية منهجية شاملة

لأصول وضوابط السياسة الشرعية

تأليف

الدكتور مأمون حموش

منهج الوحيين

في معالجة زلل النفس وتسلط الجن

دراسة تحليلية منهجية لأسباب تسلط الجن

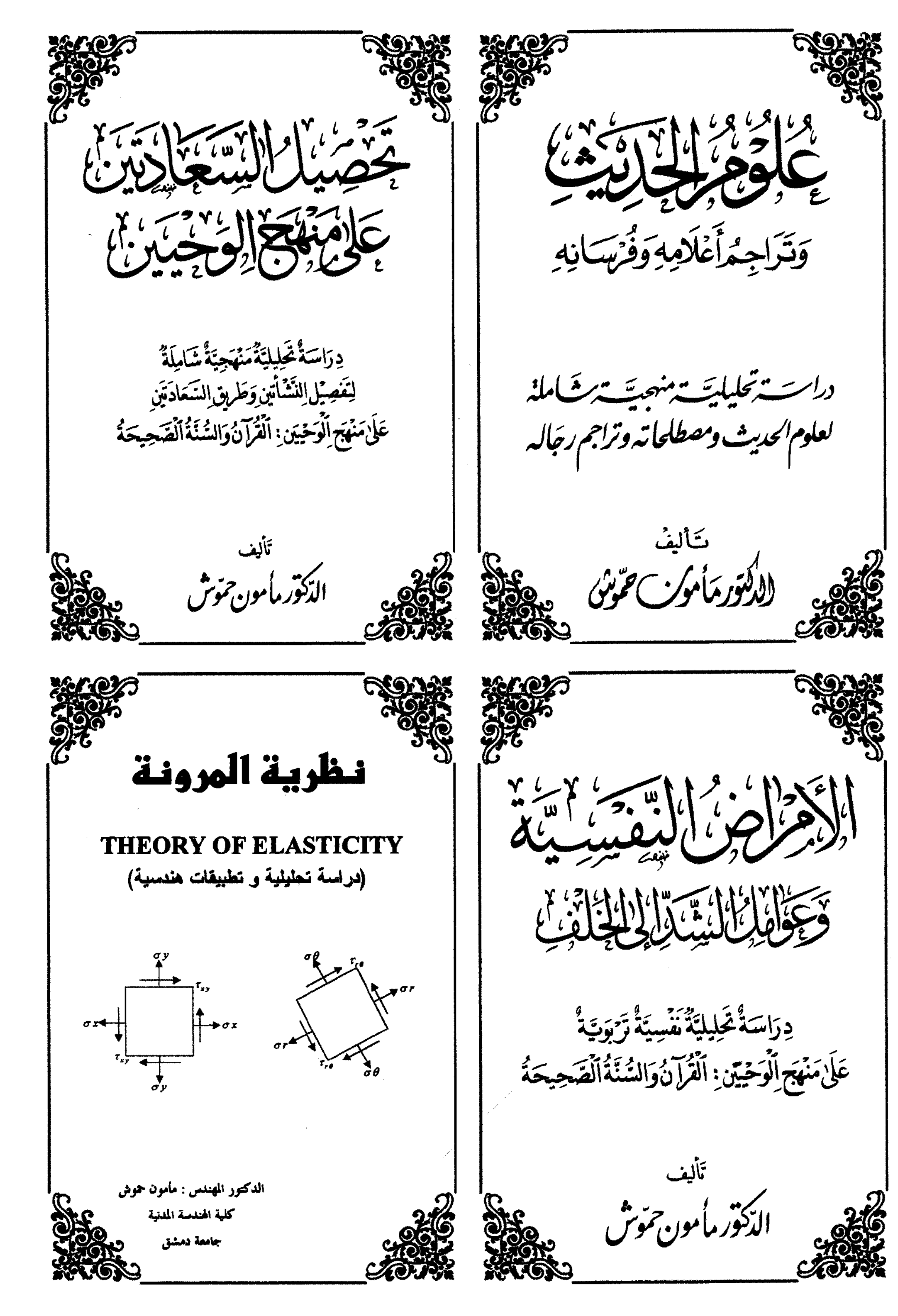
والمس والسحر والإصابة بالعين

على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة

الوقاية والعلاج

تأليف

الدكتور مأمون حموش


علوم الحديث
وتراجم أعلامه وفرسانه
دراسة تحليلية منهجية شاملة
لعلوم الحديث ومصطلحاته وتراجم رجاله
تأليف
الدكتور مأمون حموش
تحصيل السعادتين
على منهج الوحيين
دراسة تحليلية منهجية شاملة
لتفصيل النشأتين وطريق السعادتين
على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة
تأليف
الدكتور مأمون حموش
الأمراض النفسية
وعوامل الشد إلى الخلف
دراسة تحليلية نفسية تربوية
على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة
تأليف
الدكتور مأمون حموش
نظرية المرونة
THEORY OF ELASTICITY
(دراسة تحليلية و تطبيقات هندسية)
الدكتور المهندس : مأمون حموش
كلية الهندسة المدنية
جامعة دمشق

